

الدكتور أبو القاسم سعد الله

تاريخ الجزائر الثقافي

الجزء السادس

1830 - 1954

دار البصائر
الجزائر

تاريخ الجزائر الثقافي

الاعمال الكاملة

للدكتور أبو القاسم سعدالله



الجزء السادس

1830 - 1954



دار البصائر

الجزائر

طبعة خاصة

دار البصائر

2007

ردمك : 5 - 29 - 887 - 9961 - 978

الايداع القانوني : 2007 - 3314

دار البصائر

للنشر والتوزيع

50 شارع طرابلس – حسين داي- الجزائر

الهاتف/فاكس : 27/25 – 36 – 77- 021

الفصل الأول

الاستشراق والهيئات العلمية والتنصير

بسم الله الرحمن الرحيم

يهتم هذا الفصل بعناصر هامة في المسيرة الثقافية للجزائر. أولها الاستشراق الذي هو أحد مظاهر الغزو الثقافي الفرنسي. وسنتتبع خطوات الاستشراق الفرنسي من 1830 لنعرف المراحل التي مرّ بها والنشاط الذي قام به رجاله وعلاقته بالإدارة الاستعمارية وبالدراسات العربية والاسلامية عموماً. وقد عمل مع المستشرقين فريق من الجزائريين سنذكر بعضهم أيضاً.

وكانت (مدرسة الجزائر) عنصراً أساسياً في هذه المسيرة الثقافية. وعبارة (مدرسة الجزائر) أطلقت عند البعض على تأثير الجزائر في الأدب الفرنسي وتلوينه بلون بيئتها ونكهتها. ولكننا هنا نستعمل عبارة (مدرسة الجزائر) للدلالة على الانطلاقة الفكرية للاستشراق الفرنسي والدراسات العلمية والبحث العلمي الناتج عن مراجعة تجربة التعليم وأثر حرب السبعين في الحياة الفرنسية، وقد بدأت هذه المدرسة في الظهور منذ آخر السبعينات عند إنشاء مدرسة الآداب العليا 1879 وهي التي أصبحت كلية الآداب سنة 1909. فهي مدرسة فكرية أثرت في الأدب والفن واللغة والتاريخ والعلاقات بين الجزائريين والفرنسيين، وفوق ذلك كله أطلقت الاستشراق الفرنسي من عقاله فانطلق يدعم الجهود الاستعمارية في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى وإفريقيا بل وفي الوطن العربي. وكان انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر بالجزائر سنة 1905 أحد المظاهر البارزة لتلك الانطلاقة.

ومن عناصر هذا الفصل نشاط الكنيسة ودورها منذ 1830، وتكوين أسقفية الجزائر سنة 1838، وجهود ديبوش وبافي ولافيجري في إحياء الكنيسة الكاثوليكية التي مضى على وفاتها إثنا عشر قرناً. فكان الاعتداء على

المساجد بهدم معظمها وتحويل بعضها إلى كنائس، وإلى اسطبلات، وإلى مراقد للجنود. ثم إعادة بقايا القديس أوغسطين في احتفال ضخم حضره عشرات القساوسة من فرنسا، ومشاركة الجيش في ذلك والصلوات والاستعراضات والزيارات المرافقة، ثم إحياء أسماء أخرى مثل جيرونيمو[1] وسان سيبريان، وإنشاء فرق سميت فرق الآباء والأخوات البيض، وانتشارهم في أقاصي الجبال والصحارى يحملون الصليب إلى سكانها ملفوفاً في قوارير الأدوية ولفائف الكتب والأغذية والملابس. وهم في كل ذلك تحت حماية ورعاية الدولة الفرنسية وجيشها وقوانينها الاستثنائية القاسية ضد الجزائريين.

كما سنتناول في هذا الفصل اللجان والجمعيات العلمية. فقد تشكلت منذ آخر الثلاثينات من القرن الماضي لجان علمية رسمية لدراسة أوضاع الجزائر في مختلف مظاهرها. وتعين فيها عدد من الخبراء، ومنهم العارفون باللغات والاجتماعيات والتاريخ. وقد ظهرت مجلدات وإحصاءات ذات قيمة كبيرة، وكانت مساعدة على ظهور الدراسات الاستشراقية في وقت لاحق. كما كانت أعمال لجنة 18 لسنة 1892، وكراسات لجنة الاحتفال المئوي سنة 1930 مصدراً هاماً لمعرفة الجزائر من الوجهة الفرنسية. ويلحق بهذا العنصر أيضاً تلك الجمعيات المتخصصة في التاريخ والآثار والجغرافية ونحوها والتي انطلقت من الخمسينات في القرن الماضي. ومن أوائلها جمعية قسنطينة الأثرية وجمعية الجزائر التاريخية. وكلتاهما أسس مجلة ظلت مصدراً لا غنى عنه للباحثين حتى بعد اختفائهما.

---

(1) شخص تحدث عنه هايدو، وزعم أنه شهيد الكنيسة. وجد جسمه مبنياً في حائط قلعة الـ24 ساعة عند هدمها. وحملت عظامه إلى جامع كتشاوة (الكاتيدرالية) من قبل أسقفية الجزائر، وأعلن أنه قديس. وقد أيد بيربروجر (وهو أثري) ذلك الادعاء. ويقول مارسيل ايمريت ان السكان يشكون في قدسيته، كما أن المؤرخين المعاصرين وقفوا ضد نظرية بيربروجر انظر: ايمريت «تنصير مسلمي الجزائر» في «المجلة التاريخية» 1960، ص 65 ـ هامش 5.

الاستشراق ومراحله

ليس غرضنا هنا التأريخ للاستشراق الفرنسي، وإنما يهمنا علاقة هذا الاستشراق باحتلال الجزائر، وهو ما ظهر جلياً منذ سنة 1830[1]، وهذا لا يعني أنه لم يكن للمستشرقين الفرنسيين اهتمام سابق بالجزائر، إننا إذا عدنا إلى كتابات ديفونتين وبيسونيل وفانتوردي بارادي سنجد النواة لذلك الاهتمام. وعند تأزم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة 1827 وبداية التفكير في الحملة ضد حكومة الداي، ترجم الفرنسيون أعمال زملائهم الأروبيين والأمريكيين عن الجزائر أيضاً، مثل مؤلفات الدكتور شو والقنصل شيلر، والأديب بانتي. ولعبت مدرسة اللغات الشرقية عندئذٍ دوراً مهماً.

وكان زعيم هذه المدرسة بل زعيم الاستشراق الفرنسي في ذلك الوقت هو سيلفستر دي ساسي De Sacy الذي اعتبره بعضهم هو «أبو الاستشراق» و«منشىء علم الاستشراق في أوروبا». فقد بقي دي ساسي نصف قرن في خدمة الاستشراق، وتخرّج على يديه تلاميذ من أنحاء فرنسا وأوروبا. وكان اهتمامه بالشرق قديماً وحديثاً. ولد دي ساسي سنة 1757، وتعلّم العربية والسريانية والكلدانية والعبرية منذ صغره. وقد عيّن مدرساً في مدرسة اللغات الشرقية الحيّة، وأصبح سنة 1824 مديراً لها. وعمل سنوات طويلة في وزارة الخارجية بدون أجر (1806، 1811 في عهد نابليون). وكان يترجم نشرات الجيش وبيانات نابليون بهدف إثارة المسلمين ضد روسيا الأرثوذكسية وكان وزيرا الخارجية والحربية يستشيرانه في كل ما يتعلق بالشرق. ومن جهة أخرى ترأس دي ساسي الجمعية الأسيوية منذ تأسيسها سنة 1822. وقد ظل مكانه شاغراً إلى أن ملأه أرنست رينان الذي كاد يغطي عليه، سيما في ميدان الفيلولوجيا، إضافة إلى السمعة العلمية.

---

(1) قيل إن نشأة الاستشراق عموماً ترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر 1312، عندما انعقد مجلس كنسي في فيينا للنظر في إنشاء حلقات (كراسي) اللغات العربية والعبرية والاغريقية والسريانية في باريس واكسفورد وغيرها.

ودي ساسي لم يزر الجزائر، ولكن (البيان) الذي وزعه الفرنسيون بالعربية عشية الحملة على الأعيان في الجزائر كان من إنشائه أو تحت إشرافه[1]. وبعد الاحتلال شجع دي ساسي إنشاء الدراسات العربية في الجزائر بإشراف تلاميذه، وعلى رأسهم لويس برينييه الذي سنتحدث عنه. وكان يبدي اهتمامه بهذه الدراسات ويشجع عليها حتى أنه أبدى ملاحظات على قاموس ت. رولان دي بوسي. الذي سماه (القاموس الصغير العربي ـ الفرنسي والفرنسي ـ العربي) سنة 1836. وكان رولان دي بوسي مديراً للمطبعة الحكومية في الجزائر عدة سنوات، وقد أرسل نسخة من قاموسه إلى دي ساسي وطلب منه رأيه فيه. فكتب إليه هذا رسالة ونقداً يتعلق بكيفية النطق لبعض الحروف في العامية الجزائرية مقارنة مع النطق العامي في المشرق. كما سأل في رسالته عن نسخة سمع بها أنها كاملة من تاريخ ابن خلدون عند عائلة روسو، وسمع بعد ذلك أن هذه العائلة قدمت النسخة إلى المكتبة الفرنسية، وقد طلب دي ساسي التأكّد من هذا الخبر[2]. وقد توفي دي ساسي سنة 1838، بعد أن كان قد أشار بتلميذه برينييه ليكون رئيساً لحلقة (كرسي) اللغة العربية في الجزائر.

ضمن الحملة الفرنسية جاء عدد من المترجمين والكتّاب والفنانين المهتمين بحياة الشرق والرومانتيكيين المغامرين. وعلى أثر نجاح الحملة واحتلال مدينة الجزائر انطلق كل فريق في مجال عمله. وقد احتاجت الإدارة الجديدة إلى المترجمين بالخصوص، لأنهم هم الواسطة بينها وبين السكان[3]. كما وظفت المترجمين من يهود الجزائر الذين كانوا عادة يقومون

(1) عن البيان انظر دراستنا عنه في أبحاث وآراء، جـ1.

(2) حوليات معهد الدراسات الشرقية، الجزائر، المجلد 3، سنة 1937، ص 1 ـ 5. مع صورة دي ساسي على المعدن. انظر أيضاً عبد الرحمن بدوي (دائرة معارف المستشرقين).

(3) سنذكر نماذج من المترجمين «المشارقة»، أي ذوي الأصول المصرية والسورية، وكذلك بعض اليونانيين والدنماركيين وغيرهم من الجنسيات، إضافة إلى المترجمين الفرنسيين.

بالترجمة بين المسؤولين الجزائريين والأجانب في الماضي. وبدأت آلية الإدارة تتحرك في كل اتجاه وقع احتلاله. واحْتِيج إلى فريق آخر من التراجمة والخبراء فالتحقوا من فرنسا مدعومين من مدرسة اللغات الشرقية، وكلما تحرك الجيش في اتجاه كان معه الخبراء والمترجمون. ونشأت بلدية مدينة الجزائر، ثم توالت نواة الإدارة في وهران وقسنطينة وعنابة الخ.. وتكوّن (المكتب العربي) العسكري في المدن والقرى. وأصبح الذين يتولونه من المستعربين العسكريين، ومعهم مترجمون أيضاً. وأخذ اهتمام المكاتب العربية بالسكان يزداد للتعرف على عاداتهم ولهجاتهم وتراثهم وأنسابهم وطرق معاشهم. وحصلوا من أجل ذلك على وثائق ومخطوطات نادرة. ثم شرعوا في حركة جمع وترجمة وتأليف اعتبرت هي الأولى من نوعها في مسيرة الاستشراق في الجزائر.

وقد واكبتهم في الحياة المدنية حركة أخرى موازية ومكملة. وتمثل ذلك في جمع المخطوطات وإنشاء المكتبة العامة بالجزائر على يد أدريان بيربروجر وهو أيضاً من علماء الآثار. وقد أجرى هو وغيره، مثل كوفي، حفريات عديدة، معظمها عن آثار الكنيسة وبقايا الرومان. وسنذكر دور بيربروجر في موضع آخر. كما قام الفنانون برسم رسومات في الجزائر، منطلقين من رغبتهم في معرفة حياة الشرق التي قرأوا عنها في ألف ليلة وليلة[1]. كما أن جوني فرعون ثم برينييه انطلقا في تدريس اللغة العربية، الفصحى والعامية، للفرنسيين لكي يكون في استطاعتهم الاتصال المباشر مع السكان. وهذا هو ما أطلق عليه فيما بعد إسم «كرسي اللغة العربية».

وهكذا انطلقت الإدارة العسكرية (المكاتب العربية) والإدارة المدنية (بخبرائها وفنانيها ومترجميها) في معرفة حياة الجزائر العربية الاسلامية، أو معرفة الشرق من خلالها، كما كانت تصوره الدراسات الاستشراقية إلى ذلك

(1) انظر فصل المنشآت الثقافية وفصل الفنون، وقد تحدثنا في الفصل الأخير عن أثر الجزائر والشرق في الفن الفرنسي.

الحين. فالجزائر المتميزة عن الشرق أو الجزائر «الفرنسية» لم تظهر بعد في التصورات الفرنسية. ولذلك يمكننا القول إن انطلاقة الاستشراق الفرنسي كانت عامة في هذه المرحلة. ولعل الميزة الوحيدة لها كونها تستعمل العامية الجزائرية كأداة اتصال وليس الفصحى أو اللهجات العربية المشرقية. ومما يدل على عدم وجود لهجة جزائرية في مدرسة اللغات الشرقية قبل الاحتلال أن (البيان) الذي أشرنا إليه قد كتب بعربية مطعمة بعامية المشرق وليس بعامية المغرب، وهو كما قلنا من صياغة دي ساسي.

وقبل أن نستعرض تطور الدراسات الاستشراقية نود أن نذكر المراحل التي مرت بها، وهي ثلاثة على الأقل. المرحلة الأولى من الاحتلال إلى إنشاء المدارس العليا سنة 1879، والثانية من هذا التاريخ إلى الاحتفال المئوي بالاحتلال، سنة 1930، والمرحلة الثالثة منذ هذا التاريخ إلى الاستقلال، سنة 1962. وتهمنا هنا المرحلتان الأوليان بالخصوص.

وقد تميزت المرحلة الأولى بجهاز ترجمة قوي على يد العسكريين في معظم الأحيان، وهناك مترجمون إداريون وآخرون قضائيون أيضاً[1]. وقد نتج عن أعمال هؤلاء وأولئك أكداس من النصوص والعرائض والوثائق، واشتغل المترجمون/ المستشرقون في اللجان العلمية والجمعيات المتخصصة. ونشروا أبحاثهم في شكلها العام والبسيط للتعريف بالشعب المحتل في مختلف عصوره ومظاهره. وكانت حلقات (كراسي) اللغة العربية، وعددها ستة، تسند هذه الفرق العاملة في الميدان. كما أن أساتذة الكراسي كانوا هم الرواد لحركة الاستشراق في هذه المرحلة. فقد كانوا هم أيضاً يعلّمون اللغة، ويشرفون على امتحانات الترجمة، ويترجمون النصوص، ويعرّفون بالمدن والآثار والمخطوطات والسير، وفيهم من أصدر القواميس. وأثناء هذه المرحلة زار الجزائر عدد من الأدباء والمفكرين والفنانين الفرنسيين المهتمين بحياة الشرق، وكانت زياراتهم بدعم وتشجيع

(1) عن الت رجمة انظر فصلاً آخر.

من الحكومة الفرنسية نفسها. كما ظهرت أعمال اللجان العلمية التي تشرف عليها الحكومة، والمدارس الرسمية ذات الطابع الشرقي أو العربي الفرنسي، مثل المدارس الشرعية الثلاث وكوليج الجزائر ثم قسنطينة. وخلال هذه المرحلة بدأ اهتمام المستشرقين الفرنسيين في مدرسة اللغات الشرقية وفي الكوليج دي فرانس بالعربية الجزائرية، مثل أعمال الأب بارجيس وبيهان[1].

ومن الواضح أن الاستشراق هنا كان مرتبطاً منذ البداية بإدارة الاحتلال، وقد ازدادت هذه الرابطة وثوقاً وبلورة أثناء المرحلة الثانية 1879 ـ 1930. فأثناء هذه المرحلة وقعت مراجعة شاملة في فرنسا لتجربة التعليم العالي وأدخل نظام (السيمنار) الالماني، وأعيد تنظيم السوربون. لأن نقداً لاذعاً ظهر عندئذٍ لتجربة التعليم باعتبارها هي السبب في هزيمة فرنسا سنة 1870. كما ظهرت مدرسة دورخايم 1858 ـ 1917 في علم الاجتماع والاستشراق. وأنشىء كرسي للغة العامية الجزائرية في باريس ثم آخر للبربرية. وظهرت مدرسة الآداب التي تحولت إلى كلية الآداب سنة 1909 عند إنشاء جامعة الجزائر وانعقد في الجزائر المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين تحت إشراف رينيه باصيه عميد مدرسة الآداب وعميد الاستشراق الفرنسي في الجزائر عندئذٍ.

وفي سنة 1906 انطلق الاهتمام بالمغرب الأقصى، وظهرت (مجلة العالم الاسلامي) برئاسة ألفريد لوشاتلييه، الذي سبق له العمل في الجزائر كرئيس للمكتب العربي (العسكري) في ورقلة، كما أعيد تنظيم الكوليج دي فرانس وأنشئت فيه عدة كراسي للمجتمعات المستعمرة. وكان الاستشراق الفرنسي في الجزائر هو المغذي لذلك حتى أن معظم الأساتذة الذين تولوا

---

(1) نشر بارجيس عدة أعمال عن تلمسان، وقد زار الجزائر. أما بيهان فقد أصدر سنة (1851) قاموساً بعنوان (عناصر اللغة الجزائرية) وجهه لخدمة السواح، واعتمد فيه كما قال، على أسلوب التعليم في المشرق وليس الأسلوب الفرنسي. نشرت القاموس مطبعة الحكومة ـ باريس، 1851، 183 صفحة.

هذه الكراسي كانوا من مدرسة الجزائر. وإذا كان بعض المستشرقين في فرنسا نفسها لهم نظرة واسعة للمجتمعات الاسلامية، فإن المستشرقين في الجزائر كانوا مرتبطين، كما ذكرنا، بالإدارة الاستعمارية ارتباطاً سياسياً، وكانوا مدعومين من قبل لجنة (إفريقيا الفرنسية) التي كان مقرها باريس، ومن قِبَل زعماء الكولون أمثال يوجين إيتيان ومن الجامعات الفرنسية، ومن اللوبي الاستعماري عموماً[1].

أما المرحلة الثالثة والتي لا تهمنا كثيراً هنا، فقد تميزت بالتوسع في إنشاء المعاهد المتخصصة كمعهد الدراسات الشرقية، ومعهد الدراسات الصحراوية، ثم معهد الدراسات العربية. وتحويل المدارس الشرعية الثلاث إلى ثانويات مزدوجة. وبقاء الصلة الوطيدة بين الاستشراق والسلطة الاستعمارية مع انفتاح في الأفق كالتعامل مع النخبة الجديدة التي ظهرت في القيادات السياسية في المستعمرات. ويبدو أن الاستشراق الفرنسي قد عرف هزة عنيفة مع الحرب العالمية الثانية، وثورة الجزائر، والحرب الباردة. ومن أبرز المستشرقين في هذه المرحلة هنري بيريز، وليفي بروفنصال، وكانتينو، وروبير برونشفيك.

حلقات اللغة العربية

عرفت الجزائر ستة دروس للعربية، سميت بالكراسي أو الحلقات. وكانت موجهة إلى الفرنسيين، مدنيين وعسكريين، لتعليمهم اللغة العربية الفصحى والعامية. وهذه الحلقات (الكراسي) بدأت في ديسمبر 1832 وانتهت بدمجها في مدرسة الآداب والمدارس الشرعية الثلاث سنة 1879. وكان ذلك كله عبر ما أسميناه بالمرحلة الأولى لنشاط الاستشراق.

---

(1) ادمون بورك الثالث E. Burke III «الأزمة الأولى للاستشراق: 1890 ـ 1914» في كتاب (معرفة المغرب «العربي») إشراف جان كلود فاتان، باريس 1984، ص 223.

1 ـ الحلقة الأولى: بدأت في العاصمة على يد جوني فرعون[1]، وهو سوري/ مصري الأصل، وبرينييه، وكومباريل، وريشبي، وهوداس، على التوالي.

2 ـ حلقة قسنطينة: وتولاها فينيار، وشيربونو، وريشبي، ومارتن، وموتيلانسكي، وكور، على التوالي.

3 ـ حلقة وهران: وتولاها هادمان، وكومباريل، وهوداس، وماشويل، وديلفان، وموليراس، وبيل.

4 ـ حلقة كوليج الجزائر: (متوسطة) وتولاها قورقوس 1846.

5 ـ حلقة الكوليج الامبريالي بالعاصمة: وقد تولاها الدكتور بيرون، 1857.

6 ـ حلقة مدرسة الآداب، وقد تولاها هوداس، 1863.

تأسست حلقة اللغة العربية في مدينة الجزائر بعد مضي ثلاث سنوات ونصف على الاحتلال. فقد حل بالجزائر خلال شهر مايو، (1832) المتصرف المدني، جنتي دي بوسي، وكان ذلك في عهد الحاكم العام الدوق دي روفيقو، الذي عرف عهده بالارهاب والتعسّف، وهو الذي أقام حكم البوليس في الجزائر ووقعت في عهده مذبحة العوفية قرب وادي الحراش. وكان الاحتلال ما يزال يتأرجح ولم يستول الفرنسيون إلا على مدينة الجزائر ووهران وعنابة. ولذلك كان لقب دي روفيقو هو (قائد الممتلكات الفرنسية في إفريقيا). هذا هو الجانب العسكري للموضوع. أما الجانب المدني فقد تولاه دي بوسي الذي حمل معه مشروعاً من عدة عناصر:

(1) سنذكر نبذة عن حياة معظم هؤلاء الأساتذة. وقد درسنا الدور التعليمي لهذه الحلقات في فصل التعليم الفرنسي والمزدوج. ونقتصر هنا على دور المستشرقين فيها وأبرز عناصرهم.

1 ـ دعم جريدة (المونيتور) لنشر أخبار الحكومة والقرارات الرسمية. والواقع أن هذه الجريدة قد أسسها دي روفيقو يناير 1832، قبل وصول دي بوسي.

2 ـ إنشاء مكتبة عمومية من المخطوطات العربية التي استولى عليها قوّاد الجيش أو جمعها المرافقون للحملات العسكرية. وهذه النقطة ستتحقق على يد كلوزيل وبيربروجر بعد قليل 1835.

3 ـ تأسيس مطبعة عربية ـ فرنسية حكومية لطبع المنشوراث الرسمية.

4 ـ فتح ثلاث حلقات، إثنتان بالفرنسية للجزائريين واليهود، وثالثة بالعربية للفرنسيين. وهذه هي التي تعنينا الآن.

ولكي يفتح دي بوسي الحلقة الأخيرة طلب من وزارة التعليم العمومي موافاته بأستاذ ماهر فعينت له يوسف يعقوب، وكان من مواليد القاهرة لأب أرميني وأم سورية. وكان عندئذٍ يتولى كرسي اللغة العربية في كوليج لويس لوقران بباريس. ولا ندري إن كان للمستشرق دي ساسي يد في هذا التعيين. إنما مجيء يعقوب إلى الجزائر لم يتحقق لأنه توفي قبل التحاقه بها. وكان يعقوب طاعناً في السن، ومن المصريين الذين رافقوا الحملة الفرنسية على مصر بعد فشلها سنة 1801. فماذا يفعل دي بوسي؟

لقد لجأ إلى جوني فرعون، وهو مصري أيضاً من أب سوري الأصل، إسمه الياس فرعون. وكان الياس مترجماً في الجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر. وبعدها أخذ إبنه معه إلى فرنسا، حيث تعلّم (الابن) في مدرسة اللغات الشرقية، ومن أساتذته فيها دي ساسي. وقد مارس التدريس والاشراف على بعثة الضباط المصريين في فرنسا، وكان في طولون عند تحرك الحملة ضد الجزائر فانضم إليها، وأصبح مترجماً وكاتباً لقائدها، دي بورمون. ثم سمي مترجماً عسكرياً سنة 1831، وكان عمره عندئذٍ 28 سنة فقط. وأصبح مترجماً من الدرجة الأولى سنة 1839، وكان يعمل في الحكومة العامة بالجزائر بعد إنشائها. وقبل أن يكلفه دي بوسي

بدرس اللغة العربية قد نشر أول كتاب في النحو العربي تنشره المطبعة الرسمية، يوليو، 1832، وهو باللهجة العامية الجزائرية التي لا ندري كيف تعلمها في ذلك الظرف القصير. وقد أحرز الكتاب على نجاح لدى المهتمين. والتف حول جوني فرعون الضباط الفرنسيون الأوائل الذين سيشرفون على المكاتب العربية والإدارة الفرنسية في الجزائر، أمثال: لامورسيير، وبيليسييه دي رينو، ودوماس، وماري.

هذه الخبرة والسمعة جعلت دي بوسي يتبنى درس فرعون بالعربية في ديسمبر 1832. وهو الدرس الموجه للفرنسيين، كما قلنا. وهكذا يكون تعليم العربية للأوروبيين في الجزائر قد بدأ على يد مصري - سوري - فرنسي، وهو جوني فرعون. ولم يكن غرض الفرنسيين تعليم الفصحى ولا المحافظة على العربية المكتوبة أو تثقيف أهلها، وإنما كان التعرف على الجزائريين بوسيلة الاتصال الوحيدة بهم وهي العربية الدارجة، ثم العمل على نشر الفرنسية بينهم بالمؤثرات الأخرى غير التعليم. وقد عبرت عن ذلك صراحة رسالة الدوق دي روفيقو إلى وزير الحربية الفرنسي. فقد جاء فيها: إن الجزائر لن تكون حقاً فرنسية إلا إذا أصبحت فيها اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة[1]، وأصبحت الفنون والعلوم التي عرفتها فرنسا وشرفت بها، معروفة في الجزائر أيضاً، وقُضِي على الجهل والتعصب اللذين كبلا العقل العربي فلم يظهر كل مواهبه. إن الهدف الأسمى من كل المحاولات التي تقوم بها الإدارة في التعليم هو «إحلال الفرنسية محل العربية، باعتبار اللغة الفرنسية هي لغة السلطة ولغة الإدارة. ومن ثمة فستنتشر اللغة الفرنسية

---

(1) يتبين من ذلك خطأ من اعتقد أن الفرنسيين كانوا «مترددين» بين الاحتفاظ بالجزائر والتخلي عنها إلى سنة (1834). ذلك أن تصرفات وتصريحات كلوزيل 1830 - 1831 والدوق دي روفيقو 1832 - 1833 لا تترك مجالاً للشك و«التردد» حول عزم الفرنسيين على «فرنسة» الجزائر منذ الوهلة الأولى. أما لجنة التحقيق التي أصدرت قرارها سنة 1834 بالاحتفاظ بالجزائر، فلم تزد على تأكيد حقيقة موجودة.

بسرعة بين الأهالي، لا سيما إذا جاء الجيل الجديد أفواجاً للتعلم في مدارسنا»[1].

إن الخطة قد رسمها دو روفيقو لجوني فرعون ولكل من جاء بعده. فقد أصبح فرعون، بالإضافة إلى دروسه، هو رئيس مكتب الدوق المذكور وتحت حمايته. وقد نشر عدة أعمال لغوية وتاريخية وتشريعية عن الجزائر والجزائريين. وتوفي صغير السن في فرنسا، سنة 1848[2]. كان جوني فرعون يقوم بدرسين أحدهما عام والآخر خاص، وكان الأول مجانياً والثاني بأجر. وكانت الدروس أيام الثلاثاء والخميس والسبت، لمدة ساعة واحدة في كل درس عام. وكان ذلك في بناية وفرتها له الإدارة، ولكن التزاحم على درسه جعله يغير المكان عدة مرات بحثاً عن مكان يتسع للزبائن. ولكن هذا الدرس توقف فترة طويلة، ذلك أن لجنة التحقيق الرسمية التي عينتها الحكومة الفرنسية قد وصلت في سبتمبر 1833، وكان جوني فرعون هو الكاتب والمترجم لها، ودام تنقلها في البلاد عدة أسابيع، فلم يستأنف فرعون درسه إلا في ديسمبر 1833.

ولكن الفرنسيين لم يؤسسوا حلقة للغة العربية في الجزائر، رغم محاولات جوني فرعون، إلا على يد لويس جاك برينييه سنة 1837. وكان دي ساسي هو الذي أشار به على وزارة التعليم العمومي. وافتتح برينييه أول درس له في الجزائر خلال يناير من العام المذكور. وسمي درسه الدرس العام للعربية، وكان يعتبر في الوثائق الفرنسية من التعليم العالي. وقد طال عهد برينييه وشارك في مختلف النشاط الاستشراقي مع زميله بيربروجر وغيره، إلى

(1) فيرو (المترجمون العسكريون)، مرجع سابق، ص 229.

(2) نفس المصدر، ص 232، وكذلك اوغست كور «ملاحظات على كراسي اللغة العربية»، ص 24. انظر دراستنا «المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية في الجزائر»، في (مجلة مجمع اللغة العربية)، القاهرة، عدد 64. وكذلك هنري ماسيه (الدراسات العربية في الجزائر)، ص 4. وقد ولد جوني فرعون بالقاهرة سنة 1803، فيكون عمره عند وفاته، 43 سنة.

وفاته 1869. فهو بحق مؤسس مدرسة الاستشراق الفرنسي المهني في الجزائر، وقد تخرّج على يديه عشرات المترجمين والباحثين، وأوصل العربية الدارجة إلى الكثير من الفرنسيين الأوائل مما جعلهم يتصلون بالجزائريين بأقرب طريق، كما نشر برينييه عدة معاجم وخطوط ونصَوص.

ولد برينييه في مونتارجيس بفرنسا سنة 1814، وعمل في الطباعة، ونشأ على حب اللغات الشرقية، ثم جاء إلى باريس لدراستها على أكبر شيوخها في مدرسة اللغات الشرقية، أمثال سيلفيستر دي ساسي، وكاترمير، وجوبير، وغارسان، ودي طاسي، وبيرسوفال، الخ. وكان يحذق العربية والتركية والفارسية. وعندما تولى كرسي العربية في الجزائر لم يجد كتباً يعتمد عليها فأوصى تلاميذه باقتناء كتب أساتذته. وقد نشرت جريدة (المونيتور) أول درس ألقاه برينييه في الجزائر. وجاءت فيه عدة نقاط تستحق التوقف لأنها تعبّر عن برنامجه الذي دام حوالي أربعين سنة. فكان درسه غير خاص بالدارجة الجزائرية بل شاملاً للعاميات العربية في مختلف بيئاتها. وهناك ضرورة لدراسة العربية دراسة جادة لأن الهدف هو ربط الصلة مع الأهالي لكي يتعودوا على اعتبار الفرنسيين غير غزاة ولكن حماة لمصالحهم، كما قال، وإنما هم ناشرون للمدنية بينهم، هَمُّهُم دراسة آدابهم للوصول إلى منابع أفكارهم وعاداتهم. وقال إن العربية هي لغة الأهالي، مستعملة في العلاقات العائلية والتجارية، وهي لغة غنية ورشيقة، وأن للفصحى مؤلفات في القواعد، أما العامية فلا. وفي مقالة نشرها في (المجلة الآسيوية) لسان حال الاستشراق الفرنسي، سنة 1838، قال برينييه إنه من الضروري أن يقضي الدارس سنة كاملة في تعلم اللغة العربية المكتوبة (الفصحى) قبل دراسة العامية[1].

ومعظم حصص برينييه كانت كالتالي: ثلاث حصص أسبوعية للتدريب

(1) من الذين دعوا إلى تعلم العربية الفصحى المستشرق هوداس الذي أصبح المفتش العام للمدارس الشرعية الثلاث. وقد توفي 1916.

على الفصحى والعامية، وحصة خاصة بالنحو والإملاء والأسلوب، وحصة خاصة بشرح نصوص أدبية عربية، وبعض النصوص العلمية. ثم حصة لترجمة الرسائل والنصوص الرسمية والكتابات المتداولة. وبعد مضي فترة عليه في الجزائر بدأ يصدر المؤلفات التي تخدم تلاميذه، ومنها النحو والإنشاء وشرح النصوص، والمجموعات المختارة. وربما سنتناول مؤلفاته في مكان آخر. كما شارك برينييه في الترجمة، والإشراف على امتحانات المترجمين سنوات طويلة[1].

وبعد حوالي عشر سنوات على إنشاء كرسي العربية في مدينة الجزائر وترسيخ قدم الاستشراق الفرنسي بها، وبعد بداية التفكير في إنشاء معهد عربي - فرنسي ومراجعة المنظومة التعليمية، افتتحت ثلاث حلقات أخرى في اللغة العربية في كل من العاصمة وقسنطينة ووهران، أي سنة 1846. كانت هذه السنة تمثل بداية التراجع للمقاومة الوطنية التي كان يتولاها الأمير عبد القادر، وكانت تمثل من جهة أخرى القمة في سمعة المارشال بوجو، الحاكم العام، الذي استصدر أمراً ملكياً 1845 بجعل العربية إجبارية في كل توظيف ابتداء من يناير 1847. فمن هذه الزاوية يجب النظر إلى إنشاء الحلقات الجديدة للغة العربية وإلى توسيع قاعدة الترجمة والبحث في مجال الاستشراق. وكان درس برينييه يجلب عدداً كثيراً أو قليلاً حسب موجات المهاجرين الأوروبيين واهتماماتهم.

فقد لوحظ أن عدد الحاضرين للدرس أخذ ينخفض بالتدرج حتى وصل إلى 21 طالباً في الدارجة وعشرة في الفصحى. وكانت الهجرات الأوروبية قبل 1844 تضم أناساً غير متعلمين بصفة عامة، ولكن ابتداء من هذا التاريخ، وطمعاً في الوعود التي أعطيت بعد محاصرة المقاومة والقضاء على زمالة الأمير 1843، جاء عدد من المهاجرين المتعلمين آملين في البقاء.

---

(1) توفي في جوان (يونيو) 1869 وشيعت جنازته في الجزائر يوم 24 منه، انظر المبشر، أول يوليو، 1869. وفي هذا العدد النص الكامل لتأبين شيربونو له.

ولذلك ارتفع عدد الحضور في الحلقة سنة 1845 إلى عشرين فرداً. وكانت هذه السنة أيضاً سنة المرسوم الملكي المشار إليه. وقد طلبت السلطة (على لسان المفتش آرطو) من برينييه أن يحضّر مسابقة للحلقة العربية العامية المخطط إنشاؤه في كوليج الجزائر، وهذا الكوليج كان في مستوى مدرسة متوسطة تضم أبناء الجالية الفرنسية. وقد نجح فيها (مارس 1846 السيد قورقوس[1]، وهو الذي تولى الحلقة المذكورة. وفي شهر مايو، جرت مسابقة أخرى لملء حلقة مماثلة لحلقة برينييه (تعليم عال) في قسنطينة، فنجح فيها فينيار Vignard ولكنه لم يسبق في الوظيف الجديد إلا بضعة أشهر فقط. كان فينيار مترجماً عسكرياً، ولم يكن من المستشرقين بالمعنى المهني للكلمة. وقد سمى فينيار من جديد مترجماً أساسياً ملحقاً بديوان القائد العام لإقليم قسنطينة.

ولذلك خلفه في حلقة اللغة العربية في قسنطينة مستشرق متخرج من مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وهو شيربونو، وذلك في 21 ديسمبر 1845. كان شيربونو يعلّم القراءة والكتابة ويعرض قواعد النحو العربي طبقاً للدراسات الفرنسية الكلاسيكية. وكذلك يعرض حياة المؤلفين، مفضلاً أولئك الذين يقترب أسلوبهم من الحياة اليومية. وأما الحصص فقد كانت شبيهة بحصص زميله برينييه، وقد ربط شيربونو علاقات مع الأسر المثقفة في قسنطينة والعائلات العلمية والصوفية، أمثال أحمد العطار والمكي البوطالبي ومصطفى بن جلول، واستطاع أن ينشر بينهم اللغة الفرنسية أيضاً، ذلك أن من مهمة أستاذ حلقة اللغة العربية الموجهة للفرنسيين، أن ينشر الفرنسية أيضاً بين المتعلمين الجزائريين.

ولد شيربونو سنة 1813 في فرنسا، وقد تخرج، كما ذكرنا، من مدرسة اللغات الشرقية الحية. ونشر عدة مقالات في المجلة الآسيوية، وكان عضواً مؤسساً لجمعية الآثار بقسنطينة سنة 1853، وظل كاتباً لها سنوات طويلة. ولم تقتصر جهوده على التعليم، بل كان يبحث وينشر. وسنتناول

---

(1) انظر عنه لاحقاً.

مؤلفاته بعد قليل. فقد اهتم بتاريخ الجزائر العربية الاسلامية من مختلف الوجوه، ولا سيما الآثار والتاريخ والتراجم واللغة. وفي 1863 انتقل إلى العاصمة مديراً للكوليج الامبريالي خلفاً لبيرون. وفي 1871 أصبح مديراً لجريدة (المبشر)، وعند إعادة تنظيم المدارس الشرعية ـ الفرنسية الثلاث كلف شيربونو بتفتيشها ابتداء من سنة 1876، وكانت هذه المدارس تسمى خطأ (المدارس الاسلامية للتعليم العالي) ذلك أن مستواها في الواقع ليس سوى تعليم متوسط. ثم عاد شيربونو إلى مدرسة اللغات الشرقية سنة 1879 ليحل محل البارون دوسلان في تدريس اللغة العربية المغربية، كما كانت تسمى. وقد استمر على علاقة بالجزائر يراسل مجلاتها ويشارك في عضوية جمعياتها، إلى وفاته في ديسمبر 1882 وهو في باريس[1].

وقد استمرت حلقة اللغة العربية في قسنطينة على يد آخرين (ريشبي، ومارتن). وفي عهد الأخير منهما أصبحت الحلقة جزءاً من مدرسة قسنطينة الشرعية ـ الفرنسية بعد تنظيم المدارس الثلاث. وقد تداول على مدرسة قسنطينة عدد من المستشرقين البارزين أمثال موتيلانسكي، وكور، ودورنون ،وسان كالبر.

أما حلقة وهران فقد افتتحت أيضاً في 22 ديسمبر 1846. وعين عليها هادمار الذي لم يكن من المستشرقين المحترفين، وإنما كان مترجماً في إدارة المالية، وكان هادمار يقوم بثلاثة دروس أسبوعياً، بمعدل ساعة واحدة لكل درس. وقد تركت له حرية التصرف حسب الامكانات والحضور. فلم يوضع له برنامج محدد. وكان ذلك شأن زملائه أيضاً في الجزائر وقسنطينة. ولذلك كان الحضور عادة مكثفاً في البداية وضعيفاً في نهاية السنة. كما أن شخصية الأستاذ كانت تلعب دوراً رئيسياً في جلب الجمهور أو تنفيره، وكذلك فصول السنة. ولا ندري ما إذا استطاع هادمار أن يقدم أيضاً درساً بالفرنسية

---

(1) انظر عنه هنري ماسيه (الدراسات العربية في الجزائر)، مرجع سابق، وكذلك ايرنست ميرسييه في (روكاي)، 1882، ص 413 ـ 418.

للجزائريين كما فعل زميله شيربونو في قسنطينة. لكن المؤكد أن لغة التدريس هي العربية الدارجة، وكانت قلة الحاضرين تُعْزَى عادة إلى صعوبة اللغة العربية ـ الدارجة ـ وليس إلى ضعف الأستاذ أو عدم رغبة الفرنسيين في التلقي والاستفادة(1).

وقد بقي هادمار على رأس حلقة وهران حوالي عشر سنوات، ثم خلفه زميلاه كومبريل فهوداس، ثم ماشويل. لكن في عهد هوداس وقع دمج الحلقة المذكورة في مدرسة تلمسان الشرعية الفرنسية، بعد إعادة النظر في محتوى وتوجيه المدارس الثلاث. وقد لعب هوداس دوراً هاماً في حياة الاستشراق الفرنسي بالجزائر. ولد سنة 1840 في (لواري)، ودرس في مدرسة اللغات الشرقية. فهو من المستشرقين بالمهنة. جاء الجزائر سنة 1863 في قمة ما سمي بعهد المملكة العربية، وقد بقي إلى سنة 1884. ثم تولى كرسي اللغة العربية في الكوليج الامبريالي سنة 1863، كما عمل أستاذاً في ليسيه الجزائر الذي افتتح سنة 1860. ثم تولى حلقة اللغة العربية بوهران سنة 1869وقد بقي هناك إلى سنة 1877 عند إعادة تنظيم المدارس الثلاث، وفي هذه السنة تولى حلقة الجزائر، ولكنه لم يبق فيها إلا قليلاً إذ عين على رأس مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880، وهو الذي افتتح فيها درس اللغة والأدب العربي. وبعد وفاة شيربونو حل هوداس محله في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس. وظل هوداس يزور الجزائر ويهتم بحياة الاستشراق فيها، ومن ذلك مرافقته للوزير كومبس سنة 1896. ولعله حضر أيضاً المؤتمر الدولي للمستشرقين سنة 1905.

منذ أن حل بالجزائر كان هوداس ينشر نصوصاً عربية موجهة لتلاميذه،

---

(1) المرسوم الملكي يجعل العربية ضرورة في التوظيف ابتداء من يناير 1847، لم ينفذ لعدة أسباب، منها أن بوجو تخلى عن منصبه كحاكم عام، ومنها أن لويس فيليب نفسه قد أطيح به في فبراير 1848. وقد عزا (كور) عدم تطبيق المرسوم الملكي الخاص باللغة العربية إلى كون الشبان الموظفين لا يبذلون جهداً واضحاً لدراسة لغة تبدو صعبة وجافة في البداية. انظر كور ص 43.

وكان وهو في وهران مهتماً أيضاً بإخراج الكتب الموجهة للتعليم المدرسي، ولكنه قام بعمل مضن رفقة زميله (مارتيل) الذي كان من مدرسة الحقوق، وهو ترجمة (تحفة الحكام) لابن عاصم. وقد اشتغل فيها هوداس قرابة العشر سنوات. وبعد رجوعه إلى باريس، كان يبحث وينشر أعمالاً ليست بالضرورة حول الجزائر، ففيها ما هو حول الأدب العربي عموماً والسودان ومنطقة المغرب العربي، بل إنه ترجم نصوصاً من صحيح البخاري. ومما انتقده عليه زملاؤه المستشرقون أنه كان يتعجل النشر لأعماله ولا يدقق كثيراً[1].

قلنا إن هوداس تولى حلقة اللغة العربية الجديدة في المعهد السلطاني (الكوليج الامبريالي) بالجزائر سنة 1863. وكان ذلك على إثر مسابقة جرت في 10 يوليو من نفس العام. وفاز فيها هوداس. وإلى ذلك الحين كان مدير المعهد هو نقولا بيرون الذي تولى الإدارة منذ 1857. وكانت الحكومة الفرنسية تفكر، كما ذكرنا، في إنشاء كوليج عربي - فرنسي في باريس سنة 1846، يستقبل أبناء الجزائر، ويكون بوتقة تنصهر فيها عناصرهم مع العناصر الفرنسية قبل أن يعودوا مؤهلين إلى الجزائر لنشر الأفكار الفرنسية. وكان الفرنسيون قد فعلوا شيئاً من ذلك مع أبناء مصر في عهد محمد علي باشا. وكانت هذه الفكرة تتماشى مع سياسة بوجو في الجزائر. وقد اقترح لإدارة هذا الكوليج الدكتور بيرون الذي سبق له العمل في مصر، والذي صادف وجوده في باريس سنة 1846. وقد قبل بيرون بالمسؤولية الجديدة، وترك مدرسة الطب المصرية، ولكن مشروع الكوليج ظل يتعثر إلى أن استقال بوجو وانهزم الأمير ووقعت الثورة الفرنسية 1848، وأخذت السلطات الفرنسية الجديدة تهتم بالجزائر من جانب آخر، وهو الادماج في فرنسا، فاشتغل بيرون بترجمة مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي ضمن أعمال لجنة (اكتشاف الجزائر العلمي). وكان على بيرون أن يرجع إلى مصر سنة 1853 كطبيب.

---

(1) عنه انظر هنري ماسيه (الدراسات العربية..) وعن مرافقته للوزير كومبس انظر فصل التعليم الفرنسي والمزدوج.

لكن فكرة الكوليج العربي/ الفرنسي رجعت سنة 1557 على أن يكون في الجزائر وليس في باريس. وكان المارشال راندون هو الحاكم العام عندئذٍ. وقد احتل الفرنسيون آخر معاقل المقاومة وهي جرجرة والجنوب. ونادي راندون على بيرون ليكون المدير للكوليج فقبل. وكان معاونه هو شارل فيرو، وهو المترجم العسكري الشهير في وقته. وقضى معه أربع سنوات. ولا ندري إن كان بيرون قد أدخل اللغة العربية في الكوليج، ولعل الذي كان يتولى تدريس العامية الجزائرية هو فيرو، لأن الطلبة كانوا مختلطين (عرب وفرنسيون). ومنذ 1864 سمي بيرون مفتشاً للمدارس الشرعية الثلاث، ولكنه وجد التنقل من أجل ذلك في الأقاليم الثلاثة عسيراً عليه لكبر سنه. فتقاعد سنة 1872. وتوفي في ضواحي باريس سنة 1876.

لقد كان بيرون من المستشرقين البارزين. ولد 1798. وبعد أن أكمل دراسته الاجتماعية مارس التدريس في ثانوية لويس لوقران، واضطره حال أسرته إلى التخلي عن ذلك، واهتم بالطب وتأثر بالحركة السان سيمونية، وأصبح طبيباً، وحضر دروس بيرسوفال في مدرسة اللغة الشرقية، فحذق العربية والفارسية والتركية والجاوية، وقد دعاه كلوت بيه (الفرنسي)، مؤسس مدرسة الطب في مصر، للعمل معه هناك فذهب إلى مصر، وواصل فيها دراسة اللغات العربية. وحاضر في الفيزياء والكيمياء والعلوم الباطنية (الكلينيك الداخلي)، ونشر عدة رسائل بالعربية عن المواد المذكورة. وترجم عدة أعمال، وظل كذلك إلى أن عرضت عليه إدارة الكوليج العربي ـ الفرنسي في باريس كما ذكرنا. وأثناء وجوده بالجزائر نوه به حسن بن بريهمات كثيراً، ولعله قد تأثر به[1].

والمعروف أن المعهد السلطاني في الجزائر قد أغلقته حكومة

(1) ماسيه (الدراسات العربية. .)، مرجع سابق. انظر أيضاً ترجمة حسن بن بريهمات. وعن دور المعهد السلطاني (الكوليج) في التعليم، انظر فصل التعليم الفرنسي والمزدوج.

الجمهورية الثالثة انتقاماً من منشئه نابليون الثالث، صاحب فكرة المملكة العربية في الجزائر، التي لم تهضمها الجمهورية ولا المستوطنون. وقد ضم طلابه إلى ليسيه الجزائر، كما ضم فرعه في قسنطينة إلى التعليم الثانوي في نفس المدينة.

أما آخر حلقات اللغة العربية فهي حلقة مدرسة الآداب العليا التي أنشئت سنة 1880، وهي المدرسة التي سيلعب فيها كل من هوداس، وماسكري، ورينيه باصيه، دوراً هاماً. وهي المعنية بتعبيرنا (مدرسة الجزائر) الاستشراقية التي كانت تقدم للإدارة الاستعمارية كل التسهيلات العلمية في مختلف المجالات.

مدرسة الآداب

مدرسة الجزائر هنا هي مدرسة الآداب العليا (كلية فيما بعد) وهي أيضاً مدرسة الاستشراق الفرنسي في الجزائر، بعد انطلاقته الجديدة التي أشرنا إليها في بداية الفصل. افتتحت، إلى جانب مدرسة العلوم والحقوق والطب، سنة 1880[1]. وتعاونت المدارس الأربع على دفع الاستشراق في خدمة الإدارة الاستعمارية، كل في مجال اختصاصه، وأبرزها في موضوعنا هي مدرسة الآداب. ولكن مدرسة الحقوق أيضاً قدمت خدمة كبيرة للإدارة والاستشراق بالوقوف على النصوص الفقهية والتشريعات الاسلامية، وكان أساتذتها يتعاونون مع زملائهم الآخرين في الترجمة والنشر، وكانوا يخدمون بالخصوص جانب القضاء الفرنسي الذي استولى بالتدرج على صلاحيات القضاء الاسلامي، ومن أشهرهم زيس ومارسيل موران. وقد ظهر في مدرسة الطب مستشرقون اهتموا أيضاً بالتراجم والنصوص العربية أمثال غبريال كولان. ونفس الشيء يقال عن مدرسة العلوم.

---

(1) مدرسة الطب قديمة تعود إلى 1857. انظر فصل التعليم الفرنسي والمزدوج، وكذلك فصل العلوم.

أول من تولى كرسي اللغة العربية في مدرسة الآداب هو هوداس، وقد ساعده فيه عالم جزائري عميق المعلومات استفاد منه الاستشراق الفرنسي إلى أقصى الحدود ولم يستفد منه وطنه، وهو بلقاسم بن سديرة[1]. وفي نفس السنة 1880 حل بالجزائر أستاذ يافع ولكنه طموح، وهو رينيه باصيه، خريج مدرسة اللغات الشرقية الحية، فعهد إليه بتدريس الأدب العربي. وتوطدت العلاقات بين هوداس وباصيه وتوحدت نظرتهما في خدمة الإدارة والاستشراق. وكانت تونس قد احتلت سنة 1881. فبادر الاثنان برحلة إليها سميت «بعثة علمية» فاطلعا فيها على المخطوطات وأحوال التعليم والحياة الفكرية. ولكن هوداس غادر الجزائر سنة 1882 ليتولى كرسي العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، على إثر وفاة شيربونو. وتولى باصيه مكان هوداس في الجزائر. وارتبطت علاقات قوية بين باصيه وابن سديرة، الذي كان، لولا الميز الاستعماري، أولى منه بالكرسي. ولكن باصيه جعل من ابن سديرة ومن زميله عمر (سعيد) بوليفة[2]، أداتين لإنجاز مشروعه الاستشراقي العريض.

قلنا إن باصيه قد خلف زميله هوداس في تدريس اللغة العربية، وحل إدمون فانيان محل باصيه في تدريس الأدب العربي. وبقي الرجلان، باصيه وفانيان، حوالي أربعين سنة في خدمة الاستشراق، وبينما اندمجت الدراسات العربية على هذا النحو في العاصمة، إضافة إلى المدرسة الشرعية ـ الفرنسية التي يتولاها أيضاً مستشرقون آخرون، نجد مدرسة قسنطينة التي كانت تسمى الكتانية عندئذٍ، يتولاها المستشرق مارتن إلى أن مات سنة 1889. وقد خلفه عليها مستشرق بارز آخر هو موتيلانسكي، الذي ربط إسمه بعملين على الأقل: ترجمة الفقه الإباضي وخدمة البعثات الاستكشافية الفرنسية نحو الصحراء. وقد ظل موتيلانسكي على رأس مدرسة قسنطينة إلى وفاته سنة

(1) ترجمنا لابن سديرة في فصل آخر.
(2) ترجمنا له في فصل آخر.

1906. أما مدرسة تلمسان فقد عاشت هي أيضاً عهد الاندماج والاستشراق النشيط منذ 1879 فقد تولاها أولاً ماشويل سنوات قليلة، ولكنه نقل سنة 1881 إلى تونس ليتولى شؤون التعليم فيها، ومن ثمة نرى هذه العلاقة الوطيدة بين الإدارة وأساتذة الدراسات العربية. وقد خلفه على مدرسة تلمسان ديلفان. وعندما انتقل هذا إلى مدرسة الجزائر (الثعالبية)[1] خلفه موليراس في تلمسان. ثم تداول على مدرسة تلمسان عدد آخر من المستشرقين أبرزهم ألفريد بيل الذي طال عهده فيها وكان تلميذاً لباصيه. وهكذا تجاوبت أصداء الاستشراق من غرب البلاد إلى شرقها. وسنتحدث عن إنتاج المستشرقين بعد قليل.

كان طبيعياً أن تكون العاصمة هي القلب النابض لحركة الاستشراق، لعدة أسباب، منها وجود المدارس العليا الأربع فيها، ثم الجامعة، ووجود مدرسة خامسة (المدرسة الشرعية) يشرف عليها أيضاً المستشرقون رغم أنها مخصصة لتخريج القضاة والمدرّسين. وبالتدرّج تحولت هذه المدرسة من مدرسة شرعية إسلامية عربية اللغة إلى مدرسة استشراقية أيضاً، سيما بعد 1895 عندما تغيرت برامجها. وليس هناك بين هذه المدارس تنافس، كما قد تتخيل بل تكامل مطلق. وقد أضيف إلى مدرسة الجزائر (الثعالبية) قسم عال ابتداء من سنة 1895، مما جعلها تخدم المصالح الاستعمارية أكثر من ذي قبل، ورغم وجود نخبة عربية اللسان والهوى أمثال المجاوي وابن سماية وابن زكري، فإن إطار الاستشراق كان طاغياً على الثعالبية. ومن الأسباب أيضاً قرب هذه النواة النشيطة للاستشراق من موقع القرار، فالحكومة العامة،

---

(1) لم يطلق هذا الاسم عليها إلا سنة 1904 عند تدشين المدرسة الجديدة في عهد الحاكم العام جونار، وكانت بالقرب من ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبي. ونحن نطلق مدرسة الآداب على المدرسة الفرنسية التي تحولت إلى كلية والمتصلة بالتعليم الجامعي الفرنسي، والمدرسة الثعالبية وأحياناً مدرسة الجزائر فقط على تلك المتخصصة في الدراسات العربية والاسلامية. وهي إحدى المدارس الثلاث الشرعية ـ الفرنسية. فيجب عدم الخلط بين هذه الأسماء.

وإدارة الشؤون الأهلية، والمجالس النيابية المختلفة، والمكتبة العامة، والجامعية كلها كانت في العاصمة.

لا يمكن أن نفهم بحق نشاط وفعاليات الاستشراق الفرنسي خلال هذه الفترة 1880 ـ 1924 إلا بإعطاء نبذة عن حياة رينيه باصيه. ذلك أن اسمه وحده يذكر المرء بأعمال مدرسة ثم كلية الآداب خلال أربعين سنة في خدمة الاستشراق الفرنسي في الجزائر وتسخيره لخدمة الإدارة الاستعمارية بكل حرص. وقد أثر باصيه تأثيراً كبيراً على جيلين على الأقل من تلاميذه الفرنسيين والجزائريين الذين سنذكر بعضهم. وانتصب أولاً لتدريس العربية ثم البربرية، وجنّد جنداً من المخلصين له ووظفهم للتدريس والبحث والتأليف والنشر، وكانت الحكومة العامة والدوائر (الكولونيالية) تسانده بالمال للقيام بأبحاثه الخاصة وأبحاث تلاميذه وبعثاتهم ورحلاتهم. وتوّجته سنة 1905 برئاسة مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر في الجزائر. وظل على مجده إلى وفاته سنة 1924.

ولد باصيه سنة 1855 في فرنسا. وأظهر منذ أولياته اهتماماً باللغات الشرقية، ولا سيما العربية. وقد اشتغل حوالي سبع سنوات في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ومدرسة الآداب العليا قبل أن يأتي إلى الجزائر سنة 1880 كان عمره عندئذٍ 44 سنة، في أوج عطائه وطموحه. ومنذ وصوله تولى تدريس الأدب العربي القديم (الجاهلي) ونشر كتاباً في ذلك. ثم تولى تدريس اللغة العربية بعد سفر هوداس إلى فرنسا، كما أشرنا. ويقال عنه إنه ظل وفياً في منهج التدريس لتجربته في المدرسة العليا بفرنسا، ومن حيث التوجه كان مستشرقاً محترفاً، أما سياسياً فقد كان مقتنعاً بخدمة العلم لسياسة الإدارة الاستعمارية. وفي سنة 1885 أصبح من الأساتذة المرسمين، ثم تولى منذ 1894 إدارة المدرسة العليا في الجزائر على إثر وفاة إميل ماسكري الذي سنترجم له. وبعد تحويل المدرسة إلى كلية سنة 1909 أصبح باصيه عميداً لها إلى وفاته. فإذا ذكرت مدرسة الآداب أو كلية الآداب خلال هذا العهد الطويل فكأنما ذكر إسم رينيه باصيه.

بلغت مجموع أعمال باصيه في (الميلانج) الذي يحمل إسمه، حوالي أربعين صفحة، بين كتاب وبحث ومقالة ومراجعة. وقد صنفت إلى أبواب، لأنها وإن كانت كلها في مجال الاستشراق، فقد تنوعت إلى أعمال لغوية، وأدبية وقصصية وتاريخية، ودينية، وفولكلورية. كان باصيه قد دَرَس في مدرسة اللغات الشرقية، العربية والتركية والفارسية والحبشية، ثم أضاف البربرية بعد وصوله الجزائر، وبناء على التقارير التي نشرها فقد كان يعرف الهوسة (الحوصة) أيضاً (لغة شمال نيجيريا) ويقول أحد تلاميذه، وهو ألفريد بيل، إنه تعلم اللغات الافريقية بعد حلوله بالجزائر وقد نشر أكثر من 25 عملاً حول الدراسات البربرية. وبدأ ذلك منذ سنة 1883. واعتمد باصيه كثيراً على تعاون تلاميذه في الجهود الضخمة التي بذلها والمنشورات العديدة التي نشرها، وكان ابن سديرة من علماء اللغة العربية والبربرية، فاستفاد منه، كما استفاد من تلميذه بوليفة في البربرية أيضاً. وقد أحدث باصيه كرسي البربرية في كلية الآداب وتولى تدريسها. وتخرج على يديه مستشرقون أمثال بيل وديستان وديبارمي. كما أن إبنه (هنري باصيه) قد ورث عنه سيرته وتتلمذ عليه في الاستشراق والبربرية أيضاً.

وقد صادف وجود باصيه على هذا النشاط والاندفاع في الجزائر مخططات فرنسا لاحتلال المغرب الأقصى. ولذلك سخر جهوده وجهود تلاميذه لمساعدة هذه المخططات. وبعد احتلال المغرب تواصلت هذه الجهود أيضاً. فقد قام بوليفة وبيل وإسماعيل حامد ونهليل وغيرهم بزيارات وبعثات إلى المغرب، وكتب كل منهم عن موضوع كلفه به، دراسات لغوية، وآثار، وتشريع، ونحو ذلك. كما ظهرت المساهمات في (الأرشيف المراكشي) الذي ظهرت منه عدة أجزاء، وهو عمل جماعي ضخم، اشتمل على تراجم ونوازل وأنساب وإدارة ونحوها. وظهرت أيضاً في (مجلة العالم الإسلامي) التي كان يصدرها المعهد العالي للدراسات المغربية (المراكشية)، ووصل تلاميذ باصيه إلى موريطانيا وإلى السينغال ووسط إفريقيا مبعوثين من قبل الحكومة الفرنسية، ومن هؤلاء أسماء بعض الجزائريين، معلمين

ومترجمين. ومن تلاميذه الذين أرسلوا أيضاً في مهمة إلى المغرب الأقصى محمد بن أبي شنب، كما كان ابن شنب هو العضد الأيمن لباصيه في الدراسات العربية والمخطوطات والعادات واللغة (وكان ابن أبي شنب عارفاً أيضاً بعدة لغات)، وهو الذي عينه باصيه مساعداً له في مدرسة ثم كلية الآداب. والغالب أن يكون محمد صوالح من تلاميذه أيضاً. ويقول تلميذه بيل لقد استفادت إدارة احتلال المغرب من إدارة الجزائر ـ الاختصاصيون، والتقنيون، والمسائل الأهلية لإدارة ودراسة المغرب، وقد جندت لذلك مجموعة من تلاميذ باصيه، منهم ديستان، وعمر (سعيد) بوليفة، وبيارني، ولاوست، وهنري باصيه، وأندري باصيه[1].

كان باصيه يتجول في الجزائر بحثاً عن المكتبات والمخطوطات. وهي عدَّة المستشرقين. وقد ترك وصفاً لفهارس المكتبات في بعض الزوايا والمناطق، وقدم وصفاً لبعضها في مؤتمرات المستشرقين. كما تحدث في هذه المؤتمرات عن الدراسات البربرية والافريقية عبر عدة سنوات. وسنشير إلى ذلك. وهذه العلاقة بين باصيه وحكومة الجزائر والمستشرقين العالميين هي التي سهلت سنة 1905 انعقاد المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين في الجزائر. وقد صادف انعقاده مرور ربع قرن على تأسيس مدرسة الآداب في الجزائر. وهي ذكرى لها أكثر من معنى بالنسبة للاستشراق الفرنسي. لأن إنشاء (مدرسة الجزائر) كان تعبيراً عن انطلاقته الكبرى. وكان باصيه، رغم وجود غيره، الأداة الفاعلة في ذلك، فقد كانت له سمعة بعيدة المدى خلال الـ 45 سنة التي قضاها في الجزائر. وقد حضر بعض المؤتمرات الاستشراقية قبل ذلك، منها مؤتمر كوبنهاغن.

وجمع مؤتمر الجزائر حوالي 500 شخص تحت رئاسة باصيه. وصدرت عنه عدة مجلدات في مختلف الفروع المعرفية، بعضها في شكل

---

(1) عن حياة باصيه انظر (الميلانج) الموضوع باسمه. وكذلك ألفريد بيل (افريقية الفرنسية)، 1924، ص 13 ـ 14. وكذلك هنري ماصيه (الدراسات العربية في الجزائر)، 1930.

وثائق ومذكرات. ونظمت للمؤتمرين حفلات موسيقية ومسرحيات وجولات عبر الأقاليم الجزائرية للتعرف على الآثار الرومانية والاسلامية، ومن ذلك مدينتا تلمسان وقسنطينة. ومن الشخصيات التي حضرت مَنْ كان يمثل الحكومات ومنها من كان مدعواً شخصياً[1]. ويعد المؤتمر المذكور نجاحاً كبيراً لباصيه وللاستشراق الفرنسي على العموم.

يقول أحد هؤلاء المستشرقين: «إن الاستشراق هو بالطبع الحقل الرئيسي للدراسات في مدرستنا (مدرسة الآداب) ومن داخل الاستشراق تأتي اللغة العربية والمسائل الاسلامية[2]. وأضاف أن أول عمل يبدأ به المرء في دراسة أدب أو حضارة ما هو تصنيف ووصف المصادر. ويدخل في ذلك دراسة المكتبات والمخطوطات، وقد قام باصيه بفهرسة مجموعات من المخطوطات (الكاتلوغات) في الجزائر وفي المغرب الأقصى. كما قام ادمون فانيان بذلك أيضاً. وعندما أنجز هذا العمل جاء دور النشر وترجمة المصادر وتاريخ المغرب العربي منذ الفتح الاسلامي. وقد سارع الباحثون المستشرقون بالترجمة إلى الفرنسية لمختلف المصادر العربية لتعريف الرأي العام العلمي بها، ولا سيما علماء الاستشراق والإدارة الفرنسية ومن يهمهم أمر الاستفادة منها. ومن الذين ساهموا في عملية الجمع والترجمة هذه نذكر:

هوداس، وفانيان، وبيل، وباصيه، وماسكري، وموتيلانسكي، وكولان، وميرسييه، وجورج مارسيه وأخوه ويليام، وديستان، وجولي، وديلفان، ومولیراس، وقوتييه، ودوتيه، وديبارمي، وزيس. ومن

---

(1) أصدرت المجلة الافريقية عدداً خاصاً 1905 بأعمال المؤتمر. كما جاء فيه نبذة مفصلة عن كل مدرسة من المدارس العليا الأربع. وعن الدراسات العلمية ـ الاستشراقية في الجزائر، والجمعيات العلمية. وهو جهد كبير جدير بالرجوع إليه لولا مسحة التعالي والاستعمار التي فيه.

(2) «عن العمل العلمي لمدرسة الآداب بالجزائر»، في (الجملة الافريقية)، 1905، ص 440.

الجزائريين: ابن أبي شنب، وابن سديرة، وبوليفة. كل هذا كان خلال الربع قرن الذي عاشته مدرسة الآداب[1]. وقد واصل تلاميذ باصيه بعد ذلك هذه المهمة في كلية الآداب وفي المدارس الشرعية الثلاث. وكانت هناك قائمة جديدة من الأسماء.

وكان هذا العهد هو عهد إشعاع الاستشراق الفرنسي من الجزائر. فقد دخل مدرسة اللغات الشرقية بباريس عدد من الأساتذة الذين كانوا في الجزائر خلال سنوات طويلة. ودخلها أولاً البارون ديسلان الذي تولى تدريس العربية العامية، وهو لم يكن مستشرقاً محترفاً، ولكن أعماله تشهد له بالمكانة البارزة، مثل ترجمة تاريخ ابن خلدون وإشرافه على جريدة (المبشر)، وقد حل محله شيربونو ثم هوداس. وكلاهما قضى في الجزائر بين الثلاثين والعشرين سنة. وقيل إن تدريس هوداس للعامية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية جعلت المدرسة تهتم أيضاً بلهجات الشرق العربي حتى أصبحت موضوعاً هاماً في مخطط الاستشراق الفرنسي. كما أنشىء بالمدرسة المذكورة (الشرقية) كرسي اللغة البربرية لأول مرة سنة 1913. وكان ذلك غداة احتلال المغرب الأقصى. وأول من تولى هذا الكرسي ديستان[2].

ومعنى هذا أن مدرسة اللغات الشرقية بباريس كانت تمر بتنظيم جديد في مدار القرن على ضوء الأنشطة التي مرت بها مدرسة الجزائر. فقد كان التركيز في (مدرسة اللغات الشرقية) منذ عهد دي ساسي على دراسة العربية الفصحى، واستمر ذلك على يد ديرنبورغ الذي توفي سنة 1908. وكان حلول هوداس بها قد غيّر من هذا التركيز ولفت النظر إلى العامية، ثم البربرية. ومن ناحية أخرى تأثّر الاستشراق بالنظرية الاجتماعية التي جاء بها

---

(1) نفس المصدر، ص (440 ـ 443). وكان زيس أستاذاً في الشريعة الاسلامية. وكان مؤمناً بالاندماج، ويراسل علماء الوقت مثل شعيب بن علي، ويرى أن رجال الدين الموظفين لا تأثير لهم على العامة. انظر آجرون (الجزائريون...)، 313/1.

(2) يذهب البعض إلى أن أول من تولى كرسي البربرية في مدرسة اللغات الشرقية هو اندري باصيه (وهو ابن رينيه باصيه؟).

دورخايم. وظهر ادمون دوتيه من المتأثرين بذلك في مدرسة الجزائر، وظهرت أسماء في الكوليج دي فرانس كانت معروفة في الجزائر أيضاً أمثال لوشاتلييه الذي تولى كرسي (المجتمع الاسلامي) وأوغسطين بيرنار الذي تولى كرسي (الجغرافية الاقتصادية والتاريخية)، كما استحدث كرسي للتاريخ وأخر للغة[1].

ان مدرسة الآداب بالجزائر قد أثرت على الدراسات الاستشراقية الفرنسية عموماً: في مدرسة اللغات الشرقية وفي السوربون، وفي الكوليج دي فرانس، وفي مجلة العالم الاسلامي، ثم في الدراسات الاستعمارية الخاصة بالمغرب الأقصى وتونس والمشرق العربي والاسلامي. وسيتطور هذا المفهوم بعد إنشاء مجلة (هيسبريس)، ومعهد الدراسات العليا في المغرب، ومعهد قرطاج في تونس، والمعهد الفرنسي في دمشق، بالإضافة إلى المعهد الفرنسي في مصر الذي يرجع إلى عهد قديم.

ومن زملاء باصيه في مدرسة الآداب بالجزائر ادمون فانيان. فهو الذي تولى تدريس الأدب العربي منذ 1883. وقد ولد في لبياج سنة 1846. وهو من ايرلاندا وجاء الجزائر كمترجم، ولم يتكون في مدرسة استشراقية. ولكنه درس العربية والفارسية والتركية، وهي اللغات الأساسية للمستشرقين عندئذٍ. وقضىء سنوات طويلة في مدرسة الآداب. فقد عاش إلى 1931. وتميزت أعماله، بالإضافة إلى التدريس، بالترجمة في الموضوعات التاريخية والفقهية والأدبية. كما وضع كاتلوغ مخطوطات الجزائر، وأضاف إضافات على المعاجم العربية. ولذلك قال بعضهم إن فانيان قد واصل مهمة ديسلان في الجزائر[2].

* * *

(1) ادمون بورك الثالث، مرجع سابق، ص 217.

(2) انظر المجلة الافريقية R. A. 1931.

أول مدير لمدرسة الآداب بالجزائر هو إيميل E. Masquery ماسكري. وهو من العلماء الأدباء الذين تركوا بصماتهم على الأدب الفرنسي أيضاً إلى جانب الاستشراق. ولم يكن مستشرقاً محترفاً. فقد ولد في روان (فرنسا) سنة 1843، وبعد تخرجه كان عليه أن يعلّم في أحد الليسيات، فرماه حظه، كما قال في أحد كتبه[1]، في الجزائر سنة 1872. التحق بليسيه الجزائر، ولكنه كان كثير الحركة فأخذ يزور مختلف المناطق في المناسبات. كما كانت الحكومة تكلّفه بمهمات محددة. وقد حذق العربية ودرس التصوف على يد الشيخ علي ابن سماية الذي كان أستاذاً في مدرسة الجزائر ومحرراً في جريدة المبشر. زار زواوة والأوراس، وميزاب. بالنسبة للأولى زارها أول مرة سنة 1873 بعد الثورة الشهيرة (ثورة المقراني والحداد)، ثم أخذ يتردد عليها، ولكنه كلف من الحكومة سنة 1882 بمهمة خاصة هناك فتجول ورأى آثار الكنيسة ونشاط جنود الكاردينال لافيجري. وأوصى بتأسيس مدارس ابتدائية في بني ينّي وتيزي راشد وميرا وجمعة الصهاريج. كما كلفته الحكومة أيضاً بمهمة في الأوراس فتجول في مختلف أجزائه سنوات 1875 ـ 1878، ثم كتب عن آثار المنطقة ولهجتها وتاريخها ووصف حياة أهلها في كتابات ما تزال ذات قيمة. وغداة احتلال فرنسا لميزاب تجول هناك أيضاً وربط علاقة مع الشيخ محمد بن يوسف اطفيش، العالم الشهير. وطلب منه ماسكري أن يكتب تاريخاً موجزاً عن ميزاب فكتب له الشيخ اطفيش (الرسالة الشافية)[2]. ودرس ماسكري هناك الحياة الدينية والعادات والتشريعات.

ويبدو أن ماسكري قد ارتبط أيضاً ببعض التجار الميزابيين في قصر البخاري وكذلك ببعض النساخ في غرداية. وإذا كان الناسخ مكلفاً بنسخ الكتب لماسكري فإن تاجر قصر البخاري كان أيضاً عيناً للفرنسيين ـ عن طريق ماسكري ـ فيما يتعلق بأحوال الصحراء وتحركات الثوار والأشخاص.

---

(1) كتاب (ذكريات ورؤى افريقية)، ط. 2، 1914 بالجزائر.

(2) انظر ترجمة الشيخ اطفيش في السلك الديني والقضائي.

وقد نشر ابن سديرة رسالة ترجع إلى سنة 1881 موجّهة من هذا التاجر إلى ماسكري. وجاء فيها أنه دائماً في خدمة الدولة (الفرنسية) وأنه صاحب المتصرف الإداري هناك، ويفتخر بصحبته لماسكري. ومما جاء في الرسالة أخبار عن الشعانبة على أنهم سيثورون «ينافقوا» في أكتوبر 1881، ولعله كان يشير بذلك إلى ثورة بوعمامة. لكن الرسالة تذكر شخصاً إسمه أحمد، هرب من بريان بعد أن قبض عليه المخزن. ويطلب من ماسكري أن يعلمه عن هدف المحلة (الفرقة العسكرية) المتوجهة نحو الصحراء ودوافعها. ونعرف من الرسالة أن هذا التاجر المراسل الذي يتولى الوساطة في مركز حساس مثل قصر البخاري، كان يملك دكاناً كبيراً هو وإخوته الأربعة. وهو تاجر في القماش وغيره[1].

ويبدو أن ماسكري كان من الممهدين لاحتلال ميزاب بعد زيارتها. ذلك أن مترجميه يقولون إنه قام سنة 1882 (عهد لويس تيرمان) بزيارة هذه المنطقة تمهيداً لاحتلالها. وجاء منها بمؤلفات، وترجم بعضها. ويقولون عنه إنه خدم الجزائر «الفرنسية» بكل قواه، في تعليمه وفي كتاباته. وقد بين أن الثقافة الحقيقية لها دور تلعبه في خدمة الدولة المستعمرة، وهو دور عظيم في بلاد مثل الجزائر عندئذٍ. ويقول أوغسطين بيرنار الذي توسع في ترجمة ماسكري: إنه بعد أن ملكت فرنسا الجزائر بالسيف والمحراث (وهو تعبير استعمله بوجو)، يجب أن يأتي الامتلاك الآخر، الامتلاك بالقلم والكلمة، وهو دور ماسكري ودور المجلة الإفريقية، والدور الذي «لا يمكن أن ننسحب منه دون أن نكون قد تخلينا عن واجباتنا» وأضاف بيرنار بأن دور ماسكري في ذلك لا يقل عن دور الضباط والإداريين المخلصين لفرنسا. وقد كان بيرنار صادقاً في ذلك، ويصدق وصفه أيضاً على كل مستشرق فرنسي.

هذا هو ماسكري الفرنسي الذي عمل ما في وسعه ليمتلك الجزائر لفرنسا، لا بالسيف ولا بالمحراث، ولكن بالقلم والكلمة. وفي كتابه

(1) بلقاسم بن سديرة (كتاب الرسائل)، ص 216.

(ذكريات ورؤى إفريقية) وصف أدبي عميق وانطباعات شخصية معجونة بالتاريخ لمختلف أحداث الجزائر وشخصياتها وما كانت تقوم به السلطات الفرنسية ـ عسكرية ومدنية للاحتلال والسيطرة ـ وهو وصف عن تماس الحضارتين وتثاقف الأفراد وتلاقي المشاعر وردود الأفعال. ويمكن أن تقارن كتاباته الانطباعية هذه بكتابات فرومنتان (سنة في الصحراء) و(سنة في الساحل)، وكتابات ألبير كامو في وقت لاحق.

والعمل الرسمي الآخر الذي تولاه ماسكري في الجزائر هو التعليم وإدارة مدرسة الآداب عند إنشائها سنة 1880. فبعد إنشاء المدارس العليا، عين ماسكري أستاذاً للتاريخ والآثار القديمة في شمال إفريقيا، ثم عرض عليه بول بير P. Bert إدارتها فقبل ذلك وبقي مديراً لها إلى وفاته المبكرة سنة 1894. وكان ينشر في المجلات الفرنسية، وهو الذي أنشأ نشرة سماها (المراسل الإفريقي)، ورأس تحريرها وساهم فيها بأبحاث أثرية ولغوية. وكانت تصدر عن مدرسة الآداب، وقد بلغت (المراسل) شهرة عظيمة. وظلت تصدر بعد وفاته. ونشر فيها رينيه باصيه بعض أعماله، بل كانت صوت الاستشراق بحق في اندفاعته أواخر القرن الماضي. وقد اهتم ماسكري بلهجات ميزاب والأوراس وزواوة والطوارق. وسافر مع بعثة من الطوارق إلى باريس سنة 1887. ودرس تاريخ الأولياء والصالحين، وهو صاحب المقولة الشهيرة: «إن كل تاريخ شمال إفريقيا هو تاريخ ديني». وكانت أطروحته للدكتوراه عن تشكل المدن عند السكان الحضريين في الجزائر، وهو يعني بهم هنا سكان الأوراس وسكان القبائل (زواوة) وسكان ميزاب. وهو يقول إن البداوة ليست مسألة عرق، وإنما هي مسألة ترجع إلى المناخ والتربية. وكان ماسكري من المعجبين بكتابات فرومنتان ثم بكل الرحالة الفرنسيين الذين وصفوا الصحراء والطبيعة الجزائرية[1].

(1) أوغسطين بيرنار «ايميل ماسكري»، في المجلة الافريقية، 1894، ص 350 ـ 373. وقد نشرت هذه الكلمة في مقدمة كتاب ماسكري (ذكريات ورؤى افريقية)، ط. 2 الجزائر، 1914. (نشرت ط. 1 في باريس 1894).

بالإضافة إلى مركز العاصمة ظهر في المناطق الأخرى علماء ومترجمون فرنسيون وجدوا أنفسهم بإنتاجهم في عمق حركة الاستشراق التي تنطلق من العاصمة. ومن هؤلاء غوستاف موتيلانسكي، الذي تمركز نشاطه في قسنطينة. فهو من المترجمين البارزين في بداية حياته. ثم أصبح من المستشرقين لبحوثه في المذاهب واللهجات، وكان من المستكشفين للصحراء، إذ قام بعدة جولات وبعثات. ثم إنه من مواليد الجزائر في بيئة عربية محافظة وإسلامية عريقة.

ولد موتيلانسكي في مدينة معسكر سنة 1854، وبعد أن شب درس في ليسيه الجزائر ثم مارس فيها التدريس بعد ذلك. ثم دخل امتحان الترجمة في النطاق العسكري. فهو ليس من المستشرقين المحترفين. وبهذه الصفة اشتغل في عدة أماكن من الجزائر شرقاً ووسطاً وغرباً وجنوباً، بل عمل في تونس أيضاً. وعند احتلال ميزاب أرسل إليها ليكون المترجم العسكري هناك، وقد بقي خمس سنوات سمحت له بدراسة العادات والتقاليد والتعرف على العلماء والمكتبات، وكان يعرف العربية الفصحى والدارجة. وأضاف إلى ذلك دراسة البربرية في ميزاب ولهجاتها الأخرى في الصحراء، وبحث في المذهب الإباضي وجمع وثائقه، وفي تاريخ المنطقة وعلاقاتها بإفريقيا. وقد نشر بحوثاً عديدة في هذا الميدان أدخله إلى الاستشراق من بابه الواسع.

وفي سنة 1887 عيّن موتيلانسكي مديراً لمدرسة قسنطينة الشرعية ـ الفرنسية (الكتانية). وكان من شيوخها الجزائريين عندئذٍ عبد القادر المجاوي ثم تلميذه ابن الموهوب ومحمود الشاذلي. وكان رئيس كرسي (حلقة) اللغة العربية بها هو مارتان الذي توفي سنة 1889 فخلفه فيه موتيلانسكي وأصبح يجمع بينه وبين الإدارة. وهو الكرسي الذي عرفنا أنه كان موجهاً لعموم الفرنسيين وليس للجزائريين. وأثناء وجوده في ميزاب وفي قسنطينة ربط موتيلانسكي علاقات مع رجال الدين والعلم في الناحية الشرقية والصحراء. فهو ليس موظفاً عادياً يكتفي بالحضور اليومي ثم يعود إلى بيته

لينام أو يقتل الوقت، ولكنه كان صاحب مهمة سياسية وعلمية. وممن تعرف عليهم وربط معهم علاقات، الشيخ محمد بن يوسف اطفيش في ميزاب والشيخ محمد العروسي، شيخ الزاوية التجانية في قمار، والشيخ الهاشمي، زعيم القادرية في عميش (الوادي).

وكان للحكومة الفرنسية مخططات في الصحراء تريد الوصول إلى أقاصيها، وربط شمال إفريقيا بغربها وبالسودان. ولا بدَ قبل ذلك من معرفة المسالك والقبائل والواحات والآبار واللهجات والسكان. وكان موتيلانسكي خير مؤهل لهذه المهمة. ذهب أولاً إلى وادي سوف سنة 1903 واتصل بصديقه الشيخ محمد العروسي الذي وفر له شروط الالتقاء بأهل غدامس بالوادي. وراسل الشيخ العروسي بشأنه مقدمي التجانية في منطقة الطوارق والهقار وغدامس. والتقى موتيلانسكي في الوادي بأشخاص من غدامس وتحدث معهم عن رحلة إلى بلادهم وتعرف على لهجتهم. ثم قدم تقريراً لحكومته عن زيارته لسوف ولهجة غدامس[1]. وبعد سنة واحدة 1904 ذهب موتيلانسكي بنفسه إلى غدامس وكتب رحلته في شكل تقرير إلى حكومته وإلى عالم الاستشراق، فهو قد درس في غدامس اللهجة والسكان والتجارة والتاريخ، الخ.

كان موتيلانسكي في أوج عطائه في فاتح القرن. وبالإضافة إلى ما ذكرنا شارك في مؤتمر المستشرقين بالجزائر. وقام ببعثة أخرى في الصحراء ـ في الهقار ـ سنة 1905. ولكنه رجع منها منهوك القوى مصاباً بمرض التيفوس الذي لم ينج منه، فتوفي في مارس 1907 في مدينة قسنطينة. وكان عمره آذاك 53 سنة. وقد أقيم له حفل تأبين حضره زملاؤه الفرنسيون في الجمعية الأثرية لقسنطينة وفي المدرسة. كما حضره مفتش الأكاديمية وشيخ البلدية. ولكن الملفت للنظر أن من بين الحاضرين

---

(1) عن رحلته إلى سوف انظر المجلة الآسيوية، 1903، السلسلة العاشرة، المجلد 2، ص 157 ـ 162. وقد ترجمنا ذلك إلى العربية ونشرته مجلة الثقافة، 1994.

والمتكلمين أيضاً الشيخين بوشريط، مفتي المذهب المالكي، وابن الموهوب المدرس بالمدرسة (الكتانية)[1].

وهكذا كان موتيلانسكي مخلصاً لقضية بلاده وللحركة الاستشراقية. وكان كزملائه يربط بين هذه الحركة والإدارة الاستعمارية، ويرى أن نجاح إحداهما يتوقف على نجاح الأخرى. ولو طال به العمر لتوسع ربما أكثر من غيره في البحوث الصحراوية والإفريقية. وقد استحق من الفرنسيين إطلاق إسمه على أحد أبراج الصحراء[2].

وهناك مستشرق آخر لم يعش طويلاً بعد موتيلانسكي ومات في نفس المدينة (قسنطينة) سنة 1913، ونعني به الاسكندر جولي. وكان يَعِد ببحوث أكثر تنوعاً من زميله، ولم يكن مثله من المترجمين العسكريين، ولكن من طينة أخرى. فقد ولد جولي بفرنسا سنة 1870، ودرس في ليسيه هنري الرابع. وكان أبوه متخرجاً من مدرسة ترشيح المعلمين في اختصاص الكيمياء، فنشأ جولي على حب العلوم. ولأسباب صحية جاء إلى الجزائر واستقر بها. وقام بأعمال عديدة لا تؤهله للاستشراق، مثل الأشغال العامة والرسم. ولكنه ما ليث أن تعلم اللغة العربية واهتم بالدراسات الإسلامية، سيما أهل التصوف. وأصبح أستاذاً في مدرسة الجزائر الشرعية ـ الفرنسية (الثعالبية). بعد إعادة تنظيمها وإحداث القسم العالي بها، سنة 1896، ثم انتقل سنة 1901 إلى مدرسة قسنطينة ليعمل إلى جانب موتيلانسكي. وعند وفاة هذا تولى جولي كرسي (حلقة) اللغة العربية للفرنسيين.

---

(1) نشرت مجلة (روكاي) 1907، ص 6 ـ 14، الخطب التي ألقيت في هذه المناسبة عدا خطبتي بوشريط وابن الموهوب لأنهما، كما قالت، ألقيتا بالعربية! والمعروف ان ابن الموهوب تولى الفتوى سنة (1908) (مكان بوشريط؟).

(2) عن حياة موتيلانسكي انظر المصدر السابق (روكاي)، ص 1 ـ 6، إذ فيه نبذة طويلة عن حياته وأعماله. وكذلك رينيه باصيه «تقرير عن دراسات البربرية والهوسة» في المجلة الافريقية، 1908، ص 259. وترجمة حياته بقلم ارمون ميسبلي في SGAAN 1907، ص 119 ـ 121. وهنري ماصيه «الدراسات العربية..».

ورغم اشتغاله بالتعليم فإنه لم يكن يتخذ منه حرفة. كان جولي مولعاً بالتجوال وحب الاطلاع ومعرفة المجهول. والفرنسيون يسمون ذلك عندئذٍ حب الاستكشاف. وقد قضى جولي معظم وقته في التجوال بين المحيط غرباً وطرابلس شرقاً. واشتغل في توات ورافق بعثة فلامان سنة 1899، 1900، وكان عضواً في اللجنة العلمية الفرنسية لدراسة أحوال المغرب الأقصى عشية احتلاله. وتعاون مع مصالح الخرائط الجيولوجية، كما شارك في رسم الخريطة الأثرية (الأطلس) للجزائر سنوات 1899 ـ 1900. وكان ينشر ملاحظاته في وقائع المؤتمرات العلمية التي يقدم إليها نتائج بحوثه. وقال عنه أحد زملائه بأنه يعتبر جغرافياً، وجيولوجياً، ونباتياً، ولغوياً، واجتماعياً وأثرياً. ورغم صغر سنه فقد عيّن سنة 1904 عضواً مراسلاً للمعهد الفرنسي. وكان عضواً في عدة جمعيات علمية. وكانت الحكومة الفرنسية قد كلفته بمهمة سنة 1903 لدراسة الطرق الصوفية في منطقة التيطري. وقد نشر بعد ذلك دراسات عن الحركة الصوفية ورجالها، وعن الشعر البدوي سنعرض إليها[1].

أعمال المستشرقين

قام المستشرقون بأعمال كثيرة في الجزائر خلال المرحلتين المذكورتين: 1830 ـ 1880، و1880 ـ 1930. ومن الصعب الحديث عن كل أعمالهم هنا، بل إن غرض هذا الفصل ليس الحديث عن كل أعمالهم ولكن تصنيفها وذكر نماذج منها فقط. ومن البديهي أن يهتم المستشرقون الفرنسيون بالشعب المستعمر ديناً ولغة وعادات وآثاراً وتاريخاً. كما أنه من البديهي أن يتطور هذا الاهتمام حسب حاجة الإدارة الاستعمار وحاجة الدولة الفرنسية نفسها في العالم. فالمستشرقون كانوا «جنوداً في الميدان» ولكن بلباس مدني، بل إن بعضهم بدأ حياته في الترجمة في المجالات العسكرية.

وهل يمكن حصر أعمال المستشرقين الفرنسيين هنا؟ لقد قام السيد هنري ماصيه بذلك في بحثه (الدراسات العربية في الجزائر)، فكانت

(1) انظر عنه شارل سان كالبر، مجلة (روكاي)، 1913، ص 815 ـ 817.

المجالات عديدة. والواقع أنهم لم يتركوا جانباً يهم الاستشراق إلا طرقوه. ويبدو لنا أن أكثر المجالات المطروقة عندهم هي ترجمة النصوص الاسلامية، ودراسة العربية ولهجاتها والبربرية ولهجاتها، وتاريخ الجزائر والمغرب العربي عموماً، والفولكلور. وقد اهتموا بالاسلام كدين وعقيدة وتعاليم، وكتصوف ومرابطين وممارسات طقوسية. وحظيت عندهم الآثار الاسلامية بنصيب غير قليل. واتصل عندهم التاريخ بالأنساب القبلية والجغرافيا السكانية. وكان اهتمامهم بالمصادر قد جعلهم يجمعون مخطوطات كثيرة ومكتبة عمومية. ولسوء الحظ فإن كثيراً من المخطوطات والوثائق قد أخذوها معهم بطريقة شخصية وضاعت معهم. وكانوا يستكتبون العلماء والقضاة ويستنسخون المخطوطات ثم يستولون عليها ويستفيدون منها، وأحياناً لا ترى النور بالمرة.

خلال المرحلة الأولى ركز المستشرقون على معرفة السكان والاتصال بهم عن طريق معرفة العامية. فظهرت من أجل ذلك عدة قواميس على يد جوني فرعون ودي بوسي وبرينييه وماشويل. من ذلك كتاب فرعون المسمى النحو الابتدائي للعربية الدارجة، الموجه للفرنسيين ،ثم بسطه ونشره تحت عنوان (موجز النحو العربي البسيط). وفي 1835 نشر دو لابورت مبادىء الأمثال العربية في الجزائر، ثم قصص لقمان. وكان دو لابورت رئيساً للمكتب العربي ولم يكن مستشرقاً. ثم نشر برينييه (الموجز) الذي حدد فيه خصائص اللهجة الجزائرية العربية وأعطى فيه تفاصيل عن حياة السكان[1]. ثم كتابه (الدروس العملية والنظرية للغة العربية) وهو كتاب ظل فترة طويلة مقرراً في المدارس حتى بعد وفاة صاحبه[2]. واعتبر الكتاب مرحلة هامة في البحث اللغوي بالجزائر.

---

(1) عنوانه الكامل موجز اللغة العربية الدارجة في مدينة الجزائر وفي الإيالة الجزائرية سنة 1838.

(2) ط. 1 1845، ط. 2 1855، ط. 3 1915. وهو الذي عنوانه بالعربية هكذا: (مفتاح كنوز النحو والأدب لفتح علوم العرب). بتاريخ 1271 هـ. ومعه لوحة فنية جميلة من الزخرفة العربية.

وقد ترجم برينييه مقدمة ابن آجروم في النحو وعلق عليها تعاليق مفيدة. ومن مؤلفاته أيضاً المختارات العربية الابتدائية ـ (أنطولوجيا)[1]، وكتاب (المكاتبات/ الكريستوماتية ـ العربية)[2]، وله مؤلفات بعناوين متأثرة بالطريقة العربية المسجعة، مثل: (تجريب القلم في خط العرب والعجم) و(تحفة الطلباء وبهجة الأدباء)، و(مفتاح النحو والأدب لفتح كنوز علوم العرب)، وأخيراً (مجموع المكاتيب في العربية والمعاني الغرائب). وقد عرفنا أن برينييه قد بقي سيد الاستشراق الفرنسي في الجزائر أكثر من ثلاثين سنة. وتخرّج على يده معظم ضباط المكاتب العربية ومترجمي الإدارة والقضاء. وهو كمعلم لم يقم بالدراسات الاسلامية ولا بترجمة النصوص إلا ما يتصل منها بمهنة التعليم.

بالنسبة للأنطولوجيا لاحظ برينييه أن خط الكتابة في الجزائر له خصائصه الأساسية، ولكن لا يلاحظها المرء بسهولة بل بعد دراسة وممارسة. وقال إن الخط العربي في المشرق امتاز بالتدفق والسهولة، أما أهل الجزائر فلا يتفننون فيه، بل يكتبون بنسب غير متجانسة وبطريقة غير صحيحة، ويتصرف فيه كل شخص على هواه دون اتباع قواعد. ومع ذلك فإن لفن الكتابة في الجزائر خصائصه، كما ذكر. وقد احتوى هذا الكتاب على بعض الأمثال السهلة، والحكايات والقصص التاريخية، ولاحظ أن العربية غنية بأشكال الكلمات والمترادفات. وإنها بعيدة عن أن توفر الطاقة الذهنية الضرورية للتطور، تلك الطاقة التي تملكها في نظره، اللغات الأوروبية فقط، ولا سيما الفرنسية[3]. وكان برينييه يكتب اسمه بالعربية هكذا (ابريني) ويلقّب نفسه «بالشيخ النحوي المدرس». أما درسه فيسميه (حلقة

---

(1) ط. الجزائر وباريس 1852. ولعل هذا هو الذي اسمه (تجريب القلم في خط العرب والعجم).

(2) ط. 2، باريس 1857. وهو الذي عنوانه بالعربية: جامع المكاتيب في العربية والمعاني الغرائب. والمكاتيب هنا هي الرسائل.

(3) انظر المقدمة ص 5.

الجزائر). ومن رأيه أن اللغة العربية ليست وسيلة اتصال بالجزائريين فقط بل بالعالم الاسلامي والإفريقي أيضاً. وهي التي ستجعل الأوروبيين يربطون علاقات بالشعوب الاسلامية، وهي علاقات لا تكفي فيها الكتب حسب نظرته.

وقد ظهرت عدة كتب تعليمية أخرى خلال هذه المرحلة، كانت كلها تبحث عن أفضل الطرق لتوصيل العامية الجزائرية للأوروبيين. وكان علماء ألمانيا والانكليز قد سبقوا إلى وضع مناهج جديدة في تعليم اللغة، وقد تأثر بهم السيد ماشويل الذي كان متولياً كرسي اللغة العربية في وهران. فنشر ماشويل كتاباً في قواعد اللغة العامية وبناه على المنهج الالماني والانكليزي الجديد ووجهه للشباب، قائلاً بصراحة إنه استفاد من أعمال روبيرتسون، وأوطو، واولندروف أكثر مما استفاد من منهج زملائه الفرنسيين، أمثال برينييه وشيربونو[1].

وقد عالج ماشويل أيضاً موضوع اللغة والاستعمار، وحاول إقناع قومه بضرورة تعلم العربية «تنازلاً» منهم لتعلم لغة المنهزم، من أجل المصلحة الاستعمارية فقط، وإلا فإن اللغة الفرنسية هي لغة السيادة ولغة المنتصر. وكان في ذلك يرد على من يقول: إن الواجب على «الأهالي» أن يتعلموا اللغة الفرنسية وليس العكس. وقال إن الوقت لم يحن بعد أن يأتي الأهالي أفواجاً إلى الفرنسيين، ولذلك فإن على هؤلاء أن يعطوهم مبادئهم وأفكارهم بتعلم العامية والتقرب منهم. وكان ماشويل قبل التحاقه بوهران، أستاذاً في ليسيه الجزائر للعربية الدارجة، وكان يطبّق نظريته التعليمية على طلابه في الليسيه أولاً. وقد ذكرنا أنه بعد وهران عيّن لإدارة التعليم في تونس.

كذلك نشر شيربونو أعمالاً في اللغة معظمها حول دروسه العملية لطلابه. وكادت لا تخرج عن تمارين النحو والصرف، وقواعد تعلم الدارجة الموجه إلى الأوروبيين. وله عمل حول تصريف الأفعال في الدارجة وأصول وشكل اللهجة العربية الجزائرية وهي كلها تدخل في دراسة علم اللهجات.

---

(1) مقدمة ط. 2 من كتابه المطبوع في الجزائر سنة 1875 ثم طبع طبعات أخرى أيضاً.

كما اهتم بالخطوط والكتابات. ولشيربونو. قاموسان: عربي - فرنسي وفرنسي - عربي.

واهتم شيربونو كذلك بالنصوص التطبيقية. فنشر سنة 1847 كتاباً بعنوان (حكايات المسلمين)، وجاء فيها بالفرنسية انها حكايات إسلامية (من التراث): نص عربي أو دروس العربية الابتدائية، ويعقبها قاموس تحليلي، وهو مرتب حسب حروف المعجم العربي. وقد أهدى (حكايات المسلمين) إلى أستاذيه: رينو وبيرسوفال اعترافا بجميلهما، وكلاهما من أعيان الاستشراق في فرنسا. وأخذ شيربونو النصوص من التراث العربي مثل ابن القوطية والحريري، وهي نصوص كان قد نشرها رينو ودي ساسي[1].

ثم نشر شيربونو كتاباً آخر سماه: تعليم القارىء في الخط العربي. وبالفرنسية أضاف إليه: تمارين للقراءة في المخطوطات العربية. ووصف نفسه على أنه أستاذ اللغة العربية في قسنطينة. والكتاب في ثلاثة أقسام، الأول عبارة عن نصوص رسمية كالأوامر والمنشورات، والثاني في فن الرسائل المكتوبة باللغة العامية، والثالث في القصص والحكايات المكتوبة باللغة العامية أيضاً. ونلاحظ أن الذي خط الكتاب ونصوصه هو قورقوس، وهو الذي جعل لها العناوين. والخطوط كانت تقليداً استشراقياً لأنواع الخط الشائعة عندئذٍ في كتابة الرسائل والتأليف والنسخ[2].

وفي ميدان التاريخ والآثار ظهر في المرحلة الأولى ادريان بيربروجر وألبير دوفوكس. وكان الأول يعرف قليلاً من العربية، فاهتم منذ البداية بالآثار الرومانية. أما الاسلامية فلم يكتب عنها إلا قليلاً. ولكنه ساهم في مجموعة (اكتشاف الجزائر العلمي) التي كونتها الحكومة الفرنسية ونشر

---

(1) ط. باريس والجزائر، 1847. النص من ص 1 ـ 25. والقاموس من ص 29 ـ 149.

(2) ط. باريس، 1850، 80 صفحة. وعن قورقوس انظر سابقاً.

ضمن أعمالها ترجمة لرحلة العياشي ورحلة الدرعي في جنوب الجزائر. ومن أبرز كتاباته الأثرية (الجزائر التاريخية والمصورة والتذكارية). وكان بيربروجر قد قام بعدة مهام لصالح الحكومة الفرنسية في جنوب البلاد قبل احتلاله، من ذلك الرحلة التي أخذته إلى تونس ومنها عبر الجريد إلى سوف وتقرت سنة 1852. وأبرز أعماله في هذا الميدان جمعه المخطوطات من تلمسان وقسنطينة وغيرهما، وتأسيس نواة المكتبة الوطنية في عهد كولزيل 1835. وكان بيربروجر أيضاً مديراً لجريدة (المونيتور)، ومؤسساً للجمعية التاريخية الجزائرية، ورئيساً لتحرير المجلة الافريقية. ومع هذه الجهود فمن الصعب تسميته بالمستشرق المحترف. وقد مات في سنة واحدة مع زميله برينييه، أي سنة 1869، وليس بينهما سوى أحد عشر يوماً فقط[1].

أما ديفوكس، فكان يعرف العربية بدرجة أفضل من زميله، ولم يهتم بالتعليم أو الاستشراق المباشر، ولكنه اهتم بالوثائق الادارية والدينية والوقفية. ومن خلال ذلك نشر أعمالاً هامة عن المؤسسات أو البنايات الدينية في مدينة الجزائر، سيما أملاك الوقف والمساجد والزوايا والقباب. وقد ترك لنا وصفاً حياً للبنايات الدينية التي تهدم معظمها في مدينة الجزائر وضواحيها. وكان يساعده في عمله خلية من الجزائريين الذين يعرفون التركية أيضاً فينقلون له من هذه اللغة إلى العربية وهو يترجم ذلك إلى الفرنسية. ولذلك نملك الآن وثائق مترجمة إلى الفرنسية عن العربية تتعلق بالجهاد البحري ومالية الدولة الجزائرية السابقة، ورؤساء البحر وحياة الجنود، وبعض المعالم الأثرية. وكان ديفوكس موظفاً بمصلحة الدومين (أملاك الدولة). وكثيراً ما مس الحياة الدينية أيضاً ولكن كمترجم لا كمنظر[2].

---

(1) انظر عنه المجلة الافريقية، ط، 1869، وكذلك نفس المصدر 1894، ص 241. وله رحلة إلى معسكر الأمير في ونوغة شتاء 1837 ـ 1838. وقد ترجمناها وقدمناها للنشر.

(2) انظر عنه فصل المعالم الإسلامية وقد رجعنا إلى بعض أعماله في فصل المعالم الإسلامية وغيره.

وشيربونو نفسه تناول التاريخ بوفرة في هذه المرحلة. وقد قام بعمل في قسنطينة شبيه بما قام به معاصره ديفوكس في الجزائر. فكتب عن الزوايا والمدارس والمساجد والأضرحة ليس في المدينة فحسب بل في عدة بلدان من الإقليم أيضاً، مثل تقرت وبسكرة. وقال زملاؤه المستشرقون إن أفضل ما نشر شيربونو هو الأعمال التاريخية. فقد نشر وترجم وثائق تتعلق بمؤسس الدولة الفاطمية (عبيد الله المهدي)، وبحثا عن الأغالبة، وآخر عن بني جلاب سلاطين تقرت، ونشر كتاب الفارسية لابن القنفذ، وهو عن الدولة الحفصية، ومقالة عن الأدب العربي في السودان. إضافة إلى أعماله البيبلوغرافية والتراجم والجغرافية. وقد نشر أعماله في بعض المجلات أيضاً مثل المجلة الآسيوية والمجلة الافريقية وروكاي التي كان من مؤسسيها[1].

ورغم أننا سنترجم لديسلان في مكان آخر، فإننا نذكر له في ميدان التاريخ والمخطوطات عدة أعمال تتعلق بالجزائر. ومن ذلك ترجمته لمقدمة وتاريخ ابن خلدون التي طبعت على نفقة الدولة الفرنسية خلال الخمسينات. وهي الترجمة التي رحب بها المستشرقون وأدخلته عالمهم بعد أن جاء الجزائر كمترجم عسكري فقط.

وقام عدد من المترجمين العسكريين والمدنيين بنشر عدة أعمال مثل العقيد كاريت الذي بحث في الطرق التي سلكتها القبائل العربية، وروسو عن الحوليات، وبواسوني عن الدولة الحفصية (الفارسية) لابن القنفذ، وبارجيس عن مدينة تلمسان ودولة بني زيان، ودوقا ووقان عن أشراف غريس.

ووقع الاهتمام بالتاريخ المحلي والجهوي، فكتب ويلسون ايسترهازي عن إقليم وهران في عهد البايات، وفايسات عن إقليم قسنطينة

(1) عن مجموع أعماله انظر مجلة (روكاي)، 1882، ص 413 ـ 418. وكذلك ماصيه (الدراسات العربية..). وعن حياته أنظر سابقاً.

في نفس العهد، وسيروكا عن الزيبان.

وفي المجال الديني ظهرت دراسات عن الجهاد. واهتم بروسلار والعقيد دونوفو بالطرق الصوفية فنشر الأول عن تلمسان وحياتها الدينية وآثارها. والثاني عن دور الطرق الصوفية والمرابطين في التاريخ والثورات. وكانت دراسة هانوتو ولوتورنو عن زواوة قد تضمنت فصولاً عن الحياة الدينية فيها، سيما الزوايا والمرابطون والقضاء الاسلامي. وترجم الدكتور بيرون مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي، وكان المختصر كتاباً أساسياً في الجزائر.

وكرس المترجمون في هذه الفترة جهودهم على الدراسات الاجتماعية والإثنية (السلالية) والطوبوغرافية للمدن والمناطق، فكتب جوني فرعون وإسماعيل (توماس) اوربان عن التيطري، وكتب كاريت ووارنييه عن قسنطينة ونواحيها، وأصدر شارل فيرو دراسات مونوغرافية عن عدة مدن في الشرق الجزائري منها بجاية وجيجل وعنابة وتبسة[1]. كما اهتم آخرون بالمرأة ومسألة تعدد الزوجات، وقضية الرق في الاسلام، والتعصب الديني.

أما في الميدان اللغوي فالتركيز كان على التأليف المدرسي الموجه للأوروبيين الذين كانوا يتعلمون اللغة العربية أو الدارجة. كما صدرت عدة قواميس في هذا النطاق، وقد ذكرنا بعضها[2]. كما بدأ الاهتمام باللهجات البربرية في الأوراس وجرجرة وميزاب والهقار. وقد أصدر هانوتو معجمه عن لهجة جرجرة (زواوة)، وذكر دوفيرييه نماذج من لهجة الهقار وغيره من المناطق الصحراوية. وأورد نماذج من الخطوط والكتابات[3].

---

(1) انظر بحث ماصيه (الدراسات العربية)، مرجع سابق.

(2) انظر سابقاً.

(3) انظر كتابه (اكتشاف الصحراء)، باريس، 1864.

إن أعمال المستشرقين خلال المرحلة الأولى قد شملت تقريباً مختلف الميادين، ولكنها كانت تتميز بميزتين، الأولى كونها استكشافية لمعرفة المجتمع الجزائري ومصادره ولهجاته وعقائده وعلاقاته وتاريخه. والثانية قلة المستشرقين المحترفين والاعتماد على المستشرقين المترجمين. وكان معظم هؤلاء من العسكريين الذين يؤدون مهمات عسكرية وإدارية أكثر مما كانوا يؤلفون ويبحثون. وقد يكون هذا راجعاً أيضاً إلى عدم وجود المؤسسات الفرنسية العلمية في الجزائر. فالمدارس كانت ابتدائية أو متوسطة (كوليجات) فقط، ولم تظهر أول ثانوية إلا خلال الستينات من القرن الماضي. وكانت مدرسة الطب قد فتحت سنة 1857 فقط، ولم يكن لها عندئذٍ إمكانات الانطلاق أيضاً. كما أن الجهود الفرنسية كانت منصبّة على الاحتلال العسكري ومواجهة المقاومة والثورات من جهة، وتثبيت الاستيطان المدني وإحداث مراكز الهجرة الأوروبية من جهة أخرى. فالاهتمام بالبحث العلمي، والاستشراق جزء منه، كان ما يزال في مرحلته الأولى، كما قلنا.

ومن الجهود الجماعية العلمية خلال المرحلة الأولى مشروع اكتشاف الجزائر الذي أشرنا إليه والذي بدأ منذ 1839. فقد تكونت له لجنة برئاسة العقيد دي سان فانسان. وضمت اللجنة عدداً من المستشرقين والمترجمين والعلماء الآخرين الذين ليس لهم علاقة بالاستشراق والترجمة، وفيها العسكريون والمدنيون. وكانت الدولة قد خصصت للمشروع ميزانية لجمع المادة والتنقلات ونشر النتائج. وقد صدر من هذا المشروع عدة مجلدات. ومن الذين شاركوا في اللجنة من المستشرقين والمترجمين: بيربروجر، وكاريت، وبيليسييه دي رينو، ووارنييه، واونفنتان. وقد ذكرنا بعض المؤلفات التي صدرت من المشروع، وهي ذات صلة بالاستشراق، مثل رحلة العياشي والدرعي[1].

وكانت العناية بالقضاء وتنفيذه على الجزائريين قد أدت بالإدارة

---

(1) ستتحدث عن لجنة اكتشاف الجزائر لاحقا.

الفرنسية إلى القيام بعدة دراسات في التعليم والشريعة الاسلامية والعادات والأعراف واللغة. وقد بدأت هذه الجهود خلال الأربعينات 1845 واستمرت إلى حوالي 1850. ومنذئذٍ صدرت عدة تقارير ودراسات عن وضع التعليم الاسلامي، والقضاء الاسلامي، والمساجد، ووضع الأئمة، ونحو ذلك. وكان وراء هذه المشاريع ضباط ومدنيون عملوا في الجزائر منهم الجنرال بيدو، وبارو، ودو نوفو، وإسماعيل عربان (اوربان).

وخلال الستينات شهدت الجزائر معركة ساخنة بين أنصار ما سمي بالمملكة العربية وخصومها، وهي فكرة كانت مبنية على ما فهم من مشروع نابليون الثالث من أنه يريد جعل الجزائر بالنسبة لفرنسا كوضع مصر بالنسبة للدولة العثمانية، وأنه يريد أن ينصب الأمير عبد القادر نائباً عنه في الجزائر. وأشيع أن وضع الجزائر سيكون أيضاً كوضع المجر بالنسبة للدولة النمساوية. وقد أيد هذه الفكرة بعض المتحمسين لها، ومنهم المترجم توماس (إسماعيل) عربان[1] . أما خصم فكرة المملكة العربية وخصم العرق العربي على العموم فهو المستعرب الدكتور وارنييه الذي صَبَّ جام حقده على العرب والاسلام لأنهما يقفان حجر عثرة في وجه مخطط الاندماج المذكور. وكانت هذه المعركة الساخنة خلال الستينات من القرن الماضي قد مهدت الطريق للسبعينات، أي بعد سقوط نابليون الثالث وظهور الجمهورية الثالثة. وأخذت حركة الاستشراق الفرنسي دورة جديدة منذ عشرية السبعينات في فرنسا وفي الجزائر معاً.

بقي علينا أن نقول إن اعتبار الجزائر جزء من المشرق الذي تتحدث عنه ألف ليلة وليلة قد ظل سائداً خلال فترة طويلة بعد الاحتلال. وقد ظهر ذلك في أعمال الفنانين الفرنسيين الذين حلوا بالجزائر بصفة فردية أو على نفقة الحكومة الفرنسية. فقد اهتموا في لوحاتهم بالجزائر «الشرقية» ـ القصبة وأسرارها، والبازارات وبخوراتها، وألوانها الزاهية، والمرأة وسحرها

---

(1) تناولناه في فصل مذاهب وتيارات.

وفنونها، والإنسان العربي في بداوته «المتوحشة»، والطبيعة الخلابة، والاسلام ومساجده ومناراته. وسوف نتعرض إلى هذا الجانب في فصل الفنون.

في الدوريات والمجلات التي ظهرت خلال هذا العهد أيضاً بدأ الاهتمام بالجزائر الشرقية. (فالمحلة الآسيوية) فتحت صدرها للدراسات القادمة من الجزائر: شيربونو، فانسان. و(مجلة الشرق والجزائر والمستعمرات) جمعت بين حياة الشرق والجزائر في عدة مقالات ومذكرات وأخبار. وكذلك فعلت (المجلة الشرقية والجزائرية) التي كانت تضم معلومات عن الجزائر ومصر وتركيا. ومن الذين ظهروا على صفحاتها الدكتور بيرون وليكليرك. ثم كانت (المجلة الافريقية) ومجلة (روكاي) ميداناً فسيحاً ركض فيه المستشرقون والمترجمون على السواء. وتطول بنا القائمة لو أننا حاولنا ذكر هؤلاء وأعمالهم[1].

* * *

أما خلال المرحلة الثانية (ابتداء من 1880) فقد أنتجت مدرسة الاستشراق أعمالاً ضخمة في نفس الموضوعات تقريباً، ولكن في شكل أكثر تنظيماً وتخطيطاً. كذلك شهدت المرحلة ظهور المستشرقين المحترفين الذين تخرجوا في العادة من مدرسة اللغات الشرقية بباريس أو تكوّنوا في مدرسة الآداب بالجزائر. وهذا لا يعني ضعف دور المترجمين، وإنما أصبح دور هؤلاء مكملاً فقط لدور زملائهم. كما ظهر إلى جانب المستشرقين مجموعة من الجزائريين الذين تكوّنوا في المدرسة الشرعية ـ الفرنسية أو في الليسيه

(1) عن ذلك انظر الدراسة المنهجية المفصلة التي نشرها ماصيه في المجلة الافريقية، 1931، بعنوان «الدراسات العربية في الجزائر». وكذلك بحثنا عن مدارس الثقافة العربية في الجزائر، في كتابنا (أفكار جامحة)، الجزائر، 1988. أما (مجلة الشرق) فقد أصدرتها الجمعية الشرقية الفرنسية، سنة 1841، ثم أصبحت تسمى (مجلة الشرق والجزائر والمستعمرات). انظر لاحقاً.

الفرنسي أو في مدرسة الآداب، وقد أصبح هؤلاء الجزائريون معاونين ومتعاونين مع المستشرقين يخدمونهم في مختلف التخصصات والمناسبات.

وسيكون من الصعب تصنيف المادة التي درسها المستشرقون خلال هذه المرحلة، لكثرتها وتنوعها وطول مرحلتها. وحسبنا ذكر بعض النماذج داخل كل صنف من أصناف الدراسة. لقد ظهر خلال هذه المرحلة الاهتمام بما سمي «بالاسلام الجزائري»، أي الممارسات الدينية والشعائر الاسلامية ،كما أصبحت عليه بعد سبعين سنة من الاحتلال. وهي ممارسات بعيدة كل البعد عن روح الاسلام وتعاليمه. فهي تعني التخلف العقلي والتزمت وضيق الأفق والشعوذة، وهي السحر والدجل والتخريف، وهي الزردات والوعدات والذبائح عند قبور الأولياء والصالحين، وهي عقائد النفع والضر في مشائخ الطرق الصوفية، وفي الأحجار والأشجار والآثار. هذا هو الاسلام الجزائري في نظر الفرنسيين ومستشرقيهم، إنه الاسلام الذي يموت لكي يترك الطريق لمرور حركة التنصير والاندماج والرسالة الحضارية الفرنسية.

وقد غطى ذلك ألفريد بيل خريجَ مدرسة الآداب بالجزائر ومدير مدرسة تلمسان الشرعية ـ الفرنسية وتوجّه بكتابه: الفرق الاسلامية في شمال افريقية. وكان قد سبقه إلى ذلك لويس رين في كتابه مرابطون وإخوان 1884، وديبون وكوبولاني 1897 في كتابيهما (الطرق الدينية الاسلامية). ودرس ادمون دوتيه الحياة الدينية في الجزائر أوائل هذا القرن في كتابه (الاسلام الجزائري). ودرس زميله هنري قارو كذلك الحركة الاسلامية في مدار القرن. كما أصدر ايرنست ميرسييه كتابه عن المرأة والشريعة. ونشر الاسكندر جولي عدة دراسات عن «الأولياء وأساطير الاسلام» في المجلة الافريقية ومجلة العالم الاسلامي. وكان مهتماً بالدراويش الذين يسميهم أولياء طبقاً لعقائد العامة[1]. كما أصدر دراسة مفصلة عن الطريقة الشاذلية

---

(1) انظر المجلة الافريقية 1913، ص 7 ـ 26. ومنهم سيدي نائل، وسيدي عيسى الأغواطي وسيدي يحيى مولى الهدبة، وسيدي محمد بن الحمريش، وسيدي ابن عالية، وسيدي =

في منطقة التيطري وجنوب مدينة الجزائر، كانت الحكومة الفرنسية قد كلفته بها.

وفي نطاق المذاهب نشر زيس Zeys مجلدين عن الفقه الأباضي، ونشر موتيلانسكي مدونة ابن غانم في الفقه الأباضي أيضاً. وكانت نسخة المدونة في ملك الضابط ريلييه Relillet كما نشر غير ذلك عن هذا المذهب، ومنه كتاب سير الأئمة لابن الصغير.

وكان دومينيك لوسياني وراء عدد من الأنشطة التي قام بها المستشرقون ومدرسة الآداب، لأنه كان مديراً للشؤون الأهلية ومستشاراً للحكومة العامة أكثر من عشرين سنة من الفترة التي نغطيها. ورغم نشاطه الإداري فإنه قام بترجمة أعمال تتصل بالعقائد والفقه، منها عقيدة السنوسي في التوحيد، والرحبية في الفرائض. وقد أصبحتا من الكتب المدرسية المتداولة في المدارس العربية ـ الفرنسية الرسمية. كما ترجم فانيان أبواب الجهاد والطلاق والزواج من مختصر خليل، والأحكام السلطانية للماوردي، ورسالة القيرواني في الفقه، وكتاب الخراج لأبي يوسف.

أما أبرز نشاط لغوي قام به المستشرقون فهو الذي قام به رينيه باصيه وتلاميذه في هذه الفترة. ويكفي الإحالة على أعمال باصيه في (الميلانج) الذي يحمل اسمه لتعرف كم كتب عن اللغتين العربية والبربرية وآدابهما. وهذه الفترة هي التي عرفت انطلاقة كبيرة لدراسة اللهجات العربية والبربرية. لأنه كان عصر الاهتمام باللهجات عامة في المغرب العربي وافريقية. وفي هذا النطاق قدم باصيه بحثين في مناسبتين مختلفتين عن الدراسات البربرية والهوسة، وكلاهما لمؤتمر المستشرقين، الأول في هامبورغ (المانيا)، سنة 1902، وعنوان البحث هو (الدراسات البربرية والهوسة 1897 ـ 1902 وهو منشور في باريس 1902، والبحث الثاني قدمه لمؤتمر كوبنهاغن الذي انعقد سنة 1908، وعنوان البحث هو العنوان الأول عدا التاريخ فهو من 1902 إلى

= محمد مولى الكاف الأخضر الذي منه بنو عايس بجرجرة وبنو محمد بام دوكال، الخ.

1908. وهما بحثان طويلان وأغلبهما عن الدراسات البربرية التي تمت في مدرسة الآداب بالجزائر وفي غيرها من المدارس الجزائرية على يد المستشرقين الفرنسيين.

وقد استعان باصيه وماسكري منذ أول وهلة بالجزائريين الذين يعرفون البربرية. فوظفا منهم في مدرسة الآداب اثنين ليكونا إلى جانبهما، وهما بلقاسم بن سديرة والهاشمي بن الونيس، ورغم أن ابن سديرة كان يعرف البربرية فقد وظفاه للعربية الدارجة بينما وظفا ابن الونيس للهجات البربرية. وكان ابن الونيس يشتغل معاوناً في محكمة الجزائر. ولا نعرف له تأليفاً في البربرية. أما الذي وضع قاموساً لتعليمها فهو ابن سديرة. ولكن ابن سديرة توفي سنة 1901. ومنذ حوالي هذا التاريخ ظهر اسم عمر (سعيد) بوليفة ليكون المعاون الرئيسي لباصيه في اللهجات البربرية، وخاصة القبائلية. وقد ظهر اسمه في عالم النشر سنة 1904 حين أصدر مجموعة شعرية قبائلية. كما أرسلته الحكومة الفرنسية في مهمة خاصة إلى المغرب الأقصى عندئذٍ إذ نشر بعض أعماله عن زيارته للمغرب سنة 1905. وكان بوليفة عندئذٍ معيداً في مدرسة الآداب مكلفاً بتدريس القبائلية[1].

ويهمنا أن نعرف أيضاً أن مدرسة الآداب قد وظفت ابن أبي شنب في اللغة العربية. وعلى يده ويد غيره من هؤلاء الجزائريين تخرّج أمثال ديستان وبيل وديبارمي. وكان باصيه هو الرأس المدبر بالتنسيق مع الإدارة الاستعمارية، وخصوصاً لوسياني الذي كان يوظف مواهبه الادارية وسلطته الردعية لتنفيذ مخططات فرنسا والاستشراق. ولوسياني هو الذي نشر في آخر القرن الماضي كتاب (الحوض) مع ترجمة فرنسية، وهو كتاب بالبربرية المكتوبة بالحروف العربية، وموضوعه هو الفقه بأبوابه المعروفة. وهو من تأليف محمد بن علي بن إبراهيم السوسي، من أهل القرن 18م[2].

---

(1) سنترجم لكل من ابن سديرة وبوليفة في فصل اللغة.

(2) نشره لوسياني في المجلة الافريقية سنة 1896 ـ 1897 في أعداد مختلفة. وقد نشرنا عنه تعريفاً في كتابنا (أبحاث وآراء) جـ4.

وانتشر الاهتمام بالدراسات البربرية على يد آخرين. فقد نشر موتيلانسكي عن لهجة ميزاب وغدامس. وعرف بكتاب مخطوط بالبربرية عن لهجة قبيلة زواغة. وكتب ايميل ماسكري قاموساً فرنسياً ـ تارقيا، وبحوثاً عن لهجات ميزاب والشاوية والزواوية. وقام هويغ بنشر قاموس فرنسي ـ شاوي، وفرنسي ـ قبائلي. ومن جهته بحث غوستاف ميرسييه في أسماء الأماكن (توبونيم) البربرية بالأوراس، وواصل دراسة أسماء النباتات في الشاوية[1]. وفي هذا العهد أيضاً كان الراهب شارل دوفوكو، صديق المارشال ليوتي وباصيه، يدرس شؤون المغرب والصحراء إلى الهقار، ويؤلف قاموساً عن اللهجة البربرية في المناطق المختلفة من الصحراء، سيما منطقة الطوارق أو التوارق. ومدرسة الآداب بالجزائر هي التي وجهت جهودها إلى المغرب الأقصى عشية احتلاله لدراسة لهجاته وتاريخه، وكانت لجنة افريقية الفرنسية في باريس التي يشترك فيها أبرز علماء الاستعماريات والضباط والحكام السابقون، توجه عنايتها لإنشاء معهد الدراسات المغربية، وهي فكرة المارشال ليوتي، كما أنشىء معهد الدراسات البربرية في المغرب الأقصى أيضاً. وقد عينت السلطات الفرنسية محمد نهليل لتدريس البربرية بالمعهد الأخير. وكان نهليل قد اشتغل مترجماً في المكاتب العربية بمنطقة بشار وغيرها قبل ذلك. وهو جزائري من زواوة[2].

وفي نطاق الدراسات البربرية أيضاً شهد هذا العهد إنشاء كرسي (حلقة) البربرية في مدرسة الآداب، وتوسع ذلك ليشمل المدرسة الشرعية أيضاً فكان في هذه المدرسة قسم خاص بالبربرية. وكذلك في مدرسة ترشيح المعلمين (النورمال)، فأصبح المتخرج يحمل في شهادته ملاحظة تقول إنه من قسم اللغة العربية أو من قسم اللغة البربرية مع التركيز على القبائلية. وكلا القسمين لا يهتم إلا باللهجات والعاميات المنطوقة، ولكن المستشرقين وضعوا للعاميات

(1) عن ذلك انظر باصيه، المجلة الافريقية، 1903، ص 258.
(2) ادمون بورك «أزمة الاستشراق. . .»، مرجع سابق، ص 224.

قواعد وكتباً وتمارين. وأخذ هذا التقسيم اللغوي يتوسع ليشمل التقسيم العرقي والسياسي، فكان في المجلس النيابي المعروف (بالوفود المالية) أيضاً قسمان، قسم عربي وقسم قبائلي، بينما القسم الفرنسي في المجلس نفسه كان واحداً رغم اختلاف الفرنسيين بين مسيحيين ويهود، ومن هو من أصل فرنسي ومن هو متجنس من أصل مالطي أو إسباني أو إيطالي، ومن ثمة قلنا ان الاستشراق كان يخدم الادارة الاستعمارية، وكانت هذه تخدم الاستشراق أيضاً.

أما اللغة العربية فعاميتها قد تكفل بها هوداس منذ البداية 1880 ثم أخذ مكانه باصيه، كما سبق. وظلت العربية تدرس من خلال لهجاتها أيضاً. وظهر الاهتمام بهذه اللهجات بشكل ملفت للنظر. فقد درسوا لهجة كل مدينة وكل جهة تقريباً، تلمسان، ندرومة، بسكرة، جيجل، والعاصمة، الخ. فكانت عبارة «لوبارلي أراب» أي الدارجة أو العامية، على كل قلم استشراقي عندئذٍ. وقد اتبعهم في ذلك بعض الجزائريين غفلة منهم ربما، فأخذوا يقدمون المادة لهؤلاء المستشرقين، ومنهم ابن أبي شنب وأبو بكر عبد السلام بن القاضي شعيب التلمساني، وابن علي فخار التلمساني أيضاً، ومحمد صوالح، الخ. كما قام هؤلاء الجزائريون بتأليف قواميس عربية ـ فرنسية عن لهجة قبيلتهم أو جهتهم. ويقصدون هنا العربية الدارجة. ولعلهم كانوا ينظرون إلى الموضوع نظرة تجارية أيضاً لأن هذه القواميس المدرسية كانت من وسائل توفير المال، لأن النشر الأدبي أو البحوث العلمية المستقلة لا توفر ذلك. وكانت هذه المؤلفات بالإضافة إلى العامية تكتب أيضاً من اليسار إلى اليمين. ومهما كان الأمر فإن أولئك المثقفين الجزائريين عندئذٍ لم يتفطنوا ربما إلى مخططات الاستشراق السياسية والحضارية فساروا في ركابه. وقد أضاف ابن أبي شنب عملاً مهماً في حد ذاته، لو لم يكن في نطاق هذه المدرسة الاستعمارية، وهو دراسة بقايا اللغتين الفارسية والتركية في مدينة الجزائر[1]. وفي هذا النطاق نذكر أيضاً دراسات ونصوص

(1) كثر الحديث عندئذٍ عن تجديد المناهج لتعليم العربية، وشارك في ذلك بعض يهود الجزائر الفرنسيين، لأن دراسة العامية أصبحت أيضاً تجارة رابحة، وهكذا أصدر =

جولي عن الشعر الشعبي في عدد من المناطق الصحراوية[1].

أما الأدب العربي فلم يكن يدرس في الجزائر إلا نادراً، على يد بعض شيوخ المدارس الشرعية ـ الفرنسية أمثال ابن الموهوب في قسنطينة وعبد الحليم بن سماية في العاصمة والغوثي بن علي في تلمسان. أما مدرسة الآداب (كلية الآداب) فأول من تولى بها كرسي الأدب العربي هو باصيه، ثم فانيان، كما أشرنا. وقد ظل فانيان إلى وفاته سنة 1931 أستاذاً للأدب العربي. وقد عرفنا أنه كان مهتماً بالتاريخ الاسلامي والمخطوطات أكثر من اهتمامه بالأدب الصرف. ومن المستشرقين «الأدباء» أوغست كور الذي كتب أطروحته عن شعر ابن زيدون. ولكن كور لم يدخل مدرسة الآداب وإنما كان أستاذاً للغة العربية في مدرسة تلمسان ثم قسنطينة، أي المدارس الشرعية وليس الجامعة. وكان وجود ابن أبي شنب في مدرسة الآداب ضمانة قوية لدعم الأدب العربي، ولكنه كان، كما نعرف، أستاذاً إحتياطياً فقط، شأن الجزائريين الآخرين، وكان تلاميذه هم المستشرقين، وقلما دخل الجزائريون هذه المدرسة (الكلية). ومن جهة أخرى فإن اهتمام ابن أبي شنب كان بالمخطوطات واللغة والتحقيق أكثر منه بالأدب الصرف أيضاً. فهو بحق أقرب إلى أن يكون باحثاً استشراقياً من أن يكون أديباً عربياً.

وبالإضافة إلى ذلك ظهرت في المرحلة الثانية للاستشراق دراسات عن المدن والمجتمع «الأهلي» في عهوده المختلفة. فكتب ماسكري أطروحته عن السكان الحضريين في الأوراس وجرجرة وميزاب وطريقة تشكل المدن في هذه المناطق. ونشر موتيلانسكي دراسة عن مدينة القرارة، وملاحظات عن سوف وغدامس. وقام جولي بدراسة اجتماعية عن منطقة التيطري. وظهرت مونوغرافات أو كتب متخصصة عن مختلف السكان والمدن على يد مترجمين وإداريين يطول ذكرها هنا. ذلك أن كل متصرف إداري كان يجمع

= ديدنشانت وكوهين سولال (كلاهما من وهران) كتاباً سنة 1897 سمياه (الكلمات المستعملة في اللغة العربية الدارجة).

(1) انظر فصل الشعر.

التقارير والاحصاءات والملاحظات والانطباعات أثناء عهده في الخدمة، فإذا تقاعد نشر كتاباً عن المنطقة أو البلدة التي عمل فيها. وكان هؤلاء غالباً متأثرين بجو الاستشراق والنظريات الاجتماعية والانثروبولوجية الجديدة.

أما التاريخ والجغرافيا والآثار وما يتصل بها فقد برز فيها عدد من المستشرقين أيضاً. ولعل أكثرهم قيمة واعتدالاً هو جورج مارسيه. وكانت جهوده في ميدان الآثار الاسلامية تشهد على ما قلناه سيما كتابه عن الآثار العربية في تلمسان، والآثار الاسلامية في العصور الوسطى. وله بحوث حول بعض المساجد والقصور ذات أهمية علمية[1] خاصة. وقد نشر فانيان أعمالاً تاريخية عديدة منها القليل المتصل بالجزائر والآخر عن المغرب الاسلامي والأندلس والمشرق العربي. من ذلك تاريخ الموحدين للمراكشي، وتاريخ الدولتين للزركشي، وحوليات المغرب والأندلس لابن الأثير، وتاريخ افريقية والأندلس لابن عذاري، وفي هذه الأثناء ظهر أيضاً كتاب أوغسطين بيرنار عن البداوة.

واهتم المستشرقون بالمخطوطات العربية والبربرية فحققوا منها البعض وكلفوا الجزائريين بتحقيق الآخر، كما اشتركوا في الترجمة والتحقيق معاً أحياناً. ومن يرجع إلى تأليف هنري ماصيه (الدراسات العربية في الجزائر) سيدرك كثرة ما نشر من المخطوطات في شكل كتب ووثائق. ولعل أبرز من فعل ذلك رينيه باصيه وتلميذه ابن أبي شنب. ونحن نحيل على دراسة ماصيه المذكورة، وما نشر بعد ذلك على يد كور وغوستاف ميرسييه، وما نشر أيضاً في (الحوليات الشرقية) التي كان يصدرها معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة الجزائر. وننبه إلى أن بعض المخطوطات قد اشترك في تحقيقها جزائري ومستشرق مثل (روضة النسرين) في تاريخ بني مرين التي حققها جورج مارسيه والغوثي بو علي[2]، وهنري جاهير ونور الدين عبد القادر في

(1) الجهود الفنية التي ظهرت في مشروع فيلا عبد اللطيف منذ فاتح هذا القرن ستتعرض إليها في فصل الفنون.

(2) باريس، 1917. وحول نفس الموضوع (تاريخ بني مرين) نشر ليفي بروفنصال في=

نشر (روضة السلوان) للفجيجي[1]. وقد كان محمود كحول قد نشر قصيدة الصيد (روضة السلوان) في التقويم الجزائري الذي كان يشرف عليه، سنة 1911، ص 71 ـ 94[2]. وكان نور الدين عبد القادر قد اشترك مع غبريال كولان في تسليط الضوء على أعمال عبد الرزاق بن حمادوش. وكان ليكليرك قد اهتم بابن حمادوش وترجم بعض أعماله إلى الفرنسية[3].

وقد نشر شيربونو وثائق ونصوصاً من كتاب (النبذة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة)، وهو من تأليف محمد ابن حماد الصنهاجي، من أهل القرن الخامس الهجري، نشر ذلك في (المجلة الآسيوية). ولكن الكتاب قد ضاع فيما يبدو، وقد يكون شيربونو حصل على النسخة الوحيدة فأخذ منها ولم يرجعها لأصحابها. ذلك أن الباحثين لم يعثروا حتى الآن على نسخة كاملة من (النبذة) المذكورة. وعندما درس عثمان الكعاك العهد الحمادي اعتمد على ما نشره شيربونو. ويذكر الكعاك أيضاً أن السيد أماري قد نقل من النبذة في المكتبة الصقلية[4].

وكانت رحلة الورتلاني قد أثارت اهتمام المستشرقين أيضاً. وقد نشرها بالعربية محمد بن أبي شنب، ولكن ذلك لم يلب حاجة المستشرقين. كانت إحدى النسخ المخطوطة في حوزة المولود بن الموهوب، وثلاث نسخ أخرى عند جان ميرانت سنة 1899. وكان ميرانت يسعى إلى ترجمتها (وهو

= المجلة الآسيوية، 4، 1923، نفس الكتاب مع تعاليق إضافية معتمداً على مخطوطتين جديدتين، كما نشر بروفنصال أيضاً كتاب ابن مرزوق (المسند الصحيح) في تاريخ بني مرين في مجلة هيسبريس، 5، 1925، وظهر في شكل منفصل في 32 صفحة، باريس، 1925. وأيضاً شارك ابن أبي شنب في ذلك بنشر كتاب مجهول المؤلف في تاريخ بني مرين عنوانه (الذخيرة السنية)، الجزائر، 1921.

(1) الجزائر، 1959. النص 28 والترجمة 69 + 16.

(2) انظر المجلة الافريقية، 1959، مراجعة علي مراد، ص 409 ـ 410.

(3) انظر تحقيقنا لرحلة ابن حمادوش، وكذلك دراستنا عنه بعنوان (الطبيب الرحالة).

(4) شيربونو، المجلة الآسيوية، 22 1852، ص 510 ـ 570. والكعاك (بلاغة العرب)، تونس، دون تاريخ، ص 18 ـ 28.

مترجم عسكري كان يعمل في إدارة الشؤون الأهلية)، ولعل كثرة أشغاله وضخامة حجم الرحلة قد أخراه على إنجاز مشروعه. ولذلك قام زميله موتيلانسكي أستاذ العربية ومدير مدرسة قسنطينة الشرعية بترجمة الجزء الخاص بالرحلة من طرابلس إلى القاهرة[1]. ثم وجدنا محمد الحاج صادق، في عهد متأخر، يقوم بترجمة خاصة للرحلة الورتلانية.

وفي سنة 1911 نشر ألفريد بيل بالتعاون مع الغوثي بوعلي (كان المدرس الرئيسي في جامع تلمسان الأعظم) القسم الأول من الجزء الثاني من كتاب (بغية الرواد) ليحيى بن خلدون، وهو في تاريخ بني عبد الواد. وهو عمل يشتمل على النص العربي والترجمة. وكان الجزء الأول قد نشر حوالي 1903. واعتمد المحققان على عدة مخطوطات. والقسم الثاني المذكور يشمل عهد أبي حمو موسى الثاني إلى حوالي أربع سنوات فقط قبل اغتيال المؤلف يحيى بن خلدون الذي كان كاتباً للسلطان أبي حمو. وهكذا كان التعاون وثيقاً بين الجزائريين والمستشرقين ولكن الفائدة كانت لصالح هؤلاء دائماً[2].

أما الأعمال الجماعية للاستشراق فقد ظهرت في عدة حالات. نذكر منها الجمعيات العلمية التي أنشئت منذ أواخر القرن. وكانت جمعيات الجزائر والمغرب العربي عموماً تتجاوب مع مثيلاتها في فرنسا. وكانت الجمعيات العلمية في الجزائر وتونس والمغرب تعقد اجتماعات دورية في إحدى المدن الرئيسية بمنطقة المغرب العربي. ويصدر عن ذلك مجموعة الأعمال والبحوث التي تقدم في كل اجتماع، وهو مجهود يدل على البرمجة والتخطيط حيث يتوزع المشاركون ـ وليس جميعهم من المستشرقين ـ موضوعات تدخل في أغلبها في نطاق العلوم الاجتماعية. وهناك مناسبة أخرى أظهرت فيها مدرسة الآداب قوتها وهي انعقاد مؤتمر المستشرقين 14

---

(1) نظر المجلة الجغرافية الجزائرية SGAAN 1899 ـ 1900، ص 136 ـ 140.
(2) راجعته (مجلة العالم الاسلامي) مارس 1912، 252، وابن أبي شنب في (المجلة الافريقية)، 1914، ص 150 ـ 152.

سنة 1905، الذي صدرت عنه مجموعة وقائع وبحوث أيضاً في عدة مجلدات، وحضره حوالي 500 مشارك معظمهم من فرنسا وأوروبا. أما المناسبة الأخيرة فهي الاحتفال المئوي بالاحتلال سنة 1930. وقد تألفت له «لجنة علمية»، منذ 1927. وكانت مكلفة بكتابة بحوث وإعداد نشرات وإقامة معارض، الخ. لتعريف العلماء الزائرين بإنجازات فرنسا في الجزائر. ولعبت في هذه المناسبة كلية الآداب الدور الرئيسي. وظهر الارتباط الدقيق بينها وبين إدارة الاستعمار من جديد، أو بالأحرى بين هذه الإدارة والاستشراق.

يقول هنري ماصيه، المستشرق الذي نشر عمله من وحي الاحتفال المئوي أيضاً، عن جهوده وجهود زملائه، ما يلي: إن المجالات التي عالجها المستشرقون (يسميهم المستعربين) في الجزائر خلال رحلتهم هي: المعاجم، واللسانيات، والخطوط (الكتابات)، والتاريخ الديني، وتحقيق وترجمة النصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية والفقهية والعلمية، ثم الدراسات الأثنوغرافية والفلكلورية، وأخيراً الكتب المدرسية.

أما ما يزال ينتظرهم فهو في نظره تدريس تاريخ الأدب (العربي؟) وذلك بالخروج من العموميات بعد أن يملك الطلبة مجموعة عربية من المؤلفين والتراجم ثم ترجمات كثيرة من النصوص التاريخية المتعلقة بالجزائر، ولكن بقيت أعمال أخرى تتعلق بالتاريخ والفقه في المغرب العربي عامة، وهي مجموعة الأحاديث الدينية لمالك بن أنس[1] ومسلم، بالإضافة إلى نصوص إباضية. كما أن بعض النصوص الجغرافية المتعلقة بالجزائر ما تزال غير مترجمة. ومن جهة البحث اللغوي والاثنوغرافي فما يزال هناك مجال واسع أمام الباحثين نظراً لتطور المجتمع الأهلي السريع. والواجب، في نظره إجراء تحقيقات عميقة ومنهجية في مختلف المناطق عن عادات وتقاليد ولهجات السكان. ودعا إلى ضرورة إنشاء «معجم العربية الجزائرية».

(1) كذا، ولعله يقصد موطأ الامام مالك، وصحيح مسلم.

ولكن نظراً لضخامة هذه المهمة وعدم اعتمادها على مؤلف واحد وتعدد اختصاصاتها فلا بد من إنشاء مجموعة عمل لوضع أطلس لغوي شبيه بالأطلس الأثري الذي وضعه ستيفان قزال[1].

حياة بعض المستشرقين والمستعربين

اجتمع لدينا بالإضافة إلى من ذكرنا، عدد من تراجم مختصرة لبعض المستشرقين والمستعربين الفرنسيين الذين اشتغلوا بالدراسات الاسلامية والعربية والترجمة. نذكر منهم:

1 ـ **البارون بواسوني**: ولد في باريس في 19 يونيو (جوان) 1811. وبعد أن درس في فرنسا أصبح ضابطاً في المدفعية، وتولى في قسنطينة إدارة الشؤون الأهلية (المكتب العربي)، وبدأ حياته العلمية سنة 1884. ويقول عنه لويس رين إنه أول فرنسي لفت الانتباه إلى ملامح وخصائص البربر. ونشر بواسوني في المجلة الأثرية (روكاي) بقسنطينة حروف الهجاء التي كان الطوارق يستعملونها. وفي سنة 1884 نشر بواسوني النص العربي لبعض أشعار الأمير عبد القادر، وكذلك التنظيمات العسكرية المسماة (وشاح الكتائب) التي أعدها قدور بن رويلة، كاتب الأمير. ثم نشر الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية لابن القنفذ، وكذلك تحفة العروس لعمر الجزائري.

كان بواسوني من أصول ارستقراطية عارفا باللغة العربية، وقد رشحته حكومته لمرافقة الأمير بعد هزيمته في ديسمبر 1847. وعينه في هذه المهمة الدوق دومال الذي كان متولياً (حاكماً عاماً) للجزائر عند الهزيمة. رافق بواسوني الأمير في فرنسا وفي المشرق. بقي معه في حصن (لامالق) ثم في سجن (بو) ثم قصر امبواز. كان لا مورسيير الذي وعد الأمير بالأمان في الجزائر آخر ديسمبر 1847، قد أصبح بعد ثورة فبراير 1848 في فرنسا

(1) ستيفان قزال، تخصص في تاريخ المغرب القديم، ونشر عدة مجلدات في ذلك شملت حضارة البربر. وكان معاصراً لحركة الاستشراق. وقد توفي سنة 1932.

وزيراً للحربية، فتنكر للأمير وضيق عليه الخناق ولم يطلق سراحه ليتوجه إلى المشرق، كما وعده. وكان من المفروض أن يخفف البارون بواسوني أهوال الغربة على الأمير وأن يشرح له الأسباب السياسية التي جعلت حكومة فرنسا تسجنه بدل أن تطلق سراحه. وظل إطلاق سراح الأمير ينتظر إلى أكتوبر 1852 حين تولى نابليون الحكم بنفسه، وعندئذٍ توجه بواسوني مع الأمير إلى اسطنبول.

شارك بواسوني كذلك في الجمعية الأثرية بقسنطينة ومجلتها. وشجع مجموعة من المثقفين الجزائريين الذين مالوا للفرنسيين، على تأليف كتب ومذكرات حول قسنطينة، ومنهم محمد الصالح العنتري الذي كتب (الفريدة المؤنسة) و(هدية الاخوان)، بدافع منه. وكان بواسوني يراسل محمد الشاذلي الذي تولى القضاء ثم إدارة المدرسة الفرنسية ـ الشرعية. ودامت المراسلات بينهما طويلاً حتى بعد انتقال بواسوني من قسنطينة. وكان الشاذلي قد زار قصر امبواز وبقي مع الأمير فترة لتسليته. ولعل جلب الشاذلي إلى هناك كان بإيعاز من بواسوني نفسه لأنه كان يعرفه في قسنطينة. وقد شارك بواسوني أيضاً في تأسيس الجمعية التاريخية بالجزائر. وترأسها بعض الوقت. وبعد انتقاله إلى فرنسا ظل يزور الجزائر كل شتاء ليشارك في اجتماعات الجمعية التاريخية. أما الوظائف الإدارية الأخرى فقد كان بواسوني هو النائب الأول لرئيس المجلس العام (المجلس الولائي) لولاية الجزائر عند إنشاء هذا المجلس سنة 1858. وكان الأعضاء عندئذٍ تعينهم الحكومة وليسوا منتخبين. وكان بواسوني يسكن في فيلا أنيقة بضاحية الأبيار تسمى (لاطوس). وقد أدركه الموت على 91 سنة في 22 فبراير، 1902. فبواسوني كان من أوائل «المستشرقين» العسكريين[1].

---

(1) لويس رين، المجلة الافريقية، 1902، ص 133 ـ 136. وكان رين معاصراً له وضابطاً مثله، وقد توفي بعده بقليل، انظر أيضاً كتابنا (القاضي الأديب)، ط. 2، 1985.

2 ـ ارنست ميرسييه: ولد في لا روشيل (فرنسا) سنة 1840. وكان أبوه (ستانيسلاس) طبيباً وصيدلياً. جاء مبكراً إلى الجزائر كطبيب عسكري. وشارك في الحملات ضد الجزائريين مع بوجو، وفي 1854 غادر الجيش واستقر كطبيب في سور الغزلان. وهناك حصل على أرض واستقر كرب عائلة. أما إبنه ارنست، فكان عمره عندئذٍ 13 سنة. ترك الدراسة في لاروشيل وعاش مخالطاً للجزائريين فتعلم منهم العربية ودرسها. وفي 1865 نجح في مسابقة المترجم العسكري، وسمى مترجماً في سبدو حيث كانت ثورة أولاد سيدي الشيخ تصل إلى هناك من الجنوب الغربي، وازدادت معرفته للعربية فتقدم لمسابقة المترجم القضائي. ثم أصبح مترجماً لقاضي الصلح في محكمة الحروش، ثم في تنس. وعند وقوع ثورة 1871 كان ارنست في تنس. وقد تطوع وأصبح قائداً للميليشيا المحلية ضد الثوار هناك. وفي نوفمبر 1871 سمي مترجماً محلفاً في قسنطينة حيث كان الثوار يحاكمون بالجملة. وكان والده قد استقر في قسنطينة بصفته صيدلياً. وكذلك استقر ارنست وكوّن عائلة. ودخل ميدان السياسة فتولى منصب رئيس البلدية في قسنطينة مرتين، وعضواً في المجلس الولائي العام C.G.

كان ارنست ميرسييه مغرماً بالدراسة أيضاً. ومنذ 1867 أصبح عضواً في الجمعية الأثرية لقسنطينة، وساهم في تحرير مجلتها (روكاي)، وقدم إليها دراسة عن الطريقة القادرية، وأخرى عن ثورة ابن غانية، وتاريخ معارف القدماء الجغرافية عن افريقية الشمالية. وتولى نيابة رياسة الجمعية المذكورة ثم رئيساً لها سنة 1892.

درس ميرسييه التاريخ والأدب العربي واللغة والدول التي تداولت على افريقية الشمالية. وقد نشر مجموعة من البحوث منها تاريخ شمال إفريقية، سنة 1891 في ثلاثة أجزاء. وهو العمل الذي نال عليه الميدالية الذهبية من جمعية الدراسات التاريخية بباريس، كما نشر بحوثاً عن الكاهنة وكسيلة، وعن فرنسا والصحراء، والمِلْكية في بلاد المغرب العربي طبقاً لمذهب الإمام

مالك، واحتلال قسنطينة. ومن مؤلفاته وضع المرأة المسلمة في إفريقية الشمالية، وأوضاع السكان الجزائريين (الأهالي) تحت الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي. ثم الملكية العقارية الاسلامية في الجزائر، وغيرها من البحوث. وله دراسة عن المقرانيين وثورة 1871، وأخرى عن فن الترجمة الكتابية والشفوية. وقد توفي سنة 1907 في مدينة قسنطينة(1).

إن ارنست ميرسييه يعتبر مثالاً للعسكري ـ المدني الفرنسي، والمستوطن الحاقد على كل ما هو عربي ومسلم. وتشهد كتابته عن الفتح الاسلامي وعن المقرانيين على ما نقول. ومع ذلك فإنه من المساهمين البارزين في الترجمة والتأليف والبحث إلى جانب الوظائف الادارية والسياسية التي تولاها(2).

3 ـ فايسيت: لا يذكر مترجموه تاريخ ميلاده. ويبدو انه ولد في فرنسا، وجاء إلى الجزائر مبكراً. واشتغل في الحياة المدنية، فتعلم العربية، وكان معلماً ثم مديراً لمدرسة عربية ـ فرنسية في قسنطينة، ذلك النوع من المدارس الذي كان يهدف إلى بث الثقافة الفرنسية عن طريق العربية الدارجة. ولم يترك فايسيت التعليم والادارة تأخذ كل وقته فانتقل من التعليم إلى الترجمة كمحلف، ربما لأسباب مادية، ولكنه بقي دائماً في قسنطينة إلى تقاعده. وقد توفي سنة 1900 في (اسباليون؟) حيث كان متقاعداً مدة طويلة.

أهلته معرفته للعربية ومكثه الطويل في قسنطينة للاطلاع على الوثائق الأهلية وتاريخ الناحية. كان عضواً في الجمعية الأثرية لقسنطينة منذ 1862. وقد ساهم في مجلتها ببعض بحوثه. ومما نشره: تاريخ قسنطينة في العهد

---

(1) ج. ماقيلون (روكاي)، 1908، ص 15 ـ 19. كان ماقيلون نائباً لرئيس الجمعية الأثرية لقسنطينة.

(2) أثناء فترة العرائض في قسنطينة كان ميرسييه هو رئيس البلدية. وكان يمثل رأي الكولون في مسائل القضاء الاسلامي، والتجنس، والتلاعب بصفوف النخبة الاندماجية. انظر الحركة الوطنية جـ 1.

العثماني، وهو تاريخ سياسي، من 1517 ـ 1837، اعتمد فيه على كتاب العنتري، وابن العطار وابن الفكون وغيرهم. كما نشر ملاحظات على قلعة بني عباس ومدافعها ولكن فايسيت كان يترجم أكثر مما كان ينشىء، رغم استغلاله للوثائق المحلية، كما ذكرنا[1].

4 ـ شارل قابو: لا يمكن عده في المستشرقين، غير أنه من المترجمين المستعربين الذين كانوا على صلة بالجزائر وزعمائها. ولد في فرنسا سنة 1831. ولا ندري أين أو كيف تعلم العربية، لأن شارل فيرو يقول عنه إنه عين مترجماً ملحقاً بقصر امبواز حيث كان الأمير وأسرته مسجونين أي 1848 ـ 1852. وعند إطلاق سراح الأمير وتوجهه إلى المشرق كلف قابو بمرافقته أيضاً، لأن مهمة بواسوني قد انتهت في اسطنبول. وفي يوليو سنة 1865 زار الأمير عبد القادر فرنسا فوضع قابو تحت تصرفه كمترجم. وقد رافق أيضاً ابن الأمير (وهو محمد صاحب تحفة الزائر) إلى دمشق في السنة الموالية، حسب تعبير فيرو. ومنذ هذا التاريخ 1866 أصبح قابو ملحقاً بوزارة الحربية في باريس مكلفاً بمصالح الجزائر.

ويبدو أن قابو كان يجمع إلى الترجمة وظيفة الدبلوماسية والمخبر أيضاً. فقد كلفته وزارة الحربية مرتين أخريين بمرافقة زعيمين جزائريين أحدهما ثائر، وهو شريف ورقلة (محمد بن عبد الله أو إبراهيم بن فارس). وكان هذا الثائر سجيناً لدى الدولة الفرنسية بعد إلقاء القبض عليه حوالي 1861. وكان قد حمل إلى سجن عنابة (قلعة بيربينيان). أما الآخر فهو الشاب أحمد التجاني شيخ زاوية عين ماضي الذي رأت فرنسا نقله مع أخيه البشير إلى بوردو أثناء ثورة 1870 ـ 1871. والمعروف أن أحمد التجاني قد تزوج عندئذٍ من أوريلي بيكار، بنت أحد رجال الدرك الفرنسيين. ولا ندري ما دور قابو في موضوع الزواج ما دام هو المرافق والشاهد والممثل لوزارة الحربية . ومن الأكيد أن هـذه الوزارة لو لم يكن لها يد في هذا الزواج لما

(1) انظر (روكاي)، 1901، ص 289 ـ 290.

انبرم. والظاهر أن قابو كان حياً سنة 1876 عندما ألف فيرو كتابه[1].

5 ـ **هنري دوفيرييه**: ولد في فرنسا، وتعلم فيها. وجاء والده إلى الجزائر، وكان من الكولون ومن أصدقاء الدكتور وارنييه. بدأ هنري رحلته الشهيرة من قسنطينة حاملاً توصيات دقيقة من الجنرال (ديفو) قائد القطاع العسكري بها، وذلك في شهر مايو 1859 واتجه نحو ميزاب. وكان الشريف محمد بن عبد الله (شريف ورقلة) ما يزال نشطاً في جهة عين صالح. ودامت رحلة دوفيرييه ثلاث سنوات، وقد رجع إلى الجزائر مريضاً، فعالجه الدكتور وارنييه صديق والده. كانت الرحلة تغطي المنطقة بين المنيعة غرباً وزويلة شرقاً وبسكرة شمالاً وغات جنوباً. وكان يعرف عن غات من رحلة إسماعيل بوضربة إليها سنة 1858، بل كان عرفه شخصياً، ويقول انه استفاد من رحلته.

كان دوفيرييه يحمل أيضاً رسائل للتعريف به وحمايته وتقديمه للمقدمين التجانيين وغيرهم، من عدد من الجزائريين، منهم: الخليفة حمزة من كبار عائلة سيدي الشيخ، وكان حمزة يحكم الجنوب الغربي باسم فرنسا. كما كان دوفيرييه يحمل رسالة من الشيخ محمد العيد بن الحاج علي، شيخ زاوية تماسين التجانية ووارث بركتها، وذلك بتدخل من الجنرال ديفو لدى الشيخ محمد العيد، وزكاه كذلك مقدم التجانية في قبيلة ايفوغاس بشمال الهقار، وهو المرابط عثمان بن الحاج البكري، وكذلك الأمير الحاج محمد ايخنوخن رئيس طوارق الأزجر، والمرابط البكاي ابن عم شيخ تمبوكتو وهو من الطريقة القادرية، كما زكاه سليمان العزابي مدير الفشاطو (؟) بجبل طرابلس. وكان دوفيرييه قد وجد أيضاً مساعدة كبيرة من السيد أحمد بن زرمة السوفي (من سـوف) الذي قال عنه أنه رافقه خلال الجزء الصعب من رحلته ووصفه بالاخلاص والذكاء والحيوية، وقد اعترف له ولغيره بالجميل. وكان

---

(1) شارل فيرو (مترجمو جيش افريقية)، الجزائر 1876، ص 334 ـ 335. عن أحمد التجاني انظر فصل الطرق الصوفية. ولا نعرف أن قابو قد ترك عملاً مكتوباً شأن المستعربين.

دوفيرييه متحفظاً جداً من السنوسيين الذين رأى فيهم الخطر الكبير على فرنسا في المنطقة. وقد حصل كتابه الذي جمع فوائد جمة عن المنطقة المذكورة، على الميدالية الذهبية الكبيرة من الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس سنة 1864[1].

ورغم اقتراب دوفيرييه من الاستشراق بمعرفته العربية والبربرية، وتقديمه نبذة عن حياة المرابطين المعاصرين الذين اختلط بهم أو سمع عنهم في المنطقة، فإنه لا يعتبر مستشرقاً بالمعنى الدقيق للكلمة لأنه لم يدرس ولم يتخرج من مدرسة استشراقية. ولكن أعماله ظلت مرجعاً للمستشرقين اللاحقين المهتمين بالقبائل الصحراوية والحياة اللغوية والدينية هناك. وقد تعامل دوفيرييه مع أشهر الطرق الصوفية في وقته التجانية والقادرية والشيخية والطيبية.

6 ـ لويس رين: ولد في باريس في 28 مارس 1838. وكان من عائلة علمية اهتمت بالحياة الأكاديمية مثل عمه وأخيه... أما هو فقد درس في سان سير، مدرسة الفرسان، وجاء الجزائر سنة 1864 بمناسبة ثورة أولاد سيدي الشيخ. ولكنه دخل في سبتمبر من العام نفسه في مصلحة الشؤون العربية حيث قضى فترته وخدمته العسكرية كلها تقريباً. وفي سنة 1880 أصبح هو رئيس المصلحة المركزية للشؤون الأهلية. ولكن بعد خمس سنوات ألغيت هذه المصلحة، أي في عهد الحاكم العام لويس تيرمان، وبعد ذلك تقاعد رين وأصبح مستشاراً لدى الحكومة العامة. ولا شك أن عمله منذ 1864 في المصالح الأهلية قد جعله يتعرف على مشاكل الجزائريين الدقيقة لأن كل الوثائق والمراسلات كانت تمر بيده، كما جعلته يتعرف على أنماط الناس وتفكيرهم.

تولى رين رئاسة الجمعية التاريخية سبع سنوات، وظل يشارك في

---

(1) انظر رحلة دوفيرييه (اكتشاف الصحراء)، ط. باريس، 1864. المقدمة. وعن علاقته بالطرق الصوفية في المنطقة انظر فصل الطرق الصوفية.

أعمالها ثم رئيسها الشرفي إلى وفاته سنة 1905. وخلال أدائه لوظيفته الحساسة ـ الشؤون الأهلية ـ ألف رين عدة كتب ذات طابع إحصائي وإجمالي، ولكنها مفيدة. وقد كتبها بروح الأب الخبير الحريص في نظره على مصلحة الأهالي. وكان من موقعه يتلقى التقارير والرسائل، كما كان يراسل من يشاء من أعيان الأهالي ويطلب منهم المعلومات لكتبه، ولا ندري كيف تعلم العربية والبربرية، لأنه كان يعرفهما، وتتركز أعماله على اللغة والعادات والدين والتقاليد. وأشهر مؤلفاته: تاريخ انتفاضة 1871، ودراسة الطرق الصوفية الذي سماه (مرابطون واخوان)، وله كذلك أبحاث نشرها في المجلة الافريقية في البداية، منها: مملكة الجزائر تحت آخر الدايات، والممالك البربرية الأولى وحرب يوغرطة، وبحث في الدراسات اللغوية والاثنولوجية عن البربر. وأخبر زميله لاكروا أن رين كرس سنواته الأخيرة لكتابة موسوعة كبيرة عن تاريخ الجزائر تضم أحد عشر مجلداً، ولكننا لا نعرف ماذا أكمل منه، لأن الكتاب الأخير لم ير النور، على ما نعرف[1]. غير أن آجرون رجع إليه في بعض مؤلفاته، وهو، بناء عليه، ما يزال مخطوطاً.

7 ـ أدريان ديلبيش: ولد في بوفاريك سنة 1848، فهو ابن مستوطن فرنسي استقر في قلب سهل متيجة الغني، ولكن أدريان تعلم العربية في مدرسة تلمسان الشرعية ـ الفرنسية عندما كان مديرها هو بيلار. أصبح أدريان مترجماً عسكرياً مثل كثير من الشبان الفرنسيين الذين وجدوا في هذه المهنة وسيلة للعيش والاستعمار أيضاً. ومثل معظم المترجمين عندئذٍ فإن همه ليس العربية المكتوبة ولكن الدارجة المنطوقة فقط. وقد جاء إلى العاصمة ليزداد علماً بالعربية على لويس برينييه، ودخل المسابقة ونجح في مهنة الترجمة العسكرية. وكان ملازماً للجنرال سيريز سنة 1871 أثناء ثورة الرحمانيين

(1) ن. لاكروا، المجلة الافريقية، 1905، ص 130 ـ 132. توفي رين في 6 مارس، 1905 بمدينة الجزائر. وكان قد حصل على رتبة عقيد في الجيش. انظر ما كتبه أجرون عن هذا الكتاب.

والمقرانيين. وقيل انه هو الذي حرر الانذار الفرنسي قبل الهجوم على فج أولاد عزيز، وهو الانذار الموجه للثوار. كما رافق أدريان الفرقة التي كانت تحمل المؤونة عبر بوسعادة والتي كانت بقيادة العقيد ترومیلي. وبعد القضاء على الثورة تفرغ أدريان ديلبيش للدراسة واستقال من الترجمة العسكرية ودخل الترجمة القضائية. وبهذه الصفة اشتغل في عدة محاكم فرنسية، منها محكمة تيزي وزو وبلعباس ومينيرفيل (الثنية) والبليدة. وأثناء ذلك حصل من مدرسة الآداب في الجزائر على دبلوم اللغة العربية. والدراسة الأخيرة هي التي قربته إلى صف المستشرقين.

فقد نشر بحوثاً حول ثورة الطريقة الدرقاوية 1800 ـ 1813 كما وردت في كتاب مسلم بن محمد، ونشر تاريخ الأمير عبد القادر الذي كتبه ابن عمه الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو ترجمة جزئية للأمير، كما نشر بحثاً عن زاوية سيدي علي بن موسى، وآخر عن إجازة مقدم للطريقة الرحمانية، وخلاصة لكتاب البستان لابن مريم. كما توجه ديلبيش لدراسة الفقه الاسلامي، وقال مؤبنه إنه قد عهد إلى أحد أصدقائه بإخراج ما تقدم في تحريره منه. وكان ديلبيش من أعضاء الجمعية التاريخية. وهكذا يظهر أنه قد تحول من العمل العسكري إلى القضاء ثم إلى الدراسات الاستشراقية والاهتمام بترجمة النصوص العربية والتعريف بالتراث الاسلامي والطرق الصوفية والفقه. ولكن أعماله، مثل أعمال معظم المستشرقين، تبقى خفيفة ولا تساهم في تعميق المعرفة إلا قليلاً. وقد أدركه الموت في سن مبكر، إذ كان في السادسة والأربعين عندما توفي سنة 1894[1]. ولعله لو عاش وظل على طريقه لأخرج أعمالاً أخرى ذات أهمية.

8 ـ البارون ديسلان: ولد في بيلفاست (ايرلندة) في 12 غشت 1801. وجاء إلى باريس سنة 1830 حين كان الأجانب يريدون معرفة الاستشراق

(1) ا. ف. (فانيان؟) في المجلة الافريقية، 1894، ص 374. الأعمال التي ذكرناها له كلها منشورة في هذه المجلة.

الفرنسي ونيل السمعة منه. وأصبح من تلاميذ دي ساسي، ومن أحسن تلاميذه. ومنذ 1837 بدأ ينشر الآثار العربية، فنشر ديوان امرىء القيس ومنتخبات من كتاب الأغاني. وبالتعاون مع المستشرق (رينو) نشر جغرافية أبي الفداء على نفقة الجمعية الآسيوية، وبدأ ديسلان في نشر كتاب وفيات ابن خلكان، وكتاب النوري عن أفريقية والمغرب، وكذلك وصف أفريقية لابن حوقل، ورحلة ابن بطوطة. وهذا كله يظهر اهتمامه المبكر بالتاريخ والأدب العربي.

وبعد أن حصل ديسلان على الجنسية الفرنسية كلفته الحكومة بمهمة في الجزائر سنة 1843 ـ 1845، فقام بأدائها، وأرسل إلى وزير المعارف العمومية تقريراً عن مجموعة المخطوطات ذات الأهمية في المكتبات الخاصة بالجزائر، مثل مكتبة حمودة الفكون بقسنطينة، ومكتبة باشتارزي في هذه المدينة أيضاً. وقد وصف استقبال الأهالي بأنه كان ودياً[1].

وإثر هذه المهمة الناجحة في نظر رؤسائه سمي ديسلان مترجماً رئيسياً للجيش الفرنسي بالجزائر، في أول سبتمر 1846، أي في أوج عهد بوجو. كأن ديسلان، مثل معظم المستشرقين عندئذٍ يعرف العربية والتركية. وقد درس اللغة الأخيرة في اسطنبول أثناء بعثة لدراسة المخطوطات أيضاً دامت سنة. وتولى تدريس اللغة التركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس محل المستشرق جوبير سنة 1848، لكن حكومة الجمهورية الجديدة عزلته وعينت بدله دوبو. ولكن بوجو وأخته عملا على تصحيح وضعه لدى وزارة المعارف، وقد صحح الوضع فعلاً سنة 1849 عندما أعيد ديسلان إلى الجزائر مترجماً رئيسياً في الحكومة العامة[2]. وبذلك أصبح هو الذي يصوغ نصوص البلاغات الرسمية والمراسلات العربية للحكومة في الجزائر مع الأهالي، وأصبح أسلوبه منهجاً لمن جاء بعده. وخلال إقامته في

(1) مما يذكر أن حمودة الفكون كان مغضوباً عليه من الفرنسيين عندئذٍ 1843 ـ 1845 وقد بيعت مكتبة الفكون في المزاد. انظر فصل المنشآت الثقافية.

(2) أصبح ديسلان صهراً للمارشال بوجو، فكان ديسلان متزوجاً من ابنة أخت بوجو.

الجزائر ترجم تاريخ ومقدمة ابن خلدون، وهو العمل الذي جلب إليه تنويه زعماء مدرسة الاستشراق الفرنسي، مثل رينان.

وفي سنة 1863 أعطيت لديسلان رخصة لتدريس العامية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس. وهو الوظيف الذي أصبح رسمياً منذ 1871حين عين ديسلان أستاذاً للعربية العامية بالمدرسة المذكورة مكان بيرسوفال. ومنذ هذا التاريخ أيضاً تفرغ ديسلان لدراسة مؤرخي الحروب الصليبية والدراسات الشرقية، وتخلى عن تدريس العامية الجزائرية التي اعتبرها بعض المستشرقين (مثل موهل) قد جنت على موهبة ديسلان في الانتاج والتأليف من الفصحى. والمعروف أن ديسلان قد أصدر كاتلوق المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة الوطنية الفرنسية. ومات في 4 غشت، 1878[1]. ومما يذكر أن ديسلان كان أيضاً هو المشرف على جريدة (المبشر) التي كانت تصدرها الحكومة العامة والموجهة بنسختها العربية إلى القراء الجزائريين، وكان أسلوبه فيها واضحاً ومتميزاً. وقد عمل معه فيها عدد من الجزائريين نذكر منهم أحمد البدوي[2]

9 ـ **دومينيك لوسياني**: يمكن أن نعتبره رجلاً إدارياً إذ أنه ظل أكثر من عشرين سنة وهو يسير الشؤون الأهلية عن قرب. فهو الذي تولى تفتيش البلديات ونشط الإدارة المدنية على حساب الإدارة العسكرية منذ 1890. وأثناء ثورة عين التركي كان لوسياني هو الذي أمر بإقامة المحاكم الزجرية وقمع الثورة بلا رحمة. ومع ذلك يصفه مترجمه بول مارتي بأنه كان يعمل على تقريب الأهالي من الفرنسيين. وقد عمل لوسياني مع ثلاثة من الحكام العامين هم ريفوال وجونار ولوتو. وكان لوسياني قد زار عدة بلدان إسلامية لدراسة أحوالها الإدارية، في ظاهر الأمر، ومنها مصر وتونس والمغرب وسورية، وكان يريد أن يستفيد منها في إدارة شؤون الأهالي بالجزائر. وقد

---

(1) هنري ماصيه (الدراسات العربية في الجزائر)، 1931.

(2) انظر ترجمتنا له في فصل آخر، وحديثنا عن المبشر في فصل المنشآت الثقافية ـ فقرة الصحافة.

عمل أثناء وجوده على رأس هذه الإدارة على تنظيم الحالة المدنية الجديدة التي فرضها الفرنسيون على الجزائريين قصد تغيير هويتهم وأنسابهم استعداداً لدمجهم، وعلى تطوير ما يسمى بجمعيات الاحتياط الأهلية والتي تفرض على الجزائريين من فلاحين وغيرهم الدخول في جمعيات تعاونية تقدم إليهم المساعدات عند الحاجة لحدوث الجوائح.

والأمر الثالث الذي حصل أثناء عهده هو تنشيط حركة التعليم الفرنسي في الجزائر، ابتداء من عهد كامبون، وفي هذا النطاق تَدْخُل إعادة تنظيم المدارس الثلاث الشرعية خلال السنوات الأخيرة من القرن الماضي. وكان لوسياني يعتبر خريجي هذه المدارس ضروريين للتعليم في إفريقية العربية وفي المشرق والمغرب أيضاً إذا احتاجتهم فرنسا. وقيل إنه اهتم أيضاً بالمدارس المهنية الأهلية كورشات الطرز والزرابي والحدادة لفائدة المستوطنين، وكذلك العناية بالمكاتب الخيرية الاسلامية، سيما في عهد فصل الديانة المسيحية واليهودية عن الدولة، وكان لوسياني يعد لمشروعين لم يكتب لهما النجاح في عهده. وهما ترقيم الأملاك العقارية وتدوين الفقه الاسلامي.

أما عمله الاستشراقي فيقوم على تشجيعه ومساهمته في لجنة ترجمة الكتب العربية التي ذكرناها 1894. وقد سهر على نشر مجموعة من الأعمال في شكل ترجمات سواء من العربية أو من البربرية المكتوبة بالحروف العربية. وقد ذكرنا له ترجمة كتاب السلم المرونق في المنطق والدرة البيضاء في الفرائض، وكلتاهما لعبد الرحمن الأخضري كما ترجم الرحبية في الميراث، وهي لعبد الله الشنشوري، والعقيدة الصغرى (أم البراهين) لمحمد بن يوسف السنوسي، والجوهرة لإبراهيم اللقاني، وموطأ المهديّ ابن تومرت. وترجم من البربرية كتاب (الحوض) في الفقه، ومجموعة من أشعار إسماعيل ازيكيو حول ثورة 1871[1]. وتقتصر أعمال لوسياني على الترجمة مع قليل من

---

(1) بول مارتي في (مجلة العالم الاسلامي)، 1920، ص 1 ـ 9 مع صورة كبيرة للوسياني راجع فانيان كتابَيْ الرحبية والعقيدة السنوسية في المجلة الافريقية، =

الإضافات. وقد جعلته الإدارة لا يركز على الدراسات والبحوث، رغم أنه كان عنصراً فاعلاً في تنشيط حركة الاستشراق، سيما أوائل هذا القرن. وفي عهده أيضاً انعقد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر 1905، وزار الشيخ محمد عبده الجزائر 1903، وغير ذلك من الأحداث الهامة التي كان له يد فيها.

10 ـ لوشاتلييه: ألفريد لوشاتلييه من أعيان المستشرقين في مطلع هذا القرن. وكانت له رؤيته المستقلة، واعتداده بنفسه، وكان ماضيه عسكرياً، إذ تخرج من مدرسة سان سير. ثم تحول إلى الدراسات المدنية والاستشراق ودراسة التصوف. ولد في باريس سنة 1855، ودخل الحياة العسكرية، فشارك في المكاتب العربية بالجزائر، ومنها المكتب العربي في ورقلة. وعمل في مناطق أخرى عديدة بين 1878 ـ 1886، منها بوسعادة، وبوغار، وغرداية. وباعتباره من خبراء المناطق الصحراوية أخذه العقيد فلا ترز في أول بعثة له، وشارك في الأركان العامة بالعاصمة. وأثناء عمله في الصحراء قام بأول سبر (صونداج) للبحث عن المياه. ودرس تفاصيل الحياة في الصحراء، وكتب دراسة متميزة عن الصعاليك فيها، وهم (المدقانات) الذين ظهروا بين الستينات والثمانينات في القرن الماضي على إثر ثورات أولاد سيدي الشيخ وبوشوشة وابن عبد الله.

وفي سنة 1886 رجع لوشاتلييه إلى فرنسا مفضلاً حرية العمل لترويج الفكر الاستعماري، فخرج من الجيش وأخذ يكتب المقالات والكتب لدعم أفكاره. ونشر في المجلات والجرائد، وأخذ يبدي اهتماماً بالمسائل الاسلامية العامة وليس الجزائرية فقط، فألف في ذلك كتابين: الطرق الصوفية الاسلامية في الحجاز، والاسلام في القرن 19. وفي نظره أن الاسلام قد

= 1897، ص 120، وكلاهما كان مقرراً على التلاميذ. انظر أوغست كور في مجلة (روكاي)، 1922، ص 322 ـ 324، وهي مراجعة لكتاب السلم المرونق في ترجمته الفرنسية للوسياني.

استيقظ بقوة (حركة الجامعة الاسلامية) من المغرب الأقصى وإلى افغانستان، وأن هناك فرقا بين الاسلام الآسيوي والاسلام الافريقي، الأول متأثر بالاستعمار الانكليزي والروسي، والثاني متأثر بالاستعمار الفرنسي والاسباني. كما أن الاسلام في آسيا يتطور في مناطق عاشت فيها حضارات عديدة، أما في إفريقية فالإسلام، في نظره، يتطور في بلاد بدون حضارة، ولذلك فهو هنا بدون حدود[1].

ولكن ذلك ليس هو كل عمل لوشاتلييه. فقد أصبح أستاذاً في (الكوليج دي فرانس) محتكراً حلقة جديدة في الدراسات الاسلامية سماها المجتمعات الاسلامية. وهو في ذلك متأثر بأنواع الدراسات الاجتماعية الجديدة في فرنسا وألمانيا، دورخايم وماكس فيبر، وارنست رينان. ثم أسس لوشاتلييه (البعثة المغربية) عند الاهتمام الفرنسي المركّز على احتلال المغرب. ونشرت البعثة موسوعتها المعروفة باسم (الأرشيف المغربي) التي ضربت قياساً في السرعة والعمل الجماعي، بحيث ظهر منها 33 مجلداً في ظرف 35 سنة. وكانت البعثة في أول أمرها بطنجة ثم انتقلت إلى الرباط. كما أسس لوشاتلييه (مجلة العالم الاسلامي) التي ضربت المثل أيضاً في السرعة والعمل الجماعي، فأصدرت ما بين 1906 ـ 1925 اثنين وستين 62 مجلداً. وظهر على صفحاتها المستشرق لويس ماسينيون وآخرون. وقد قال عنها لوشاتلييه إنها مجلة غير استشراقية وغير استعمارية، ولكنها مجلة تعرّف بالاسلام كما هو يتطور في الواقع وتبرز الحقائق الاجتماعية التي ترصدها في الساحة الاسلامية.

وكانت بين لوشاتلييه والمارشال ليوطي بعض الحساسيات في استراتيجية العمل. فرغم أن كليهما يرجع إلى مدرسة الجزائر العسكرية، فإن ليوطي كان يحبذ طريقة بوجو الأبوية وتطبيقها في المغرب، بينما كان لوشاتلييه يريد اتباع أسلوب جديد مستوحى من تطور الاسلام والمسلمين.

---

(1) بيروني (الكتاب الذهبي)، جـ2، الجزائر 1930، ص 385 ـ 386.

وعلى ذلك أسس ليوطي (الأرشيف البربري) لمنافسة الأرشيف المغربي، وأسس أيضاً معهد الدراسات البربرية بدل البعثة المغربية، ولكن الحكومة الفرنسية تدخلت ونسقت بين جهودهما فتكاملت، وتعاونا على بسط النفوذ الفرنسي في المغرب وفي العالم الاسلامي[1].

11 ـ شارل فيرو: لم يكن فيرو مستشرقاً بالمصطلح المعروف، ولكنه خدم ميدان الاستشراق بالترجمة ونشر النصوص وتوليه رئاسة الجمعية التاريخية. فكان من المستعربين القلائل الذين اتصلوا بالمجتمع الجزائري ودرسوا تراثه، ولكنهم وجهوا نتائج أبحاثهم إلى خدمة الاستعمار الفرنسي إلى أقصى الحدود. لقد كان فيرو من العسكريين الذين استعملوا القلم أكثر من البندقية والفكر أكثر من الحرب، فكانت نتائج عمله أخطر على الشعب الجزائري من نتائج زملائه العسكريين.

اسمه لوران شارل فيرو، ولد في نيس في الخامس من فبراير 1829، وقد جاء الجزائر صغير السن، وتوظف وهو لم يتجاوز السادسة عشر(!)، وعندما بلغ التاسعة عشر كان كاتباً في العاصمة بالإدارة المدنية (الحكومة العامة) ومترجماً بها، ثم أصبح مترجماً احتياطياً عسكرياً من الطبقة الثانية، وميدان الترجمة هو الذي قضى فيه كل حياته تقريباً. ولا ندري أين تعلم العربية، وربما كان ذلك على يد لويس برينييه الذي كان رئيساً لحلقة اللغة العربية في العاصمة. وقضى فيرو عشرين سنة من حياته وهو يشارك في الحملات العسكرية باتجاه قسنطينة (إقليم الشرق). وشارك في الحملة ضد محمد الأمجد (بوبغلة) بنواحي بجاية سنة 1852، وكذلك في الحملات ضد البابور وبجاية وذراع الأربعاء وبرباشة. وأثناء الحملة الأخيرة كان قد اندس ليلاً في كوكبة من خيالة جزائريين، كان هدفها خطف مبعوث بوبغلة الذي كان يبث الدعاية لإثارة

---

(1) انظر ادمون بورك «الأزمة الأولى للاستشراق» في (معرفة المغرب)، مرجع سابق، ص 223

الأهالي، كقوله إن الجيش الفرنسي قد توجه إلى المشرق 1854 بهدف عزل السلطان العثماني[1]. وفي ضوء خبرته بالشؤون الأهلية أبقاه القادة العسكريون لإقليم قسنطينة إلى جانبهم، ثم أصبح منذ الحكم المدني 1871 ملحقاً بالحاكم العام الأميرال ديقيدون في العاصمة، وقد أبقاه الجنرال شانزي 1873 ـ 1878 أيضاً في نفس المنصب.

وأثناء سنواته الطويلة في إقليم قسنطينة جمع فيرو وثائق كثيرة حول تاريخ الإقليم ومدنه وأهله وآثاره. ونشر عنه في مجلتي (روكاي) التي كانت تصدر بقسنطينة، و(هيبون) التي كانت تصدر بعنابة. وبعد انتقاله إلى العاصمة ساهم في الجمعية التاريخية التي كانت تصدر المجلة الافريقية، وقد تولى رئاستها بين 1876 ـ 1879. وخلال ذلك كلفته الحكومة الفرنسية بمسؤوليات دبلوماسية في طرابلس وتونس، كما كلفته بمرافقة السفير الفرنسي المبعوث سنة 1877 إلى سلطان المغرب. وكانت مهمته تتلخص في محاربة النفوذ الانكليزي والايطالي في طرابلس وتونس. وكان الانكليز والايطاليون يريدون الحلول محل الفرنسيين هناك. وأثناء وجوده في طرابلس كتب حوليات هامة. وكان فيرو في طرابلس عندما وقع احتلال فرنسا لتونس واحتلال الانكليز لمصر، وحدثت ثورة بوعمامة بالجزائر وثورة عرابي باشا في مصر، وثورة المهدي في السودان. وفي 1884فير عينته حكومته وزيراً مفوضاً في طنجة، وبعد سنة رافق سفارة مغربية إلى فرنسا، وهي السفارة التي رجعت إلى المغرب عبر الجزائر 1885. وقد توفي فيرو في طنجة في ديسمبر 1888[2].

أما مؤلفات فيرو فهي كثيرة، وكلها تقريباً قائمة على الترجمة من

---

(1) كانت فرنسا عندئذٍ تشترك في حرب القرم ضد روسيا التي كانت في حرب مع الدولة العثمانية. وقد شاركت فرقة جزائرية تحت العلم الفرنسي في هذه الحرب لنصرة الدولة العثمانية، واستغلتها فرنسا لصالحها في الجزائر. انظر الحركة الوطنية جـ 1.

(2) بيزان L. Paysant (المجلة الإفريقية)، 1911، ص 5 ـ 15. عندما تولى ديقرامون سنة 1879 رئاسة الجمعية التاريخية بقي رئيساً فيرو شرفياً لها.

الوثائق الأهلية وتوظيفها لصالح الإدارة. وكان يستعمل الرواية الشفوية كثيراً، ويلجأ إلى أعيان وشيوخ العلم والحكم للأخذ عنهم أنساب الأعراش والقبائل وأسماء العائلات وسير الأبطال والغزوات، بما في ذلك الأساطير والخرافات. ومن منشوراته وصف مدن الشرق الجزائري مثل بجاية وجيجل وتبسة وعنابة. وذلك في شكل مونوغرافات (مؤلفات خاصة). ومنها مؤلفه عن قصر الحاج أحمد الذي تحدث عنه حديث الحاقد الموتور وليس حديث الباحث المحايد.

وربط فيرو علاقات مع أعيان الجزائر وعلمائها وشيوخها. ونحن نجد ذلك في الوثائق التي كانت بحوزته[1]، وفي الاشارات إلى اسمه في المراسلات. وفي رسالة من محمد الصالح العنتري إلى فيرو تذكيره «بالصداقة» القديمة وطلب التدخل لا يجاد وظيف لابنه (العنتري)[2]. وفي رسالة أخرى كتبها أحد البجائيين أنه كتب عملاً في تاريخ بجاية وقدمه إلى فيرو أيام كان مع الجنرال بوثوت (؟) في قسنطينة، وهكذا. ونحن نفهم أن فيرو كان يستغل طمع العلماء والشيوخ في الوظيفة وسوء أحوالهم المادية فيطلب منهم الكتابة عن العائلات والمدن والأنساب، ثم يترجم ذلك وينسبه لنفسه. ذلك أن البجائي مثل العنتري كان يطلب أيضاً تعيينه في وظيف قضائي نظراً لخدماته السابقة[3].

فأنت ترى أن فيرو وظف علمه وفكره وعلاقاته لخدمة الإدارة الاستعمارية، وقدم خدمات جليلة للاستشراق الفرنسي، رغم أنه لم يكن هو من المستشرقين من حيث التكوين. فميدان عمله كان الترجمة والدبلوماسية[4].

---

(1) نشر أوغست كور جدولاً مفصلاً عن وثائق فيرو فبلغت أعداداً هائلة، ومعظمها ذات قيمة كبيرة. انظر كور (المجلة الافريقية)، 1914.

(2) أرشيف ايكس 16 Mi 31. وقد نشرنا الرسالة في كتابنا أبحاث وآراء، جـ 3.

(3) بلقاسم بن سديرة (كتاب الرسائل)، ص 125.

(4) كان له ابن خدم أيضاً في الجيش وأصبح عقيداً، وكان من قواد مركز تاوريرت. انظر=

اللجان العلمية

من النشاط العلمي ـ الثقافي الذي تميز به العهد الفرنسي الأبحاث التي قامت بها مختلف اللجان والجمعيات. وكان هذا النشاط قد بدأ منذ أوائل الاحتلال واستمر إلى آخر عهده. وإذا كان في العهد الاستعماري ما يحمد عليه فهو البحث المستمر في مختلف المجالات، في شكل جماعي، مما ساعد على إخراج موسوعات ذات قيمة تاريخية لا تَفْنَى بسهولة. وتشمل هذه الأعمال الجماعية مشروع (اكتشاف الجزائر العلمي) ومشروع الاحتفال المئوي بالاحتلال، وبحوث جامعة الجزائر بمختلف مدارسها وكلياتها ومعاهدها، ولجنة دراسة الأوضاع الاسلامية، ولجنة ترجمة الكتب العربية إلى الفرنسية، وكذلك لجان التحقيق في أوضاع الجزائر مثل لجنة 1833 ـ 1834، ولجنة 1891 ـ 1892.

ونذكر كذلك أعمال الجمعيات التاريخية والعلمية التي أصدرت بدورها مجلات دامت عدة عقود، كالجمعية الأثرية (قسنطينة)، والجمعية التاريخية (الجزائر) والجمعية الجغرافية (وهران)[1] الخ. ولا بد من التنويه بمنشورات «المستكشفين» عبر الصحراء والمناطق النائية التي ظهر فيها العلم والدين والسياسة متلازمين. وقد قام المستشرق اللامع في وقته، رينيه باصيه، بكتابة تقرير سنة 1920 عرض فيه ما سماه (نشاط فرنسا العلمي في الجزائر وشمال أفريقيا) وتحدث فيه عما قامت به كلية الآداب بالخصوص من أعمال ومنشورات في خدمة العلوم واللغات والآداب[2]

= (المجلة الافريقية) 1914، ص 91 ـ 93. ومن أبرز مؤلفات فيرو كتابه (مترجمو الجيش الإفريقي) أي الجيش الفرنسي في الجزائر ـ.

(1) عن الجمعيات العلمية والمجلات انظر «منهج الفرنسيين» في كتابة تاريخ الجزائر في كتابنا أبحاث وأراء. جـ1.

(2) رينيه باصيه «تقرير عن نشاط فرنسا العلمي في الجزائر وشمال افريقية، مرجع سابق.

لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر:

ولنبدأ من البداية. فقد تأسست في 14 غشت 1837 لجنة علمية سميت (لجنة اكتشاف الجزائر العلمي)، وكانت على غرار لجنة دراسة مصر وسورية، وكان فيها مختلف المتخصصين، وأغلبهم كان من العسكريين. وكانت الخطة هي أن يذهب هؤلاء العلماء إلى الجزائر في مدة محددة ويكتبوا حصيلة بحوثهم، على أن تنشر هذه البحوث على نفقة الدولة الفرنسية إذا دعمتها اللجنة. وقد وقعت الاتصالات مع إدارة الجزائر لتسهيل مهمة اللجنة والتنسيق بين أعضائها والسلطات المحلية، لا سيما وأن الاحتلال ما يزال في أوله وما تزال المقاومة تمنع الأعضاء من التوغل في البلاد ومعرفة كل أجزائها. وكان على أكاديمية العلوم وأكاديمية الآداب والفنون أن تحددا طبيعة العمل وأهدافه، وأن تعد بيانات مفصلة وواضحة لإنجازه. واهتمت وزارة الحربية باختيار الأشخاص لأن عدد الراغبين في المشاركة من الأكاديميين والباحثين كان كثيراً. كما أن تعييناتهم الرسمية ورواتبهم المالية استغرق وقتاً أيضاً[1].

وقد صدر قراران وزاريان لتعيين أعضاء اللجنة العلمية، أحدهما في 19 غشت والثاني في 20 نوفمبر سنة 1839. في القرار الأول كان الأعضاء 21 وفي القرار الثاني وصلوا إلى 24. ولكن العدد لم يبق ثابتاً فقد استقال البعض ومات آخرون بعد التعيين، ولذلك بقيت اللجنة تعمل بمعدل 20 شخصاً. وبالاضافة إلى هؤلاء الأعضاء الذين سموا بالأصليين، هناك أعضاء سموا احتياطيين. وقد اشترط في هؤلاء ألا يتجاوز عددهم ربع عدد الأعضاء الأصليين. ثم التحق أعضاء آخرون باللجنة، أحدهم طبيب، والآخر رسام، والثالث خاص بالتاريخ الطبيعي. وكانت اللجنة كلها (بكل أعضائها) تعمل تحت إشراف مسؤول مكلف بالمشروع وبتوجيهه.

---

(1) السجل (طابلو)، سنة 1938، ص 113 ـ 114.

وإليك بعض التفاصيل عن هؤلاء الأعضاء: 8 منهم اختارتهم وزارة الحربية (وكانت الجزائر تتبعها) عن طريق أكاديمية العلوم. و5 اختارتهم أكاديمية الآداب والفنون، وواحد من وزارة التعليم. ولكن أربعة أعضاء من الأصليين قدموا استقالتهم. وتوفي عضو خامس في الجزائر بعد أن باشر عمله. كما وقعت ترقية بعض الاحتياطيين إلى أصليين. وإليك أسماء بعض الأعضاء مع تخصصاتهم التي اختيروا على أساسها:

1 ـ ادريان بيربروجر، وكان محافظاً لمكتبة الجزائر العامة، باعتباره أثَرِياً.

2 ـ كاريت، كان ضابطاً في الجيش، باعتباره في الجغرافية القديمة.

3 ـ العقيد دي نوفو، ضابط في الجيش، باعتباره في الجغرافية الطبيعية.

4 ـ اونفنتان، خريج مدرسة الصنائع (بوليتكنيك)، باعتباره اثنوغرافيا.

5 ـ قويون، طبيب جراح في الجيش، باعتباره طبيباً وفيزيولوجياً.

6 ـ بيليسييه دي رينو، وهو ضابط في الجيش، باعتباره في التاريخ الحديث والنظم والعادات.

7 ـ وارنييه، طبيب جراح، كان عضواً احتياطياً مكلفاً بالاحصاءات والبحث في السكان[1].

8 ـ بوفيه، كان مكلفاً بالزراعة. ولكنه توفي في الجزائر قبل انتهاء مهمته.

أما رئيس اللجنة فكان من الجيش أيضاً، وهو العقيد بوري دي سان فانسان، وكان عضواً في المعهد (الفرنسي). وكان بوري أحد الأعضاء

---

(1) كان الدكتور وارنييه قنصلاً لبلاده لدى الأمير في معسكر قبل استئناف الحرب. ويبدو أنه جمع مادة حول موضوع السكان استعمله لا في مشروع اللجنة التي نحن بصددها، ولكن في هجومه الكاسح على مشروع المملكة العربية، وقد حاول التفرقة ما أمكنه بين السكان. انظر عنه فصل مذاهب وتيارات.

السبعة العسكريين من السبعة عشر عضواً أصلياً. وقد شملت اللجنة التخصصات التالية:

1 ـ المناظر الطبيعية Paysages.
2 ـ الآثار.
3 ـ الجغرافية.
4 ـ الرسم.
5 ـ الزيولوجيا/ علم الحيوان.
6 ـ النباتات.
7 ـ الاثنوغرافيا/ السلالات.
8 ـ الفيزيولوجيا/ علم وظائف الأعضاء والطب.
9 ـ الانتومولوجيا.
10 ـ الملابس واللوحات.
11 ـ التاريخ والنظم.
12 ـ المعادن والتعدين.
13 ـ الهندسة المعمارية.
14 ـ الجيولوجيا/ طبقات الأرض.
15 ـ التاريخ الطبيعي.
16 ـ الفيزياء وعلم المناخ.
17 ـ الاحصاء والبحث في السكان.
18 ـ الصحة وأمراض السكان.
19 ـ إنتاج الأنماط الانسانية (الرسومات الخ.).

وقد حلت اللجنة بأعضائها في الجزائر في خريف 1839، ولكن عملها لم يبدأ إلا في ربيع سنة 1840، لأن المطر الخريفي والشتائي حال دون الشروع فوراً في العمل[1]. والمعروف أن آخر سنة 1839 شهدت استئناف

(1) السجل (طابلو) سنة 1841 ص 109 ـ 110.

الحرب بين الأمير عبد القادر والجيش الفرنسي بقيادة المارشال فاليه بعد خرق الفرنسيين لشروط معاهدة التافنة. ولا شك أن استئناف الحرب قد أثر على بداية أعمال اللجنة كما أثر على حرية حركتها حتى في المناطق المحتلة من قبل.

أعطيت اللجنة مهلة عامين ونصف لإنجاز أعمالها، ولذلك كان عليها أن تقدم نتائجها للنشر سنة 1842. ولنذكر الآن مجالات نشاطها في تصنيفات شمولية على هذا النحو، لأن أبحاثها، مهما تعددت، كانت لا تخرج عن ثلاثة أقسام:

1 ـ **العلوم الفيزيائية**: وهي تضم الفيزياء في حد ذاتها، وتتبعها الجيولوجيا وعلوم النبات والزراعة والطب والفيزيولوجيا، والزيولوجيا. وقد تولى هذا القسم عدد من المختصين كانوا يجمعون الملاحظات والمعلومات ويبحثونها ويعدون نتائجهم للنشر.

2 ـ **العلوم التاريخية**: وهو قسم واسع، ويضم أيضاً مجموعة من الباحثين. ويشمل التاريخ والآثار والجغرافية والاثنوغرافية. وسنذكر ما كتبه معظم أعضاء هذا القسم بعد قليل.

3 ـ **الفنون الجميلة**: وتضمن هذا القسم الهندسة المعمارية والرسم. ومن أبرز أعضائه رافوازيية الذي قام بزيارة لعدة مدن منها: سكيكدة وميلة وقسنطينة وجميلة وسطيف ووهران ومستغانم والجزائر. وسجل مختلف الآثار الرومانية فقط، لأن اللجنة لم تكن مهتمة بالآثار الاسلامية. وقام رافوازييه برسومات للآثار القديمة التي من بينها المسارح وأماكن الاستعراضات (السيركات)، ومبان ترجع إلى أزمنة مختلفة، كما رسم مساجد ومنازل عربية (موريسكية)، مع تفاصيل عن زخرفتها، وقد أنجز عمله سنة 1841، وقدمه للجنة. وقام موريلي وباكوري وديلامار برسم المناظر الطبيعية في شرق الجزائر لكي يعطوا فكرة محددة عن السحنات (الفيزيونوميا) العامة. وقد سجل موريلي بالذات مجموعة من التحف ومظاهر

الحياة الداخلية للسكان مثل الأسلحة والملابس والماعون والآلات والأثاث والحلي. ثم رسم ديلامار أكثر من مائة منظر لكتابات النصب القديمة، سيما في سطيف. كما خص هذه المدينة بمذكرة عن تاريخها القديم. وكذلك زار مستغانم ومعسكر ووهران وأرزيو وتاقدامت، واهتم هناك أيضاً برسم المناظر الطبيعية والآثار الكتابية.

وقام كل من باكوي ولونقا بعدة رسومات أيضاً. فالأول رسم مدينتي وهران وقسنطينة وغيرهما من مدن الساحل التي وقعت تحت الاحتلال. أما لونقا فقد اهتم برسم أشكال الأجناس البشرية التي تقطن الجزائر، ومظاهر حياتها الخاصة[1].

ونفصل الآن الحديث عن بعض ما كتبه الباحثون في ميدان التاريخ والمواد المتصلة به كالآثار والجغرافية:

1 ـ ترجم بيليسييه دي رينو تاريخ القيرواني عن المغرب الاسلامي من القديم إلى عهد الموحدين، كما كتب مذكرات تاريخية عن الحملات الأوروبية ضد ساحل شمال أفريقيا وتحدث عن المنشآت التي كانت على هذا الساحل، سيما الفرنسية، ووصف جغرافية الجزائر في القديم وفي العهد الاسلامي، وحياة الكنيسة المسيحية القديمة (الافريقية) وسبب اختفاء المسيحية، ووجود الخرافات والأساطير الشائعة لدى السكان، وعن الرق، وعن عناصر السكان، والنظم والعادات عندهم.

2 ـ ودرس كاريت إقليم قسنطينة واهتم بالآثار هناك، واستفاد من حملات الجيش الفرنسي في المنطقة ليجمع هو ملاحظاته. ووضع خريطة للطرق الرومانية القديمة، وكذلك بعض المدن والمراكز العسكرية. وقد كتب ملاحظاته في الجزائر، وكان قد اهتم أيضاً بالتقسيم الجغرافي والاقليمي الذي وضعه الرومان لأفريقيا الشمالية أو بلاد البربر في القديم.

(1) السجل (طابلو)، سنة 1841، ص 116.

3 ـ وكان بيربروجر أثرياً بالمهنة فزار شرشال المسماة في القديم جوليا القيصرية، وهي إحدى المدن الأربع الكبيرة في العهد الروماني. وقد سجل ملاحظاته، ورسم الكتابات القديمة هناك ونسخ بعضها، ولا سيما الخطوط المنقوشة على الرخام والأحجار القديمة باعتبارها وثائق هامة عن كتابات ونقوش شواهد القبور (الابقرافية). ثم تجول بيبروجر في الساحل الجزائري أيضاً وزار روسيكاده، ودرس تاريخ تجارة المرجان حيث كانت مدينة القالة مركزاً هاماً لهذه التجارة.

4 ـ وتولى اونفنتان ميدان الاثنوغرافية كما ذكرنا. وتجول معظم الوقت في إقليم قسنطينة، ثم تجول في غرب الجزائر. وكان مكلفاً بتصنيف السلالات البشرية التي تقطن الجزائر، طبقاً لاختلاف اللسان والوضع الجغرافي والتاريخي والاستعمالات الزراعية، ومرافق السكن، ودرجة التأثير المعنوي الذي يمارسه السكان على بعضهم البعض. كما قام اونفنتان بدرس الدين والتقاليد والعادات وقوانين الجزائريين. وكان عليه أيضاً أن يدرس ما إذا كانت هناك نظم واتجاهات تحول بين السكان والأخذ من الثقافة الفرنسية، أو «التقدم» الذي تدعو إليه فرنسا. وفي نفس الوقت كان اونفنتان مكلفاً بدراسة الدين والعادات والتقاليد والقوانين لدى المستوطنين الأروبيين في الجزائر في علاقتهم مع الاستعمار. وكان ذلك يتماشى مع اعتناقه مذهب سان سيمون.

5 ـ وركز الدكتور وارنييه على سكان إقليم قسنطينة. وكان عمله يختلف عن عمل زميله اونفنتان، إذ اهتم هو بدراسة السكان من الوجهة السياسية والادارية. فدرس هجرة السكان الداخلية وأصولهم، وما بقي من تاريخهم وتقاليدهم إلى ذلك الحين، وكذلك درس العلاقات بين المدن المسكونة ومدينة قسنطينة من حيث التبعية والتأثر. واهتم بكيفية التسيير الإداري الممكن في بسكرة والمسيلة والمدن الأخرى التي كانت تحاذي الصحراء والتي كانت مستقلة إدارياً. ومن مجالاته أيضاً تعميق المعرفة حول

الشاوية وماذا يمكن للإدارة الفرنسية أن تفعله إزاء السكان في كل جزء من الأجزاء المذكورة[1].

وبالرجوع إلى بعض أعمال هؤلاء الأعضاء رأينا ما قام به كاريت وبيليسييه وبيربروجر، في مجالات أخرى أيضاً. فقد نشر كاريت دراسة للطرق المسلوكة من قبل العرب في المناطق الجنوبية من الجزائر وإيالة تونس من أجل إنشاء شبكة جغرافية لهذين البلدين 1854. وقد وصف كاريت هنا بأنه ضابط في سلاح الهندسة، وعضو وكاتب للجنة العلمية لمدينة الجزائر. وبدأ كتابه بمدخل عن أقسام المعرفة الجغرافية، وقسم هذه إلى جغرافية رياضية وجغرافية نقدية الخ. وهو الجزء الأول من السلسلة المطبوعة بأمر من الحكومة وموافقة اللجنة الأكاديمية، والكتاب يندرج ضمن سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية[2].

ولنفس المؤلف جزء آخر في السلسلة بعنوان (أبحاث حول أصل القبائل الرئيسية وهجراتها في أفريقيا الشمالية، وخصوصاً في الجزائر (1853)، ولكاريت أيضاً جزآن في نفس السلسلة أحدهما بعنوان (دراسات حول بلاد القبائل)، والآخر بعنوان (دراسة شاملة للجغرافية والسكان والانتاج الفلاحي والصناعي... واللغة) مع خريطة. صدرا سنة 1848.

وقد وجدنا لبيليسييه دي رينو في نفس السلسلة أيضاً عمله المسمى (مذكرات تاريخية وجغرافية عن الجزائر) وهو عن الدول والشعوب الأوروبية التي احتلت الجزائر كلياً أو جزئياً، مبتدئاً بإسبانيا، ثم فرنسا وبريطانيا وجنوة 1844.

أما بيربروجر فقد وجدنا له عملاً إضافياً في نفس السلسلة (العلوم التاريخية والجغرافيا) وقد تناول فيه بالترجمة والتعريف رحلتي العياشي والدرعي بجنوب الجزائر والدول البربرية. وكان بيربروجر لا يعرف من

---

(1) السجل (طابلو)، سنة 1841، ص 115 ـ 116.

(2) باريس، 1844، 324 صفحة + خريطة.

العربية إلا القليل ومع ذلك أقدم على العمل المذكور، ولا ندري كيف انتهى إلى ذلك. ولكن الملاحظ أنه استعان بمعلومات قدمها إليه أحمد بن مصطفى بومزراق، ابن باي التيطري سابقاً. وأيضاً لا ندري لماذا أحمد بومزراق بالذات، وهو ليس عالماً ولا مترجماً ولا رحالة. وقد أضاف بيربروجر إلى عمله أيضاً رحلة من تازة إلى تونس قام بها فرنسي يدعى (فابر).

ويذكر رينيه باصيه في تقريره عن العمل العلمي الفرنسي من بين منشورات اللجنة العلمية التي نحن بصددها، ترجمة مختصر الشيخ خليل للدكتور بيرون، وكذلك كتاب وصف المغرب لرينو. وعدّ أيضاً من بينها رحلة دوفيرييه في الصحراء المسماة (طوارق الشمال). وقد نوه باصيه أيضاً بترجمة البارون ديسلان لتاريخ ومقدمة ابن خلدون، وهي من المشاريع التي أعلنتها حكومة الملك لويس فيليب وتبنتها، كما قال، حكومة نابليون الثالث. ونوه باصيه أيضاً بكتاب الثروات المعدنية للجزائر الذي ألفه فونيل ضمن أعمال اللجنة.

ونلاحظ ان هذه الأعمال كانت تقوم حتى الآن على جهود العسكريين بالدرجة الأولى، وتعتمد الترجمة أكثر من التأليف. وكان ذلك ضرورياً في مرحلة كالتي نتحدث عنها، إذ لا بد من معرفة النصوص لينطلق التأليف، وكذلك لا بد من تقدم الدراسات في المعاهد والجامعات على أيدي المدنيين المختصين. كما نلاحظ أن بعض الأعمال كانت مليئة بالحقد على العرب والمسلمين، مثل تآليف كاريت التي تكاد تخلو من الروح العلمية. وللدلالة على سيطرة العسكريين على اللجنة أن رئيسها (دي سان فانسان) هو نفسه قائد للأركان. وقد ربط غوستاف ميرسييه بين الاحتلال العسكري للجزائر والاحتلال العلمي «فقال: ان البحث العلمي سار جنباً إلى جنب مع الاحتلال (العسكري)، وان «الاحتلال العلمي قد سار إلى جنب تلقيح الأرض»[1].

(1) غوستاف ميرسييه (مدخل إلى الجزائر)، 1956، ص 326.

لجنة الاحتفال المئوي بالاحتلال:

إذا كان مشروع لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر قد جرى تنفيذه على يد العسكريين غالباً وكان في ظروف سياسية وعسكرية لا تسمح لأعضاء اللجنة بالمسح الشامل لبحوثهم، فإن لجنة الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال قد أتيح لها ظرف أكثر مناسبة للبحث والدراسة. ذلك أن أساتذة جامعة الجزائر هذه المرة هم الذين تولوا التأليف والبحث، كما أن الظرف مختلف تماماً عن أربعينيات القرن الماضي. كان الاحتلال في العشرينات من هذا القرن في أوج سطوته «والسلام الفرنسي» يسود الجزائر. وقد سارت البحوث العلمية خلال قرن نحو التوسع والتعمق مما ساعد لجنة الاحتفال على التصدي لمشروعها بخطى ثابتة واستكمال ما لم ينجز من مشروع لجنة الاكتشاف العلمي ومواصلة نفس المشروع برؤية جديدة ووسائل حديثة[1].

منذ 1925 نصب الحاكم العام عندئذٍ، موريس فيوليت، لجنة النشر للاحتفال المئوي برئاسة رئيس جامعة الجزائر، شارل تيار، صاحب كتاب (الجزائر في الأدب الفرنسي). وقد حذد لهذه اللجنة عمل هام وواسع يتضمن أيضاً إنشاء الإذاعة الجزائرية وإقامة النصب التذكارية، وإنشاء قاعة للفنون الجميلة، وهي التي أصبحت فيما بعد تدعى قاعة بيير بورد (ابن خلدون حالياً)، وإنشاء المدارس والورشات الخاصة بالفنون التقليدية.. وأخيراً نشر الأعمال والبحوث. وكان إنجاز هذه المهمة يتم بطريقتين، الأولى تعميم المعرفة على الرأي العام الفرنسي حول الجزائر، والثانية وضع المعرفة أمام جمهور محدد من الباحثين والكتاب والعلماء حول الجزائر أيضاً. ونلاحظ أن جمهور الشعب الجزائري العربي المسلم كان غائباً في مشروع هذه اللجنة كما كان غائباً في مشروع لجنة الاكتشاف العلمي. ومهما كان الأمر فإن مهمة (لجنة النشر) كانت مركزة على خدمة ذلك الجمهور (الفرنسي والأجنبي) المحدود من العلماء والباحثين.

---

(1) عن جامعة الجزائر انظر فصل التعليم الفرنسي والمزدوج.

وقد دعي أساتذة جامعة الجزائر للمشاركة في لجنة النشر، ضمن لجنة التحضير للاحتفال المئوي. وخلال عشر سنوات نشرت لجنة النشر حوالي 50 كتاباً يعالج كل منها موضوعاً متخصصاً ـ كالمالية والتشريع والاقتصاد السياسي، والعلوم، والاستعمار، والآثار، والتاريخ، والفنون. ومن الأساتذة من قام بعمل منفرد، ومنهم من اشترك مع غيره في عمل جماعي، مثل كتاب (التاريخ ومؤرخو الجزائر) الذي ضم بحوثاً في مختلف العصور التاريخية للجزائر بأقلام متخصصة من أساتذة الجامعة. وقد كتب مقدمته ستيفان قزال. ومن الكتب المتخصصة التي صدرت أيضاً عن لجنة النشر نذكر[1]:

1 ـ اللباس الجزائري، لجورج مارسيه.

2 ـ ايكونوغرافية الجزائر، لغبريال ايسكير.

3 ـ تطور الاستعمار خلال قرن، لا يميل فيليكس قوتييه.

4 ـ تطور الجزائر، لا سبيس.

5 ـ الشرق والرسم الفرنسي خلال القرن 19، لاليزار.

الجمعيات المتخصصة

أما الجمعيات العلمية فقد تعددت وقدمت خدمات كبيرة للبحث رغم انتمائها للإدارة الاستعمارية وأهدافها المصادرة للتطور الطبيعي للشعب الجزائري. كانت الجمعيات ضيقة الأفق منطلقة من وجهة نظر عنصرية أحياناً ـ سيما خلال القرن الماضي ـ إذ كانت تقوم على البحوث العرقية والانثروبولوجية والنظريات التي تدعو إلى التفوق الحضاري الفرنسي والانسان الأبيض على العموم. وكانت الجمعيات أيضاً في البداية تحت تأثير

(1) غوستاف ميرسييه، مرجع سابق، ص 331 ـ 334. وبهذه المناسبة نشط المستشرقون أيضاً وانجز هنري ماصيه بحثه عن (الدراسات العربية في الجزائر) الذي صدر سنة 1931، وهو العمل الذي فصل فيه جهود المستشرقين في مختلف الميادين، ووضع علامات لطريقهم في المستقبل.

وإشراف العسكريين الذين كانوا في الميدان، وكانوا هم الذين يمدونها بالملاحظات ويكتبون في مجلاتها. ومن جهة أخرى اهتمت الجمعيات بالآثار الرومانية والمسيحية وأهملت تقريباً ما عداها سيما الحضارة العربية الاسلامية وآثارها. ومع ذلك فنحن نؤكد أن ما نشرته هذه الجمعيات في مجلاتها يعتبر ثروة كبيرة للبحث والمعرفة بصفة عامة. ونحن نجد بعض الجزائريين الأعضاء في الجمعيات المذكورة كانوا يقدمون نتائج بحوثهم أيضاً إلى العلماء الفرنسيين خدمة للاستعمار.

وقبل أن تظهر هذه الجمعيات ظهرت في فرنسا جمعيات خصصت اهتماماً كبيراً للاحتلال الفرنسي في الجزائر، ومن ذلك الجمعية الآسيوية والجمعية الشرقية والجمعية الجغرافية. فكل جمعية من هذه الجمعيات أصدرت مجلة وفتحت أعمدتها لكتاب فرنسيين حلوا بالجزائر أو جعلوا همهم الربط بين ما يجري فيها وما يجري في العالم الاسلامي على العموم. وكانت حركة الاستشراق الفرنسي يومئذٍ آخذة في النمو. فصادف احتلال الجزائر اهتماماً خاصاً بشؤون الشرق والإسلام.

لقد سبق القول إن الجمعية الآسيوية قد تأسست في باريس سنة 1822، وان رئيسها كان دي ساسي المتوفي سنة 1838[1]. وقد شارك في المجلة الآسيوية عدد غير قليل من المستشرقين الفرنسيين الذين استقروا بالجزائر، منهم بنجامين فانسان، وشيربونو. أما الجمعية الشرقية فقد تأسست في باريس سنة 1841، وأصدرت (مجلة الشرق). وجاء في قانونها الأساسي انها تنسق بين أعضاء (المعهد) الفرنسي والقناصل والرحالة، وأنها تهتم بكل ما يهم حاضر ومستقبل بلدان الشرق. وتقول الفقرة القانونية صراحة «يجب أن نبذل جهدنا للهيمنة عليها (أي بلدان الشرق) لصالح الحضارة ـ وكذلك الجزائر ـ. هذه الأرض الافريقية الواسعة التي كانت من قبل متوحشة (باربار Barbare) ومتمردة. وها هي اليوم تفتخر بقوانيننا وفنوننا وعاداتنا وصناعتنا،

(1) انظر سابقاً.

وهي تحث الخطى نحو التقدم» (!). وقد اعتمدت وزارة الداخلية الفرنسية الجمعية الشرقية التي يبدو أنها جددت سنة 1856. وبالفعل فإن الذي يرجع إلى (مجلة الشرق) يجد هذا الاهتمام بالجزائر ممثلاً في المقالات والأخبار والتعاليق والمشاريع. ولا غرابة بعد ذلك أن تصبح المجلة تسمى (مجلة الشرق والجزائر) فترة من الزمن. وربما أضافت إلى ذلك كلمة (والمستعمرات) أيضاً[1].

وأما الجمعية الجغرافية فقد تأسست أيضاً في باريس. واهتمت مبكراً بالجزائر والمغرب العربي والاستكشافات. وهي التي نشر فيها الباحث دافيزاك ترجمة لرحلة الاغواطي في وصف بعض المناطق الصحراوية الممتدة من الأغواط إلى تمبكتو ومن شنقيط إلى جربة، مع تعاليق وإضافات[2].

وهكذا فإن نشأة الجمعيات العلمية الفرنسية قد تصادف مع احتلال الجزائر، وساعد هذا الاحتلال انطلاقة الكشوفات والاهتمامات بالمشرق والعالم من جهة والتركيز على الجزائر باعتبارها مركزاً للتوسع والتجارب من جهة أخرى. فاحتلال الجزائر لم يكن فاتحة عهد الامبراطورية الفرنسية الجديدة، فقط، كما هو الشائع إلى الآن، ولكنه كان يمثل انطلاقة الاستشراق والهيمنة على الشرق والاهتمام بتراثه ودراسته. وقد أعطت الجزائر المفتاح لذلك.

أقدم الجمعيات في الظهور هي الجمعية الآثرية في قسنطينة[3]. فقد تأسست في ديسمبر 1852. ومن مؤسسيها العقيد كرولّي والمستشرق

---

(1) انظر مجلة الشرق، 1856. اعتُمِدَتْ جمعية الشرق رسمياً في 15 مايو، 1856. ولكن ذلك يظهر أنه تجديد فقط لأن مجلة الشرق قديمة ترجع إلى 1841 ـ 1842 كما سبق. وكان من كتابها في الجزائر المستشرق فورتان Fortin وغيره.

(2) انظر ترجمتنا لها في كتابنا (أبحاث وآراء) جـ2.

(3) هذا إذا استثنينا الجمعيات الماسونية والجمعيات السرية التي ظهرت منذ أول الاحتلال، ولا سيما منذ 1848. انظر فصل مذاهب وتيارات.

شيربونو، الذي كان أستاذاً لحلقة اللغة العربية في المدينة، وبروسلار الذي كان رئيساً للمكتب العربي، وفينيار. ومنذ 1853 أخذت الجمعية تنشر مجلة باسم الحولية (أنوير)، ثم غيرت إسمها بعد عشر سنوات 1864 إلى مجموعة (روكاي) للبحوث والمذكرات، الخ. وكان اهتمامها متزايداً ومركزاً على الآثار الرومانية، ولكن منذ الستينات ظهر من أعضائها وعلى صفحات مجلتها عدد من الكتّاب المهتمين بالعهود الاسلامية أيضاً، من أمثال فايسات الذي اهتم بالعهد العثماني في قسنطينة، وارنست ميرسييه الذي كتب عن المرأة والتشريع والملكية عند المسلمين وتاريخ المنطقة في العصر الاسلامي، وفيلو الذي اهتم بعادات الجزائريين. ومن مشاهير كتابها أيضاً العقيد شارل فيرو.

وكانت الجمعية مؤلفة من عسكريين ومدنيين، كما لاحظنا، فيهم الجنرالات والعقداء في الجيش، وفيهم المعلمون والأطباء ورجال الكنيسة وعلماء اليهود. وكان الذي يجمعهم هو حب البحث والسيطرة، وعند إنشاء الجمعية كانت الجزائر ما تزال تعيش العهد الذي سمي بعهد «التهدئة» فالبحوث كانت تجري على عجل وعلى خوف من المقاومة الجزائرية، ولكن منذ الستينات أصبحت البحوث تجري في الميدان مع الاطمئنان على مصير الجزائر «الفرنسية».

أجرى أحد الباحثين حديثاً دراسة تقييمية ونقدية لمجلة جمعية الآثار القسنطينية بين 1853 و1876. وقد خرج منها بالنتائج الهامة التالية. إن كتابها كانوا ينظرون إلى مدينة قسنطينة نظرة نصفية، نصف حي يسكنه الفرنسيون ونصف ميت يعتبر متحفاً يتردد عليه السواح والكتّاب[1]. وقد

---

(1) يمكننا أن نعمم ذلك على جميع المدن وجميع السكان الجزائريين. إن النظرية النصفية (أو النصف الحي والنصف الميت) هي التي كان يعالج بها الكتاب الفرنسيون موضوعاتهم. فالنصف الميت من كل موضوع هم السكان الجزائريون ومدنهم وأحياؤهم وتجمعاتهم وآثارهم، الخ. انظر أيضاً بحث ايمانويل سيفان E. Sivan الثقافة الشعبية الاستعمارية بالجزائر» في كتابنا (أبحاث وآراء) ج 4.

ركزت المجلة كما ذكرنا على الآثار الرومانية وفرنسا الرومانية أيضاً والتي كانت تسير على خطى الرومان. ولكن المجلة اهتمت أيضاً، ولأسباب سياسية، بالآثار البونيقية، أما الآثار الاسلامية فقد تجاهلتها ونظرت إليها نظرة احتقار، مثل تناولها لقصر أحمد باي وقصر صالح باي والقنطرة. واشتملت المجلة على قسم هام ركز على دراسة مدينة قسنطينة.بالذات في خرائبها وآثارها ومبانيها التي درسها الكتاب من وجهة نظر تؤكد السيطرة الفرنسية وتخدم المصالح الاستعمارية، كما عالجت موضوع نظرة المسلمين للآثار الاسلامية والرومانية بطريقة تشجع على عملية الاحياء أو البعث الروماني.

من كتابها نجد كما أشرنا، شيربونو، فقد نشر 31 مقالة ضمن عشرين عدداً، أي أنه كان يكتب في العدد الواحد أكثر من مقالة. أما فيرو فقد نشر فيها 19 مقالة. ومن بين الموضوعات المنشورة فيها خلال العشرين سنة المذكورة نجد 80٪ منها تتعلق بالآثار الرومانية، وبعضها فقط كان عن موضوعات بربرية ـ ليبية وبونيقية. وقد لاحظ هذا الباحث أن من بين الـ(808) مقالات المنشورة خلال نفس الفترة نجد (15٪) تتعلق بالتاريخ والاثنوغرافية، وأن ثلاثة أرباع منها تقوم على المواد العربية والتركية. وقد نشطت البحوث الميدانية منذ قانون الأرض 1863 الذي اهتم بالدواوير وأملاك الأهالي، وأصبحت البحوث ميدانية، كما قلنا، وكانت تهدف إلى إعطاء صورة على أن العربي لم يتغير منذ الفتح الاسلامي. وكان الكتاب يستعملون الجزء للكل بالنسبة للأهالي، فإذا رأوا شخصاً غش فإن كل الأهالي غشاشون، وكانوا يعتبرون جميع المتعلمين (الطلبة) جهلة وغير مفيدين، أو لَهُم أحكام مسبقة متوارثة عن عدم احترام الآثار القديمة، وقد ركز الكتّاب أيضاً على جشع المسلمين، وكون الاسلام يمنع العلم ويلعنه، وينسبون الكسل الطبيعي للأهالي.

أما المجلة في حد ذاتها، فقد اعتبرها الباحث أول مجلة علميَة في

المغرب العربي كله. وقد أصبحت القضايا التي أثارتها موجودة في مختلف الكتب والنشرات والصحف ودليل السواح والمقالات. وذلك كله قد ساعد على الهيمنة الاستعمارية في الجزائر ثم في المغرب العربي كله. وكان كتابها رغم اختلافهم في التكوين والمهنة، يلتقون حول إنجاح الاحتلال ودراسة التحول الاجتماعي. وكانوا يريدون التغلب على الخلافات بين المدنيين والعسكريين للإبقاء على القدر المشترك من الاتفاق للوصول إلى إنجاح الهيمنة الاستعمارية[1].

ويقول غوستاف ميرسييه، حفيد ارنست، إن الجمعية الأثرية لقسنطينة قد دامت 104 سنوات، ونشرت 100 مجلد ضخم من مجلتها، وشارك فيها عدد كبير من الباحثين والكتّاب، عسكريين ومدنيين، منهم غزال، مريبو، إضافة إلى من ذكرنا[2]. ورَأْيُ مالركي في مجلة هذه الجمعية الذي توصل إليه بعد دراسة إضافية، يصدق أيضاً على (المجلة الافريقية) وعلى المجلات العلمية الأخرى التي صدرت أثناء الاحتلال، وهي جمعيات هدفها منذ تكوينها، كان خدمة الإدارة الاستعمارية. فهناك رابط أساسي ومقدس بين أعمال المستشرقين وأعمال العلماء الآخرين والإدارة والكنيسة، كلهم كانوا متضافرين على إحكام السيطرة على الجزائر وأهلها.

فالجمعية التاريخية الجزائرية ولدت يوم 7 إبريل 1856 في العاصمة، بمبادرة من الحاكم العام المارشال راندون الذي أصبح الرئيس الشرفي للجمعية، كما أصبح من التقاليد أن كل حاكم عام للجزائر هو بالقوة الرئيس الشرفي للجمعية. أما الرئيس الفعلي الأول للجمعية فهو ادريان بيربروجر الذي تولى عدة وظائف في الإدارة المدنية الاستعمارية منذ 1835، كاتباً خاصاً للمارشال كلوزيل، ومحافظاً لمكتبة ومتحف الجزائر، وعضواً في

(1) جيمس مالركي «البنية الدرامية لاكتشاف علمي في الجزائر المستعمرة» في كتاب (معرفة المغرب/ العربي)، ص 137 ـ 160. ويبدو أن هذا البحث جزء من أطروحة مالركي عن الجزائر.

(2) ميرسييه (مدخل)، مرجع سابق، ص 327.

اللجنة العلمية. وقد جاء في قانونها أن الهدف من إنشائها هو «دراسة كل المعلومات المتصلة بتاريخ إفريقية ولا سيما المعلومات التي تهم الجزائر، من العهد اللوبي (الليبي) إلى نهاية العهد التركي». ومن أعضاء الجمعية لويس برينييه أستاذ حلقة اللغة العربية بالعاصمة، والبارون ديسلان. وكان الأول مستشرقاً والثاني مترجماً عسكرياً ومشرفاً على جريدة المبشر. وقد انضم إليها فيما بعد عدد آخر من المترجمين العسكريين والمدنيين منهم الجغرافي مكارثي والعقيد دي نوفو الذي تولى مكتب الشؤون العربية في الإدارة العامة، والمتصرف المدني رولان دي بوسيه، والعقيد هانوتو، الذي كتب عن زواوة، وبارجيس الذي كتب عن تاريخ تلمسان، والجنرال دوماس الذي تولى الشؤون العربية في عهد بوجو، وهو مؤلف كتابي: المرأة العربية، وخيول الصحراء كما عرفنا.

وقد نشرت الجمعية التاريخية مجلة (المجلة الافريقية)[1] الشهيرة التي اهتمت بنشر المخطوطات المحلية والعربية والوثائق الأصلية، وسلطت الضوء على تاريخ الجزائر في مختلف عصوره، ولكن بدرجات متفاوتة في الاهتمام. وتعتبر مجلداتها، كما يقول غوستاف ميرسييه، مكتبة تاريخية في حد ذاتها. كانت المجلة توزع مجاناً على الأعضاء العاملين والمراسلين. ظهر عددها الأول في أكتوبر 1856، ثم أخذت تظهر كل شهرين ثم أصبحت مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر منذ 1888. ومن تاريخها أنها توقفت فترة الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918 ثم رجعت برقم (294) سنة 1918. وتميزت عهودها بميزات رؤساء الجمعية وميولهم وكذلك ميول كتّاب الجمعية. وقد تولاها بيربروجر إلى وفاته سنة 1869، ثم تولاها بعده أخرون مثل دي قرامون، ولويس رين، وماسكري، وأرنو، وويل، وبيزان.

---

(1) كانت كلمة (افريقية) تعني الجزائر عندئذٍ، ومن ثمة المطبعة الافريقية واللجنة الافريقية والجيش الافريقي. . . الخ.

وقد طبع بعض الرؤساء والكتاب المجلة بطابع اهتمامهم فجعلها دي قرامون ميداناً لدراسة تاريخ الجزائر لاهتمامه هو بهذا الموضوع، وكان الكاتب العام فانيان، أستاذاً لكرسي الأدب العربي في مدرسة الآداب فجعل المجلة تهتم بالترجمة عن الأدب العربي والتاريخ العربي. وساهم ويل وغزال في قسم الدراسات الأثرية. وفي عهد بيزان تولى الكتابة في الجمعية كل من ادمون دوتيه وجورج ايفير على التوالي، ومع ذلك فإن الدراسات العربية والتاريخية في المجلة الافريقية لم تضعف، ولكنها تركت مكاناً بارزاً للآثار أيضاً. وكان دوتيه من المتأثرين بالنظرية الدورخايمية في علم الاجتماع، وهو من الكتّاب الذين اهتموا بالعادات والدين والمرأة في الجزائر. أما جورج ايفير فقد كان أستاذاً متخصصاً في التاريخ الاستعماري للجزائر. وكانت المجلة قبل دوتيه تنشر كتباً كاملة في شكل فصول، وبحوثاً مطولة بصفة مجزأة، ولكن دوتيه قرر مع زملائه أن تتخصص المجلة في الدراسات والمقالات، أما البحوث المطولة في شكل كتب فتنشر دفعة واحدة منفصلة تحت عنوان بحوث (مذكرات) الجمعية التاريخية. كما أصبحت المجلة تهتم بالنشاط العلمي «من أقدم العصور إلى يومنا هذا» أي لا تتوقف عند نهاية العهد التركي[1].

وقد توالت الجمعيات العلمية ومجلاتها فتأسست في عنابة سنة 1863 جمعية للبحث العلمي، أخذت فيما بعد إسم **أكاديمية هيبون**. وكان أول رئيس لها هو المحامي اوليفييه. ثم تولاها سنة 1871 الضابط قنطيس ثم العقيد بابيه ثم مالتيرن. وقد أصدرت مجلة باسم نشرة أكاديمية هيبون. وكانت مهتمة بالشرق الجزائري على العموم. ويظهر عليها أيضاً الطابع الأثري والديني. ومن كتّابها ليكليرك الذي كتب فيها عن أحمد التيفاشي، وبلوشي الذي تناول علم الخرائط عند المسلمين، وبابيه الذي نشر عن مساجد عنابة.

(1) جان بفيا J. Bevia المجلة الافريقية، مقدمة المجلد الخاص بالفهارس لسنوات 1882 ـ 1921، الجزائر، 1924.

وفي 1878 كون الضابط البحري تروتاباس الجمعية الجغرافية لاقليم وهران. وقد اهتمت بالخصوص بالجنوب والغرب الجزائري والمغرب الأقصى الذي أخذت الاهتمامات الفرنسية تلتفت إليه. كما اهتمت بقضايا الصحراء. ونشرت عدداً من المخطوطات مترجمة إلى الفرنسية، وكذلك بحوثاً مطولة في شكل مونوغرافات. ونشطت الدوائر الاستعمارية في المنطقة إذ وجدت في الجمعية والمجلة التي كانت تسمى (نشرة)، مجالاً للتعبير عن نفسها بالكتابات والبحوث. وفي 1881 غيرت الجمعية اسمها جزئياً فأصبح هو (الجمعية الجغرافية والأثرية لاقليم وهران). وأسست متحفاً أصبح يدعى المتحف الأثري والفني لمدينة وهران. ومن المساهمين فيها المستشرقون رينيه باصيه، وتلميذه ألفريد بيل، وموليراس.

وكما قامت جمعية وهران بمبادرة أحد العسكريين كذلك كانت الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر. إذ يرجع الفضل في إنشائها سنة 1896 إلى العقيد بولينياك. وقد أنشأت هي أيضاً مجلة ضمت بحوثاً مختلفة المستوى، واهتمت بالصحراء وافريقيا وبالجزائر. وكتب فيها العسكريون بالدرجة الأولى عدة مونوغرافات عن تجاربهم في البلديات والبعثات العلمية. وكان من كتابها بعض المدنيين أيضاً أمثال جوزيف ديبارمي الذي اختص بالانثروبولوجيا في منطقة متيجة وتطور الحركة الوطنية والنفسية الجزائرية من خلال النصوص الشعبية والفولكلور.

وهناك جمعيات علمية أخرى أقل شهرة، وقد أصدرت أيضاً مجلات تضم بحوث أعضائها. ونذكر منها هنا، الجمعية الأثرية والسياحية لسوق اهراس، والجمعية الأثرية لمنطقة سطيف، وجمعية أصدقاء تلمسان القديمة بقيادة المستشرق ألفريد بيل. وفي 1909 ظهرت في العاصمة جمعية التاريخ الطبيعي للقطر الجزائري، وكانت لها نشرة شهرية، ثم الجمعية الفرنسية للفيزياء ـ فرع الجزائر العاصمة[1].

---

(1) غوستاف ميرسييه (مدخل)، مرجع سابق، ص 388 ـ 331. وهناك بحث موسع =

وبعد تكاثر الجمعيات وتوزع جهود الباحثين من خلالها، ظهرت فكرة جديدة لجمع الشمل والتعاون وتبادل الخبرات، وذلك بإنشاء اتحادية لهذه الجمعيات، سميت (فيدرالية الجمعيات العلمية لشمال افريقية). وواضح أن هذا العنوان لا يقتصر على الجمعيات العلمية في الجزائر، ولكن يضم الجمعيات العلمية الفرنسية على مستوى تونس والمغرب الأقصى أيضاً. فالتنسيق بين الجمعيات المذكورة كان ضرورياً لخدمة أهداف الاستعمار القريبة والبعيدة في منطقة المغرب العربي كلها. وكان جورج هاردي هو صاحب المبادرة لإنشاء الفيدرالية التي بدأت نشاطها الجماعي سنة 1935 بالجزائر، ثم عقدت دوراتها الأخرى سنوياً في كل من تلمسان وتونس والرباط وقسنطينة. وبحلول الحرب العالمية الثانية توقف هذا النشاط. وكان يصدر عقب كل اجتماع سنوي مجلد أو مجلدات تضم البحوث التي عالجها الأعضاء، وكانت بحوثاً دسمة في معظمها وفي مختلف التخصصات التي تهم المنطقة من الوجهة الفرنسية.

ونريد أن نشير أيضاً إلى **(لجنة ترجمة الكتب العربية)** التي أسسها الحاكم العام جول كامبون سنة 1894. وكان الغرض منها هو إعداد ونقل الكتب العربية إلى اللغة الفرنسية، ولا سيما تلك الكتب المدرسية أو ذات الطابع التعليمي الذي تقرر استعماله في المدارس الشرعية ـ الفرنسية الثلاث بعد إعادة تنظيمها وفي دروس المساجد المراقبة من إدارة الشؤون الأهلية، وفي مدرسة الآداب وغيرها. وكان المشرف على اللجنة هو بيرسفيل، كاتب عام الحكومة العامة، وكانت اللجنة تتألف من أساتذة فرنسيين في اللغة العربية من مدرسة الآداب ومدراء المدارس الثلاث، ومن مترجمين عسكريين تابعين للحكومة العامة. وتقرر أن تترجم مجموعة من الكلاسيكيات العربية في الفلسفة والنحو والتاريخ والفقه. ومنها كتاب ابن مسكويه، وحي ابن يقظان،

= عن الجمعيات الخمس الرئيسية بقلم الضابط جوق Jugue في المجلة الافريقية، 1905، ص 463 ـ 485. انظر أيضاً بحثنا (منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر في كتابنا أبحاث وآراء. ط. 3 جـ1. وماصيه (الدراسات العربية في الجزائر).

وسجل سيبيس تلميذ سقراط (ترجمه عن العربية ر. باصيه)، وتاريخ المغرب لابن عذارى، وعقيدة السنوسي، وكتاب ابن تومرت، (أعز ما يطلب؟)، والخزرجية في العروض، وتاريخ بني عبد الواد ليحيى بن خلدون، والمعجم الفرنسي ـ التارقي لموتيلانسكي، وغير ذلك.

وكان تحقيق ونشر بعض المؤلفات من قبل محمد بن أبي شنب، وكتابة معجم التراجم (تعريف الخلف) لأبي القاسم الحفناوي، ونصوص بوليفة، داخل ضمن هذا المشروع. ولا ندري الآن إن كان بعض الجزائريين من ضمن أعضاء هذه اللجنة. وقد ترجم أيضاً المترجم العسكري بالحكومة العامة، باقار، عملاً لمؤلف مجهول عن مورفولوجيا الفعل في اللغة العربية ـ النص العربي والنص الفرنسي في 42 صفحة ـ ،كما ترجم سيكار، وهو أيضاً من العاملين في الحكومة العامة، رجزاً في النحو لحسن العطار المصري، سماه بحثاً في النحو العربي (34 صفحة)[1]. وكان دومينيك لوسياني من المشاركين في الترجمة من جهة ومن المنشطين للمشروع من جهة أخرى.

ويجب علينا أن نعتبر البحوث التي صدرت عن مؤتمر المستشرقين الرابع عشر (الجزائر 1905) ضمن هذه الأعمال العلمية الجماعية أيضاً. فقد انتهى المؤتمر بإصدار وقائع ودراسات هامة تخص الجزائر ومنطقة المغرب العربي. ومنها بحث لابن أبي شنب عن سند صحيح البخاري في الجزائر، وإجازة عبد القادر الفاسي لبعض الجزائريين. وقد شارك عبد الحليم بن سماية والمختار الحاج سعيد وغيرهما من الجزائريين في أعمال المؤتمر أيضاً.

وكانت أعمال الجمعية الآسيوية في باريس والجمعية الجغرافية

---

(1) انظر تقرير رينيه باصيه عن العمل العلمي الفرنسي في (الميلانج) في المجلة الآسيوية، 1920، مجلد 15، ص 92. وكذلك المجلة الافريقية، 1898، ص 376.

الفرنسية ومدرسة اللغات الشرقية بباريس أيضاً تساعد على نشر الآثار المتعلقة بالجزائر والمغرب العربي. وتطول القائمة لو تعرضنا إلى ذلك، ثم إن هذه الجمعيات والمؤسسات تقع خارج الجزائر. ومما نشر فيها تاريخ البكري وترجمات لنصوص عن أبي القاسم الزياني وأحمد بابا التنبكتي، ورحلة ابن بطوطة.

المعاهد الجامعية

وساهمت جامعة الجزائر أيضاً، من زاوية أخرى، في هذه الأعمال العلمية الجماعية. فبالاضافة إلى دورها في لجنة الاحتفال المئوي الذي ذكرناه، وإلى دورها في التعليم العالي، قام أساتذتها ببحوث تخدم الإدارة الاستعمارية في الجزائر والمغرب العربي وافريقيا، بل وفي المشرق العربي والاسلامي أيضاً. كانت جامعة الجزائر التي ترجع نواتها إلى إنشاء المدارس العليا سنة 1880، قد ظهرت إلى الوجود سنة 1909. وتطورت بسرعة حتى أصبح الفرنسيون يسمونها (السوربون الافريقية) وكانوا يعتبرونها الجامعة الفرنسية الثالثة لارتفاع مستواها التعليمي. وقد عرفنا أن من أساتذتها في العلوم الاجتماعية ماسكري، وباصيه، وموران، وفانيان. ويقول عنها غوستاف ميرسييه إن جامعة الجزائر قد قامت بدور مشع لتفيد فرنسا الأم. فالهدف من إنشاء المعاهد المتخصصة ومراكز البحث لم يكن لفائدة الجزائريين بل لفائدة فرنسا بالطبع.

ومعظم المعاهد التي تفرعت عن الجامعة تأسست خلال عقد الثلاثينات من هذا القرن. وكان الهدف من إنشائها هو أولاً الخروج عن دوائر الكليات الضيقة التي كانت تهتم بالتعليم أكثر من البحث، ثم خدمة مشاريع الدولة الفرنسية برؤية أوسع وأشمل للمناطق التي أشرنا إليها، وفي مختلف التخصصات التي تحتاجها، وبطريقة أكثر مرونة. وليس من غرضنا ذكر جميع هذه المعاهد، وإنما نكتفي بذكر المعهد الصحراوي والمعهد الشرقي والإشارة إلى غيرهما.

ظهر معهد البحوث الصحراوية عندما اهتمت السلطات بدراسة الصحراء ظاهرياً وباطنياً. وكان رئيسه هو السيد مير. واشترك في الدراسات فيه أطباء ومستشرقون وضباط ومستكشفون وعلماء في الجيولوجيا وغيرهم، كل في مجال تخصصه. وكانوا يصدرون أعمالهم في مجموعات، كما كان المعهد يصدر أعماله المعمقة في مجلدات منفصلة. ومنها بيبلوغرافية واسعة عن الصحراء. ومن المساهمين في المعهد ويليام مارسيه، وديبوا، وليشيه، وكابوري، وريقاس.

أما معهد الدراسات الشرقية فقد تأسس تحت إشراف جورج مارسيه الذي عمل طويلاً في التعليم والتأليف في ميادين الفنون والآثار الاسلامية. وأعضاء المعهد كانوا من المستشرقين الفرنسيين المعروفين والعاملين في كلية الآداب، ومجال هذا المعهد هو العالم العربي والاسلامي الذي ينتمي إليه المغرب العربي تاريخياً ولغوياً وإثنياً أو عرقياً، حسب المصطلحات الفرنسية، منذ آلاف السنين. وأنشأ المعهد (حوليات) ظهر منها عدة مجلدات. وإلى جانبها نشر أعمالاً منفصلة عن المشرق العربي والاسلام في أندونيسيا، والأدب العربي المعاصر، والحياة اليومية في تونس، واللهجات العامية أو المكتوبة في الأندلس. وكذلك نشر أعمالاً عن لهجة الدروز، وعن التصوف الاسلامي، وتأسيس مدينة فاس. وظهرت أسماء المستشرقين من أمثال بوسكيه، وهنري بيريز، وليفي بروفنصال، وألفريد بيل، ومارياس كنار، وكانتينو، وروبير برونشفيك، وأندري باصيه، وليون غوتييه.

وهناك معاهد ومراكز بحث أخرى كانت متصلة بالجامعة أيضاً ولكنها كانت متحررة في نشاطها العلمي. نذكر منها معهد الدراسات القانونية، والمعهد الحضري، ومعهد الجيولوجيا التطبيقية، وجمعية العلوم الفيزيائية والكيميائية، يضاف إلى ذلك جمعية البحوث البترولية، ثم مكتب البحوث المنجمية. أما معهد باستور فقد كان مستقلاً عن الجامعة، وكان يقوم بخدمات في ميدان الصحة والوقاية من الأمراض.

وكان تحت الإشرف المباشر للحكومة[1].

البعثات العلمية ومشاركة المثقفين الجزائريين فيها

بالنسبة للبعثات العلمية، قام عبر حوالي خمسين سنة، عدة رجال فرنسيين بأدلاء جزائريين، باكتشاف الصحراء، ومنها إلى افريقيا. ومن ذلك بعثة إسماعيل بوضربة ودوفيرييه وفلاترز وموتيلانسكي وأطانو. وكان علماء الفرنسيين، مدنيين وعسكريين، مسلحين بالعلم واللغة وحب المعرفة والاخلاص لوطنهم، وكذلك حب السيطرة والاستعمار. وكانوا يستعملون نفوذهم المادي والمعنوي والسياسي، عن طريق إدارتهم، لتسخير الجزائريين ليكونوا لهم أدلاء ومساعدين لتحقيق أغراضهم. وقد اعترف دوفيرييه بالفضل للشيخ محمد العيد شيخ زاوية تماسين التجانية وكذلك للشيخ عثمان التارقي، واعترف أطانو سنة 1894 بالفضل للشيخ محمد العروسي شيخ ومقدم زاوية قمار التجانية في إنجاح مهمته في الهقار، وقال إنه لا يحتاج إلى برهان عن إخلاص الشيخ العروسي لفرنسا. وكان الشيخ العروسي قد استضاف (الميعاد التارقي)، وكان عبد النبي حفيد الشيخ عثمان ومقدم التجانية في الأزجر وقبيلة ايفوغاس الكبير، هو الذي قاد الميعاد التارقي نحو الجزائر سنة 1892 وهو الذي سهل مهمة أطانو بعد ذلك[2]. وقد أشاد موتيلانسكي أيضاً بدور الشيخ العروسي في تسهيل مهمته في سوف وفي الهقار وغدامس، بين 1903 ـ 1905. وفعل الشيخ العروسي نفس الشيء مع الضابط فورو سنة 1898. كما كانت القادرية تنافس التجانية في ذلك التقرب من فرنسا. ولكن الفضل العلمي يظل لهذه البعثات التي كانت تدرس الطرق والقبائل والآبار واللهجات والتربة والعادات والتقاليد. ولم يكن الغرض كما ذكرنا، هو دراستها لذاتها، ولكن للاستفادة منها في التقدم نحو

---

(1) غوستاف ميرسييه (مدخل)، مرجع سابق، ص 336.

(2) افريقية الفرنسية، فبراير، 1894، ومارس 1894.

افريقية والسيطرة على الصحراء وثرواتها.

والبعثات العلمية لم تكن نحو الصحراء وافريقية فقط، ولكن أيضاً نحو تونس والمغرب والسينيغال ومصر. وقد أشرنا إلى ذهاب رينيه باصيه وغيره إلى السنيغال وتونس لدراسة المخطوطات واللهَجات بهما، ولا شك أن ذلك كان مجرد غطاء، لأن هناك أهدافاً أخرى للبعثة كالاتصال بالعلماء ومعرفة العادات والتقاليد والتجار والنفوذ الفرنسي. وأرسل الفرنسيون بعثات سرية وعلنية إلى المغرب الأقصى قبل احتلاله وبعده. وبين المبعوثين بعض الجزائريين أمثال إسماعيل حامد وابن أبي شنب وسعيد (عمر) بوليفة ومحمد نهليل وقدور بن غبريط ومحمد معمري. كما ذهبت بعثة أخرى إلى مصر لدراسة أوضاع التعليم الاسلامي والمرأة والمحاكم الاسلامية[1].

وعلى ذكر الاستعانة بالجزائريين نذكر أن بعض الجمعيات كانت تقبل في عضويتها جزائريين هم في الواقع من نوع المستغربين عادة، وإن كنا قد وجدنا آخرين ليسوا كذلك، أمثال عبد الحليم بن سماية. ولكننا لا نجد أمثال عبد القادر المجاوي فيها رغم علمه وسمعته لأنه لم يكن يتكلم الفرنسية. وقد ذكر غوستاف ميرسييه أسماء عدد من الجزائريين الذين ساهموا في أعمال الجمعيات العلمية الفرنسية. وقال إن لهم «ثقافة فرنسية ـ إسلامية وروحاً في البحث جعلتهم أمثلة ممتازة». ومن الأسماء التي ذكرها: محمد بن أبي شنب وابنه سعد الدين، وبلقاسم بن سديرة، ومحمد صوالح، وسليمان رحماني، ومحمد الأخضر، والعربي المسعودي، وأبو بكر عبد السلام بن شعيب، وعبد الحميد حميدو، ومحمد الحاج صادق، وعبد السلام مزيان، «وغيرهم كثير»، كما قال. ولم يهمل ذكر محمد راسم صاحب المنمنمات «وعدداً من الفنانين والرسامين»[2].

---

(1) انظر بحثنا عن دور المترجمين الجزائريين في البعثات الفرنسية نحو افريقية المنشور في مجلة الثقافة، 1996.

(2) غوستاف ميرسييه (مدخل)، مرجع سابق، ص 331. لم يكن المجاوي يتكلم =

بعض هذه الأسماء لا نعرف مساهمتها الآن مثل محمد الأخضر، والعربي المسعودي. ولكن السيد ميرسييه أهمل ذكر بعض الذين ساهموا فعلاً في ميدان الدراسات الفرنسية، أمثال عبد الرزاق الأشرف، ونور الدين عبد القادر، واحمد بن مجقان، وحفيظ بومدين ومحمد بن يوسف كسوس والمولى القاضي، وعمر قندوز، وعلي الشريف الزهار، وابن يحيى علي بن أحمد، وأحمد بن بريهمات وعبد الحليم بن سماية[1]. فهؤلاء جميعاً ذكروا في عضوية الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال افريقية التي تأسست سنة 1896 وقد سبق ذكرها. أما إسماعيل بوضربة الذي ذهب في رحلة إلى غات، فقد كان عضواً في الجمعية التاريخية التي كانت تنشر المجلة الافريقية. وكذلك محمد صوالح الذي وجدنا اسمه في أعضاء هذه الجمعية ابتداء من سنة 1900 (المجلة الافريقية، ص 96). وكان عندئذٍ ما يزال أستاذاً في مدرسة ترشيح المعلمين (النورمال). ولعل محمد بن رحال كان عضواً في جمعية جغرافية وهران.

ورغم وجود هذه الأسماء الجزائرية في الجمعيات العلمية الفرنسية فإن مساهمتها الفردية كانت قليلة. فإذا استثنينا عائلة ابن شنب وأبو بكر عبد السلام والحاج صادق ومحمد صوالح وأسماء أخرى قليلة، فإن الانتاج الذي يحمل توقيع صاحبه من هؤلاء لا يكاد يذكر. ولكن مساهمة الجزائريين كانت بالتعاون والمشاركة مع الأعضاء البارزين من الفرنسيين في الجمعيات المذكورة. وهذه التبعية هنا أو هناك لم تسمح للجزائري أن يطور شخصيته العلمية المستقلة وأفكاره بطريقة حرة، وأن يكتشف هويته الحقيقية وسط

= الفرنسية، وقد وجدنا أن عبد الرزاق الأشرف هو الذي كان يترجم عنه في إحدى جلسات تدوين الفقه.

(1) مجلة الجمعية الجغرافية للجزائر 1886 ص 51، وفي عدد 7 سنة 1902 أسماء ممن ذكرنا. وُصِف كسوس بأنه خوجة بلدية الطاهير (كاتب)، ووصف حفيظ بومدين بأنه صيدلي في مستشفى مصطفى. وعائلة (حفيظ ـ حفيز) من العائلات القديمة في الجزائر العاصمة. للمزيد عن دور الجزائريين انظر فصل الترجمة والمترجمين.

ركام الشك الذي أحاطته به المدرسة الفرنسية.

الكنيسة والتنصير

لا نريد أن ندرس مختلف أنشطة الكنيسة منذ الاحتلال، فذلك موضوع واسع يخرجنا عما نحن فيه. إنما نريد أن نسلط الضوء على بعض الأنشطة التي تحدد العلاقة بين الكنيسة والإدارة الاستعمارية وكذلك على أدوار بعض رجال الدين الذين تولوا أمر الكنيسة وكانت لهم مخططات خاصة، ومدى علاقة ذلك بالاسلام واللغة العربية والثقافة الوطنية على وجه العموم.

الأطروحة السائدة بين الكتاب الفرنسيين تقوم على أن هناك خلافاً بين نوايا وأهداف رجال الدين ورجال الدنيا الفرنسيين في الجزائر، فالعسكريون كانوا لا يريدون إطلاق العنان لرجال الدين ينفذون مخططاتهم بين المسلمين. والحكومة الفرنسية من جهتها تعلن على لسان وسائلها ورجالها أن الهدف من إنشاء الكنيسة وتعيين رجال الدين إنما هو خدمة المستوطنين الأوروبيين وليس التبشير واستعادة المسيحية القديمة وإثارة مشاعر المسلمين. ويقول أولئك الكتاب إن الجنرالات الفرنسيين كانوا غير متدينين، وأنهم كانوا يخشون، كمسؤولين، أن يؤدي نشاط رجال الدين المباشر إلى ثورة المسلمين وعدم الاستقرار. ومن جهة أخرى تذهب الأطروحة المذكورة إلى أن المستوطنين أنواع، وأغلبهم غير متدينين أيضاً، لأن منهم الجاهل والصعلوك الذي لم يكن يهتم بالأخلاق والمعنويات ولكن بالمادة والكسب، ومنهم السياسيون الذين هجّرتهم الدولة إلى الجزائر في أزمنة مختلفة، وهؤلاء كانوا لائكيين وغير مهتمين بالدين، بالإضافة إلى أن هناك رجال إعلام ومترجمين ينتمون إلى الاشتراكية المثالية والسانسيمونية.

وفي نظر أولئك الكتّاب أن الجمهورية الثالثة قد فتحت النار، كما يقولون، على الكنيسة وعلى «الجزويت» بالخصوص، وقلمت أظافرهم، ثم جاء الاعلان عن فصل الدين عن الدولة مع فاتح هذا القرن، فأرغم رجال

الكنيسة على التوارى وتقليص نشاطهم. ومعنى هذا أن السلطة الحاكمة كانت «غير دينية» أو لائكية، وإن التسامح وحرية العقيدة كان هو شعار الحكم الفرنسي في الجزائر. ترى هل هذا صحيح؟

إذا عدنا إلى مراجعة مسيرة الاحتلال سنجد أن السلطة الزمنية والسلطة الدينية (الروحية) كانت غير محددة لدى الحكام الفرنسيين في الجزائر ولدى رجال الدولة في فرنسا الذين لهم علاقة بالشؤون الجزائرية، منذ تقرير العقيد كليرمون تونير الذي قدمه إلى شارل العاشر لإقناعه بالموافقة على الحملة ضد الجزائر، كان الدافع الديني قوياً في أذهان الفرنسيين. فقد وعده بأن الحملة ستحقق انتصار الكنيسة الكاثوليكية على الاسلام واستعادة المسيحية إلى إفريقية (الجزائر) كما كانت قبل الاسلام. ومن يتأمل في العبارات الواردة في التقرير المذكور، وفي غيره، يدرك أن الروح التي كانت تقود رجال الدولة الفرنسية عندئذٍ تكاد لا تختلف عن الروح التي كانت تقود ايزابيلا وفيرديناند في الأندلس ثلاثة قرون قبل ذلك.

وبالرجوع إلى أدبيات الحملة نفسها بعد نجاحها نلاحظ السلوك الديني لدى الجنرالات وعلى رأسهم بورمون وكلوزيل ثم من جاء بعدهم، بمن فيهم بوجو وراندون. فإقامة القداس الأول على يد القس شارل زكار الداعية المعروف والملازم لبورمون، وتولية العسكريين الشؤون الدينية إلى حين مجيء دوبوش سنة 1838، وإقامة القداسات بعد معارك «النصر» لشكر الله على رضاه وتوفيقه ضد «الكفار» المسلمين، وإحاطة القساوسة بالأبهة وإدخالهم إلى مراكز نشاطهم مرفوقين بالفرق العسكرية، كما حدث للأب سوشي في قسنطينة، كل ذلك يدل على أن ممثلي الدولة الفرنسية في الجزائر لم يكونوا لائكيين، كما يريد البعض أن يُفْهِمونا في عصر الليبرالية واللائكية.

وأوضح من ذلك موقف ممثلي السلطة الفرنسية من الدين الاسلامي نفسه في الجزائر. فهم، وليس رجال الكنيسة، الذين داسوا على اتفاق 5 يوليو،

1830 الذي ينص على احترام الدين الاسلامي ومعابده، ثم هم، وليس رجال الكنيسة، الذين هدموا المساجد وجعلوها مستشفيات واسطبلات ومخازن، وتحت سلطتهم تحول بعضها إلى كنائس، وهم الذين صادروا الأوقاف، وقطعوا عن الكتاتيب القرآنية مواردها. والقائمة طويلة. ومنذ 1838 تعاونوا مع دوبوش وخلفائه على تحطيم الحياة الاسلامية، كالقضاء والتعليم العربي، والمساعدة على انتشار الخمر وأماكن الفساد الأخلاقي[1]، وجَلْب الجزويت الذين منعوهم من العمل بفرنسا. والقائمة هنا طويلة أيضاً. والفرق الذي يبدو للعيان هو أن رجال الدين كانوا يريدون المواجهة وتحدي المسلمين مباشرة متغطين بالجيش والسلطة. أما المسؤولون المدنيون والعسكريون فيريدون عدم المواجهة واتخاذ أسلوب التوغل الهادىء والتسرب البطيء، للوصول إلى نفس الهدف.

يقول بعض الكتاب إن الجزائريين أنفسهم شهدوا على عدم تدين الفرنسيين. فقد كانوا يظنونهم «أهل كتاب» وأتباع عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ عن حقيقة. وينسبون إلى الأمير عبد القادر قوله: إن هؤلاء الفرنسيين ليس لهم دين. وذلك بعد أن وجدهم على غير ما كان يعتقد فيهم. ويقولون إن الجنرالات وبعض الكولون الأولين كانوا متأثرين بأفكار فولتير المتنورة وبعيدين عن روح الدين. وقد ذكرنا أن حركة التنوير والحركة الرومانتيكية، والليبرالية المادية، والفكر الجمهوري والنظرية الاشتراكية المثالية والماسونية، كلها كان لها تأثير في الفرنسيين عبر المراحل المختلفة. وهذا صحيح إلى حد كبير بالنسبة لبعض الحكام وأصحاب الجرائد والجمعيات. ولكن عندما تأتي المصلحة الفرنسية فالكل يصبح واحداً، ولا يهم بعد ذلك أن تكون المصلحة من جهة رجال الدين أو

(1) كتب بلاكسلي (وهو قسيس) أوائل الخمسينات من القرن الماضي، إن الفساد قد انتشر بعد الاحتلال بدرجة مريعة. وذكر أن الأطفال غير الشرعيين بين 1831 ـ 1836 كانوا لا يقلون عن 244 في الألف، بينما كانوا في فرنسا كلها 72 في الألف. انظر (أربعة أشهر في الجزائر)، لندن 1859، ص 44.

من رجال الدنيا، من القسيس أو من الجنرال.

نشأة الأسقفية

وإلى سنة 1838 كان العسكريون هم الذين يقومون بالشؤون الدينية أيضاً. وكان نشاطهم ما يزال منحصراً في تربية المهاجرين الجدد إلى الجزائر وهدايتهم روحياً. ونذكر أنه من الناحية الإدارية لم يعلن الفرنسيون أن الجزائر من «ممتلكات» فرنسا إلا سنة 1834. ومع ذلك فإنهم منذ 1830 قام العسكريون منهم بما ذكرنا حول الأوقاف والمساجد والزوايا والجبانات، وهدموا وغيروا ما شاؤوا. وكانت الحكومة الفرنسية تفاوض الفاتيكان على فتح أسقفية لها في الجزائر. وقد أدت المفاوضات إلى تعيين السيد أنطوان دوبوش أسقفاً في الجزائر سنة 1838. ووجد دوبوش قبله سبعة قساوسة، منهم أربعة في العاصمة، وإثنان في عنابة وواحد في وهران.

وفي نهاية السنوات التي بقيها في الجزائر 1839 ـ 1846 ترك دوبوش منجزات كبيرة لا يمكن إنجازها لولا المساعدات التي كانت تأتيه من هنا ومن هناك، ومنها مساعدات الحكام في الجزائر، ممثلي الدولة الفرنسية. ومن تلك الانجازات: بناء 60 كنيسة ومعبداً، و16 مؤسسة دينية (وبعض هذه المباني كانت مساجد) و91 قسيساً، و140 إطاراً من النساء والرجال في الشؤون الدينية، وملجأ للأيتام، وحلقة درس (سيمينار).

كان أصل ديبوش من مدينة بوردو. وبعد حلوله بالجزائر (العاصمة) سكن في أحد القصور التابعة لبايات قسنطينة، وهو قصر الأميرة عزيزة، وبالطبع فإن الحكومة الفرنسية هي التي أعطته إياه لأنها هي التي استحوذت على جميع أملاك البايلك القديم. وفي ظرف قصير استطاع دوبوش أن يقيم مشروعاً لاستعادة الكنيسة الافريقية القديمة وأن يقنع الجنرالات، ولا سيما بوجو الذي رأى فيه وسيلة لضرب المقاومة الاسلامية. فتعاونا، كل في مجاله، وبلغ الأمر بديبوش ان كان يفاوض الأمير عبد القادر على الأسرى الفرنسيين، حتى ظن بعض العسكريين أنه تجاوز حدوده، وتحدث بعضهم

بإحضاره أمام المجلس العسكري. وهو الذي أرسل القسيس سوشيه، خليفة عنه إلى قسنطينة، وكان هذا مثل سيده يتحدى المشاعر الاسلامية ويدعو إلى النصرانية جهاراً. وكان سوشيه قد أرسله دوبوش أيضاً إلى الأمير عبد القادر في معسكر يتجسس عليه ويبادله، ظاهرياً، بعض الأسرى المسلمين بأسرى فرنسيين[1].

وقد وصف بلاكسلي بعض مظاهر النشاط الديني الفرنسي في الجزائر فقال: انه كان للأسقفية قصر (فيلا) بناحية سانت اوجين (بلكين حالياً). ويعتبر من نوادر القصور التي سلمت من التخريب. وكان القصر فيما مضى مقراً للقنصلية الفرنسية في عهد الدايات. ثم أصبح مقراً للحلقة الدراسية (السيمينار) التي أنشأتها الأسقفية ومنزلاً ريفياً للأسقف. وذكر بلاكسلي أن دوبوش قد وجد سنة 1839 قسيسين يقومان بشؤون الدين المسيحي في أحد المساجد الذي حولته السلطات إلى كنيسة. كما وجد بعض النسوة (الراهبات) اللائي كرسن حياتهن لخدمة الأيتام والتمريض. ومن جهة أخرى وجد دوبوش معبداً في وهران وآخر في عنابة. غير أنه وجد الفرنسيين الذين حلوا بالجزائر وقد انتشرت بينهم المفاسد وانحطت أخلاقهم.

ولكن دوبوش انطلق في مشروعه فأنجز في ظرف سبع سنوات 47 كنيسة ومعبداً و40 ملجأ. ووظف 39 راهباً، وجلب عدداً من «أخوات الرحمة». وأنشأ ملجأ (الترابيست) في اسطاولي. وصرف المال الكثير على مشاريعه حتى بلغت ديونه 20٫000 جنيه استرليني. وشهد بلاكسلي أن رجال الكنيسة، وعلى رأسهم دوبوش، قد أدوا خدمة كبيرة لفرنسا في الجزائر عن طريق التأثير على السكان معنوياً بالعلاج والأعمال الخيرية وإعطاء المثال في النظافة والنظام وحسن المعاملة. ومن ذلك مستشفى وهران، وملجأ ابن عكنون المسمى (بروملت) وملجأ بوفاريك، وكلاهما من عمل اليسوعيين.

---

(1) انظر سوشيه «لقاء مع الأمير عبد القادر» سنة 1841 وهو منشور في (مجلة الشرق) 1843، ص 77 ـ 90.

ومما يلفت النظر قول بلاكسلي إنه إلى سنة 1854 بنت الدولة الفرنسية في الجزائر ثلاثة مساجد فقط (بعد أن هدمت العشرات منها)، بينما شيدت على حسابها الخاص 37 كنيسة كاثوليكية ومعبدين بروتيستانيين. وقد كانت الأسقفية تكلف الدولة أموالاً طائلة، منها 25,000 ف سنوياً للأسقف فقط، وقد أصبحت أموال الأوقاف الاسلامية تصرف على رجال الكنيسة بعد مصادرة الأوقاف. وكان عدد الموظفين (رهبان وراهبات) يفوق المائة. وكانت أجورهم تفوق 37,100 ف. سنوياً[1].

وفي عهد المارشال فاليه 1837 ـ 1841 حصلت الأسقفية على جامع البليدة، فحولته إلى كنيسة كاثوليكية، وقد حضر دوبوش نفسه حفلة رفع الصليب على أعلى الجامع. ومما يلفت النظر إن الصليب الذي وقع صهره في البليدة كان ثقيلاً وضخماً حتى نَاءَ به ستة من العرب (المسلمين) كان عليهم أن يحملوه من المصهر إلى الجامع. ثم قام الجنود الفرنسيون برفع الصليب وتثبيته في أعلى الجامع وأضاؤوه بشعلة حملها العرب أيضاً. ودوبوش هو الذي وضع أيضاً الحجر الأساسي لدير الأخوة المعروف (بلاَ ترْاب) قرب سيدي فرج واسطاويلي حيث وقعت أول معركة بين الجزائريين والفرنسيين. ومن سياسة النظام الفرنسي أن الديانة الكاثوليكية والبروتيستانتية واليهودية كانت تحت وزارة الأديان، أما الدين الإسلامي فقد كان تحت وزارة الحرب. ويذكر أحد المعاصرين أن مهمة الأسقفية كانت هي استرجاع الكنائس القديمة في مناطق الجزائر، والبحث والتنقيب عن الغابر منها وتعيين القساوية على المكتشف منها. ولاحظ هذا المعاصر أن القساوسة أصبحوا بعد ثورة 1948 أكثر عبودية (تبعية) للدولة. ومن رأى الفرنسيين أن الدين الإسلامي سينتهي في الجزائر إما بالاحتلال وإما بالتلاشي[2].

وكان دوبوش يتلقى الأموال من الجمعيات الخيرية في فرنسا وفي

---

(1) بلاكسلي (أربعة أشهر في الجزائر)، مرجع سابق، ص 48.

(2) توماس ديرابي Deraby (انطباعات إقامة)، لندن 1851، ص 333 ـ 343.

غيرها، ويبذّر المال على مشروعه الضخم حتى أفلس في النهاية، ودخل السجن، ثم تحملت الدولة ـ وهذا بيت القصيد ـ ديونه. وأكبر تظاهرة قام بها من أجل مشروعه هي استعادة بقايا القديس اوغسطين في 30 اكتوبر 1842 (أثناء حكم المارشال بوجو). إن هناك أوصافاً عديدة لهذا الحادث من طرف المعاصرين. وصفه بوجولا والسيدة بروس وغيرهما. وقد وصفت السيدة بروس التظاهرة فقالت: إن عملية نقل بقايا أوغسطين كانت تشبه استعادة رفات نابلوين من سانتا هيلينا إلى فرنسا. نقلت البقايا من بافيا إلى طولون ثم من هذه إلى عنابة (بونة) على يد القساوسة والجماهير، وذلك في حفل ديني ضخم تعبيراً على استمرارية الكنيسة المسيحية. ولم يدخر الأسقف دوبوش المال لإنجاح المشروع. بدأ التجمع الكبيرِ في (لابروفانس) بفرنسا، وهناك خطب فيهم بطريق باريس المدعو (سومور). وحضرت إثنا عشرة سفينة لنقل الأساقفة الستة وضيوفهم إلى الجزائر. وعلى متن السفينة الأولى كان الأسقف دوبوش بكل سراويله وملابسه الدينية الفضفاضة، وكان على متنها أيضاً بقايا اوغسطين التي كانت مغطاة بالكريستال والفضة، فكانت تحدث الدهشة بلمعانها في الشمس الجزائرية. وإلى جانب دوبوش كان يقف أساقفة فرنسا الستة بملابسهم الدينية الرسمية[1]. ثم تعاقبت السفن التي كان عليها القساوسة من كل الدرجات بمسوحهم التقليدية. وهناك سفينة كانت محملة فقط بالراهبات، وأخرى محملة بفرقة البر والإحسان Hospitalier.

وعند الوصول إلى مرسى عنابة تعالت الأناشيد والأغاني الدينية من كل سفينة. واعتقدوا أن الطبيعة كانت تردد معهم تلك الأصوات وذكريات «الكنيسة الافريقية» التي طالما رقدت تحت الرمال الخضراء، حسب تعبير بعضهم. وعلى الرصيف نصب قوس النصر الذي كتبت عليه العبارات التالية: «لقد رجعت هيبونة يا اوغسطين!» ثم وضعت البقايا المحمولة على منصة خاصة في ميدان السلاح. وتقدم دوبوش وألقى القداس أمام الجماهير، واستعرض حياة

(1) هم أساقفة: مرسيليا، وبوردو، وشالون، ودينيو، وفلانس، ونيفير.

اوغسطين ومنفى بقاياه، ورجوعها المنتصر «تحت حماية العلم الفرنسي» - حسب تعبيره.

وفي اليوم التالي سارت التظاهرة إلى بونة بالطريق الروماني القديم. وعند وصولهم إلى الجسر القديم وجدوا قوس نصر آخر في انتظارهم. وهناك كانت السلطات المدنية والعسكرية لعنابة في انتظار الأسقف دوبوش وضيوفه. وقد ألقى نشيد (توديم)، وارتفعت الأصوات بشكل متحد مع نغمات الموسيقى العسكرية التي كانت تتقدم الموكب. وسار هذا الموكب إلى حيث ضريح مرتفع في شكل منصة. وهنا كشفت بقايا أوغسطين. ومن جديد ألقى دوبوش القداس بطريقة رسمية فيها البلاغة والشعر قائلاً: ها هي شعوب كل الأمم: الفرنسية والكورسيكية والسردينية والاسبانية والايطالية والمالطية.. كلهم ركعوا لله في تواضع وخشوع، ورفعوا الدعاء إلى الله بمختلف لغاتهم. وتنادت قرطاج من تونس، ومياه البحر، وأصداء الهضاب. ثم ارتفعت دمدمات المدافع من القصبة متقطعة حسب تقدم التظاهرة وعلى خطى الموكب. كما كانت الموسيقى العسكرية تشارك بأنغام مناسبة أثناء تدشين تمثال لأوغسطين الذي وضع على رخامة بيضاء، كان التمثال من البرونز، وكان وضعه يجعله ملتفتاً نحو فرنسا اعترافاً بفضلها وحمايتها[1].

لقد جرى كل ذلك في تحدّ سافر لمشاعر المسلمين. كان الحفل الذي جمع عشرين ألفاً في طولون، وآلاف الحاضرين والفضوليين في الجزائر، قد جرى تحت حماية العلم الفرنسي والجيش ومباركة المارشال بوجو نفسه. وكانت السلطات المدنية والعسكرية الفرنسية مشاركة في التظاهرة بالمال والسفن والضيافة والرعاية المعنوية. ومع ذلك يقول البعض إن الأسقف دوبوش، ورجال الدين عموماً، كانوا يعملون بدون موافقة العسكريين وممثلي الدولة الفرنسية! لقد جاء بوجو بالسيد جان بوجولا واعتبره «مؤرخ»

(1) السيدة بروس (إقامة في الجزائر)، مرجع سابق، ص 106 ـ 108، نقلاً عن وصف الأسقف سيمور للحفل المذكور، باختصار.

عهده في الجزائر فكتب بوجولا يصف عهد بوجو وانتصار الكنيسة، وقد طعن في الاسلام والمسلمين حتى فاض كاسه[1].

وفي سنة 1845 قام الأسقف دوبوش بتدشين كنيسة بتلمسان، بعد استيلاء الفرنسيين عليها. وقد حضر معه الأب بارجيس الذي جاء خصيصاً من باريس والذي نوه بجهود الأسقف لإعادته الكنيسة الافريقية بعد ستة قرون من انقطاع حلقتها على يد المسلمين، كما قال. والأب بارجيس لا يتورع في هذه المناسبة عن أن يسمى أرض الاسلام في تلمسان «الأرض الكافرة»، ويسمى الرسول ﷺ «بالنبي المزيف». ففي ابريل 1845 افتتح الأسقف دوبوش تلك الكنيسة الكاثوليكية (وأصلها جامع) في حديقة المشور، وعيّن عليها أحد القساوسة[2].

ولكن بعد بضعة أسابيع حدثت ثورة عارمة في منطقة الظهرة كلها، وشملت تلمسان. فهرب القس الذي كان هناك. كانت الثورة قد اشتركت فيها مختلف الطرق الصوفية، واشتهر خلالها محمد بن عبد الله المدعو بومعزة. ورجع الأمير عبد القادر الذي كان قد التجأ إلى المغرب الأقصى وركب موجة الثورة، وضرب العدو ضربة قوية في سيدي بلعباس، ثم حدثت معركة سيدي إبراهيم الشهيرة. وفسد مشروع الكنيسة في تلمسان، مؤقتاً على الأقل. ومن جهة أخرى وجد القس سوشيه في قسنطينة مقاومة شديدة لمشروعه.

إن هدم المساجد أو تحويلها عن غرضها ومصادرة الأوقاف الدينية وغير ذلك من الاجراءات التي تسيء إلى الاسلام والمسلمين، كانت تجري بالتراضي بين رجال الدنيا والدين الفرنسيين، رغم ما قيل من أن العسكريين والمدنيين كانوا غير متدينين. ومنذ وصل دوبوش وهو يعمل على دعم الكنيسة وافتكاك المبادرة واستعادة دورها الذي كان لها في نظره منذ أيام الرومان. وقد ذكرنا أنه كان يفاوض الأمير على إطلاق سراح الأسرى فوق

---

(1) في كتابه الذي سماه (دراسات افريقية) وهو في أجزاء. وافريقية هنا تعني الجزائر.
(2) عن جامع المشور انظر فصل المعالم الاسلامية.

رؤوس العسكريين، فاوض بنفسه في بوفاريك ممثلي الأمير، ثم أرسل إليه القس سوشيه إلى معسكر. واستطاع أن يتبادل معه بعض الأسرى. وقد سَخِطَ عليه بعض العسكريين لتفاوضه «مع العدو» وكادوا يعقدون له مجلساً حربياً، لولا تدخل بوجو الذي كان يحميه[1].

وفي نهاية عهده أفلس دوبوش لأن سياسة التبذير والمغامرة التي سلكها جعلته يتهرب من الدائنين له إلى أن استقال، وسجن، ثم هرب إلى إيطاليا ثم إسبانيا، كما ذكرنا. فقد أكثر من المنشآت باسم الكنيسة. ومن ذلك ملجأ الأيتام في ابن عكنون. إذ جمع فيه الأطفال المنبوذين، وجند النساء للقيام بهم، واشترى له قطيعاً من الماعز للحليب، ثم دخل في صفقة عقارية، مما أدى إلى إفلاسه. وثارت ضجة للفضيحة. ونحن هنا لا يهمنا كل ذلك، ولكن يهمنا فقط أن الدولة الفرنسية بزعامة نابليون عندئذٍ سنة 1852 قد تدخلت وتكفلت هي بدفع الديون المترتبة على الأسقف باعتباره كان يعمل لمشاريع تخدم مصالح الدولة الفرنسية. وكان أسقف مدينة بوردو هو الذي أقنع نابليون بذلك.

الأسقف بافي:

أما الأسقف الثاني، وهو لويس بافي L. Pavy، فقد كان عهده أكثر اضطراباً وثورة على الدين الاسلامي. جاء الجزائر متحمساً للاستمرار في مشروع سلفه، وهو استعادة نشاط الكنيسة الكاثوليكية كما كان قبل الاسلام، واعتبار الحلقة الاسلامية مرحلة عابرة، فكان لا بد، في نظره، من تكسيرها. وقد طال عهد بافي من 1846 إلى 1866. وعرفت الجزائر خلال ذلك حياة متقلبة أيضاً: تغييرات إدارية، وثورات شعبية، واستيطان الأروبيين، ومواقف من التعليم والدين الاسلامي والقضاء، وحركة هجرة جزائرية نحو المشرق، وجوائح مهولة. ومن الصعب علينا التذكير بكل ذلك هنا، ولكن نحيل إلى كتابنا الحركة الوطنية والفصول الأخرى من هذا الجزء للربط بين ما حدث

---

(1) انظر بيلي (عندما أصبحت الجزائر فرنسية)، مرجع سابق، ص 288.

وما كان يقوم به الأسقف بافي. ورغم جهود هذا الأسقف في الدعاية للكنيسة بين المسلمين وتنصيرهم عن طريق الصدقات والمداواة والورشات ونشر اللغة الفرنسية، فإنه فشل في النهاية.

كان بافي عميد الكلية الكاثوليكية بليون قبل توليه أسقفية الجزائر، وقد وجد أن دوبوش مهّد له الطريق بإنشاء الكنائس وتكوين الرهبان وحلقات الدراسة والملاجىء. كما مهّد له الطريق باستعادة بقايا أوغسطين، ولذلك كان على بافي أن يواصل فقط مشروع سلفه. ومن أجل ذلك سعى إلى الحصول على رضى العسكريين، وإلى تجنيدهم إلى جانبه وتفادى المواجهة معهم. ويقال عنه إنه كان خطيباً ماهراً، وله قدرة على اكتساب المستمعين إليه. وفي عهده تدعمت الكنيسة في قسنطينة، حيث استمر سوشيه في مهمته، وتحول جامع سوق الغزل فيها إلى كنيسة[1].

وفي تلمسان رجعت 1846 الكنيسة (الجامع) بعد الثورة، في طراز موريسكي، وعليه ناقوس، ولكن الأب بارجيس تمنى لو كان للكنيسة مؤذن يؤذن فيها أيضاً للصلاة يوم الأحد كما يؤذن المسلمون لصلواتهم. وكانت زيارات وكتابات بارجيس تساعد بافي على ترسيخ فكرة استعادة الكنيسة الكاثوليكية إلى سالف عهدها. ولذلك قام بارجيس بتأليف كتاب صغير سنة (1848) عن «الكنيسة الافريقية» ووجهه إلى آلاف الفرنسيين، كما قال، الذين يتوجهون إلى الجزائر ليحملوا إليها حضارة فرنسا ونور المسيحية، وليذكرهم بماضي الكنيسة الذي دفنه «التعصب الاسلامي» والذي قطعت سلسلة حلقاته، حسب دعواه، بسيف أتباع النبي (محمد ﷺ) المزيف قطعاً فادحاً. وكان بارجيس، مثل بافي، يقول بأن للمسيحيين الجدد رسالة يؤدونها، وهي أن الله قد عهد إليهم باستعادة هذه الحلقة المكسورة وازدهار المسيحية من جديد في الجزائر. وقد نوه بارجيس، مثل بافي أيضاً، برجال الدين القدماء أمثال: تيرتوليان، واوغسطين، وسيبريان، وأوبتات،

(1) انظر فصل المعالم الاسلامية.

وأرنوب، الخ[1]. ورغم تقدم العمل الكنسي فإن بارجيس، مثل بافي أيضاً، كان يخشى على مصيره، فقد انتقد موقف الداعين إلى التسامح، وقال ان الفرنسيين إذا بقوا على هذا المنوال الذي دام ثماني عشرة سنة 1830 ـ 1848 فإن المسيحيين في الجزائر سيختفون ويعتنقون دين النبي (محمد) المزيف، في نظره. كما انتقد القساوسة المائة الذين كانوا بالجزائر ولم يتسربوا إلى نفوس أهل البلاد لعدم معرفتهم اللغة[2].

وخلاصة أعمال الأسقف بافي أنه أكمل مشروع الحلقات الدراسية في القبة وسانت أوجين (بلكين) بالعاصمة. وفي 1850 افتتح على حصن سانتا كروز بوهران، معبداً جديداً سماه معبد (سيدة الخلاص)، وفي 1854 وضع الحجر الأساسي لكنيسة السيدة الافريقية بالعاصمة في أعلى نقطة من جبل بوزريعة المطل على البحر. ووسع من كاتيدرالية سان فيليب (جامع كتشاوة) التي دفن فيها سلفه دوبوش سنة 1864. وأحضر مجموعة من المعلمين المعروفين باسم (أخوة المدارس المسيحية) وفتح بهم التعليم الديني ووسع منه ابتداء من 1854 (عهد المارشال راندون)، كما أحضر، باتفاق مع الحكومة، عدداً من الجزويت (اليسوعيين). وبهؤلاء وأولئك فتح بعض المدارس والملاجىء في زواوة وفي غيرها باسم الأعمال الخيرية. ومما يذكر له أيضاً أنه هيّأ لإنشاء أسقفية في كل من وهران وقسنطينة، كما جعل أسقفية الجزائر في مستوى أسقفية فرنسا[3].

ويذهب الكتّاب إلى أن بافي وسع من التعليم باللغة الفرنسية وإنشاء

---

(1) بارجيس Barges (موجز تاريخي عن الكنيسة الافريقية... خصوصاً في تلمسان)، باريس، 1848. المقدمة، ثم ص 38 ـ 42. كان بارجيس أستاذاً للغتين العبرية والكلدانية بكلية اللاهوت بباريس، وكان عضواً في الجمعية الآسيوية لسان حال المستشرقين. وقد زار تلمسان عدة مرات، وخصّها ببعض التآليف عن تاريخها وملوكها.

(2) نفس المصدر، ص 45.

(3) قوانار (الجزائر)، مرجع سابق، ص 298.

المكتبات الشعبية. وقد وقعت محاولات التنصير على عهده في عدة أماكن منها: ميسرغين وعين الحمام والأغواط والقبة. وكانت المدارس التي أنشأها بافي تعلم تقنيات الفلاحة أيضاً، وكان الهدف من تعليم الفلاحة للجزائريين هو مساعدة المستوطنين الفرنسيين على استخدام اليد العاملة بأجور ضعيفة. ومن مشاهير «الآباء» اليسوعيين الذين جندهم بافي نذكر كروزا في زواوة، وكليمانت في ميسرغين. ويذكر أحد المصادر أن بافي قد ترك 1800 تلميذ يتعلمون في المدارس الدينية، عندما غادر الجزائر. وهذا لا يعني بالضرورة تعليم الأطفال المسلمين وحدهم[1].

عندما فشل بافي في تنصير المسلمين في المدن اتجه نحو المناطق النائية والمعزولة. وطلب من الحكومة إرسال رجال الجزويت إليه[2]. ويبدو أن الحكومة لم تشجعه على ذلك في أول الأمر، فاعتمد على وسائله الخاصة. وفي سنة 1853 أخذ بافي نفسه يهاجم الاسلام ونبي الاسلام. فقال عن القرآن الكريم إنه عاجز عن تلبية حاجات الانسان، واتهم الرسول ﷺ بالكذب والاختلاق، وبتقليد المسيح ـ عليه السلام ـ وتحريف الانجيل. ويقول مارسيل ايمريت إن الحكومة خشيت من عواقب الصراع بين العرب والكولون فطلبت من بافي أن يكون معتدلاً في هجومه على الاسلام. ثم اعترف بافي بفشله في حملته هذه أيضاً. ولذلك ركز نشاطه على المراكز الاستيطانية الجديدة، وكان عددها 42 مركزاً. وقد طلبت منه الحكومة محاربة الأفكار الاشتراكية بين الكولون والعمال الذين جاؤوا من باريس حاملين تلك الأفكار. فأخذ بافي يقول: إن هناك ما هو أسوأ من الدين الاسلامي، وهو وجود أناس بدون إله.

وقد التجأ بافي إلى نفس الوسيلة التي لجأ إليها لافيجري في وقت لاحق، وهي كسب المستوطنين (الكولون) إلى جانبه ضد العسكريين الذين

(1) نفس المصدر، وكذلك بيلي (عندما أصبحت الجزائر)، ص 283.

(2) كانت القوانين الفرنسية تمنع الجزويت من النشاط في فرنسا نفسها.

كان يعتقد أنهم يقفون في طريق تنصير المسلمين. وحانت الساعة بإعلان نابليون عن مشروع المملكة العربية في رسالته إلى المارشال بيليسييه، الحاكم العام، سنة 1860. وكان المستوطنون ومؤيدوهم قد قاموا بحملة مسعورة ضد هذا المشروع، فقد رأوا فيه مخططاً لرجوع الأمير عبد القادر والاستقلال الذاتي للجزائر تحت الحماية الفرنسية، كما رأوا فيه فشل مخطط الاندماج الذي كانوا يسعون إليه. فأرسلوا الوفود إلى فرنسا، وكتبوا الكتب والعرائض والرسائل والمقالات في الصحف. كل ذلك في غياب الأصوات الجزائرية. وعرض بافي على الكولون أن يكون هو المتكلم باسمهم. وكتب منشوراً إلى القساوسة التابعين له جاء فيه أن رسالة فرنسا في الجزائر رسالة حضارية مقدسة، وإن قضية الكولون قضية عادلة. وأخذ بافي يركز على تكوين الموظفين للكنيسة وعلى أعمال الجمعيات الخيرية، أمام فشل الجزويت (اليسوعيين) الذين أرسلهم إلى زواوة[1].

وفي نهاية عهده سعى بافي إلى الحصول على فتح أسقفيتي وهران وقسنطينة. وقيل إن المارشال بيليسييه لم يؤيده في ذلك، لأن ثورة أولاد سيدي الشيخ كانت قائمة في الجهة الغربية منذ 1864. كما كانت الجزائر تعيش مضاعفات مرسوم 1863 الخاص بالأرض وانتزاعها من يد الأعراش وتمليكها للأفراد. لكن وفاة بيليسييه في السنة نفسها 1864 جعلت بافي يغتنم فرصة زيارة نابليون الثانية للجزائر سنة 1865 ويثير معه موضوع الأسقفية في وهران وقسنطينة. وكان البابا قد منح موافقته قبل ذلك. فوافق نابليون كذلك على طلب بافي برفع مستوى الأسقفية، وحدثت أزمة دبلوماسية بين فرنسا والفاتيكان حول طلب بافي وموافقة البابا قبل موافقة الحكومة الفرنسية. ولكن موت بافي المفاجىء أنهى الأزمة. وترشح لمنصبه بعض القساوسة، منهم كلود بافي، أخو السابق، ولكنه أحرز على أقلية من الأصوات، وحصل قاستلتي على الأغلبية، لكن ظلت المنازعات بينهما، إلى

(1) مارسيل ايمريت «تنصير المسلمين في الجزائر» في (المجلة التاريخية) 1960، ص 66. حين مات بافي سنة 1866، دفن في كنيسة السيدة الافريقية.

أن اقترح المارشال ماكماهون، الحاكم العام للجزائر، اسم شارل لافيجري، سنة 1867.

لافيجري:

كان لافيجري عندئذٍ هو قس مدينة نانسي بفرنسا (ولد في بايون 1825). وقد عرفه ماكماهون عندما كان قائداً عسكرياً لهذه المنطقة، وربط معه علاقات ودية. ووافق وزير الحربية على اقتراح ماكماهون دون تفكير في العواقب، أما وزير الأديان ونابليون نفسه فقد أبديا تحفظهما على إسم لافيجري. كان هذا أستاذاً للتاريخ الديني بالكلية الدينية بباريس. وقد شارك في توزيع المساعدات على النصارى أثناء أحداث سورية 1860، وعمل على توسيع النشاط الكاثوليكي في المشرق حتى قيل إن الحكومة الفرنسية عجزت عن الحد من نشاطه الديني هناك، وقد كوّن مع غيره سلسلة من المدارس تسمى (مدارس الشرق)، وظل على صلة بها حتى بعد أن أصبح أسقفاً للجزائر.

وصل لافيجري إلى الجزائر أثناء المجاعة المشهورة التي حلت بها. ووجد أسقفية الجزائر (الارشفيشي) تضم 83 فرعاً (برواس) فيها 104 من دعاة التنصير. وهم ليسوا كهنة من حيث العنوان. وكانوا يخضعون خضوعاً تاماً لإرادة لافيجري، وكان بعضهم مطروداً من فرعه بفرنسا، وفيهم من كان يكثر من شرب الخمر[1]. وتساءل لافيجري منذ البداية «كيف تظل فرنسا في الجزائر أربعين سنة دون أن تنجح في تنصير المسلمين! ومنذ البداية أيضاً شعر ماكماهون بالحرج مع لا فيجري. فقد أخذ هذا يتدخل في شؤون الإدارة والعلاقات مع المسلمين، كما أن زوجة ماكماهون كانت هي المتولية للإشراف على الأعمال الخيرية، فأراد لافيجري الاستيلاء على ما بيدها فرفضت فهددها بالطرد من الكنيسة. وإلى جانب نتائج الجوائح التي كانت تعرفها البلاد، كانت الدعاية الفرنسية تعمل بطريق جريدة المبشر وغيرها،

---

(1) ايمريت، مرجع سابق، ص 70.

على جلب الأطفال العرب للمدارس الفرنسية ـ العربية، مطمئنة الأهالي بأنه لا خوف على أولادهم من التنصير وأنه لا وجود لرسم الصليب في الأقسام (الفصول) الدراسية ولا ذكر للانجيل فيها، الخ. كما دخل لافيجري (الذي استغرب من سياسة الإدارة) في خصام مع رئيس بلدية الجزائر الذي اعتبره لائكياً (علمانياً).

أما علاقة لافيجري برجاله في المناطق البعيدة، فقد كانت على غير ما يرام أيضاً. كان اليسوعي كروزا في زواوة منذ عهد بافي، حيث بقي خمس سنوات دون أن يحقق الهدف، رغم المصاريف الكثيرة. وحل محله يسوعي آخر اسمه، فانسان، ففشل أيضاً. ولكن كروزا حصل على دعم لافيجري فعاد إلى مقره القديم بنفس الروح والحماس. وحذر الضابط هانوتو، الذي كان رئيس المكتب العربي بذراع الميزان، بأنه من الجنون الادعاء بأن أهل زواوة غير مسلمين عن حقيقة، كما كتب ابن علي الشريف إلى السلطات الفرنسية ضد النشاط التنصيري في المنطقة[1]. وقد أرسل لافيجري بعثة من الجزويت إلى زواوة لفتح مدرسة وتقديم المساعدات الغذائية والطبية، فاستقبلهم الأهالي هناك بالاحتجاج[2]، كما تعيّن الأب كالو على كنيسة وهران، والأب لاسكاز على كنيسة قسنطينة. ولكن علاقة لافيجري بكل منهما لم تكن على ما يرام. فقد توفي كالو سنة 1875متهماً من قبل لافيجري

---

(1) مما جاء في رسالة ابن علي الشريف، باشاغا شلاطة حيث الزاوية الشهيرة: «لقد قرأت رسالة الأسقف (لافيجري) التي عبر فيها عن نيته في إحلال الانجيل محل القرآن لتمدين العرب. إن هذه الرسالة قد أساءت للمسلمين كثيراً. إنني رجل دين، وإن كل المسلمين من جيلي يشاطرونني نفس الشعور. إننا نفضل أن نرى أبناءنا أمواتاً على أن نراهم قد تحولوا إلى النصرانية. إنه لا توجد مساومة على هذه النقطة. لقد وعدتمونا وعداً صريحاً باحترام حرية الضمير (العقيدة)، فإذا تخليتم عن كلمتكم فلن يبقى لنا التزام معكم. «من كتاب سكالي مرسلي» (شمال افريقيا). 1984، ص 164. وكان ابن علي الشريف يعرف الفرنسية ومن أوائل من تولي وظيفاً إدارياً للفرنسيين ،رغم أنه كان من رجال الزوايا والمرابطين.

(2) ايمريت، مرجع سابق، ص 73،71 ـ 74.

بالغش في الحسابات المصرفية، وأما لاسكاز فقد أعلن لافيجري سنة 1872 أنه أصبح مجنوناً، وحصل منه على رسالة استقالة.

انطلق شارل لافيجري في مشروعه التنصيري ـ الاستعماري الضخم تسانده البابوية والجمعيات التي يسمونها الخيرية، وكذلك السلطات التي كانت تتغاضى عنه وتحميه وتقدم إليه المساعدات المادية والمعنوية، ولا سيما بعد حرب 1870. فقد أنشأ لافيجري (مؤسسة القديس اوغسطين لبعث الدين المسيحي). وكان الهدف منها نشر النصرانية بين المسلمين. وقد جاءه تأييد من البابا على ذلك، فنشر لافيجري رسالة بحروف بارزة ووزعها على الفروع في الولايات الجزائرية الثلاث. اعتقد لافيجري العقيدة التي بدأت تظهر خلال الستينات على يد الدكتور وارنييه وجماعته، وهي أن زواوة خير هدف للتنصير، لأن أهلها في نظره، كانوا رقيقي الدين ومن السهل حينئذٍ أن يتخلوا عن الاسلام ويعتنقوا النصرانية. وادعى لافيجري أنه اتصل برسائل من «جماعات» هناك يطالبون فيها بإنشاء المدارس الدينية في ناحيتهم[1]. وكان هؤلاء، كما قال ايمريت، إنما يطالبون بمدارس فرنسية للتعليم العام، وكانوا مستعدين لدفع نفقاتها. لكن لافيجري أنشأ في قرية (الواضية) مدرسة دينية. وطلب لها المعلمين والموظفين من مؤسسة مدارس الشرق Oevres des Ecoles D'orient التي شارك في تأسيسها قبل تعيينه في الجزائر.

وبناء على ذلك رجع الأب كروزا إلى نشاطه في زواوة، واستقر في برج نابليون. وقام في يونيو (جوان) 1868 بتوزيع المواد الغذائية والملابس والأدوية على الأهالي هناك، وظن أنه استولى بذلك على قلوب الناس وحاز ثقتهم. فأخذ يحدثهم في شؤون الدين المسيحي، لكنهم كانوا، كما يقول ايمريت، يأخذون منه ويضحكون عليه وعلى سذاجته. ولما أحس ببعض الرضى منهم رأى أن قبيلة بني فرح مستعدة لاعتناق النصرانية، فطلب منها أن

(1) الجماعة مصطلح محلي يعني كبار القرية أو الأعيان الذين يقومون مقام المجلس البلدي.

تسمح له بالاقامة فيها فقبلت. وظن أن باب التنصير قد انفتح له. فجاء معه برئيسه، لورنسو، رئيس جماعة الجزويت، وجلسا معاً في جماعة من الناس. فإذا بالدخان يتصاعد بالقرب من السجادة التي يجلسان عليها. فغادرا المكان على الفور، واشتكيا إلى رئيس المكتب العربي في الناحية، وهو الضابط مارتن، فقام هذا بمعاقبة أربعة ممن حضروا حتى يظهر لبني فرح سطوة الفرنسيين وقوتهم، وأدخلهم السجن، ثم طلب من كروزا أن يعفو هو عنهم حتى تكون له المزية عليهم وعلى القبيلة كلها. وتم ذلك فعلاً.

لكن كروزا لم يصدق فشله. وظل يكرر أن أقلية فقط من بني فرح هي التي تفسد مشروعه، وهي أقلية مستبدة في نظره كانت تمنع القبيلة كلها من اعتناق النصرانية. فجمع له الضابط مارتن أهل القبيلة عن طريق الأمين (أمين الجماعة) وطلب منهم أن يقولوا رأيهم بصراحة في الموضوع، وسألهم: هل ترغبون في اعتناق الكاثوليكية؟ وهل ترضون أن يقيم الأب كروزا بينكم؟ نعم أو لا؟ عندئذٍ ساد الصمت الرهيب جميع الحاضرين واندهشوا من هذا السؤال. ثم سالت دموعهم مدراراً وانخفضت أصواتهم، فلم يحر أحد منهم الجواب. وبعد برهة أجابوا بصوت واحد وأكيد: إذا كنا أحراراً في التصرف حسب ما تمليه علينا مشاعرنا، فإننا لن نتخلى أبداً عن ديننا ولن نعتنق دينكم أبداً، بل إننا نفضل الموت على تغيير ديننا! وأمام هذا الموقف الرافض بصراحة لمحاولات التنصير، ابتعد كروزا عن بني فرح، وأخذ يحاول في مناطق أخرى محاولات مشابهة، عند بني بودره (بوذراع؟)، وبني يني. غير أن هؤلاء كتبوا إلى الحكومة الفرنسية يقولون إنه إذا استمرت الدعاية الدينية لجماعة الجزويت التي يقودها كروزا، فإنهم لا يضمنون الأمن في المنطقة[1]. ونحن نعلم أن زواوة كانت قد عرفت ثورة 1871 العارمة

---

(1) ايمريت، «تنصير..» مرجع سابق، ص 72 ـ 73. وأمين الجماعة هو محل ثقة الناس لكبر سنة وحكمته وتديّنه. وقد برهنت زواوة (القبائل) في مختلف المناسبات على رفضها للتنصير وتمسكها بالاسلام رغم المغريات والأقاويل التي لفقها عنها الاستعماريون.

وسحقت المحاولات التنصيرية، وخيبت أحلام لافيجري.

وفي زواوة أيضاً جرت أحداث أخرى ضد التنصير. منها الهيجان الذي وقع سنة 1868 في بني منقلات ضد نشاط الجزويت. وفي 1870 جرى اختطاف بنتين من بني بادين من قبل هؤلاء الجزويت. وقد ثار الناس ضد هذه العملية المخزية. فقد أخبر العقيد هانوتو أن الاختطاف قد وقع على يد أخوات المذهب المسيحي، وأن البنتين حملتا، رغم معارضة عائلتيهما، إلى مركز الأيتام بالعاصمة. ولدهشة الجميع سمع المسلمون، وهم يعضون أناملهم من الغيظ، إن البنتين قد احتفل بتعميدهما في رومة في نفس السنة[1]. وهذه الحادثة تذكرنا بما وقع للمرأة عائشة بنت محمد سنة 1834 إذ هَرَّبَها رجال الدين والعقيد دي رونو أيضاً إلى مرسيليا، بعد تعميدها، رغم احتجاج عائلتها وزوجها والقضاة المسلمين. وكانت السلطات الفرنسية على ما يبدو متورطة في كلتا الحالتين.

اغتنم لافيجري فرصة المجاعة القاتلة التي حلت بالجزائر في الستينات وأطلق العنان لليسوعيين لنشر النصرانية بين الأطفال. فقد أخذ يجمع الأيتام الذين تركهم أولياؤهم، في ملاجىء بسانت أوجين والأبيار وابن عكنون. وكتب رسائل إلى أوروبا لتقرأ في الكنائس (فرنسا، بلجيكا، اسبانيا، بريطانيا، الخ). فأرسل إليه البابا حوالي (5000) فرنك. وجمع قساوسة لافيجري المال أيضاً عندما جابوا المدن الجزائرية. وأنشأ لجاناً لجمع التبرعات والتصرف فيها. وقيل إن هذه اللجان قد صرفت مبلغ 300 ألف فرنك. وقد ضم ملجأ ابن عكنون وحده 1753 طفلاً بين الثامنة والعاشرة من السنين. وكان يسهر عليهم حوالي خمسين شخصاً. وأرسل إليه الجيش بعض الجنود ليساعدوه في التنظيف، وأرسلوا إليه أيضاً الخيام والأغطية. ولكن

---

(1) نفس المصدر ص 84. يقول ايمريت إن زواوة لم تكن متأثرة بالمجاعة سنة 1867 ـ 1868، ولذلك فإنه يرى أن من أسباب الثورة 1871 تلك المحاولات التنصيرية الفاشلة والتي أدت إلى التهاب المشاعر الدينية. وهو يضيف أن الإسلام بالعكس قد تقدم خطوات أخرى إلى الأمام في زواوة.

الأطفال كانوا يموتون بكثرة بمعدل عشرة أو خمسة عشر نتيجة الأوبئة المنتشرة. وفتح في الملاجىء بعض الورشات ليعلم البنات الخياطة والتدبير المنزلي واللغة الفرنسية، أما الأولاد فكانوا يتعلمون الأعمال اليدوية. وقد أرسل حوالي 300 منهم إلى مرسيليا أيضاً.

ثم حدث الخلاف على مصير الأطفال الأيتام. كان مخطط لافيجري هو تنصيرهم وإبقاءهم عنده أو تحت إشراف كنيسته وإقامة قرى خاصة بهم تسمى (القرى العربية/ المسيحية) على غرار ما عاشه هو في المشرق. وفي هذه القرى تتكون أسر جديدة من جيل هو من صنع لافيجري، حيث يقع تزويج البنات والبنين، وتتكون نواة لجالية يسوعية جزائرية تحت المظلة الفرنسية على غرار ما وقع في لبنان. لكن المسؤولين السياسيين كانوا ينظرون إلى أن ما قام به لافيجري أثناء المجاعة إنما يدخل في باب الخدمات الخيرية والأعمال الانسانية. وكان أقارب أولئك الأيتام يطالبون بعودتهم إلى قبائلهم وذويهم. ولكن لافيجري كان يتحدى الجميع وينفذ مشروعه.

وجرت مراسلات لا نطيل بذكرها بين الحاكم العام (ماكماهون) ولافيجري من جهة والسلطات الفرنسية من جهة أخرى. فكتب ماكماهون رسالة إلى مجلس الدولة أعلمه فيها أن لافيجري أصبح يهدد مصالح فرنسا لأن الجزائريين ستثيرهم دعايته الدينية، وإن ادعاءه بأنه هو الذي أنقذ الناس من المجاعة غير صحيح لأن المكاتب العربية والإدارة الصحية والجنود قد ساهموا في ذلك أيضاً[1]. وقال ماكماهون إننا في الجزائر في حاجة إلى رجل حكيم وليس إلى رجل متنبي. ومن جهته كتب لافيجري رسالة يقول فيها إن العرب لم تعد لديهم القوة للثورة. واتهم لافيجري إدارة ماكماهون بأنها تخفي الحقيقة عن نابليون. ويبدو أن رد نابليون كان في صالح ماكماهون إذ قال للافيجري: عليك بتربية ووعظ الأوروبيين، أما العرب

(1) المعروف أن الجزائريين كانوا يساعدون بعضهم البعض كمواطنين وكقادة. انظر حياة الباشاغا المقراني، وأسباب ثورة 1871.

فاتركهم للحاكم العام يعوّدهم على الهيمنة الفرنسية[1]. ولكن هذا الجواب لم يكون حاسماً، إذ سرعان ما جاء الضوء الأخضر من نابليون إلى لافيجري أيضاً.

أما رد لافيجري على الجزائريين المطالبين بأبنائهم وأقاربهم فكان رداً عنيفاً. فقد قال إنه يريد تنصير كل افريقية. ثم أخذ يهاجم، كسلفه، بافي، الاسلام، معتبراً إياه المسؤول الأول على البؤس الذي كان يعانيه الشعب الجزائري مادياً ومعنوياً. وقد أرسل رسالة إلى مدير مدارس الشرق، قال فيها يجب تخليص هذا الشعب، ويجب التوقف على إبقائه في قرآنه كما كان الحال في الماضي، وهو ما يزال معمولاً به إلى اليوم في مملكة عربية مزعومة[2]. وقال لافيجري يجب على فرنسا أن تترك الحرية للمنصّرين ليدمجوا الشعب الجزائري في حياة الفرنسيين أو أن تطرد هذا الشعب نحو الصحراء بعيداً عن العالم المتحضر. ولم تكن هذه الرسالة من لافيجري رسالة عادية، بل إن الصحف المحلية قد نشرتها، وتعرف الجزائريون على الجواب منها فيما يتعلق بهم وبأبنائهم. وقد حدثت بعد ذلك مبادلات كلامية بين ماكماهون ولافيجري حول أثر هذه الرسالة على السكان المسلمين[3].

قلنا إإن تدخل نابليون بين ماكماهون ولافيجري لم يكن حاسماً. ذلك أن الأخير لم تثنه رسالة نابليون التي قال له فيها عليك بترك العرب للحاكم العام والعناية فقط بالأوروبيين ووعظهم. فقد ذهب لافيجري شخصياً إلى باريس وقابل الامبراطور، وترك هذا لافيجري يفهم أنه ليس ضد مشاريعه في الجزائر، وإن ذلك يعني تأييد نابليون له. ونفس الموقف أبداه منه وزير الحربية المارشال نيل. ونحن هنا أمام غموض ما مثله غموض، فالكتّاب

---

(1) ايمريت «تنصير..»، مرجع سابق، ص 77. أيضاً بيلي (عندما أصبحت..) مرجع سابق، ص 289.

(2) إشارة إلى مشروع نابليون الثالث الذي تحدثنا عنه.

(3) ايمريت، (تنصير..) مرجع سابق، ص 75. ولعل رسالة ابن علي الشريف السابقة كانت من وحي سياسة لافيجري هذه.

يقولون إن نابليون لم يكن راضياً على أعمال لافيجري منذ البداية ولا حتى على تسميته، ومع ذلك لم يردعه عندما جاءه شاكياً، وكان الوزير (نيل) كذلك غامضاً معه، كما قيل، فهو في الظاهر يؤيده وفي الخفاء كان ضده. فأي سياسة هذه؟

ومهما كان الأمر فإن لافيجري قد رجع إلى الجزائر بتأييد الامبراطور والوزير والحاشية. وأيضاً أيده خمسون على الأقل من قساوسة فرنسا. ثم ذهب إلى البابا فنال بركاته وتأييده أيضاً، وكذلك بركات رئيس مؤسسة مدارس الشرق. وهكذا رجع لافيجري مدعوماً تقريباً من الجميع. ولماذا لا؟ فأخذ منذ 1869 ينشىء المؤسسات الجديدة لبعث ونشر المسيحية في افريقية والصحراء. من ذلك مؤسسة (الآباء والأخوات البيض). وتبدو التسمية في حد ذاتها، كما تلاحظ، عنصرية، ولا تليق بدور رجل الدين الانساني بقطع النظر عن الألوان البشرية. وحتى ماكماهون تراجع عن موقفه نحوه وأخذ يقدم له المال والرعاية للأيتام وغيرهم. وبلغت مساعداته حوالي 45 ألف فرنك، دون النقود التي قدمت إلى مشاريع الأيتام وغيرهم من الخواص المكلفين بجمع الأطفال والعناية بهم. ومن ذلك 6000 فرنك لجمعية الأخوات (سان فانسان دي بول) اليسوعية[1]. وهكذا ساندت سلطات باريس والجزائر مشروع لافيجري لبعث الكنيسة الافريقية، ذلك المشروع الذي بدأه دوبوش منذ 1838.

ولكن حكم ماكماهون انتهى من الجزائر سنة 1870 وسقطت الامبراطورية، وخلا الجو للافيجري مع صعود المدنيين الذين وقف إلى جانبهم عند صمودهم ضد سياسة نابليون في الجزائر. لم يكن الكولون من المؤمنين بالدين عن حقيقة، ولكنهم تحالفوا مع الكنيسة، برئاسة لافيجري، ضد سياسة المملكة العربية «المزعومة» كما قال هذا عنها، وضد المكاتب

(1) نفس المصدر، ص 30. يقول ايمريت لقد التقت مشاعر ماكماهون، ذلك الرجل الكاثوليكي الجيد، مع حماس لافيجري فأيده.

العربية التي كان يتولاها العسكريون. وكان الكولون ينادون بالاندماج، كما ذكرنا. وكانت صحفهم، مثل (الأخبار) و(صدى وهران) تهاجم العسكريين وتحبذ دعوة لافيجري لنشر المسيحية باعتبارها وسيلة لدمج الجزائريين إذ لا يمكن دمج هؤلاء وهم على إسلامهم. وكان الكولون يظنون أن لافيجري سيعطيهم الأطفال العرب ليعملوا عندهم بأثمان بخسة، على أن يقوم القساوسة بتدريبهم على الطاعة والاستسلام للكولون. وهكذا نشأ التحالف بين الكنيسة والكولون. فقد هاجم النائب تومسون، ممثل الكولون، القرآن الكريم في جريدة (الأخبار) وأعلن أن المسيحية مفضلة على تعاليم الاسلام غير الاخلاقية بل الوحشية. وخرج الصحفي ديفيرنوا يهاجم المتعلمين (الطُّلْبة) الجزائريين متهماً إياهم بالجهل والتعصب. وطالب الكولونُ بمنع تعليم القرآن في الزوايا لأنه يقف دون مخطط الاندماج. وهاجموا أيضاً نابليون لأنه في نظرهم قد ترك المسلمين بسياسته العربية يتعلمون اللغة العربية ويهتمون بالأعياد الاسلامية، وذهب وفد منهم يحمل العرائض إلى باريس ضد المكاتب العربية. وكان لافيجري بالطبع يؤيد مطالبهم باسم الكنيسة، لأنه كان يعتقد أن أفضل طريقة لفرنسة الجزائريين هي تنصيرهم.

لكن لكل تحالف نهاية. ونهاية هذا التحالف كانت عندما أعلن لافيجري أنه سيحتفظ بالأطفال الأيتام العرب ويكوّنهم تكويناً مسيحياً. فقد اشترى أرضاً واسعة في سهل الشلف منذ 1868 بين مليانة وأم السنام (الأصنام). وأقام عليها مستوطنتين عربيتين أطلق على إحداهما إسم (سان سيبريان) وعلى الأخرى اسم (سان مونيك). وفي 2 يوليو، 1872 احتفل لافيجري بأول زواج بين الشباب الذي كونه وعمده أو غطسه، كما يقول القدماء. وكان لافيجري يحتفظ بالأسماء القديمة لهؤلاء الشباب، ويضيف إليهم أسماء جديدة، وبذلك أصبح فرنسوا بن عيسى متزوجاً من بنيامين حليمة، وجان الشريف متزوجاً من كارولين زهرة. وحضر الحفل الأول 300 مدعو من المتفرجين من أجل الدعاية وإشاعة الاندماج والمسخ. وكان المتزوجون الجدد يجمعون بين اللباس الأروبي واللباس العربي، بوضع

البرنوس الأبيض على البدلة الأوروبية، ووضع الشاشية على الرأس. وفي السنة الموالية عقد لافيجري على خمسة أزواج آخرين، وهكذا. وكل زوجين كان يعطيهما مفتاح البيت عن طريق القرعة، وكان هناك حوالي 250 مسكناً. ورغم تعرض المشروع للخطر نتيجة قلة المساعدات، فإن البرلمان الفرنسي قد صوّت لصالح 75 الف فرنك سنة 1876 مساعدة لمشاريع لافيجري[1].

ولم يكن الوضع في القريتين مشجعاً. فرغم وجود عقد ينص على التحلي بالأخلاق الفاضلة والعمل الجدي وعدم انتزاع الملكية، فإن أحداثاً وقعت خلال أربعين سنة أدت إلى زعزعة التجربة، بعد وفاة لافيجري. فقد طردت ثلاث عائلات من أجل السلوك المشين للزوجة، وأربع عائلات أخرى لجريمة القتل، وكذلك حدثت منازعات أخرى لا نهاية لها. وجملة العائلات التي أصبحت تعتبر مالكة حقيقة هي 58 عائلة فقط. وكانت النتائج غير مشجعة أيضاً. فإثنان من أولئك الضحايا أصبحوا من دعاة التنصير، واثنان حصلا على الدكتوراه في الطب بجامعة ليل. ودخل بعضهم سلك التعليم. ولكن الكنيسة الافريقية لم تبعث فيها الحياة والاسلام لم يتراجع بين السكان.

حقيقة أن جماعة لافيجري قد انتقلت إلى مناطق أخرى مثل زواوة التي عاد وركز عليها رجال الادارة من جهة ورجال الدين من جهة أخرى لإخراجها من ربقة الاسلام والعربية. ففي سنة 1872 أعلن الآباء البيض تعهداتهم أمام لافيجري. ثم ذهبوا إلى تاغمونت عزوز. ومنع عليهم الحديث عن الدين مطلقاً إلى السكان، وكان مشروعهم هذه المرة يختلف عن مشروع كروزا. فالطريقة هذه المرة هي التغلغل التدريجي في الجماهير الريفية بزواوة عن طريق المدارس والمستوصفات والورشات والتمهين لإقامة مراكز للارساليات التنصيرية[2]. ومن بين المهام المكلفين بها محاولة تمييز السكان

---

(1) بيلي (عندما أصبحت الجزائر. .) مرجع سابق، ص 294. وايمريت «تنصير. .» مرجع سابق، ص 83. ويقول ايمريت إن مستوطنتي سان سيبريان وسانت مونيك كانتا موجودتين سنة 1960.

(2) بيلي (عندما أصبحت الجزائر. .)، ص 296.

هناك عن بقية المواطنين كالتركيز على الأصول العرقية والتشابه بينهم وبين الفرنسيين والرومان، واقترابهم العملي والسياسي من الفرنسيين، الخ. وهم يسمون ذلك التخفيف من حدة التعصب.

ولكن في سنوات الثمانينات أصبح في إمكان كبار الزوار من الساسة والعلماء أن يتجولوا في زواوة، مثل جول فيري وديبورجوا، وماسكري. وفتحت المدارس الفرنسية الأولى الإجبارية هناك قبل فتحها في جهات أخرى من القطر، كما ذكرنا في فصل التعليم. وجرى سنة 1888 حفل تغطيس بعض الشبان الذين أصبحوا «مطورنين» بين السكان، ولكن حياتهم أصبحت لا تطاق، فكان عليهم أن يخرجوا من زواوة بل من الجزائر كلها، وقد رجع بعضهم إلى الاسلام. وكان رجال لافيجري ينسقون هناك مع نسائه (الأخوات). وقد سمحوا للمرأة الزواوية بالمحافظة على لباسها حتى لا تقتلع من جذورها، وحتى تظل على صلة واختلاط مع السكان، وحتى لا تتعرض للاهانة. وقد علّم لافيجري رجاله أن يعرفوا كيف يسكتون أمام الاسلام[1] كما يتخاذل الجبان أمام الشجاع.

ومثل هذا النشاط في الشمال ـ الشلف وزواوة. . ـ شهدته أيضاً بعض مناطق الجنوب، فمنذ 1854 كان الجنوب في حالة من الثورة والاضطراب، دون أن نتحدث عن عقد الخمسينات الذي عرف أيضاً ثورة شريف ورقلة (إبراهيم بن فارس) وناصر بن شهرة، وقد انتهت هذه الثورات جميعاً بالفشل واحتلال أجزاء كثيرة من الجنوب والتوغل الاستعماري نحو غرب افريقية والسودان، تحت غطاء الاكتشافات والبعثات العلمية والرحلات والتعاون مع بعض الطرق الصوفية. ونحن لا يهمنا ذلك هنا، ولكن انتصاب رجال الكنيسة الكاثوليكية ونسائها في مناطق عديدة من الجنوب مثل غرداية والأغواط وبسكرة وورقلة وتمنراست.

لقد قيل عن شارل لافيجري إنه كان يؤمن بفتح الصحراء في وجه

(1) بيلي، نفس المصدر.

فرنسا، وكان مقتنعاً بضرورة ضم السودان إلى فرنسا لأنه منطقة غنية ومكملة للجزائر في نظره. ورأى لافيجري أن أكبر عائق في وجه فرنسا هناك هو الاسلام. ولذلك ألف الارساليات التنصيرية التي كان هدفها نشر المسيحية وتسهيل مهمة فرنسا في الاستيلاء على المناطق الصحراوية الشاسعة. وهنا بدأت تظهر له فكرة إنشاء جمعية الآباء البيض للصحراء، وبذلك سبق جنود المسيح جنودَ الحكومة الفرنسية، كما يقول الجنرال مينييه[1]. تأسست مركزية لهؤلاء الآباء في ورقلة منذ 1873، وبقيت هناك إلى 1881 عند ثورة بوعمامة. ولم ترجع إليها إلاّ بعد 1891. وكان لهذه المركزية أربعة من الآباء (القساوسة)، وكانت تملك داراً للأيتام ومدرسة يتردد عليها سبعون تلميذاً وعدد من الكبار، وكان لها أيضاً مصحة وورشة للنسيج، وأخرى آلية للتريكو، وثالثة للنجارة، ومنشأة للاسمنت. وقد تطورت المركزية مع الأيام فأصبح لها ندوات أسبوعية سينمائية للتعليم والتوجيه والترفيه. وكان الآباء يملكون في الناحية النخيل والبساتين، وقد حفروا بوسائلهم بئراً ارتوازية تمد منطقة ورقلة بالماء الصالح للشرب. وأخذوا يتوسعون فحصلوا على امتياز في بامنديل لغراسة النخيل وحفر الآبار[2]. وكانت الحكومة تحميهم وتمدهم بالمساعدات، وهم يفتحون لها الطريق ويقدمون لها المعلومات الضرورية عن القوافل والثورات والزوار وغير ذلك من التحركات في المنطقة.

أما الأخوات البيض فقد أنشأن في ورقلة أيضاً مشاريع لجلب النساء والتغلغل في المجتمع الصحراوي. وكانت لهن مدرسة ـ ورشة تأوي 200 تلميذة لنسج الزرابي من الصوف والوبر. وكانت لهذه الزرابي سمعة تجارية رائجة حتى خارج حدود الجزائر. وكانت الورشة النسوية تصنع أيضاً المخدات والبرانيس وغيرها. وفي وقت متأخر فتحن مدرسة ـ ورشة للنساء المتزوجات، ومصحة. وفي 1931 كان رئيس المركز الكاثوليكي في ورقلة هو الأب روبان. وكان النموذج الموجود في ورقلة هو نفسه الموجود في

---

(1) الجنرال مينييه (كراسات الاحتفال المئوي: تهدئة الصحراء)، ص 13.

(2) دانيللي «في الصحراء» في (مجلة الجمعية الجغرافية) SGAAN 1931، ص 176.

غيرها من المناطق: مصحة ومدرسة وورشة ومصنوعات محلية وتوزيع أغذية وملابس باسم الأعمال الخيرية. ووراء ذلك يجري التجسس على الناس والتعرف على أنماط تفكيرهم وعقائدهم وعلاقاتهم للاستحواذ عليهم، وتمهيد الطريق للاسْتِحْوَاذ.

وكل ذلك كان تحت شعار الدعوة إلى المسيحية وإخراج السكان من التخلف وربطهم بالثقافة الفرنسية. ويقول العقيد دي بورث دانيللي عن دور الآباء والأخوات البيض في الجنوب إنه يشبه دور الجامعة اليسوعية في بيروت[1].

وكما قاوم أهل زواوة إرساليات لافيجري، في شخص كروزا وغيره، قاوم أهل الصحراء الآباء والأخوات اليسوعيين. ويعزو الجنرال مينييه هذه المقاومة في الجنوب إلى «المرابطين»، وبإمكاننا أن نقول إن المرابطين، والمواطنين معهم، هم الذين قاوموا أيضاً في زواوة وغيرها. ويسمى الجنرال مينييه الثوار الذين قتلوا الآباء البيض أمثال بولمييه ومينوري وبوشار، في حاسي ايفيل، «نهابين» وقطاعَ طرق مدفوعين بتعاليم المرابطين. كما اغتيل الأب ريشار والأب كيرمابون. ومن جهة أخرى قتل ثوار الناحية ضباط البعثات منذ الثمانينات مثل العقيد فلاترز. ويقول نفس الجنرال المعجب كثيراً بدور لافيجري ورجاله ونسائه في الصحراء: إن الذين ورثوا لافيجري قد استفادوا من أخطاء الماضي واهتموا بموضوعات تهم الناحية مثل التعليم الزراعي والمهني، ومكافحة بيع الرقيق، والقيام بأعمال البر. ولذلك حصل الآباء والأخوات البيض، حسب قوله، على تقدير الادارة الاستعمارية[2]. وقد ارتكز العمل الكنسي في غرداية أيضاً حيث نشأت مدرسة للطرز يشرف عليها الآباء البيض ومدرسة للنسيج تشرف عليها الأخوات البيض.

---

(1) نفس المصدر، ص 177.

(2) الجنرال مينييه (كراسات. . .)، مرجع سابق، ص 14.

وقد كانت السلطات الفرنسية تتغاضى عن أعمال الجزويت في الجزائر حتى بعد منعهم من العمل بفرنسا. فقد رأينا نشاطهم خلال المجاعة أي أثناء عهد الامبراطورية. وبعد سقوط هذه وظهور الفكر الليبرالي ومضادة الكليرجية في فرنسا خلال الثمانينات وما بعدها، بقي للجزويت مدارسهم ونشاطهم، كما لاحظنا. وكانوا أولاً تحت حماية الكاردينال لافيجري ثم خلفائه: دوسير، وأوري، وكومبس، ويقول السيد قوانار: إن هؤلاء شهدوا الموجة التي أدت إلى غلق مدارسهم وحلقات دروسهم وبيع أراضيهم في عنابة وقسنطينة وبسكرة منذ 1903. (بعد فصل الدين عن الدولة). ولكن منذ 1917 استرجعت الكنيسة الكاثوليكية أنفاسها وسطوتها على يد الأسقف بيكمال، وبعده بولون ثم لينو (أي من 1917 إلى 1853)[1].

وقد علق الشيخ محمد بيرم الخامس على موقف الحكومة الفرنسية من الجزويت فقال إنهم كانوا طليقي الأيدي أيام المجاعة فجمعوا الأطفال العرب ونصروهم، وحين كبروا فرّ بعضهم إلى ذويهم. ولما منعت الدولة الجزويت من التعليم في فرنسا سنة 1881 عممت ذلك في الجزائر، ونفتهم من كل ممالكها (مستعمراتها؟)، غير أنها سمحت لهم بالعمل في الممالك الاسلامية، وكانت تحميهم ضد أي اعتداء في هذه الممالك مع أنها لا تحميهم في فرنسا ولا في الممالك الأوروبية[2]. ويفهم من هذا أن الجزائر ليست من المناطق التي تحمي فيها فرنسا الجزويت، وهو غير صحيح، لأن السلطات الفرنسية ظلت تحمي الجزويت إلى بداية هذا القرن، ثم منذ 1917. ومن هذه الناحية كانت الجزائر تعتبر «مملكة إسلامية» على الأقل بالنسبة للتعامل مع الجزويت.

مات لافيجري بالجزائر في 26 نوفمبر 1892 عن 67 سنة. وحضر جنازته الحاكم العام جول كامبون الذي أشاد بخصاله ودوره. وقد نعته

(1) قوانار (الجزائر)، مرجع سابق، ص 305.
(2) محمد بيرم (صفوة الاعتبار)، مرجع سابق، 20/4.

الصحف والدوائر الدينية والاستعمارية لأنها خسرت به بطلاً من أبطالها. وقالت عنه (افريقية الفرنسية) إنه قاد نوعاً من الحملة الصليبية داخل افريقية عندما أسس جماعة (الأخوة المسلحون في الصحراء). كما نوهت بمشروعه الناجح في نظرها وبالآباء والأخوات البيض، لأنهم هم الذين حملوا تعليماته الدينية، ومبادىء الحضار الفرنسية إلى المناطق الأكثر بعداً في القارة الإفريقية[1]. وقد عرفنا أنهم انطلقوا من الجزائر التي جعلوها حقل تجارب في إحياء الكنيسة القديمة ومهاجمة الإسلام.

شارل دي فوكو:

لم يبلغ شارل دي فوكو درجة شارل لافيجري في المنصب الديني الرسمي، ولكنه بلغ درجته في الشهرة والخدمات التي أدّاها للكنيسة من جهة والإدارة الاستعمارية من جهة أخرى. وحياة دي فوكو صورة للمغامر الرومانتيكي والجاسوس المخلص والفرنسي المضحي بالغالي والرخيص في سبيل بلاده. عاش حياة شبيهة في جزء منها بحياة لافيجري، سيما ما يتصل بالاخلاص للكنيسة وعلاقته بالشرق وبالاسلام. ولكنه كان يختلف عنه في المغامرة وتعلم اللغات والتنقل هنا وهناك والجمع بين الخدمة العسكرية والدينية. أما هدفهما فيكاد يكون واحداً، وهو خدمة المسيحية ونشر التأثير الفرنسي في منطقة المغرب العربي وافريقية السودانية.

ولد دي فوكو في ستراسبورغ 15 سبتمبر 1858. وبعد النشأة دخل الجيش الفرنسي (الافريقي)، ووصل إلى رتبة ملازم أول. وعمل في أنحاء الجزائر: تلمسان وعنابة وسطيف، الخ. وكان قد تخرّج من مدرسة سان سير. واشتهر عنه أنه رجل «فضائح»، فقد كان يعيش مع سيدة مدة طويلة حتى لامه عقيده كثيراً. واختار الخروج من الجيش ثم رجع إليه عند ثورة بوعمامة، ثم خرج منه ثانية. ودرس اللغة العربية. وتعرّف على مسالك الصحراء وسكانها منذ وقت مبكر من حياته. كما اهتم بالمغرب الأقصى

(1) افريقيا الفرنسية، ديسمبر، 1892، ص 15.

عندما كانت فرنسا تبث عيونها وخبراءها فيه للتعرّف على دواخله والتمهيد لاحتلاله. بدأ رحلته إلى المغرب الأقصى في يونيو 1883 متنكراً في زي يهودي من يهود المغرب حتى لا يتعرف المغاربة على هويته. وقد عيّن له زميله الجغرافي مكارثي، يهودياً من يهود الجزائر، إسمه مردوشين، ليرافقه ويغطيه. وانطلقا معاً من وهران، وسجل دي فوكو ملاحظاته الفلكية ويومياته، وكان يتجول في الأسواق على رجليه أو على حمار. وبعد ذلك أصدر كتابه (معرفة المغرب).

وبعد رجوعه إلى الجزائر تجوّل في الصحراء من جديد، فزار الأغواط وغرداية وواحات ميزاب الأخرى والقليعة (المنيعة) وورقلة وتقرت. وقد تخلى عن الجيش نهائياً. ثم أرسلوه في مهمة إلى سوريا. ودخل في جمعية الطرابست في أرمينية، وعزم على زيارة بيت المقدس سنة 1888. وفي 1890 دخل في جمعية أخرى لآسيا الصغرى. وطاف بالاسكندرون عندما كانت تابعة لسوريا. ومعنى هذا أنه كان داخلاً في النشاط الديني ـ الماسوني في المشرق والمغرب، وأنه كان يفعل ذلك أثناء حياة الكاردينال لافيجري. ولعل الثقة كانت وثيقة بين الطرفين. وفي 1897 وجدناه في رومة، ثم غادرها إلى سوريا من جديد. وزار الناصرة أيضاً تحت غطاء الجمعيات الدينية. ثم عاد إلى الجزائر ونسق نشاطه مع رجال لافيجري ـ الآباء البيض ـ وأخذ في تعلّم اللهجة التارقية وأصدر معجماً عنها. وكان يتجول في الصحراء مستكشفا وليس كرجل دين. وكما كان دي فوكو معروفاً للسفارات والقنصليات الفرنسية في المشرق والمغرب الأقصى كان أيضاً معروفاً للمكاتب العربية والمراكز العسكرية الفرنسية في الصحراء الجزائرية. وكان يجلب إليه الأهالي عن طريق المداواة والصدقات ومعرفة لغتهم. وكان دي فوكو صديقاً لكل من المارشال ليوتي والجنرال لابرين.

كان هذا الجنرال (لابرين) قد وصل إلى تمبكتو. وكان يدرك مدى معرفة دي فوكو لعادات الصحراويين ولهجة الطوارق وقدرته على كسب النفوذ لفرنسا والتجسس لحسابها. لذلك طلب الجنرال من «الأب» دي فوكو

أن يقبل بالاقامة الدائمة في الهقار ليكون هو الصلة بين السلطات الفرنسية والأحداث هناك. ويقول عنه الجنرال مينييه إنه كان «دائماً فرنسياً عظيماً وجندياً متميزاً بالرحمة الإنسانية». كما كان داعية ناجحاً. وأضاف مينييه عن غيرته الفرنسية بأن مراسلاته تكشف عن ذلك لأنه كان دائماً يلح على نشر النفوذ الفرنسي في منطقة الهقار وخدمة مصلحة بلاده ومراقبة الحركات الدينية والسياسية في المنطقة كنشاط السنوسيين. كان دي فوكو في تمنراست على اتصال دائم ومباشر مع أعيان وأشراف الهقار ولا سيما زعيمهم موسى آغ امسطان، وكذلك مع الحراثين والأتباع. وكلما مرّ ضابط فرنسي من هناك أقام له دي فوكو حفلة تارقية يحضرها النساء ويكون فيها الغناء والطرب، ويستقبل هو ذلك الضابط بأذرع مفتوحة. وقد كتب عدة مؤلفات عن مجتمع الهقار ولغته، وكان يوقعها بتوقيع أحد زملائه، تواضعاً منه[1].

يتهم الفرنسيون عملاء العمثانيين والالمان بقتل دي فوكو. فقد كان على الفرنسيين أن يخفضوا من وجودهم العسكري في الجزائر أثناء الحرب العالمية الأولى. وكانت لهم حامية ببرج موتيلانسكي القريب من تامنراست (50 كلم عنها) فلم يبق إلا نصفها، وهم يروون أن كوكبة من الفرسان تتألف من حوالي عشرين شخصاً، (يسمونهم فلاقة) جاؤوا بحثاً عن «المرابط الرومي». وفي الكوكبة شخص اسمه المدني، يقولون عنه إنه من الحراثين. وفي هذه الظروف قتل دي فوكو برصاصة من حارسه، سنة 1916[2]. ويشاع

---

(1) الجنرال مينييه (كراسات)، مرجع سابق، ص 34 ـ 36. ذكر هذا الجنرال أنه لقي دي فوكو سنة 1913 فقال له خذ خمسين مهرياً واذهب إلى جنوب المغرب واقبض على المسمى عابدين وافتد منه السود والبيض الواقعين بين الهقار والنيجر. وكان عابدين يعتبر في نظر دي فوكو، نهاباً قاطع طريق مدة خمسة عشر عاماً. ولذلك قال دي فوكو للجنرال إذا قبضت عليه فاقتله! ص 34. وقد أوصى الجنرال مينييه بإقامة تمثال للجنرال لابرين ودي فوكو وصديقه موسى آغ امسطان. والمهاري نوع من الابل السريعة لقطع المسافات البعيدة.

(2) ج. كنال «شهداء الصحراء: شارل دي فوكو»، في (مجلة الجمعية الجغرافية) =

أن قاتله كان من أتباع السنوسيين، والواقع أن الذي لا يخبر عنه الفرنسيون هو أن دي فوكو قد اكتشف الناس حقيقته في المنطقة، فهو يتخذ الدين والاحسان والعلم مطية للوصول إلى أهداف سياسية استعمارية. وقد كان الجنرال مينييه صادقاً في وصف دوره، فهو رجل فرنسا، ورجل الكنيسة. ولم يكن مثل الآباء البيض الآخرين يعمل في الظاهر والباطن، ولكنه كان يعمل في الباطن فقط، متخذاً الغموض والتمويه أسلوباً مع الجهلة والعامة وأشباههم.

من حق فرنسا أن تقيم تمثالاً لدي فوكو كما أقامت تمثالاً للافيجري. ولكن ليس من حقها أن تقدمه للناس على أنه قديس يعمل لخير الانسانية. لقد عمل مع صديقه المارشال ليوتي في عين الصفراء، وسبقه إلى المغرب ليتجسس عليه ويرسم خريطته التي استفاد منها ليوتي عند احتلال المغرب، ولبس هناك لباس اليهود للوصول إلى هدفه. ومهد دي فوكو للسياسة البربرية الفرنسية، وتمزيق السكان بإعلانه أن البربر أقرب إلى الفرنسيين من العرب، وأنهم مستعدون في نظره لتقبّل الروح اللاتينية التي انتموا إليها في العصور الغابرة، وأنهم إذا دخلوا المسيحية فسيتبعهم العرب مكرهين لا محالة. وقد سار المارشال ليوتي في المغرب والآباء البيض في الجزائر على خط دي فوكو. وظهر ذلك في السياسة الفرنسية أثناء الاحتفال بالاحتلال في الجزائر، وفي الظهير البربري في المغرب، وفي المؤتمر الافخارستي[1] في تونس 1930 وفي الجزائر 1939.

= 1932، المقالة كلها من ص 325 ـ 341. و«الحرائين» كلمة تعني قدماء العبيد أو الفئة الاجتماعية التي دون الاشراف.

(1) انظر جريدة (الشريعة) لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، 31 يوليو، 1933، عدد 3. وفي 16 مايو 1930 ظهر الظهير (المرسوم) البربري. وكان هدفه فصل البربر عن العرب والمساس بالشريعة الاسلامية بتحكيم الأعراف والعادات في البربر. وقد اتبعت فرنسا سياسة مماثلة في سورية خلال نفس الفترة، لتمزيق سكان سوريا. أما خلال المؤتمر الافخاريستي فقد لبس أثناءه الشبان المسيحيون الزي الصليبي وجابوا شوارع تونس. وقد انعقد في 6 مايو 1930.

النشاط التنصيري منذ 1930:

فبعد الاحتفال المئوى بالاحتلال 1930، والاحتفال بمرور قرن على احتلال قسنطينة سنة 1937، انعقد في الجزائر احتفال آخر بمناسبة مرور قرن على إنشاء الأسقفية الكاثوليكية في الجزائر، سنة 1938. وقد اختيرت المناسبة لعقد المؤتمر الافخارستي سنة 1939. وهو المؤتمر الذي حضره أسقف باريس (فيردييه) ممثلاً للبابا، كما حضره أسقف الجزائر الذي كان من قدماء المتعاونين مع لافيجري. وأعلنت الجرائد أيضاً حضور مسيحيين ومسلمين ويهود، وأخبرت أنهم جميعاً أكدوا إيمانهم وإخلاصهم لفرنسا والدولة الفرنسية. وفي هذه المناسبة أوضح أسقف باريس أهمية المؤتمر فقال إنها ترجع إلى ثلاثة أسباب:

1 ـ ان الكاثوليك في الجزائر سيظهرون ان «شمالنا» الافريقي هو امتداد بسيط لفرنسا، وإن فرنسا في الجزائر إنما هي في بلادها لأن الجزائر، حسب الأسقف، مثل بوردو وبيزنسون.

2 ـ إن انعقاد المؤتمر يتوافق مع مرور قرن على إنشاء أسقفية الجزائر.

3 ـ إن انعقاده بالجزائر يعتبر اعترافاً بالجميل لأولئك الذين ساهموا في الاحتلال سنة 1830 وضحوا بحياتهم سواء كانوا عسكريين أو مدنيين.

ثم أعلن عن احتفالات واستقبالات رافقت عقد هذا المؤتمر، منها ذلك الذي كان في مقر الآباء البيض بالسيدة الافريقية، وبلديات مدينتي الجزائر وسانت اوجين (بلكين)، والحكومة العامة، وكذلك تكريم مفتي الجزائر وحبر اليهود للمؤتمرين[1].

وتبيّن المصاريف التي كانت الدولة تنفقها على الكنيسة ورجالها مدى الدعم الذي تحصل عليه والانسجام والتوافق بين الطرفين، سواء قبل قانون

---

(1) افريقيا الفرنسية، مايو، 1939. لا ندري من هو المفتي عندئذٍ، ويبدو أنه هو حمدان حمود. وقد كان بالجزائر مفتيان حنفي ومالكي.

فصل الدين عن الدولة أو بعده. ففي سنة 1884 (عهد لافيجري) كان عدد النصارى في الجزائر 317،500 نسمة وعدد المسلمين 2،842،497 نسمة، حسب الاحصاء الرسمي. ولكن عند توزيع المصاريف من ميزانية الدولة فإن النصارى حصلوا على 1،003،200 فرنك بينما حصل المسلمون على 216،340 فرنك فقط[1]. وبعد 1905 أي بعد فصل الدين عن الدولة، كان عدد النصارى 623،000 نسمة والمسلمون 4،500،000 نسمة، وكان النصارى قد حصلوا على نفقات قدرها 884،000 فرنك بينما حصل المسلمون على 337،000 فرنك فقط، رغم فارق عدد السكان[2]. وهذا الدعم المادي من الإدارة والحكومة ومن الجمعيات هو الذي جعل الكنيسة تزدهر وتنشط ذلك النشاط الذي جعلها تتوغل في الجبال والصحارى وتدخل البيوت والخيام، وتتحدى المشاعر والعقائد، وتقوم بدور الواعظ الديني، والمستكشف الجغرافي، والطبيب، وفاعل الخير، والمعلم، والجاسوس، الخ. وحوالي مدار القرن وصلت الكنائس في الجزائر إلى ثلاث كاتيدراليات، ومائتي كنيسة ومعبد، وحلقتي درس[3]، بالإضافة إلى عدد من الملاجىء ونحوها. بينما كانت المساجد تهدم والزوايا والمدارس الاسلامية تندثر.

حقيقة إن الإدارة في الجزائر كانت تتفادى المجاهرة بدعم حركة التنصير، ولكن كل مشاريعها تقريباً كانت تصب في نفس الاتجاه الذي تسعى إليه الكنيسة، وهو نشر التأثير الفرنسي واستعادة الرومنة والمسيحية، وتحقيق اندماج الجزائريين في البوتقة الفرنسية عن طريق اللغة والثقافة والقضاء والإدارة والجيش ونحوها. فالهدف إذن واحد ولكن الوسائل والممثلين مختلفون.

كانت (المبشر) وهي الجريدة الرسمية للإدارة الفرنسية والتي من

(1) لويس رين (مرابطون وإخوان)، مرجع سابق، ص 13.
(2) أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر)، مرجع سابق، ص 348.
(3) قوانار (الجزائر)، مرجع سابق، ص 305.

خلالها تخاطب الجزائريين، تتفادى الحديث عن الكنيسة ونشاطها والتنصير الجاري في مختلف أجزاء البلاد خلال عهد دوبوش وبافي ولافيجري. وكانت لا تتحدث، إذا لزم الأمر، إلا عن العلاج والملاجىء وأعمال الاحسان. مثلاً في أوج المجاعة سنة 1868 قالت إن مطران الجزائر (تقصد لافيجري) قد أحدث عدة ملاجىء للأيتام في ابن سحنون (ابن عكنون)، والقبة والحراش وزغارة. وإن الملجأ الأول قد ضم ألف غلام عربي، وإن ملجأ القبة كان خاصاً بالبنات[1]. ومن الملاحظ أن الجريدة قد ذكرت ذلك سنة 1869 أي بعد عام من قيام لافيجري بتجربته وبعد انتهاء الأزمة، وكذلك قالت عنه انه تكفّل بجميع المصاريف على تلك الملاجىء، مما يوحي للناس بأن الدولة الفرنسية لا دخل لها في موضوع الكنيسة ونشاط المطران الخيري.

لقد عارض الجزائريون حركة التبشير منذ البداية ورأوا فيها خطراً على هويتهم ودينهم. تحصَّنوا أولاً في بيوتهم فلم يرسلوا بأولادهم إلى مدارس الإدارة الفرنسية خوفاً عليهم من التنصير والفرنسة المتلازمين. واحتجوا على تحويل المساجد إلى كنائس. وحين انتقل العمل الديني الفرنسي من المدن إلى الأرياف رأينا ردود فعل المناطق المعنية مثل زواوة والشلف والأغواط وورقلة. وكانت ثورة 1864 ثم 1871 ترجعان جزئياً إلى توغّل حركة التنصير وتحدّيها لمشاعر المسلمين. فقد لجأت هذه الحركة إلى استخدام وسائل الإغراء مستغلّة حاجة السكان إلى العلاج والمساعدت الخيرية والتعليم، فنصبت الورشات والمصحات وبعض المدارس التي كانت مفيدة للأهالي. ولكنها كانت أفخاخاً لاصطياد الضحايا الذين كانوا قلة من الناس. وكان رجال الكنيسة أنفسهم قد اعترفوا أن الناس كانوا يأخذون منهم دون أن يقعوا في حبائلهم. وكان للمرابطين ورجال الزوايا دور في رفض التنصير وابعاد اتباعهم، فكان المتصلون منهم بالسلطة الفرنسية يحتجون لديها وينذرونها بسوء العواقب، مثل ما فعل ابن علي الشريف. وأما غير المتصلين

---

(1) المبشر 16 ديسمبر 1869 ـ والحديث عن سنة 1868. يقول الباحث إبراهيم الونيسي إن المبشر لم تتحدث عن التنصير إلا في منتصف سنة 1868. انظر رسالته.

بالسلطة فكانوا يقاومون بوسائلهم الخاصة بتنبيه الغافلين ووعظ الناس عن طريق المقدمين والاخوان. وقد وصلت المقاومة إلى العنف ضد القساوسة والتخلص من بعضهم جسدياً في الصحراء، مثل مقتل دي فوكو.

وحين ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قاومت التنصير وهاجمته بقوة، وسخرت صحفها ودروس المساجد إلى كشف مخططاته. وكان كتّابها يتصدون أيضاً للمنحرفين الذين وقعوا ضحية التجنس. فوقفوا ضد لحمق، وبيلاح، وسعدي اواكيلي، والزناتي وغيرهم. وهاجمت جريدة (الشريعة) ما قام به الآباء البيض سنة 1933 حين استعرضوا المتنصرين الجزائريين بلباسهم المحلي وسط العاصمة، ومعظمهم كانوا من أطفال العائلات الفقيرة. واعتبرت الجريدة ذلك إهانة لمشاعر المسلمين وتحدياً لها. كما هاجمت ما كانت تكتبه وسائل إعلام الكنيسة من التفريق بين المسلمين الجزائريين وادعاء (مجلة المغرب الكاثوليكي) من أن البربر قريبون من الانجيل وأنهم لذلك يقتربون من أخلاق الفرنسيين[1].

---

(1) جريدة الشريعة، 24 يوليو، 1933 مقالة لمحمد سعيد الزاهري تحت عنوان (ألف وسبعمائة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف)، وكان استعراض المتنصرين قد حصل يوم 23 مايو، 1933.

الفصل الثاني

الترجمة وظهور النخبة الاندماجية

نتناول في هذا الفصل الترجمة سواء كانت من العربية إلى الفرنسية أو العكس. وقد كان للترجمة دور فعال في حياة الجزائر الثقافية منذ الاحتلال. وكان لها فرقة كبيرة موزعة بين المترجمين القضائيين والعسكريين والإداريين. وظهرت الترجمة في ميدان الصحافة والأدب والعلوم الأخرى. وسنذكر نماذج من المترجمين. وكان لجريدة المبشر أهمية خاصة في تنشيط الترجمة من الفرنسية إلى العربية قبل ظهور الصحافة المستقلة التي أصبحت تترجم عن مختلف المصادر الفرنسية.

ومن جهة أخرى نتناول في هذا الفصل ظهور النخبة الاندماجية. فقد سعى الفرنسيون منذ أول وهلة إلى سحر بعض الجزائريين بحضارتهم ولغتهم. وعملوا على تكوين فئة قابلة للاندماج والذوبان في فرنسا ومنقطعة عن ماضيها وتراثها اللغوي والديني. وهذه الفئة هي التي أصبحت تعرف «بالنخبة» الاندماجية. وهي فئة قليلة تعلمت، في أغلب الأحيان، في المدارس الفرنسية الخاصة «بالأهالي»، وكانت غالباً من أبناء الموظفين لدى الإدارة الفرنسية، وقد مسخت هذه الفئة مسخاً وتجنس أكثرها بالجنسية الفرنسية أو «طورنت» كما يطلق عليها شعبياً. كما تزوج بعض أفرادها من فرنسيات، وأصبحوا منقطعين عن المجتمع الجزائري. وكان أوائل هذه الفئة قد خطفهم الفرنسيون خطفاً واعتبروهم رهائن، ثم أخذوهم من الجزائر إلى فرنسا وأدخلوا بعضهم إلى مدرسة خاصة في باريس. وبعد غسل أمخاخهم أدخلوهم في الجيش وفي فرق الترجمة وفي الإدارة. وهكذا أصبحوا هم نواة النخبة الاندماجية. ثم تلاحق العدد فكان أولاد الموظفين في الإدارة، ثم جاء الجيل الثاني والثالث حتى أصبح العدد معتبراً وأصبح للنخبة صوت في الحياة السياسية منذ أوائل هذا القرن. وقد كان للمدارس الشرعية ـ الفرنسية الثلاث

أيضاً دور في تكوين هذه النخبة، ولكن بعض خريجيها سيكونون في صف الهوية الوطنية لأنهم كانوا على صلة بالقضاء الإسلامي والاتصال الدائم بالمواطنين. ومما يذكر أن النخبة كانت أيضاً نتاج مدرسة الآداب (كلية والجامعة في عمومها، ونتاج التعليم الكنسي أو التنصيري.

وسيضم الفصل أيضاً مجموعة من الأفراد المنتمين للنخبة، وستلاحظ أن حماسهم للاندماج كان متفاوتاً، وأن بعض أعيانهم كانوا أحياناً في صف الانتماء الوطني - مثل محمد بن رحال والحكيم ابن العربي وابن علي فخار. كما ستلاحظ أن أمثال المجاوي وابن السادات والزقاي ومحمود بن الشيخ علي وابن الحاج حمو لم يكونوا من النخبة الاندماجية ولكنهم استعملوا من قبل الإدارة لنفس الغرض أحياناً، ومع ذلك كان هؤلاء ومن سار على دربهم مثل حميدة بن باديس وابن سماية (الابن) ومحمد بن مصطفى خوجة وعمر بن قدور، هم الحصن الذي وقف ضد تيار الاندماج قبل ظهور الحركة الإصلاحية والتيار الاستقلالي بين الحربين.

مترجمو الحملة وغداتها

كانت الترجمة وسيلة أساسية للفرنسيين في الجزائر، ونعني بذلك الترجمة من العربية إلى الفرنسية، وهذا يتضمن نقل الوثائق المكتوبة، من رسائل وعقود ملكية وكراء وأوقاف وعرائض، ثم الكتب والمصادر المكتوبة عموماً. كما يتضمن الترجمة الشفوية في الاتصال اليومي في المكاتب العربية والأسواق والمحاكم والمعسكرات. فالترجمة هنا تعني النقل الكتابي والشفوي من العربية المكتوبة (الفصحى أو غيرها) والدارجة الشفوية فقط. ومنذ بدأ المستشرقون نشاطهم جمعوا بين العامية والفصحى، ولكن أغلب دروسهم ومؤلفاتهم كانت عن العامية ونقلها إلى الفرنسية. ومنذ آخر القرن الماضي جاءت العناية من قبلهم باللهجات العربية واللهجات البربرية، سيما عشية احتلال المغرب الأقصى والتوغل في الصحراء. ولم تكن العربية الفصحى مترجمة إلا من الكتب التراثية لأنها ذات أهمية خاصة للمستشرقين

والإدارة الفرنسية. وكانت هذه العملية قد راجت بالخصوص بعد إنشاء المدارس العليا، ومنها مدرسة الآداب.

أول من فتح عهد الترجمة هم رجال الحملة الفرنسية[1]، ولقد استعان قادتها بعدد من التراجمة الذين كانوا في فرنسا عندئذ، سواء كانوا فرنسيين، وهم قلة، أو كانوا من عرب المشرق ويهوده الذين ارتبطوا بالفرنسيين بعد حملتهم على مصر. فقد وفرت مدرسة اللغات الشرقية الفرنسية عدداً من المترجمين الذين كانوا في الحملة الفرنسية على مصر. وأورد شارل فيرو وغيره أسماء بعض الذين جندهم الجيش الفرنسي لحسابه ليشاركوا في حملة الجزائر وما بعدها، ومنهم:

1 ـ جورج غروي: وهو من مواليد دمشق، وكان يتكلم العربية بطلاقة. ولا ندري متى ارتبط بالفرنسيين ولا كيف. ونحن نعرف أنه كان يعمل أميناً لمالية باشا (والي) دمشق. عرض غروي خدماته على بورمون، قائد الحملة، ورافقه إلى الجزائر. وعندما وصلت السفن إلى سيدي فرج، نزل إلى البر وأخذ يوزع البيان الذي أعده الفرنسيون بالعربية ووجهوه للجزائريين، وكان غروي يطلب من الجزائريين التفاوض مع الفرنسيين. ويقول فيرو إن غروي كان بذلك يغامر بحياته. وتذهب بعض الروايات إلى أنه اعتقل وقيد إلى الداي بالقصبة. وتقول أخرى إنه ذهب إليه مبعوثاً من قبل قائد الحملة. ومهما كان الأمر، فإن غروي حاول إقناع الداي بالتفاوض وأظهر له قوة الحملة، وطلب منه الاستسلام، وقيل إن الداي قتله، وهو أمر مستغرب لأن المبعوثين عادة لا يقتلون، ولعله قتل في الطريق.

2 ـ جان شارل زكار: ولد أيضاً في سورية سنة 1789. وانتقل إلى

(1) لا نتكلم هنا عن الترجمة الرسمية في عهد الدايات ولا حتى في عهد الأمير عبدالقادر حين كان اليهود في أغلب الأحوال هم المترجمين عن اللغات الأوروبية. وقد كان بعض الجزائريين يعرفون الفرنسية والإيطالية والأسبانية ولكننا لا نعرف أنهم تولوا الترجمة رسمياً في العهد المشار إليه.

فرنسا دون أن ندري متى ولا كيف. وأصبح قساً في كنيسة القديس نقولا في مرسيليا. وقد قام بترجمة البيان الفرنسي المذكور إلى العربية بالتعاون مع المستشرق البارز سيلفستر دي ساسي وبيانشي. ويقول بيروني إن زكار كان المحرر الرئيسي للبيان. ودون أن يتخلى عن مهمة التبشير، كما يقول فيرو، سمي مترجماً للحملة. وبعد الاحتلال لم يرجع زكار إلى مرسيليا بل بقي ملحقاً بشخص الحكام الفرنسيين الذين تعاقبوا على الجزائر منذ بورمون إلى بوجو (وعددهم سبعة). ويعتبر زكار أول المبشرين في الجزائر في هذا العهد. وبعد إنشاء الأسقفية الفرنسية 1838 وضع زكار تحت تصرفها سنة 1845. ولا شك أنه بهذه الصفة كان له دور في هدم المساجد الأولى، مثل جامع السيدة، والبنايات الدينية الأخرى، واختيار جامع كتشاوة ليكون الكاتيدرالية الكاثوليكية. والمعروف أن زكار هو أول من ألقى القداس الديني بعد نجاح الحملة أمام الضباط الفرنسيين برئاسة بورمون في أول يوم أحد لهم بالجزائر. وكان الفرنسيون قد أرسلوه ثلاث مرات إلى الأمير عبد القادر، وسقطت عدة أحصنة تحته. ومن أعمال زكار أيضاً أنه ظل ثلاث سنوات يلقي درساً بالعربية في الجزائر[1] على الفرنسيين. وتوفي سنة 1852، وهو في حالة فقر مدقع.

3 ـ **أبراهام دنينوس**: كان من مواليد الجزائر سنة 1797. ولعله من نسل إغريقي أو يوناني. وقد تجنس بالجنسية الفرنسية قبل الاحتلال، وأصبح يشغل وظيفة مترجم في محكمة التجارة في باريس، وسبق أن كتب معجماً بالعربية والفرنسية، وزعه المسؤولون على ضباط الجيش في الجزائر. ولمعرفته بالبلاد سمي «المترجم الدليل» للحملة سنة 1830. ويقول فيرو إن الفرنسيين قد استفادوا منه معلومات عن الجزائر أثناء نزول الحملة بسيدي فرج، وهو الذي قاد السفن عند النزول. وقد بقي دنينوس في الجزائر بعد نجاح الحملة، فكان هو المترجم للجنة الإفريقية التي جاءت للتحقيق في خريف 1833. وعندما سافر المولود بن عراش إلى فرنسا سنة 1838 ليطلب

---

(1) شارل فيرو، (مترجمو جيش افريقية) الجزائر، 1876.

تدخل الملك الفرنسي في قضية الخلاف بين الأمير عبد القادر والمارشال فاليه (الحاكم العام) حول تفسير بعض بنـود معاهدة التافنة من أقليم قسنطينة، سافر معه دنينوس. ويبدو أنه بقي بالجزائر إلى وفاته بها سنة 1872[1].

4 ـ ليون إياس (أو عياش AYAS): الذي كان من مواليد دمشق أيضاً، وشارك في الحملة من مرسيليا. ومنذ معركة اسطاويلي كان يخرج للجزائريين طالباً منهم التفاوض مع الفرنسيين. ويقول بيروني إنه كان أسعد حظاً من زميله غروي الذي قتل، وقد تعلم ليون العربية من التجار واليهود وغيرهم. وجرح أثناء عدة معارك. وتوفي سنة 1846 بطلقة من الرصاص أثناء معركة ضد بومعزة (محمد بن عبدالله).

5 ـ جوني فرعون: سبق الحديث عنه في فصل الاستشراق. وكان أيضاً ملحقاً ومترجماً لقادة الاحتلال (ومنهم دو روفيقو)، ومن مترجمي اللجنة الافريقية. وهو الذي افتتح دروس اللغة العربية (العامية) للفرنسيين، ونشر أول كتاب تعليمي في المطبعة الحكومية الجديدة[2]. وهناك فلورين فرعون المولود سنة 1829 وقد تولى أيضاً الترجمة وله تآليف عن الجزائر. واستقال سنة 1857.

6 ـ شوصبوا: من المترجمين الذين التحقوا بالفرنسيين سنة 1837، وإسمه الكامل فريدريك نقولا شوصبوا، وهو من الدنمارك. وكان أبوه قنصلاً لبلاده في طنجة. وقد ولد فريدريك في هذه المدينة وتربى فيها. وتعلم فيها العربية والفرنسية. وكان والده عالماً نباتياً وطبيعياً أيضاً. وبعد انضمامه للفرنسيين في الجزائر أصبح من المترجمين لمختلف الجنرالات. ويبدو أنه

---

(1) نفس المصدر، ص 190. وفي 1848 طبع ابراهام دنينوس بالجزائر مسرحية بعنوان (نزهة المشتاق). اعتبرها بعض النقاد مسرحية رائدة في الأدب العربي. وسنعرض إليها في جزء آخر.

(2) انظر فصل الاستشراق.

بدأ عمله كعضو في فرقة اللفيف الأجنبي التي كونها الفرنسيون سنة 1834 لتضم، في معظم الأحيان، المغضوب عليهم والمحكوم عليهم بالإعدام أو الهاربين من العدالة من الأوروبيين. وقد تحصل على الجنسية الفرنسية، ورافق مختلف الحملات الفرنسية ضد الجزائريين، باعتباره مترجماً. وعمل في الحكومة العامة (الإدارة) أكثر من خمسة وعشرين سنة. وتقاعد سنة 1872، وعند وفاته سنة 1876، أبنه شارل فيرو، كبير المترجمين العسكريين عندئذ. وحضر جنازته الحاكم العام، شانزي.

ومما يذكر بشأن شوصبوا أن لاموريسيير اختاره لمرافقة الأمير عبد القادر بعد هزيمته سنة 1847. وقد أمره أن لا يفارقه ولا يتركه يغيب عن عينيه حتى يركب البحر إلى فرنسا. كما نعرف أن شوصبوا قد حل في الحكومة العامة (الإدارة) محل ليون روش،سنة 1848. وكان روش قد أصبح قنصلاً (وزيراً) لبلاده في طنجة بعد قيامه بدوره المحكم ضد الأمير. وبالإضافة إلى دوره في الترجمة العامة قام شوصبوا بالترجمة الخاصة حين أصبح كاتباً مترجماً للجنة العلمية (لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر) سنة 1839، وقد بقي في هذا المنصب فترة طويلة. وكان تأثيره واضحاً لمعرفته أحوال البلاد الاجتماعية والثقافية. وفي 1856 أنشأ مع معاصريه المستشرقين: بيربروجر وبرينيه، الجمعية التاريخية الجزائرية التي أصدرت المجلة الأفريقية. ويبدو أنه كان مكرساً حياته لخدمة المصلحة الفرنسية العامة، ولم يجمع مالاً ولا بنين. إذ يقول عنه فيرو: إنه عاش فقيراً ومات فقيراً لا يملك حتى القبر الذي دفن فيه[1]. ولا نعرف أن له أعمالاً مكتوبة هامة في ميدان البحث والدراسة.

7 ـ مترجمون آخرون: وبالإضافة إلى هؤلاء نذكر مجموعة أخرى من المترجمين باختصار: منهم روزيتي، وهو ابن قنصل توسكانيا في مصر. ولد بالقاهرة وأصبح مملوكاً في عهد نابليون، ثم مترجماً في الجزائر بين 1830 ـ

---

(1) فيرو، مرجع سابق ـ ص 464 ـ 468.

1863. وأنجب إبنين أصبحا مثله من المترجمين، أحدهما قتل في معركة إيزلي (إيسلي) ضد الجيش المغربي 1844، والآخر قتل أثناء معركة الزعاطشة1849. ومنهم دبوسي الذي ولد أيضاً بالقاهرة وكان من المماليك، وأثناء عمله مترجماً في الجزائر جرح عدة مرات، ومات سنة 1840. وأما يعقوب حبيبي فقد كان مملوكاً قديماً. ولعله من مواليد مصر، وأصبح من المترجمين الرئيسيين في جيش الحملة، ثم رجع إلى فرنسا بعدها. وهناك أيضاً داود حبيبي (ولعله أخ الأول)، وقد قام بنفس الدور. ونذكر منهم لويس دي براسفيتش الذي ولد في راقوس حوالي 1772، وكان مترجماً للجيش الفرنسي في مصر، وقيل إنه رافق الحملة ضد الجزائر، وفاوض الداي وتعرض للخطر، ومات في 19 يوليو 1830 ودفن في باب الواد. ولا ندري إن كان قد مات مقتولاً.

وهناك عدد ممن كانوا يعرفون العربية ولهم علاقة بالمشرق، ثم تولوا الترجمة وأموراً إدارية أخرى بعد نجاح الحملة، ومنهم جيراردان، وريمبير Raimbert ودوبينيوس. فهؤلاء الفرنسيون الثلاثة تعلموا اللغة العربية، وأرسلتهم حكومتهم إلى تونس لتأمين حياد حكومتي المغرب وتونس عند الهجوم على الجزائر، وتوفير التموين، والتأثير على السكان، وكذلك التأثير على الوضع في قسنطينة من تونس، وفي وهران، والعمل على فصل قضية الجزائر (حكومة الداي) عن بقية أجزاء البلاد والجيران. وكان جيراردان يعرف الجزائر جيداً حسب الذين ترجموا له، ولذلك عينه قائد الحملة مديراً للدومين (مصلحة أملاك الدولة) حيث بقي في المنصب إلى 1833. وبعد ذلك عين مديراً للبريد بمدينة الاسكندرية (مصر). وأما دوبينيوس فقد كانت حكومته قد أرسلته في عدة مهمات إلى الشرق الأدنى، وكتب عدة مذكرات عن الجزائر وقدمها إلى بورمون. وبعد نجاح الحملة سماه هذا قائداً للشرطة في العاصمة. وقد أساء دوره وسلطته، وظن أنه يحسن التصرف. وكتب عن تجربته في الجزائر بعد أن رجع إلى بلاده سنة 1832. وكان من المتهمين بالاختلاس من خزينة الدولة الجزائرية. وأما الثالث ريمبير فقد تعين على

إدارة المركز التجاري الفرنسي بالقالة[1]. وهو مركز كان لفرنسا فيه امتياز تجاري قبل الاحتلال. وكان استرجاع الجزائر له من أسباب التوتر بين الدولتين.

ومن المترجمين أيضاً ديلابورت الذي تولى في الجزائر عدة وظائف رئيسية بصفته مستعرباً. ولد سنة 1777، ودرس في مدرسة اللغات الشرقية، واتبع حملة نابليون على مصر، وعمل في سلك القنصليات، ومنها قنصليتا طرابلس وطنجة قبل أن يحل بالجزائر سنة 1832. وفيها أصبح مديراً للشؤون الأهلية التي منها الإشراف على رجال الدين والأوقاف. وقد وجدنا اسمه في عدد من مراسلات السلك الديني. وكان مترجماً رئيسياً، وهو الذي نظم فرقة المترجمين في المرحلة الأولى. ودرس كذلك اللغة البربرية. وبعد رجوعه إلى فرنسا سنة 1841 درس أيضاً القبطية. وقد مات سنة 1861 وترك ثلاثة أبناء اتبعوا سيرته في الترجمة وتعلم اللغات الشرقية[2].

وظهر مترجمون آخرون بعضهم رافقوا الحملة وبعضهم جاء إلى الجزائر بعدها. فمن المشارقة في الأصل نذكر: براهمشة، وهو من سورية ومن رجال الدين (قس) مثل شارل زكار. وقد استعمله الفرنسيون في الترجمة وفي المفاوضات السياسية. وعبدالله دزبون الذي كان رئيساً لفرقة المماليك (وهي عندئذ نوع من اللفيف الأجنبي ـ المشرقي). وقد عينه الفرنسيون سنة 1837 قنصلاً لدى الأمير عبد القادر في معسكر. وتوماس أورِبان (إسماعيل عربان بعد إسلامه)، الذي عاش في مصر ثم حل بالجزائر، وتولى الترجمة والكتابة منذ 1837. وقد تناولناه في مكان آخر[3]. وعبدالمالك، وهو من مصر، ودخل في خدمة الفرنسيين منذ مارس 1830 (أثناء الاستعداد للحملة على الجزائر)، وكان أيضاً من المماليك. وأصبح

(1) عن هؤلاء الموظفين الثلاثة انظر Peyronnet (الكتاب الذهبي) المجلد الثاني، الجزائر 1930، ص 15.

(2) بيروني، (الكتاب الذهبي) مرجع سابق، ص 17. تولى ديلابورت أيضاً القنصلية الفرنسية في موقادور.

(3) انظر عنه فصل مذاهب وتيارات وكتاب الحركة الوطنية، جـ 1. (مخطوط).

دليلاً ومترجماً في الحملة، وأظهر شجاعة ضد الجزائريين استحق عليها وساماً سنة 1833، ومات في عنابة سنة 1845. وسالم، وهو سوري، دخل أيضاً في خدمة الفرنسيين منذ مارس 1830[1]. وكان مثل عبدالمالك من المماليك. وسبق له العمل في الترجمة الفورية. وأصبح مترجماً ودليلاً في الحملة سنة 1830. ثم دخل فرقة تسمى بالدرك الحضري، وأصبح ضابطاً في الصبائحية. وشبيه به سليمان الذي كان أيضاً سورياً. والتحق بالفرنسيين في مارس 1830، وكان أيضاً من المماليك، وتدرج في العمل على نفس خطى زميله سالم.

أما غبريال زكار فقد ولد بالاسكندرية سنة 1810، ورافق عمه (أو خاله) القس شارل زكار إلى الجزائر. وأصبح مترجماً سنة 1830، وقد أرسله الفرنسيون إلى مدينة معسكر بتلك الصفة (مترجماً). وفي أكتوبر 1837 قتله رئيس مكتبه الذي قيل إنه أصبح مجنوناً[2]. ولا نعرف الآن هوية طابوني، ولكننا نعرف أنه تولى الترجمة في بجاية مع سلمون دي موزيس سنة 1832. وقد قتل في 4 غشت سنة 1836 كما قتل رئيسه في نفس الوقت من قبل المقاومين. ويبدو أن المترجم كوهين كان من يهود الجزائر(وقد يكون من غيرها). والملاحظ أنه أصبح سنة 1833 مترجماً ملحقاً بالجنرال براي Barail في مستغانم. وقد قتل بدوره تحت أسوار هذه المدينة سنة 1833 (3 غشت).

ولا بد من ذكر اثنين آخرين كان لهما دور في الترجمة والحرب، وهما يوسف وعبدالعال. أما يوسف فهو اللقيط الذي ادعى للفرنسيين أنه ابن غير شرعي لنابليون الأول، فأدخلوه الجيش ورقوه حتى وصل إلى رتبة جنرال، وعينه كلوزيل «بايا» على قسنطينة ليزعج به الحاج أحمد. وقد خاض اللقيط يوسف حروباً طاحنة ضد الجزائريين خلال النصف الأول من القرن الماضي.

---

(1) وذلك يدل على أن الفرنسيين قد «جندوا» مجموعة من التراجمة استعداداً للحملة، سواء كانوا من المشرق أو من أوروبا.

(2) بيروني، مرجع سابق، ص 870.

وتناولنا ذلك في مكان آخر[1]. وأما عبدالعال فقد وصل أيضاً إلى رتبة جنرال، ولكنه بدأ حياته مترجماً وهو في سن الخامسة عشر. وقيل إنه ابن لعبدالعال آغا، وأنه ولد بمرسيليا سنة 1815، ولا ندري الآن أصوله. وشارك في الحملة ضد الجزائر باعتباره مترجماً عسكرياً (؟)، وفي 1831 سمي مترجماً من الطبقة الثالثة. وتطوع سنة 1837 في فرقة الصبائحية وأصبح سنة 1840 ضابطاً «أهلياً» ثم في 1844 أصبح ضابطاً فرنسياً. ومنذئذ أخذ يترقى إلى أن وصل إلى رتبة جنرال[2].

ومن تونس نجد أحمد بن محمد، فقد ولد بها سنة 1820، وعمل فارساً في الجيش منذ 1849، ثم مترجماً منذ 1853. والتحق بمصلحة الشؤون الأهلية التي كلف فيها بمهمات متنوعة، ومنها الاهتمام باللغة والمسائل الزواوية. وقد عمل في سطيف 1878[3]. وفي سنة 1880 نشر كراسة عن أسباب عدم الأمن في الجزائر ووسائل استتبابه، وهي في 16 صفحة. وقبله جاء أحمد الانبيري من تونس أيضاً. وهو من أصل يوناني أو ألباني. وعمل في الترجمة وألف كتاباً في تاريخ قسنطينة، تناولناه في غير هذا الكتاب[4].

أما من لبنان فقد ذكرت المراجع الفرنسية جان الشدياق، المولود سنة 1821، ولعله من عائلة أحمد فارس الشدياق الذي اعتنق الإسلام وأصبح من أعيان الشعراء والمؤلفين والصحافيين في الدولة العثمانية خلال القرن الماضي. أصبح جان من المترجمين في الجيش الفرنسي، وحصل على

(1) انظر عنه الحركة الوطنية، جـ 1.

(2) بيروني، مرجع سابق، ص 337.

(3) نفس المصدر، ص 226. ومن مواليد تونس ذكر بيروني شخصاً أخر هو أمير عثمان الذي ولد سنة 1893 وكان سنة 1930 يعمل في بسكرة، ص 890.

(4) ألف كتاب (علاج السفينة) وقد درسناه في مجلة كلية الآداب، ثم نشرنا ذلك في الجزء الأول من (أبحاث وآراء) جـ 1. وكان الانبيري خطاطاً أيضاً، وله بعض اللوحات في ذلك.

وسام منه سنة 1861. وقام بمهمات عديدة لصالحه، وقد تقاعد سنة 1867.

وهكذا ترى أن الحملة قد جلبت إليها المترجمين من مختلف الأصول والأجناس والكفاءات. وكانت فرصة للمغامرين المدنيين والعسكريين. وكل ذلك يبرهن على أن الشعب الجزائري قد عانى من هؤلاء «المترجمين» الذين كان أغلبهم، سيما في البداية، غير مؤهلين، كما شهدت على ذلك دراسة فيرو، وملاحظات برينييه. لقد كانت الجزائر بالنسبة إليهم حقلاً من التجارب والمغامرات.

وهناك مترجمون آخرون لا ندري إن كانوا قد رافقوا الحملة من أولها أو التحقوا بها، ومنهم بنجامين فانسان الذي كان من رجال القانون، وكان قد عين قاضياً في أكتوبر 1830، ثم أصبح أول رئيس لمحكمة الاستئناف في الجزائر. وهو خريج مدرسة اللغات الشرقية. أما أوسيد دي صال، فقد كان طبيباً وتخرج أيضاً من مدرسة اللغات الشرقية، وتولى تدريس اللغة العربية في مرسيليا. وكلاهما (فانسان[1] ودي صال) تولى الترجمة. وهناك مجموعة من اليهود استعان بهم الفرنسيون أيضاً، مثل أسرة أبوقية (وهم ثلاثة بهذا الاسم) ويوسف عمار، وصمويل بن باروخ. والملاحظ أن معظم المترجمين الأولين كانوا من مواليد بلدان مختلفة، سورية ومصر وتونس وطنجة، ومالطة وفرنسا.

أما من المترجمين الجزائريين فالذي تفاوض مع الفرنسيين لمعرفته لغتهم هو أحمد بوضربة. وكان بوضربة قد عاش في فرنسا وتاجر في مرسيليا، وكان من المعجبين بالفرنسيين وثقافتهم ولغتهم، وكان متزوجاً من فرنسية. وقيل إنه كان يمثل تجارة الداي في مرسيليا. وقد حضر معه حسن بن حمدان خوجة الذي كان يعرف الفرنسية، ربما بحكم التجارة أيضاً. ولكن الجزائريين

---

(1) فانسان هو الذي ترجم ونشر قصيدة محمد بن الشاهد في رثاء الجزائر عند احتلالها. انظر دراستنا عن ذلك في كتاب (تجارب في الأدب والرحلة)، ط. الجزائر 1982.

لم يكونوا مترجمين بالمعنى الدقيق للكلمة، إنما كانوا مفاوضين لمعرفتهم اللغة الفرنسية والعربية. وكان تأثير بوضربة على سير المفاوضات واضحاً، ثم إنه بسبب هذا الماضي عينه الفرنسيون على رأس بلدية الجزائر قبل أن يسخطوا عليه، كما فعلوا مع غيره في مواقع ومدن أخرى.

إذن لعبت الترجمة دوراً مهماً في هذه المرحلة الأولى بين الجزائريين والفرنسيين. وكانت القواميس توزع على ضباط الجيش لمعرفة مبادىء العامية، مثل معجم دنينوس المذكور، ومعجم المستشرق جان جوزيف مارسيل إلى (المعجم الفرنسي ـ العربي للهجات العامية الافريقية في الجزائر وتونس ومراكش ومصر)[1] بالإضافة إلى تأليف جوني فرعون في اللغة العربية بمدينة الجزائر.

تنظيم فرقة المترجمين

وبعد نجاح الحملة رجع بعض المترجمين إلى فرنسا، ولكن الآخرين التحقوا بمختلف المصالح، كما رأينا في حالة زكار وفرعون ودنينوس. وظلت الترجمة غير دقيقة وغير منظمة، فكل من يعرف قليلاً من العربية والفرنسية يعد نفسه مترجماً. وكانت الإدارة الجديدة في حاجة إلى هذا الجهاز لكي تتصل بالشعب وتربط علاقات مع قادته وتدرس أوضاع المحاكم والأسواق والأملاك وغيرها. وقد ظهر أن كثيراً من حالات الغش وسوء التفاهم كانت بسبب سوء الترجمة عمداً أو عجزاً. وأحس القادة الفرنسيون أن نجاحهم في الجزائر يتوقف على حسن الترجمة ووجود مترجمين أكفاء. فاتهموا المترجمين الضعفاء بأنهم شلوا التأثير الفرنسي بين السكان وعرقلوا المخططات بسبب جهلهم في حين أن على المسؤول الفرنسي، مهما كان، الاعتماد على جهاز المترجمين. ويقول شارل فيرو معتذارً ومبيناً الحاجة التي

---

(1) ط. باريس 1837.

كانت تدعو إلى تنظيم هذا الجهاز «مهما كانت عبقرية المسؤول (الفرنسي) في بلد أجنبي، فإن عليه أن يعتمد على كاتبه (سكرتيره) المترجم الذي يمتاز بالذكاء والموهبة والتجربة والشعور القومي». وقد نعت برينيه المترجمين بأنهم كانوا سيئي السمعة ولا يشرفون المهنة إلا نادراً.

ولكن هذا النقد كان موجهاً عادة إلى من سموا بالمترجمين «الاحتياطيين»، وهم غير الفرنسيين. ويقول فيرو إنه أثناء الاستعداد للحملة في طولون اعتمد الفرنسيون على أي شخص يعرف قليلاً من العربية والفرنسية. وبعد ذلك اعتمد الفرنسيون أيضاً على الأهالي الذين يعرفون قليلاً من الفرنسية. ولعله يعني بذلك اليهود خاصة، لأنهم هم الذين كانوا يعرفون من الفرنسية ما يكفيهم للتجارة، أما الجزائريون المسلمون فمعرفتهم للفرنسية قليلة. ومهما كان الأمر فإن اسم «المترجم» أصبح، كما يقول فيرو، إسماً مرفوضاً من الرأي العام الذي لم يعد يعرف الفرق بين المترجم الرسمي، وبين المترجم الاحتياطي. ومن ثمة جاءت الدعوة إلى ضرورة تصنيف المترجمين حسب سلم ودراسة بعد مسابقات محددة ليترتب على ذلك نظام شامل لمرتبات المترجمين وترقيتهم وتقاعدهم[1].

ابتدأ الفرنسيون بتنظيم جهاز القضاء بعد نجاح الحملة. فالقضاء كان الميدان الأكثر إلحاحاً عليهم من غيره لاتصاله بالأملاك والجنايات ونحوها. ولذلك كلفوا جوني فرعون بوضع تقرير عن المصطلحات القضائية في الجزائر والفروق بينها وبين مصطلحات القضاء في فرنسا. كان ذلك سنة 1834. وقد بين فرعون في تقريره الاستعمالات العربية في هذا الميدان وكيفية تحرير الأحكام في المحاكم، وترجمتها. وبعد ذلك صدر مرسوم ينص أولاً على تنظيم القضاء، كما ينص على إنشاء فرقة من المترجمين المحلفين ليكونوا في خدمة المحاكم بصفتهم موظفين ملحقين بها. وقد أنشئت هذه الفرقة في فبراير 1835، وهي الفرقة التي كان لها دور بارز في

(1) فيرو، مرجع سابق، ص 86 ـ 106.

الترجمة في المحاكم، سلباً وإيجاباً، ولا سيما بعد أن استولى القضاء الفرنسي على القضاء الإسلامي، وتولت المحاكم الفرنسية جميع صلاحيات المحاكم الشرعية الاسلامية بالتدرج ابتداء من الخمسينات. وكان المترجمون يؤثرون في الأحكام الصادرة عن القضاة لأن بأيديهم أداة التعبير بين المتخاصمين. وقد أعطانا محمد بيرم الخامس صورة عن ذلك[1].

ونحن لا يهمنا هنا الجانب السياسي أو الديني من فرقة المترجمين القضائيين، ولكن يهمنا منها الجانب اللغوي والمعرفي. فقد كان هؤلاء مطلعين، في أغلب الأحوال، على الشؤون الثقافية والتاريخية للمواطنين، وكانوا يعرفون المصطلحات الواردة في اللغة القضائية، كما يعرفها اليوم المحامون والموثقون، بالإضافة إلى معرفتهم للمصطلحات الفرنسية. وقد قام بعضهم بترجمة النصوص أيضاً، ودخلوا بذلك ميدان الاستشراق أو الاستعراب. وكانوا يخضعون في قبولهم وترقيتهم وتقاعدهم إلى تنظيم دقيق في العموم. وكانت المسابقات هي الطريق إلى ذلك.

أما المترجمون العسكريون فأول تنظيم جرى لهم كان سنة 1842 (عهد بوجو) ففي هذا التاريخ تبين المسؤولون الخلل الذي أصاب هذه الفرقة التي كان ينتمي إليها كل من هب ودب. وكان النظام كله عسكرياً، كما نعرف. وتألفت لجنة للاستماع إلى شكاوي المترجمين العاملين. ويقول فيرو إن اللجنة انتهت إلى «تطهير» الفرقة من العناصر غير الكفأة. وكذلك تحددت طريقة إجراء المسابقة لاختيار الأكفاء. ووضعت اللجنة برنامجاً للامتحان ومشروعاً كاملاً للترقية. ولم ينفذ المشروع دفعة واحدة، بل على مراحل. كانت اللجنة برئاسة العقيد (يوجين دوماس)، وكان الكاتب للجنة هو لويس برينيه المستشرق المعروف (ورئيس حلقة اللغة العربية) ومن أعضائها أدريان بيربروجر وليون روش. وظلت اللجنة تواصل السهر على تنفيذ مشروعها خلال سنوات، فصدر في 1845 قرار وزاري يوافق على عملها، ثم عدل

(1) انظر فقرة القضاء من فصل السلك الديني والقضائي.

بقرارات أخرى صادرة سنة 1848، 1854، ثم 1862. وكانت اللغة العربية قد جعلت ضرورية للتوظيف منذ 1838 بقرار من الحاكم العام (فاليه)، ويعني بذلك الموظفين الفرنسيين. ثم جعلت العربية إجبارية أيضاً ابتداء من فاتح 1847. وكان معظم المترشحين في المسابقات هم تلاميذ برينيه. ولذلك كان برينيه من المساهمين في تكوين فرقتي المترجمين سواء في القضاء أو الجيش. وكان يساهم في ذلك رغم أن القرار الوزاري كان متأخراً[1]. ومنذ الأربعينات تولى أساتذة آخرون حلقتي اللغة العربية في وهران وقسنطينة،وساهموا أيضاً في تكوين المترجمين وغيرهم، بالإضافة إلى برينيه. وقد درسنا ذلك من قبل في (حلقات اللغة العربية).

ويبدو أن قانون الدخول إلى فرقة المترجمين العسكريين بالذات كان صارماً ودقيقاً جداً. ذلك أن شخصاً مثل برينيه الذي قضى وقتاً طويلاً في تدريس العربية وفي تكوين جيل من المترجمين لم يسمح له سنة 1855 أن يشارك في امتحان الترشح لهذه الفرقة. فقد طلب ذلك في رسالته إلى لجنة الامتحان، ولكنها لم تسمح له، لأنه لم يكن حاصلاً على الرتبة المؤهلة للمشاركة وذلك ما جعله يبقى في درجة ثانوية بالنسبة لتلاميذه الذين كان يتمنى أن يكون فقط واحداً مثلهم. ومع ذلك استمر في دروسه وتأليفه إلى وفاته[2].

المترجمون الجزائريون

وهناك فرقة ثالثة في ميدان الترجمة تسمى فرقة المترجمين الاحتياطيين. وهي الفرقة المخصصة عادة للجزائريين الذين تعلموا الفرنسية.

---

(1) فيرو، مرجع سابق، ص 84 وكور، مرجع سابق، ص 37. وكان المرسوم الملكي سنة 1845 يجبر الموظفين الفرنسيين المدنيين على معرفة العربية، أما العسكريون فيحكمهم في ذلك قرار خاص.

(2) تعرضنا إلى حياته في فصل الاستشراق، وفي التعليم عند الحديث عن حلقات اللغة العربية. وقد ترجم له أيضاً فيرو، ص 371 ـ 381، رغم أنه لم يكن من العسكريين.

وكان الفرنسيون يميزون بين الجزائري المسلم وغيره. فهم لا يسمحون للجزائريين بتولي نفس الوظائف التي للفرنسيين، سواء في الجيش أو في الإدارة أو في التعليم أو في القضاء. والفرقة الاحتياطية هي التي يسمح فيها للجزائريين بالدخول. وكان بعض الجزائريين الذين دخلوا ميدان الترجمة من المتجنسين أيضاً. وقد ذكر فيرو عدداً منهم. والتحق آخرون بميدان الترجمة بعد تأليف كتابه (أي فيرو). والتجنس بالجنسية الفرنسية لم يجعل هؤلاء الجزائريين مع ذلك على قدم المساواة مع الفرنسيين.

وقد ذكر فيرو ثلاثة من المتجنسين[1]، وهم: أحمد بن الفكون، وموسى الشرقي، وفرج نقاش. ومن بين هؤلاء واحد فقط معروف العائلة والنسب وهو ابن الفكون. أما الآخران فلا ندري أصلهما العائلي. وأما ابن الفكون فستتحدث عنه في فقرة أخرى ضمن الذين ترجموا من الفرنسية إلى العربية. وأما فرج نقاش فقد قال عنه فيرو إنه من مواليد قسنطينة سنة 1822 وأصبح مترجماً عسكرياً منذ 1843، وعمل في فرقة الصبائحية، ثم تقاعد سنة 1873. ووصفه فيرو بأنه كان فارساً مغواراً، وجرح في الحرب وحصل على وسام. وذلك يدل على أنه حارب مع الفرنسيين ضد المقاومة. وأما موسى الشرقي فقد ولد بالجزائر سنة 1820، وحصل على الجنسية الفرنسية سنة 1860، أي قبل صدور القانون المشيخي الخاص بذلك سنة 1865. وأصبح مترجماً منذ 1846، وكان ما يزال حياً عند نشر فيرو لكتابه (سنة 1876)[2].

ومن جهة أخرى هناك مترجمون ذكرهم فيرو ولم يتحدث عن تجنسهم بالجنسية الفرنسية، وهم إسماعيل بن مهدي البجائي وحسن بن محمد الجزائري (مدينة الجزائر)، والطاهر بن النقاد القسنطيني. فقد وصف إسماعيل بن المهدي بأنه مترجم عسكري احتياطي سنة 1870، ولكنه استقال من ذلك بعد أربع سنوات، وكان سنة 1876 مترجماً قضائياً. ونحن نفهم أنه

---

(1) فيرو، مرجع سابق، ص 299.

(2) نفس المصدر، ص 364.

خرج من فرقة الترجمة العسكرية إلى فرقة المترجمين القضائيين[1]. ووصف فيرو السيد حسن بن محمد بأنه من مواليد 1810، ونفهم من حديث فيرو عنه أنه توظف في الترجمة العسكرية كاحتياطي، وأصبح سنة 1840 من الطبقة الثالثة فيها، ثم أصبح سنة 1876 من المتقاعدين. وكان فيرو قد اختصر عنه الحديث كعادته بالنسبة للجزائريين. أما الطاهر بن النقاد فقد كان من المترجمين من الفرنسية إلى العربية، ولذلك سنذكره في الفقرة الخاصة بذلك.

وتحضرنا أسماء أخرى من المترجمين الجزائريين الذين خدموا في الجيش الفرنسي وغيره من المصالح. وكان الفرنسيون إما أرغموهم على تعلم الفرنسية وهم صغار، مثل أحمد بن رويلة وعلي الشريف (الزهار)، اطري وآخرين. وسنذكر ابن رويلة وعلي الشريف أثناء حديثنا عن أخذ الأطفال إلى فرنسا كرهائن ومحاولة تكوين فئة متميزة منهم وزرعها في الأوساط الجزائرية والاستفادة من خبراتها.

وكان علي بن محمد من المترجمين العسكريين، ولد بالجزائر سنة 1818. واعتبره فيرو من أوائل المترجمين الجزائريين، إذْ أنه سمى مترجماً احتياطياً في 26 مايو، 1839. واعتبره في مكان آخر من الأوائل الذين تعلموا الفرنسية. جرح علي بن محمد (ونحن لا نعرف أصل عائلته) في معركة بوادي العلايق (الحجوط) بين الفرنسيين والجزائريين خلال ديسمبر 1839. وعاش إلى 1868، وتوفي، كما يقول فيرو، بضربة شمس في غشت من نفس العام أثناء سباق جرى في الضاية DAYA (؟)[2].

ومنهم أحمد خاطري الذي يبدو أنه خدم الفرنسيين خدمة مخلصة كمترجم وكجندي. ولد خاطري في بجاية سنة 1825، وتعلم بها. ثم أصبح

---

(1) لا نعرف الآن العلاقة بين اسماعيل بن المهدي هذا وابن مهدي الذي ظهر أول القرن وتزعم القسم القبائلي في مجلس الوفود المالية.

(2) فيرو، مرجع سابق، ص 310.

موظفاً في المكتب العربي (العسكري) فيها كدليل وفارس، ابتداء من 1847. ثم مترجماً في اللغة البربرية سنة 1853. ثم استقال من هذه الوظيفة سنة 1868. وبعدها دخل الحياة المدنية، وأثناء وظيفه في بجاية كان دليلاً لبوجو عندما هاجم وادي الساحل سنة 1847، ولعب دوراً ضَد ثورة بوبغلة فوقف ضد هجومه على بجاية 1851 وعلى البابور 1853، وجرجرة 1854. وقال عنه فيرو إنه كان فارساً أكثر منه مترجماً، ووصفه بأنه قدم خدمة كبيرة للفرنسيين نظراً لمعرفته بالمنطقة، وقد جرح هو وحصانه في عدة معارك، وكان حاضراً أيضاً لثورة جرت بالمنطقة سنة 1865. وقد تحصل، جزاء خدماته، على الصليب من يدي نابليون الثالث في جوان من هذه السنة ببجاية. وعند هجوم الرحمانيين على بجاية بقيادة عبد العزيز الحداد، سنة 1871، ركب أحمد خاطري جواده من جديد ووقف ضد هذا الهجوم[1].

ولنذكر أيضاً عدداً آخر من المترجمين الذين نشأوا في عهد الاحتلال وتعلموا الفرنسية في المدارس الأولى التي أنشأها الفرنسيون. وكان بعض هؤلاء قد ساهموا في الحياة الثقافية مثل ابن سديرة وحسن بن بريهمات، واكتفى بعضهم بمستوى بسيط يكفيهم للخدمة في الجيش الفرنسي والترجمة له أو في المحاكم والمكاتب العربية. ومن الصنف الأخير نذكر إبراهيم بن حسن بن بريهمات، الذي ولد في العاصمة سنة 1848 ودرس بها في مدرسة الجزائر الرسمية (الشرعية) أو في المعهد السلطاني، وأصبح من المترجمين. وتولى مهمات عديدة للفرنسيين ثم ترك الشؤون الأهلية سنة 1875، ولكنه سقط عن حصانه في 14 مايو من نفس العام فمات[2]. ومنهم عمر بن عبدالله الذي لا نعرف عنه الكثير سوى أنه ولد ببسكرة في تاريخ نجهله، ثم دخل الخدمة (؟) في سنة 1865، ولم يسجل له من ذكروه أي دور خاص[3].

(1) نفس المصدر، ص 321، انظر أيضاً بيروني، مرجع سابق، ص 228.
(2) انظر عنه وعن أسرته فصل السلك الديني.
(3) انظر بيروني، مرجع سابق. الغالب أن الخدمة المشار إليها هي العسكرية.

وكذلك التومي بن أحمد، وهو من بني سليمان (قرب العاصمة)، ولد بالجزائر، سنة 1830، وأصبح من العسكريين سنة 1850، وتولى القيادة في الجلفة سنة 1863، ثم في سور الغزلان سنة 1876. وقد غادر الخدمة سنة بعد ذلك.

ومن نواحي قسنطينة ظهر عدد من هؤلاء المترجمين. منهم محمد (أو أحمد؟) بن حسين. ولد بعنابة دون تاريخ معروف، ودخل الخدمة العسكرية والشؤون الأهلية (المكتب العربي؟) في مايو 1872. وقد عمل في سور الغزلان وبسكرة ثم وادي سوف 1890 ـ 1897. وأثناء ذلك كلفه الفرنسيون بالقيام بمهمة خاصة في الصحراء (سنة 1893)، ولا ندري ما هي، ولكن من المعروف أن تلك الفترة شهدت نشاطاً فرنسياً كبيراً في الجنوب. وقيل إن محمد بن حسين قد غادر الخدمة سنة 1898[1]. وكذلك بكير خوجة الذي يظهر من اسمه أنه من بقايا العائلات العثمانية. ولد في قسنطينة سنة 1856، وعين مترجماً سنة 1879، وقد ظل في الخدمة إلى سنة 1913 حين تقاعد عشية الحرب العالمية. وقد نشر سنة 1908 قاموساً عربياً ـ فرنسياً[2]. وكان ميدان خدماته واسعاً، إذ أنه شمل المسيلة وسطيف وبني منصور وبسكرة وبوسعادة وقسنطينة وورقلة والأغواط، والعاصمة، بالإضافة إلى تونس[3]. أما عبد الكريم بن أحمد الفكون (لعله ابن أحمد الفكون الذي سنتحدث عنه) فقد ولد في باتنة سنة 1864، وعمل في الترجمة منذ 1882، وشمل نشاطه في ذلك باتنة وتقرت وسعيدة والعين الصفراء وتكوت وورقلة وعين صالح، كما عمل في تونس. وتوفي سنة 1921.

ومن أبرز الذين دخلوا مبكراً في الخدمة العسكرية الفرنسية محمد بن داود. كان أصله من عرب الدوائر والزمالة القاطنين سهول وهران. وانضموا للفرنسيين منذ 1835 باتفاق الكرمة. وكان ابن داود (الأب) قد جاء العاصمة

(1) بيروني، مرجع سابق، ص 456.
(2) انظر لاحقاً.
(3) بيروني، مرجع سابق، ص 524.

وعرض خدماته على كلوزيل. وقدم وثيقة عن الكيفية المثلى لحكم الأهالي في نظره. وكان رجلاً متعلماً وطموحاً. استخدمه الفرنسيون في مصلحة الشؤون الأهلية في وهران، ثم عينوه آغا على الدوائر. أما ابنه فقد دخل المعهد الامبريالي (المدرسة السلطانية) المخصص لأبناء الموظفين العرب. فتعلم تعليماً مزدوجاً. ثم أرسل إلى مدرسة سان سير العسكرية (فرنسا). ثم تدرج في الوظيف العسكري حتى وصل إلى رتبة (عقيد)، وظل الوحيد في هذه الرتبة إلى عهد طويل. وقد تجنس بالجنسية الفرنسية بتاريخ 26 أكتوبر 1858 عندما كان سنه 21 سنة (ولد سنة 1837)[1]. وشارك في حملات الجيش الفرنسي في أفريقية وأوروبا. وكانت له ثروة كبيرة، وعندما تقاعد من الجيش تفرغ لخدمة أملاكه الزراعية. يقول عنه زميله إسماعيل حامد الذي عرفه عن كثب إنه كان الرجل المثال الكامل «للمسلم الفرنسي» وإن تاريخ حياته عبرة للمسلمين والأوروبيين. وكان يلبس اللباس الوطني واللباس العسكري الفرنسي. وقد توفي ابن داود سنة 1912. ولا نعرف أن له عملاً مكتوباً أو مترجماً ولا كونه عمل في سلك الترجمة العسكرية. ولكن اسم ابن داود (لعله من أسرته) ظهر بعد الحرب الأولى عندما اشترك مع أحمد لعيمش في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية. وقد تناولنا ذلك في مكانه من الجزء السابع[2].

والجزائريون الذين خدموا في الجيش الفرنسي كمترجمين يصعب حصرهم. وقد وجدنا منهم عدداً آخر جندوا في آخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن لخدمة البعثات الفرنسية إلى مناطق أخرى كالمغرب وأفريقية. ومن الذين وظفهم الفرنسيون في المغرب قدور بن غبريط، ومحمد نهليل ومحمد المعمري. والمعروف أن الخدمة في الجيش الفرنسي كانت طوعية بين

---

(1) ولعل أباه قد سبقه إلى ذلك.

(2) عن حياة ابن داود انظر اسماعيل حامد (مجلة العالم الإسلامي)، يونيو 1912، ص 315 ـ 318 مع صورته باللباس العسكري. وكان قد مات له أحد الأبناء في معركة بجنوب وهران سنة 1910.

الجزائريين إلى 1912 حين أصبحت إلزامية. فهذا السيد أحمد بن مجقان (مجقم؟)[1] قد ساهم كمترجم في حملة عسكرية فرنسية ضد أعالي نهر البانو (نيجيريا اليوم) سنة 1892 ـ 1893. وسعى جهده للحصول على معاهدة للفرنسيين من أمير يولا المسلم (YOLA). ورغم انسحاب الحملة الفرنسية بعد اتفاق بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية، سنة 1893. فإن ابن مجقان بقي هناك إلى أكتوبر 1895 مع فرقة صغيرة من الرماة السينيغاليين، وربط ابن مجقان علاقات وطيدة مع علماء المسلمين بالمنطقة، رغم أن الناس هناك كانوا يعتبرونه من النصارى الفرنسيين ربما لأفعاله ولبياض بشرته، حتى بعد أن حلف لهم على المصحف عشر مرات بأنه مسلم. وكان قد بدأ حياته مترجماً في الجيش الفرنسي.

وحين جرى ترشيحه لعضوية جمعية جغرافية الجزائر وشمال افريقيا عند تأسيسها سنة 1896، وصفه المرشحون له في تزكيتهم، بأنه كان مترجماً في بعثة ميزون (Mizon) الفرنسية. وظل خلال سنتين (1893 ـ 1895) رئيساً لمركز يولا على نهر البنوي، وهو أحد فروع النيجر. وقد نال ابن مجقان وسام جوقة الشرف على خدماته في هذه البعثة. كما التحق ببعثة الكونغو كمترجم. وحظي بالعضوية في الجمعية المذكورة التي كان رئيسها الشرفي هو الحاكم العام جول كامبون[2]. وقد تمنت الجمعية أن تحصل منه على مراسلات من أفريقية. أما ديبون وكوبولاني فقد ذكرا أن أحمد بن مجقان أصله من تيزي وزو، وأنه عندئذ كان في الكونغو، وذكرا أنه قدم لهما مخطوطاً عربياً[3]. ويذكر مصدر آخر أن ابن مجقان كان قد توفي في حدود

(1) وجدنا هذا الاسم باللاتينية يقرأ: مجقم، ومجقان، ومشكان، الخ. ولا ندري ضبطه الآن. انظر عنه تفاصيل أخرى في المقالة التي كتبناها عن المثقفين الجزائريين في افريقية. مجلة الثقافة، 1996.

(2) انظر العدد الأول من مجلة الجمعية الجغرافية الجزائرية S.GAAN، 1896، ص 13، وتم قبوله عضواً في جلسة 11 جوان، 1896.

(3) ديبون وكوبولاني (الطرق الدينية)، مرجع سابق، ص 116، هامش 1.

1900 بالجزائر بعد معاناة من أمراض المناطق الاستوائية، ولكن هذا المصدر لم يحدد بالضبط تاريخ وفاته، إنما ساق خبراً يفهم منه ذلك، وهو أن الإنكليز قد أخبروا أن أحمد بن مجقان قد قتل سنة 1900 بعد صدام مع قوات رابح في باجيرمي (التشاد). ويشكك المصدر في أن الإنكليز قد يكونون أذاعوا ذلك عنه استناداً إلى خبر خاطىء أو يتعلق الأمر بمترجم جزائري آخر.

ومهما كان الأمر فإن أعمال ابن مجقان كانت في ميدان الترجمة الشفوية والعمليات العسكرية لصالح الفرنسيين. وليس لدينا ما يدل على أنه كتب مذكرات أو رحلة، رغم أن المجلة المذكورة تمنت أن يراسلها من أفريقية. ويظهر أنه كان متعلماً حاذقاً وشجاعاً ومخلصاً لقضية أخرى غير قضية بلاده. وقد وظف كل طاقته لها. ويذكر السيد كريستلو، الذي عرف المنطقة التي عمل فيها ابن مجقان في افريقية، أن أهل يولا ما يزالون إلى اليوم يذكرون باندهاش قصة ابن مجقان بينهم[1].

ومن المترجمين العسكريين السيد رجم، الذي لا نعرف سوى أنه كان من قسنطينة، من عائلة شهيرة بها، وأنه كان حائزاً على الباكلوريا في الآداب والعلوم، وكان يحسن العربية والفرنسية، وكان مترجماً للضابط الفرنسي، جنتيل Gentil، في باجيرمي نواحي تشاد. وقد اتهم رجم بالتدخل في الشؤون السياسية المحلية، كما يقول كريستلو. ويبدو أنه رجع إلى نشاط الطريقة السنوسية، إذ زار زاويتها في بئر علالي مع الضابط المذكور فقبض عليه وسجن، ولا ندري الآن مصيره بعد ذلك[2].

وقد أثار أحد هؤلاء المترجمين ضجة في آخر القرن الماضي، وهو

---

(1) الآن كريستلو، (المحاكم...)، مرجع سابق، ص 249 ـ 250. انظر عنه أيضاً بحثنا المذكور ـ مثقفون جزائريون في افريقية.

(2) كريستلو (المحاكم...) مرجع سابق، ص 250 نقلاً عن دفتر الجنرال ريبيل Reibell باريس 1931، ص 337.

مسعود الجباري. فهو مثل أحمد بن مجقان، من خريجي مدرسة ترشيح المعلمين (النورمال). وكان يمتاز بالذكاء وازدواجية اللغة والطموح. ولد بنواحي عنابة، وبعد حصوله على الشهادة وظفه الفرنسيون في فرقة الخيالة وأصبح من المترجمين بعد ذلك في الترجمة العسكرية. ثم تولى الترجمة في ميدان القضاء منذ 1887. وتجنس أيضاً وشارك في أعمال الترجمة بتونس بعد احتلالها. وكان ظهوره قد صادف اهتمام الفرنسيين بالصحراء وعبورها إلى افريقية حيث السودان القديم. ولمؤهلاته جندته الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس للقيام بمهمة بأفريقية سنة 1892. فتوجه إلى هناك متنكراً في زي خطاط الرمل وكاتب الحروز (الأحجبة).

وقد تجول الجباري في افريقية وبقي هناك حوالي سنتين بين لاقوس وأعالي النيجر. وادعى أنه جمع معلومات حيوية للجمعية وطالبها بدفع تكاليف أدِلاّئه الأفريقيين ولكنها رفضت ذلك. وقيل إنه مرض وحاول الانتحار، وقضى أسابيع في أحد المستشفيات يتداوى من جروحه قبل رجوعه إلى تونس (مايو 1894). وفي التقرير الذي كتبه ادعى للفرنسيين أنه أسس جمعية دينية سرية تمتد اثارها من السينيغال إلى أثيوبيا، وأنه عثر على قبر المستكشف كرمبل، وتعرف على أربعة أوروبيين مسجونين عند التوارق من بينهم فلاترز. وألقى الجباري محاضرة في معهد قرطاج (تونس) أعلن فيها هذه الأخبار المثيرة. فصدقه البعض وكذبه آخرون.

وبعد أن ذهب إلى الجزائر توجه منها إلى باريس. وفي باريس ألقى محاضرات أمام آلاف المهتمين عن بعثته المثيرة وعن مشاهداته فأثار العجب. وعينت الجهات الفرنسية بعثة أخرى لكي تتحقق من معلوماته سيما فيما يخص فلاترز. وكان الجباري صاحب قلم ولسان فصيحين. فأثر على الجمهور الباريسي بمنطقه. وكتب مقالات في بعض الجرائد وقدم أحاديث إلى أخرى، وذلك في خريف 1895. وقد تبنت آراءه صحيفة (لوجور). واهتزت الحكومة العامة في الجزائر فأمر جول كامبون بفتح ملف للتحقيق في مسألة فلاترز. وأجرى الجباري مقابلة مع صحيفة (لو جورنال) وبعث برسالة

إلى صحيفة (الأخبار)، ثم ألف كتاباً صغيراً سماه (الناجون من بعثة فلاترز)، ونشره في تونس سنة 1895. ونحن لا ندري إن كان الجباري قد كتب أو ترجم أعمالاً أخرى، أو ترك مذكرات وتقاييد سواء عن افريقية أو عن حياته الخاصة. ولكنه كان على كل حال من فئة النخبة المتجنسة التي تعاطت الترجمة والعسكرية، ومع ذلك لا نعرف آراءه في الاندماج والحضور الفرنسي في بلاده[1].

وهناك مترجمون آخرون ساهموا في هذه البعثات الفرنسية نحو افريقية في آخر القرن الماضي. منهم الفقيه عبدالقادر بن الحاج البوسعادي، والطبيب محمد بن السعيد مقبل، والإداري ميلود بن عبدالسلام، والمغامر قدور بن العربي (المملوك). وقد تناولنا هؤلاء بشيء من التفصيل في بحثنا الخاص بهم[2].

ولنشر أيضاً إلى السيد العلمي عليش الذي استعان به الصحفي الفرنسي، جورج ريمون، أثناء حرب طرابلس 1911 ـ 1912، فقد اصطحب معه هذا المترجم الجزائري لأن ريمون كان لا يعرف العربية ولا التركية. ولا ندري الآن هل كان عليش من العسكريين العاملين في الجيش الفرنسي أيضاً أو أنه كان مجرد مترجم حر أو عارف بالعربية والفرنسية[3].

بعد أن استتب الأمر للفرنسيين ونظموا فرق المترجمين في مختلف

(1) انظر عنه دراسة كانيا ـ فورستر «دور العملاء والمترجمين الجزائريين» في مجلة (بيدونة)، 40، 1994، ص 24 ـ 25. وكذلك كريستلو، مجلة المغرب (مغرب ريفيو)، 10، 1985، 4 ـ 6. و (افريقية الفرنسية) A.F، يونيو، 1898، ص 189. ونفس المصدر، يوليو 1898، ص 223.

(2) وهو (المثقفون الجزائريون وأفريقية). انظر سابقاً.

(3) انظر كتاب (من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا) ترجمة محمد عبدالكريم وافي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1972، وكان جورج ريمون قد ألّف كتاباً عن حرب طرابلس، سنة 1913 ونشره في باريس.

الميادين، ظهر عدد من المترجمين في الإدارة والجيش (المكاتب العربية بالخصوص)، والاستشراق، والقضاء. وقد ساهمت المدارس الشرعية الثلاث ومدرسة الآداب (الكلية) أيضاً في تكوين جيش من المترجمين. وتنافس بعض المترجمين في إصدار الكتب والنصوص في مختلف التخصصات. وكان أفضلهم أولئك لذين عملوا في التعليم والإدارة (سيما الأهلية) والجيش. أما القضاء فكان حظ المترجمين للنصوص فيه ضعيفاً نسبياً. وكثير من رؤساء المكاتب العربية والبلديات الكاملة أو المختلطة قد ألفوا أعمالاً تنم عن معرفتهم للعربية الفصحى والاستفادة من نصوصها وليس مجرد معرفة الدارجة. أما المستشرقون فقد كانوا بالطبع أبرع من غيرهم في ترجمة النصوص والاستفادة من المصادر. وقد وظفوا مواهبهم في ترجمة النصوص من اللهجات العامية والبربرية أيضاً وما كانوا يسمونه بالفولكلور. ونحن لو عدنا إلى المجلة الأفريقية أو مجلة الجمعية الجغرافية وغيرهما لعثرنا على أسماء كثيرة في ميدان الترجمة الكتابية. ومعظم أصحابها من الفرنسيين واليهود الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية..

ولعل من بين هؤلاء (اليهود) موريس بن حزيرة، الذي يوصف بأنه ضابط مترجم. فقد قام سنة 1905 بدراسة مطولة عن منطقة الطوارق ـ الهقار ـ. وكان الجنرال (لابرين) قد كلفه بدراسة المنطقة. وقد تعلم لهجة التماشق (ويسميها التماهق) وكان يعرف العربية[1].

كانت الترجمة في البداية عند الفرنسيين وسيلة فهم واتصال مع الجزائريين، ثم أصبحت وسيلة تسلط وإنتاج. يقول فيرو إن الفرنسيين قد فهموا مدى أهمية اللغة العربية وأنها واسعة الانتشار بين الأهالي. ورغم عدم مبالاة الفرنسيين باللغات الأجنبية فقد اضطروا إلى دراسة العربية الدارجة، كما أن البعض قد درس المكتوبة أيضاً. ويضيف: ها نحن نرى (سنة 1876)

---

(1) انظر دراسته عن الهقار في مجلة الجمعية الجغرافية الجزائرية SGAAN (1906) قسم 1، ص 260 ـ 288؛ قسم 2، ص 308 ـ 386.

لغة محمد (ﷺ) تدرس في ليسيه الجزائر وفي الكوليجات (المتوسطات) البلدية، وفي المدارس الشرعية ـ الفرنسية الثلاث. وفي نفس الوقت أصدر بعض الأساتذة الفرنسيين معاجم وكتباً في النحو ومجموعة من المؤلفات التعليمية. لقد كان القداس الأول في الجزائر قد ألقاه المترجم العسكري القس شارل زكار، ثم جاء مترجم آخر ليفتتح أول درس بالعربية للفرنسيين، ثم توارد على الجزائر برينية وشيربونو، وكلاهما من مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وفي الخمسينات جاء الدكتور بيرون ليتولى إدارة المعهد (الكوليج) العربي ـ الفرنسي، ثم توالى المترجمون في مختلف المجالات بعد ذلك[1].

هكذا صور شارل فيرو مسيرة حركة الترجمة في الجزائر، وهي الحركة التي بدأها شذاذ من كل جنس ودين، وطورها مستشرقون عسكريون، كرسوا حياتهم لخدمة السلطة الاستعمارية ووظفوا لذلك عدداً من الجزائريين. فاستفادت اللغة الفرنسية ولم تستفد اللغة العربية أي شيء، بل كانت تموت بالتدرج كما خطط لها أنصار الترجمة من العربية إلى الفرنسية فقط. لقد كانت العربية هي الخاسرة لهذه الأسباب:

1 ـ سيطرة اللغة الفرنسية في الإدارة والقضاء والصحافة والجيش ثم الشارع، سيما في المدن الرئيسية.

2 ـ تدريس اللهجات العربية للفرنسيين والأوروبيين وحتى للجزائريين في المدارس.

3 ـ تدريس بعض اللهجات البربرية منذ أواخر القرن الماضي، ثم تسييس تعلمها وجعلها منافسة للعامية والفصحى.

4 ـ مهاجمة الإسلام والقرآن من قبل رجال الكنيسة والتقاء آراء هؤلاء مع آراء المستشرقين في كثير من الوجوه.

5 ـ اعتبار اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية الوحيدة واللغة العربية لغة أجنبية.

---

(1) فيرو، مرجع سابق، ص 19 ـ 20.

6 ـ معاملة اللغة العربية معاملة اللغات القديمة الميتة، واعتبار العربية الجديدة التي ظهرت مع حركة الإحياء في المشرق لغة أجنبية.

تعاون الجزائريين والفرنسيين في مجال الترجمة

والجزائريون الذين ساهموا في الترجمة على أصناف، منهم من قام بالترجمة الشفوية فقط ومنهم من قام بالترجمة الكتابية، ومنهم من عاون الفرنسيين دون أن يظهر له جهد باسمه.

أما الذين قاموا بالترجمة الشفوية فقد ذكرنا نماذج منهم وهم الذين قلنا إنهم كانوا يسمون بالمترجمين الاحتياطيين، وكانوا على ثلاث طبقات، يبدأون بالثالثة وينتهون بالأولى إذا ترقوا في السلم الوظيفي في الترجمة، ثم يتقاعدون. وفي كثير من الأحيان كانوا يتقاعدون قبل الأوان، ويغيرون مهنتهم في الترجمة إلى مهنة أخرى، وكان مجال نشاطهم محدوداً. فلا يخرجون عن الترجمة في الجيش، أي أثناء الحملات العسكرية، فيصبحون أداة للتهدئة ومخاطبة الأهالي بأوامر وتعليمات الفرنسيين. فهم من جهة فرسان وجنود ومن جهة أخرى مترجمون. وقد دخل بعض المترجمين الميدان القضائي أيضاً، سيما بعد أن كثرت المحاكم الفرنسية وتقلصت المحاكم الإسلامية، وأصبح الجزائريون يتقاضون أمام قضاة الصلح الفرنسيين. ففي هذه الأحوال تقوى جهاز المترجمين من الجزائريين. واحتاجت السلطة إلى من ينقل الشهادات والأحكام إلى أصحابها وإلى القضاة.

* * *

وهناك علاقات نشأت بين الجزائريين والفرنسيين، ضباطاً وعلماء، للتعاون من أجل نقل المعرفة المنشودة. هذا التعاون كان يفترض فيه أن يظهر وأن يأخذ كل طرف نصيبه من التنويه. ولكن الفرنسيين جعلوا من الجزائريين أشخاصاً ثانويين جداً. وقلما يذكرونهم في كتاباتهم. وإذا ذكروهم فبإشارة خفيفة لا تنويهاً بهم ولكن إظهاراً للبراعة والروح العلمية في الموضوع الذي

يقدمونه. ولدينا أمثلة كثيرة على مساهمة الجزائريين مع الفرنسيين في المجالات العلمية، كتقديم الوثائق، أو التعاون على ترجمتها، والاشتراك في القواميس الفرنسية العربية، وتقديم معلومات عن قبيلة أو شخصية علمية قديمة. وليس بوسعنا أن نذكر كل ما نعرف عن هذا الموضوع، وحسبنا هنا ذكر نماذج فقط في شكل قائمة مع الإشارة إلى مجال التعاون:

1 ـ **أحمد بن مصطفى بومزراق** مع أدريان بيربروجر على ترجمة رحلتي العياشي والدرعي (انظر ذلك في اللجان العلمية).

2 ـ **محمد ولد السعيد**: ترجم مع زيس Zeys أعمالاً فقهية وقضائية سنة 1886. وكان زيس من المتخصصين في الشريعة الإسلامية.

3 ـ **عبد العزيز الزناقي**: قدم قصة بالدارجة التلمسانية ليفهم منها غودفري ـ ديمونبين الفروق اللغوية، فترجمها هذا ونشرها مع تعاليق في المجلة الآسيوية سنة 1909، الجزء الرابع.

4 ـ **عبد الرزاق الأشرف**: عاون الاسكندر جولي على جمع نماذج من الأدب الشعبي، سيما الشعر البدوي، أثناء دراسة جولي للهجات العربية في شمال افريقية، جمع له الأشرف ذلك من نواحي قسنطينة ونقاوس وباتنة سنة 1903، وفي مناسبات أخرى. كما ساعده على التعليق على الشعر.

5 ـ **الغوثي بو علي**: تعاون مع ألفريد بيل في عدة مجالات. منها نشر بغية الرواد ليحيى بن خلدون.

6 ـ **سيدي محمد بن مصطفى**: ترجم لألبير ديفوكس الوثائق المكتوبة باللغة التركية إلى العربية، وقام ديفوكس بنقلها إلى اللغة الفرنسية.

7 ـ **أحمد بن بريهمات**: تعاون مع لويس رين على إخراج كتاب في تعلم الفرنسية موجه إلى المتعلمين الجزائريين، وهو كتاب عربي ـ فرنسي، سنة 1882، 143 ص لكل نص.

8 ـ **محمد صوالح**: ساهم مع فلوري في إخراج كتاب تعليمي ـ مدرسي.

9 ـ أبو بكر عبد السلام بن شعيب: ساهم مع بول بور في إصدار كتاب فرنسي ـ عربي، وهران 1913.

10 ـ الغوثي بو علي أيضاً: تعاون مع جورج مارسيه على إصدار النص العربي والترجمة الفرنسية لكتاب (روضة النسرين) في تاريخ بني مرين، باريس 1917.

11 ـ محمد الموسوم (شيخ الشاذلية بقصر البخاري): قدم معلومات هامة عن الطرق الصوفية عامة والطريقة الشاذلية خاصة إلى لويس رين عند تأليفه كتابه (مرابطون وإخوان).

12 ـ أبو القاسم الحفناوي: قام بجهد كبير في تقديم المعلومات التاريخية والدينية لديبون وكوبولاني أثناء تأليف كتابهما عن الطرق الصوفية.

13 ـ المولى آيت عمر: قدم معلومات عن زواوة إلى هانوتو ولوترنو أثناء تأليف كتابهما الضخم (ثلاثة أجزاء) عن زواوة (القبائل).

14 ـ أحمد بن داود: كتب مذكرة إلى دومنيك لوسياني بطلب من هذا، عن حياة عبدالرحمن الأخضري، عندما عزم لوسياني على ترجمة كتاب (السلم) وغيره للأخضري، إلى الفرنسية.

15 ـ محمد بن يوسف أطفيش: بطلب من إيميل ماسكري ألف (الرسالة الشافية) في تاريخ وتراجم بني ميزاب ليستفيد منها هو وغيره، مثل موتيلانسكي، الذي اهتم بالمذهب الإباضي وتاريخ المنطقة.

16 ـ إبراهيم بن عامر (العوامر): ألف كتابه الصروف في تاريخ سوف بطلب من أحد الفرنسيين لم يذكره بالاسم، ولعله أحد ضباط المكتب العربي بالوادي.

ونشير أيضاً إلى أن كثيراً من التآليف التي قام بها الجزائريون كانت بطلب من رجال السلطة الفرنسية المحلية أو من شخصيات عسكرية أو علمية. ويحضرنا الآن:

17 ـ محمد الصالح العنتري: ألف الفريدة المؤنسة في تاريخ قسنطينة بطلب من الضابط بواسونيه. ولهذا الكتاب أسماء أخرى.

18 ـ أحمد بن المبارك: ألف أيضاً كتاباً في تاريخ قسنطينة قد يكون بطلب من شيربونو الذي عاصره وكان صديقاً له، وشيربونو من المستشرقين، كما عرفنا.

19 ـ أبو القاسم الحفناوي: ألف كتابه تعريف الخلف، بطلب من السلطات الفرنسية، وقد يكون لوسياني هو الذي رأى ذلك لأنه هو الذي كان متولياً إدارة الشؤون الجزائرية (الأهلية) في الحكومة العامة أوائل هذا القرن.

20 ـ عمر (سعيد) بوليفة: وجهه رينيه باصيه إلى الاهتمام بتاريخ زواوة واللهجات البربرية في الجزائر والمغرب الأقصى. وقد نشر أعمالاً عن ذلك أشاد بها باصيه نفسه.

21 ـ محمد بن أبي شنب: وجهه رينيه باصيه أيضاً إلى الاهتمام بالأدب العربي واللغة العربية وتحقيق النصوص والمخطوطات[1].

22 ـ ممحمد بن علي الجباري: كتب المقامات العوالية في الأدب الشعبي، واستفاد منها ديلفان وترجمها ونشرها مع النص.

ويمكننا أن نواصل البحث لنجد أن الفرنسيين كانوا وراء عدد من التآليف التي سنعالجها في جزء آخر من هذه الموسوعة الثقافية، كما أنهم استفادوا منها ومن معلومات أخرى من غير المؤلفين دون أن يفصحوا عنها. وكانوا يكتفون أحياناً بلعن الجزائريين واتهام العقل العربي بالقصور، وبعثرة المعلومات، بل ينحون باللائمة على الجزائريين لأنهم لم يعطوهم ما يملكون

---

(1) في بحثه المعنون (أسطورة بنت الخص) شكر باصيه تلميذه محمد بن أبي شنب على مده بالوثائق المتعلقة بهذه القصة التاريخية الأدبية. انظر المجلة الأفريقية، 1905، ص 18، هامش 1، وكذلك ص 34. وكان ابن أبي شنب أستاذاً أيضاً لعدد من المستشرقين.

من مخطوطات وما عندهم من معلومات أخرى، كما فعل فايسات، رغم أنه حصل بطرقه الخاصة على ما يريد.

إن الترجمة هنا تظهر أحياناً وتختفي أحياناً أخرى. فإذا كانت شفوية لمجرد توصيل المعلومات بين طرفين فإن أثرها غير موجود، ولا يذكر إلا صاحبها ووظيفه فيها. وأحياناً تظهر ولكن في شكل غير مباشر كمنح المعلومات والوثائق التي يستعملها الفرنسيون ويستفيدون منها في مختلف أنشطتهم. ويبنون عليها بحوثهم. ولكنها تظهر واضحة (أي الترجمة) في النصوص المتعاون عليها أو المطلوبة، كأعمال الغوثي بو علي مع كل من بيل ومارسيه، والجباري مع ديلفان، والزناقي مع غ. ديموتبين. وهي تظهر أيضاً في مختلف المعاجم الفرنسية ـ العربية التي تعاون فيها الجزائريون والفرنسيون.

ويبقى حديثنا دائماً عن الترجمة من العربية إلى الفرنسية وليس التعريب. ولا شك أن هذا النوع من الترجمة لا تستفيد منه إلا اللغة والثقافة الفرنسية وكذلك السياسة والهيمنة الفرنسية. وبذلك أصبح المتعلمون الجزائريون في خدمة اللغة والثقافة الفرنسية على حساب لغتهم وثقافتهم. وسنتحدث عن التعريب أو النقل من الفرنسية إلى العربية في فقرة أخرى.

لقد قدم المتعلمون الجزائريون خدمة كبيرة للغة والثقافة الفرنسية. ومن الصعب تصنيف المادة التي ساهم بها الجزائريون في ذلك. ولكن يمكننا حصرها في أربعة أصناف وهي: اللغة والتعليم (القواميس، واللهجات)، والفقه، والأدب، والتاريخ، والاجتماعيات.

أ ـ في المجال اللغوي والتعليمي: نجد مجموعة من القواميس المشتركة أو الفردية التي أصدرها الجزائريون منذ العشرية الأخيرة من القرن الماضي. وظهر ذلك نتيجة عدة عوامل هامة، الأول شيوع التعليم الفرنسي بين الجزائريين منذ الثمانينات. والثاني إعادة تنظيم المدارس الشرعية الثلاث التي كان يدرس بها الجزائريون منذ 1879 واتخاذها تعليماً مزدوجاً طغت فيه

الفرنسية على العربية، بعد أن كانت اللغة العربية هي المسيطرة على التعليم فيها منذ إنشائها سنة 1850. والعامل الثالث في ظهور الأعمال المتصلة باللغة هو إنشاء مدرسة الآداب العليا (وهي فرنسية) والاهتمام بدراسة اللهجات العربية والبربرية. فبعد أن كان هذا الميدان محتكراً من قبل المستشرقين والعسكريين منذ جوني فرعون وبرينيه، توسع وأصبح يشمل المتعلمين الجزائريين أيضاً. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك العامل التجاري، فقد توسعت حركة التعليم بالعامية في المؤسسات التعليمية، وازداد الاهتمام باللهجات منذ توسع الاستشراق واحتلال المغرب، وأصبح السوق مفتوحاً للتنافس في هذا المجال، وكان الأساتذة والتلاميذ يختارون الأفضل من ذلك. ولنؤكد على أن العامية كانت هي موضوع الدراسة، ولذلك فإن المعاجم أيضاً كانت بالعامية، أو العاميات، سواء كانت العربية أو البربرية، غير أن اللغة الفرنسية كانت واحدة في كل ذلك. وهي المرجع الأساسي، وكل هذه المعاجم إنما ألفت لخدمتها ونشرها. وهي معاجم تقرأ من اليسار إلى اليمين طبعاً.

ومن هذه المعاجم:

1 ـ اللسان يكمل الإنسان، وقد وضعه أحمد بن بريهمات مع الضابط المختص في الشؤون الجزائرية، لويس رين. وفي الإعلان عنه قيل إن الكتاب وضع لتسهيل تعلم اللغة الفرنسية، كتابة ونطقاً. وقد أعلنت عنه جريدة المبشر، فاتح سنة 1895. وهو في 186 صفحة[1].

2 ـ قاموس عربي ـ فرنسي، وآخر فرنسي ـ عربي، تأليف بلقاسم بن سديرة. ولأهمية أعماله ودوره سنترجم له في مكان آخر.

3 ـ المعجم الفرنسي ـ الشلحي والمازيغي، باريس 1907 وضعه (سعيد؟) الصدقاوي.

أما الكتب التعليمية أو المدرسية فمنها عدة نماذج. فبالإضافة إلى كتب

---

(1) المبشر، عدد 4 يناير، 1895.

ابن سديرة وبوليفة التي سنتحدث عنها، هناك:

1 ـ تعليم اللغة العربية الدارجة والفصيحة، طبقاً للطريقة المباشرة، الجزائر 1906، 1913، جزآن. تأليف السيد عبد الرحمن (؟)[1].

2 ـ كتاب في الطريقة المباشرة لتعليم العربية الدارجة، الجزائر، 1904، 248 ص. من تأليف فتاح. وقد سبق له نشر كتاب آخر سنة 1897 بعنوان دروس القراءة والإلقاء في العربية الدارجة.

3 ـ دروس في القراءة الفرنسية موجهة إلى المتعلمين الجزائريين، الجزائر، 1882، 143 صفحة، لكل نص من النصين العربي والفرنسي. وهو غير القاموس المذكور أعلاه.

4 ـ طريقة عملية لتعليم العربية الفصحى، الجزائر، بدون تاريخ، تأليف محمد صوالح. ولكنه كتب أخرى حول نفس الموضوع، ومنها ما هو بالتعاون مع فلوري، كما ذكرنا.

5 ـ مجموع موضوعات للعربية الدارجة، مستغانم 1899، تأليف علاوة بن يحيى في 119 صفحة.

6 ـ محادثة عربية/ فرنسية، قسنطينة 1863، 182 صفحة. تأليف الطاهر بن النقاد، وتلك هي السنة التي توفي فيها المؤلف أيضاً. ويعتبر من الأوائل الذين ألفوا في هذا المجال.

7 ـ محاورات (محادثات) فرنسية ـ عربية تهم الجزائر والمغرب وتونس. وهران 1913، 132 صفحة. تأليف أبي بكر عبد السلام بن شعيب، وبول بور، مفتش المالية بوهران[2]. وهو موجه إلى من يجهل العربية من الفرنسيين ويرغب في معرفتها بسرعة للسفر إلى البلدان المذكورة.

---

(1) هكذا ورد اسمه في هنري ماصيه (الدراسات العربية في الجزائر)، ولا ندري بقية الاسم الآن.

(2) راجعته مجلة العالم الإسلامي، سبتمبر 1913، ص 349.

والنصوص مرتبة بطريقة اللغة الفرنسية.

8 ـ دروس في العربية الدارجة في الجزائر ومراكش، ليون 1913، 439 ص. وضعه الدكتور ابن علي فخار[1]. وكان المؤلف عندئذ أستاذاً في القانون والشريعة الإسلامية في الغرفة التجارية بليون (فرنسا). وقد قال عنه المراجع إنه كتاب يهم الحاضر (أي الجزائر والمغرب بعد احتلاله سنة 1912) كما يهم تعليم العربية للفرنسيين. وقد امْتَدَحَه المراجع إذ لا يقدم، كما قال، مادة لغوية فحسب بل يعتبر موسوعة عن المنطقة التي درسها: وهو في ثلاثة أقسام: قسم لغوي يتعلق بالقواعد النحوية والنطق الخ. وقسم يتحدث عن الحياة اليومية وموضوعاتها، وقسم عن الحكايات المغاربية والكتابات وبقايا التركية في لهجة تلمسان.

9 ـ الألفاظ التركية والفارسية الباقية في لغة أهل الجزائر، من وضع محمد بن أبي شنب 1922، جزء من رسالة الدكتوراه.

10 ـ قاموس فرنسي ـ عربي من وضع بكير خوجة وعمار بن حسين، سنة 1908.

ب ـ **في المجال الفقهي**: هناك عدة أعمال تتعلق بالمذاهب والقضاء الإسلامي أو الشريعة. وليس من السهل أن نذكر كل ما جاء في هذا الموضوع الذي بدأ الاهتمام به منذ أول الاحتلال. وكان الجزائريون في المرحلة الأولى يقدمون الفتاوى ويصدرون الأحكام في المجالس الفقهية أو المحاكم. أما التأليف الموجه لإفادة الفرنسيين وإدارتهم فقد ظهر في ناحيتين، الأولى ترجمة النصوص الصادرة عن الإدارة إلى العربية، كما رأينا في اللجنة التي رأسها حسن بن بريهمات في أوائل الستين من القرن الماضي. ولكن هذا ليس مقصودنا هنا. أما الأعمال التي ساهم الجزائريون في ترجمتها إلى الفرنسية أو التعريف بها لدى العلماء والضباط الفرنسيين فنذكر منها:

1 ـ مجموع الأحكام القضائية، نص وترجمة. الجزائر 1886، 185

---

(1) راجعه ل. بوفا في مجلة العالم الإسلامي، مارس 1913، ص 329 ـ 330.

حة + 75 صفحة. وهـي من عمل محمد ولد السعيد والقاضـي الفرنسي زيس.

2 ـ كتاب لاستعمال المترجمين القضائيين في أفريقية الشمالية، الجزائر، 1917. وضعه أحمد حسين، والمؤلف غير معروف لدينا الآن.

3 ـ الصوم عند المسلمين طبقاً لرسالة ابن أبي زيد القيرواني. نشره محمد صوالح (؟) في المجلة الأفريقية، 1906، ص 313 ـ 402.

4 ـ استعمـالات القـانـون العـرفـي فـي نـواحـي تلمسـان، تلمسـان 1906، 116 ص، تأليف أبو بكر عبد السلام بن شعيب.

5 ـ روح وفلسفة الشريعة الإسلامية، تلمسان 1904، لنفس المؤلف السابق.

6 ـ المنهج السوي في الفقه الفرنسي، الجزائر 1908، 46 صفحة، تأليف عمر بن بريهمات. وكان عمر مدرساً بمدرسة الجزائر (الثعالبية) للشريعة الإسلامية والقانون الفرنسي. (وهو كتيب بالعربية والفرنسية). والمؤلف أحد أبناء حسن بن بريهمات..

7 ـ بداية المجتهد لابن رشد، ترجم منه أحمد لعيمش أبواب الزواج والطلاق فقط. لأن ذلك هو الميدان الذي تركه القضاء الفرنسي للقضاء الإسلامي. الجزائر، 1926، 306 صفحات..

8 ـ القرآن الكريم. وقد ترجمه أحمد لعيمش والضابط المتقاعد ـ المترجم ابن داود، وظهرت الترجمة في وهران وباريس بدون تاريخ خلال العشرينات (1930؟)[1].

ج ـ **في المجال الأدبي**: ترجم الفرنسيون الكثير من النصوص الأدبية العربية سواء الجزائرية أو من التراث العربي عموماً، مثل ألف ليلة وليلة،

---

(1) لا شك أن هناك مؤلفات أخرى في المجال الفقهي لم نحط بها، وسنعرض لهذه المؤلفات.

والمستطرف، وكليلة ودمنة، والأغاني، الخ. وهذه الترجمة لا تهمنا هنا. كما أن جريدة المبشر وهي الوسيلة الوحيدة مدة طويلة للقراء، كانت تهتم بالنصوص العربية، وقد نقلت قصصاً أندلسية ونشرت بعض المؤلفات الأخرى في حلقات مثل كتاب أقوم المسالك لخير الدين التونسي. وهذا النوع من الترجمة لا يهمنا هنا أيضاً. إنما الذي يهمنا حقاً هو مساهمة الجزائريين بترجمة بعض النصوص العربية إلى الفرنسية ونشرها في القسم الفرنسي للجريدة المذكورة. فهل حدث ذلك؟ إن أعمالاً كان يقوم بها حسن بن بريهمات وأحمد البدوي وأحمد بن الفكون والطاهر بن النقاد كانت تنتقل أخبارها في القسم العربي من الجريدة، ولكننا لا نعلم إذا كان قسمها الفرنسي ينقل ذلك إلى قرائه أيضاً.

ومنذ إنشاء مدرسة الآداب العليا وتنظيم المدارس الشرعية الثلاث أخذت الترجمة من العربية الأدبية إلى الفرنسية تزداد وتتوسع. ومن أبرز المساهمين في هذا المجال ابن سديرة وابن أبي شنب ومحمد صوالح وإسماعيل حامد. وسيكون من الصعب الإحاطة بأعمال هؤلاء. ولذلك نكتفي بهذا التنويه العام مع ذكر النماذج التالية:

1 ـ حياة أبي دلامة (رسالة دكتوراه) 1922، لابن أبي شنب. وله أيضاً في الأدب الشعبي قصيدة محمد بن إسماعيل في حرب القرم، وقد نشرها في المجلة الأفريقية، ومجموع في أمثال العوام بالجزائر، نشرها في باريس، 1905 ـ 1907، وآثار ابن مسايب والتريكي.

2 ـ حياة إبراهيم بن سهل، تأليف محمد صوالح، 1914، 200 صفحة. وله أيضاً شعر في رثاء الأندلس، في نفس العام، 144 صفحة.

3 ـ ترجمة السمرقندية في البلاغة، لعبد الرزاق الأشرف، 1905، 37 صفحة.

4 ـ العروض عند العرب، باريس 1907، 406 صفحات، لابن إبراهيم (؟)، وكذلك الدوائر العروضية أو علم العروض، باريس 1902 له

أيضاً. وهو في 44 صفحة. ولكن اسم إبراهيم غير كامل، ولا ندري الآن هويته بالضبط.

5 ـ حكايات وتقاليد وأشعار فقيق، للهاشمي بن محمد، نشرتها نشرة جمعية وهران، 1907 ص 243 ـ 278.

وفي وقت لاحق، أي بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت أسماء جديدة تترجم الأدب الفصيح والشعبي إلى الفرنسية أيضاً. ومنهم محمد زروقي الذي ساهم في مجلة البحر الأبيض ابتداء من 1949، فتناول موضوعات مختلفة كحياة جحا، والشعر، والضحك. كما ظهر اسم بشير مسيخ الذي ترجم قصة لمحمود تيمور، وقصيدة الصيد التي نشرها نورالدين عبد القادر.

د ـ **في المجال التاريخي**: ترجم الجزائريون عدداً من النصوص التاريخية والجغرافية والتراجم. ولكن الهدف منها هو خدمة اللغة الفرنسية فقط. ومن ذلك:

1 ـ رحلة أبي سالم العياشي. نشر القسم الأول منها أحمد بن بريهمات، وهو من المترجمين العسكريين. وهذا هو الجزء الذي يغطي الرحلة من درعة إلى ورقلة ونشره في نشرة جمعية وهران[1]. وفي 1899 وجدنا عبد الرزاق الأشرف يراجع عملاً لأحمد بن بريهمات في نفس الموضوع أيضاً. ولا ندري هل هو نفسه[2].

2 ـ السودان في القرن 16 م، ترجمة محمد بن رحال. وقد قام بترجمة النص من كتاب نزهة الحادي للأفراني، ونشره في نشرة جمعية وهران 1887، ص 320 ـ 331. وكان ذلك أثناء اهتمام الفرنسيين بالصحراء. وكان ابن رحال صديقاً لنائب الكولون والوزير، يوجين إيتيان المكلف بالمستعمرات.

---

(1) نشرة الجمعية الجغرافية لمنطقة وهران رقم 7، 1880، ص 330 ـ 334.

(2) انظر المجلة الافريقية، 1899، ص 295 ـ 296. عن أحمد بن بريهمات انظر لاحقاً.

3 ـ نور الألباب، تأليف الشيخ عثمان بن دان فوديو. وقد ترجمه إسماعيل حامد. ونشر ذلك في المجلة الأفريقية، على حلقتين 1897 ـ 1898. كما نشر إسماعيل حامد أعمالاً أخرى تتصل بالتاريخ، وترجم منها نصوصاً عديدة في بحوثه عن غرب أفريقية والسودان وموريطانيا. انظر ترجمتنا له. ولإسماعيل حامد منشورات أيضاً بعنوان (حوليات موريطانية ـ سينيغالية) ومن ضمنها كتاب الأنساب، وسيرة ناصر الدين للديماني، وشيم الزوايا لمحمد السعيد اليدالي.

4 ـ هناك كتب أخرى في التاريخ وضعها جزائريون بالاشتراك مع الفرنسيين أو نشروا نصوصها من مخطوطات قديمة. وقد ذكرنا من قبل بغية الرواد ليحيى بن خلدون وروضة النسرين لابن الأحمر، ونضيف هنا رحلة الرؤساء العرب إلى فرنسا، وهو نص قصير وضعه محمد الفكون[1].

5 ـ قام محمد الحاج صادق بترجمة الجزء الخاص بالمغرب العربي، من رحلة الورتلاني، ونشر ذلك في المجلة الأفريقية، واستفاد منه المستشرقون الفرنسيون[2].

هـ ـ في الاجتماعيات: كثيرة هي الأعمال التي تتعلق بالحياة الاجتماعية كالتعليم والمرأة، وعادات الصوم والأعياد والأفراح، والألعاب والأحزان، وعودة الحجاج، وما إلى ذلك. وكان الجزائريون يكتبون للفرنسيين عن ذلك بلغتهم ليعرفوهم بأهلهم وعاداتهم: إما دفاعاً عن النفس أو دعوة للتغيير. ومن ذلك ما نشره ابن أبي شنب من نصوص حول التعليم عند المسلمين[3]، وقصيدة محمد بن إسماعيل في حرب القرم، وما نشره

---

(1) وترجمه إلى الفرنسية السيد قورليو، 1902، في 28 صفحة.

(2) والواقع أن الحاج صادق كان متمكناً من اللغتين، ورغم ذلك لا نعرف أنه ترجم من الفرنسية إلى العربية خلال مرحلتنا. وقد نشر عدة أعمال مفيدة مثل التعريف بآثار ابن عمار.

(3) المجلة الافريقية، 1897، ص 268 ـ 285. وكذلك نفس المصدر، 1901، ص 102.

محمد صوالح عن قصيدة مصطفى الثابتي في مشاركة الجزائريين في الحرب العالمية، وكلتا القصيدتين من الأدب الشعبي. يضاف إلى ذلك ترجمة بعض الأشعار والأغاني الزواوية من قبل عمر بوليفة في موضوعات مختلفة[1].

* * *

الترجمة إلى العربية

لم تكن الترجمة من الفرنسية إلى العربية هدفاً للفرنسيين. ولذلك عملوا كل ما في وسعهم على تعلم العربية الدارجة ثم الفصيحة، والترجمة منها إلى الفرنسية. فنَقْلُ التراث الشفوي والمكتوب على يد التراجمة العسكريين والعموميين في البداية وعلى يد المستشرقين في مرحلة لاحقة كان هو الهدف. ذلك أن اللغة الفرنسية كانت هي المقصودة بالإثراء والانتشار، لأنها لغة الإدارة الجديدة والمحاكم والسيادة، كما قالوا.

ولكن هذا لا يعني أن الفرنسيين لم يوصلوا بعض معارفهم ومقاصدهم بلغتهم إلى الجزائريين أحياناً. ونقول «البعض» و «أحياناً»، لأن ما ترجم من الفرنسية إلى العربية وما حرص عليه الفرنسيون حتى يصل إلى الجزائريين هو نوع معين من المعارف، أي القرارات الرسمية، والإجراءات الصحية، والنصائح المتعلقة بالفلاحة وتربية الحيوانات، والأخبار الدعائية المضادة لإشاعات محلية أو واردة من المشرق، والترغيب في تعلم اللغة الفرنسية وعلومها. وإذا تأملنا في نوعية هذه الأخبار فإننا نجدها كلها تخدم المصالح الاستعمارية وتذيع فكرة التبعية والتعلق بفرنسا وثقافتها.

بدأت الترجمة إلى العربية في البيان الذي وزعه الفرنسيون على الجزائريين عشية الحملة والذي تعاون عليه بعض المستشرقين، منهم دي

---

(1) انظر الجزء الثامن، فصل الشعر.

ساسي والقس السوري شارل زكار. وربما كان البيان هو أول ما قرأ الجزائريون بحروف المطبعة. ولم يكن في الجزائر صحافة قبل الاحتلال. ولذلك بدأت أول جريدة رسمية وهي (المونيتور الجزائري)[1] في نشر إعلانات وأوامر رسمية صادرة عن إدارة الاحتلال بحروف عربية (ولا نقول بلغة عربية) لا يكاد معناها يفهمه أحد. وكانت قرارات الحكام العامين تصدر كلها بالفرنسية، ثم يترجم منها في السنوات الأولى ما يهم المسلمين مباشرة كمصادرة الأوقاف والأمر بطرد الأعيان ونحو ذلك. وكان قرار بوجو بطرد المفتي* مصطفى الكبابطي قد ترجم إلى العربية وعلق على جدار الجامع الكبير بالعاصمة. كما علق الفرنسيون على الجدران نسخاً من فتوى علماء المسلمين التي حصل عليها ليون روش سنة 1842.

كل ذلك كان قبل صدور جريدة المبشر سنة 1847. ونحن وإن كنا درسنا هذه الجريدة في فصل المنشآت الثقافية فإننا نقول هنا انها الجريدة الوحيدة التي أصبحت مدرسة في توصيل المعلومات للجزائريين لأنها صدرت باللغتين العربية والفرنسية. وكانت النسخة العربية عادة مترجمة عن النسخة الفرنسية، ولكن تظهر في النسخة العربية أحياناً مقالات موضوعة أو ترجمات من أعمال فرنسية أخرى غير الواردة في القسم الفرنسي. تولى إدارة المبشر عدد من المترجمين العسكريين والمستشرقين الفرنسيين. وكان جميعهم يحسن العربية الدارجة والفصيحة، ولذلك كانوا يسهرون على القسم العربي كما يسهرون على القسم الفرنسي.

وكان القسم العربي يضم أيضاً مجموعة من الجزائريين المزدوجي اللغة أو الذين يحسنون الترجمة إلى العربية، بالإضافة إلى وجود عناصر كانت تكتب أحياناً مقالات بالعربية مباشرة بإيعاز من السلطة الفرنسية، مثل زيارة نابليون الثالث للجزائر، وترغيب الجزائريين في التعلم بالفرنسية،

---

(1) ظهرت في يناير 1832، أثناء إدارة الدوق دو روفيقو. كانت بالفرنسية، ثم بدأت تنشر صفحة بالعربية المكسرة جداً. انظر فقرة الصحافة.

وإزالة المخاوف المتصلة بمرسوم الملكية الفردية للأرض سنة 1863، الخ.

كانت المبشر تخاطب المتعلمين والأعيان، ولا تخاطب العامة لأنها غير قارئة. وكانت في البداية ترسل إلى القضاة والموظفين عامة مجاناً، ثم فرضت الإدارة الاشتراك فيها على جميع المتوظفين عندها. فالقضاة والقياد والأغوات والمعلمون ورجال الديانة كانت تأتيهم بدون استئذان.

وكانت تؤثر فيهم ليس فقط بالمقالات المترجمة عن الفرنسية، كما سنرى، ولكن باختيار النصوص من الأدب العربي أو من الكتب المؤلفة حديثاً كالرحلات والآراء حول الحضارة الأوروبية والأديان. فإذا تحدثت عن العلم في عصر المأمون في بغداد أو في عهد عبد الرحمن الناصر بالأندلس، فإنما كانت تتحدث عن ترغيب الجزائريين في تعلمه الآن من اللغة الفرنسية لأن العقل العربي قد تخلف وتخلفت معه اللغة. وإذا أشادت الجريدة بمحمد علي باشا وبابنه إبراهيم باشا فلأنهما ربطا علاقات علمية (وسياسية) مع فرنسا، وإذا نقلت عن رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي فإنما ذلك لأن الاثنين كانا من المعجبين بالتقدم الفرنسي والنظام الدستوري والعلوم في أوروبا[1].

من أبرز الأسماء الجزائرية التي ظهرت في المبشر: علي بن عمر، وعلي بن سماية، وأحمد البدوي، والحفناوي بن الشيخ (أبو القاسم الحفناوي)، ومحمد بن مصطفى (خوجة)، ومصطفى بن عبدالرحمن الشرشالي، ومحمود وليد الشيخ علي، وقدور بن باحوم، وعلي ولد الفكاي، ومحمد بوزار، ومحمد بن بلقاسم[2]. بعض هؤلاء له أثر معروف فيها من ترجمة وغيرها، مثل أحمد البدوي، وعلي بن عمر. وبعضهم عمل فيها طويلاً ولكن لا ندري هل كان عمله هو التصحيح والترجمة أيضاً دون

(1) نشرت المبشر (أقوم المسالك) لخير الدين باشا التونسي في حلقات ابتداء من أول أكتوبر 1868، أي على إثر صدوره.

(2) فيليب دي طرازي (الصحافة العربية)، جـ 1/51.

وضع اسمه، مثل الحفناوي بن الشيخ الذي عمل طويلاً مع شيخه الفرنسي آرنو، وكان الحفناوي متمكناً في اللغة العربية وفي الفرنسية أيضاً. وكان علي بن سماية أديباً وأستاذاً ماهراً ولكن اسمه لا يظهر كثيراً في الجريدة، ومثله محمد بن مصطفى خوجة صاحب عدة مؤلفات بالعربية[1].

ونريد الآن أن نترجم لبعض الذين ساهموا في المبشر في ميدان الترجمة العربية. ونخص بالذكر أحمد البدوي، وعلي بن عمر وأحمد الفكون.

1 ـ أحمد البدوي: هناك قدر مشترك بين هذا الرجل (أحمد البدوي أو البداوي) وبين قدور بن رويلة وأحمد الشريف الزهار والحاج محمد الملياني، من جهة، وعمر بن قدور وعمر راسم من جهة أخرى. لا نستطيع أن نحدد الآن هذا القدر المشترك بين هؤلاء الرجال الذين عاشوا ظروفاً مأساوية كاد ينساهم فيها الزمان والإنسان. ومع ذلك تركوا بصماتهم على تاريخ بلادهم، كل في مجاله. أحمد البدوي كان فتى عند احتلال الأعداء لوطنه. ولد في مدينة الجزائر أوائل القرن الماضي (قد يكون 1810 ـ 1815) وحضر دروس كبار علماء الوقت أمثال محمد بن الشاهد ومصطفى الكبابطي وعلي المانجلاتي وحمودة المقايسي. وكان الجامع الكبير ومدرسته ومدرسة القشاش هي مصابيح الظلام عندئذ. فتلقي معلومات قوية في الأدب والفقه والإنشاء، بالإضافة إلى القرآن الكريم.

وعند الاحتلال خرجت أفواج الجزائريين من المدينة وتفرقوا في المدن المجاورة لاجئين عند الأقارب ظناً منهم أن العدو سيغادر المدينة. ولكنه لم يغادرها، وسقطت الحكومة المركزية وتداعت بقية أطراف الدولة وانقطعت السبل بمن كان خارج المدينة، واستحوذ العدو على أملاك الغائبين وصادرها

---

(1) نحن نرجح أن يكون محمد بن مصطفى هو نفسه المسمى أحياناً مصطفى خوجة، وأحياناً مصطفى الكمال، والمضربة، الخ. كما نرجح أن يكون محمود وليد الشيخ علي هو ابن المفتي علي بن عبد القادر بن الأمين. انظر عنه التاريخ الثقافي، جـ 2.

تحت عنوان «الثقاف». ويقول فيرو في ترجمته المختصرة لأحمد البدوي إنه وجد نفسه محاصراً في مليانة من قبل قوات الأمير، وليس له سبيل للرجوع إلى مدينة الجزائر، ونحن نرجح أن خروجه إلى هناك كان مع أهله على غرار ما فعلت عائلات جزائرية أخرى مثل علي بن الحفاف، وأحمد الشريف الزهار، وقدور بن رويلة. ومهما كان الأمر فإن أحمد البدوي قد دخل في خدمة الأمير وأصبح أحد كتابه المعروفين، لأن البدوي تميز منذ صغره بحسن الإنشاء والتحرير وقوة الحفظ وجودة الخط. وكان الأمير كما يقول فيرو، يترك البدوي لخلفائه إذا خرج هو في إحدى الغزوات. ولذلك عمل أحمد البدوي كاتباً لكل من محمد بن عيسى البركاني، ومحمد بن علال، وأحمد الطيب بن سالم، ومحمد البوحميدي والمولود بن عراش. ثـم طلبه أحمد بن سالم شخصياً من الأمير، فأصبح من كتابه المقربين فترة طويلة. وجميع المذكورين كانوا خلفاء للأمير في مختلف الولايات التي أنشأها، عدا ابن عراش الذي كان وزيره للخارجية.

هل بقي أحمد البدوي مع أحمد بن سالم إلى نهاية مقاومته في ربيع 1847؟ يفهم من ترجمة فيرو له أن البدوي رجع إلى مدينة الجزائر قبل هذا التاريخ، فهل «هرب من عنده؟» لا دليل على ذلك. وإذا لم يهرب فلماذا يغادره إذن والمقاومة مستمرة؟ إن فيرو لا يذكر سوى شيء واحد وهو أن أحمد بن سالم قد مني بهزيمة فتركه أحمد البدوي بعدها ورجع إلى الجزائر، والتحق بالحملات الفرنسية. ويقول فيرو إن البدوي قد حضر حملة الفرنسيين ضد قبيلة فليسة، ثم حضر معركة ايسلي 1844 التي كانت بين المغاربة والفرنسيين. وهذه كانت قبل نهاية مقاومة أحمد بن سالم طبعاً. أما الحملات الفرنسية الأخرى التي حضرها أحمد البدوي، حسب فيرو، فهي حملة المارشال بوجو نواحي بجاية 1845، وحملة المارشال راندون في البابور 1853، ثم في جرجرة 1854 ـ 1857. ونحن نفهم أن أحمد البدوي لم يكن عسكرياً لا أثناء غزوات الأمير ولا أثناء الحملات الفرنسية، إنما كان خوجة أو كاتباً للتقارير والرسائل والمحاضر، في كلتا الحالتين.

في اليوم الذي رجع فيه البدوي إلى الجزائر استدعاه العقيد (دوماس)، مدير إدارة الشؤون العربية في حكومة بيجو وقدمه إلى هذا الحاكم. وكان المترجم الرئيسي عندئذ في الإدارة المذكورة هو ليون روش. ولعله كان قد عرف أحمد البدوي من قبل. فأعطاه المارشال بوجو إلى روش فأخذ يستصحبه معه كلما خرج في حملة مع الجيش، وكان ثالثهما هو المترجم الآخر شوصبوا الذي قلنا إنه كان دنماركي الأصل، وأخذ الجنسية الفرنسية[1]. وكانت جريدة المبشر تابعة أيضاً إلى إدارة الشؤون الأهلية. وكان البارون دي سلان المشرف على هذه الجريدة عندئذ، في حاجة إلى محررين بالعربية، فألحق به أحمد البدوي. ومنذئذ خرج البدوي من الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية، ولا ندري متى كان ذلك بالضبط، ولكن يبدو أنه كان في نهاية الخمسينات. فقد وجدنا أحمد البدوي معيناً ضمن اللجنة التي عهد إليها بترجمة الأحكام والنصوص القضائية، مع حسن بريهمات وحميدة العمالي سنة 1859. وفي 20 يناير 1860 عينه المدعي العام عضواً في لجنة إعادة تنظيم القضاء الإسلامي[2].

هناك إذن مجالان أصبح أحمد البدوي يعمل فيهما مع النخبة القضائية والصحفية في الجزائر. والترجمة من الفرنسية إلى العربية كانت مقتصرة تقريباً على هذه النخبة. وقد ظهرت عندئذ كتابات في القضاء بالعربية مجهولة المؤلف والمترجم. ونحن نرجح أن يكون بعضها على الأقل من أثر أو تأثير أحمد البدوي. أما الصحافة، وهي موضوعنا الآن، فإن أحمد البدوي قد ساهم فيها بمقالات موضوعة وأخرى مترجمة. ويقول السيد فيرو إن البدوي بحكم مهنته كان مطلعاً على أسرار الإدارة، وأنه كان ذا موهبة خاصة في التحرير وأن له فكراً حياً. وقد عرفه فيرو عن كثب بعد أن أصبح هو (فيرو) كبير المترجمين أو باش مترجم، بالإدارة الفرنسية في الجزائر. وقد أخبرنا

---

(1) انظر عنه سابقاً.

(2) رسالة بخط برينييه ضمن وثائق شارل فيرو، كما صنفها ونشرها أوغست كور، المجلة الافريقية، 1914، ص 108.

محمد الصالح العنتري، صديق فيرو أيضاً، أن البدوي كان كاتباً عند فيرو سنة 1876[1]. ومدح فيرو أحمد البدوي بكونه قد أعطى لجريدة المبشر دفعاً قوياً بقدرته على التحرير، وبمقالاته الجذابة وبمهارته في عدم المساس بالمشاعر الدينية والعرقية للناس الذين يكتب لهم (؟) وقال إنه جلب الجزائريين إلى هذه الجريدة التي أنشئت «لنقل الحضارة الفرنسية إلى الأهالي». وقد أوصى له بالتعويض الشرفي على خدماته، لاستحقاقه ذلك منذ أمد بعيد، حسب قوله[2]. ونحن لا ندري كيف انتهت حياة أحمد البدوي، هل كوفيء فعلاً على خدماته؟ وهل انتهى نهاية مأساوية شأن أمثاله الذين ذكرنا بعضهم، عمر بن قدور وعمر راسم؟ إننا لا ندري الآن أين قرأنا أن أحمد البدوي كان من المتحمسين لثورة (كومون) باريس 1870، وأنه أراد أن يكون للجزائر أيضاً ثورتها أو (كومونها).

لم تكن المبشر تنشر أسماء الكتاب والمترجمين إلا نادراً. ولذلك كانت معظم ترجمات أحمد البدوي مغفلة الاسم. ولا ندري متى بدأ في النشر فيها بالضبط، ولا الفرق بين المترجم والموضوع الذي ساهم به. ولم يساعدنا فيرو فيذكر التاريخ الحقيقي لالتحاق أحمد البدوي بجريدة المبشر. ذلك أن أول مقالة نشرها باسمه فيها كانت في 2 مايو 1865 أثناء زيارة نابليون الثالث للجزائر، وهي مقالة موضوعة ومزوقة إلى حد ما، متأثرة بالأسلوب العربي القديم، ولكنها حية بتحريك العبارات والألفاظ فيها. والمقالة في مدح نابليون ومرتبطة بالمناسبة. وقد ظل يكتب في الجريدة ويترجم من الفرنسية إلى العربية من 1865 إلى 1876 حين أخبرنا فيرو أنه ما يزال يعمل بالجريدة. ومن مترجماته قصة غرامية تاريخية ألفها أحد الفرنسيين

---

(1) رسالة العنتري إلى فيرو، من قسنطينة. وقد نشرناها في كتابنا (أبحاث وآراء) جـ 3، فارجع إليه.

(2) فيرو (مترجمو الجيش الإفريقي)، مرجع سابق، ص 399 ـ 400. وقد صدر هذا الكتاب سنة 1876، أي أن أحمد البدوي كان ما يزال إلى هذا العهد في مهنة الصحافة والكتابة.

ونشرت في القسم الفرنسي من الجريدة على حلقات. وعنوانها (حكاية غونزالف القرطبي). وقد نشرت هذه القصة في أكثر من عشر حلقات ابتداء من 1867. ويبدو أنه قد شاركه في ترجمتها أيضاً زميله علي بن عمر الذي سيأتي الحديث عنه، ذلك أن اسميهما واردان في الترجمة ولكن في حلقات مختلفة[1].

هل هو الذي اختار ترجمة القصة؟ وما الهدف منها؟ إن موضوعها يتعلق بالأندلس وليس فرنسا. وهو موضوع تاريخي لأن اسم قرطبة وسليمى (بطلة القصة) واسم فاس وحياة الأندلس عندها طعم خاص وذكرى وشجون لكل عربي/ ومسلم في الجزائر. ولكن البطل (غونزالف) الأسباني - المسيحي زعيم الاسترداد هو القوي وسليمى تمثل الأندلس المنهارة التي يقع غونزالف في حبها. من الجانب الفرنسي هناك تشابه بين قوة فرنسا بجنرالاتها والجزائر، وهي سليمى الجديدة. وفي كلتا الحالتين نجد الغرب المسيحي هو المنتصر والعربي المسلم هو المنهزم. ألا يصلح هذا أن يكون إطاراً تاريخياً شيقاً في أذهان القائمين على جريدة المبشر؟. إننا نعتقد أن الاختيار كان للإدارة التي نشرت النص الفرنسي أيضاً. ومع ذلك فلا نرفض أن يكون اختيار الترجمة من قبل البدوي نفسه لأن القصة، مع ذلك، فيها عبرة للمعتبرين، وفيها لذة في القراءة ومتعة من التاريخ.

ولو رجع المرء إلى مختلف أعداد المبشر واستطاع معرفة ما ترجم أحمد البدوي فيها ولو كان غفلاً من الاسم، وصنف ما ترجمه، لاستطاع أن يخرج من ذلك بصورة واضحة عن مساهمته في هذا الميدان. إن رجلاً في ثقافة أحمد البدوي العربية ومعرفته الفرنسية بالقدر الذي يستطيع به نقل معارفها إلى العربية هو الذي كانت الجزائر في حاجة إليه عندئذ. رجل مزدوج اللغة، ولكن في فائدة لغته لا لغة عدوه، رجل ينقل للجزائريين آداب

---

(1) رسالة الباحث إبراهيم الونيسي حول جريدة المبشر. وقد نقل إلي مشكوراً طرفاً من القصة ومقالة البدوي عن نابليون، بتاريخ 27 نوفمبر 1988. الحلقة الأولى من الحكاية نشرت في عدد 7نوفمبر 1867 من المبشر.

وعلوم الفرنسيين لكي يَتَغَذُّوا منها وينتعشوا وينطلقوا كأجدادهم في مجال الإبداع والمنافسة الحضارية. ولكن أين ذلك في عهد حَكَم أصحابه، منذ أول وهلة، بأن يفرنسوا الجزائر ويربطوها بعجلة الاندماج الحضاري، أي الذوبان والإمحاء؟.

2 ـ علي بن عمر: إذا كنا نعرف شيئاً عن حياة أحمد البدوي الأولى وثقافته، فإننا لا نعرف شيئاً عن حياة علي بن عمر حتى كدنا نقول عنه إنه شخص رمزي أو اسم مستعار. كيف أصبح صحفياً؟ وكيف تعلم العربية والفرنسية؟ وما زمان ومكان مولده؟ إن هناك اسماء كثيرة تبدأ بعلي. وهناك ابن علي، وابن الشيخ علي، ولكن ليس هناك علي بن عمر على حد علمنا[1]. فإذا كان فإنه يكون من الجيل الأول الذي نشأ في العهد الاستعماري.

ظهر اسمه في المبشر أواخر الستينات، وكانت الموضوعات التي عالجها ذات طابع علمي في أغلبها. فله مقالة مترجمة بعنوان الشمس الثابتة، برهن فيها على ثبوت الشمس وحركية الأرض مدعماً ذلك برسم توضيحي. ولا شك أن ذلك كان اهتماماً أوروبياً أكثر منه إسلامياً. وقد انتقد في مقاله ما كان يشاع من أن الأرض هي محور النجوم والكواكب الأخرى كالشمس وأن كل الأجرام تدور حول الأرض وهي ثابتة. وفي مقالة أخرى له كرر نفس المعلومات بأسلوب آخر وبيّن حركات النجوم وتقدير المسافات بينها وبين الشمس[2]. وكان المسلمون قد برعوا في علم الفلك وتعديل الكواكب أو تحريكها، كما يقول ابن حمادوش. ومن الواضح أن ابن عمر كان يترجم عن نصوص فرنسية وأن المادة كلها من إعداد إدارة الجريدة وتحت إشرافها.

ومما ترجمه علي بن عمر مقالة بعنوان (تاريخ الافريقية فيما يتعلق

---

(1) هناك علي بن عمر، صاحب زاوية طولقة، وهو من المتصوفين ولا علاقة له بالجريدة.

(2) المبشر، 23 ديسمبر 1869 و 31من نفس الشهر والسنة.

بالنباتات)[1] وهو تعريب لبحث طويل كتبه فريدريك لاكروا بعنوان (أفريقية القديمة: الإنتاج النباتي) ونشره في المجلة الجزائرية. وكان هدف المبشر من تعريب هذا البحث إفادة المزارعين الجزائريين بما كان في بلادهم وما حولها من إنتاج نباتي وما يمكن أن يقوموا به هم في العهد الجديد. فالأرض خصبة والفرنسيون يريدون الحصول منها على أكبر قدر من الإنتاج المتنوع.

وفي الميدان الأدبي نجد علي بن عمر يترجم مقالات خفيفة وحكايات للتسلية والعبرة. من ذلك مشاركته في ترجمة حكاية غونزالف القرطبي مع أحمد البدوي. وقد أشرنا إلى ذلك. وقد نشر حكايات أخرى بالعربية والفرنسية مثل حكاية الأعرابي الذي فقد حصانه[2]. وكان اسمه (ابن عمر) يظهر أيضاً في القسم الفرنسي. وله سلسلة من المقالات بعنوان (مخالطة الباباوات مع عرب أفريقية في الأجيال المتوسطة) ومن الأكيد أن ذلك كان من اختيار الجريدة لأن الموضوع هو التاريخ الديني. والمقصود «بالمخالطة» هو العلاقات. وله ترجمات أخرى في التجارة ونحوها.

تاريخ ظهور اسمه في الجريدة يرجع إلى سنة 1867. ولا ندري كم استمر بعد 1869 أو بداية 1870. فقد تغيرت أحوال الجزائر بعد ظهور الجمهورية الثالثة. هذا إذا كان اسم علي بن عمر اسماً تاريخياً[3]. وبذلك تكون مساهمته في الترجمة مساهمة كبيرة سيما في الميدان العلمي.

3 ـ **أحمد الفكون**: الشخص الحقيقي الذي ترجم عن الفرنسية وأفاد العربية في تلك الأثناء، ابتداء من الستينات من القرن الماضي، هو أحمد الفكون (ابن الفقون). فعائلته قسنطينية معروفة. ولها تاريخ حافل في خدمة الإسلام واللغة العربية. وقد قتل أحد أجداده العلماء في جامع الزيتونة بتونس من قبل جيش شارلكان. وكانت في عائلته مشيخة الإسلام وإمارة ركب الحاج

---

(1) نفس المصدر، 11 فبراير 1869. وبحث إبراهيم الونيسي.

(2) نفس المصدر، 25 فبراير 1869.

(3) لاحظ أن فيرو لم يذكره في المترجمين العسكريين. ولم نعرف من ترجم له.

إلى مكة المكرمة إلى الاحتلال الفرنسي. وإظهاراً للتناقض الصارخ كان أحمد الفكون من أوائل من منحتهم فرنسا جنسيتها بعد إنشائها، سنة 1866.

ولد أحمد الفكون في قسنطينة في 12 فبراير 1829. وكان عمره ثماني سنوات عند احتلال مدينته المروع الذي تهدمت فيه الدور وطارت فيه الرؤوس وسقطت خلاله العشرات في مهاوي وادي الرمال. وكان جده محمد الفكون، شيخاً للإسلام في البلاد وحامي حمى المدينة، وكان طاعناً في السن حتى حمل على كرسي لمقابلة المارشال فاليه عند كدية عاتي. وجلباً للسكان وتسكيناً للخواطر واتباعاً للسياسة الماهرة، عين فاليه حمودة الفكون بن شيخ الإسلام، شيخاً للمدينة. وكان طبعاً تعييناً مؤقتاً حتى يسيطر الفرنسيون على مقاليد البلاد وتهدأ الخواطر، كما قلنا. فمن هو الطفل أحمد الفكون؟ هل هو ابن حمودة؟ أو هو فقط من العائلة؟.

تعلم أحمد على مشائخ المدينة على الطريقة القديمة، وكان أمثاله في سنه يحفظون القرآن ويعرفون مبادىء العلوم والدين. ثم يتحلقون حول دروس المساجد ويطالعون الكتب، وقد يسافرون إلى الزوايا البعيدة أو يذهبون إلى جامع الزيتونة لاستكمال الدراسة. ونحن لا نعرف كيف أكمل أحمد هذه الدورة التعليمية ولا كيف تعلم اللغة الفرنسية. والغالب على الظن أن أهله قد أدخلوه إلى المدرسة العربية ـ الفرنسية التي أنشت منذ 1850. ولعله حضر دروس المستشرق شيربونو في الفرنسية، ومهما كان الأمر فإن لغته العربية كانت أقوى من الفرنسية، وتدل على ذلك ترجماته. ومن حيث الوظيفة نعرف أن أحمد الفكون أصبح مترجماً عسكرياً، وهي وظيفة يدخلها أصحابها بمسابقة ويتدرجون فيها بين ثلاث طبقات. ولكن يبقون، كمسلمين، مترجمين احتياطيين فقط. ولا ندري ما الذي حمل أحمد الفكون على طلب الجنسية الفرنسية سنة 1866، هل يرجع ذلك إلى عدم تقديره لخطورة التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية والدخول تحت طائلة القانون الفرنسي؟ أو يرجع إلى عوامل أخرى نجهلها كالزواج المختلط أو الخلاف العائلي؟.

لقد نشرت جريدة المبشر في آخر سنة 1866 خبرا تزفه إلى قرائها وهو «تطبيقاً لما ورد في الفصل 1، 2، 3، 4 من قانون 13 جويليه 1865، دخل في الحرم والحقوق الجارية على الفرنسيين السيد: أحمد بن اللفقون (كذا) ترجمان عسكري، ولد في قسنطينة في 12 فيفري، 1829، ويقطن في هذا الوقت في باتنة»[1]. ونحن نقول تزف إليهم الخبر لأنه من النادر جداً أن طلب الجزائريون التجنس بالجنسية الفرنسية. ونعرف من مصدر آخر أن أحمد الفكون قد أصبح ترجماناً عسكرياً منذ سنة 1850.

نشر أحمد الفكون ترجمات في الأدب والتاريخ. وموضوعها هو الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، وجغرافيتها هي الأندلس والمشرق وأفريقية. ولكنه عالج أيضاً الترجمة حول تاريخ فرنسا. أول ما نشر كان عن الأندلس. وهو تعريب قصة محمد السراج الأندلسي بعنوان طويل وهو (الجوهر الوهاج المنقوش في غرائب ابن السراج الأندلسي). وهي قصة في ثماني حلقات نشرها في جريدة المبشر[2]. والقصة تذكّر العرب والمسلمين بمجدهم الخالد وبطردهم الدموي. وتجعلهم يعتبرون من الاحتلال الفرنسي أيضاً.

ثم نشر الفكون قصة تاريخية عن جان دارك الفرنسية. ويظهر أنه كان مولعاً بالتاريخ وأحداثه وملامحه وعبره. فمن الأندلس إلى فرنسا. ومن حرب الهزيمة إلى حرب الانتصار. وهنا أيضاً هزيمة، ولكنها ترمز إلى النصر الآتي، لأن جان دارك كانت رمزاً لا حقيقة. (التاريخ المتدارك في أخبار جان دارك) ذلك هو عنوان القصة الجديدة التي نشرها الفكون في عدة

(1) المبشر، 27 ديمسبر 1866. وقانون 13 يوليو (جويليه)، 1865 هو المعروف بالمرسوم المشيخي (ستوس كونسلت) الذي فتح للجزائريين باب التجنس بالجنسية الفرنسية بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية من زواج وطلاق وتركات، ودفن... وهو ما رفضه الجزائريون، ورضوا بحالة الرعية التي تحفظ لهم دينهم وهويتهم رغم حرمانهم من الحقوق.

(2) ابتداء من العدد 22 أبريل 1864.

حلقات. وكان قد انتهى من ترجمتها سنة قبل ذلك، إذ جاء في آخرها بعد نشرها هذه العبارة «تمت الحكاية على يد مترجمها من الفرانسوية إلى العربية أحمد بن الفقون، الترجمان بالجيش الإفريقي بتاريخ 20 مارس 1866. وقد بدأ الفصل أو الحلقة الأولى بدون مقدمات: «لما توفي أحد ملوك فرنسة، وهو السلطان شارل السادس، خلف الملك غارقاً في بحر الألم الناحس» الخ... وانتقل بسرعة إلى الحديث عن جان دارك في أسلوب أدبي خيالي وتاريخي[1].

أما بالنسبة للتاريخ العربي فقد نشر أحمد الفكون ترجمة لدراسة كتبها أحد الفرنسيين وهو ليون قاليبير GALIBERT بعنوان (الحكم العربي في أفريقية). وقد ظهرت ترجمة الفكون هكذا: الخبر عن دولة العرب في أفريقية. وذلك في عدة حلقات أيضاً، ابتداء من 26 نوفمبر 1868. وكانت النسخة الفرنسية من الجريدة تنشر أيضاً النص الفرنسي. والفترة التي تغطيها الدراسة هي من ظهور الإسلام إلى سقوط الأندلس (622 ـ 1490 م)[2]. ولم نقارن نحن النصين لنعرف ما إذا كان الفكون يلخص الترجمة أو يورد النص كاملاً. كما لا نستطيع أن نتصور أنه قد يترجم شيئاً لا ترضى عنه الجريدة.

والذي يعنينا في الواقع هو نقل المعرفة إلى القارىء بالعربية في الصحيفة الوحيدة عندئذ. ولو أنصف الدهر لكان دور الفكون مثل دور رفاعة الطهطاوي في إثراء الثقافة العربية. والمعلومات التي أوردها الفكون موجودة في بطون الكتب المخطوطة وبعضها كان يطبع في المشرق أيضاً، ولكن قارىء الجريدة يحتاج إلى مادة منقولة إليه حيث كان وبأسلوب بسيط. وهذا ما فعله أحمد الفكون، وكان اختيار العناوين في حد ذاته فناً من الفنون، ويدل اختياره للعناوين على تغلب الذوق العربي عليه. انظرمثلاً إلى القصة

(1) المبشر ابتداء من 2 مايو 1867. وقد نشرت الحلقات بعد ذلك في كتيب على حدة.
(2) رأينا أعداد 7 و 14 يناير 1869 من المبشر وكان النص ما يزال متواصلاً فيها.

الأندلسية التي بدأها بعبارة (الجوهر الوهاج) وهو عنوان جذاب وعربي الرنين. وكذلك الخبر عن دولة العرب في أفريقية، كل كلمة فيه لها حساسية خاصة. ورغم ثقل اسم جان دارك على الأذن العربية فإن الفكون قدم له بالسجعة العربية (التاريخ المتدارك) ثم أكمل الاسم فأصبح موزوناً معه ومقبولاً.

ما مصير أحمد الفكون؟ وماذا ترجم أيضاً في المبشر غير ما ذكرنا؟ لا ندري بالضبط فنحن لم نتتبع كل أعماله ولا كل حياته. وجدير بالباحثين الآخرين أن يفعلوا ذلك بدلنا. ويذكر بيروني أن الفكون تقاعد سنة 1881. ولا ندري لماذا اختصر فيرو الحديث عنه سنة 1876 وقد مضى عليه 26 سنة مترجماً عسكرياً. وقد اكتفى بقوله عنه إنه ترجم ونشر بالعربية أعمالاً عديدة من الأدب الفرنسي. وذكر أيضاً أنه تجنس بالجنسية الفرنسية[1]. وفي سنة 1882 وجدنا الفكون يساهم في جريدة جديدة ظهرت بالعربية ويترجم لها، وهي جريدة (المنتخب) التي أسسها أحد الفرنسيين، وهو بول ايتيان، ولكنها لم تكن رسمية كجريدة المبشر. ومن المساهمين معه فيها حميدة بن باديس (ابن المكي، وجد عبد الحميد)، وكانت (المنتخب) متزعمة لحركة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين أو بعبارة أخرى تساند السياسة الإسلامية التي كان يتزعمها حميدة بن باديس إلى 1887 والذي أصبح المتكلم الرسمي باسم المسلمين في المجلس العمومي (C. G) أو مجلس الولاية. ويقول أحد الباحثين إن الأعضاء الآخرين في المجلس كانوا يوافقون ابن باديس آلياً. وكان ابن باديس يعارض التجنس بشدة، فهل كان أحمد الفكون من أعضاء المجلس أيضاً؟ أليس هو من المتجنسين؟ يفهم من هذا المصدر أن الفكون كان عضواً في المجلس أيضاً، ولكن أي تناقض سيكون بينه وبين حميدة بن باديس إذا تمسك الفكون بالجنسية الفرنسية[2].

---

(1) فيرو، مرجع سابق، ص 341. وأيضاً بيروني، مرجع سابق، ص 200. وقد تحدث بيروني عن «النياشين» التي نالها أحمد الفكون وعن تنقلاته في مختلف المدن أثناء الخدمة. ومنها قسنطينة وعنابة وباتنة ويبدو أنه لم يكن متفرغاً للمبشر.

(2) انظر كريستلو، المحاكم، مرجع سابق، ص 237 ـ 238.

4 ـ وأما الطاهر بن النقاد فحياته ما تزال مجهولة. وكان من مواليد قسنطينة أيضاً، وتعلم على أيدي علمائها الباقين بعد الاحتلال. وتولى بعض الوظائف للفرنسيين فيها، ثم انتقل إلى عدة مدن مجاورة، ومنها العين البيضاء. وقد توفي في بوسعادة سنة 1863. ويهمنا منه الآن أنه ترجم إلى العربية مجموعة من القصص (المحادثات). وكان من أوائل المساهمين في حركة الترجمة. ولكننا لا ندري كيف ولا أين تعلم الفرنسية. ولعله كان من المقربين لدى الضابط بواسوني والمستشرق شيربونو، وكلاهما عمل في قسنطنية واقترب من بعض عائلاتها.

* * *

هذا عن أوليات الترجمة من الفرنسية إلى العربية. وقد يكون مفيداً أن يتتبع الباحث تطور ذلك في العهود اللاحقة، سيما بعد أن أصبحت الازدواجية بارزة في خريجي المدارس الشرعية الثلاث وفي بعض خريجي مدرسة (كلية) الآداب. كما أن جريدة المبشر التي استمرت إلى سنة 1927 قد تطورت مع إدارة جديدة ومحررين جدد، أصحاب أقلام عربية وثقافة فرنسية من أمثال علي بن سماية والحفناوي بن الشيخ ومحمد بن مصطفى خوجة ومحمود كحول. وعند ظهور الصحف الوطنية بالعربية أو الصحف العربية المدعومة من قبل الإدارة الفرنسية أمثال جريدة (المغرب) و (كوكب افريقية)، فإن الترجمة أصبحت ضرورية. وأول لغة كان يجري النقل عنها هي الفرنسية. ولكن ليس من غرضنا هنا تتبع تاريخ الترجمة العربية وتصنيف مادتها وأصحابها، في كل المراحل.

ولنذكر أن أحدهم، ويدعى طيبال (Tibal) قد ترجم سنة 1880 قصة (بارب بلو أو اللحية الزرقاء). من تأليف بيرولت الفرنسي إلى العربية. وكان طيبال أستاذاً للغة العربية. وقد أعلنت جريدة (الأخبار) التي كانت تصدر بالفرنسية أن الترجمة كانت أمينة وحرفية، وأنها ستساعد التلاميذ في المدارس على تعلم العربية. ولاحظت أن القصة تذكر بعهد الطفولة. فمن هو

طيبال هذا؟ والمهم عندنا الآن هو النقل من الأدب الفرنسي إلى اللغة العربية[1].

وبعد عشر سنوات نشر مجدوب بن قلفاط ترجمة لقصص اختارها من الأدب الفرنسي، وجعل لها عنواناً هو (اختيار حكايات)، وقد ترجمها إلى العربية الدارجة. ونشرها في قسنطينة[2]. ويظهر أن الهدف منها تعليمي ـ تجاري وليس ثقافياً ما دامت الدارجة هي أداة التوصيل.

إن الترجمة من الفرنسية إلى العربية تحتاج إلى ثقافة واسعة باللغتين، ولا سيما اللغة العربية المنقول إليها. كما تحتاج إلى غيرة وطنية وإلى هدف محدد وهو خدمة اللغة المنقول إليها وأهلها. وذلك لا يكون بجهود فردية فقط، بل لا بد من دعم جماعي أو حكومي. وهو ما لم يتأت في الجزائر. فالجهود كلها كانت منصبة على النقل إلى الفرنسية وليس العربية، والثقافة العربية كانت وسيلة لخدمة الجهاز الفرنسي كله، وكانت الغيرة الوطنية غائبة عند معظم الذين تلقوا تعليماً مزدوجاً في العهد الفرنسي. وقد رأينا أن أفضل من آمن بالنقل إلى العربية عن الفرنسية قد تجنس وتخلى عن دينه وقومه. كما أن الجهود الجماعية والحكومية لخدمة الترجمة العربية كانت منعدمة.

وحتى في العهود المتأخرة من الاحتلال ظل الأمر كما كان. فالصحافة الوطنية كانت تكافح بنفسها في التوصل إلى الترجمات الضرورية، ولم تهتم بالترجمة الأدبية والعلمية والتاريخية. وكانت تكتفي بالمادة الخبرية. وقلما نجد قصة أو خبراً علمياً فيها مترجماً بانتظام ودراسة عن المعارف الفرنسية. لكن مجلة كالشهاب أو جريدة كالنجاح كانت من وقت لآخر تترجم عن الفرنسية مواد غير سياسية أو خبرية. أما الأخبار العلمية العالمية فتشترك فيها الصحف كالبصائر والبلاغ. والعهد الذي ظهرت فيه مجلة افريقية الشمالية

---

(1) الأخبار، عدد 17 فبراير و 19 مارس، 1880. وعنوان القصة أو Conte هو Barbe bleue واسم المؤلف Perrault.

(2) سنة 1890، 175صفحة. انظر نبذة عن حياته لاحقاً.

لإسماعيل العربي[1]، ومجلة (هنا الجزائر) التابعة للإذاعة الفرنسية عهد لا يعنينا هنا[2].

وبالنسبة للأدب فإن أحمد رضا حوحو يعتبر من رواد حركة الترجمة من الفرنسية إلى العربية، فقد تعلم العربية والفرنسية في الجزائر ثم سافر إلى الحجاز سنة 1935، واستكمل هناك ثقافته العربية، ولكنه برصيده في اللغة الفرنسية استطاع أن يطرق باب الترجمة عن أدباء فرنسا، أمثال فيكتور هوغو، وبودلير، وفولتير، وناصر الدين دينه، وغيرهم[3].

الاتجاه الاندماجي ـ الاستغرابي

أعلن الفرنسيون منذ البداية، على لسان قادتهم أن هدفهم هو «تمدين» الجزائريين «المتوحشين» أو نصف المتمدنين، وأن لهم رسالة حضارية يؤدونها ،وهي تتمثل في إحلال النظم الفرنسية محل النظم الإسلامية القائمة، وجعل اللغة الفرنسية هي لغة السيادة. ومن ثمة كان هدفهم هو الوصول إلى نقطة الاندماج حين يصبح المجتمع الجزائري مجتمعاً متفرنساً لغة وديناً ونظماً. وقد تضافرت الجهود لتحقيق هذا الهدف، فالعسكريون كانوا يحطمون المقاومة حيثما وجدت وفي جميع أشكالها. والمدنيون كانوا يحطمون النظم والمؤسسات القائمة من أوقاف وتعليم وقضاء وحتى المعالم كالمساجد والزوايا والجبانات، ومن جهتهم كان رجال الدين يسترجعون الكنيسة (الكاثوليكية) التي كانت قبل الإسلام، ويعملون على أن يتخلى

---

(1) ظهرت سنة 1948، ومن الترجمات التي ظهرت فيها لإسماعيل العربي: أنغام العود والمزهر (شعر) لفيكتور هوغو، وأنشودة الريح الغربية (شعر) لشيلي، وصفحات من التاريخ الدبلوماسي، الخ.

(2) من الذين ترجموا إلى العربية أيضاً في هذا العهد: المولود الطياب والطاهر البوشوشي. انظر حديثنا عن المجلات في فصل المنشآت الثقافية.

(3) انظر كتاب صالح خرفي (أحمد رضا حوحو في الحجاز)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991. وقد كتبنا عنه مراجعة نشرت في مجلة (المنهل) السعودية.

الناس عن دين محمد المزيف، كما يقول الأب بارجيس والأسقف بافي، وكان رجال الاستشراق والاستغراب يتعاونون على تحطيم اللغة العربية بإهمالها وإحياء العاميات واللهجات المحلية وتدريس كل ذلك باللغة الفرنسية وتربية الجزائريين المتصلين بهم على هذه الفكرة.

وقد تحدثنا حتى الآن عن الموقف من التعليم ومن المعالم الإسلامية وموقف الاستشراق من اللغة العربية واللهجات في فصول أخرى. أما الموقف من المقاومة فقد تناولناه في كتابنا الحركة الوطنية. ونريد الآن أن ندرس ظاهرة أخرى في هذا المخطط الاندماجي الفرنسي، وهي إنشاء نواة تكون هي الوسيلة إلى ذلك، ومن الممكن تسميتها بنواة الاستغراب والاندماج والتفرنس[1]. ونحن نعتبر ذلك من الفرنسيين أمراً طبيعياً. فكل أمة تحتل أمة أخرى تريد فرض سيطرتها بإلغاء النظم التي سبقتها وتعويضها بنظمها الخاصة، ومحاولة جعل الأمة المحتلة في مستوى الأمة الغازية، أو سحقها. وقد تكون هذه العملية بالجبر والقهر وقد تكون باللين واتخاذ القدوة دون تعسف. ومن الأمم من تلجأ إلى القهر ومعاملة المحتلين معاملة العبيد أو الأندجين. وقد اتبع الفرنسيون الطريقة الأخيرة.

فإلى جانب القهر العسكري الغاشم استعمل الفرنسيون أسلوب التبشيع لكل ما هو قائم قبلهم، وقد استَفْظَعُوا السلوك الديني واللغوي والأخلاقي والاجتماعي للجزائريين بالكلام والكتابة والمعاملة. واتبعوا طريقة الاحتقار والإهانة. وبالغوا في الاعتداء على الأملاك ومصادرة الأراضي، وهكذا جعلوا من أنفسهم مستبدين طغاة، فأصبح الجزائري المغلوب معهم يتمنى إزالة ملكهم وانقراض دولتهم. وكان هذا هو رأي السكان حتى الذين أجبرهم الفرنسيون أو أجبرتهم الظروف المعاشية على العمل في إطار إدارة الاحتلال.

---

(1) انظر مقالتنا عن «الاستيطان والاندماج في الجزائر» في مجلة (الندوة) الأردنية، عدد 2، المجلد 8، مايو، 1997.

وفي مقابل ذلك عمل الفرنسيون على إنشاء نواة تكون هي الوسيلة للفتنة الاجتماعية واللغوية، على أن تتولى هي المناداة بالاندماج والاستغراب في الوقت المناسب. وكانت المقاومة العنيفة والمعاملة الجماعية السيئة قد أخرت ظهور هذه النواة. فنحن لم نسمع بأصوات جزائرية تصرح بتقليد الفرنسيين إلا في الستينات من القرن الماضي، أي بعد جيل من الاحتلال[1]. وكانت هذه الأصوات خافتة في البداية. وكانت على لسان بعض الشيوخ الذين لم يدرسوا في المدارس الفرنسية أو الذين درسوا فيها ولكن حظهم من الثقافة العربية الإسلامية كان أقوى، وكانوا ما يزالون متحصنين. ولا ندري هل كان أولئك النفر القليل الذين ظهرت دعوتهم على صفحات جريدة المبشر الرسمية، هل كانوا يكتبون عن عقيدة وإيمان أو كانوا يكتبون مأجورين. والواقع أن أصوات هؤلاء كانت لا تخرج عن الدعوة إلى «العلم» وإلى تعلم الفرنسية باعتبارها لغة هذا العلم الجديد، والدعوة إلى تعلم التكنولوجيا الغربية (الفرنسية). وهذه الدعوة ليست جديدة في حد ذاتها، فقد دعا إليها بعض العلماء المسلمين حتى قبل الاحتلال الفرنسي، أمثال محمد بن العنابي في (السعي المحمود)[2]. ولم يكن عالم متنور مثل حمدان خوجة يعارض التعلم بالفرنسية ولا تعلم العلوم الحديثة من الأوروبيين. ولكن الذي عارضه، وعارضه الجزائريون معه هو الاحتلال والاعتداء على حرمات المساجد والبيوت والمكتبات والأراضي، وهو القهر والتسلط ثم تسمية كل ذلك رسالة حضارية فرنسية.

---

(1) من الذين انبهروا بالفرنسيين أول مرة أحمد بوضربة سنة 1830، وقد كان معاشراً للفرنسيين في مرسيليا قبل الاحتلال. ولكنه سرعان ما خاب أمله بعد أن تبين خطأه من حسن الظن بهم، رغم مؤهلاته كمتعلم بالفرنسية، ليلعب دور الوسيط. وقد انضم إلى الأمير عبدالقادر، ثم مات هو وعمه مصطفى في المنفى (طنجة). انظر عنه الحركة الوطنية جـ 1. وكنا قد جمعنا عنه ملفاً لنخصه بدراسة، ولكن الملف ضاع في أوراقنا سنة 1988 ضمن المحفظة المعروفة.

(2) انظر كتابنا (رائد التجديد الإسلامي) ط. 2.

قلنا إن القادة الفرنسيين الأوائل قد نفوا وعزلوا عنهم حتى أخلص الجزائريين إليهم، أولئك الذين انبهروا بهم وظنوا بهم خيراً، أمثال حمدان خوجة وأحمد بوضربة. ثم نفوا غيرهم أو سرحوهم إلى فرنسا للتأثير عليهم هناك والتخلص منهم في الجزائر، أمثال مصطفى بن عمر وحمدان بوركايب ومصطفى كريم. ولكن بعد الاستقرار النسبي أخذوا يسفّرون الأعيان من الجزائريين الموالين لهم ليزوروا فرنسا فترة معينة كالشهر، ثم يعيدونهم إلى الجزائر وإلى وظائفهم وعائلاتهم ليتحدثوا بالنعمة التي تمرغوا فيها والعجائب التي شاهدوها. ويستتبع ذلك بدون شك الأثر النفسي في أشخاصهم. وقد بدأت هذه العمليات الدورية منذ عهد كلوزيل الثاني، أي 1836. واستمرت وتضاعفت في عهود لاحقة حين أصبحت المناسبات الرسمية هي الدافعة إلى ذلك مثل أعياد جلوس الحكام، ومعارض باريس، والمناسبات القومية. وكان الإعلام الفرنسي يسمي هذه الزيارات المنظمة التعرف على «الكرم والسخاء» الفرنسي، الذي ينافس الكرم العربي

الزيارات المنظمة لباريس وفكرة المعهد العربي

وتحدثنا المصادر الفرنسية عن زيارة وفد من الأعيان ومن الأطفال أيضاً، إلى باريس سنة 1838. وقد استقبل الأعيان استقبالاً يليق بالكرم الفرنسي المتناسب مع الكرم العربي، حسب تعبيرهم. ومن الأعيان المشار إليهم أناس ربطوا مصيرهم بالسلطات المحتلة دون وعي تاريخي ولا يقظة دينية، ومنهم «الجنرال» مصطفى بن إسماعيل زعيم الدوائر والزمالة الذي كان قد رفض مبايعة الأمير عبد القادر وحارب في صفوف الفرنسيين ضده. وهو شيخ كبير السن وفارس مغوار قضى عمره في خدمة الحكم العثماني (المخزن). وقد ولاه الفرنسيون على تلمسان بعض الوقت قبل رجوعها إلى الأمير بمقتضى معاهدة التافنة. ومن زملائه في هذا «الميعاد» الحاتمي الفرنسي مصطفى بن المقلش، وهو أيضاً من أصحاب النفوذ في العهد العثماني وانضم إلى الفرنسيين. وقد رافقهما إلى فرنسا عدد آخر.

والمعروف أن الأمير عبد القادر أرسل، سنة 1838 وزير خارجيته المولود بن عراش إلى فرنسا لمقابلة الملك لويس فيليب، أثناء هدنة التافنة، وذهب معه وفد من حكومة الأمير[1]. وتقول المصادر الفرنسية «عندما يسمع الأهالي الحكايات والقصص العجيبة عن مشاهدات الأعيان في فرنسا فإن غيرهم من العرب سيطلبون الزيارة كذلك للاطلاع على هذا البلد الذي انتصر جيشه وحضارته عليهم»[2].

ومن جهة أخرى طلبت السلطات الفرنسية أن يرسل المخلصون لها من الجزائريين أبناءهم أيضاً إلى فرنسا لإحداث العدوى الحضارية ومشاهدة عجائبها. وقد فعل بعضهم. وكان لهؤلاء المخلصين ثقة كاملة في فرنسا على أولادهم، وهم يعرفون «ذكاءنا وقوتنا». أما الأثر الذي ستحدثه الزيارات على عقول الأطفال الجزائريين، أبناء المخلصين لفرنسا، فالمصدر يقول إنه سيكون لقصصهم تأثير على الآخرين الذين لم يزوروا، وسيطلبون بدورهم الزيارة، وهكذا تسرى العدوى ويصبح الحج إلى فرنسا بدل مكة، وتتغير العقليات ويحدث التقارب في طريق الاندماج المنشود. ويقول نفس المصدر في هذا المعنى، بذلك ستتكون «أدوات حضارتنا، ويتحقق الكرم للآباء، والتعليم للأبناء»[3].

وفي هذه الأثناء كثر الحديث أيضاً عن إنشاء كوليج (معهد) عربي - فرنسي بباريس. وتكون مهمته استقبال الأعيان، وتعليم أبناء المخلصين لفرنسا، وإبراز الكرم الفرنسي في مختلف المجالات، حتى يصبح المعهد مشتلة فكرية للتأثير الفرنسي في الجزائر. واقترحوا أيضاً أن تنشأ في المعهد

---

(1) وقد أشاعت وسائل الإعلام وبعض التقارير أن ابن عراش كان قد أصبح «متسامحاً» مع الفرنسيين خلافاً لبعض أعوان الأمير الآخرين أمثال الخليفة ابن علال والبركاني. انظر رحلة بيربروجر إلى معسكر الأمير شتاء 1837 - 1838، وقد ترجمناها.

(2) السجل (طابلو) سنة 1838، ص117.

(3) نفس المصدر.

مدرسة للترجمة بالعربية الدارجة لأبناء الفرنسيين، وبذلك يحدث الاختلاط بين الأطفال أولاً في فرنسا ثم بين الكبار في الجزائر. أما الأطفال الجزائريون فيأتون ويدرسون «دراسة خاصة» ويكونون تحت مراقبة شديدة، ثم يرجعون إلى أهلهم تحت المراقبة نفسها. وصدر المرسوم الملكي بإنشاء المعهد في مايو 1839. ونص على عدة أمور، منها أن مدرسة الترجمة تكون هي البوتقة التي يتخرج منها كل العاملين الفرنسيين في الإدارة بالجزائر. ومنها المحافظة على المشاعر الدينية للأطفال المسلمين عندما يحلون بالمعهد المذكور، على أن يكون المعلم المحايد هو الوسيلة، والتأثير الفرنسي هو الهدف[1].

ومع هذه الضجة، فإن الكوليج العربي ـ الفرنسي لم يفتح، والكرم الفرنسي لم يحصل. وبقي الحال كما كان: وفود من الأعيان تتردد على فرنسا في زيارات دورية تنظمها السلطات الفرنسية في الجزائر بالاتفاق مع الحكومة في باريس. أحياناً تكون الوفود ممثلة وجامعة لمختلف أنحاء الجزائر. فكأنها وفد برلماني أو تمثيلي في شكل ما. وأحياناً تكون الوفود جهوية. ونجد في هذه الوفود أحياناً العسكريين فقط أو رجال السيف والبارود الذين يتقلدون وظائف فرنسية، وأحياناً وفوداً مختلفة فيها بعض المدنيين أيضاً من كبار العائلات في المدن، وبعض الكتاب أو الخوجات والقضاة. وكان عهد بوجو (1841 ـ 1847) من أنشط العهود في هذا الميدان. فبينما كان سيفه ومحراثه يعملان بلا هوادة في رقاب وأرض الجزائريين على يد الجنود والمستوطنين، كانت إدارته ترسل هذه الوفود لتتلقى الحضارة وتطلع على الذكاء والقوة والعلم الفرنسي... ثم تعود منبهرة مندهشة، مبشرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، كما يريد الفرنسيون، بل كانوا يريدون منها أن تصبح طابوراً خامساً لصالح الإدارة الاستعمارية.

ومع ذلك فإن القليل فقط من الجزائريين هم الذين سجلوا انطباعاتهم

---

(1) السجل (طابلو)، ص 115 ـ 116. وقيل إن وزير الحربية فكر في فتح قسم خاص بكوليج الجزائر (تعليم متوسط) يتلقى فيه أطفال المسلمين تعليماً خاصاً بهم مخالفاً للتعليم الذي يتلقاه أبناء الأوروبيين. انظر فصل التعليم الفرنسي المزدوج.

وتركوها مكتوبة. ولكن الفرنسيين كانوا ينتظرون الدعاية الشفوية (أو التلغراف العربي) كما يسمونه، فالكلمة المنطوقة تذهب من فم إلى فم ومن أذن إلى أذن. ولا حاجة إلى القلم والقرطاس في ذلك الوقت، سيما بعد أن انتشرت الأمية. فأهل المدن يحدثون من يساكنهم، وأهل الريف يحدثون جيرانهم، وهكذا يعم الجميع حُبُّ فرنسا والسلام الفرنسي. ولكن هل ذلك هو ما وقع فعلاً؟ إن كان بعض أصحاب الوفود قد حدثوا مواطنيهم بما شاهدوا فإن الأثر كان منعدماً في الريف على الأقل حيث ظلت المقاومة مستمرة إلى عقد الثمانينات. وهذا لا يعني أن الفرنسيين لم يكسبوا أنصاراً ولم ينجحوا في تكوين الخلية الاستغرابية ـ الاندماجية. فقد رجع محمد الشاذلي، وهو من المتعلمين البسطاء في علمهم ومن القضاة أيضاً، رجع وهو معجب بباريس ونهرها ومسرحها وبرلمانها ونسائها حتى كاد يتزوج هناك من مجهولة الحسب والنسب، كما يقول أحد التقارير الفرنسية عنه. وهذا الإعجاب أورثه منصباً دائماً وهو إدارة مدرسة قسنطينة من إنشائها سنة 1850 إلى وفاته 1877[1].

وهناك أمثال الشاذلي أيضاً ممن سجلوا انطباعاتهم في (رحلات) ترجمها الفرنسيون في الحال، لأنها كانت تحقق الهدف المطلوب، وتبعث التأثير في القلوب، من ذلك رحلة محمد ولد القاضي التي يكفي عنوانها عن محتواها (الرحلة القاضية في مدح فرنسا وتبشير البادية). ورحلة سليمان بن صيام، ورحلة محمد السعيد بن علي الشريف. والثلاثة كانوا من الأعيان، وبعضهم كان من رجال الدين والزوايا أيضاً، مثل ابن علي الشريف صاحب زاوية شلاطة. وكان ابن صيام من أعيان مليانة، متولياً أيضاً للفرنسيين، ونفس الشيء يقال عن ولد قاضي الذي كان متولياً لهم على فرندة.

ولكي تتحقق الفائدة الأفضل أقدمت جريدة المبشر على نشر (الرحلات) أيضاً ليقرأها القاصي والداني. وكان أصحاب الرحلات، على

---

(1) انظر دراستنا عنه (القاضي الأديب)، ط 2.

تفاوت بينهم، قد أعجبوا بالتقدم الفرنسي وجاؤوا ليدعوا قومهم إلى الاحتفاء بالفرنسيين والخضوع لهم سياسياً وعسكرياً. رغم أن بعضهم، مثل ولد قاضي، قد شكا من وضع قومه وطالب بإصلاح أحوالهم. ولا يخامرنا الشك في حسن نوايا أصحاب الرحلات، ولكن لا يخامرنا الشك أيضاً في سوء نوايا الفرنسيين من وراء هذه الرحلات والزيارات المنظمة. فهم إنما جاؤوا للاستحواذ على كل شيء ولم يأتوا لبث الحضارة. ولكن جهل أصحاب الرحلات بمخططات الفرنسيين بل جهلهم بأنفسهم قد جعلهم أبواقاً فارغة في فم العدو ينفخ فيها للتأثير بهم على المواطنين[1]. وقد استمر هذا الأسلوب في التعامل مع الأعيان في هذا القرن أيضاً، ولكنه اتخذ ألواناً جديدة تتلاءم مع روح العصر كالدعوة لافتتاح جامع باريس في العشرينات.

أسْــرُ الأطفال وحملهم إلى فرنسا

حين لم يتحقق مشروع الكوليج العربي الفرنسي في وقته لجأ المارشال بوجو ومستشاره ليون روش إلى طريقة أخرى لحمل الأطفال الجزائريين إلى فرنسا وإبقائهم هناك فترة من الوقت يتعلمون ويتأثرون ثم يتركونهم يرجعون إلى بلادهم وأهلهم. وسوف لا نتحدث عن تفاصيل هذه المدرسة المجهولة التي أصبحت تستقبل الأطفال الجزائريين لترويضهم على حب فرنسا. ويكفي أن نذكر ما قام به بوجو وأعوانه سنة 1843 على إثر الاستيلاء على زمالة الأمير عبد القادر. كانت الزمالة عبارة عن مدينة متنقلة تضم آلاف الأشخاص وتضم أيضاً المؤونة والخزانة والذخيرة. وكان فيها نساء كبار العائلات وأطفالهم، بمن في ذلك نساء وأطفال خلفاء الأمير عبدالقادر، مثل ابن علال والبركاني والبوحميدي وابن التهامي، ونساء كتابه وقضاته. والذي يهمنا هنا

(1) نشرت الرحلات أولاً في المبشر، وفي بعض المجلات المعاصرة. وفي الفترة الأخيرة نشرت الرحلات الثلاث معاً في بيروت، بعناية خالد زيادة. انظر عنها فصل التاريخ والرحلات.

هو أن الفرنسيين أخذوا بعض الأطفال الذين بلغوا العاشرة وحملوهم إلى باريس بعد أن فصلوهم عن ذويهم. فمن جهة اعتبروهم رهائن لديهم يساومون بهم عند الحاجة، ومن جهة أخرى أدخلوهم إلى مدرسة مجهولة وضعوا عليها شخصاً يسمى ديموواينكور للإشراف والمراقبة. وكان هذا الشخص يعمل بالتنسيق بين وزير الحربية والحاكم العام المارشال بوجو. وقد وقع في أيدينا تقرير منه كتبه سنة 1845 عن «رهائنه» من الفتيان الجزائريين. فكان حسب قوله يتعهدهم ويلاحظ حركاتهم وسكناتهم، وكان يدرس التأثير الفرنسي عليهم في فرنسا وتأثيرهم على عائلاتهم حين يعودون.

ومن هؤلاء فتيان من عائلات معروفة في مدينة الجزائر وفي القليعة ومليانة. نذكر منهم أحمد بن قدور بن رويلة، كاتب الأمير ومحرر (وشاح الكتائب) وهو من العاصمة. ويتصل ابن رويلة عن طريق المصاهرة بعائلة ابن الحفاف وغيرها. فقد كان قدور بن رويلة متزوجاً من أخت علي بن الحفاف الذي التحق أيضاً بدولة الأمير. فالفتى أحمد إذن كان مشدود الأواصر بعائلات علمية ومتصلة بالمقاومة.- ومنهم علي الشريف بن الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب الأشراف. وهي عائلة متصاهرة أيضاً مع عائلة ابن علي مبارك بالقليعة.

ومن أسماء «التلاميذ» الذين وجدناهم أيضاً في تقرير ديموواينكور: محيي الدين بن علال، ومالك بن محمد، وقائد المدني، وأحمد بن أمين السكة، وعمر ولد بونطيرو، والشريف بن أحمد بن سالم. ويغلب على الظن أن الأخير هو ابن خليفة الأمير على زواوة، وهو أحمد الطيب بن سالم. ونلاحظ أن بعض هؤلاء كان مثل محيي الدين بن علال متزوجاً وله أولاد. وقد أخذه الفرنسيون أولاً إلى سجن سانت مارغريت، ثم سرحوه بإذن خاص، كما يقول ديموواينكور وأقام شهوراً في بيت هذا في باريس، ثم سمحوا له بالرجوع إلى زوجه وأولاده. وقد رأينا له رسائل إلى الفرنسيين يطلب في إحداها الأذن بالرجوع إلى الجزائر، وفي أخرى السماح له بالسفر إلى مصر مع أهله. ولكن ديموواينكور يخبر عنه في تقرير لاحق أنه كان يقيم

في نواحي بوفاريك وأنه عندما سمع به في الجزائر عند عائلة علي الشريف الزهار ركب فرسه وجاء لتحيته واستعاد ذكريات باريس معه[1].

1 ـ **علي الشريف الزهار**: يقول عنه شارل فيرو إنه بعد تعهده (؟) من الحكومة الفرنسية في باريس بعد الزمالة، رجع إلى الجزائر وسمي مترجماً عسكرياً احتياطياً من الطبقة الثانية 1850 ثم من الطبقة الأولى 1852. وفي سنة 1854 دخل على الشريف الزهار كتيبة الفرسان (الصبائحية) وأحرز على وسام فارس جوقة الشرف سنة 1863، ثم تقاعد برتبة كابتان. وفي سنة 1876 كان علي الشريف مستشاراً عاماً (C.G.) في مجلس ولاية الجزائر. ويقول عنه فيرو إنه من مواليد الجزائر سنة 1829، وأنه ابن للحاج أحمد الشريف الزهار كاتب سيدي مبارك خليفة الأمير علي مليانة، وكان صهراً له[2] وقد عاش علي الشريف إلى عشية الحرب العالمية الأولى، وسنجد اسمه يتكرر في مناسبات أخرى.

2 ـ **أحمد بن قدور بن رويلة**: كانت نهايته مأساوية. مأساوية حقاً. فبعد اختطافه من قبل الفرنسيين سنة 1843 وحمله إلى فرنسا رهينة وعمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة (ولد سنة 1830)، أدخلوه إلى كوليج سان لويس بباريس. ولكنه قبل ذلك أقام في المدرسة المجهولة التي يشرف عليها ديموانيكور والخاصة، كما يقولون، بالأطفال العرب. وقد وجدنا عدداً من الرسائل لهذا الفتى الصغير الذي لا ذنب له سوى وجوده مع عائلته بالزمالة، تطلب تسريحه والرجوع إلى أهله. وفي إحداها يقول أنه يكاد يجن، وله رسالة أخرى إلى والده قدور بن رويلة. وكان يتدخل لدى السلطات الفرنسية في فرنسا أيضاً لاستعادة أملاكهم في الجزائر وأملاك خاله ابن الحفاف. وبعد أن قضى سنوات في فرنسا رجع إلى الجزائر وأصبح مترجماً عسكرياً

---

(1) هذه الأسماء وردت في تقرير ديموانيكور، ارشيف إيكس رقم 1571 ـ F 80.

(2) فيرو، (مترجمو الجيش)، مرجع سابق، ص 309 ـ 310. انظر أيضاً حياة علي بن الحفاف (المفتي) في فصل السلك الديني والقضائي. وقد تحدثنا فيه أيضاً عن أحمد الزهار وأفراد آخرين من هذه العائلة.

احتياطياً. وهذه هي غاية العلم الذي كانت تدعو إليه فرنسا ويطبل له المتحمسون لحضارتها عندئذ. دخل أحمد سنة 1850 مسابقة المترجمين وترقى من الطبقة الثانية إلى الأولى سنة 1852 مثل زميله في عملية الخطف علي الشريف الزهار. وكذلك دخل مثله كتيبة الفرسان وتطوع عسكرياً، كما يقول فيرو.

وفي سنة 1864 كان أحمد بن رويلة مساعداً ملحقاً بالمكتب العربي في قصر البخاري (بوغار). والتاريخ المذكور يذكرنا بثورة أولاد سيدي الشيخ واتخاذ المواقف بشأنها. وقد امتدت الثورة إلى تلك النواحي. وكان دور المكتب العربي هو منع تسربها إلى المناطق الآهلة بالسكان والقضاء على قادتها. وأبى الفرنسيون إلا أن ينهوا حياة أحمد بن رويلة نهاية يعرفها كثير من الجزائريين الذين خالطوهم، فهذا الشاب الذي يقول عنه العقيد تروميلي إنه كان «متعلماً ومتحضراً» لم يكن يروق، حسب الرواية الفرنسية، للآغا النعيمي بن جديد المتولي للفرنسيين أيضاً نواحي قصر البخاري. وأثناء خروج أحمد بن رويلة لتسقّط الأخبار عن الثورة في جهة طاقين على رأس كوكبة من الفرسان الجزائريين ومعهم فرنسيان، فاجأته جماعة على رأسها أبو بكر أخ النعيمي، الذي كان ابن رويلة قد طرده من المكتب العربي ذات مرة. فقُتِل ابن رويلة وجماعته عن آخرهم سنة 1864 في نفس المكان الذي كان قد أسر فيه منذ 12 سنة، وهو طاقين[1]. فأين الحقيقة من هذه المقتلة التي ذهبت ضحيتها مجموعة من شباب الجزائر؟.

إن أحمد بن رويلة تبكيه أسرته وبلاده التي فقدته في الحقيقة منذ 1843[2]. وكان يمكنه أن يكون كأبيه وخاله وأصهاره، من الشبان المثقفين المتنورين الذين يعملون لخير بلادهم. ولكنه راح ضحية الاختطاف أولاً

(1) فيرو، مرجع سابق، ص 307 ـ 309، عن تروميلي. وبيروني، مرجع سابق، ص 870. وفي هذا المرجع أنه أحمد بن كويلة. وأنه بدأ الترجمة سنة 1847، أي عندما كان عمره حوالي 17 سنة.

(2) لم ير والده منذ فارقه. وقد أدرك الموت والده في بيروت أوائل الخمسينات.

والمؤامرة ثانياً. فأي علم أخذه في فرنسا في المدرسة المجهولة أو في مدرسة سان لويس؟ وماذا أفادت منه بلاده عندما أصبح مترجماً عسكرياً احتياطياً أو فارساً متطوعاً تحت العلم الفرنسي؟ إن الفرنسيين كانوا يريدون تكوين «عملاء» لا علماء. وقد ظل زميل ابن رويلة، وهو علي الشريف الزهار إلى أن بلغ من الكبر عتياً، فماذا استفاد وأفاد؟ لقد أصبح مستشاراً عاماً بدون أية سلطة ولا تأثير في قومه، وأحرز على أوسمة غطت صدره، بينما كان وسام نقابة الأشراف التي تتولاها عائلته منذ قرون يكفيه، وكان به ربما أكثر تأثيراً على قومه من الأوسمة الأخرى مجتمعة. ولكن أين العقل؟.

لقد رجع التلاميذ الآخرون، بعد حين، من فرنسا إلى ذويهم في الجزائر. وكان الفرنسيون يراقبون تأثرهم وتأثيرهم: كيف يجلسون: على الكراسي أو على الحشايا، وكيف يأكلون: بالملاعق أو بالأيدي، وكيف يتكلمون: بالعربية أو بالفرنسية، وماذا يلبسون: الملابس الفرنسية أو الملابس العربية. وهل تأثر بهم أصحابهم وذووهم أو بقوا في عزلة عنهم. وما إلى ذلك من ألوان الدراسة الاجتماعية والنفسية.

ودون اللجوء إلى خطف الأولاد واتخاذ الرهائن كانت المدن الجزائرية تتأثر بالحياة الفرنسية بالقوة أو بالاختيار، فالقوانين والإجراءات، والتغييرات في أسماء الشوارع، وترقيم البيوت، وفتح الساحات، وإنشاء الأحياء الجديدة، والعملة والمعاملات. ثم هناك الملابس والبضائع الأخرى، والمشروبات والمأكولات والمصنوعات وطراز البناء. كل ذلك أخذ الجزائريون يقلدونه بالتدرج. وهو ليس من العلوم ولا من التقنيات التي يحتاج المرء إلى تعلمها ولا يحتاج إلى الرسالة الفرنسية الحضارية لاتقانها. ومع ذلك ففي هذا الجو كانت تتكون نواة الاستغراب والاندماج. ولم تكن خاصة بالمدن بل كانت في الأرياف أيضاً.

دعاة التعلم باللغة الفرنسية الأوائل

خلال الستينات ظهرت على صفحات المبشر كتابات بتوقيع رجال العلم الجزائريين يدعون قومهم للتعلم باللغة الفرنسية وتحصيل العلوم الفرنسية. لم يكن هؤلاء من خريجي السوربون ولا من مدرسة سان سير ولا حتى الكوليج الامبريالي. كان بعضهم إماماً للصلاة، وبعضهم مدرّساً في المدرسة الشرعية ـ الفرنسية، قبل أن تدخلها اللغة الفرنسية. وبعضهم كان من المرابطين الذين تولوا وظائف إدارية مثل ابن علي الشريف الذي دعا إلى ذلك في رحلته إلى فرنسا سنة 1852[1]. ومع ذلك أخذوا على عاتقهم دعوة مواطنيهم إلى التعلم باللغة الفرنسية على صفحات الجريدة الرسمية الوحيدة.

لم يكن الجزائريون ضد العلم من حيث هو، كما عرفنا، ولكنهم كانوا يريدون حرية التعليم بلغتهم والمحافظة على دينهم وأخلاقهم وتراثهم. ومن جهة أخرى كانت المدارس المفتوحة لا تكفي حتى لأبناء المخلصين لفرنسا. ففي القطر الجزائري كله خلال الخمسينات والستينات لا توجد إلا 42 مدرسة ابتدائية، وكانت تسمى عربية ـ فرنسية. إذن فالدعوة إلى التعلم في مثل هذه المدارس هي دعوة مجانية يقوم بها شيوخ أمثال مصطفى بن السادات، ومحمود بن الشيخ علي، ومحمد بن عبدالله الزقاي، يضاف إليهم حسن بن بريهمات الذي كان يعرف الفرنسية ولكن ثقافته العربية كانت تطغى عليه، كما عرفنا. وسليتحق عبدالقادر المجاوي بالركب في آخر السبعينات أيضاً.

---

(1) يعتبر من المبكرين في هذه الدعوة، وربما سبقه إلى ذلك أحمد بوضربة، رغم أننا لا نملك له نصاً الآن في ذلك. أما ابن علي الشريف (زاوية شلاطة) فقد تعلم الفرنسية بسرعة خلال الأربعينات، وحصل على الوظيف المذكور (باشاغا)، ودعي إلى باريس ضمن وفد من الأعيان، ثم كتب رحلته ونشرها سنة 1852. وفي نظره أن الجزائري يحتاج الفرنسية في الحاضر والمستقبل «الحال والمآل». وقال إنه لا خوف على الأطفال. ولكنه وقف معارضاً بشدة لسياسة لافيجري الدينية بعد ذلك.

من كتّاب هذا العهد إذن شيوخ اعتقدوا أنهم يدعون إلى العلم ـ كما تدعو إليه المبشر ـ ولكنهم كانوا يجهلون ما وراء ذلك. وقد كتب أحدهم يحبذ إدخال ملكية الأرض فردياً طبقاً لمرسوم 1863 ولم يدر أن في ذلك انتزاعاً للأراضي من أصحابها عن طريق التحايل القانوني وتمليكها للكولون، وتحطيماً لقواعد المجتمع. لا نستطيع أن نتهم أولئك المشائخ بأنهم كانوا «عملاء» للإدارة الاستعمارية، ولكن فقط نتهمهم بالجهل بخلفيات السياسة الاستعمارية وأبعادها. ألم يؤيد مشائخُ أمثالهم الحكومة العامة سنة 1933 حين أصدرت منشور ميشيل بغلق المدارس الاصلاحية؟ ألم يدعم مشائخُ آخرون فرنسا سنة 1914ضد الدولة العثمانية؟ ألم يصفوا وفد المؤتمر الاسلامي سنة 1936 بأنه كان يتدخل في السياسة ويتحدث عن الوطنية «الممنوعة؟» إن السلطات الفرنسية كانت تجد أمثال هؤلاء المشائخ في كل وقت يختمون على قراراتها ويصدرون لها الفتوى المناسبة. ومع ذلك فلا نستطيع أن نسمي هؤلاء جميعاً بأنصار الاستغراب والاندماج، لأن هؤلاء الدعاة كانوا من الجهلة بالسياسة، أما الأنصار الحقيقيون للاندماج فهم طائفة أخرى.

ـ **مصطفى بن السادات**: ابتداء من سنة 1864 بدأ يظهر اسم مصطفى بن السادات على صفحات جريدة المبشر. وهو إسم لا نعرف عن صاحبه أي شيء عَدَا ما كتبه بنفسه، وبعض الوظائف التي تولاها، أو تردد اسمه في بعض الوثائق الرسمية. إننا نعرف عنه أنه كان بالمدرسة الشرعية ـ الفرنسية (الكتانية) التي أسسها الفرنسيون في قسنطينة[1]، وكانت المدرسة بإدارة محمد الشاذلي، وكانت كتابة ابن السادات في المبشر تحث الجزائريين على تعلم العلم عموماً والعلم الفرنسي خصوصاً وباللغة الفرنسية بالذات. وكان يطلب منهم ألا يخافوا ولا يترددوا في إرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية

---

(1) المدرسة الكتانية تأسست في عهد صالح باي في آخر القرن الثامن عشر. وقد تحدثنا عنها في غير هذا. وقد أبقى عليها الفرنسيون وجعلوها مقراً للمدرسة الشرعية سنة 1850.

القليلة التي نشأت بالبلاد. كان ذلك في الوقت الذي كانت فيه السلطات الفرنسية تقول إن «التعصب» ومعاداة الفرنسيين والخوف من تنصير الأطفال هي التي وقفت حائلاً دون الإقبال على المدارس الفرنسية. بينما كان الجزائريون يطالبون بمدارس يشرفون عليها بأنفسهم.

ففي 22 فبراير 1864 نشرت المبشر مقالة لمصطفى بن السادات تحت عنوان (نصيحة وإرشاد لمن عطل عن مسابقة الأقلام وإهدار المداد) في المعنى الذي سقناه. وهو يبدو فيها أديباً وعالماً من علماء الوقت، وكان أكثر معارف وأفضل قلماً من محمد الشاذلي المعروف بأشعاره الضعيفة. ولعل ابن السادات كان من إخراج المستشرق شيربونو الذي كان يبث اللغة الفرنسية والتأثير الفرنسي في بعض المسلمين كما كان يعلم اللغة العربية للفرنسيين. وقد حث ابن السادات في المقالة المذكورة على التعلم ونهض ضد الأمية ودعا إلى الكتابة والتدوين. وهو كلام لا يعارضه فيه مواطنوه. وعشية فتح فرع الكوليج الامبريالي (المدرسة السلطانية) في قسنطينة، كتب ابن السادات مقالة جيدة في محتواها ومبناها، ولكن دوافعها تظل محل شك.

عنوان المقالة الجديدة هو (النصيحة الدرية في تأديب الذرية)، وهي بقلم عربي سليم، وقد احتوت على آداب جمة. ووصف المدرسة الجديدة، وهي غير المدرسة الشرعية، معنوياً وظاهرياً، ومدى ما سيكون لها من تأثير مفيد على السكان في قسنطينة «المرعية»، وذكر أن البرنامج قد اشتمل على مواد عربية وأخرى فرنسية، وأنه سيكون للمدرسة إمام ومصلى ومصحة، وهو ما كانت سلطات نابليون حريصة عليه ظاهرياً لترغيب الجزائريين وإزالة تخوفاتهم على أبنائهم. ومحتوى المقالة عموماً كأنه صادر عن مصلحة الشؤون الأهلية، ففيه نفس التعابير والمعاني وأحياناً نفس الألفاظ. فالمدرسة مؤسسة هامة، والعلم مطلوب ومرغوب دنيا وأخرى. والدولة الفرنسية حريصة على تعليم الأهالي علومها وتمدينهم بلغتها، وهكذا. ويقول ابن السادات إن اللغة الفرنسية أصبحت ضرورية لكسب العلوم والوظائف. وأخبر قومه أن واحداً وثلاثين جزائرياً (أي بعد عشر سنوات) قد تخرجوا من

المدرسة السلطانية (الكوليج) الأم بالعاصمة، وأصبح من بينهم المهندس والترجمان والضابط والأستاذ والقايد. وحذرهم من أن اللغة الفرنسية ستكون هي جواز السفر الوحيد إلى الوظائف، وأن الذي لا يعرفها لا مكان له في تولي الوظائف. إن اللغة الفرنسية في نظره هي «التي عليها المدار، ولصاحبها يحصل العز، والعاري منها يبقى في خمول الإدبار، ومن حصلها واستغنى عن التلبس بالتولية (الوظيف)، فهي له نعم التحلية، يتنزه في مراتع آدابها»[1]. ومعنى هذا أن الذي يعرف الفرنسية سيكون دائماً في المكانة اللائقة سواء دخل الوظيف أو لم يدخله. والغريب أن ابن السادات لم يقل شيئاً عن لغة قومه ووضعها أمام هذه الدعوة إلى التحول. ولولا وجود الاسم تاريخياً لقلنا إن ابن السادات قد يكون اسماً مستعاراً لأحد كتاب المبشر، كما قلنا عن معاصره علي بن عمر.

ولابن السادات مقالة أخرى بعد هذه يتحدث فيها عن الدخول المدرسي سنة 1867، ويصف المدرسة من جديد ومديرها السيد (أوبلان)[2]. وكانت المدرسة السلطانية ـ فرع قسنطينة ـ قد افتتحت أوائل 1867، وكانت ناجحة فعلاً حسب التقارير. ولكن الأميرال ديقيدون، الحاكم العام، ألغى الفرع والأصل لأنه كان لا يريد هو، ولا المستوطنون، أن يتعلم الجزائريون عموماً، سيما التعليم المزدوج الذي جاءت به المدرسة السلطانية، لأن هذه المدرسة كانت عندهم رمزاً لما كانوا يسمونه عهد المملكة العربية.

قلنا إن مصطفى بن السادات شخصية تاريخية وليس اسماً مستعاراً.

---

(1) المبشر 27 ديسمبر 1866. والمقالة (تتمة) لجزء منشور في عدد سابق لم نطلع عليه. فليراجع من يرغب أولها في العدد الذي قبل هذا.

(2) نفس المصدر، أول يناير، 1867. تولاها أوبلان Aublain في التاريخ المذكور إلى إلغائها سنة 1870، وكان أوبلان عقيداً في الجيش، وقد عمل في المكتب السياسي والشؤون الأهلية، وزار المغرب. ولد في باريس سنة 1828. انظر عنه أيضاً بيروني، مرجع سابق، ص 334.

ودليلنا أننا وجدنا في الأرشيف الفرنسي اسمه سنة 1896 بين قائمة أعيان قسنطينة. ولكن الوثيقة اكتفت بوصفه بأنه من الملاك. ولم تتحدث عن علمه ولا عن تأليفه ولا حتى عن تقاعده[1]. ويبدو أنه كتب ما كتب في المبشر عندما كان عمره حوالي 35. ومن ثمة فهو من الجيل الأول للاحتلال، ويبدو كذلك أنه تأثر به أكثر من غيره. فكانت دعوته عندئذ (في الستينات) تشبه دعوات أنصار التفرنس اليوم مع نفس الحجج تقريباً. وقد ذكره أيضاً عبد الحي الكتاني باسمه: مصطفى بن أحمد بن سادات، وقال إنه أخذ العلم عن الشيخ المكي البوطالبي بقسنطينة[2].

محمود بن الشيخ علي: هناك شيخ آخر ظهر اسمه في الستينات أيضاً على صفحات المبشر من جهة وفي الحياة الدينية والعلمية من جهة أخرى، ونعني به الشيخ محمود بن الشيخ علي الجزائري، كما ظهر في المبشر، أو محمود بن علي بن الأمين، كما ترجم له أبو القاسم الحفناوي في تعريف الخلف. وهذا شيخ لا غبار على أصله وفصله. فهو ابن المفتي علي بن عبد القادر بن الأمين، وكان (الأب) شيخ جيل كامل من علماء الجزائر عشية الاحتلال[3]. وقد جاء ابنه كأبيه علماً ولكنه ليس كأبيه عملاً. فلم يصل إلى رتبة الفتوى رغم أنه من علماء الوقت، وكان ولوعاً بالكتابة والنسخ وله مكتبة غنية. فهو إذن من رجال الدين الذين رضوا بأن يأكلوا الخبز بعلمهم مع الفرنسيين. وكانت الوظيفة المعروفة له هي الإمامة في المدارس التي أسسها الفرنسيون، أولاً في المدرسة السلطانية (الكوليج) بالجزائر. والمعروف أن هذه المدرسة تأسست سنة 1857. فهل تولى الإمامة هناك عندئذ أو في وقت لاحق؟ وهذه الوظيفة لم يذكرها له الحفناوي، وإنما ذكر له الإمامة في الليسيه الفرنسي. ونحن نعرف أيضاً أن المدرسة السلطانية قد ألغيت سنة

---

(1) ارشيف إيكس (فرنسا) رقم 10 H 81.

(2) عبد الحي الكتابي (فهرس الفهارس) 1/239. ويبدو أن الكتاني قد عرفه أو راسله إذ يقول إن ابن السادات كانت له كراسة أحمد زروق البوني يرويها بالإجازة.

(3) انظر كتابنا تاريخ الجزائر الثقافي، جـ 1، 2. وكذلك دراستنا عن ابن العنابي.

1871 وحول تلاميذها وإمامها إلى الليسيه. وبالإضافة إلى الإمامة تولى الشيخ محمود التدريس في الجامع الكبير أيضاً. ويبدو أن ذلك كان في التسعينات فقط حين سُمِحَ لبعض رجال الدين بإعطاء درس في التوحيد وآخر في الفقه للعامة. وقد توفي الشيخ في 17 فبراير 1897[1]. وله كما قلنا ولع بالنساخة، كما له تعليق في الطب سنتناوله في جزء آخر.

ومن ذلك نفهم أن الشيخ محمود بن الأمين كان من أعيان مدينة الجزائر، وكان من رجال الدين والعلم. فإذا كتب يدعو إلى فكرة ما فإن كلمته ستكون مسموعة عند من يعرفون قيمة أسرته، على الأقل. هذا هو الدافع في نظرنا الذي جعل الفرنسيين يلجأون إلى هذا الإمام الموظف عندهم ليستخرجوا منه رأياً في تأييد دعوتهم بأن يترك الجزائريون «تعصبهم» ويقبلوا على تعلم الفرنسية وعلى العلوم التي تعرضها عليهم فرنسا. فقد كتب الشيخ محمود مقالة مطولة استغرقت صفحة كاملة وعموداً من المبشر وكتبت بحرف رقيق، وعنوانها (نصيحة عمومية لأهل الحضر والبادية). وفاتحتها عبارة عن خطبة من خطب الجمعة، ولعله كان يخطب بذلك أيضاً وبنفس الأفكار في المساجد أو في المدرسة السلطانية. وقال إن دافعه إلى كتابتها هو ما رآه من بخل الناس بأنفسهم عن التعلم ولجوئهم إلى الكسل، فجاء ليوقظهم من سباتهم وينبههم إلى ضرورة التعلم وإلى فضل العلم وشرفه وذم الجهل وغوائله، لكي يرقوا إلى أعلى الدرجات الإنسانية. وبعد أن عرف العلم في اللغة والقرآن الكريم والحديث الشريف والآثار والشعر، وهو يورد النصوص والأشعار المؤيدة لذلك، مما يدل على اتساع معارفه في الأدب والتراث والتاريخ، رجع بعد ذلك إلى مقصوده وأخبر أن العلم صالح للدنيا والآخرة وهو مطلوب شرعاً.

أما عن اللغة والعلوم الفرنسية فقد تجول فيها الشيخ محمود جولة

---

(1) الحفناوي، تعريف الخلف، 2/474. عن دوره في النساخة انظر فصل المنشآت الثقافية.

كبيرة، ودعا قومه بكل صراحة إلى ضرورة الأخذ بها لأن اللغة العربية لا تتسع في نظره لكل المصطلحات كما كانت في الماضي. واعتبر الفرنسيين متفوقين ليس فقط على الجزائريين ولكن على الأجناس الأخرى أيضاً. ونبه الجزائريين إلى أن المصريين استفادوا من اللغة والعلوم الفرنسية بقيادة حاكمهم محمد علي باشا. وأما كون الجزائر ليس لها حاكم مثل محمد علي باشا فهذا لا يهم الشيخ محمود[1]. وقال إنه من الحماقة والبلادة عدم تعلم الفرنسية وعلومها. فهو يقول: «صارت اللغة الفرانسوية وكتابتها في هذه الأعصر وسيلة لا غنى عنها في العلوم على اختلافها وسائر الصنائع وفنونها، خصوصاً الطب والهندسة والحساب والتنجيم والجغرافية والطبيعيات والرياضيات، وما يتفرع عنها». ثم مدح أهل فرنسا على براعتهم في هذه العلوم والصنائع، وقال إنه لا يمكن الوصول إلى ما ذكره إلا باللغة الفرنسية وكتابتها «لعدم وجود اللفظ العربي لمسمياتها». ونلاحظ أنه يلح على «كتابتها» لأن المقصود ليس مجرد التعلم الشفوي لها، أو الحديث بها. وفي نظره أن العلم قد ازدهر عند العرب في العصور السالفة ونشطت حركة الترجمة، ولكن حان الوقت الذي انتقلت فيه العلوم إلى فرنسا «وبلغت أوجها بمدينة باريس، ولا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهي حكماءها».

وإذا كان الأبعدون يذهبون إلى فرنسا لطلب العلم فيها «كيف نحن المقيمون معهم (أي الفرنسيين) والمحتاجون لمخالطتهم. . . حيث أننا تحت حمايتهم، ولا نفقه لسانهم؟ فهذا هو غاية الحماقة وشدة البلادة» إن فرنسا «لحنانتها» على الجزائريين قد فتحت المدارس لتعليم لغتها والكتابة بها في كل ولاية، وأنشأت كذلك مراكز لتعليم الصنائع. فالواجب على أولياء التلاميذ عدم ترك أولادهم نهباً للإهمال والضياع، لأن إرسالهم إلى المدارس الفرنسية وتعلم العلوم بها سيضمن لهم حياة سعيدة. ومما قاله إن عندنا

(1) كان الشيخ محمود يسمى الاحتلال «حماية»، ويقول إن فرنسا تحنّ على الجزائريين. ويسمي سياستها «حنانة» وإحساناً. وهي تعابير استعملها غيره أيضاً وتدل على تأثير مدرسة المبشر في هذه الفئة.

علوماً دون أن نستفيد منها، وهي عند الفرنسيين قد بلغت حظاً كبيراً، ويعني بذلك علم الزراعة والنباتات وسبك المعادن والكيمياء. . . و «فن ترجمة الكتب العلمية، وهو من الفنون الصعبة، لأنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها»[1].

ونلاحظ على كتابة الشيخ محمود عدم استعمال السجع، وبساطة الأسلوب، ووضوح الأفكار، وغزارة المعارف، وقوة الحجة. غير أن شواهده كثيرة وطويلة. ولعله كان يسعى إلى إقناع المترددين أو الخائفين على مصير أولادهم إذا دخلوا المدارس الفرنسية. ولكن الشيخ لم يتفطن إلى خلفيات هذه الحملة التي تنظمها المبشر ومن ورائها إدارة الشؤون الأهلية والمكاتب العربية التي كانت تصور فرنسا بلاداً متحضرة من جهة وحاملة لواء الحضارة والتمدين من جهة أخرى. وكان ذلك يحدث أيام انتزاع الأراضي من الجزائريين عن طريق المرسوم المشيخي وإغراق البلاد بالمستوطنين الفرنسيين الذين كانوا يأتون من كل الأنحاء الأوروبية، كما كان يحدث أيام ثورة أولاد سيدي الشيخ التي كان فيها الجيش الفرنسي (الإفريقي) يرتكب الفظائع بقيادة اللقيط يوسف وأمثاله. وصدر سنة 1865 قانون يعتبر الجزائريين «رعايا» لا مواطنين فرنسيين إلا إذا تخلوا عن الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية. هذه الخلفيات لم يكن يعرفها الشيخ محمود، ولكن الشعب كان يعرفها جيداً ويعيشها يومياً. ولذلك كان لا يؤمن بالبهرجة ولا بالحملة التي تصور فرنسا «حنانة» وذات قلب رحيم على الجزائريين المساكين.

وقد وظفت السلطات الفرنسية الشيخ محمود أيضاً في مناسبة أخرى ليحبّذ إجراء الانتخابات في الجزائر على عهد الحاكم العام المارشال ماكماهون. إن كلمة رجال الدين في مثل هذه الأمور «الجديدة» على

---

(1) المبشر، 25 يوليو، 1867. قارن دعوته هذه بما جاء في كتيب المجاوي (إرشاد المتعلمين) المنشور سنة 1877.

الجزائريين كانت تزكي مشاريع الفرنسيين. فالشيخ محمود وإن لم يكن مفتياً فهو من عائلة تولت الفتوى. ولم يكتب الشيخ محمود رأيه في الانتخاب كوسيلة من وسائل العمران والتحضر في جريدة المبشر بالأصالة وإنما نشرها في جريدة مشرقية ذات صيت ذائع، وهي (الجوائب) التي كان يديرها أحمد فارس الشدياق من اسطانبول. وقد نقلتها المبشر عن الجوائب[1]. وإذا علمنا أن السلطات الفرنسية في الجزائر كانت على علم بكل صغيرة وكبيرة تصدر عن الجزائريين، وأن الشيخ محمود كان موظفاً (إماماً) في المدرسة السلطانية، علمنا أن مقالته في جريدة (الجوائب) قد مرت قبل كل شيء بإدارة الشؤون الأهلية، وأن نشرها في الجريدة المذكورة كان له هدف في السياسة الفرنسية في المشرق أيام أزمة جبل لبنان وتدّخل فرنسا في الشؤون العثمانية. ولكن أين للشيخ محمود معرفة كل ذلك[2]؟.

والانتخابات المشار إليها تتعلق بانتخابات أعضاء من الجزائريين إلى المجالس البلدية بدل التعيين. وهو مبدأ له مكانته في النظم السياسية الحرة، ولم يكن الجزائريون أحراراً ولا كانت النظم الخاضعين لها كذلك. وقد أصدر ماكماهون ذلك في فترة كانت الجزائر تعاني فيها من الجوائح المزمنة التي ضربت منذ 1867، كما كانت تعاني من إطلاق ماكماهون نفسه اليد للكاردينال لافيجري، زعيم الكنيسة الكاثوليكية في الجزائر، الذي أنشأ الملاجىء لجمع الأيتام وتنصيرهم في خضم الجوائح المشار إليها. وهل كان الشيخ محمود على علم بكل ذلك؟ لقد قال عن قانون الانتخابات أنه ذو

---

(1) المبشر 21 يناير 1869. ولم يكن يغيب عن السلطات الفرنسية أن الشيخ محمود أرسل مقالته إلى جريدة (الجوائب) العثمانية. ولا ندري لماذا أخرت نشرها إلى ما بعد ظهورها في المشرق؟.

(2) وظفت السلطات الفرنسية أيضاً الشيخ محمد بن عبدالله الزقاي، خريج الأزهر، وشيخ مدرسة تلمسان، في عدة وظائف تتصل بالقضاء، ومن هذه الوظائف كتابة مقالة في مدح المرسوم المشيخي 1863 حول تحويل ملكية الأرض من جماعية قبلية إلى فردية. وشرح القانون الذي سماه «التحديد» أي تحديد الأراضي. وعنوان مقالته: (تنبيه أكيد لمن عساه يغفل عن فائدة التحديد). المبشر، 28 نوفمبر، 1867.

فائدة من الناحية العمرانية والاجتماعية والخيرية (؟)، وقد سبق به الأوروبيون، وأن المسلمين سيستفيدون منه بتقليد الأوروبيين فيه. ومن هذه العبارة نفهم أن المقصود الأول من كلامه هم «المسلمون» عامة وليس الجزائريين فقط. «تأملت ما احتوى عليه (القانون)، وجدته في غاية التحكيم والنفع العميم، وبأن منه طريق التمدن والعمران، والتعاون على البر والإحسان، وسد ذريعة الجور والعدوان، مع ما يسري لسكان الوطن من التطبع والتأسي بقواعد الأوروباويين الفائزين عمن سواهم في طريق الإحسان». ومقالة الشيخ محمود طويلة الذيل، وهي تسير على هذا المنوال في تحبيذ التجربة الأوروبية في الانتخابات وطلب الاقتداء بها من المسلمين. ولعل ذلك هو مقصوده من عبارتي «التطبع» و «التأسي»، فالأولى يقصد بها التمرن والتعود، والثانية يقصد بها الاقتداء والاحتذاء. ولذلك ختم مقالته بقوله: «هذا الذي اتضح لي على وجه العموم، من ضابط هذا القانون المنظوم، ولا يمكن الإحاطة بذكر سر جميعه، لكن القصد إذاعة طيب نشره».

يظهر الشيخ محمود إذن من المنبهرين بالرسالة الفرنسية في الجزائر. ولا ندري إن كان لوظيفته دخل في ذلك. وقامت دعوته على عدة عناصر، وهي: ضرورة تعلم الجزائريين اللغة الفرنسية وعلوم الفرنسيين والاقتداء بهم في نظمهم السياسية كالانتخابات. ومن ثمة فإن ترك الأطفال مهملين دون تعلم اللسان الفرنسي يعتبر في نظره حماقة وبلادة. وهو في هذه الدعوى يلتقي مع معاصره مصطفى بن السادات، وكذلك حسن بن بريهمات ومحمد بن الحاج حمو وأضرابهم.

محمد بن الحاج حمو وحسن بن بريهمات: كان الشيخ محمد بن الحاج حمو أيضاً يدعو الجزائريين إلى ما دعاهم إليه الشيخ محمود بن علي، وكانا متعاصرين، ولكن الشيخ حمو أكبر منه سناً، وقد تولى الفتوى والقضاء للفرنسيين بعد أن خدم في دولة الأمير[1]. والحاج حمو لم يكتب ذلك في

(1) انظر ترجمته في فصل السلك الديني والقضائي.

جريدة أو كتاب، وإنما طبقه على ابنه عبد الحق. فقد أدخله المدرسة السلطانية حيث بقي ثلاث سنوات ونيفاً ثم أخرج منها لكبر سنه. ومع ذلك فقد حصل منها على ما يجعله مرتبطاً بالفرنسيين. ويخبرنا حسن بن بريهمات أن الشيخ حمو كان يدعو الجزائريين إلى تقليد الفرنسيين في علومهم، وينعى على المغالين (المتعصبين) ضدهم[1].

أما حسن بن بريهمات فكان يعرف الفرنسية. وقد تولى إدارة المدرسة الشرعية، فإذا دعا إلى تعلم اللغة والعلوم الفرنسية فلا يعتبر ذلك منه خروجاً عن المنطق. فمنذ أوائل الستينات، وهو يدعو تلاميذه إلى الأخذ من الفرنسيين علومهم ولغتهم. وكان ينوه بما وصل إليه العرب والمسلمون في الماضي من مجد علمي باذخ «كانوا يهاجرون في طلب العلم من بخاري ومصر وفارس والأندلس حتى حصلوا من العلوم ما به فازوا على أقرانهم». وكان ابن بريهمات ينوه في كل مناسبة بنابليون الثالث، وبالدكتور بيرون مدير المدرسة السلطانية (الكوليج) بالجزائر، على تشجيع التعليم للجزائريين. وطبق حسن بن بريهمات ذلك على نفسه حين أرسل أولاده الثلاثة إلى المدارس الفرنسية أو المزدوجة[2].

* * *

انتهى عقد الستينات إذن بدعوة المتعلمين من الجيل الأول في العهد الفرنسي إلى الأخذ بعلوم الفرنسيين وتعلم لغتهم وإلى تقليدهم في الحياة العامة والانتخابات وما إلى ذلك. وكان هذا الجيل مع ذلك ما يزال محصناً إلى حد كبير لصلته بآبائه ومحيطه، ولثقافته التراثية القوية، رغم تأثره بآثار ودعاية الاحتلال. كما أن المحيط الفرنسي كان مشجعاً على إعلان ذلك

(1) انظر كلمة التأبين الطويلة التي ألقاها حسن بن بريهمات إثر وفاة الشيخ حمو في المبشر، 31 ديسمبر 1868.

(2) المبشر 12 يوليو، 1861. عن حياة حسن بن بريهمات وأولاده انظر فصل السلك الديني والقضائي.

الرأي، فسياسة نابليون الثالث، رغم قوانينها التعسفية في الأرض والتجنس والتغطية على الكنيسة، وما إلى ذلك، فإنها فتحت باب التعليم المزدوج ولم تصادم مشاعر المسلمين مباشرة، وكان نابليون يعلن رسمياً على الأقل أنه حاكم العرب والفرنسيين. وقد أمر المارشاليين الحاكمين: بيليسييه ثم ماكماهون، باتباع هذه السياسة، رغم تناقضها مع الواقع.

لكن سياسة القمع الثقافي والعجرفة التي سلكها الحكام العامون في عهد الجمهورية الثالثة، سيما ديقيدون، وشانزي، وتيرمان، نحو الجزائريين جعلت صوت الجيل الأول يكاد يخفت ويتلاشى. ولم يظهر صوت الجيل الثاني من دعاة تقليد الفرنسيين وتعلم علومهم إلا أواخر القرن. ذلك أن السياسة المذكورة قد جعلت الجزائريين يتقوقعون على أنفسهم ويحسون أنهم مستهدفون بالانقراض والذوبان في غيرهم، فتمسكوا بما عندهم وطالبوا باحترام عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ودينهم. وذلك في سلسلة من العرائض ابتداء من الثمانينات.

عبد القادر المجاوي وجيله: وقبل أن نذكر ذلك نشير إلى الكتيب الذي أصدره الشيخ عبد القادر المجاوي سنة 1877 وسماه (إرشاد المتعلمين). وهو كتيب طبع في مصر ولم يدخل الجزائر منه إلا نسخ قليلة، ولا نظن أنه حظي بعد ذلك بتوزيع يشبه توزيع جريدة المبشر. وكان بإمكان المجاوي أن ينشر أفكاره في هذه الجريدة لو أراد. ولكنه فضل أن يدعو إلى العلم والأخذ بأسباب الحضارة بطريقة محايدة وغير مرتبطة بالتمدن الفرنسي، كما فعل زملاؤه السابقون، فقد استوحى التراث الإسلامي. وكان يعرف أسباب نهوض وسقوط الأمم، وتقدم العلوم في الأمة الإسلامية في عصورها الذهبية، فدعا قومه إلى النهضة العامة متأثراً، ربما بالنهضة العربية - الإسلامية في المشرق على يد الأفغاني وخير الدين التونسي. ثم إن المجاوي كان قد عاش في المغرب الأقصى وتلقى علومه هناك، فكان تأثره الأول تأثراً إسلامياً عربياً لا فرنسياً. وقد جاء إلى قسنطينة مدرساً حراً، ثم أصبح أستاذاً في مدرستها الشرعية - الفرنسية. وكانت أفكاره في الكتيب

المذكور تُلْقَىعلى تلاميذه أيضاً، وقد كان من بينهم من كان يتجسس على أقواله وأفعاله. ولم يسلم مع دعوته للنهضة والتقدم، من هجوم الصحافة الاستعمارية على أفكاره لأنها ليست كأفكار الشيخ محمود ولا مصطفى بن السادات نابعة من المحيط الفرنسي، وصدى لما تنشره المبشر وإدارة الشؤون الأهلية والمكاتب العربية.

نحن مع المجاوي في السبعينات أمام دعوة للتعلم والنهوض، على الطريقة العربية الإسلامية وليس على الطريقة الفرنسية. دعا إلى تعلم اللغات وليس اللغة الفرنسية، كما فعل زملاؤه، ودعا إلى تقليد الغربيين في العلوم الجديدة وليس في كل شيء. لم يكن المجاوي منبهراً كبعض زملائه ولا مسلوب الفكر، بل كان معتزاً بماضيه وحضارته. ولم يكن حسب علمنا قد زار فرنسا، كما أنه لم يكن يتكلم الفرنسية. ولكنه رأى أن من سنن الله والتاريخ والحياة التداول على العلم والحكم والقوة. فدعا قومه إلى أن يعرفوا مكانتهم بين الشعوب. ومن ثمة جاءه النقد الشديد من غلاة المستعمرين بعد اطلاعهم على كتيبه، حتى اعتبروه أجنبياً عن الجزائر[1].

* * *

قيل عن لويس تيرمان، الحاكم العام للجزائر خلال عشر سنوات تقريباً، إنه هو صاحب المقولة الشهيرة: أن أعداء فرنسا ليس هم العرب ساكني الخيام، بل هم الذين علمناهم لغتنا ورفعناهم إلى درجتنا. وكان تيرمان حاكماً خلال عقد الثمانينات. فمن هم الجزائريون الذين علمهم الفرنسيون عندئذ لغتهم ورفعوهم إلى درجتهم؟ لو كان الأمر يتعلق بعقود لاحقة لوجدنا مبرراً لما قاله بالنسبة للأمير خالد وأحمد مصالي والأمين العمودي مثلاً. ولكن من هم المتعلّمون أعداء فرنسا خلال الثمانينات؟ لا

---

(1) انظر دراستنا «مدارس الثقافة العربية في الجزائر» في كتابنا (أفكار جامحة)، 1988. وكذلك دراسة آلان كريستلو عن المجاوي في مجلة (الثقافة)، 1978.

شك أنه يعني بعض أصحاب العرائض الذين رفضوا التعسف نحو القضاء الإسلامي واللغة العربية وسياسة التجهيل التي كانت تتبعها حكومة الجمهورية الثالثة، ونحو الحالة المدنية التي أنشأها تيرمان نفسه، وقانون الأهالي البغيض. إن سادة الجمهورية الثالثة قد حسبوا أن الطريق قد أصبح ممهداً أمامهم ليفعلوا بالجزائريين ما يشاؤون فإذا بأمثال حميدة بن باديس وبوشناق، ومحمد بن رحال والطبيب ابن العربي وأضرابهم يكتبون المقالات المضادة للإجراءات المذكورة ويدبجون العرائض الموقعة من مختلف الفئات دفاعاً عن المحرومين من «العرب ساكني الخيام» كما يقول تيرمان، وكذلك ساكني المدن.

إن جيل الثمانينات والتسعينات لم يتجاوز في دعوته إلى التقدمية الخطوط الحمراء. كان جيلاً ما يزال مرتبطاً بالماضي وبالأرض ومعتزاً بلغته ودينه، رغم ابتعاده عنهما بالتدرج. تقول عريضة ترجع إلى سنة 1891، وهي ترد على من يقول إن الجزائريين هم الذين لا يرسلون أولادهم إلى المدارس وأنهم متعصبون: أننا لا نستحي من القول بأن الدافع للبعض منا عدم إرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية هو تأكدهم من عدم تدريس اللغة العربية بها وخوفهم على إفساد عقولهم وأخلاقهم فيها، ونسيانهم لماضيهم وأصولهم ودينهم. ولا يرجع ذلك، كما تقول العريضة إلى التعصب الديني لأن «شعائرنا هي الكبرى والرائعة لكل جنس يروم تغطيتها». وقالوا إنهم على استعداد لإرسال أولادهم إلى المدارس إذا تحققوا أنها تدرس لهم بالعربية[1].

وقد ظلت الخطوط الحمراء قائمة أمام المتعلمين خلال التسعينات أيضاً. كانوا في الغالب مزدوجي التعليم ولكن ثقافتهم العربية الإسلامية تجذبهم إلى اتخاذ مواقف ضد الاندماج. كانوا ما يزالون محافظين على

---

(1) العريضة المسماة (مقالة غريق) ط. قسنطينة. انظرها في قنان أيضاً (نصوص سياسية) ص 230 ـ 246.

أصالتهم ومعتزين بهويتهم رغم حالة الرعية والبؤس التي كانوا عليها. ومن هذا الجيل برز محمد بن رحال ومحمد بن العربي، وحميدة بن باديس، وكانت دروس المجاوي وأمثاله تكوّن جيلاً آخر سيقف بالمرصاد ضد موجة التفرنس التي انطلقت مع فاتح القرن. وسيكون أصحاب هذه الموجة هم بلقاسم بن التهامي، وعلي بوضربة، وإسماعيل حامد، والطيب مرسلي. وكان هؤلاء يسمون بالنخبة (élite)، وهو اسم خادع، فهو من التعابير الموروثة عن العهد الاستعماري مثل التقدم المقصود به الاندماج، ومثل التعاون المقصود بـه الاستعمار الجديد. كما أن تعـبير «النخبة» يعني أن غيرهم غير نخبة، ومن ثمة يكون غيرهم متخلفاً ومنغلقـاً على نفسه.

نماذج من المثقفين والاندماجيين

محمد بن رحال: يعتبر محمد بن رحال من أبرز عناصر هذا الجيل الذي أراد الفرنسيون أن يجعلوا منه وسيطاً بينهم وبين الجزائريين، فجمع بين الثقافتين وبين اللغتين، وتوظف عندهم، ولكنه لم يتخل عن أصوله وتراثه الوطني والديني. فرغم الجاه العائلي والمكانة الاجتماعية كان ابن رحال صوت الجزائر العميقة وصوت التاريخ، ولم ينسه الوظيف والاعتبار المعنوي لدى الفرنسيين الدفاع عن الثقافة واللغة العربية والحضارة الإسلامية. ولم يكن في ذلك وحيد زمانه وإنما كان أكثر معاصريه تعبيراً عما يجيش في صدور المواطنين من تطلعات. كان يمكن أن يذوب في الثقافة الفرنسية وينبهر بالنظم والمخترعات الفرنسية، ولكن حصانته العربية الإسلامية وارتباطـه بالجذور جعلته يدعو إلى التطور وليس إلى الاندماج ويواجه الفرنسيين في مختلف المناسبات بمطالب هي من صميم الانعتاق للشعب.

حياة محمد بن رحال ذات جوانب عديدة. فهو رجل علم ودين، وهو قايد ونائب مالي (برلماني)، وهو مؤلف وباحث وأديب، ثم إنه رجل مدافع

عن العربية والإسلام في وقت اعتقد فيه الفرنسيون أن أمثاله لن يدافع إلا عن الفرنسية والاندماج. كما كان ابن رحال صاحب زاوية. ولا نريد أن نعالج كل ذلك هنا، لأن كل جانب من حياته له مكانه في هذا الكتاب، وإنما نكتفي في هذه الفقرة بموقفه من الحضارتين العربية والفرنسية. فقد ولد بمدينة ندرومة سنة 1270 هـ 16 مايو، 1857. وكان أبوه حمزة بن رحال من رجال القضاء للأمير، وكان أيضاً أديباً ومن أتباع الطرق الصوفية يقول البعض إنها الدرقاوية ويقول آخر إنها القادرية[1]. وعندما دالت دولة الأمير أبقاه الفرنسيون على وظيف القضاء، ثم ولوه وظيفة الآغا، وزادوه بسطة في الأرض والمال خلال الخمسينات. ولكن مرسوم 1863 غير الأوضاع وجعل الأرض تنتزع من أصحابها باسم الملكية الفردية. فتأثر الشيخ حمزة وترك الأمر في سنة 1878 لإبنه وخليفته محمد الذي لم يزد لقبه على لقب القايد بدل الآغا، إضعافاً لمكانة العائلة، ولكن محمد ضاقت نفسه بهذا المنصب الفارغ من المحتوى فاستقال منه سنة 1886 وتفرغ بعده للحياة السياسية والدينية والعلمية.

عنى الشيخ حمزة بابنه محمد فرباه تربية قديمة وجديدة وحصنه من الذوبان رغم المغريات. فعلمه في المدرسة القرآنية بالزاوية، وفي المدرسة العربية ـ الفرنسية الابتدائية، ثم أرسله إلى الجزائر حيث المدرسة السلطانية (الكوليج) التي كانت تستقبل أبناء الموظفين الجزائريين لتجعل منهم وسطاء، كما قلنا، وكانت مدرسة مزدوجة اللغة. وقد صادف وجوده فيها سقوط نظام نابليون وقيام الجمهورية الفرنسية التي ألغت المدرسة وألحقت طلابها بالليسيه. ولذلك أكمل محمد دراسته في هذه الثانوية (الليسيه)، وبعد تخرجه منها سنة 1874 رجع إلى ندرومة ليساعد أباه في وظيفه، فكان خليفته إلى أن تخلى له الوالد عن المنصب، كما ذكرنا.

---

(1) درقاوية عند عبد القادر جغلول في (عناصر ثقافية)، الجزائر 1980، ص 51 ـ 52. وقادرية في جريدة (المساء) 14 يوليو، 1992، مقالة مغفلة الكاتب.

ومنذ الثمانينات انطلق قلم وفكر محمد بن رحال في خدمة القضية الجزائرية والفكر العربي ـ الإسلامي. نشر عن التعليم العمومي في البلاد العربية، وعن السودان في القرن السادس عشر، كل ذلك عندما كان في الثلاثين من عمره. وقيل انه كان عندئذ صديقاً ليوجين ايتيان، نائب الكولون والمسؤول على شؤون المستعمرات في الحكومة الفرنسية. وكان ابن رحال يكتب بالفرنسية. ولكنه منذ التسعينات دخل المسرح السياسي والعلمي بقوة. وكانت المناسبة هي مجيء لجنة التحقيق برئاسة جول فيري إلى الجزائر سنة 1892. وقد عاش ابن رحال عهد لويس تيرمان، ونشأة قانون الأهالي (الاندجينا) البغيض، وتجريد القضاة المسلمين من صلاحياتهم، وتغيير الحالة المدنية، فرفع عقيرته أمام اللجنة المذكورة، وجرّد قلمه للدفاع عن حقوق الجزائريين في التعليم باللغة العربية، وفي التمثيل البرلماني، والمحافظة على تطبيق الشريعة الإسلامية، ومن أجل ذلك سافر مع زميله محمد بن العربي إلى فرنسا لتبليغ صوت الجزائريين إلى السلطات الفرنسية. وظهر ابن رحال سنة 1897 أمام مؤتمر المستشرقين مدافعاً عن الإسلام وقدرته على التطور. ونشر سنة 1901 مقالة بالفرنسية عن (مستقبل الإسلام) في مجلة ذائعة اسمها (المسائل الدبلوماسية والاستعمارية)[1]. وقد برز أيضاً سنة 1912 أثناء فرض التجنيد الإجباري فعارضه وتوجه إلى فرنسا على رأس وفد مطالباً بإلغائه، كما طالب بإلغاء الاندجينا سنة 1921.

ما نلاحظه أن محمد بن رحال كان جسراً لمرحلة صعبة[2]. تلك المرحلة التي ظن الفرنسيون فيها أن الجزائر قد أصابها العياء والقنوط من كل مقاومة، ثم المرحلة الأخرى التي ظهرت فيها الحركة الوطنية بزعامة الأمير

---

(1) Les Quest. Dip. et Col. رقم 12، 1901.

(2) اعتبره شارل روبير أجرون «عميد الشبان الجزائريين»، انظر «حركة الشبان الجزائريين» في (ميلانج جوليان) في دراسات مغربية، ص 240. ونحن لا نستطيع أن نضع ابن رحال مع ابن التهامي في صف واحد. فكل منهما ينتمي إلى مدرسة فكرية مختلفة، رغم معرفتها الفرنسية.

خالد، وكادت خطة الفرنسيين تنجح عندما ظهرت فئة «المطورنين» التي رضيت بالتجنس والزواج المختلط وعضوية الماسونية، واعتبرت أن الجزائري الحقيقي هو الذي عرف حق فرنسا عليه وانفصل عن جذوره الخاوية، كما يقولون، وتعلق بالأغصان اليانعة التي تمثلها الحضارة الفرنسية. هذه هي الملاحظة الأولى على نشاط محمد بن رحال، أما الملاحظة الثانية فهي أن جهوده، رغم قيمتها وقوتها كانت فردية، فهو يكتب ويسافر ويتكلم بصوته وحده تقريباً. فكأنه أديب رومانتيكي متطرف، رغم أنه كان يمثل إلى حد كبير روح الشعب وتطلعاته، كما قلنا. شارك في الجمعيات والنوادي ولكنه لم يؤسسها. ونصح وساهم في تحرير الجرائد ولكنه لم يرأس تحريرها. وحين ظهرت حركة الأمير خالد كان ابن رحال يدب إلى السبعين إذ توفي سنة 1928 عن 71 سنة[1].

الحكيم محمد بن العربي: وكانت مواقف الحكيم محمد بن العربي شبيهة بمواقف ابن رحال فيما نحن بصدده. فهو أيضاً من الذين أُعِدّوا ليكونوا وسطاء، من الجيل الثاني الذي نشأ في العهد الفرنسي وتلقى ثقافة مزدوجة وتحصن بالدين وتعلم الطب في الجزائر وباريس. ومع ذلك كان صوت الشعب المضطهد في مناسبات عديدة. ولد في شرشال سنة 1850 وتلقى فيها مبادىء القراءة والكتابة والدين والقرآن. ثم انتقل إلى العاصمة ودخل المدرسة العربية ـ الفرنسية ثم مدرسة الطب، ونال شهادة الدكتوراه من باريس. وعرف إلى جانب الفرنسية اللغة اليونانية واللاتينية. وكان من أصدقائه في باريس الأديب فيكتور هوغو. وبعد رجوعه إلى الجزائر اشتغل طبيباً بعيداً عن العاصمة، ثم دعاه أهلها إلى العمل بها فرضيت السلطات وحولته. ولكن عمله لم يكن هو الطب فقط، بل دخل الحياة السياسية المحدودة عندئذ، وهي النيابة في البلدية.

---

(1) نوّه الشيخ البشير الإبراهيمي بدور محمد بن رحال في المحاضرات التي كتبها عن الجزائر وألقاها على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة 1955. انظر (آثار الشيخ الإبراهيمي) جـ 5 (مخطوط).

ونحب أن نسجل عنه بعض المواقف. الأول أنه زار الأندلس سنة 1883 موطن أجداده، إذ كانت أسرته أندلسية الأصل، فتوقف بقرطبة وأشبيلية وغرناطة. وتأمل الآثار واستعاد الذكريات. وكان إعجابه بحضارة الأندلس أكثر من إعجابه بالحضارة الفرنسية التي خالطها في باريس. فلم يسلبه ما عاشه هنا ما تركه الجدود من ذكريات وجذور. والموقف الثاني أنه تولى النيابة في المجلس البلدي في مدينة الجزائر منذ 1888، أي في عمق عهد تيرمان. وأثناء ذلك وقعت محاولة هدم الجامعين الباقيين، وهما الجامع الكبير والجامع الجديد، وبناء فندقين مكانهما. وكان الحكيم محمد بن العربي، كما قيل، وراء إفشال مشروع (دوردون) الذي وافق عليه الحاكم العام تيرمان[1]. أما الموقف الثالث له فهو مطالبة لجنة جول فيري 1891 بإلغاء قانون الأهالي واحترام القضاء الإسلامي، والتعليم بالعربية. وقد سافر مع زميله محمد بن رحال إلى فرنسا لهذا الغرض أيضاً.

من الصعب أن نلم بكل جوانب حياة الحكيم ابن العربي هنا. وسنعالج موضوع أطروحته في الطب في فصل العلوم. ولابن العربي أخ في الطب أيضاً يدعى قدور، كان يعمل في البلاط التونسي. كما كان له أخ يعمل مترجماً عسكرياً احتياطياً. فهو إذن من عائلة اختارت أن تدرس الفرنسية ولكن بقاعدة عربية وانتماء حضاري متحمس. وكان ابن العربي ما يزال حياً سنة 1927 ولكن في أرذل العمر[2].

* * *

مع مطلع القرن العشرين ظهرت فئة من الاندماجيين المسلوبين، ولم يكونوا جميعهم سواء في تطرفهم أو جهلهم وتنكرهم لماضيهم. ففيهم

---

(1) عن هذه القصة أنظر فصل المعالم الإسلامية.

(2) انظر عنه محمد بن العابد الجلالي، (تقويم الأخلاق)، الجزائر 1927، ص 58 ـ 61.

المتحمسون مثل ابن التهامي وعمر بوضربة وأحمد بوضربة، وابن حمودة. وفيهم المنادون بالاندماج التدريجي مثل إسماعيل حامد والطبيب مرسلي. وفيهم الخاملون الذين كانوا يأكلون الخبز وينتمون فقط إلى هذه الفئة. وفي وقت لاحق ظهر اندماجيون غلاة أيضاً، أمثال الزناتي وابن الحاج، ومعتدلون، أمثال فرحات عباس (في المرحلة الأولى) وابن جلول... وكان محمد صوالح وتامزالي من فئة الاندماجيين الماسونيين، ولنقل كلمات عن بعض هؤلاء.

عائلة بوضربة (إسماعيل، أحمد، عمر، علي): كان إسماعيل بوضربة من هؤلاء الشباب الذين اتصلوا بالثقافة الفرنسية مبكراً، وإن كان هو يختلف عن زملائه من عدة وجوه. فهو ابن أحمد بوضربة الذي فاوض الفرنسيين سنة 1830 باسم الداي حسين، وهو أيضاً ابن المرأة الفرنسية التي كان أحمد متزوجاً بها في مرسيليا. وكان إسماعيل من مواليد مرسيليا سنة 1823. ووجدنا في وثائق أبيه أن هذا كان يسعى في آخر الثلاثينات لإدخال ابنه إلى المدارس الفرنسية في باريس (لويس لوقران؟) والحصول له على منحة. والغالب أنه نجح في ذلك. ومهما كان الأمر فقد درس إسماعيل في فرنسا وأصبح مترجماً مؤقتاً سنة 1853، ورئيسياً سنة 1872. وقضى جزءاً كبيراً من حياته في الأغواط مع بعض الضباط الفرنسيين، ومنهم دي باراي الذي وصفه «بالجوهرة». ولثقة الفرنسيين فيه كلفوه بعدة مهمات في مراكش وغات وغدامس ومناطق أخرى من الصحراء. وخاض مع الفرنسيين عدة معارك في الجنوب وجرح جرحاً غائراً في إحداها وقتل حصانه تحته. ورافق الضابط بولينياك إلى غدامس ونزل ورقلة.

وأصبح إسماعيل بوضربة عضواً في الجمعية التاريخية بالجزائر (كان يشرف عليها بيربروجر)، وعضواً في الجمعية الجغرافية بباريس[1]. وعندما توفي بالعاصمة (16 نوفمبر 1875) كتب على قبره أنه يمثل حلقة وصل في

---

(1) انظر ما كتبناه عنه سابقاً.

مزج الأعراق[1]. والمقصود أنه من سلالة عربية وفرنسية. ولا ندري إن كان إسماعيل قد تزوج من فرنسية أيضاً وما إذا كان قد تجنس والغالب أنه فعل. وقد كان فعلاً يمثل الاتجاه الاندماجي بحكم ميلاده وأعماله وكتاباته. وكان اعتراف الفرنسيين بخدماته دون الجهود التي بذلها من أجلهم.

وقد بقيت عائلة بوضربة تمثل نفس الاتجاه بعد ذلك. ففي أوائل هذا القرن وجدنا بعض أسمائها في قائمة المتجنسين والعاملين على الاندماج والفرنسة. ومنهم المحامي أحمد بوضربة الحفيد فقد كان سنة 1904 محامياً في محكمة الاستئناف بالعاصمة. وألقى في 12 مارس 1904 محاضرة في (جمعية الدراسات السياسية والاجتماعية)، قال فيها إن الشريعة الإسلامية ما هي إلا أسطورة لا يفهمها المسلمون وهم لا يطبقون تعاليم القرآن. وكان بذلك يرد على من يقول إن قوانين الاندماج ستمس المشاعر الدينية للمسلمين. وفي نظره أن الخوف من ذلك لا يمثل عقبة في وجه الاندماج القانوني. وكان أحمد بوضربة هذا من المتجنسين. ويذهب آجرون إلى أن عبد الرزاق الأشرف قد عارض بوضربة ودافع عن الشريعة الإسلامية، وقد زعم بوضربة أن الشريعة مستوردة. كما ذهب آجرون إلى أن بوضربة كان ابناً لمتجنس، وأنه كان عضواً معروفاً في الجمعية الماسونية. وهناك فرد آخر من عائلة بوضربة، وهو عمر، كان أيضاً متجنساً، حسب رواية آجرون، وكان من التجار[2]. وفي سنة 1912 كان الوفد الذي توجه إلى فرنسا باسم الاندماجيين يضم واحداً من عائلة بوضربة أيضاً (ولعله عمر).

وإذا صدقنا الروايات الفرنسية فإن لجنة فيري سنة 1892 قد تلقت اقتراحاً من أحمد بوضربة بن حسن يطالب بتجنيس المسلمين بالتدرج مع

---

(1) بيروني، مرجع سابق، ص جـ 2، ص 375. وعائلة بوضربة من أصل أندلسي.

(2) آجرون (الجزائريون المسلمون) 2/699، هامش 6، وكذلك ص 1032 هامش 3، وص 1040، 1049. وكانت (جمعية الدراسات السياسية والاجتماعية) برئاسة أوميرا، عميد الصحفيين ومستشار الحكومة، بينما رئيسها الفعلي هو قاستو، وبوضربة هو كاتبها العام. انظر المجلة الافريقية، 1908، ص 143.

المحافظة على الأحوال الشخصية. وفي مقابل ذلك يخدم أهل المدن في الجيش الفرنسي. أما الوظيفة العمومية فتبقى مقصورة على المتجنسين فقط من المسلمين[1]. ونلاحظ أن الجزء الأول من الاقتراح يكاد يكون هو نفسه الذي تبناه موريس فيوليت بين الحربين واحتضنه ابن جلول وفرحات عباس. ويبدو أن اقتراح بوضربة كان متقدماً وتبني المؤتمر الإسلامي له كان متأخراً.

وقد بالغ عمر بوضربة فاستنكر سنة 1911 وجود السلك الديني الإسلامي (الهيئة الدينية)، وقال إن الإدارة الفرنسية تشغله لصالحها لكي تسيطر به على الأهالي. ولعله كان على حق في ذلك. ويبدو أنه كان متحرراً «ولائكياً» أو علمانياً جداً، إذ كانت تلك الظروف تشهد فصل الدين عن الدولة. ولا غرابة في اعتناقه هذا المذهب بالنسبة للإسلام أيضاً فقد كان، كما أشرنا ماسونياً أيضاً، ومتجنساً. أما من حيث المهنة فقد كان تاجراً. ومهما كان الأمر فقد احتج عليه علماء السلك الديني لأنه نادى بتحرير الأهالي من نفوذ هم، لأنهم، في نظره، يعوقون التطور[2]. ولا ندري الآن ما إذا كان يعني رجال الدين مطلقاً، بمن فيهم شيوخ الزوايا، أو كان يقصد هيئة الموظفين كالأيمة والحزابين. ذلك أن الهيئة الأخيرة قد فقدت في الواقع كل نفوذ لها على العامة. أما رجال التصوف فما يزال لهم تأثير كبير.

وكان علي بوضربة أحد هذه الأسرة التي ارتبطت بالاندماج. وقد عاش فترة قصيرة من عمره، ولكنه مع ذلك حصل على درجة الدكتوراه في الطب، فكان من النوادر في ذلك بين الجزائريين. وهو ابن محمد بوضربة أخو إسماعيل سابق الذكر، وكان محمد متولياً للفرنسيين خزينة الأوقاف قبل

---

(1) نفس المصدر، ص 1116. نقلاً عن دفتر جول فيري رئيس اللجنة. ولنلاحظ أن المؤتمر الإسلامي قد تبنى المساواة مع بقاء الأحوال الشخصية وليس التجنس، كما جاء في اقتراح بوضربة.

(2) آجرون (الجزائريون المسلمون)، 2/1046.

إلغائها[1]. وقد تزوج علي بوضربة أيضاً من فرنسية مثل جده، وكانت بدورها تمارس مهنة القابلة ـ الطبيبة في العاصمة. وتولى أيضاً النيابة في بلدية الجزائر سنوات طويلة على أساس أنه يدافع فيها عن حقوق الأهالي. وقد قال عنه رئيس البلدية الفرنسي (الْتِيرَاكْ) أن علي بوضربة كان الأكثر ارتباطاً بالنظم الفرنسية والتطور الحضاري. ونعاه زميله إسماعيل حامد سنة 1907، ولما يتجاوز الثالثة والأربعين[2].

الحكيم الطبيب مرسلي: وهو أيضاً طبيب جزائري من وهران، أبوه كان ضابطاً في فرسان الصبايحية في الجيش الفرنسي. وكان أولاد هؤلاء الفرسان مبجلين في دخول المدارس الفرنسية، ومنها مدرسة الطب. ويقال إن الطبيب مرسلي هو أول طبيب مسلم تخرج منها. وقد انتقل للعمل في قسنطينة واستوطنها بدون أن نعرف التواريخ المضبوطة عن حياته. وقد شارك الأعيان في قسنطينة نشاطَهم وعرائضَهم، فوجدناه يوقع مثلاً عريضة 1891 التي قدمت للجنة جول فيري. وتزوج هذا الطبيب من فرنسية، وأخذ الجنسية الفرنسية أيضاً بمقتضى مرسوم 1865 الذي كان يشترط للحصول عليها التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية. ومع ذلك تنعته الوثائق الفرنسية «بالحاج الدكتور» لأنه أدَّى فريضة الحج. وقد كلفته السلطات الفرنسية بمهمة في جدة سنة 1885، تتعلق بانتشار وباء الكوليرا، ونال على مهمته ميدالية فضية.

ألف الطبيب مرسلي كتاباً سماه «المسألة الأهلية»[3]. طرح فيه كل ما

---

(1) كذا وجدنا إسماعيل حامد يقرر في مقاله عن علي بوضربة، ولكننا نعرف أن مصطفى بوضربة، عم أحمد بوضربة، هو الذي كان معاصراً للاحتلال، وتولى خزناجيا على مداخيل الأوقاف، إلى أن عزله الفرنسيون حوالي 1835، وتوفي مصطفى، على ما نعلم، في المغرب، مثل ابن أخيه أحمد. والملفت للنظر حقاً هو أن عائلة بوضربة قد ارتبطت بالإدارة الفرنسية منذ الاحتلال.

(2) إسماعيل حامد (مجلة العالم الإسلامي)، نوفمبر/ ديسمبر 1907، ص 495 ـ 496. وكانت الوفاة في 25 أكتوبر 1907.

(3) قسنطينة، 1894.

يهم الجزائريين عندئذ من تمثيل برلماني وحقوق وضرائب وقوانين استثنائية (الاندجينا). وعند تأسيس نادي صالح باي أصبح من وجوهه إلى جانب ابن الموهوب والفرنسي (أريب). وبعد إعادة تنظيم المدارس الشرعية الثلاث عين مرسلي لإعطاء درس في الصحة العامة لتلاميذ مدرسة قسنطينة. وكان له احترام بين الأهالي رغم أنهم يعتبرونه «مطورني» أو متجنساً، وهو في نظرهم خارج عن الدين الإسلامي. ومن جهته كان يتقرب للأهالي ظاهرياً ولكنه في حياته الخاصة، حسب زميله إسماعيل حامد، كان يعيش عيشة فرنسية. وفي سنة 1907 ألقى مرسلي كلمة في حفل توزيع الجوائز في مدرسة جول فيري الأهلية بقسنطينة، وهي مدرسة ابتدائية. وقد ألح فيها على مبدأ الاندماج والمشاعر المشتركة التي رسخها، كما قال، الدم المشترك بين الفرنسيين والجزائيين، وهو يقصد الدماء التي سالت منهم في المعارك التي خاضوها من أجل فرنسا مثل حرب القرم والحرب السبعينية وإيطاليا والمكسيك، وخاطب التلاميذ بأن يكونوا أفضل من آبائهم في وضع اليد في اليد (التعاون) مع الفرنسيين للسير قدماً إلى مستقبل واحد، وقال: «علينا أن نكون فرنسيين بالمشاعر والقلوب، نحن الذين تربينا على نفس المقاعد كالفرنسيين الصغار».

وقد هنأه الحاضرون على خطابه الناجح في نظرهم، وقالت مجلة العالم الإسلامي إنه من الشخصيات الأهلية الأكثر تعاطفاً مع العالم الأوروبي، وكذلك مع العالم الإسلامي. وكان الطيب مرسلي ما يزال إلى سنة 1907 يمارس أيضاً الطب في المستشفى المدني بقسنطينة[1]. وقد عاصر جيلاً من القضاة والعلماء في قسنطينة يبدو أنهم قد أثروا على مواقفه، فالمحيط الخارجي له دوره في توجيه الإنسان. فقد كانت قسنطينة على عهده تعيش على أفكار المجاوي وتلاميذه، وحميدة بن باديس، وحمدان الونيسي

---

(1) إسماعيل حامد في (مجلة العالم الإسلامي) نوفمبر ـ ديسمبر 1907، ص 494 ـ 495، نقلاً عن جريدة (الجمهوري القسنطيني)، عدد 18 أكتوبر 1907. انظر أيضاً آلان كريستلو (المحاكم. . .)، مرجع سابق، ص 239.

وصالح بن مهنة، وهو ما سماه مالك بن نبي عهد «الإصلاح المحلي».

إسماعيل حامد: نملك عن إسماعيل بن أحمد حامد معلومات طيبة، ولكنها غير كافية، وهي مستخرجة من كتاباته في الأغلب؛ ولكننا لا نملك عنه حتى الآن ترجمة وافية. ولد بالعاصمة في 4 غشت 1857، ودرس بها العربية والفرنسية، ولكننا لا ندري مدرسته وشيوخه. وبناء على كتاباته فإنه كان متمكناً من اللغتين، ولا سيما الفرنسية التي كتب بها كتباً ومقالات تاريخية وأدبية. وقد أصبح من المترجمين البارزين في الجيش الفرنسي إذ تصفه المصادر بأنه كان المترجم الرئيسي في قيادة الأركان العامة، وكان هو نفسه من الضباط. ولعله قد تخرج من المدرسة السلطانية (الكوليج) وأكمل في الليسيه على غرار ما فعل محمد بن رحال. فهو وإياه متعاصران ومتشابهان في الثقافة والظهور، وإن كان كل منهما له مراجعه العائلية وانتماءاته وعقيدته في التراث الإسلامي والحضارة الأوروبية.

ظهرت كتابات إسماعيل حامد منذ التسعينات. كان يكتب في المجلة الأفريقية ثم مجلة العالم الإسلامي، وفي غيرهما. وقد أصدر كتابه (مسلمو شمال أفريقية) سنة 1906 وأيد فيه تيار الاستغراب والتفرنس وشايع فيه السياسة الفرنسية الجديدة التي تبناها جول كامبون وشارل جونار. وقام بمهمات للسلطات الفرنسية في المغرب الأقصى وأفريقية، عندما كانت السياسة الفرنسية تعمل على التدخل في هذين الاتجاهين. كانت رحلته إلى المغرب سنة 1900 حيث قضى خمسة أشهر وكتب انطباعاته ونشرها في المجلة الأفريقية. ولكن تقاريره السرية لم تظهر عندئذ. وكان حامد من الجزائريين الرواد للاستشراق الفرنسي في المغرب وكذلك للإدارة أمثال محمد بن أبي شنب وعمر (سعيد) بوليفة ومحمد نهليل. كما كان أحمد مجقان وابن حمودة والجنيد أحمد مكي في أفريقية الغربية والوسطى. ويعتبر إسماعيل حامد رائداً في الكتابة عن السودان الغربي وأفريقية الغربية الإسلامية والتعريف بمصادرها. ولكن دوره في ذلك ما يزال مجهولاً عند المعاصرين.

وبالنسبة لأفريقية العربية ـ الإسلامية نشر إسماعيل حامد مجموعة من الدراسات وعرف بالعديد من المخطوطات. وكانت أعماله تتسم بالعمق والاستيعاب كاستخدام المصادر والتعاليق والمقارنات مما يدل على ثقافته الواسعة ومنهجيته. وقد ترجم الكثير من النصوص إلى الفرنسية. فهو من هذه الناحية «مستشرق جزائري». أفاد حامد المستشرقين الفرنسيين واللغة الفرنسية بأعماله، ولكنه أيضاً أفاد التراث العربي الإسلامي بالتعريف به وإلقاء الضوء عليه. من ذلك ترجمة كتاب (نور الألباب) في الفقه والتصوف والأحكام، للشيخ عثمان بن محمد بن عثمان المعروف بابن فوديو. وهو من بلاد الهوسة (بلاد الحوس كما كتبها). والكتاب يتحدث أيضاً عن حالة الجهل والخرافة التي أصابت المسلمين في هذه المنطقة، وقد دعا إلى الخروج منها أو من عهد البلوى، كما يسميه ابن فوديو. وكان ابن فوديو سلطاناً على تلك البلاد، ومن المصلحين المسلمين. وقد نشر حامد النص العربي والفرنسي[1].

وفي نطاق الأدب العربي والحضارة الإسلامية في أفريقية والصحراء نشر إسماعيل حامد عدة أبحاث نذكر منها: (الأدب العربي الصحراوي) سنة 1910. وبعد جولة عامة في التاريخ تحدث عن كتاب مخطوط في التصوف والتاريخ والتراجم عنوانه (كتاب الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد) من تأليف محمد بن المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي، المتوفى 1826. والكنتي هذا من الأزواد. ويقع المخطوط في 371 ورقة. وللكنتي أيضاً كتب أخرى مثل (الشموس الأحمدية) و (هداية الطالب) وقد عرضهما إسماعيل حامد، سيما كتاب (الطرائف) الذي حلله في مقالتين طويلتين[2].

وفي بحثه (الحضارة العربية في أفريقية الوسطى) أورد إسماعيل حامد

---

(1) المجلة الأفريقية، 1898، رقم 227، 228، المجلد 42، ص 58 ـ 81.

(2) مجلة العالم الإسلامي، أكتوبر 1910، ص 194 ـ 213، ونوفمبر 1910، ص 380 ـ 405.

معلومات هامة تتعلق بالتجارة القديمة وجوانب التعامل الحضاري، وطرق انتشار الإسلام واللغة العربية في هذه المناطق، وهي النيل، وليبيا، والجزائر، والمغرب الأقصى. ومن مصادره في هذه الدراسة رحلة عمر التونسي وكتاب تاريخ السودان، وأشعار دينية عديدة، وتراجم، ومخطوطات مختلفة، مثل كتاب (الطرائف) سابق الذكر[1].

كان إسماعيل حامد مهتماً بالخصوص بموريطانيا والسينيغال. فقد نشر بحثاً بعنوان (ناصر الدين) ـ وهو أحد الأولياء ـ ووعد بنشر الكتاب الذي يفصل ذلك بنفس العنوان عن «موريطانيا السينيغالية» ـ كما قال. وأورد في هذا البحث معلومات أخرى عن التجارة والموارد الطبيعية في الصحراء الغربية عندئذ[2]. كما تحدث عن (كتاب الأنساب).

ولإسماعيل حامد أيضاً بحث مهم سماه (المدن الصحراوية) ومنها تمبكتو وشنقيط وولأته، وعابير[3]، الخ. وقد اعتمد في بحثه هذا على كتب ومصادر سودانية مثل مؤلفات أحمد بابا وتاريخ السودان. وقد يكون إسماعيل حامد أول العرب والمسلمين الذين كتبوا دراسة مطولة وموثقة عن الكنتيين وزاويتهم وصلحائهم وتجارتهم وعلاقاتهم. وهم، حسب الدراسة، من أحفاد الصحابي عقبة بن نافع، وقد أورد القصص حول التطورات التاريخية للمنطقة والعائلة الكنتية. وجاء بمؤلفات عربية وأوروبية، وذكر تاريخ أحمد البكاي المرابط الشهير صاحب الزاوية القادرية، وشجرة العائلة

---

(1) نفس المصدر، أبريل 1911، ص 1 ـ 35.

(2) مجلة العالم الإسلامي، نوفمبر 1909، ص 421. الواقع أن حامد نشر (حوليات موريطانيا السينيغالية) وهي تضم سيرة الشيخ ناصر الدين بقلم الديماني، وكذلك كتاب (الأنساب) له، و (شيم الزوايا) لمحمد السعيد اليدالي. وقد سبق في ذلك رينيه باصيه الذي أعاد نشر هذه الأعمال في كتابه (مهمة سينيغالية) سنة 1913، بعد أن أرسل إليه تلميذه في السينيغال، السيد ديستان، مخطوطة الحوليات. وبرر باصيه إعادة النشر بأن فهرس إسماعيل حامد فيه أخطاء (؟).

(3) نفس المصدر، يونيو (جوان) 1912، ص 260 ـ 279.

النَّسَبية[1]. والمعروف أن المنطقة كانت قد دخلت أيضاً في الصراع السياسي بين الفرنسيين والإنكليز، ولعب في ذلك أحمد البكاي القادري والحاج عمر التجاني أدواراً في ذلك الصراع.

وبذلك يتضح دور إسماعيل حامد في دراسة النشاط الإسلامي بأفريقية، وفي التوغل الفرنسي هناك، وفي خدمة الرؤية الاستشراقية المعاصرة. ونحن نجده من المساهمين البارزين في مجلة العالم الإسلامي منذ إنشائها كما يدل على ذلك فهرسها لسنوات 1906 ـ 1911. فقد غطى فيها موضوعات عديدة بعضها طويل، كما ذكرنا، وبعضها قصير، مثل تتبعه للصحافة المصرية، والمؤتمرات الإسلامية، وحياة المسلمين في المشرق والمغرب، والتجارة الأهلية، والطرق الصوفية، والتعليم العربي في مصر، والفتاوى التي كانت تصدر في مجلة (المنار)، والطريق بين حلب وبغداد، وعلم الكلام عند الحنابلة، والرحلات الإسلامية، بالإضافة إلى نبذ عن حياة زملائه في الجزائر مثل بلقاسم بن التهامي عندما عين مديراً لعيادة طبية، والطيب مرسلي عندما خطب في التلاميذ بقسنطينة حول الاندماج، وعلي بوضربة[2] عند وفاته.

في يناير سنة 1899 ذهب إسماعيل حامد إلى المغرب الأقصى في مهمة خاصة من السلطات الفرنسية. ويبدو أنه لم يتوغل فيه كثيراً، وإنما أقام في وجدة يتنصت الأخبار ويجمع المعلومات. ولا ندري نوعية المعلومات التي كان مكلفاً بجمعها، ولكن ما نشره بعد قضاء خمسة أشهر هناك لا يخرج عن الموضوعات التي تهم كل زائر فضولي لبلد غني بالحياة والنشاط والتناقضات. فمقالته أو رحلته تضمنت وصف العادات والتقاليد، واللهجة، والأسواق، والإدارة، ونفوذ السلطان، والموسيقى، والجالية الجزائرية بوجدة . وقال إنه كان سيقضي هناك بين ثلاثين وأربعين يوماً ولكن «ظروفاً» جعلته يمدد إقامته إلى خمسة أشهر دون أن يفصح عن هذه الظروف. وقد

---

(1) نفس المصدر، 1911، ص 302 ـ 318.

(2) مجلة العالم الإسلامي، الفهرس العام لسنوات 1906 ـ 1911، ص 44.

يكون ذلك بأمر من السلطات الفرنسية نفسها للحاجة إليه هناك. وقد يكون ذهب إلى وجدة من وهران. وأخبر أن إدارة وجدة سنوات 1844 ـ 1859 كانت تحت الإدارة الفرنسية. وخلاصة رأي إسماعيل حامد أن على فرنسا أن تحتل المغرب الأقصى[1]. وقد اشتملت رحلته أو مقالته الطويلة على خريطة. وأظهر أنه عالم بفن الموسيقى أيضاً إذ جاء بثلاث صفحات من النوطة الموسيقية المغربية، وخصص لها بعض الصفحات من الرحلة وأخبر أن كل الناس هناك يحبون الموسيقى.

ولعل دراسة وضع الجالية الجزائرية في وجدة كان جزءاً من مهمة إسماعيل حامد أيضاً، فقد قال إنك تجد فيها كل أنواع الجزائريين: الهاربين من كايان، والمنفيين، واللاجئين من كل صنف، والفارين من الخدمة العسكرية، وقال إنهم جميعاً يخفون حياة لا أحد هناك يسألهم عنها. ومن بينهم امرأة حاجة كانت تعرف الفرنسية، وجاءت، بعد سنوات من التجوال، تبحث عن «كافر»، حسب تعبيره، فرّ من بيت الزوجية في قسنطينة، إلى وجدة حاملاً ما سرقه منها من ملابس فاخرة وحلى ثمينة. فهل هذا يعني أن هذه الحاجة كانت متزوجة من فرنسي وسرقها ثم هرب عنها؟ إن إسماعيل حامد قد ترك ذلك لفطنة القارىء، ولعله قد أفصح عنه في تقريره السري[2].

وفي رحلته المغربية قارن إسماعيل حامد بين الجزائريين وأهل المغرب الأقصى في التوجه إلى الحج، وهو الموضوع الذي سيعالجه أيضاً في كتابه عن مسلمي شمال أفريقية. قال إن الجزائريين لم يعودوا يتوجهون إلى المشرق ولا إلى السودان، وحتى في أداء فريضة الحج، فهم يتناقصون. ويرجع ذلك إلى الاحتلال الفرنسي. بينما يذهب أهل المغرب الأقصى إلى المشرق بكثرة للحج وغيره[3]. وهو لم يفصح عن ذلك في رحلته إلى وجدة، ولكنه في كتابه المذكور أرجعه إلى اليقظة العقلية وضعف الحماس

(1) المجلة الافريقية، 1900، ص 97 ـ 134.
(2) نفس المصدر، ص 123 ـ 124.
(3) نفس المصدر، ص 104.

الديني عند الجزائريين. وهو هنا يعمم ولا يخصص، ولكن حديثه يفهم منه أنه كان يقصد المستغربين أمثاله ودعاة الاندماج الذين لم يعد يهمهم أمر المشرق، إنهم أصبحوا يتوجهون إلى فرنسا. والغريب أنه لم يذكر، وهو عليم بذلك، محاولات السلطات الفرنسية منع الحج على الجزائريين متعللة لذلك بشتى العلل[1].

لا نعرف إن كان إسماعيل حامد من المتجنسين وما إذا كان متزوجاً من فرنسية كغيره من المستغربين عندئذ. ولكن دعوته إلى الاندماج الحضاري كانت واضحة، فرغم اطلاعه على أحوال العالم الإسلامي، وهو استثناء لأن معظم المستغربين كانوا منقطعين فكرياً عن العالم العربي والإسلامي، بل حتى عن مواطنيهم في الجزائر، قلنا رغم ذلك، فقد كان يدعو إلى تذويب المجتمع الجزائري في الحضارة الفرنسية. ولعل ذلك هو ما جعل باحثاً مستشرقاً أمريكياً، وهو لوثروب، يعتبره من «المصلحين» المسلمين في الجزائر. وقد نسب إليه المقولة التالية: «لا تقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال»[2] وهو قول في غاية الحكمة والمنطق. وأضاف إليه مقولة أخرى وهي: «كان للاتجاه الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذي وإن كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر، فهم يجهلون حدّ ما وصلت إليه روحهم الدينية من التلاشي»[3].

لفت إسماعيل حامد إليه الأنظار منذ صدور كتابه (مسلمو شمال أفريقية)، لأنه دعا فيه إلى أن تلعب (النخبة) دوراً رئيسياً في الحياة السياسية، وأبرز التطورات التي حدثت في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، ومنها تخلي الجزائريين تدريجياً عن تقاليدهم وأفكارهم القديمة كالتعصب الديني، في نظره، وتطلعهم إلى التعلم وتقليد الفرنسيين، وابتعادهم عن الشرق والحياة

---

(1) عن ذلك انظر فصل السلك الديني والقضائي.

(2) الأمير شكيب ارسلان (حاضر العالم الإسلامي) 1/269.

(3) نفس المصدر 1/273.

القديمة. لم يدرس إسماعيل حامد الأسباب ولكنه وصف الواقع. ولم يدع إلى النهضة العربية الإسلامية بثورة عن الذات والرجوع إلى الأصول والاستفادة من حضارة الغرب، وإنما دعا إلى الانطلاق من الحاضر، أي مما وصل إليه التأثير الفرنسي المتزايد في المجتمع الجزائري، مطبقاً للمخططات الفرنسية نفسها. ذلك أن هذه المخططات كانت تهدف منذ 1830 إلى الوصول إلى هذه النتيجة، وهي أن يتنكر الجزائري نفسه لماضيه وأن يستلب من هويته ويذوب في هوية أجنبية عنه دون شعور منه بذاته. ورغم معاصرة إسماعيل حامد لمدرسة الشيخ محمد عبده وزيارته للجزائر 1903، وتأثيره في أمثال محمد بن مصطفى خوجـة وعمر راسم وعبد الحليم بن سماية، فإنه (أي حامد) كان يبدو بعيداً عن التأثر بهذه المدرسة الاصلاحية «الشرقية». وكل ما كان يعنيه هو وصف ما آل إليه المجتمع الجزائري، في نظره، من التأثير الفرنسي واستعداده للدخول في «الحرم والاحترام» الفرنسي، حسب تعبير جريدة المبشر.

استُقْبِل كتاب إسماعيل حامد بآراء مختلطة من الفرنسيين، ولكن معظمها تحبذ استنتاجه، سيما من أولئك الذين يؤمنون بدور النخبة المستغربة في دمج المجتمع الأهلي في البوتقة الفرنسية. راجعت الكتاب مجلة (أفريقية الفرنسية) فتساءلت: هل المسلمون الجزائريون يمكن تمهيرهم (من المهارة)؟ وهل هم قابلون للاندماج؟ وهل سيقتربون منا ذات يوم؟ ثم قالت: إن هذه الأسئلة هي التي شغلت الرأي العام كثيراً هذه الأيام، فاعتقد المستوطنون (الكولون) العارفون منذ أمد طويل بعقلية الإنسان «الأهلي» أن هذا الإنسان لا يمكن تصحيحه وليس له قابلية في الاندماج والتقدم، لأنه متعصب ومعارض لكل تقدم. وهذا الحكم ما يزال شائعاً اليوم. ولكن إسماعيل حامد، حسب (أفريقية الفرنسية)، وهو أهلي أصلاً ومثقف بالفرنسية ومترجم... يقول إن هذه الفكرة متعجلة ومؤسفة. فقد قال إنه أصبح في الجزائريين من يكتب بالفرنسية مثل محمد بن رحال والطيب مرسلي، وأن من الجزائريين من أصبح محامياً وصحفياً ومترجماً، وعسكرياً،

وأستاذاً. وكلهم من «النخبة». كما ضرب أمثلة أخرى على الاستعداد للذوبان، وذلك بالزواج المختلط الذي بدأه، كما قال: رجال الدين أمثال شريف وزان وأحمد التجاني وأبو بكر (من أولاد سيدي الشيخ). وهذا في نظره ما يؤكد وجود فئة مستعدة لتقليد أوروبا، وهو يسميها الفئة «المُتَرَوْبِنَة». وقد ادعى أيضاً أن أول من انضم للفرنسيين هم رجال الدين[1].

أطروحة إسماعيل حامد في الاندماج والاستعداد له أبرزها مقدم الكتاب، وهو المستشرق العسكري لوشاتلييه[2]، ومراجعة ليون غوتييه. قارن غوتيه بين كتاب إسماعيل حامد وكتاب برونيل. قال برونيل إن الجزائري غير قابل للاندماج مستشهداً بمَا حدث في قضية عين التركي (مرغريت) سنة 1902. فقد قال إن المسلمين ثاروا عندئذ لانتزاع الأرض من المستوطنين الفرنسيين. وأنهم كانوا ضد الاستبداد الإداري، حسب ما جاء في الدفاع أثناء المحاكمة. وادعى برونيل أن المسلمين متعصبون دينياً، وأن لهم عقيدة راسخة في مولى الساعة أو المهدي المنتظر. أما إسماعيل حامد فقد بنى رأيه، حسب غوتييه، على أن الاندماج في المراكز الأوروبية حقيقة واقعة، وأنه (حامد) ينتمي إلى هذه المراكز. وأرجع أحداث عين التركي إلى الطموحات الشخصية للبعض، أو غضبهم، وليس إلى التعصب الديني الذي يقول به الفرنسيون دائماً، ومنهم برونيل. وقال حامد إن الدين الإسلامي أكثر الأديان تسامحاً وأن المسلمين أكثر الشعوب تسامحاً لذلك. والغريب أن حامد قد حبذ قانون الأرض سنة 1863 الذي سلب الجزائريين ما بقي لهم من أرض باسم الملكية الفردية، واعتبره كرماً وتكرماً من الفرنسيين، كما نوّه

---

(1) مراجعة (افريقية الفرنسية) A. F. الملحق، شهر غشت 1906، ص 267 ـ 268. وقد صدر الكتاب في باريس 1906، 316 صفحة.. والإشارة التاريخية إلى رجال الدين يقصد بها قبول الحاج محيي الدين، مرابط القليعة لوظيف (الآغا) في عهد بيرتزين سنة 1831.

(2) أستاذ كرسي المجتمعات الإسلامية في كوليج دي فرانس، ومدير مجلة العالم الإسلامي. انظر عنه فصل الاستشراق.

بفائدة الاستيطان الفرنسي لما فيه من فوائد تعليمية للجزائريين، فهو في نظره ضرورة للازدهار الاجتماعي[1].

كان اطلاع وثقافة وتأثير إسماعيل حامد يمكن أن تنضم إلى أنشطة محمد بن رحال، ومحمد بن أبي شنب، وعبد القادر المجاوي، وابن علي فخار، وابن الموهوب، وأن تتكون منهم نواة لحركة إسلامية متجددة تدعو إلى التعليم والنهضة في وقت مبكر. فهم فئة تملك الرؤية، والقلم واللسان. ولكن الجهود كانت مشتتة والرؤية ليست واحدة. فقد كانت دعوة إسماعيل حامد إلى تكريس الواقع لا إلى تغييره، وإلى توجيه الاهتمام بالروابط الفرنسية لا بالروابط العربية الإسلامية[2]. وكان الاهتمام الذي حظي به كتابه يرجع إلى دعوته إلى التقارب الجزائري ـ الفرنسي والاندماج، وهو ما لم يحظ به مثلاً فكر ابن رحال ولا فكر المجاوي وابن سماية ممن كانوا يعتبرون أصحاب العمائم القديمة، رغم ثقافتهم العصرية ورؤيتهم المستقبلية.

ابن علي فخار: لم يدع ابن علي فخار إلى نخبة الأفراد فقط ولكن إلى نخبة المدن أيضاً. انطلق من أن الجزائريين ليسوا سواء في المدن والأرياف. ومن الغلط في نظره، أن يسوى الفرنسيون في حكمهم على المسلمين بمسطرة واحدة. ابن علي فخار من أصل أندلسي (الفخارين) ومن مدينة تلمسان. درس في مدرسة تلمسان الفرنسية بالشرعية، ثم أكمل دراسته في مدرسة الآداب العليا بالجزائر. فدرس على رينيه باصيه وفانيان. ومنذ 1901 ذهب إلى فرنسا حيث كان يعلم اللغة العربية الدارجة في الغرفة التجارية

---

(1) مراجعة في (المجلة الجغرافية الجزائرية) SGAAN ,1906، ص 210 ـ 214. وقد ألقى ليون غوتييه محاضرة يوم 10 مايو، 1906، حول الكتابيين.

(2) يقول بيروني (الكتاب الذهبي) 1/506 إن إسماعيل حامد قد أصبح مترجماً عسكرياً سنة 1877، وترقى في هذه الوظيفة أثناء خدمته في مدينة معسكر وآفلو والعين الصفراء ووهران وباريس. وكان حامد في وهران سنوات 1895 ـ 1904، وفي باريس 1905 ـ 1912. وتقاعد سنة 1913. وكان ما يزال حياً سنة 1930 (سنة نشر الكتاب الذهبي).

بمدينة ليون. وفي هذه المدينة درس القانون وتخصص في الشريعة الإسلامية، وحصل سنة 1908 على الدكتوراه في موضوع رئيسي هو (الربا في الشريعة الإسلامية وعواقبه العملية)، أما الموضوع الثانوي فهو (القراض). وتقول المصادر الفرنسية إنه أول دكتور جزائري (مسلم) يحصل على الدكتوراه في القانون، وهي في الواقع دكتوراه من قسم العلوم الاقتصادية والسياسية عندئذ، ولكنه ناقشها في كلية الحقوق بجامعة ليون. وقد راجعت أطروحته مجلة العالم الإسلامي ونوهت بعمله[1].

كان ابن علي فخار من كتاب هذه المجلة أيضاً مثل زميله إسماعيل حامد وأبي بكر عبدالسلام. ومن موقعه في ليون كان يكتب عن الشريعة الإسلامية وعن مدينة تلمسان ولهجتها، وقد عرفنا أنه كتب أيضاً كتاباً مدرسياً عن لهجة تلمسان والمغرب. لم يعين ابن علي فخار أستاذاً في الكلية التي تخرج منها، بل عينوه مشاركاً في(الحلقة القضائية المصرية) التي كان يشرف عليها الأستاذ لامبير، ابتداء من نوفمبر 1908. وكانت الحلقة تابعة لكلية الحقوق، بجامعة ليون. ويشاركه في ذلك طالب مصري، اسمه عزيز مرحوم، كان ما يزال بقسم الليسانس. وأثناء وجوده بليون اهتم ابن علي فخار أيضاً بموضوع تدوين الفقه الإسلامي الذي كان يجري الحديث عنه في الجزائر. وكان يتردد على تلمسان. ولا ندري إن كانت أسرته قد بقيت فيها أو كان متزوجاً من فرنسية.

كتب ابن علي فخار سنة 1909 مقالة عن تلمسان كشف فيها عن وجهة نظره الاجتماعية، وهي وجهة محدودة إذا نظرنا إلى ثقافته العالية، وإلى تكوينه الاجتماعي وأصوله ودراسته للشريعة الإسلامية. يقول في هذه الدراسة إن المسلمين يقولون أن الاحتلال قد أضاعهم، ويقول الفرنسيون إن المسلمين استفادوا منه. وهو بالطبع يضم صوته إلى القائلين بالرأي الأخير.

---

(1) مجلة العالم الإسلامي، يناير - فبراير 1909، ص 186 - 188. وكذلك نفس المصدر، 1911، ص 582 - 583. وتوجد صورته بالبرنس ونبذة عن حياته في نفس المصدر، يونيو 1908، ص 361 - 363.

ولكنه يقول إن معاملة الفرنسيين للأهالي على نفس الوتيرة والحكم عليهم بالجملة خطأ فادح. ودعا إلى ضرورة التفريق بين معاملة أهل المدن وغيرهم، سيما المدن ذات الحضارة والعراقة مثل تلمسان. وفي نظره أن على الفرنسيين أن يعاملوا أهل المدن معاملة خاصة تضمن لهم الأمن والاستقرار. ذلك أنه عن طريق هذه المدن سيقع التأثير على بقية السكان ويقع التأثير الحضاري الفرنسي ويشيع الرخاء، وبذلك تتفادى فرنسا مستقبلاً مجهولاً قد تكون فيه المغامرة.

ولا ندري إن كان ابن علي فخار متأثراً أيضاً بنظرية دوركهايم السائدة عندئذ، ولكنه أعطى أهمية للمجتمع المدني حيث التقاليد والإطارات الخاضعة للشروط الاقتصادية، وهي شروط تجعلها مجتمعات ثابتة على الأرض، ولا تحتاج إلا إلى الأمن والضمانات البشرية، وإذا تحقق هذا فإن أهل هذه المدن سيتقربون من الأوروبيين (الفرنسيين) لتبادل المصالح والمنافع. وفي رأيه أن معاملة سكان المدن على قدم المساواة يتماشى مع طبيعة الأشياء نفسها، أما مساواة خمسة ملايين مسلم جزائري في المعاملات السياسية والأحكام فإنه يدل على جهل الخلاف العميق الذي يفرق بينهم[1].

هذه هي أطروحة ابن علي فخار، فهي تقوم على أن أهل المدن أقرب إلى التعايش مع الفرنسيين والاختلاط معهم والاندماج الاجتماعي والاقتصادي فيهم من مجتمع الريف المتخلف وغير المستقر، بينما أمثال إسماعيل حامد وابن التهامي يدعون إلى نخبة الثقافة الفرنسية المتميزة عن غيرها من المتعلمين، بل من الجزائريين بشكل عام. ونحن لا نستطيع إلا أن نصنف ابن علي فخار في دعاة الاندماج لأنه لا يقول بالهوية الجزائرية المتميزة عن الهوية الفرنسية.

---

(1) ابن علي فخار «تلمسان» في (مجلة العالم الإسلامي) يوليو ـ غشت، 1909، ص 433 ـ 445.

والغريب أن جريدة (الحاضرة) التونسية قد نشرت لابن علي فخار بعض الأراء في مقالات من بينها رأيه في معارضة فصل الدين عن الدولة الذي كانت فرنسا قد أخذت على تطبيقه على المسيحية واليهودية في الجزائر سنة 1907 بعد أن أخذت تطبقه في فرنسا سنة 1905. وتقول بعض المصادر إن ابن علي فخار انتقد تطبيق ذلك الفصل في المستعمرات. والمعروف أن قانون الفصل لم يطبق على الإسلام، دين الجزائريين. فهل يعني ابن فخار فصل «الدين» من حيث هو؟ وقد وصفته الجريدة بأنه من أعيان (النخبة؟) الجزائر ومن المتبصرين بالمصالح العامة[1].

أحمد بن قدور عطشي: إذا توفي أحد الجزائريين فإن المؤبنين الفرنسيين له يكتفون بذكر ولائه لفرنسا وانتمائه الحضاري لهم أو تاريخ وفاته، وكذلك المدرسة الفرنسية التي تخرج منها، والوظيف الأخير الذي كان يشغله. وقلما يذكرون نبذة وافية عن حياته وآرائه ومساهمته. وكثير من الجزائريين ماتوا مجهولين تماماً، رغم علمهم ومكانتهم. والسعيد منهم من أعلنت وفاته على صفحة الوفيات بجريدة المبشر أو جريدة الأخبار. ومن هؤلاء المحظوظين ـ بعد وفاتهم ـ أحمد بن قدور عطشي، الذي أبَّنته المجلة الأفريقية ببضعة سطور سنة 1898.

اسم (عطشي) يدل على أنه من أهل الحضر، رغم أن التأبين لا يشير إلى ذلك. وقد كان أحد الدايات يلقب بعطشي. وكان أحمد من مواليد 1853، أي من الجيل الأول الذي نشأ في العهد الاستعماري. وقد يكون تردد على المدرسة العربية ـ الفرنسية الابتدائية، ثم درس في الليسيه. ونحن نعلم أنه درس بعد ذلك في مدرسة الصنائع (البوليتكنيك) بفرنسا. وكان من الجزائريين النوادر الذين دخلوها. ثم درس الحقوق ونال إجازتها (الليسانس) في باريس أيضاً. ويبدو أنه فضل الإقامة في فرنسا، إذ عمل في المكتبة

(1) علي العريبي «أصداء جزائرية في جريدة الحاضرة»، في مجلة (الحياة الثقافية)، تونس، عدد 32، 1984.

الوطنية الفرنسية بعض الوقت بصفته ملحقاً، لأن الجزائري لا يوظف على قدم المساواة مع الفرنسيين.

وقد رجع أحمد عطشى إلى الجزائر في وقت نجهله، ليكون قريباً من أهله، حسب تعبير المجلة. وفي الجزائر تولى الكتابة لدى الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف الفرنسية بالعاصمة، ولعله هو القاضي زيس (؟). ثم نقل إلى مكاتب الحكومة العامة حيث اشتغل محرراً، وهو تعبير لا نعرف معناه بالضبط، فهل هو التحرير الصحفي في جريدة المبشر التابعة للحكومة، أو التحرير عموماً مثل كتابة التقارير ونحوها، وهي مهنة كان يقوم بها الخوجات وكتاب الإنشاء. يصفه مؤبنه، وهو فيما نظن السيد لوسياني[1] الذي كان هو أيضاً يعمل بالحكومة العامة، بأنه واسع الثقافة، كثير التواضع. ولذلك حظي بعطف الجميع. وعند وفاته عن 45 سنة حضر جنازته بعض الفرنسيين أيضاً، كما ابنه بكلمات كل من المفتي الحنفي أحمد بوقندورة، وعبد الرزاق الأشرف، الأستاذ بمدرسة الجزائر الشرعية ـ الفرنسية[2].

كان أحمد عطشى عضواً في الجمعية التاريخية. ولا ندري مؤهلاته في ذلك. ويبدو أنه كان مهتماً بالفنون الجميلة والفلسفة أيضاً. ولكن حياة الضنك الاستعماري لم تسمح له بتطوير مواهبه في الاتجاه الصحيح. منذ 1880 ألقى محاضرة بالفرنسية عن الفيلسوف والفنان الإيرلندي (ستيرن). وقد علقت جريدة (الأخبار) الصادرة بالفرنسية عن المحاضرة تعليقاً معجباً بهذا الشاب (27 سنة عندئذ) الأهلي الذي ملك ناصية اللغة الفرنسية وعالج موضوعاً دقيقاً وخاطب جمهوراً فرنسياً متخصصاً وحذق تقديم حياة وأفكار ستيرن فأبرز منه الاملامح الهزلية Humoristeque وأظهره فيلسوفاً مليئاً بالمرح Bonhomie. وقد نشرت الصحف المحلية أيضاً منوهة بالمحاضرة، بل حتى جريدة (التايمس) البريطانية[3] فعلت ذلك. وفي عدد لاحق أخبرت

(1) الحروف التي وقع بها التأبين هي .J.D.L. وقد قرأناها جان دومينيك لوسياني.
(2) المجلة الافريقية، 1898، ص 390، عدد 231.
(3) عدد 24 مارس 1880. قالت الجريدة إن أحمد بن قدور (عطشي) كان عربياً وتخرج=

جريدة (الأخبار) أن أحمد عطشى، وهي تسميه أحمد بن قدور فقط، سيحاضر في يوم 9 أبريل من نفس العام، عن الفنون القديمة وعلاقتها بفنون العصور الوسطى والانتاجات الهوموريستيكية، وأنه سيختم بنظرة عن مكانة الفنون الجميلة في الحياة الحديثة[1].

إن هذا الشاب الواعد المبكر هو الذي توفي بعد حوالي عشرين سنة. فماذا ألّف وحاضر وسجّل بعد محاضرتيه عن ستيرن والفنون القديمة؟ لا نعلم الآن شيئاً. فهو أيضاً من الجيل الأول الذي تعلم بالفرنسية واندمج في ثقافتها. ولا نعلم الآن أنه دعا قومه إلى الاندماج، رغم أن حماسه للعلوم الأوروبية والفنون يبرهن على تأثره الكبير. لكن جيله، وإن تأثر فإنه لم يدع إلى الذوبان، أولاً لأن فيه بقية حصانة، وثانياً لأن جيل المستغربين المسلوبين (النخبة) كان ما يزال يتشكل عند وفاته. وتكاد النفس تحدثنا بأن شخصاً يتوظف في مكاتب الحكومة العامة ويطلع على أسرارها وينوه به دومينيك لوسياني، لا يمكن إلا أن يكون متجنساً بالجنسية الفرنسية. فهل كان ذلك هو ما فعله أحمد بن قدور عطشى؟.

ابن حمودة: من قرأ خطبة السيد ابن حمودة في الغزل بفرنسا والهيام بحبها والوله بإنجازاتها في الجزائر يغفر لكل أفراد هذه الفئة المبهورة لأنهم لم يتغنوا بها كمثل غنائه ويتحمسوا لها كمثل تحمسه، رغم أنهم قد يكونون

= من الجامعة (كذا)، وأنه ألقى المحاضرة في العاصمة. وخصصت للمحاضرة سطرين فقط ضمن أخبار فرنسا. وكانت المحاضرة عن حياة وأدب ستيرن وموسوعته الأدبية المعروفة باسم (تريسترام شاندي/ المهذب). انظر Dict. of LITERARY BIOGRAPHIES المجلد 39، ص 471 ـ 499، ط. ديترويت (ميشيغان)، 1985، وكان ستيرن L. Sterne (1713 ـ 1768) من أدباء إيرلنده وقصاصيها.

(1) كانت المحاضرة، حسب جريدة (الأخبار) يوم 20 مارس 1880. ولكن الأخبار لم تكتب عنها إلا يوم 5 ـ 6 أبريل معتذرة لقرائها عن التأخير في الخبر. أما محاضرة الفنون القديمة فأعلنت عنها يوم 9 أبريل، ولم نقرأ تعليقها عليها لأن العدد لم يكن متوفراً عندنا. انظر أيضاً عن أحمد عطشي فصل الفنون.

أشد منه حباً لها وهياماً بها، غير أنهم صمتوا وتكلم هو، وجَمْجَموا وأفصح هو.

لا نعرف الإسم الأول الآن لابن حمودة هذا. فقد وجدنا اسمه مختصراً في «الخطبة» التي بعث بها من السينيغال إلى مجلة العالم الإسلامي. قال فيها إنه تخرج من مدرسة الجزائر الشرعية ـ الفرنسية. وقال إنه عاش فترة في شرشال وتوظف فيها زماناً، قبل أن يناديه المنادي للتعليم في مدرسة سان لويس بداكار[1]. وقد عدد ابن حمودة إنجازات فرنسا في الجزائر، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1 ـ كان ملوك تلمسان والجزائر وقسنطينة ووهران ـ كما قال ـ على رأس قبائل يغزون بعضهم البعض وينشرون الدمار والموت. فجاء الفرنسيون وأحدثوا التحول التاريخي، ويا له من تحول! (وعلامة الاستغراب له).

2 ـ كان الفرد الجزائري يعيش بدون فرديته وبدون رحمة، فغير الفرنسيون ذلك ونشروا الرحمة وشعر الفرد بذاته.

3 ـ طلع الفجر على الجزائر بتاريخ 1865 الذي فتح للجزائريين باب التجنس والتقدم، ومنذئذ أخذتهم فرنسا في أحضانها. فلماذا لا يكونون معترفين لها بالجميل؟.

4 ـ بفضل فرنسا ازداد عدد السكان بصورة مذهلة، لأنها أوقفت المذابح القديمة والأمراض المعدية، ونشرت السلم في ربوع البلاد، وشجعت الفلاحة وقمعت الجرائم.

5 ـ قامت فرنسا بفتح المدارس الابتدائية للجزائريين إضافة إلى المدارس الثلاث في العاصمة وتلمسان وقسنطينة، واهتمت بالفنون الأهلية،

---

(1) نكاية في المسلمين أطلق الفرنسيون اسم (سان لويس) على المدرسة الإسلامية الوحيدة عندئذ في السينيغال المسلم، وهي على غرار المدارس الشرعية الفرنسية الثلاث في الجزائر. وكانت تدرس الفقه والتوحيد واللغة العربية. وهي على الطراز الإسلامي، كما أظهرتها الصورة التي نشرتها مجلة العالم الإسلامي عنها.

وذلك تمشياً مع حضارتها وتقاليدها الإنسانية.

6 ـ ألمع الأسماء في تاريخ الجزائر (؟) هي أسماء الدوق أورليان، وبوجو، وماكماهون، وشانزي، وجونار. إنها «أسماء مجيدة» ـ كما قال.

7 ـ فتحت فرنسا أيضاً صفوف جيشها للجزائريين وجاءت بفرق من المعلمين، وشجعت المهن الحرة والمجالس النيابية للجزائريين.

ومن أجل ذلك أصبح الفرنسيون في نظر ابن حمودة، حماة للجزائريين وأصدقاء لهم، بالإضافة إلى أنهم هم المنتصرون والأسياد. إنهم في الجزائر «من أجل مصالحنا». إن كل شيء قد تغير في الجزائر بفضل الجهود الفرنسية. حتى القضاة المسلمون سيتغيرون تبعاً للقضاة الفرنسيين. وها هي الآن تتكون «نخبة» خضعت للتأثير الفرنسي وهي تفيض بحب فرنسا وتسبّح بحمدها. وقد ختم ابن حمودة خطبته العصماء بهذا الهتاف الذي لم يسمعه الفرنسيون ولم يبالوا به، ولكن سمعه التاريخ ووعاه، وهو الدعاء لفرنسا بطول العمر، وبالمجد والعظمة[1]!».

ويجب ألا نندهش من هذا، لأن ما كانت تخفي صدورهم أكبر. وهذا الذوبان الذي يبديه ابن حمودة المتخرج من المدرسة الشرعية ـ الفرنسية أثناء سيطرة المستشرقين عليها، ما هو إلا ظاهرة طبيعية لإنجازات المخطط الفرنسي منذ البداية. ولعل حالة ابن حمودة، وهي غير شاذة، تبرر موقف أغلبية الجزائريين الذين فهموا منذ البداية أيضاً أن المدرسة الفرنسية ستخرج أولادهم على هذا النحو من الانسلاخ. وقد تبيَّن أن الخطة ليست هي التعليم في حد ذاته، أو تعليم العلوم باللغة الفرنسية كما فهمها البسطاء والجهلة من أمثال مصطفى بن السادات ومحمود بن الشيخ علي، وحتى حسن بن بريهمات، ولكن تذويب الإنسان الجزائري ومحو شخصيته حتى يصبح كالسكران يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول.

---

(1) مجلة العالم الإسلامي، ديسمبر 1910، ص632 ـ 634.

أحمد بن بريهمات: وهو أحد أبناء حسن بن بريهمات الذي لعب دوراً في الحياة العامة خلال القرن الماضي كمثقف مزدوج ومن أهل الحضر. وكان أحمد أحد ثلاثة أبناء له (والآخران هما إبراهيم وعمر). ويذكر أبو القاسم الحفناوي أن الدكتور زروق كان أيضاً أحد أبناء حسن، والصواب أنه حفيده، وأن زروق هو ابن أحمد. ولا ندري متى ولد أحمد هذا، والغالب أنه ولد بالعاصمة وتعلم بها ودخل المدرسة السلطانية (الكوليج الامبريالي) قبل إلغائها سنة 1871. وتخرج مترجماً عسكرياً، مثل أخيه إبراهيم، ولكنه ساهم في الترجمة المكتوبة أيضاً. فوجدناه قد ترجم إلى الفرنسية رحلة العياشي من درعة إلى ورقلة سنة 1880. ولعل ذلك كان خلاصة للرحلة فقط[1]. كما اشترك أحمد مع لويس رين في نشر كتاب في تعليم اللغة الفرنسية بعنوان (اللسان يكمل الإنسان)، وقد سبق الحديث عنه. وأما آجرون فقد ذكر أن أحمد هو ابن محمد بريهمات، وقال إن كليهما كان من «المعارضين». ومما ذكره آجرون أن محمد كان مساعداً في المحكمة (الاستئناف؟) ثم عزل منها، وأنه ظل على معارضته (؟)، طيلة عهد الحاكم العام لويس تيرمان. وقال إن محمداً قد ربط علاقات في عهد الحاكم العام لافيريير (1897 ـ 1900) مع كميل صابتييه وباروكان مدير جريدة الأخبار. ويخبرنا أيضاً أن أحمد كان كوالده من المعارضين أيضاً[2]. ويبدو لنا أن آجرون قد خلط في الموضوع وأن أحمد هو ابن حسن كما ذكرنا، وأنه كان،

---

(1) نشر ذلك في نشرة الجمعية الجغرافية لوهران (B.S.G.O.) رقم 7 (1880)، ص 330 ـ 334. وقد وجدنا في المجلة الافريقية سنة 1899، ص 295 ـ 296 مراجعة للترجمة بقلم عبدالرزاق الأشرف. ولعل نشر بريهمات لترجمته في نشرة وهران يدل على أنه كان عندئذ يعمل في تلك الجهة. كما يدل على اهتمام الفرنسيين بالمغرب الأقصى. انظر سابقاً.

(2) آجرون (الجزائريون المسلمون) 1032/2 هامش 3. ومن المعارضين أيضاً. حسب رأي آجرون، حمدان بوركايب الذي كان موظفاً بولاية العاصمة. واستعمال كلمة «معارضة» هنا غير واضحة، فالنخبة الاندماجية إنَّما كانت تطالب بالحقوق.

كما سنرى، مؤيداً للسياسة العلمانية في التعليم وأنه كان موالياً للسياسة الفرنسية «الإنسانية» وكان من المتجنسين أيضاً.

وكان نشاط أحمد قد برز في الثمانينات (عهد تيرمان). وقد ساعدته ثقافته المزدوجة على الاطلاع على تراث العرب وحضارة الفرنسيين. وربما كان مشاركاً أيضاً في إحدى الجمعيات الماسونية. ونحن نستشف ذلك من كلمته التي ألقاها ـ دون غيره ـ في باريس سنة 1882. فقد استدعته جمعية تسمى (الجمعية الفرنسية لحماية أهالي المستعمرات) ليشارك في أعمالها. وكان من مؤسسي هذه الجمعية الكاتب لوروى بوليو. وفي كلمته نوّه أحمد بن بريهمات بالجمعية التي قال عنها إنها اتخذت من محبة الإنسانية شعاراً لها عوض محبة الإنجيل والقرآن والصليب والهلال[1]. وأعلن أن هدف فرنسا من «فتحها» (احتلالها) للجزائر لم يكن سوى بث الحضارة و «رفع حالة التمدن المنخفضة النازلة بالبلاد». ولكنه ذكّر الفرنسيين بأن أكثرية سكان الجزائر هم من «عقب العرب الذين كانوا بالأندلس» وأنهم حازوا «قصب السبق في العلوم الفاخرة»، كما نوّه بخلفاء قرطبة وغرناطة، وقال إن سكان الجزائر من الشعب الذي أنجب ابن سينا وابن رشد. وإن من كان نسله كذلك يقبل «إحسان التمدن الجديد». وهكذا أقام أحمد نوعاً من المفاخرة مع مستمعيه الفرنسيين، فهو قبل أن يعترف بالحاجة إلى التمدن الجديد يطلب منهم الاعتراف بأنه وقومه ذوو تمدن قديم وعريق.

وفي نطاق هذا التمدن الجديد طالب أحمد بإجبارية التعليم ومجانيته بالنسبة للجزائريين أيضاً، وهو ما كان الفرنسيون يطبقونه على أنفسهم ويستثنون منه الأهالي. ومن ثَوْريات أحمد أنه اعتبر الحديث عن حالة الجزائر المؤسفة رصاصاً وأن السكوت عنها ذهب. فقد كان يشعر بمرارة، فلا هو قادر على السكوت المُذَهَّب ولا على الكلام المرصص. وأشار إلى أن

---

(1) وهذه اللغة تشبه لغة الماسونيين.

دعوته للحديث إلى أعضاء الجمعية قد شفاه من «جراحاته الغزيرة». وقد وعد بأنه عند رجوعه إلى بلاده سيحدّث قومه عما رأى في فرنسا من مشاعر وحضارة[1].

وبعد حوالي سنة نشر أحمد بن بريهمات كراسة بالفرنسية عن مرسوم 13 فبراير 1883 حول التعليم والمسلمين الأهالي. ورأى أن المسلمين قد انقسموا حول ذلك المرسوم الذي ينص على فتح مجال التعليم الفرنسي. وكانت نقطة الانقسام هي قبول أو رفض هذا التعليم، وتمسك كل طرف برأيه. ولم يصلوا إلى حل وسط ولم يقترحوا إجراءات عملية. ورأى ابن بريهمات أن المصلحة ستضيع إذا بقي الوضع كذلك، وكان الكولون يؤيدون الرافضين للتعليم للأهالي ويزعمون أن هؤلاء غير قابلين للتعلم، وأن الميزانية لا تسمح بذلك، وكان بعضهم يقول إن لدى الجزائريين عدداً كبيراً من المدارس القرآنية وهي تكفيهم[2].

أما ابن بريهمات فقد عالج الموضوع بطريقته. فرجع أولاً إلى مفاخرة الفرنسيين بتقدم التعليم عشية الاحتلال وكَوْن التعليم كان مقدساً عند المسلمين. فذكر أنه كان في الجامع الكبير وحده اثنتا عشرة مادة تدرس قبل سنة 1830 وأن التعليم لم يكن متأخراً. وفي سنة 1857 طالبت التقارير الرسمية بفتح المدارس في الريف والمعاهد في المدن، وأن هذا التعليم قد أعطى نتائج قبل 1871. ولكن ديقيدون ألغى تلك المدارس والمعاهد بجرة قلم[3]. ورفض أحمد المقولة الشائعة عندئذ وهي أن عرب الريف يرفضون التعليم. وأرجع ذلك إلى استحالة إرسال أبنائهم إلى المدارس لبعدها

(1) نشرت كلمته جريدة (المنتخب) في عددها الرابع، وألقى الكلمة في 14 مايو 1882 بباريس. انظر قنان، (نصوص) ص 188.

(2) انظر فصل التعليم المزدوج.

(3) ذلك هو العهد الذي نشأ فيه والده وتولى فيه إدارة المدرسة الشرعية. ونفهم من هذه المقارنة بين عهد الامبراطورية وعهد الجمهورية أن أحمد كان يحبذ عهد نابليون الثالث الذي نشر التعليم المزدوج.

بحوالي عشر كلم عن منازلهم. فالمدارس كانت قريبة من المراكز الأوروبية ولكنها بعيدة عن مزارع وقرى أهل الريف الجزائريين. فكان على الطفل الذي عمره بين 7 و 12 سنة أن يقطع يومياً بين 16 و 20 كلم للذهاب إلى المدرسة والرجوع منها.

ومن رأى أحمد بن بريهمات أن التقاليد الإسلامية لا تمانع في إدخال إصلاحات على نظام التعليم بالنسبة للجنسين. ولذلك نادى بإلزام العرب تعلم العربية والفرنسية في نفس الوقت. ونبّه إلى الخسارة الكبيرة التي ستصيب التراث المكتوب بالعربية إذا حذفت العربية من المدارس، وأن النكبة ستلحق بكل الناس. ولذلك طالب بإرسال البنين والبنات إلى المدارس الفرنسية/ العربية الجديدة، واستنكر موقف الناصحين بمقاطعة المدارس باسم الدين. وأشاد «بروح الإنصاف» التي يتحلى بها في نظره لويس تيرمان، وذلك منه ربما مجاملة فقط. ثم اقترح إجراءات عملية رآها كفيلة بإزالة الشكوك والمخاوف عند بعض المسلمين، سيما نحو بناتهم. ورأى أن تعليم المرأة سيترتب عليه قلة النساء في بيوت الفساد، وقلة الرجال أمام المحاكم، وأن التعليم عموماً سيؤدي إلى الصداقة مع الفرنسيين. وقد أيد بقوة التعليم الإجباري والمجاني للجنسين لأنه وسيلة «بعثنا ونهضتنا»[1].

وهذا الحماس نحو النهضة والبعث منذ أوائل الثمانينات هو الذي جعل أحمد بن بريهمات من رواد الفئة الاندماجية رغم اعتداله. وقد كانت أصوله العائلية وغيرته على التراث العربي الإسلامي وإشاراته المتكررة إلى الأندلس، والمفاخرة بأمجاد الماضي تجعل منه صوتاً من الأصوات المحافظة أيضاً. ولكننا لا ندري إن كان قد ظل على موقفه هذا. فوصف آجرون له بأنه كان من المعارضين نفهم منه أنه كان معارضاً لسياسة التجهيل الفرنسية وسياسة التخوف الأهلية. ومع ذلك فإن أحمد كان غير متحمس سنة 1903 لدعوة الشيخ محمد عبده أثناء زيارته للجزائر، بتحرير العقل لدى المسلمين

(1) كتب ذلك بتاريخ 7 أكتوبر 1883. انظر قنان، (نصوص) ص 190 ـ 193.

وخوض معركة التعليم وتنقية الإسلام من شوائب التخلف. فقد كان أحمد، حسب بعض الكتاب، ضد دعاة الاندماج مع الفرنسيين، وكان من المتجنسين أيضاً[1]. وهو رأي غريب في ظل ما عرفناه عن صاحبه.

ومن جهة أخرى ترك أحمد بن بريهمات إبناً سار على منواله في الظاهر، على الأقل في الازدواج الثقافي، وهو زروق الذي أصبح من أطباء العاصمة في أول هذا القرن. وكان يكتب مقالات في جريدة كوكب أفريقية حول صحة العائلات الجزائرية[2].

مجذوب بن قلفاط: وتكاد سيرة أحمد بن بريهمات تنطبق على سيرة مجذوب بن قلفاط ما عدا أن هذا من نواحي قسنطينة والآخر من العاصمة. كلاهما اشتغل بالترجمة أيضاً ونشر ابن قلفاط ترجمة بالعربية الدارجة من حكايات فرنسية. وقد تعرضنا إلى ذلك[3]. وخاض ابن قلفاط أيضاً في مسألة التعليم الأهلي والاندماج الحضاري. ونشر كراسة في نفس الموضوع حوالي 1883. وقد هاجم فيها المتعصبين الذين لا يؤمنون بإرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية خوفاً عليهم مَن الأثر الفرنسي الديني. ودعا بصراحة إلى أن تقوم الحكومة «بافتكاك» الأبناء من أهلهم وإجبارهم على التعلم في مدرستها لأن هؤلاء الأهل لا يعرفون منافع الحضارة الفرنسية. ومن رأيه أن التعلم سيجعل العربي إنساناً مستنيراً ومتخلقاً، كما أنه سيجعله «فرنسياً» صالحاً، وعلى هذا التعلم أن يكون عميقاً لكي يغير الأفكار جذرياً، وليس مجرد تعلم للقراءة والكتابة. ولا يكون ذلك إلا بدراسة التاريخ والجغرافية. ونفهم أن ابن قلفاط كان أيضاً من أنصار التعليم اللائكي (العلماني) من قوله بتعلم «الأخلاق المتحررة من الأفكار الدينية الضيقة والمتحيزة» بل إننا نفهم

---

(1) انظر مقالة رشيد بن شنب عن زيارة الشيخ عبده للجزائر في مجلة ستوديا إسلاميكا (الدراسات الإسلامية)، مجلد 53 (1981)، ص 132.

(2) انظر مجلة العالم الإسلامي، أبريل 1909، ص 444، وكذلك رسالة الباحث عبد المجيد بن عدة (جامعة الجزائر).

(3) قسنطينة 1890، 175 صفحة، انظر ما سبق.

أنه كان من المتجنسين، وذلك لأنه يميز بين «معلمينا» (الفرنسيين؟) و «مؤدبيهم» (الأهالي). ومهما كان الأمر فإنه دعا إلى أن يكون المعلمون من المسلمين لكي يزول خوف الأهالي على أطفالهم من التنصير إذا كان المعلمون فرنسيين.

وقد كشف ابن قلفاط على أن هناك أسباباً أخرى وراء عدم إرسال الأهالي أطفالهم إلى المدارس الفرنسية. فهو يذكر أن منها الخوف من انتقاد الجيران، سيما في الأرياف، وشعور كل مسلم بضرورة حفظ القرآن الكريم. ومن رأيه أن إجبارية التعليم ستزيل التحفظ الأول، وأن إنشاء مدارس بنصف الوقت (صباحاً للزاوية الأهلية ومساء للمدرسة الفرنسية) سيحل التحفظ الثاني. ورغم دعوته إلى التعليم الحر فإنه رأى عدم التعجل بإلغاء تعليم الزوايا، ورأى أن ذلك لا يكون إلا إذا أصبح في كل مدرسة فرنسية إمامٌ ملحق بها يتولى التعليم الديني[1]. ولعل لابن قلفاط آراء أخرى في الحضارة والحياة لم نطلع عليها. ولكن ما عرفناه منه يجعله من الفئة الاندماجية، أمثال أحمد بن بريهمات.

* * *

قلنا إن ظاهرة ابن حمودة غير شاذة، ولكن العجب أنها لم تأت ممن تعلم فقط بالفرنسية بل جاءت من مزدوج اللغة، وكان أمثاله هم الذين يعينهم الفرنسيون قضاة ومدرسين ليحكموا بين الناس ويعلموهم شؤون دينهم الإسلامي. وماذا نقول في الأستاذ الجزائري الذي يتغنى بالراية الفرنسية المثلثة التي يسميها (البيرق) ويقول مخاطباً لها «بك أيها البيرق يعرف حب الوطن...» أن هذا الكلام قاله محمد بن العربي التلمساني، وليس ابن حمودة. وقد ثنَّى عليه أيضاً مصطفى الجزائري (؟) الذي يصف الجنود الفرنسيين «بالأبطال الأسود». إن هذين الشخصين كلاهما كتب ما كتب من

---

(1) قنان، (نصوص)، ص 194 ـ 196. والكراسة في 12 صفحة بالفرنسية، وتاريخها حوالي 1883.

طنجة حيث كان مدرساً في المدرسة العربية ـ الفرنسية هناك. وكلاهما كان يتغنى بالجيش والراية الفرنسية سنة 1916[1]. إن المرء عندما يقرأ مثل هذا الكلام ويطلع على مواقف أصحابه يدرك لماذا اعترف أوغسطين بيرك أن فرنسا كانت تضع في مدارسها ومساجدها جواسيس ومخبرين، وليس أيمة ومدرسين.

إن الأمثلة كثيرة على ميلاد الفئة الاندماجية المستغربة والمتفرنسة. بدأت الدعوة محايدة تدعو إلى العلم دون معرفة الخلفيات، وبدت معجبة ومبهورة بالتقدم الفرنسي دون أن تعرف المسخ الذي حدث لها ولا أن تحدد موقفها من التاريخ والمستقبل، ثم ازداد الانبهار والاختلاط وكثر العدد وتجاوبت الأصداء، فجاهرت الفئة بأنها تمثل شريحة اجتماعية مستعدة للاندماج دون انتظار للحاق الآخرين. وكان عليها منذ العشرية الأولى لهذا القرن أن تفرض وجودها أمام تحدي النخبة الحقيقية المتعلمة والمؤمنة بالتقدم مع التمسك بالثوابت والأصول أيضاً. وبعد تسييس الصراع وتحزيبه بين الحربين لبست الفئة الاندماجية المستغربة لباسين: أحدهما سكوني اندماجي، يضم المتجنسين منهم خاصة، وثانيهما حركي اندماجي أيضاً ولكن غير متجنس. ولعل خير من يمثل الأول هو ربيع الزناتي، وخير من يمثل الثاني هو الدكتور محمد الصالح بن جلول[2] . وإذا كان الدكتور ابن جلول معروفاً لمن درس قليلاً من تاريخ الحركة الوطنية خلال العشرينات والثلاثينات، فإن الزناتي غير معروف إلا لعدد قليل من الناس اليوم.

* * *

ربيع الزناتي: عرف اسم الزناتي كمعلم وصحفي خلال عقدين من الزمن على الأقل. وعاصر أبرز أحداث الجزائر بيْن الحربين: حركة الأمير خالد، وميلاد النجم، وميلاد هيئة النواب، والاحتفال المئوي، وميلاد

---

(1) مجلة العالم الإسلامي، 1916، ص 67، 352.

(2) انظر كتابنا الحركة الوطنية، جـ 3.

جمعية العلماء، وظهور الحركة الشيوعية، وانعقاد المؤتمر الإسلامي، وفتوى ابن باديس ضد التجنس. كما عاصر عن كثب تطور الفرد الجزائري في المدارس الفرنسية ـ الأهلية بعد انتشار حركة التعليم، سواء على يد الإدارة الفرنسية أو على يد الحركة الاصلاحية. فقد كان هناك إنسان جزائري بصدد الميلاد، وهو (الزناتي) كمعلم ومثقف، كان يدرك ذلك ويلاحظه. وقد أصدر مذكراته أثناء حياته، وهي تعبر عن تجربته الطويلة في الميدان. كما تعلّمَ من الصحافة الشيء الكثير، لأنها مدرسة في حد ذاتها.

ولكن الزناتي كان من المؤمنين المفرطين بالاندماج والمأخوذين بالتأثير الفرنسي حتى لم يعد يرى الجزائر في غير الإطار الفرنسي. ولعل ذلك راجع إلى كونه من المتعلمين بالفرنسية الموجهة وإلى كونه أيضاً من المتجنسين. ولد الزناتي في عين الحمام (فور ناسيونال) في تاريخ لا نعرفه الآن. وتلقى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه. ونحن نعلم من تاريخ التعليم أن منطقته كانت مستهدفة منذ السبعينات للتأثير الفرنسي الديني والدنيوي أكثر من غيرها من المناطق. ولا ندري الآن هل درس الزناتي في المدرسة الأهلية ـ الفرنسية أو في مدرسة الآباء البيض هناك. والغالب على الظن أنه درس بعد ذلك في مدرسة ترشيح المعلمين في بوزريعة في القسم الخاص بالمعلمين الأهالي. ثم مارس التعليم منذ أوائل القرن. ولا نعلم الآن ما إذا كان الزناتي قد جند للخدمة العسكرية أيضاً خلال الحرب العالمية الأولى. وبالإضافة إلى التعليم تولى أيضاً إدارة مدرسة ابتدائية ـ أهلية. ثم تقاعد منها سنة 1938.

في سنة 1929 (عشية الاحتفال المئوي) أنشأ الزناتي جريدة أسبوعية في قسنطينة، بعنوان (الصوت الأهلي)، وأضاف إليها عنواناً فرعياً يفسر مقصودها وفلسفتها وهو «جريدة الاتحاد الفرنسي ـ الإسلامي». والمقصود بالاتحاد هنا هو ما جرى على الألسنة باسم (الاندماج). أما كلمة الإسلامي فتعني المسلمين الجزائريين في مقابل الفرنسيين الأوروبيين. اسم الجريدة (الصوت الأهلي) اسم في حد ذاته معبر على روح الفترة. فالأهالي كانوا

مسحوقين وفي حاجة إلى من يسمع صوتهم للسلطات الفرنسية وللعالم، وإلى من يفهمهم حقوقهم الضائعة المسلوبة، ويدافع عنها ضد غاصبيها. ولكن هل الزناتي وفئته المستغربة كانوا مؤهلين للقيام بهذا الدور؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك. فقد كان الزناتي يدافع عن حقوق فئته، ويدعو إلى الاندماج (الاتحاد) المنشود، ويهاجم خصوم فئته. تقول عنه (أفريقية الفرنسية): إن الزناتي قد شارك في الحياة السياسية في ولاية قسنطينة بل في الجزائر كلها. ودعا إلى الاندماج وأعلن أنه بطل المنتخبين (بالفتح) الذين يسايرون هذا المنهج. وقد انسحب منهم يوم أن حاول بعضهم الانحراف عن البرنامج المسطر للاندماج[1]. كما أن الزناتي جعل افتتاحية العدد الأول من جريدته بعنوان «يجب أن تصبح الجزائر فرنسية».

كان الزناتي إذن يجمع السياسة إلى الصحافة. وكان يخوض المعارك الحزبية والفكرية ضد خصومه. واستمر على ذلك بعد تقاعده. وتقول (افريقية الفرنسية) إن الأفكار العزيزة على نفسه والتي ظل يدافع عنها هي «الاتحاد الفرنسي ـ الإسلامي» من خلال جريدته. وأخبرتنا أنه لم يستطع أن يظل بعيداً عن السياسة، لأن معرفته العميقة بالمشاكل الجزائرية وثقافته الفرنسية «ذات اللغة العملية» وصِلَتَه بالتعليم الذي نوّر ذهنه وأدخله إلى أعماق النفس المحلية، قد جعلته يعالج الموضوع باستقلال، هادفاً إلى تحقيق الاتحاد الفرنسي ـ الإسلامي الذي كرّس له كل حياته.

وفي سنة 1938 نشرت (أفريقية الفرنسية) سلسلة مقالات هي فصول كتاب الزناتي المسمى (المشكل الجزائري كما يراه أحد الأهالي). واعتبرت الكتاب وثيقة تاريخية وشهادة، لأنه تعرض فيه إلى التاريخ، وسياسة

---

(1) لعل المقصود بذلك ابن جلول وفرحات عباس، لأن كل واحد منهما كوّن حزباً سنة 1937. انظر الحركة الوطنية. جـ 3. ويضاف إلى ربيع الزناتي مجموعة أخرى من الاندماجيين وهم: بلحاج الذي كان أستاذاً للشريعة في مدرسة الجزائر، وقد لعب دوراً بارزاً في المؤتمر الاسلامي، سنة 1936، ثم ايبازيزن بلقاسم، وسعيد الفاسي، وزنتور، والدكتور ابن التهامي، والحاج حمو عبدالقادر (عبدالقادر فكري).

الاحتلال، وطريقة التعاون بين الجزائريين والفرنسيين، والنخبة والعراقيل التي تقف في وجه فرنسة الجماهير الأهلية. كما تعرّض الكتاب للحركة الدينية والتعليم، والقضية اليهودية، وكذلك الاصلاحات الإدارية التي تمت أو التي كان يتصورها. ومع ذلك قالت (أفريقية الفرنسية) إنه كتاب، رغم نشره فيها مسلسلاً ورغم الإشادة به، ليس كتاباً فوق النقد، لأن صاحبه، في نظرها «أهلي جزائري، وفرنسي من أقليم فرنسي، ومواطن فرنسي»، وهي تعني بـ «مواطن» أنه متجنس. وانتقده الكاتب بأنه من خلال تلك الصفات كان الزناتي غير ملم بكل جهود فرنسا في الاستعمار (الاستيطان) الذي لا يقدره الزناتي حق قدره[1].

سعيد الفاسي: أصبح الفاسي من أبرز كتاب النخبة الاندماجية بين الحربين. فقد كان معلماً مدة طويلة وصحفياً وعمالياً نشيطاً ومؤلفاً. وكل ذلك جعل منه متكلماً قوياً باسم هذه الفئة، رغم وصفها هي بالمستضعفة أو المسكينة. كان الفاسي من شباب زواوة وقد تخرج، مثل الزناتي، من المدرسة الفرنسية المبكرة هناك. ونقول عنه هنا ما قلناه عن زميله، وهو أننا لا ندري هل هو خريج المدارس الكنسية (الآباء البيض) أو العلمانية. ومهما كان الأمر فقد سار على نفس الدرب، فدخل مدرسة ترشيح المعلمين (النورمال) في بوزريعة. ثم أصبح من المعلمين. وقد نشر مذكراته كمعلم أهلي خلال العشرينات. ويبدو أن الفاسي وزملاءه كانوا يشعرون بالحرج من جهة مجتمعهم والاستخذاء أزاء الفرنسيين، لذلك نعتوا أنفسهم «بالمستضعفين». وكان الفاسي متحمساً للاندماج الذي كان يراه الخلاص الوحيد من حالة الاستضعاف رغم أنه كان متجنساً[2].

وكان الفاسي متضايقاً من معاملة نقابة المعلمين الفرنسيين لأمثاله.

---

(1) أفريقية الفرنسية A.F.S. (الملحق)، ابتداء من شهر إبريل 1938. انظر أيضاً فرنسا البحر الأبيض وأفريقية FRANCE MID.ET AF.، رقم 1، 1938، ص 170.

(2) فيتز جيرالد، «المعلومون الجزائريون» في وقائع الملتقى الثاني للجمعية التاريخية الاستعمارية الفرنسية، ميلواكي (ويسكنسن)، ابريل 1976، ص 158 ـ 159.

فقرر انشاء جمعية أو نقابة للمعلمين الأهالي خلال 1921، وصادف ذلك ظهور حركة الأمير خالد وظهور بعض الصحف الأهلية مثل الإقدام والنجاح. وقيل إن الشرطة قد عاكست هذه الجمعية وحاولت إعاقتها عن العمل، وعارضتها السلطات الرسمية. وبعد سنة اقترح الفاسي على الأعضاء إنشاء صحيفة تعبر عن آرائهم وموقفهم مما يجري حولهم ومن مستقبلهم، فكان أول عدد من مجلة (صوت المستضعفين) في مايو 1922. وقد قدّر لها أن تستمر ثماني عشرة سنة، وكانت قد بدأت شهرية ثم تحولت إلى نصف شهرية. ويقول هذا المصدر إن الفاسي قد أنشأها وحده، ولكن مالك بن نبي يقول إن الذي أنشأها هو طاهرات الذي كان من «أمناء الروح العلمانية»، حسب تعبيره[1].

وخلال العشرينات كانت الأطروحة الوحيدة الرئيسية التي تعالجها المجلة هي الاندماج. فقد كانت تدعو الجزائريين (الأهالي) إلى اليقظة والتعلم وتطوير أنفسهم، وتدعو الأوربيين (الفرنسيين) إلى القيام بواجباتهم نحو الأهالي، وذلك بأن يرفعوهم إلى مستواهم. وتساءلت افتتاحية المجلة: هل ذلك حلم؟ وأجابت بأنه غير حلم، بل يجب أن يكون واقعاً. وقالت المجلة إنه إذا تحقق ذلك فسيكون الجزائريون «امتداداً» لفرنسا عبر البحر الأبيض، وطالبت أن يكون الاندماج كاملاً، قائلة إنه إذا بقيت بعض الجماعات متمسكة بدينها (غير متجنسة) وعاداتها فمن الممكن أن تصبح أيضاً فرنسية، تعمل على تشكيل شعب فرنسي محض على هذه الأرض الجزائرية، وليس فقط إنشاء حضارة لاتينية، كما دعا إليها الكاتب لويس بيرتراند. وكان هدف (صوت المستضعفين) إذن هو التقارب والاندماج ومزج الأجناس في الجزائر من خلال التعليم والتفاهم والزواج المختلط لإنتاج جيل راق من الجنسين: الجزائري والفرنسي.

---

(1) مالك بن نبي (الطفل)، ط. دمشق، دار الفكر، 19، ص 52.

ولو سئل الفرنسيون الأولون (كلوزيل وبوجو. . .) ماذا كنتم تطمحون إليه من وراء إرسال الجزائريين إلى فرنسا وما هي رسالتكم في الجزائر بعد ذلك لما زادوا كثيراً عما عبرت عنه (صوت المستضعفين) بعد حوالي قرن. فقد بلغت الدعوة إلى الاندماج أوجها خلال الثلاثينات مع مشروع فيوليت، ثم أخذت تنهار أمام الوعي الوطني وفتوى ابن باديس ضد التجنس وانتشار التعليم. ويذهب مالك بن نبي إلى أن النخبة الاندماجية قد امتازوا عن سواهم بفضل ثرائهم أو اتصال آبائهم بالإدارة، مما سهل عليهم دخول الثانويات. وقد أخذ معظم خريجي المدارس الشرعية الثلاث ينفَضّون عن النخبة الاندماجية لصلة خريجي هذه المدارس بالقضاء الإسلامي من جهة، ولانتمائهم الديني الذي «يأخذ بهم في قليل أو كثير»[1].

محمد صوالح: المعلومات التي نملكها حتى الآن عن محمد صوالح قليلة. ويبدو أنه كان من خريجي المدارس الشرعية الفرنسية (أو الليسيه) ومن المتحمسين للاندماج، ولكننا لا نعرف ما إذا كان قد تجنس. وكتاباته تدل على أنه كان أقرب إلى الاستشراق منه إلى مؤلف مسلم. وربما كان من مواليد مستغانم. وكان على اطلاع بأحوال «المجتمع الأهلي» حسب التعبير الفرنسي عندئذ، فكانت كتاباته كلها تقريباً تصب في تعريف الفرنسيين بخواص وخصائص هذا المجتمع من تقاليد ودين وعقائد وتاريخ فولكلور.

وأول إشارة وجدناها عنه وهو معلم في مدرسة ترشيح المعلمين (النورمال) سنة 1907 حين كتب مقالة في المجلة الافريقية عن الصوم عند المالكية مستخرجاً ذلك من رسالة ابن أبي زيد القيرواني. وكان عمله في الأساس ترجمة للجزء الخاص بالصوم من الرسالة، ثم ملاحظات وتعاليق حول شهر رمضان في الجزائر استقاها من تلاميذه. ومن رأيه أن رمضان في

(1) مالك بن نبي (الطفل)، ص 153. ولنشر إلى أن للفاسي بعض المؤلفات التي تناولناها في جزء آخر. يبدو مالك من بني ليّناً مع خريجي المدارس العربية ـ الفرنسية لأنه منهم. ولعله كان يقيس الأمر على نفسه.

الجزائر يجدد المشاعر الدينية التي يبدو أنها تنام خلال بقية الشهور بحكم اتصال المسلمين بالأوروبيين، وشيوع الشك بينهم (؟)[1].

أما الإشارة الأخرى التي وجدناها عن صوالح والتي لا علاقة لها بالتعليم فهي عضويته في الجمعية التاريخية التي كانت تصدر المجلة الافريقية. ففي سنة 1900 استقبلته الجمعية عضواً فيها. وكان عندئذ معلماً في مدرسة ترشيح المعلمين[2]. ومن العادة ألا تقبل هذه الجمعية في صفوفها إلا المخلصين للقضية الفرنسية. ولم تكن تبحث عن الكفاءات في حدّ ذاتها.

وفي 1915 كان صوالح في بوردو بفرنسا. والظاهر أنه كان من المجندين في الحرب، وكان برتبة رقيب، وكان يعمل في مصلحة الترجمة وربما كان ملحقاً بالجنود الجزائريين لرفع الروح المعنوية فيهم والتأثير عليهم حتى لا ينضموا إلى الألمان والعثمانيين. وأثناء ذلك التقى بالجندي والشاعر الشعبي مصطفى الثابتي وسجل له قصيدة شعبية حول مشاركته في الحرب والتعبير عن مشاعر الجنود عندما انتقلوا من بيئة ريفية جزائرية إلى بيئة غريبة عنهم. وقد ترجم صوالح ذلك الشعر ونشره سنة 1919[3].

وبعد نضج المعارف وتبدل الأحوال السياسية بين الحربين وجدنا محمد صوالح في الليسيه الفرنسي استاذاً مبرزاً ودكتوراً في الآداب. كما تولى التدريس في مدرسة التجارة والمعهد الفلاحي. ولا ندري لماذا لم يسمح له عندئذ بالتدريس في كلية الآداب إذا كان قد تخرج منها. ومهما كان الأمر فإنه غداة الاحتفال المئوي نشر صوالح كتابه الذي ربما اشتهر به أكثر من غيره وهو (المجتمع الأهلي في شمال افريقية)، وكان احتلال الأقطار الثلاثة للمغرب العربي قد جعل صوالح يقدم عملاً جامعاً في تاريخ وحياة هذه الأقطار. وكان الكتاب في الواقع موجهاً لطلابه في الثانوية (الليسيه)، وهو

(1) المجلة الافريقية 1907، ثم علقت عليه مجلة العالم الإسلامي 1907، ص 623.
(2) المجلة الافريقية، 1900، ص 96.
(3) المجلة الافريقية، 1919، انظر أيضاً فصل الشعر.

باللغة الفرنسية[1]. ولم نطلع لصوالح على كتابة بالعربية رغم أنه عاش في مرحلة رجعت فيها الروح للثقافة العربية بعد ظهور الحركة الاصلاحية وصدور الصحف ذات الاتجاهات المختلفة. وكتابه المذكور يذكرنا بكتاب إسماعيل حامد (مسلمو شمال افريقية)، ولكن شتان بين الرجلين والكتابين في التكوين والفهم. ويبدو لنا أن حامد كان أكثر أصالة في آرائه وأبعد رؤية من زميله، رغم أن كليهما من نفس المدرسة تقريباً.

* * *

لقد تبين أن الترجمة لعبت دوراً حيوياً في دعم الاحتلال، وأن الجانب الأكبر منها كان يتمثل في نقل التراث العربي الإسلامي (بما فيه التراث الشفوي) إلى الفرنسية. أما الترجمة إلى العربية فقد كانت ضعيفة جداً حجماً وأسلوباً. وكانت إعلامية أكثر منها تثقيفية، وقام بها في الغالب جزائريون كان لهم رصيد من التراث أو درسوا دراسة مزدوجة، فلم يفيدوا اللغة العربية، وإنما كانت أعمالهم موجهة إلى المعلمين في معظم الأحيان. وتبين أيضاً أن الجزائريين ساهموا في عملية الاندماج الحضاري الذي كان الفرنسيون قد خططوا له، وشاركوا في البعثات الفرنسية نحو افريقية، وقدموا خدمات جليلة للمستشرقين والعسكريين. ولكن دورهم ظل مغموراً. وقد كشف بعض الباحثين المتأخرين مثل الآن كريستلو وكانيا فورستر عن هذا الدور وأنصفوهم. ونعتقد أن ميدان الترجمة ما يزال في حاجة إلى دراسة شاملة.

وفي دراستنا لمشاركة الجزائريين في الجمعيات الفرنسية بالجزائر وجدنا أسماء منهم في الجمعية التاريخية مثل اسماعيل بوضربة وأحمد عطشي ومحمد صوالح. والجمعية الجغرافية مثل أحمد بن مجقان وعبد الرزاق الأشرف. وفي العشرينات (عشية الاحتفال المئوي) نشرت مجلة (روكاي) التي كانت تصدر بقسنطينة أسماء لإثنين وعشرين جزائرياً باعتبارهم

(1) مطبعة كاربونيل، الجزائر، 1934.

أعضاء في جمعيتها. وأقدمهم عضوية فيها ترجع إلى سنة 1921 فقط (بعد سبعين سنة من صدور المجلة) وهو مولود بن باديس الذي كان محامياً. وقد اشتملت القائمة على ذكر عدد من المهن مثل المحاماة والطب والصيدلة والتجارة والقيادة والنيابة والتملك بالأرض والترجمة، ومراقبة البريد والقضاء والطب في الحرب. ومن المترجمين نجد علي خوجة عباس، وخليل بن خليل. وليس بين الجزائريين أحد في الرئاسة الشرفية ولا المكتب ولا أعضاء الشرف، وإنما نجد واحداً فقط في لجنة المخطوطات وهو ابن الفكون[1]. وهؤلاء جميعاً كان يعتبرهم الفرنسيون من البرجوازية الأهلية أو الانتلجنسيا.

وفي منتصف الخمسينات من هذا القرن نشر غوستاف ميرسييه فصلاً في كتاب طبع تحت إشراف الحكومة العامة، اعترف فيه بجهود بعض العلماء المسلمين (الجزائريين) في الجمعيات الفرنسية. وذكر أسماء أحد عشر منهم، ثم قال إن هناك «غيرهم كثير»، واعترف بأن لهم «ثقافة فرنسية/ إسلامية وروحاً للبحث جعلت منهم أمثلة ممتازة». وإذا كانت أسماء مثل محمد بن أبي شنب وسعد الدين بن أبي شنب (ابنه) وبلقاسم بن سديرة، ومحمد الحاج الصادق، وأبي بكر عبد السلام، ومحمد صوالح معروفة، فإننا لا نعرف الآن الجهود «العلمية» التي قدمها سليمان رحماني، ومحمد الأخضر، والعربي المسعودي وعبد الحميد حميد، وعبد السلام مزيان (وجميعهم مذكورون في القائمة). ومن جهة أخرى نوه ميرسييه بأعمال بعض الرسامين والفنانين، ومنهم محمد راسم صاحب المنمنمات[2]. وهذا اعتراف متأخر جداً من الفرنسيين بجهود الجزائريين في البحث والفن. فقد جاء عندما كانت الثورة على أشدّها.

لقد توقع لوري بوليو سنة 1886 أن يشهد فاتح القرن العشرين بين

---

(1) انظر مجلة (روكاي)، قسنطينة، 1930. ولعله هو ابن أو حفيد أحمد الفكون الذي تحدثنا عنه في هذا الفصل والذي قلنا إنه كان متجنساً. انظر أيضاً عنه المكتبات.

(2) غوستاف ميرسييه «اكتشاف الجزائر العلمي» في كتاب (مدخل إلى الجزائر) نشر الحكومة العامة، 1957، ص 331.

العشرين والثلاثين ألفاً من الجزائريين الذين تلقوا تعليماً فرنسياً متطوراً[1]. ولكن ذلك كان رأياً متفائلاً منه. ففي سنة 1914 كان العدد دون ذلك بكثير. وإليك الإحصاء الذي جاء في بعض المؤلفات الفرنسية في السنة المذكورة:

- المعلمون: 240 (يضاف إليهم 16 معلماً في المدارس الشرعية الثلاث).
- الاحتياطيون الطبيون: 65.
- المحامون والأطباء: 25 (وهو عدد ضعيف جداً إذا عرفنا أن الدراسات العليا بدأت منذ 1880).
- المفتون والأئمة والمدرسون: 170 (وهم رجال السلك الديني الرسمي).
- القضاة والموثقون: 150 (بعد أن استولى القضاة الفرنسيون على اختصاصات القضاة المسلمين).
- وظائف قضائية أخرى: 100 (وهم الباش عدول، والعدول، والوكلاء، والخوجات)[2].

وفي إحصاء آخر متأخر قليلاً نجد بعض المئات - حسب تعبير علي مراد - من الصحفيين والمحامين والأطباء والمعلمين وحملة دبلوم المدارس الشرعية الرسمية. وأما الطلبة والمشتغلون بالتعليم فكان عددهم بين 1920 - 1921 كما يلي[3]:

- الطلبة: 47.
- المترشحون للتعليم (النورماليون): 51.
- المعلمون: 451.

---

(1) بوليو (الجزائر)، ص 290. ومن أجل ذلك نادى بمنح هذه الفئة الحقوق الفرنسية ما داموا قد «خدموا وطننا وتلقوا تعليمنا ويتكلمون لغتنا» حسب تعبيره.

(2) كولونا (المعلمون)، مرجع سابق، ص 92، هامش 2، نقلاً عن آجرون.

(3) علي مراد (الإصلاح الإسلامي)، ص 48 عن سجل الإحصاءات العامة الرسمية.

ومن الواضح أن مصطلح النخبة الاندماجية لا يشمل كل من درس في المدارس الفرنسية فما بالك من درس في المدرسة الشرعية الرسمية (المزدوجة). وقد أشار مالك بن نبي وعلي مراد وغيرهما إلى بعض الأمثلة التي كان فيها المتخرجون تقليديين، ومضادين للاندماج، ومنهم من بحث عن البديل الفكري في الجامعة الإسلامية والتيار القومي العربي، ومن ثمة الحركة الإصلاحية والتوجه السياسي الوطني. ويذكر علي مراد أن عدداً كبيراً من المعلمين بقوا محافظين على ملابسهم التقليدية إلى آخر 1939 تحدياً للمظاهر الفرنسية المفروضة. ولعل هذا الوصف يصدق أكثر على خريجي المدارس الشرعية الرسمية. ونحن نجد أمثلة على ذلك في مذكرات ابن نبي وهو أحد الخريجين من هذه المدارس[1].

* * *

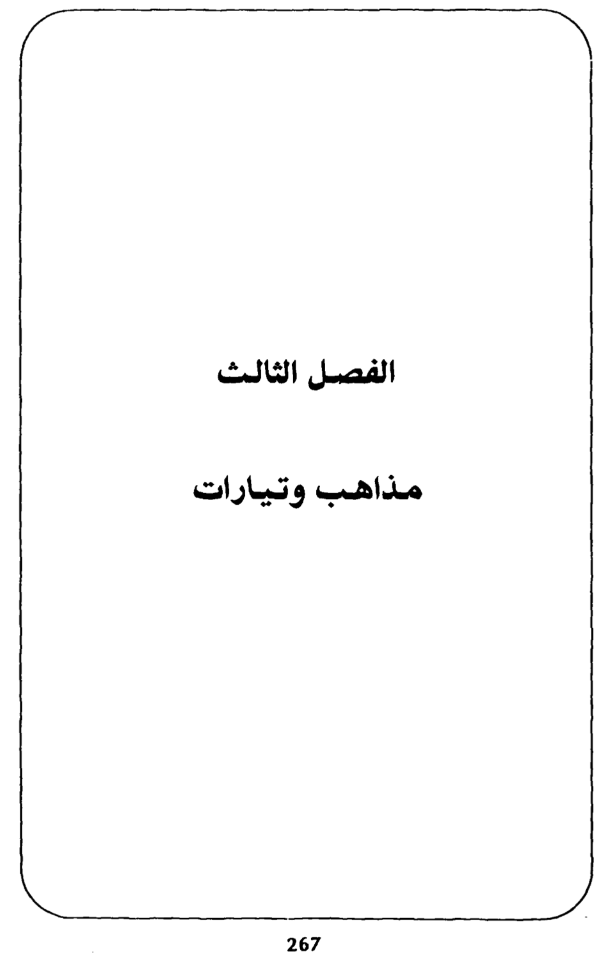
ومنذ الحرب الثانية انجحرت حركة الاستغراب وانكشف أمرها، وكان عليها أن تغير جلدها أو تموت، والعوامل التي أدت إلى انجحارها هي انقسامها على نفسها وخروج فرحات عباس وأنصاره الذين تحولوا من الاندماج الكلي إلى نوع من الاندماج السياسي، سيما منذ 1943. وكان ظهور (حزب الشعب) قد كشف عن المنحرفين وضم إلى صفوفه عدداً من المتعلمين بالفرنسية مما أصبح يعني أن الفرنسة لا تعني الاندماج دائماً، بل تخدم أيضاً الفكر الوطني السياسي عند البعض. ولكن الذي قصم ظهر حركة الاستغراب هـو الحركة الاصلاحية التي كشفت عن هوية المجتمع الجزائري ودافعت عنها وصقلتها، وقدمتها في الصحافة والخطب والأناشيد والكتب فاهتدى بها من اهتدى وبقي الضالون قلة متوارية لا تجروء على المواجهة إلا في حالة غفلة شعبية، كما حدث بعد الاستقلال.

ولكن هل يعني هذا أن حركة الاندماج قد انتهت؟ إن الثورة قد أدت

---

(1) علي مراد (الإصلاح الإسلامي)، ص 49. ومالك بن نبي (المذكرات: الطفل) مرجع سابق، ص 52، 129.

إلى صهر الشعب الجزائري وإخراجه في بوتقة جديدة. هذه حقيقة لا ينكرها إلا المكابرون. ولكن بعض العناصر منه ظلت مرتبطة بولاءات عديدة كالأصول العائلية العميلة، والزواج المختلط، والثقافة الفرنسية غير الواعية، والمصالح العاجلة. وهذه العناصر لها امتداداتها وأدواتها ونفوذها. ولذلك فهي تؤثر وتفرض نفسها وحلولها رغم تغير مفهوم الاندماج اليوم. ويرى البعض أن حزب الشعب نفسه قد دخله اندماجيون كثيرون، وهم الذين انحرفوا بالثورة عن مسارها سيما منذ مؤتمر الصومام، 1956 حين رفعوا شعار العلمانية وعدم التناقض بين الوطنية والفرنكفونية والاقتراب من الشيوعية. ونحو ذلك من الشعارات البعيدة عن الأصالة والهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري.



الفصل الثالث

مذاهب وتيارات

بينما كان الجيش الفرنسي يقوم بدوره في حرب الجزائريين وتشريدهم، وبينما كان المستوطنون (الكولون) يغتصبون أرضهم وديارهم، كان المفكرون الفرنسيون يحاربون الجزائريين أيضاً، ولكن بسلاح الأفكار المدمر، وقد تعرض هؤلاء المفكرون بالضرب والطعن في كل المقومات الذاتية للجزائري: شخصه وتاريخه ولغته ودينه وأخلاقه، الخ. وأمام ضعف الدفاع الفكري الجزائري طيلة قرن تقريباً[1]، كانت ضربات المفكرين الفرنسيين صائبة إلى حد كبير، وكادت تنفذ إلى العظم والمخ.

وفي هذا الفصل سنذكر بعض الأفكار أو المدارس الفكرية الفرنسية التي سددت سهامها إلى الجزائريين لتدمر هويتهم وتطعن في تاريخهم وإسلامهم، وأصولهم العربية والبربرية، ثم لتبني من ذلك مجداً خيالياً للفكر الفرنسي «والمهمة الحضارة الفرنسية»؛ وليس غرض هذا الفصل الاستيعاب والإحاطة لأن كل فكرة أو قضية سنتعرض إليها تستحق في الواقع فصلاً بذاتها أو كتاباً كاملاً، وإنما غرضنا التنبيه ـ تنبيه الشباب المثقف خاصة ـ إلى ما كان يخطط أعداء بلاده بالأمس لكي يسحقوا ذاتية وطنه ويمحوا ذاكرة شعبه، ولكي يقدر الشباب الدور العظيم الذي قام به أجداده لمقاومة هذا الغزو الماحق ويعرف أنهم كانوا أهلاً للعزة والحياة.

ومن ضمن الأفكار التي سنعرض إليها ما شاع في المجتمع الجزائري المختلط (مع الفرنسيين) عن الرومانتيكية، والسانسيمونية، والصهيونية،

(1) لم يبدأ الجزائريون في الدفاع عن أنفسهم فكرياً إلا في آخر القرن الماضي ثم نضج دفاعهم واشتد في عهد الحركة الإصلاحية. وكانت محاولات حمدان خوجة قد قبرت في مهدها مع بداية الاحتلال.

والماسونية، وغيرها. وقد كان لها جميعاً صداها القوي أو الضعيف بين بعض السياسيين الجزائريين والكتاب، ولا سيما النخبة الاندماجية. وهدفنا من ذلك هو بيان أن المجتمع الجزائري لم يكن بمعزل عن الحياة المعاصرة، رغم القيود التي كان يرسف فيها، مثل قوانين الاندجينا.

لقد تعرضت شعوب كثيرة إلى الغزو الفكري والاضطهاد بشتى الوسائل في القديم والحديث. وكان منها شعوب تتمتع بحصانة ذاتية فقاومت حتى انتصرت، ومنها شعوب كانت فاقدة للحصانة الذاتية فذابت في غيرها واندثرت. والشعب الجزائري تعرض، في غفلة من الزمن وأمام تخاذل حكامه الذين تركوه نهب الأقدار في براثن العدو[1]، إلى محاولة جادة وحثيثة للإذابة والإزالة، ولكنه قاوم حتى انتصر. ولذلك فإن الأفكار المدمرة التي سلطت عليه منذ اللحظات الأولى للاحتلال لم تنل منه في النهاية.

«نعمة» الاحتلال؟

معظم الفرنسيين، وتبعهم بعض الأوروبيين، اعتقدوا أن احتلال الجزائر كان نعمة وبركة على أهلها، بينما اختلفت وجهة نظر الجزائريين أنفسهم حول الموضوع: فهل كان الاحتلال نعمة أو نقمة؟ سوف لا نستوعب الجواب على هذا الموضوع، ولكننا نذكر بعض الآراء من هنا ومن هناك ثم نتركها مفتوحة للنقاش.

جاء الفرنسيون إلى الجزائر بمجموعة من العُقَد التي كانت متراكمة عندهم منذ العصور الوسطى حول العرب والمسلمين والشرق والشرقيين، وحول الأمم المتحضرة والأمم المتبدية. وكانت عقائد الحروب الصليبية ما تزال حية في أذهانهم وفي كتبهم وفي معاملاتهم مع أهل جنوب البحر الأبيض المتوسط. وكان وجود المسلمين في جنوب فرنسا منذ الفتح

(1) استسلم حسين باشا وحكومته وتخلت الدولة العثمانية عن حماية الشعب الجزائري الداخل تحت خلافتها وعهدتها.

الإسلامي للأندلس، قد ترك آثاره في الأقاصيص التي تروى عن شارل مارتل وعبد الرحمن الغافقي، وفي حكايات شارلمان وهارون الرشيد. كما أن الوجود العثماني في أوروبا الشرقية وفي الجزائر جعل ذكرياته غير مُسِرَّة للفرنسيين رغم أن ملوكهم (مثل فرانسوا الأول) كانوا متحالفين أحياناً مع سلاطين آل عثمان. وكان التقدم التقني والتجاري للفرنسيين قد أدّى إلى التقدم في ميادين أخرى كالآداب والفنون والفلسفة، والتوسع البحري مما أدّى إلى نمو الحس القومي. وكانت الثورة الفرنسية قد حررت الفرنسيين من عُقَد أوروبية عديدة، ولكنهم ظلوا يحملون عقداً متراكمة نحو الشرق والعرب والمسلمين. وما حملة نابليون الفاشلة على مصر وتخطيطه لاحتلال الجزائر ومعركة نافرينو إلا علامات فقط على هذه العقد وعودة فرنسا إلى ممارسة الحروب الصليبية بطريقة جديدة.

وكان احتلال الجزائر، بعد فشل حملة مصر وهزيمة واترلو وتحجيم الخريطة الفرنسية في مؤتمر فيينا، قد أطلق الكبت الفرنسي من عقاله. وهكذا كانت تصرفات الجيش والمدنيين الفرنسيين تصرفات تدل على شذوذ غريب في العلاقات الإنسانية. فالمسألة هنا ليست مجرد احتلال أرض واستعباد شعب، ولكنها مسألة انتقام من الماضي كله: من فشل الحروب الصليبية، وهزيمة واترلو، وهزمية الحملة على مصر، والهزائم الفرنسية القديمة أمام الجزائر، ثم الانتقام من احتلال العرب والمسلمين لأجزاء من فرنسا في القرون الوسطى. لقد كان الفرنسيون سنة 1830 لا يحملون أحقادهم فقط ضد الجزائريين، كعرب ومسلمين، ولكن أحقاد رجال الكنيسة والملوك والقادة والرعاع الذين تحطمت أحلامهم في السيطرة على الشرق وعلى العالم الإسلامي أثناء قوته.

ومن جهة أخرى اعتقد الفرنسيون أنهم في الجزائر أصبحوا خلفاء الرومان وأحفاد القياصرة. ورغم عدم تدين الفرنسيين الظاهري فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ورثة القساوسة والرهبان الذين كانوا على رأس الكنيسة (الكاثوليكية) في بلاد البربر. وقد رأينا أن تصرفاتهم وتصريحاتهم الأولى

كانت كلها تصب في هذا التيار، أي استعادة مجد الكنيسة ومجد رومة. فكل قائد فرنسي في البداية كان يعتبر نفسه شيبيو الإفريقي، وكل قسيس كان يعتبر نفسه القديس أوغسطين أو سيبريان. وقد عاملوا الجزائريين كما عامل الرومان البربر في القديم، ولكن أحقاد الفرنسيين المتراكمة ضد العرب والمسلمين تجمعت هذه المرة ضد الجزائري باعتباره من البربر المتعربين والمسلمين، أي أنه أضاف إلى العنصر البشري «المتخلف» كما كان في العهد الروماني عنصراً جديداً للسخط عليه، وهو اعتناقه للإسلام وتبنيه لغة القرآن. إن كل تاريخ الاحتلال الفرنسي في الجزائر هو في الواقع تاريخ لمحاولات القضاء على هذه «الهوية الجديدة» التي أصبحت تميز الإنسان الجزائري العربي المسلم (البربري سابقاً). فكل قوانين التجنيس، وإجراءات الدمج في الكيان الفرنسي، والانتقاص من الحضارة العربية الإسلامية إنما كانت تذهب هذا المذهب وتعمل على تجريد الجزائري من هويته الجديدة.

وزاد من انطلاق الكبت الفرنسي سهولة نجاح حملتهم ضد الجزائر وسقوط حكومتها بدون حرب تقريباً، ورِضَى حاكِمِها بالسلامة الشخصية، واغترار بعض أعيانها بوعود القائد الفرنسي. فرغم الضعف الذي كانت تعانيه حكومة الجزائر عندئذ ـ اقتصادياً وعسكرياً ـ فإنها كانت تبدو مستعدة لمواجهة الحملة الفرنسية وإفشالها بالأسلوب الذي تعاملت به مع الحملات الأوروبية والأمريكية، وآخرها كانت حملة 1816. ولكن اتضح بعد نزول الحملة الفرنسية في سيدي فرج غرباً، بدل نزولها في البرج البحري شرقاً، أن الاستعدادت كانت غير كافية وأن الخطة الدفاعية كانت فاشلة، وأن العاصمة أصبحت في حاجة إلى معجزة لإنقاذها. فالعدو الذي اجتاز البحر بسفن جرارة ونزل أرضَ عدوِّه بدون مقاومة، تصبح إعادته إلى البحر مسألة مستحيلة تقريباً. ثم إن نزول العدو بالطريقة المذكورة كشف عن ضعف جديد أيضاً في المقاومة الجزائرية، وهو زعزعة الثقة بين الحاكم والمحكوم. إن المسألة لم تعد مسألة جهاد يدوم أياماً ويتناوب عليه الجيش والفلاحون والمتطوعة لدفع العدو خارج تراب الوطن، ولكنها أصبحت مسألة الشعور

بالولاء الوطني نفسه والثقة في الحاكم، بل مسألة وجود شعب ودولة بالمعنى العصري للكلمة. لقد كان للجزائر حكام وشعب ونظم قائمة وإدارة مركزية وأخرى إقليمية، ولكنها كانت تفتقر إلى التماسك الصلب والإحساس بالتلاحم بين السلطة والمواطن دفاعاً عن الوطن الواحد. وهذه هي نقطة الضعف التي أدت إلى تلاشي المقاومة الأولى والتي وجد فيها العدو ثغرة للدخول منها إلى العاصمة واحتلالها. أما المقاومة التي تولدت بعد ذلك فلا تهمنا الآن.

والأحكام الأولى التي صدرت عن الفرنسيين «المنتصرين» تبرهن على روح الانتقام التي أشرنا إليها وعلى الشعور بالتفوق والتعالي. فكَتَب كتّابُهم عن هذا التفوق وتجسم ذلك في قوانينهم وأحكامهم على أنهم أعلى درجة في التطور الاجتماعي والحضاري من الجزائريين «الأهالي» - الأندجين -، وأنهم هم فقط المتحضرون، أما الجزائريون فأجلاف. وإن أخلاقهم مهذبة وأخلاق الجزائريين غليظة، وأن حكامهم ديموقراطيون وحكام الأهالي طغاة ومستبدون، وإن لهم ذوقاً رفيعاً وللأهالي ذوقاً منحطاً، فلم يعجبهم لا دين الأهالي ولا لغتهم ولا موسيقاهم ولا معاملاتهم ولا منازلهم ولا نساءهم ولا أشكالهم. ومع ذلك اعتقدوا أن دراسة مجتمع الجزائريين وحضارتهم ستفيدهم في دراسة المجتمعات البدائية، كما اعتقدوا أن تلك الدراسة ستقدم إليهم صورة حية عن ماضيهم وأن دراسة المجتمعات المتدهورة يمكن أن تقدم درساً في التنمية المستقبلية وتكون إنذاراً صارخاً للفرنسيين يتعظون به[1].

وبالإضافة إلى التعالي والغطرسة وروح الانتقام، قام الاحتلال الفرنسي على عدة ركائز يحفظها الذين اطلعوا على أول صفحة من تاريخه في الجزائر. فالجيش قد وصل في عهد بوجو إلى ثمانين ألف جندي نظامي، ثم أضيفت إليه فرق مساعدة مؤلفة من المتطوعة الجزائريين [مرتزقة في أول

---

(1) آن تومسون (بلاد البربر وعصر التنوير)، ليدن، بريل Brill، 1987، ص 94.

أمرهم] واللفيف الأجنبي الذي تأسس أيضاً في عهد الاحتلال المبكر، (حوالي 1834) وكان مقره الرسمي في الجزائر طيلة قرن وزيادة، ثم الرماة والقناصة والخيالة، وغير هؤلاء. وكان الجيش الفرنسي متسلحاً بأسلحة متطورة ومتفوقة: أين منها بنادق الجزائريين وسهامهم وسيوفهم! كما كان الجيش الفرنسي حديث عهد بالحروب في القارة الأوروبية وله دربة على فنون الحرب العادية والاستثنائية.

ورغم أن هناك إدارة جزائرية ذات تقاليد قديمة وسجلات بالوثائق والمراسلات والسلالم الرسمية، فإن الفرنسيين لم يثقوا فيها وفككوها ونفوا بعض من كان فيها وعزلوا الآخرين. ثم ارتجلوا إدارة من عندهم قامت على ولاء بعض الجزائريين المدنيين الذين لا خبرة لهم (لأنهم كانوا خارج السلطة) ورئاسة إطارات فرنسية لا تعرف شيئاً عن قوانين وتقاليد البلاد. وبدأ التخبط والتناقض في التسيير. وأنشىء على إثر ذلك الجهاز العسكري المعروف (بالمكتب العربي) الذي أخذ بالتدرج يدير المدن والمناطق المحتلة كبلديات عسكرية مزدوجة (فرنسية - جزائرية). ثم أنشىء لهذه المكاتب العربية المتفرقة مكتب مركزي في العاصمة تابعاً لجهاز الحاكم العام. وفي الأربعينات تبني (بوجو) النظام الإداري الذي وضعه الأمير عبد القادر لدولته، سواء في توزيع المسؤوليات من الشيخ إلى الخليفة (أي من العرش إلى الإقليم) أو في إجراء الأحكام القضائية[1]. فكل منطقة تغلّب عليها الفرنسيون كانوا يعينون عليها حاكماً جزائرياً (أهلياً) يحكم باسمهم ثم يحكمون هم من ورائه، ويدعمونه بالبرنس والتنصيب الرسمي والمال وبعض العسكر الخ. وكان بعض هؤلاء الحكام الجزائريين قد قبلوا الوظائف الفرنسية طمعاً في الجاه، وبعضهم لم يقبلوها إلا بعد فشل المقاومة أو تحت الضغط، وقد حكم بهم الفرنسيون فترة - ما داموا في حاجة إليهم - ثم لفظوهم بالتدرج ابتداء من الستينات (عهد المملكة العربية)، فلم تأت

(1) مجلة الشرق، 1845.

تأت السبعينات حتى كاد الفرنسيون يستغنون عنهم تماماً بتوظيف جيل آخر من غير الأكفاء الذين لا مؤهل لهم سوى الولاء لفرنسا وتقبيل اليد المتفضلة عليهم بالنعمة ـ إذا كانت نعمة!

ومن الوسائل التي حكم بها الفرنسيون وجود عدد كبير من المستوطنين (الكولون) الذين تقاطروا على الجزائر عبر العقود المختلفة، آخرها كان عقد السبعينات، بعد حرب 1870. فقد أعلن الجيش الفرنسي منذ أول وهلة عن قناعته بالاستعمار، ثم ساندته حكومة باريس ومختلف الوزارات المتعاقبة سواء في عهد مملكة يوليو، أو الجمهورية الثانية أو الامبراطورية الثانية أو الجمهورية الثالثة. وكلهم أعلنوا عن إغراءات مفرطة لتحويل أنظار المهاجرين الفرنسيين والأوروبيين من الاتجاه إلى أمريكا إلى الاتجاه نحو الجزائر، بلاد الشمس والبحر، كما يسميها ألبير كامو، وهي البلاد القريبة من أوروبا بحيث لا يحتاج المهاجر إلى قطع البحار، والتعرض للأخطار، وهي بلاد الفرص الذهبية حيث الأرض الخصبة بالمجان والمساعدات المالية وحماية الجيش لهم من «اعتداءات العرب». لقد أصبح المستوطنون الذين جاؤوا من كل فج والذين كان نصفهم تقريباً فرنسياً أصلاً ونصفهم أوروبياً متفرنساً ـ هم العمود الفقري في إدارة الاحتلال وفي اقتصاد الجزائر وتجارتها وتعميرها لصالحهم. كما أصبحوا هم أداة الحضارة أو إنجاز ما سمي بالمهمة الحضارية الفرنسية. وكان لهم نواب ابتداء من عهد الجمهورية الثانية، في الجزائر وفي فرنسا، ولهم صحافة ومسارح وكنائس، ولهم نمط عيشهم الخاص، فقد نقلوا معهم النموذج الفرنسي ـ الأوروبي إلى الجزائر، وأصبحت كل مدينة تعيش بوجهين وجه عربي مسلم يعبر في نظر الفرنسيين عن القِدَم والخمول والتخلف، ووجه فرنسي ـ أوروبي يعبر عن الجدة والنشاط والحياة، أو حي ميت وحي حي[1]. فالتفوق الفرنسي يظهر في العمران وتخطيط المدينة قبل أن يظهر في اللغة والجيش والنظام الاقتصادي

(1) انظر ما كتبه جيمس مالركي عن قسنطينة في مجلة (روكاي) في كتاب (معرفة المغرب العربي)، إشراف كلود فاتان 1984.

أو في الدم الآري، كما يحلو لبعضهم أن يقول.

وهناك وسائل أخرى عديدة للهيمنة الاستعمارية في الجزائر. فالاحتلال استتب بالتدرج وأخذ يبحث عن وسائل الدوام. ومنها إبعاد العرب والمسلمين عن ديارهم وأراضيهم والرمي بهم في مجاهل الصحراء، أو في شواهق الجبال الجرداء، ثم أخذ الفرنسيون يتحدّون الجزائريين بأنهم غير محتلين وإنما هم في بلادهم، بلاد أجدادهم الرومان القدماء، وكانوا يواجهون الجزائريين بهذه المقولة المتكررة: إننا نحن أصحاب السيادة، والسيادة يجب أن تكون كاملة، في اللغة والسياسة والاقتصاد والمنازل والمطاعم والحكم الخ. وعندما رفض الجزائريون هذا المنطق أصدر الفرنسيون لهم قوانين (الأندجينا)، أو قانون الأهالي الخاص بأنواع العقوبات الصارمة على مجموعة من الجنايات (الجرائم؟)، بما في ذلك العقوبة الجماعية. وواضح أن التسمية نفسها آتية من (الأندجينا) التي تترجم إلى أهلي، وهي ترجمة متسامحة، لأن غرض الفرنسيين من تسمية الجزائريين (بالأندجين) هو الحط الشنيع من قيمتهم، فهم دون الرعية[1] ودون المواطنين. فمعنى الأندجين هو (الساكن الأصلي المتخلف) ومعنى (الأندجينا) حينئذ هو مجموعة القوانين والإجراءات التعسفية الاستثنائية الموجهة ضد السكان الأصليين المتخلفين[2]. وكان هذا (الكود) يضم 41 مخالفة أو جناية لا تطبق إلا على الجزائريين. وكانت هذه الإجراءات مطبقة عشوائياً عليهم منذ الاحتلال، ولكن ابتداء من 1881 صدرت في شكل إجراءات استثنائية.

ثم كانت المدرسة من أهم وسائل الهيمنة الاستعمارية. وقد تحدثنا عن

---

(1) كلمة (الرعية) في الحضارة الإسلامية لها معنى شريف، فهي تستعمل فقط في مقابلة الراعي أو المسؤول، فالرعية تعني المواطن.

(2) أول القوانين الخاصة بذلك صدرت في 28 جوان ١٨٨١ ثم استمر المشرع الفرنسي يضيف إليها حتى وصلت إلى 41 جناية، كما ذكرنا، وقد استمر العمل بها إلى ما بعد 1930 في أشكال أخرى.

ذلك في فصل التعليم، وعرفنا أن الفرنسيين اتخذوا منها أداة لدمج الجزائريين في البوتقة الفرنسية. وكانوا قد بدأوا ذلك منذ الشهور الأولى للاحتلال، ولكن الجزائريين كانوا لهم بالمرصاد، فقاطعوا في البداية المدرسة الفرنسية، وتمسكوا بمدرستهم. فرد عليهم الفرنسيون بقطع جميع الموارد على المدرسة العربية ـ الإسلامية ومصادرة أوقافها وتشريد معلميها وهدم مؤسساتها. ولم يكن غرض الفرنسيين هو «نشر التعليم» كما قد يتخيل البسطاء، وإنما إنشاء مراكز تدريبية على الأفكار الفرنسية والعادات والمدخل إلى اللغة الفرنسية، أي إحداث زعزعة في الذهنية الجزائرية، وفصل الأطفال عن ذويهم عقلياً، وتكوين جيل لخدمة المصالح الفرنسية، عن طريق التثاقف. ثم لعبت المدرسة الفرنسية دوراً غير نزيه لا يليق بالعلم والحضارة، وهو إعطاء بعض الجزائريين كميات من العلم وحرمان الآخرين منه، وكان ذلك من باب التفريق بين المواطنين وإشعار البعض منهم بأنهم أكثر تفوقاً على جيرانهم وأنهم أصبحوا يشبهون الفرنسيين نشاطاً وأصولاً ومعيشة. ولكن عندما وصل هؤلاء المتعلمون الجزائريون إلى درجة المطالبة بحقوقهم أجابهم الفرنسيون بأنهم (أندجين) كالآخرين. وقد نجحت المدرسة الفرنسية، مع ذلك، في تكوين أقلية اندماجية (نخبة) أصبحت بالتدرج مفصولة عن المجتمع، ودون أن تصعد إلى مصاف الفرنسيين في المعاملة.

ويتصل بهذه الوسيلة الخطيرة وسيلة أخرى لا تقل خطورة في التحكم في مصير الجزائريين والسيطرة الاستعمارية على مقاليدهم، ونعني بها الهيمنة على الشؤون الإسلامية. ذلك أن الفرنسيين قد وضعوا أيديهم على كل المعالم والمؤسسات الإسلامية من مساجد وزوايا ومكتبات وأوقاف وحج، بل حتى رؤية هلال رمضان والإعلان عن عيد الأضحى. ثم أنشأوا إدارة سموها (إدارة الشؤون الأهلية)، أصبحت هي التي تختار الأيمة والمدرسين وقراء القرآن على الموتى، وهي التي توظف وترتب الرتب وتكافىء وتعزل رجال الدين. وهي التي ترفع وتخفض رجال الطرق الصوفية بالسماح لهم «بالزيارات» أو منعها عنهم. وهي التي تفتح أو تغلق الزوايا. كما أن هذه

الإدارة ومن يمثلها في المقاطعات البعيدة كانت هي التي تمنح رخصة التعليم «الحر» أو ترفضها، أي رخصة فتح المدارس القرآنية. وكانت أيضاً هي التي تشرف على شؤون الحج، . فمن شاءت حججته ومن شاءت حرمته.

كما كان التحكم في القضاء من أبرز وسائل الهيمنة الاستعمارية. والحقيقة أن التدخل في القضاء الإسلامي بدأ منذ الاحتلال، ثم جرت عدة تدخلات أخرى سنوات الأربعينات والستينات أدت إلى تقليص دور القضاة المسلمين وإعطاء صلاحياتهم للقضاة الفرنسيين، أو إذا شئت إحلال الأحكام والقوانين الفرنسية محل الشريعة الإسلامية في بلاد إسلامية تعهدت فرنسا على لسان ممثلها سنة 1830 باحترام دين أهل البلاد وتقاليدهم. ولم تحل سنة 1886 حتى رمى الفرنسيون بكل مواثيقهم وعهودهم في الهواء وأعلنوا تجريد القضاة المسلمين من كل صلاحياتهم تقريباً، فأنشأوا نظام المحلفين (الجوري)، وهو نظام لا تعرفه الشريعة الإسلامية، وجعلوا المحلفين من الفرنسيين فقط، في كل القضايا الجنائية. ولم يبق للقضاة المسلمين إلا تسجيل شؤون الزواج والطلاق والتركات. وفي 1890 ألغيت المحاكم الإسلامية ولم يبق منها سوى 61 من مجموع 184 محكمة. كل ذلك تطبيقاً لمبدإ السيادة الفرنسية، فقد قال الحاكم العام (ديقيدون) ذات مرة بأن على القاضي المسلم أن يتوارى أمام القاضي الفرنسي لأن هذا هو الذي يمثل الاحتلال والسيادة.

وفي سنة 1882 سنّ الفرنسيون سنّة غير حميدة للجزائريين عندما فرضوا عليهم تغيير الحالة المدنية التي كانوا عليها وتطبيق نظام الحالة المدنية الفرنسي عليهم فرضاً. فكل (أندجين) كان عليه أن يحمل بطاقة تعريف وأن يختار لقباً عائلياً، وأن يصرح جبراً بالزواج والطلاق. وكان الهدف، كما صرح بذلك المشرعون لهذا النظام الجديد أنفسهم، هو فصل الجزائريين عن إطار قوميتهم وانتمائهم الحضاري الذي عاشوا داخله منذ قرون. فالعرش (القبيلة) انقسم إلى عائلات، وكل عائلة أصبح لها لقب خاص بها بقطع النظر عن كونها تشترك أو لا تشترك مع مجموع عائلات العرش في الانتماء للجد

الواحد (أولاد فلان، بنو فلان). وكانت هذه الخطوة، التي جاءت بعد مرسوم 1863 الخاص بنزع الملكية العرشية وتمليكها للأفراد من العرش نفسه، من أخطر الخطوات التي اتخذت لمحق الهوية الجزائرية ودمج أهلها في البوتقة الفرنسية. وقد أعلن كاميل صاباتييه أمام لجنة 18 (1891) أن الهدف من إنشاء الحالة المدنية هو تحضير الأهالي للاندماج.

أما الضرائب والقوانين المالية فقد استعملها الاحتلال كوسيلة غير رحيمة للسيطرة والقبضة الحديدية. إن احتلال أية قرية أو مدينة كان يعقبه فرض ضرائب حربية وضرائب استسلام. لقد فهم الفرنسيون أن الطاعة أو الخضوع يستلزم دفع الضرائب أو الجزية بكميات لا تتناسب مع القدرة على الدفع. وإذا عجز البعض عن الدفع أجبر الفرنسيون باقي المواطنين على الدفع الجماعي. اسأل عن البليدة والقليعة والمدية وتلمسان ومليانة وقسنطينة، اسأل أي عرش أو قبيلة، اسأل ثوار الأوراس والظهرة وجرجرة والصحراء، عن معاناتهم وبكائهم أمام جباة الإدارة الجديدة وهم ينتقمون منهم دون مراعاة لأي حال أو مآل. وكان العاجز عن الدفع يحمل إلى السجن وبذلك يحرم أولاده وأهله من خدمته. فتتشرد الأسر وتترمل النساء وييتيم الأطفال. وهناك أيضاً ضريبة شاذة تسمى «الضريبة العربية»، لا يدفعها إلا العربي (الجزائري) بالإضافة إلى زكاة العشر. وفي 1873 زيد على ذلك ما سمي بالسانتيم الإضافي لخدمة الممتلكات الأهلية، وبعد ذلك بسنة زيد 1% من الضرائب، وبعدها بسنة ضوعفت مدفوعات الأهالي الضرائبية. وبالإضافة إلى دفعهم الضرائب المباشرة كالفرنسيين، كانوا (الأهالي) يدفعون ضرائب أخرى غير مباشرة بلغت 46% من مجموع الضرائب كلها. ومع ذلك فهناك قواين تمنع الأعراش من الرعي في الغابات، وتحمل الجزائريين مسؤولية حرائق الغابات وتعاقبهم بالعقوبة الجماعية عليها. ومن ذلك قانون 1881[1].

(1) كولونا، (المعلمون)، مرجع سابق، ص 24 ـ 25.

هذه إذن عينات من وسائل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر. ونحن لم نتحدث عن أخذ الرهائن والنفي إلى جزر المحيطات، ولا على سياسة «فرق تسد» أو استعمال الصفوف (الأحزاب) بعضها ضد بعض، ولا تسليط وسائل الإعلام الكثيرة لتحقير الجزائري وإهانته، ولا التمييز العنصري في الاعتبار العام وفي المدرسة والمستشفى والمطعم والوظيفة. حقاً إن هناك أفراداً فرنسيين كانوا قد ارتبطوا بالجزائريين ارتباطاً إنسانياً، من الإنسان العادي إلى الأديب والأستاذ والفنان والطالب إلخ. ولكن هذه مجرد حالات لا تمثل قاعدة التعامل الحقيقي واليومي، أو الرسمي والشعبي.

ومع ذلك يقف جزائريون جهلة بكل المعطيات التاريخية وكل المعاناة التي خضع لها آباؤهم وأجدادهم ليقولوا إنهم كانوا في ضنك فأصبحوا تحت الفرنسيين في بحبوحة من العيش، اتباعاً للدعاية الاستعمارية نفسها التي انطلت عليهم بعد أن ران على قلوبهم غشاء كثيف. فقد وجدنا منهم، بعد جيلين من الاستعمار، من يشكر فرنسا على تعليمهم بعد أن كانوا في جهل، وعلى تنظيمهم بعد أن كانوا في فوضى، وعلى إعطائهم وطناً بعد أن كانوا بدون وطن. اقرأ كتاب أبي بكر بو طالب، ومقالة ابن حمودة، ورسائل حسني لحمق، وتصريحات فرحات عباس الأولى، ومقالات الزناتي وزملائه «المستضعفين»[1]. وهناك غيرهم ممن لم يكتبوا مقالات أو كتباً ولكنهم كانوا يعلنون ذلك بأفواههم في المحافل والمناسبات ويمجدون أعمال فرنسا في الجزائر، سيما بعض كبار الأعيان.

رأي باصيه، ود. وارنييه، وطوكفيل...

أما الجانب الفرنسي فقد أكثر من المنّ على الجزائريين وذكر التفضل بالنعم والبركات. معظم الفرنسيين كانوا معجبين بما قدمته بلادهم للجزائر.

---

(1) وهم الذين أنشأوا مجلة بهذا المعنى سموها (صوت المستضعفين)، انظر فصل المنشآت الثقافية.

وقد تجند علماؤهم، والمستشرقون بالخصوص، للإشادة بما قدم الجنود والقساوسة والقادة الإداريون والباحثون والفنانون في هذا المجال. ونذكر بهذا الصدد بحث الأستاذ رينيه باصيه، كبير المستشرقين ومدير مدرسة الآداب في الجزائر حوالي أربعين سنة[1]. كما نذكّر ببحث هنري بيريس الذي كان مديراً لمعهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب عشية ثورة 1954[2].
وها هو الدكتور وارنييه لم ينتظر طويلاً، إذ كتب منذ 1865 ملخصاً عما قدمته بلاده للجزائريين من مبرات وخيرات ـ في نظره ـ ولا ندري لو كتب وارنييه بعد ثورة 1871 وما تلاها من عقوبات، ماذا كان سيكتب أيضاً. ومع ذلك فنحن نعلم أنه حضر الثورة المذكورة واشترك في تسليط العقاب على أصحابها.

قال الدكتور وارنييه سنة 1865 مُنَوّهاً بفضل فرنسا على الجزائريين: لقد أعطتهم الجنسية الفرنسية دون مطالبتهم بقوانينها. وهو يشير بذلك إلى المرسوم الذي صدر في نفس السنة (1865) والذي جعل من الجزائريين رعايا فرنسيين في الخارج ولكنهم في الداخل ـ داخل الجزائر ـ كانوا مجرد (أندجين)، كما عرفنا. وكان على الدكتور وارنييه أن يقول إن فرنسا فرضت عليهم حالة الرقيق وأنهم لم يطالبوا بالجنسية الفرنسية وإنما فعلت فرنسا ذلك مضطرة حتى تحمي مصالحها في المشرق، لأن المهاجرين كانوا يطالبون بالجنسية العثمانية بعد خروجهم من الجزائر.

وأخبر الدكتور وارنييه، الذي عاش في الجزائر طويلاً وأصبح من أقطاب الاستعمار والعنصرية، كما سنرى، أن فرنسا قد احترمت دين الجزائريين (الإسلام) رغم أنه لا يتلاءم مع نظمها. والرد على هذا الرأي موجود عند الفرنسيين أنفسهم، فأي احترام للدين الإسلامي إذا كانت

---

(1) رينيه باصية «نشاط فرنسا العلمي في الجزائر وشمال إفريقية» في المجلة الآسيوية، 1920، المجلد 15.

(2) هنري بيريس، «عمل فرنسا في الجزائر في نظر رحالتين مسلمين»، (المشرفي ومحمد بيرم)، في وقائع مؤتمر العلماء، الجزائر، 1935.

فرنسا نفسها هي التي صادرت أوقافه وهدمت مساجده وزواياه وبعثرت حتى عظام موتاه على مرأى ومسمع من السكان؟ وأي احترام للإسلام إذا كانت شريعته لا تطبق في القضاء، ولغته لا تدرس في المدارس، وقرآنه لا يتلى إلا على الأموات، وأيمته ومفتوه يعينهم أمثال لوسياني أو ميرانت؟

ولنستمع إلى بقية «المَكْرُمات» الفرنسية، كما يذكرها الدكتور وارنييه، دون الرد عليها، لأنها جميعاً مخالفة لما حدث تاريخياً. قال: إن عدل فرنسا أرحم معهم (الجزائريين) من عدل غيرها رغم كثرة تحدياتهم لها ـ يقصد الثورات الخ ـ وأن فرنسا قد أعطتهم التعليم أكثر من حاجتهم إليه (؟)، وأنها فتحت أمامهم الوظائف المدنية (في الجزائر، لأنهم لا يتوظفون في فرنسا رغم أنهم فرنسيون)، كما فتحت أمامهم الرتب العسكرية في الجيش الفرنسي. وأضاف أن فرنسا جعلتهم ملاكين للأراضي التي كانت ملكاً للدولة (وهو يقصد أرض الأعراش الجماعية، وهو يعتقد أن الأرض ما دامت عرشية فهي للدولة!). ثم ذكر وارنييه أن بلاده قد أبقت الكولون تحت نظام استثنائي ـ يعني الحكم العسكري كالجزائريين ـ احتراماً لمؤسسات الأهالي السياسية والإدارية. وأخيراً ذكر وارنييه أن بلاده كانت تصرف حوالي 21 فرنكاً للمحافظة على الأمن بين قبائل الجزائريين بينما لا تجني منهم في شكل ضرائب إلا حوالي ثلث ذلك المبلغ(1).

كان أليكسيس دي طوكفيل من المنادين بالاستعمار أيضاً ولكن كان له تفسيره الخاص وحتى نقده. فقد زار الجزائر على الأقل مرتين، سنة 1841 وسنة 1846، ولكن اهتمامه بها يرجع إلى سنة 1833، وكتب عنها التقارير والمذكرات وشارك في إحدى اللجان البرلمانية التي درست أحوالها. وكان له مشروع إقامة (دمينيون) بالجزائر، لكنه لم ينجح فيه. وقد أيد الاستعمار وتوزيع الأراضي ومواصلة الحرب في الجزائر، بل أيد حملات بوجو

(1) الدكتور وارنييه (الجزائر أمام الامبراطور)، 1865، المقدمة.

العسكرية ومجزرة غار الظهرة الشهيرة (سنة 1845)، والقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، وذلك تحت غطاء نشر الحضارة الأوروبية والمسيحية وتحرير العبيد والتوسع الفرنسي القومي باسم الفكر الليبرالي، ولكنه نادى بالأخذ بيد الجزائريين «البدائيين» لا ليكونوا فرنسيين ولكن ليكونوا كالفرنسيين.

وبينما نجد دي طوكفيل يقول إن فرنسا قد التزمت للجزائريين بعدة التزامات وعليها أن تحافظ على عهدها. نجده تارة أخرى يقول إن فرنسا قد ارتكبت في وقت السلم ضدهم ما لم ترتكبه في وقت الحرب. في المرة الأولى قال إنها التزمت بعدم المساس بدينهم، وأنها كافأت من حاربها منهم بتوظيفه ومنحه الأوسمة والضيافة، وأنها منحت لهم الأرض الخصبة التي كانت للدولة بدل منحها للأوروبيين، وحملتهم إلى الحج على سفنها وعلى حسابها. أما في المرة الثانية فقد قال إن المدن الجزائرية قد غزتها الإدارة أكثر مما غزاها الجيش، وأن عدداً من الأملاك الخاصة قد خربت ونهبت أثناء السلم، وأن كثيراً من الوثائق التمليكية قد طلبتها الإدارة من أصحابها للتأكد من التملك ولكنها لم ترجعها إليهم أبداً. وأعلن أن الأراضي الخصبة التي كان يملكها الجزائريون حول العاصمة قد انتزعت منهم وأعطيت إلى الكولون الذين لا يريدون أو لا يستطيعون زراعتها بأنفسهم فسلموها بدورهم إلى أصحابها الأصليين ليعملوا كأُجرَاء على أرض هي في الواقع ملك لأجدادهم. وأخبر أن هناك قبائل لم تحارب الفرنسيين ومع ذلك انتزعت منها أراضيها الخصبة وأجبرت على الخروج من منطقتها، وأن الفرنسيين قبلوا بشروط لم ينجزوها ووعدوا بتعويضات لم يحققوها، وحكم بأن ذلك قد أدى إلى أن يعاني «الشرف» الفرنسي قبل أن تعاني مصالح الأهالي.

وفي نظر دي طوكفيل أن المجتمع الجزائري كان نصف متحضر، وأن له حضارة متخلفة وغير متقنة، والدليل على ذلك أنه كان يتمتع بمؤسسات كثيرة، خيرية وتعليمية، كان هدفها سدّ الحاجات الاجتماعية وخدمة التعليم

العمومي، ولكن الفرنسيين، كما قال، وضعوا أيديهم على مداخيل هذه المؤسسات في كل مكان، ووجهوا جزءاً منها لخدمة أغراض أخرى غير أغراضها التي أنشئت من أجلها. وقال إن الفرنسيين قد خفضوا عدد المؤسسات الخيرية الإسلامية (وهو يعني الأوقاف) وأهملوا المدارس، وأغلقوا الحلقات الدراسية، وقال بهذا الصدد قولته الشهيرة، إننا بدل أن نضيء هذه الشموع (الدروس والمدارس) أطفأناها، وبذلك توقف تخريج رجال العلم والدين والشريعة، وهذا يعني، في رأيه، أن الفرنسيين قد جعلوا المجتمع الإسلامية أكثر بؤساً وأكثر تخلفاً وجهلاً ووحشية مما كان عليه قبل الاحتلال. وحكم دي طوكفيل بأن الإدارة الأهلية (الفرنسية) كانت أقل تمدناً من الإدارة السابقة (التركية؟) في التعامل مع الجزائريين.

ورأى دي طوكفيل أن هناك تناقضاً بين النظرية والتطبيق في معاملة الأهالي. فالفرنسيون يقولون إن هؤلاء الأهالي غير قادرين على تقبل الإصلاح والتقدم، ولكن بدلاً من الأخذ بأيديهم وتنويرهم وقع تجريدهم من الضوء الذي كانوا يملكونه، وبدلاً من إبقائهم على الأرض التي كانوا يملكونها حكموا عليهم بالخروج منها، وكان عليهم أيضاً أن يستسلموا للفرنسيين، وليس هناك سوى وسيلة وحيدة في التعامل معهم لحصول الاستسلام، ألا وهي القوة. وفي رأيه أن هناك حلاً وسطاً يجمع بين النظرية والتطبيق، وهو تمكينهم من الارتقاء إلى درجة الحضارة ـ حضارتهم وليس الحضارة الفرنسية. فهم كشعب نصف متحضر، في نظره، لا ينتظرون سوى العدل، العدل الحقيقي والصلب، ولا ينتظرون سوى حكومة توجههم إلى مصالحهم وليس إلى المصالح الفرنسية، وقال إنه ليس على الفرنسيين أن يفرضوا عليهم حضارتهم ولكن عليهم أن يقودوهم إلى حضارتهم الخاصة، فمن رأى طوكفيل أن التملك الخاص وإقامة الصناعات والتوطن في المدن الخ. أمور غير ممنوعـة في الدين الإسلامي بل تتماشى معه. ثم إن الإسلام، في رأيه، لا يقف ضد الحضارة ولا يعادي العلم. وكان على الفرنسيين أن يقنعوا الجزائريين بفوائد العلوم، ولا يجبروهم على الدخول في المدارس

الفرنسية، وإنما يجعلونهم يحيون مدارسهم[1].

لم تكن كتابات طوكفيل تروق لبعض الفرنسيين، ولذلك أهملوها وقلما أشاروا إليها ولم تجمع كتاباته عن الجزائر إلا سنة 1968، رغم أنه كان يقف مع الاستعمار، كما رأينا، والقضاء على المقاومة الوطنية، وكان يعتبر الجزائريين أدنى حضارة من الفرنسيين، وعلى هؤلاء أن ينقذوهم من وهدتهم ويخرجوهم من التخلف بالعدل والرحمة والتعليم. وهذه كانت هي عقيدة الليبراليين الأوروبيين عموماً. وكذلك كانت عقيدة السان سيمونيين. وهذا الصوت، رغم ما فيه من ادعاء وتبجح، كان موجوداً على ألسنة كتاب آخرين طيلة العهد الاستعماري، فقد كان في كتابات توماس (إسماعيل) أوربان، وكتابات الدكتور فيتال، ومواقف البان روزي وإلى حد ما في صوت مارسيل ايمريت... كما ظهر في سياسة بعض الحكام العامين أمثال شارل جونار وموريس فيوليت. ولكن ذلك الصوت كان ضائعاً في القفار، لأن الصوت المسموع حقاً في الإدارة الفرنسية في الجزائر وفي البرلمان الفرنسي هو صوت بوجولا، والدكتور وارنييه، ويوجين ايتيان، وتومسون، ومايير، ومورينو، أو كتاب من أمثال لويس بيتراند، وإيميل غوتييه، وحكام عامين كثيرين كانوا تحت رحمة الضغط السياسي والإعلامي للكولون و «اللوبي» الكولونيالي في الجزائر وباريس.

رأي لافيجري ولويس فينيون وآخرين

وبعد خمسين سنة من الاحتلال (1881) كتب الكاردينال لافيجري تقريراً سرياً عن الوضع في الجزائر أظهر فيه أن فرنسا كانت تخسر أكثر مما تربح وأن حالة من الهيجان كانت منتشرة ولا ينتظر الأهالي سوى حرب

(1) دي طوكفيل (عن المستعمرة في الجزائر).. مختارات من كتابات دي طوكفيل عن الجزائر، تقديم ت. تودوروف T. Todorov، ط. باريس 1988 (الأولى 1968) ص 164 ـ 172.

أوروبية ليثوروا من جديد رغم قربهم من ثورة 1871[1]. وقد أدان لافيجري النظام المتبع في الجزائر، ولكنه لم يطالب بالانسحاب وإنما بإحكام القبضة والاستعداد الدائم للخطر، ولذلك أوصى بتأخير احتلال تونس وتأجيل نصب الحماية عليها إلى ما بعد الحرب الأوروبية المتخيلة والوشيكة في نظره. ومن رأي لافيجري أن فرنسا قد أنجزت الكثير في الجزائر، طرقات، وموانىء وقرى ومدن، ومزارع واستثمارات، ولكن النتائج لا تتناسب مع التكاليف، ذلك أن المصاريف كانت تفوق في نظره العائدات بعشرة ملايين فرنك بحساب وقته، ووجد أيضاً أن عدد الجنود الفرنسيين الذين ماتوا في الحروب أو في المستشفيات بسبب الظروف المناخية كان يفوق عدد الكولون الموجودين في وقته. ومن رأيه أن هذه حقيقة معروفة للجميع ولكنهم يتحرجون من ذكرها لأنها تمثل إدانة للنظام المتبع حتى ذلك الحين. وهو كرجل دين وسياسة رأى أن هؤلاء الكولون (الفرنسيين بالذات، لأنه كان يتحدث عن الأوروبيين الذين تجنسوا بالفرنسية) قد أضاعوا خصالهم الحميدة كالأمانة وحب الأرض الوطنية، ما عدا بعض الاستثناء. وهناك في رأيه من كان يحرّض هؤلاء الفرنسيين حتى على الانفصال عن فرنسا، كما حدث سنة 1870 عندما دعا مجلسُ بلدية الجزائر المغامر الإيطالي (غاريبالدي) ليرأس الجزائر ويفصلها عن فرنسا.

أما عن الجزائريين في نظر لافيجري فقد كانوا «في هيجان مخيف للغاية» ولا سيما الزواويون الذين سخطوا من انتزاع أراضيهم ومنحها للكولون، كما أن الصحافة الاستعمارية كانت تتحداهم وتقول لهم إن المزيد من الأراضي سيؤخذ منهم قريباً. وانتقد سياسة الجمهورية الثالثة المتسرعة في إحلال متصرفين مدنيين لا خبرة لهم محل المتصرفين العسكريين. وكان عليها أن تتريث وأن تحافظ على السياسة القديمة «العسكرية» فترة أخرى. وفي نظر لافيجري، كما في نظر معظم الفرنسيين، أن الجزائريين لا يخضعون

(1) عن حياة ونشاط الكاردينال لافيجري، انظر فصل الاستشراق... والتنصير.

إلا للقوة وأن المكاتب العربية العسكرية هي التي كانت تخيفهم رغم أنهم لايحبونها، لأنها كانت تملك السلاح والفرق العسكرية التي تحت تصرفها. أما المتصرفون المدنيون فلا يملكون شيئاً يهابه العرب. وضرب مثلاً على ذلك بأن أحد قضاة الصلح الفرنسيين وجد نفسه على رأس دائرة عين الحمام (فور ناسيونال).

ولم يكن هذا القاضي غير المجرب وحده في ذلك. فقد سارعت الإدارة الجديدة إلى تعيين متصرفين مدنيين على رأس بلديات مختلطة، وأعطت لهذه البلديات حوالي 80 ألف هكتار من الأرض. وما يزيد عن 50 ألف ساكن. وأصبح هؤلاء الإداريون الجدد يعوضون نقص الكفاءة وعدم معرفة اللغة المحلية باللجوء إلى العنف والجور في الأحكام. وقد جعل هذا التصرف الأهالي يحسون بالنهب من كل جانب وبتراخي قبضة الحكم، ولذلك فهم على استعداد للقيام بثورة أخرى، وإنما هم فقط ينتظرون الفرصة المواتية، وكانوا يرددون فيما بينهم بأن الفرنسيين على أبواب حرب أوروبية، وأن مبعوثين يأتون إليهم من تونس والمغرب الأقصى ويترددون عليهم منذ سنوات، ولذلك أصبح الأهالي يعلنون صراحة بدون خوف بأنهم سيرمون الفرنسيين في البحر. وهم متأكدون أن الأسلحة والبارود وجميع المساعدات مضمونة لهم من الخارج. وضرب على ذلك مثلاً بالتوتر الذي كان يسود الجزائر وما تعرضت له حملة (فلاترز) في الجنوب[1]. وقال إن هناك حالة ذهنية منذرة بالخطر. ولكن الانتفاضة العامة لن تحدث إلا إذا وقعت حرب أوروبية، وحينئذ ستكون الانتفاضة من أقصى البلاد إلى أقصاها. وقال لافيجري: «تذكروا كلامي هذا جيداً». لقد كان يرى الخطر داهماً، وأن فقدان الجزائر يعني أكثر من عشر هزائم لفرنسا في نظره، ولذلك أوصى بأن تبقى بها القوات البالغة خمسين ألف جندي. وهو باعتباره رجل دين كان حريصاً على القول بأن القرآن لن يتسامح هذه المرة مع الكفار، وأن العصبية

(1) عن حملة فلاترز انظر الحركة الوطنية، جـ 1 القسم المخطوط.

الإسلامية ستتولد وتعم المنطقة من بني صاف إلى طرابلس[1].

والسيد لويس فينيون كان أستاذاً متخصصاً في تاريخ الاستعمار ومؤلفاً معروفاً في وقته، رأى أن الاحتلال، رغم ظلمه وقسوتهِ، قد أتى بفوائد جمة للجزائريين. وذكر من بين ذلك أربع فوائد في نظره، وهي نشر السلم بين الأعراش والقبائل التي كانت في حالة حرب وغزو أثناء العهد العثماني. ولم ير في المستوطنين الفرنسيين علامة سلبية بل هم في نظره قد أفادوا الجزائريين بتوفير العمل لهم وشراء إنتاجهم، ومن ثمة الزيادة في ثروة الجزائريين. ومن جهة أخرى فإن المزارعين الفرنسيين كانوا يعطون المثل لهم في استعمال الوسائل الزراعية الحديثة وكذلك المزروعات الجديدة. وقد فتح المهندسون الفرنسيون مجالات أخرى استفاد منها الأهالي أيضاً، مثل مد الطرقات والسكة الحديدية، واستخراج المياه الجوفية في الصحراء، كما في وادي ريغ حيث تضاعفت غراسة النخيل[2]، ولم ير فينيون سوى القسوة والجور كمآخذ على الاحتلال، بينما لم يهتم بما ترتب على هذا الاحتلال من نتائج ثقافية وسياسية واجتماعية مدمرة. واهتم بما قدمه الكولون باعتبارهم، في نظره، معلمين للفلاحين الجزائريين الذين فقدوا أرضهم وأصبحوا عمّالاً عليها للكولون أنفسهم ولفائدة الكولون أيضاً.

وقد انتقد فينيون سياسة بلاده نحو تمثيل الجزائريين في المجالس المحلية وغيرها. فقد كانوا في رأيه غير ممثلين ولا منتخبين في المجالس العامة (مجالس الولايات الثلاث) ولا في مجلس الحكومة، ولا في البرلمان

---

(1) علي المحجوبي (تنصيب الحماية الفرنسية على تونس)، ط. تونس، 1984، ص 159 ـ 162. وهو تقرير كتبه لافيجري في 24 أبريل 1881، إلى الأب شارتمان. وهو أصلاً عن الحماية على تونس وضرورة تأخيرها إلى ما بعد الحرب المتوقعة. وقد عثر عليه السيد المحجوبي في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية. وصوره لي الأخ يوسف مناصرية مشكوراً. ويتبين من المعلومات والتوقعات التي في التقرير أن لافيجري لم يكن رجل كنيسة فقط ولكنه كان رجل سياسة وجوسسة أيضاً.

(2) لويس فينيون (فرنسا في شمال إفريقية)، 1887، باريس، ص 241 ـ 242.

الفرنسي. ومن ثمة كان صوتهم غائباً، بينما كان للكولون ممثلون منتخبون في كل المجالس المذكورة وكذلك في البلديات. ولكنه نصح بلاده باتباع سياسة ميكيافيللية في الجزائر إزاء «الصفوف» أو (الأحزاب) المتنازعة كالطرق الصوفية والزعامات الأهلية والأعراش وغيرها، لأن ذلك من حنكة السياسة التي على الدول أن تتبعها للمحافظة على رايتها وسيادتها[1]، وفي نفس الوقت نصح باتباع سياسة «الإحسان» نحو الأهالي، ولخص معنى الاحسان فيما يلي: تعليمهم الفلاحة وحفر الآبار لاستخراج المياه الجوفية لهم (لاحظ أن فوائد المياه ستعود بالضرورة على الفرنسيين أيضاً)، وتعليمهم اللغة الفرنسية التي كان يجب أن تفرض عليهم فرضاً منذ لحظة الاحتلال الأولى، كما فعل الألمان في الألزاس، حسب تعبيره، وتطبيق مبدإ فتح المدارس وإجبارية التعليم عليهم في البلديات الكاملة (ذات الأغلبية الفرنسية)، واتباع «العدل الفرنسي» نحوهم لأن العربي يحب العدل والماء، كما قال، وفتح مجال الخدمة العسكري أمامهم لأن ذلك سيجعلهم يحتكون بالمجتمع الفرنسي وحضارته وسيساعد أيضاً على تسريب الأفكار الفرنسية والتأثير المعنوي فيهم، ثم إن منحهم حق انتخاب ممثلين عنهم يدخل في تقاليد المجتمع السياسي الفرنسي[2].

ويمكننا أن نلخص أفكار لويس فينيون في الموضوع فنجدها لا تخرج عن حث بلاده على تطبيق مبدإ الاندماج على الجزائريين والإسراع في ذلك لأنه قد تأخر خمسين سنة عن موعده. وكل هذه «الوصايا» لا تخرج عن مشروع الاندماج الذي كان يدعو إليه أمثاله من دعاة المهمة الحضارية الفرنسية، والذي كان يعارضه الكولون وبعض العسكريين ورجال الكنيسة لأسباب مختلفة.

وكان الحاكم العام شارل جونار قد أعلن سنة 1908، أن سياسته في

---

(1) انظر ذلك في فصل الطرق الصوفية أيضاً.
(2) فينيون، مرجع سابق، ص 266.

الجزائر تقوم على اللباقة والخيرية والصرامة. وقد عرف عنه أنه كحاكم فرنسي، سلك سياسة أهلية جديدة تقوم على تطوير الجزائر كما هي، ولكن داخل القالب والسيادة الفرنسية[1]. ولم تسلم سياسته أيضاً من الميكيافيللية التي تحدث عنها لويس فينيون، فقد لجأ جونار إلى عدة إجراءات لتمزيق وحدة الجزائريين اللغوية والعرقية، وسار في ركب الكولون والمستشرقين الذين كانوا يقدمون إليه النصائح ويضغطون عليه أيضاً.

وقد علق لوشاتلييه على سياسة جونار عندئذ ورآها سياسة لا تنفع فرنسا. ذلك أن كل حاكم عام كان يبدأ بمجرد تعيينه «بالتمسح» للكولون، محاولاً كسب ودهم وتأييدهم، بينما كانت مصلحة فرنسا العليا، تقتضي الموازنة بين الفرنسيين (الكولون) والجزائريين، حسب تعبير لوشاتلييه. ومن رأيه أنه لم يكن للجزائريين أي صوت يعبر عن رغابتهم. ولذلك على فرنسا أن تتبع نحوهم سياسة نشطة في التقدم الاقتصادي والاجتماعي، مع اتباع العدل حيث لا تحل الرحمة والخيرية محل الحق ولا الصرامة محل التفاهم. وكان لوشاتلييه قد تخصص في علم الاجتماع الإسلامي، وقام بتدريسه في الكوليج دي فرانس، وألف أعمالاً عن الطرق الصوفية وأشرف على (مجلة العالم الإسلامي). ومن موقعه هذا رأى أن سياسة اللباقة والخيرية والصرامة التي أعلن عنها جونار كانت لا تكفي في الجزائر «الفرنسية» لكسب ثقة الجزائر «الإسلامية»[2].

وقد لخص شارل تيار تطور الرأي العام الفرنسي نحو الجزائريين كما ظهر في مختلف الكتابات، وكان هذا الرأي يتراوح بين ـ 1 ـ إبعاد الأهالي أو القضاء عليهم تماماً كما فعل الأوروبيون في أمريكا مع الهنود الحمر، أو ـ 2 ـ إدماجهم بالقوة أو بالتدرج عن طريق القوانين واللغة في النظام والمجتمع الفرنسي، أو ـ 3 ـ إهمالهم وعدم الالتفات إليهم. ولم يكن

---

(1) انظر رأي دي طوكفيل، سابقاً.

(2) الفريد لوشاتلييه (التوقيع هو A.L.C) في مجلة العالم الإسلامي، مارس 1908، ص 609 ـ 611.

الفرنسيون قد قرروا اتباع أي من هذه «السياسات» بوضوح. وقال السيد تيار الذي تتبع مختلف الكتابات الفرنسية عن الجزائر خلال حوالي قرن من الزمن: أن سياسة فرنسا نحو الأهالي لم تدخل حيز الاهتمام النشيط إلا منذ سنوات قصيرة. فقد استحوذ السكان الفرنسيون بين 1830 و1890 على كل شيء وشغلتهم مختلف الانشغالات. فكانت المصاريف من أجل حاجتهم هم فقط. ولكن تحت ضغط البرلمان المستمر عليهم (؟) وبعد مقاومة صامتة، اتجهوا (الكولون) إلى العمل بدون حماس، وأحياناً مع بعض التشاؤم، ثم أخذوا يبدون اهتماماً متنامياً. وها هي النتيجة أنهم يسيرون في الاتجاه الذي اختارته الحكومة الفرنسية والذى أدى خلال جيلين أو ثلاثة إلى تحول عدد كبير من الأهالي اجتماعياً وسياسياً ومعنوياً[1].

وبعد قرن من الاحتلال أعلن إيميل غوتييه المعروف بأفكاره ونظرياته الاستعمارية المتطرفة والأستاذ في التاريخ والجغرافية والمؤثر على جيله، أن افتراض استقلال الجزائر عن فرنسا لا يمكن تصوره. وهو لا يقصد استقلال العرب والمسلمين فقط ولكن استقلال كل سكان الجزائر عندئذ، بمن فيهم الفرنسيون. وقد بنى نظريته هذه على أن تاريخ الجزائر يشهد منذ ألفي سنة على تبعيتها لدولة خارجية لأن سوق اقتصادها مرتبط بهذه الدولة الأجنبية، ذلك أن اقتصادها قائم على الزراعة وليس لها مستهلك في العهد الفرنسي مثلاً غير السوق الفرنسي. وقد عمم غوتييه نظريته لتشمل كل شمال إفريقية أيضاً. فهذه المنطقة مرتبطة اقتصادياً بدولة أجنبية حيث الأسواق مفتوحة لها. ثم أن قرب الجزائر من مرسيليا دليل على هذه الرابطة القوية في نظره بين الطرفين. ولذلك لا يمكن حتى أن يتصور المرء افتراض استقلال الجزائر عن فرنسا[2]. أن الاندماج أو التكامل الاقتصادي بين الطرفين في نظره قضية حتمية.

---

(1) شارل تيار (الجزائر في الأدب الفرنسي)، الجزائر، 1925، ص 160.

(2) غوتييه (كراسات الاحتفال المئوي)، ج ، ص 12.

وفي حديثه عن التاريخ والفن القديم لوح أوغسطين بيرك سنة 1937 بغصن الزيتون الفرنسي واعتبر أن «بلاد البربر» قد هاجرت طويلاً في عالم الشرق ثم رجعت إلى حضن الفرنسة وريثة الرومنة، وهو حضن الصداقة الفرنسية الدافىء. وقد وضع عناوين لكتابه على هذا النحو: بلاد البربر تحت وصاية الشرق (وهو العهد الإسلامي الأول)، وبلاد البربر تتحرر من الشرق (عهد بني هلال والمرابطين والموحدين)، . . ثم الجزائر التركية (المفروض أن يقول: عهد الرجوع إلى الشرق)، ولكن المهم هو أن بيرك يسمي الاحتلال الفرنسي: مائة عام من الصداقة الفرنسية!.

وفي خطاب «ميلودرامي» يوجهه لصديقه الخيالي (محند) الذي يسميه «صديقي العربي - البربري» قال بيرك: وجدتك راعياً وعاملاً تحت السلام الروماني، ومهيمناً أثناء الممالك البربرية، ومستعداً للهلاليين والمرابطين والموحدين والزيانيين والأتراك، ورأيتك أثناء هذه الرحلة قليل الأفراح كثير الدموع متألّماً من الاستعباد (!)، ورأيتك على طول هذه العصور مكبلاً لخدمة الأرض والمناخ والتاريخ. ثم يصل أوغسطين بيرك إلى نقطة الهدف عنده عندما يقول إلى صديقه (محند) إنه رآه في الجزائر الفرنسية سنة 1937: مرفوع الجبين متوقد النظرات عريض الصدر بأنفاس جديدة، وأنت قادم عليّ بِثِقَة راسخة بَنَتْها مائة سنة من الصداقة الفرنسية المشتركة[1].

ترى كيف قامت هذه «الصداقة» (الاحتلال)؟ إن بيرك لا يكتب من الخيال، إنه قد عاش ربع قرن في إدارة الشؤون الأهلية، وهو يعرف ما حدث وماذا يقول. ومع ذلك نجده يحول الليل إلى نهار ويغرق في الميتافيزيقيا والتجريدات. فقد عدد لصديقه الخيالي (محند) كم تغير الحال من ذلك الماضي الحزين في نظره عندما كانت الجزائر تحت وصاية الشرق، وعندما

(1) أوغسطين بيرك (الجزائر بلاد الفن والتاريخ)، 1937، ص 261. وهو كتاب نشر بإشراف الحكومة العامة بالجزائر.

كان أجداد بيرك ينظرون إلى محند على أنه عربي من الحجاز بَانِينَ بذلك من الجزائر شرقاً خيالياً. لقد تغير الحال وأدرك الفرنسيون خطأهم وصححوا موقفهم، وهو أن الجزائر فرنسية وغير شرقية وأن محند ليس عربياً من الحجاز. وإنما هو فلاح جيد من بقايا الاحتلال الروماني، وهو أيضاً فلاح جيد لخدمة الاقتصاد الفرنسي، لأن أكبر عبقرية إداري فرنسي في الجزائر كان، في نظر بيرك، فلاحاً، وهو المارشال بوجو، فهو الذي سن سياسة البندقية والمحراث. وما رفيق (محند) إلا فلاح الكولون الذي يعجب به بيرك أشد الإعجاب لأنه هو أيضاً من الكولون.

وقد ذكر بيرك كيف تغير الحال على محند، وحصر ذلك في الاقتصاد الفرنسي وفي التشريعات. وجاء على ذكر التواريخ الهامة التي حاولت التشريعات خلالها أن تقتلع جذور المجتمع الجزائري. وفي نظره أن تشريع 1863 قد أسس الأسرة على أنقاض القبيلة، والفرد على أنقاض العرش، ولكن بيرك لم يذكر أن الأرض التي كانت للقبيلة والعرش وتحولت إلى الأسرة والفرد قد انتزعت منهم أيضاً وأعطيت للغرباء، أولئك الكولون الذين يقول بيرك عنهم إنهم رفقاء محند في عهد الصداقة الفرنسية. أما تشريع 1882 الذي أنشأ الحالة المدنية واللقب العائلي، فقد نظر إليه بيرك على أنه قد جاء بسيكولوجية (الأنا) والفردية بدل الارتباط بأصول غير واضحة (!) وهل اتضحت للفرد (الأنا) شخصيته عندما اختار لقباً عائلياً خاصاً به وانقطعت صلته بماضيه وبعائلته الواحدة؟ ورأى بيرك أن قانون الأرض الصادر سنة 1897 قد أنشأ طبقة من الفلاحين الجدد ـ طبقة وسطى أو نوعاً من البرجوازية الريفية الصغيرة، منغرسة في الأرض، ولا تطلب من فرنسا إلا حمايتها وأمنها. ثم امتدح بيرك تشريعات أخرى رآها تحقق لصديقه (محند) السعادة والديموقراطية والتعاون الحقيقي، ومن ذلك إلغاء الضريبة العربية سنة 1918، والتنقيص من الامتيازات المشروطة عند الاقتراع العام، ووضع أطر الديموقراطية في إصلاحات 1919، بل إن الخدمة العسكرية الإجبارية رآها بيرك قد حطمت علاقات الدوار، وأحلت محلها صداقة الخدمة (مع

الفرنسيين) والانفتاح على آمال مشتركة[1].

إن رومانتيكية أوغسطين بيرك كانت بدون حدود وهو يخاطب صديقه الخيالي (محند). فبعد أن قلب حقائق عديدة كتسمية الاحتلال صداقة، والحالة المدنية سيكولوجية فردية، واغتصاب الأرض تخلصاً من العرش والقبيلة، والخدمة العسكرية انفتاحاً... بعد ذلك كله، ذهب يدعو محند - ذلك الآغا الفارس الوارث لألقاب مجيدة، وذلك المرابط العصري من أمثال الشيخ ابن عليوة، وذلك الفنان العبقري أمثال راسم - إلى إزالة ما بقي عنده من تردد نحو الفرنسيين. «عليك أن تربط مصيرك بمصيرنا، وأن تساهم في المشروع الذي وضعه الحاكم العام[2] الحريص على مصلحتك.. إن مصيرنا مشترك منذ عهد الغولوا Gaulois، ومنذ صرخ الفارس الفرنسي وهو يغرز خنجره على مدخل باب عزون، إننا سنعود!.

هذا إذن هو المصير الذي كان بيرك يحاول أن يأخذ بيد صديقه محند إليه منذ بدأ عهد الاحتلال، العهد الذي تحررت فيه الجزائر من وصاية الشرق ودخلت، بفضل فرنسا وصرخة فارسها المجهول، تحت وصاية الغرب وبالخصوص تحت مظلة سكان بلاد الغال (الغولوا)[3]، حيث تفقد الجزائر هويتها وتندمج اندماجاً كلياً في شعب آخر فرض نفسه عليها بمختلف الوسائل، حتى الميكيافيللية، كما قال لويس فينيون.

ونفس النغمة رددها عالم فرنسي آخر لا يقل أهمية عن بيرك، وهو لويس ماسينيون، صاحب الأنشطة الاستشراقية المعروفة. ففي 1947 أعلن ماسينيون أن الحل لمشكل الجزائر هو الاندماج في ظل الإخلاص والعدالة

(1) بيرك، مرجع سابق، ص 262. رغم أن كتاب بيرك كان عن الفن الجزائري، فإنه تحدث فيه عن المعالم الإسلامية في مختلف العهود كالمساجد، ولكنه لم يذكر ولو مسجداً واحداً يرجع إلى العهد الفرنسي. بينما ركز في هذا العهد على الزرابي والطرز... وهي فنون استعملها الفرنسيون للتجارة لا للفن والعبادة.

(2) عندئذ (1937) كان الحاكم العام هو لوبو Le Beau.

(3) بيرك، مرجع سابق، ص 265. والغولوا، هم سكان فرنسا القديمة.

عند التطبيق، وعبر عن إعجابه بقانون الجزائر الذي صدر في تلك السنة والذي كان يهدف إلى تكريس الاندماج، وهو يعني طبعاً فقدان الجزائر لهويتها. ولماذا الاندماج في نظر ماسينيون؟ إن كثرة أعداد الكولون منع من حدوث الانفصال بين الجزائر وفرنسا، وهو مطلب بعض الوطنيين المسلمين، حسب تعبيره، ثم إن الدماء الجزائرية والفرنسية قد امتزجت في المعارك خلال حروب فرنسا الثلاث (1870، 1914، 1939). ومن جهة أخرى رأى ماسينيون أن القطيعة قد وقعت بين إطارات الماضي (جيل النخب الأهلية) التي كانت موجودة سنة 1830 وبين إطارات الحاضر التي تكونت في العهد الفرنسي[1]. ولذلك أصبحت الأرض مُمَهَّدَة للاندماج في الحياة والمجتمع الفرنسي[2].

والغريب أن ماسينيون الذي قضى قرابة أربعين سنة عندئذ في خدمة الاستشراق ينتهي إلى هذا الحل. فهل كانت رؤيته قصيرة إلى هذا الحد؟ لعله كان يكتفي بقراءة الصحف الاستعمارية ونصوص التشريعات الفرنسية، ولم يختلط أو يقرأ الصحف الوطنية ولا آمال الجماهير والشباب الصاعد الذي كان يطمح إلى الحرية والاستقلال بقطع النظر عن كثرة الكولون وغياب إطارات 1830. وهو يعلم أيضاً أن قانون 1947 لم يطبق وبقي حبراً على ورق في معظم أجزائه. ولا ندري كيف يتحدث ماسينيون عن الاندماج بعد أحداث 1945 وآثار الحرب العالمية الثانية التي منها ميلاد الجامعة العربية ومنظمة الأمم المتحدة والحرب الباردة وظهور حركات التحرر من الاستعمار في آسيا وإفريقيا.

* * *

أما عن رأي الجزائريين في الاحتلال الفرنسي فهوموجود في الكتابات والعرائض والصحف والرسائل والخطب والأعمال التي قاموا بها أفراداً وجماعات وأحزاباً منذ 1830. وكانت الثورات تعبيراً آخر على هذا

(1) انظر عن ذلك بحثنا «آخر الأعيان أو نهاية الأرستقراطية العربية في الجزائر». وقد صدر في مجلة (المنارة) التي تصدر عن جامعة آل البيت - الأردن.

(2) لويس ماسينيون، حولية العالم الإسلامي Annuaire، 1955، باريس، 233.

الاحتلال، وكذلك الحركات المنظمة في أحزاب وجمعيات خلال القرن الحالي. فمطالبها مدروسة ومفصلة في مختلف الدراسات ومنها بعض كتبنا. وكان آخر رفض لأكذوبة الصداقة الفرنسية التي تغنى بها أوغسطين بيرك وأمثاله هو ثورة نوفمبر 1954. إن من يرجع إلى كتابات حمدان خوجة وخطب الأمير عبد القادر وأوامر أحمد باي وإعلانات الجهاد في الثورات العديدة، وعرائض أعيان المدن، وكتابات رجال الإصلاح، وصحف الأحزاب الوطنية، سيجدها معبرة أصدق تعبير عن رأي «الأهالي» في الاحتلال الفرنسي لبلادهم. ولكن بعض الجزائريين ضربوا أيضاً على وتر الاندماج، سيما من الفئة التي سماها الفرنسيون أنفسهم تارة بالنخبة وتارة بالمتطورة، ولكن حجم هذه الفئة كان ضئيلاً، ومعظمهم كانوا من المتجنسين بالجنسية الفرنسية أو ممن تزوجوا من فرنسيات. ولا نكاد نجد كاتباً تكوّن في مدرسة عربية/ إسلامية، ثم نادى بالاندماج.

أما الباحثون الفرنسيون فقد نسبوا إلى جزائريين مجهولين قولهم إن الاحتلال كان قضاء وقدراً. وطالما ذكر علماء اللغة وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) أنهم عثروا في أقوال بعض الدراويش والأولياء ما يدل على أن الجزائر سيحتلها بنو الأصفر، أحفاد الروم، لظلم حكامها وجورهم وخروجهم عن جادة الدين الإسلامي ورضاهم بالفساد. وقد أعجب الفرنسيون بهذه الأقاويل والتنبؤات وراحوا يروجونها في كتاباتهم، لأنها كانت تخدم مصالحهم ومخططاتهم. وقد نسبوا أقوالاً من ذلك إلى الحاج عيسى دفين الأغواط، وإلى الشيخ أحمد بن يوسف دفين مليانة، وغيرهما. ومنها ما ذكره السيد ليون رينييه من أن أحد المرابطين في الأوراس، اسمه سي محمد بوقرانة، شيخ بلدة زانة، قد وجده وسط بعض الآثار وهو يسجل الكتابات والنقوش، فسأله المرابط: هل تفهم هذه الكتابات؟ فأجابه رينييه بأنه يفهمها ويكتبها أيضاً، وأن حروفها هي حروف اللغة الفرنسية، فالتفت الشيخ بوقرانة إلى من معه من العرب قائلاً: انظروا، أن الروم (الفرنسيين) هم أبناء الرومان، وهم عندما احتلوا هذه البلاد فإنما أخذوا

خيرات آبائهم[1]. وكم يحلو للفرنسيين أن يكرروا هذه الأقاويل على أنفسهم وعلى الجزائريين لأنها في نظرهم، تبرر احتلالهم في الذهنية الشعبية.

ومن الذين برعوا في قراءة النصوص «الأهلية» واستخراج الروح الشعبية منها، جوزيف ديبارمي. ويبدو أنه كان أذكى من بعض أساتذته ومعاصريه المستشرقين الآخرين. وكان ديبارمي، بحكم معرفته للعربية وتعليمه في مدارس الجزائر مدة طويلة وعيشته في بيئة قريبة من البيئة العربية، قد تحصل على نصوص تعتبر سرية أو مهملة، واستطاع بحكم ثقافته النفسية والاجتماعية أن يستخرج منها حتى نوايا أصحابها الحقيقية أو المتخيلة، وأن يفك معمياتها ورموزها. وقد كتب الكثير في هذا المجال. ولا نريد الآن سوى ذكر نموذج واحد مما كتب.

حصل ديبارمي سنة 1908 على نصين كانا لفلاحين يعيشان في منطقة البليدة. ثم أعطى النصين لمتعلم من حضر المدينة المذكورة، لم يذكر اسمه، ولكن من أوصافه له نعلم أنه كان غير متعصب ضد الفرنسيين، حسب رأي ديبارمي، وكان ثلاثتهم لا يعرفون الفرنسية، وإنما يروون أخبارهم عن المرابطين. وقد توسع الرجل الحضري في النصين وأضاف إليهما فأصبح رأيه رأياً ثالثاً في الموضوع[2]. وكان النصان في شكل (مجالس) يحكى خلالها الراوي قصصاً وأخباراً حقيقية أو خيالية أو مزيجاً من الحقيقة والخيال. وترجم ديبارمي من هذه المجالس نصوصاً بحذافيرها وساق المعنى الباقي بلغته.

وبناء على هذه المجالس التي «اكتشفها» ديبارمي فإن من نتائج الاحتلال الفرنسي أن المجتمع الجزائري قد تغيرت طبيعته وتأثر الفرد

---

(1) انظر المجلة الشرقية والجزائرية، ج 2، 1853، ص 154، (من رحلة ليون رينييه في أعتاب الأوراس).

(2) الفلاحان هما: الشيخ محمد بن إبراهيم خوجة، ورابح بن قويدر. وأما الثالث فاكتفي ديبارمي بقوله عنه إنه متعلم ومن الكراغلة.

بمؤثرات جديدة. فالمسلم أصبح لا يخرج من داره إلا وهو ذليل، وأصبح محجباً كالمرأة، ذلك أن الشارع فيه حضارة أخرى مغايرة، حضارة الفرنسيين (الروم). وقد أهين المسلمون بالهزيمة على يد الكفار. وأن الأتراك، رغم استبدادهم، أخف وطأة من الفرنسيين (وهو رأي عبر عنه حمدان خوجة سنة 1833 حين قال: اللهم ظلم الترك ولا عدل الفرنسيس). وأن القضاة الذين يوظفهم الفرنسيون لا ثقة فيهم، لأنهم لا يخدمون إلا أنفسهم أو أسيادهم. وكذلك لا ثقة في العلماء ولا في الحكام الذين يعينهم الفرنسيون، لأن المسلم الحقيقي لا يقبل أن يعمل عند الكفار. إن هؤلاء الكفار يغرقون الأهالي ببضائعهم، ومنها الملابس والسكر والشمع غير الطاهر والذي يقدمونه للمرابطين. إن الفرنسيين يتجسسون على الجزائريين لمعرفة أسرارهم وذلك بالصلاة معهم والذهاب إلى الحج للاطلاع على خفايا المسلمين. إنهم يظهرون وديعين في البداية ثم يكشرون عن أنيابهم ويصبحون غلاظاً وقساة في النهاية. وهم يمنعون الجزائريين من تعلم الدين والقرآن في المدارس، بينما يعلمون اللغة الفرنسية لأبناء الجزائريين بهدف إخراجهم عن دينهم. وبعد أن ينتهي التلميذ من المدرسة تطلبه الثكنة. لكن نير النصراني (الفرنسي) سيتحطم ذات يوم[1]!.

وهناك 86 مجلساً تحدث عنها ديبارمي. وكل مجلس له حكاية خاصة. وقد حضر المجلس الأخير رجال الصوفية، الأغواث والأقطاب والأوتاد ونوابهم، في الجزائر. وحضر معهم غوث مرسيليا ـ سيدي المرسلي ـ الذي ذكّر الحاضرين بخيرات فرنسا وكرمها، كما حضر رئيس الديوان. وبعد التداول في مصير الجزائر اتفق أعيان الصوفية، حسب راوي المجالس، على تفويض الأمر إلى الله. فهو الحكيم العليم والمقدر كم سيبقى الفرنسيون في الجزائر ومتى سيخرجون منها.

(1) جوزيف ديبارمي «عمل فرنسا كما يراه الأهالي» في المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقية، SGAAN، 1909، القسم الأول، ص 167، والثاني ص 417.

وواضح أن نهاية رأى الأهالي في الحكم الفرنسي ترجع إلى القضاء والقدر أيضاً. والفرنسيون يعرفون ذلك ويبنون عليه تمديد بقائهم بالخرافة والعلم والتسلط. إنهم يعرفون مشاعر المسلمين ومدى الهوة التي تفصلهم عنهم، ولذلك كانوا يعملون على تأجيل قرار زعماء الصوفية وتحويله إلى قرار قدري ليس في أيديهم ولكن في يد سلطة أعلى منهم.

ويبدو لنا أن فهم ديبارمي للنفسية الأهلية أصدق وأعمق ربما من فهم ألفريد بيل وأوغسطين بيرك ولويس ماسينيون وأضرابهم ممن كانوا مهتمين فقط بالشرائح الاجتماعية القريبة منهم كالاندماجيين والبرجوازية والإقطاعيين. وديبارمي كان يعرف أن المداح الشعبي ومجالس الصوفية إنما هي رموز على مدلولات خفية، وأن الحقيقة كانت وراء ذلك. وأن هناك أسلوباً حكيماً في التقية والتورية، سواء باستعمال ألقاب الصوفية أو استعمال الفوارس والأبطال في التاريخ القديم[1].

لم يكن الفرنسيون يحضرون فئة معينة لتولي الحكم في الجزائر بدلهم ذات يوم. كانوا يعتقدون أنهم خالدون وأن الجزائري سيظل خديمهم إلى الأبد. وإنما كانوا يستعملون الحيل والتسويف والقمع والتقسيم للإبقاء على قبضتهم. وبذلك ساهموا في توحيد الجزائريين، على عكس مقصودهم، لأن الفلاح والعامل والمثقف والسياسي ورجل الدين كلهم تيقنوا أن الفرنسيين كانوا يعاملونهم على حد سواء وهو حرمانهم من الهوية الوطنية ومن حق التمتع بالحرية.

«فرق تسد»

استعمل الفرنسيون سلاح تقسيم الجزائريين بكل مهارة. وتطور استعمال هذا السلاح عندهم مع الزمن. فكان لكل ظرف وكل عهد سلاحه

(1) عالج ديبارمي هذه الرموز وأناشيد المداح (القوال) في عدة أعمال نشرها. كما اهتم بالحركة الوطنية والإصلاحية بالخصوص.

البتار، وقد استمروا على ذلك خلال ثورة 1954 أيضاً. والذين عاشوا هذه الثورة من الجزائريين يدركون أن ما فعله الجيش الفرنسي معهم وأجهزة المخابرات والمصالح الخاصة كان نسخة مكررة مما استعمله الفرنسيون ضد آبائهم وأجدادهم منذ 1830.

اعتمد الفرنسيون في البداية على مخلفات الحروب الصليبية في المشرق وفي الأندلس. ومنها اعتبار سكان شمال إفريقية مسلمين متعصبين وشرقيين معادين للأوروبيين، وأن الإسلام هنا عدو للمسيحية هناك. كما اعتمدوا على تراث مكتوب شحنه رجال الدين والأسرى والرحالة والجواسيس والقناصل بعواطف العداء لأهل شمال إفريقية ووصفهم بأوصاف التخلف والتعصب والوحشية. وقد ترجم الفرنسيون واطلعوا قبل الحملة على مؤلفات الدكتور شو، وويليام شيلر، وبوتان، ودي طاسي والأب دان، وديفونتين، ورينندر، وبنانتي وغيرهم. ولذلك كانت ردود أفعال الفرنسيين الأولى تتماشى مع الأحكام التي أصدرها هؤلاء المؤلفون ضد السكان وحكامهم.

ومعظم هذه المؤلفات كانت تصب جام غضبها على الحكام «الأتراك» باعتبارهم حكاماً غرباء ومستبدين، يحكمون لمجرد الشهوة في جمع المال والثروات، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بالقرصنة ويفرضون الجزية على الدول الأوروبية، ويأسرون الأسرى ويبيعونهم في سوق النخاسة من أجل الثروة وليس من أجل أي هدف آخر. وفي نظر هؤلاء المؤلفين كذلك أن المحكومين (الأهالي) كانوا يبغضون الأتراك وأنهم إذا وجدوا مساعدة خارجية فسينضمون إليها لتحريرهم من ربقة الذل والهوان والاستغلال الذي كانوا يتعرضون له على يد الأتراك الظلمة المستبدين. ثم إن هؤلاء الأتراك ما هم إلا أقلية (أوليغاركية) وفيهم المرتدون عن المسيحية والمغامرون والجنود الذين قدموا من أناضوليا وسواحل شرق البحر الأبيض وجزره بحثاً عن الغنائم والشهوات والثروات. وليس لهؤلاء الحكام ولاء حقيقي للسلطان العثماني الذي أصبح قلقاً منهم لتمردهم عليه.

وكان البيان الذي أصدره الفرنسيون للجزائريين عشية الحملة يسير في هذا الخط[1]. وكانوا معتمدين على أن الحضر، وهم البرجوازية المتسيسة والراغبة في الحكم قياساً على المجتمعات الأوروبية، سيتعاونون معهم لفك قيود الحكم «التركي» وتولي السلطة بدلهم. وقد نجحت هذه الخطة مع سكان العاصمة إلى 5 يوليو 1830، ساعة احتلال القصبة واستيلاء الجيش الفرنسي على الحصون والقلاع. ذلك أن أعيان الحضر هم الذين ضغطوا على الداي ليفاوض بشروط ولينقذ المدينة من الدمار. ولم يكن الباشا ولا الأعيان عندئذ يفكرون في مصير الأجزاء الأخرى من الوطن. ويبدو أن الحضر كانوا يعتقدون أن الفرنسيين سيبرون بوعدهم ويجلون عن الجزائر بعد عزل الداي وتنصيب «أمير» آخر مكانه. ولم نعرف أن الداي قد شاور قادة الأقاليم وشيوخ الأوطان وأعيان البلاد في مصير الجزائر قبل أو بعد استسلامه للفرنسيين، أو أنه تنازل لأحدهم ليحكم بعده، أو فكر في الانتقال إلى عاصمة إقليمية أخرى ليقود المقاومة. فقد كان كل انشغاله وانشغال زعماء الحضر عندئذ هو إنقاذ العاصمة من التدمير بأخذ الفرنسيين لها عنوة.

وبدأ عيث وعبث الفرنسيين بالعاصمة وأهلها حتى قبل أن يخرج منها الداي. وأخذ الحضر يشاهدون من الفرنسيين ما لم يكونوا يتوقعون أبداً: اغتصاب المنازل، وانتهاك المساجد، ونهب التحف، وسلب المال، مع الشتائم والإهانات. وكان أول رد فعل لذلك هو خروج الآلاف من العاصمة إلى الأماكن القريبة أو الذهاب عند الأقارب في المناطق المجاورة، انتظاراً لإنجلاء الموقف. ورأى بعض أعيان الحضر أن أخف الضررين هو التعاون مع العدو في تسيير المدينة، فشاركوا في أول لجنة بلدية وبعض المصالح الأخرى الثانوية، معتمدين على شروط الاتفاق الذي وقع بين الداي وقائد الحملة ومحتجين به على الفرنسيين. وحين رأى هؤلاء شكوك الحضر بهم أخذوا يميلون إلى التعامل مع اليهود ضدهم، وكان اليهود من سكان العاصمة

---

(1) نشرنا هذا البيان وقدمنا له وعلقنا عليه في كتابنا أبحاث وآراء، ج 1.

يعرفون جيّداً أحوالها السياسية والتجارية والمالية، وقد ارتموا في أحضان الفرنسيين من أول وهلة رغم أنهم كانوا منذ الطرد من الأندلس مع المسلمين، يتمتعون بمكانتهم الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الجزائري.

وهكذا انطلقت سياسة تفريق الصفوف: الحضر ضد الترك، ثم الحضر العرب ضد الحضر الكراغلة، ثم اليهود ضد الحضر بأنواعهم. هذا في المدن كالجزائر وتلمسان ومستغانم وقسنطينة والبليدة والمدية. وسنرى أن الحضر كانوا لا يمثلون في نظر الفرنسيين أي وزن بعد التوسع في الاحتلال. وسيعتمد الفرنسيون على نوع آخر في تفريق الصفوف عندما تخرج جيوشهم إلى البادية أو الأرياف بجبالها وسهولها وصحاريها، لأن معظم سكان الجزائر كانوا خارج المدن.

عندما ظهرت القيادات المقاومة للغزو الفرنسي داخل البلاد استعمل الفرنسيون أيضاً قادة ضعفاء النفس، طامعين في السلطة وأمدوهم بالسلاح والعتاد والرجال، وضربوا، كما يقوْلون، الصفوف ببعضها. فقد اعتمدوا في أول الأمر على قادة من أصول تركية أو سبق لهم الحكم في الأقاليم، مثل إبراهيم بوشناق في مستغانم، ومصطفى المقلش في تلمسان، وإبراهيم الكريتلي في عنابة. الأولان ضد الأمير عبد القادر، والأخير ضد الحاج أحمد.

وفي الصفوف العربية ضربوا القادة ببعضهم أيضاً سواء في شرق البلاد أو ضربها. ففي الشرق شجعوا فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز ضد شيخ العرب ابن قانة الذي كان صهراً للحاج أحمد. وفي الغرب فصلوا مصطفى بن إسماعيل ومحمد المزاري ثم سيدي العريبي عن الأمير عبد القادر، وبنوا حبة من قبة على الخلاف الذي وقع بين الأمير ومحمد الصغير شيخ التجانية في عين ماضي، حتى جعلوا خلافهما متوارثاً في الطريقة بين التجانية والقادرية مدة قرن. كما ضخموا الخلاف بين الأمير والحاج أحمد. ودخلوا زواوة

ووسعوا الخلاف بين العائلات الحاكمة هناك، عائلة أورابح ضد عائلة أوقاسي، وهذه ضد عائلة سيدي الجودي، وهذه ضد عائلة ابن زعموم الخ. واستمر الضرب على هذا الوتر طيلة عقود: ضرب العرب بالعرب والبربر بالبربر، دون تمييز. وكان بعض العرب والبربر من الغفلة والجهل بحيث مدوا رقابهم للذبح وأيديهم للقيد، دون تفكير في العواقب ودون إدراك للأهداف السياسية للفرنسيين. وإذا صدقنا الروايات الفرنسية فإن القادة الأهالي قد صفوا بعضهم ببعض، وكانت مهمة الفرنسيين هي فقط توفير السلاح.

ولم تسلم الطرق الصوفية من سلاح التقسيم أيضاً. فحين رأى الفرنسيون أن الخطر يكمن في هذه الطرق بعد القضاء على المقاومة المنظمة، استعملوا نفس السلاح ضد الطرق أيضاً. فقدموا بعض قادة الطرق الصوفية للوظائف الزمنية، كما فعلوا مع أولاد سيدي الشيخ في البيض، وعائلة ابن علي الشريف في أقبو، وعائلة ابن حسين في الخنقة، وعائلة الصحراوي بتيارت، الخ. وقسموا الطريقة الرحمانية إلى فروع موالية معظمها في الجنوب، وفروع معارضة معظمها في الشمال، وضربوا القادرية والرحمانية بالطريقة التجانية التي كانوا ينوهون بولائها وخدماتها. ورغم أنهم ظلوا يعتبرون الدرقاوية معارضة ومبتعدة عن الوظائف الزمنية، عدا القضاء والتعليم، فإنهم وجدوا في الطريقة العليوية (وهي درقاوية) طريقة «عصرية» قريبة من الإدارة الفرنسية وحاولوا أن يضربوا بها الحركة الإصلاحية، كما استعملوا بعض فروع الرحمانية ضد هذه الحركة مثل زاوية الهامل.

ولم تسلم الناحية المذهبية من سلاح التفريق أيضاً. فقد حاول الفرنسيون أولاً التفريق بين علماء المذهب المالكي والمذهب الحنفي. ولما عجزوا عن ذلك، لجأوا إلى التفريق بين أهل المذهب المالكي والإباضي. فنصبوا الحماية على ميزاب وتركوا لأهلها عاداتهم وأعرافهم، واعفوهم من الخدمة العسكرية، وراعوهم في الضرائب. وما التوترات التي نقرأ عنها في المدن بين التجار أحياناً إنما كانت بفعل سياسة التفريق هذه.

ومنذ أوائل الأربعينات من القرن الماضي أخذ الفرنسيون «يكتشفون» سلاحاً آخر، وهو أن في الجزائر عنصراً بربرياً ليس ككل البربر. وبنوا على ذلك نظريات وأجروا بحوثاً انتهت في نظرهم إلى أن هذا العنصر من الجنس الآري، أو الهند أوروبي، وأنه لا علاقة له بالجنس السامي. وبعد أن كانوا يعاملون كل السكان على أنهم عرب مسلمون وشرقيون، بدأوا يعاملونهم معاملة مختلفة، فبعضهم عرب وبعضهم بربر، والبربر بعضهم من الجنس الآري وبعضهم من الجنس الحامي. وأخذوا يضعون لهؤلاء وأولئك خصائص وميزات تجعل البعض أقرب إلى المسيحية وإلى الفرنسيين في العرق والسلوك والنظام الاجتماعي من السكان الآخرين. وقد تجاهل الفرنسيون روايات النسابة البربر والعرب والنظريات التاريخية التي ترجع إلى قرون خلت، وتجاهلوا الروايات الشفوية التي يرويها البربر أنفسهم عن أنسابهم[1]، رغم أنهم (أي الفرنسيين) قد ترجموا معظم المصادر العربية والإسلامية التي تعالج هذا الموضوع، ومنها تاريخ ابن خلدون، وتاريخ ابن الأثير، وابن عبد الحكم، وابن حزم، والمسعودي وأضرابهم.

وبعد حوالي قرن من البحث «العلمي» على يد عقداء في الجيش الفرنسي، من أمثال كاريت، ورين، وهانوتو، ودوماس، الخ. ومستوطنين حاقدين من أمثال الدكتور وارنيه، وباتييه، وقوتييه، وأندري سيرفييه، وأندري باصيه ـ قلنا بعد ذلك اعترف الفرنسيون بأنهم كانوا يزيفون التاريخ وأنهم إنما فعلوا ذلك من أجل السياسة والبقاء في الجزائر، أما الجزائريون

(1) من كتب النسابة البربر، حسب رواية أبي القاسم الزياني الذي ترجم الفرنسيون بعض أعماله وهو (الترجمان المعرب): ـ تاريخ سليمان بن إسحاق المطماطي، ـ تاريخ هاني بن يصدور القوصي، ـ تاريخ كهلان بن أبي لؤي الأوْرَبي، وقد استعمل ابن خلدون هذه التواريخ التي تعالج أيام البربر وأنسابهم في الجاهلية والإسلام. انظر مولاي بلحميسي (الجزائر من خلال رحلات. . .) الجزائر، 1978، ص 160 ـ 161. وكذلك رينيه باصيه «النسابة البربر» في (الأرشيف البربري)، المجلد الأول، ص 1 ـ 13.

فهم في الواقع سواء وأن الإسلام قد وحّد بينهم في حضارة عميقة لا يبغون عنها حولاً، وأن لغة القرآن كان يطالب بها البربري والعربي على حد سواء، وأن الجزائريين بهذه الصفة مشتركون في العداء للفرنسيين[1].

ولن نفهم هذه النقطة إلا بالرجوع إلى بعض آراء هؤلاء الكتاب. فقد عاش البربر والعرب في ظل الإسلام والوحدة والأخوة منذ الفتح. ولم يذكر المؤرخون أي توتر بينهم كان سببه التمايز العرقي أو الاختلاف اللغوي أو المذهبي. حقيقة أن هناك ثورات اشتركوا فيها لنصرة مذهب أو حاكم، ولكنهم كانوا إذا غضبوا غضبوا لأسباب سياسية أو اقتصادية في أغلب الأحيان. وقد خاضوا معاً معارك الجهاد ضد الغزاة الأجانب، كما عاملهم العثمانيون طيلة ثلاثة قرون معاملة واحدة، سواء كانوا مخازنية أو رعية. فتكونت بينهم وحدة لا انفصام لها، وتاريخ وآمال مشتركة، ووحد بينهم الإسلام عقيدة ولغة وجمعتهم خريطة الجزائر بتربتها السهلية والجبلية والصحراوية على صعيد واحد.

ولكن بعض كتاب الفرنسيين لم يَرُقْهم ذلك. فراحوا يبحثون عن الفروق في المقابر والمتاحف والحوادث التاريخية وفي لون البشرة وتباين اللهجات والأعراف ونظام الحياة اليومية. وكانوا يدخلون البربري والعربي في المخبر الفرنسي ويأخذون عينات من دم هذا وذاك، ومن جمجمة هذا وذاك ومن جلد هذا وذاك، ثم يحللونها بمهارتهم «العلمية» باستعمال تقنيات الأنثربولوجيا، واللسانيات، والأنساب، والسلالات، ثم يعلنون النتيجة الباهرة، في نظرهم، وهي أن هناك أكثر من شعب يسكن الجزائر، وأن هناك اختلافاً بين عناصر هذه «الشعوب»، وأن الإسلام بينهم ليس على درجة واحدة من التمكن والرسوخ، وأن اللغة العربية قوية هنا وضعيفة هناك، بل منعدمة في بعض الجهات. وأن هناك العرب والمعربين وغير المعربين بتاتاً،

(1) شارل روبير آجرون (الجزائريون المسلمون وفرنسا) 2/879، وكذلك فيكتور ترنقه (دراسة اجتماعية حول المجتمع الإسلامي في شمال إفريقية)، الجزائر 1913. راجعته (مجلة العالم الإسلامي)، سبتمبر 1913، ص 348.

وهم الممتنعون في الجبال. وأن البربر هم هؤلاء المتحصنون في الجبال والمتكلمون بلهجاتهم الخاصة، وأن المعربين منهم إنما هم بربر أيضاً، ومن ثمة فجملة البربر في الجزائر أكثر من جملة العرب فيها، وأثبت المخبر الاستعماري الفرنسي أن هؤلاء العرب هم المحافظون على بداوتهم، وهم الذين يسكنون السهول ويمارسون الرعي والترحال، وقلّ منهم المزارعون وسكان البيوت المبنية. وفي العرب طبقات وارستقراطية محافظة ونظام أبوي تقليدي، والولاء عندهم للعرش والجماعة. وهم محتلون للبلاد جاؤوا، في نظر الفرنسيين، من الحجاز، ومنهم الأجواد والأذواد والأشراف والمرابطون، ومنهم المخازنية والرعية، ولهم الموالي والعبيد، وهم كسلاء، ويمارسون تعدد الزوجات، كما أنهم محافظون على الدين الذي جاؤوا به. وهم في غزوات مستمرة ضد بعضهم البعض كما كانوا منذ قرون.

ومن جهة أخرى أثبت المخبر الاستعماري الفرنسي أن البربر هم السكان الأصليون وأنهم تعاونوا مع الرومان وكانوا على المسيحية. وأن لهم بشرة بيضاء وعيوناً زرقاء وشعوراً شقراء تدل على أن أصلهم نوردي ـ جرماني، وأن لهم لغة شفوية ذات أصول هندوأوروبية، وهي ذات لهجات. وهم سكان الجبال التي امتنعوا فيها عن مختلف الغزاة، ولهم نظام خاص يشبه النظام الأوروبي، فهم حينئذ ديمقراطيون بطبعهم، ولهم جماعات وأمناء، وهم يحسنون الزراعة وسكنى البيوت الطينية، وهم نشطون ويحبون العمل والمنافسة، ولا يرفضون التقدم والتمدن الذي جاء به الفرنسيون، وهم في نظر هؤلاء مسلمون، ولكن إسلامهم خفيف بدليل أنهم يفضلون العمل بالعرف على العمل بقواعد الإسلام. والبربر ليسوا قبيلة واحدة أو جنساً واحداً. فمنهم سكان الصحراء وسكان الجبال، وهم موجودون في جبال الظهرة والأوراس وجرجرة وميزاب والهقار. وهم كالعرب يغزون بعضهم بعضاً أيضاً.

ولو اعتمد هؤلاء الفرنسيون على روايات وأخبار المؤرخين وناقشوها وقبلوا منها ورفضوا بعضها لقلنا إن ما توصلوا إليه جدير بالنظر والدراسة.

ولكنهم كانوا يعتمدون على نزوات شخصية ومصالح استعمارية آنية. كانوا يصدقون أرنست رينان ويكذبون ابن خلدون، ويستوحون نظرية دوركايم ويرفضون نظريات ابن حزم وابن عبد الحكم ونسابة العرب والبربر.

ومن هو العقيد كاريت حتى يفتح باب مدرسة كاملة في شتم الشعب الجزائري وتفريق عناصره منذ 1841؟ لقد بدأ عمله عضواً في (اللجنة العلمية) التي تأسست سنة 1839 «لاكتشاف الجزائر». وكان من نتائج نشاطه كتابه الذي سماه (بحوث في أصول القبائل الرئيسية في شمال إفريقية ولا سيما الجزائر) وقد طبع هذا الكتاب بموافقة اللجنة العلمية نفسها وبأمر من الحكومة الفرنسية[1]. ثم توالت الكتب التي ركزت بالخصوص على زواوة (القبائل). فألف كاريت نفسه (دراسات حول منطقة القبائل)، وبيربروجر عن (العهود العسكرية لمنطقة القبائل)، والبارون أوكابيتان (القبائل والاستعمار في الجزائر)، ودوماس وفابار (منطقة القبائل الكبرى)، وهانوتو ولوتورنو (منطقة القبائل والعادات ـ الأعراف ـ القبائلية) وأصدر الدكتور وارنييه كتابه (الجزائر أمام الامبراطور)[2]، ودوماس كتابه الآخر (القبائل العربية) أيضاً، وهنري فورنيل (دراسة عن الاحتلال العربي لإفريقية). وهناك العديد من هذه الكتب، ومنها كتاب بقي (حضارة شمال إفريقية)، وإيميل قوتييه (العصور الغامضة لشمال إفريقية)، ومن أواخرها كتاب الضابط بيروني (سلالات وعوائد إفريقية الشمالية).

وفي الوثيقة الطويلة (ستة فصول) التي وزعتها مصالح المارشال بوجو على المكاتب العربية العسكرية التي كانت تحكم الجزائر، بدأت تظهر ملامح التعامل مع الأهالي. فمصالح بوجو تعرّف رؤساء المكاتب العربية بالعناصر المكونة للسكان وبطريقة التعامل معهم على أساس عرقي، والاستفادة من (الصفوف) بينهم في مواجهة المقاومة. وصدرت هذه الوثيقة سنة 1845،

---

(1) المطبعة الإمبريالية، باريس، 1853.

(2) له أيضاً كتابان آخران: (الجزائر أمام مجلس الشيوخ)، و (الجزائر أمام الرأي العام) كلاهما صدر سنة 1863. أما (الجزائر أمام الامبراطور) فقد أصدره سنة 1865.

قبل هزيمة ديسمبر 1847 بسنتين. وكان بوجو عندئذ في أوج طغيانه، بعد أن افتك من الأمير عبد القادر المدية ومليانة وتلمسان ومعسكر وتاقدامت، واستولى على الزمالة. وواجه الفرنسيون في نفس السنة (1845) ثورة الظهرة الشهيرة التي شاركت فيها مختلف الطرق الصوفية وحد ثت على إثرها معركة سيدي إبراهيم.

فماذا قالت الوثيقة عن الجزائريين؟ إنها تحدثت عن نوعين فقط من «السلالات»: العرب والقبائل، وهو تصنيف قد يكون حدث لأول مرة، حسب علمنا. أما العرب فهم على صنفين: صنف يسكن السهول بين الساحل وجبال الأطلس، ونوع يسكن الهضاب العليا. الأولون مستقرون، والأخيرون رحالة. وعرفت الوثيقة (العرب) بأنهم أهل البادية ـ الريف، ولا تعني سكان المدن (الحضر) لقلة عدد هؤلاء واختلاطهم بالسكان الآخرين (؟). ثم ذكرت الوثيقة، التي يغلب على الظن أن محررها هو يوجين دوماس رئيس المكتب العربي المركزي في عهد بوجو، الأوصاف التي كان يتميز بها المجتمع العربي وطبقاته كالارستقراطية ونظام الأبوة وأهمية الشرف، مضيفة شيئاً لم نذكره وهو اعتماد هذا المجتمع على وحدة الدوار، ووجود مجلس في كل دوار يسيره الكبار أو الأعيان.

وأما أهل القبائل فقالت عنهم الوثيقة بأنهم هم سكان الجبال، وعرفتهم بأنهم خليط ممن قاوموا الغزاة عبر العصور. واعترفت الوثيقة بصعوبة الحكم عليهم عندئذ لعدم المعرفة الكاملة بهم. كما نسبت لهم نفس الأوصاف التي ذكرناها عن البربر، ولكنها أضافت أنهم أقل حباً للرحلة والتنقل من العرب، وأن الذي كان يوحدهم هو التعصب ضد الكفار، وأن لهم نظاماً يتمثل في العرش والقبيلة والجماعة والأمين[1].

---

(1) نشرت (مجلة الشرق)، باريس 1845 خلاصة الوثيقة التي قالت إن بوجو قد وقعها ووزعها على رؤساء المكاتب العربية العسكرية ليحكموا بمقتضاها. انظر صفحات 347 ـ 361. ولا ننسى أن بعض المناطق الهامة ما تزال غير محتلة عندئذ.

وفي هذه الأثناء (1844) أرسلت الحكومة الفرنسية المهندس هنري فورنيل في مهمة للجزائر. ورغم أن مهمته كانت هي البحث عن المناجم وكيفية استخراج المياه الجوفية، فإن فورنيل أبى إلا أن يكتب عن تجربته في الجزائر التي زارها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، رغم الوضع غير المستقر. ثم ألف كتابه عن احتلال العرب لإفريقية الذي يسميه المسلمون (الفتح الإسلامي)، وانتهى فيه إلى أن العرب قد فشلوا في مهمتهم[1]. وهذه الأطروحة كانت تتماشى مع أطروحة السياسيين والعسكريين الفرنسيين الذين يعتبرون أنفسهم الوحيدين من الأجانب، بعد الرومان، الذين نجحوا في احتلال الجزائر. أما العرب والأتراك، مثلاً، فكلهم كانوا من الفاشلين. وهو رأي كان يؤيده أيضاً رجال الكنيسة الذين كانوا يريدون إلغاء الاثني عشر قرناً من الإسلام، والرجوع بالجزائر إلى عهد الكنيسة الإفريقية ـ الرومانية.

والمهم عند الفرنسيين عندئذ هو إيجاد عداوة محلية يوظفونها داخل صفوف أعدائهم وليس البحث «العلمي» السلالي أو اللغوي في حد ذاته. فالتوصيات التي كانت تصدر من الكتاب مبنية على أن القبائل هم أقرب من العرب في التحالف مع الفرنسيين. وبذلك يمكن للفرنسيين أن يكسروا الحلقة التي تطوق عنقهم. وفي البحث عن العداوات داخل الصفوف الأهلية التي تكفل بها في الواقع كل مكتب عربي عسكري، جاء السيد فورتان ديفري F. d'IVRY بخلط عجيب في التسميات والخريطة الجغرافية عند حديثه عن سكان الجزائر، رغم أنه قد زارها وكتب عنها أثناء إدارة بوجو. فهو تارة كان يسمى الشاوية قبائل، وتارة يسميهم عرباً يتحدثون اللغة العربية وتمتد رقعتهم في نظره إلى عنابة وقالمة والعين البيضاء، ويذهب تارة أخرى إلى أن عرب الصحراء كانوا ضد عرب التل، وأن هناك فروقاً بين سكان شرق البلاد ووسطها وغربها. وكان يسمى الشاوية عرب الشرق. ويقول إنك كلما ازددت

---

(1) نقل ذلك عنه لويس رين في «بحث في الدراسات اللغوية والأثنولوجية عن الأصول البربرية» في المجلة الإفريقية، 1889، ص 97. وعن رحلة فورنيل إلى الجزائر انظر (مجلة الشرق)، باريس 1845، ص 164 ـ 167.

اتجاهاً نحو الغرب، وجدت «القبائل» أكثر عناداً وصلابة وقدرة على الحرب، ويعني بالغرب الأرض الممتدة من شرشال إلى المحيط. وتأثر رأى ديفري بالنسبة لعرب الصحراء والسهول الخصبة بوثيقة بوجو، إذ قال إنها لا تحول دونهم سوى الجبال المانعة كالأوراس والظهرة وجرجرة والونشريس حيث كان يسكن القبائل (البربر؟)، الذين لهم نظام اجتماعي وحدود طبيعية متميزة. وقد كرر ديفري نفس الأوصاف التي جاءت في وثيقة بوجو حول خصائص كل «جنس»، مضيفاً أن الاستبداد السياسي الذي فرضه الإسلام (!) قاومته هذه الجبال الصلبة. وقال ديفري إن هناك عداوة زمنية متبادلة بين السكان لم تعرف فرنسا كيف تستفيد منها سياسياً. ولا شك أنه ظن أنه كان يقدم بذلك نصيحة غالية لبلاده[1].

ويكاد رأى ديفري يكون هو الرأي الذي انتهى إليه العقيد كاريت أيضاً، وهما متعاصران. ففي رأي كاريت أن السكان القبائل هم المنحدرون من السكان الإفريقيين القدماء، وربما من الوندال (النورديك) أيضاً، أو من المسيحيين الأولين. ونظراً لهذا الأصل غير المؤكد لغوياً أو عرقياً أو دينياً، ولنظمهم الديموقراطية، فإنهم في نظره هم الحلفاء الطبيعيون للفرنسيين[2]. وقد بينت حوادث الخمسينات والسبعينات من القرن الماضي وغيرها أن العقيد كاريت كان يبني أوهامه على الرمال وأن الأسطورة التي كان ينسجها حول هذا التحالف غير الطبيعي كانت أضغاث أحلام. ذلك أن الفرنسيين قد واصلوا منذ 1860 مناقشاتهم في الصحف عما يفعلون بالقبائل (البربر)، هل يبعدونهم تماماً عن أراضيهم أو يبقونهم ويفرنسونهم[3]. وسوف تستمر هذه المناقشات إلى فترة ما بين الحربين العالميتين، ولكنها لم تسفر على طائل، وعلينا الآن أن نعرف ماذا حدث بالضبط.

---

(1) فورتان ديفري «الجزائر» في مجلة الشرق، 1845، ص 62 ـ 64.

(2) نقلت ذلك آن تومسون (بلاد البربر. . .) مرجع سابق، ص 87.

(3) كوك، ج. (الاحتلال والاستعمار في شمال إفريقية)، ص 23، مرجع سابق.

معاداة العرب

ارتبط اسم العرب في أذهان الأوروبيين بالإسلام. فإذا ذكر الإسلام ذكر معه العرب بالضرورة. وكان الفرنسيون هم ممثلي أوروبا في الجزائر منذ الاحتلال. فما يصدر عنهم ضد الإسلام ينصرف أيضاً ضد العرب. وقد تكفلت الكنيسة الكاثوليكية بالهجوم على الدين الإسلامي ونبيه محمد ﷺ في صوت لويس بافي، ولافيجري وأغلب القساوسة الذين معهما. كما تكفل معظم المستشرقين الفرنسيين بمهاجمة الإسلام وحضارته ولغته وتاريخه، وتولى ذلك ألفريد بيل وويليام مارسيه، دون ذكر رينان وماسينيون، الخ. أما العرب كجنس أو عرق فقد ناصبهم العداء، في الجزائر على الأقل، الدكتور وارنييه ومدرسته التي سنأتي عليها. والغريب أن وارنييه لم يتحرك في هذا الاتجاه إلا عندما تهددت مصالح الكولون، وهو منهم، خلال الستينات عندما أشيع أن هناك مشروعاً لإنشاء مملكة عربية في الجزائر يتولاها الأمير عبد القادر نيابة عن الامبراطور نابليون، كما كانت المجر مملكة تابعة للنمسا ومصر الخديوية تابعة للدولة العثمانية. وقد نفهم من هذا أن هجوم الدكتور وارنييه على العرب إنما هو هجوم ظرفي وقائم على مصلحة ضيقة. فقد عايش وارنييه العرب طويلاً قبل ذلك ومثّل فرنسا لدى الأمير كقنصل في معسكر أيام صلح التافنة، وعاش حياته بعد ذلك في وهران وغيرها، وشارك في مؤلفات اللجنة العلمية، دون أن يكتب عن العرب بنفس الحدة التي كتب بها عنهم وهو يؤلف كتابه (الجزائر أمام الامبراطور) سنة 1865.

ولنعرض أولاً حياة د. وارنييه بشيء من التفصيل. فقد حل بالجزائر سنة 1832 وبقي بها إلى ما بعد قيام الجمهورية الثالثة. ولعب أدواراً في السياسة والاقتصاد والقيادة، رغم أنه كان بالمهنة طبيباً وجراحاً عسكرياً. وكان من أتباع حركة سان سيمون أيضاً. وبعد معاهدة التافنة (1837) عينته فرنسا قنصلاً لها في معسكر. وعند إنشاء اللجنة العلمية (1839) عين عضواً

فيها وبحث في موضوع المجتمع الجزائري في قسنطينة. وتولى إدارة الشؤون المدنية بإقليم وهران، وكان عضواً في مجلس الحكومة العامة بالجزائر، وهو أعلى سلطة تمثل الدولة الفرنسية وتساعد الحاكم العام في مهمته. وكان بدين الجسم وله صفة التسلط. وقد أسس سنة 1850 جريدة (الأطلس)، وكانت آراؤه متعارضة تماماً مع آراء إسماعيل (توماس) أوربان حول الموقف الفرنسي من الجزائريين، رغم أنهما كانا ينتميان إلى مدرسة سان سيمون، وكذلك متضاربة مع آراء لاكروا، بل أصبح وارنييه خصماً لهما.

ولكن وارنييه ارتبط بصداقة شارل دو فيرييه الذي كان يسمي نفسه «شاعر الله» والمؤمن أيضاً بفكر سان سيمون. وكان شارل دوفيرييه هو والد هنري دوفيرييه، صاحب الرحلة الصحراوية الشهيرة، وهو (هنري) الذي عالجه د. وارنييه وأنقذ حياته. كما ارتبط وارنييه بالمحامي لوسيه الذي طردته حكومة الجمهورية الثانية سنة 1848 من فرنسا إلى الجزائر، وتولى مسؤوليات في قسنطينة، منها اللجنة الفلاحية والكتابة في جريدة (المستقبل) التي اشتراها بعد ذلك، وأصبح هو المتكلم (أي لوسيه) باسم الكولون في قسنطينة، وكان معارضاً بشدة، مثل د. وارنييه، لسياسة المكاتب العربية العسكرية. لقد كان وارنييه يؤيد سياسة الاحتلال الكامل للجزائر، ومن أجل ذلك نصب نفسه خصماً للعسكريين من جهة ولسياسة المملكة العربية التي أعلن عنها نابليون من جهة أخرى. وأصبح وارنييه هو زعيم المعادين للعرب، وهم الذين أطلق عليهم اسم (الأرابوفوب) و (الأرابوفاج) ـ arabophages ـ. وقد نشط هؤلاء بإصدار الكتيبات وبالحملات الصحفية ضد العرب وضد مشروع المملكة العربية، خلال فترة الستينات[1].

رجع د. وارنييه إلى إحصاءات زميله العقيد كاريت فوجده يقول إن عدد العرب الخلص في الجزائر قليل وأن من يسمون بالعرب إنما هم بربر قد تعربوا. وبناء على رأي كاريت فإن عدد العرب في القرن 16 كان حوالي 9%

(1) بيلي (عندما أصبحت الجزائر...) مرجع سابق، ص 128.

من عدد السكان، وهم حوالي مليون عند تأليف كتابه (القرن 19). أما وارنييه فقد صحح الأرقام وقال إن عدد العرب أقل من ذلك في نظره، فهم لا يتجاوزون نصف المليون، أما باقي السكان فهم بربر قد تعربوا أو بربر غير متعربين. وأورد وارنييه نص رسالة من صديق «للمؤرخ» هنري مارتن بعث بها إلى رئيس تحرير جريدة (الرأي الوطني) ووصف فيها العرب بأنهم نوماد (بدو) محتلون لم يستطع الزمن أن يعطي الشرعية لاحتلالهم لأنهم، في نظره، لم يؤسسوا شيئاً ولم يخصبوا شيئاً. والعرب في نظر مارتن، لهم نظام شيوعي (مشترك/ قبلي) وارستقراطي في نفس الوقت، وهو نظام عدوٌ (!) ليس له ما يستحق عند الفرنسيين من الاحترام. ولذلك يجب تحطيمه، لأنه نظام يمنع من استرجاع الحضارة الإفريقية (؟). وقال مارتن إن هذا النظام هو فقط من مخلفات العدوان الوحشي (البرباري)[1].

وانطلق د. وارنييه في حملته المعادية للعرب. فحكم أولاً بخطإ النظرية الفرنسية السائدة عند الاحتلال، وهي أن الكلمة (العرب) مرادفة لكلمة (المسلمين). وبخطإ النظرية القائلة بأن العرب هم الذين فتحوا الأندلس وأن المجد الأندلسي مجد عربي. ورأى أن التراث العربي في الفلسفة والأدب والعلوم لا ينسب إلى العرب وحدهم. وطعن فيمن ينتسبون إلى الأشراف والمرابطين. وطالب حكومته بوقف «التعريب»، لأن في الجزائر شعبين وليس شعباً واحداً، وكذلك طالب بالاعتراف بثلاث لغات فيها وهي: البربرية للبربر الخلص، والجزائرية للبربر المتعربين، والعربية الدارجة للعرب. أما اللغة الفصحى فلا كلام عليها، وقال إن كلمة (القبائل) تطلق في الدارجة على كل البربر، لأن القبائل فرقة هامة منهم. والمقياس عنده، وعند من اقتنع بنظريته، في معرفة من هو العربي ومن هو البربري، هو مدى الإيمان بالحضارة الأوروبية والتقرب من الفرنسيين. فالبربر هم المتفتحون على هذه الحضارة وهم الحلفاء الطبيعيون للفرنسيين، والعرب هم المتزمتون

---

(1) د. وارنييه (الجزائر أمام الامبراطور)، ص 9 ـ 14.

والمتعصبون والمبتعدون عن حضارة الفرنسيين.

وهاجم وارنييه العرب أيضاً في جانب آخر. قال إن التاريخ يصور العرب على أنهم حملوا القرآن في يد والسيف في اليد الأخرى وأنهم بعد أن قتلوا ونهبوا ومروا كالسيل المخرب عبر شمال إفريقية وإسبانيا، جاء الأمراء البربر ورمموا الخرائب لأنهم إنما قبلوا بالإسلام لوضعه حداً للطائفية المسيحية فقط. وواصل د. وارنييه هجومه على العرب بقوله إنهم كانوا عامل اضطراب في شمال إفريقية. ولم يقدموا أي مساهمة تذكر للأتراك عندما اتخذوهم احتياطيين[1]. واستعار د. وارنييه من العقيد كاريت أيضاً عبارته في وصف بني هلال بأنهم خلفوا الحرائق والرماد، وخربوا المنازل وقلعوا الأشجار. وقوله أيضاً إن ما تركته السياسة العربية قائماً قد اقتلعته العبقرية العربية، وأن مرورهم قد ترك المدن خراباً، والخضرة يباباً، وأنهم نشروا الشقاء والوحشية ـ البربارية»[2]. وهذا في الواقع كلام غير جديد ولم يأت به كاريت ولا وارنييه وإنما ذكرته المصادر العربية نفسها. وقد استفاد منه الرجلان لترويج نظريتهما العنصرية في شتم العرب والتمكين للسياسة الفرنسية في الجزائر، ولإشباع حقدهما على الإسلام وعلى حملة رسالته الأولى، كما أشرنا. وعلى فرض صحة المنسوب إلى بني هلال، وهو محل نظر وجدل، فليس كل العرب بني هلال.

وقد استمرت هذه الأطروحة بعد كاريت ووارنييه أيضاً. فروج لها كتاب عسكريون تولوا مسؤوليات إدارية في مختلف أنحاء البلاد. وقد ذكرنا منهم أوكابتان، وهانوتو، ثم جاء مدنيون وضربوا على نفس الوتر أيضاً. ومنهم بوجيجا، وقوتييه، وماسكري. وانخدع بكلامهم بعض الجزائريين الذين تتلمذوا على أفكارهم، وأصبحوا يتحدثون عن الفوضى أو الخراب الذي كان قبل الفرنسيين، ثم عن الأمن والعمران الذي حصل بعدهم، وما

(1) لعله يقصد قبائل المخزن.
(2) أخذه وارنييه من كتاب كاريت، مرجع سابق، ص 412 ـ 413.

درى هؤلاء الجزائريون أنهم كانوا يلعنون أنفسهم وآباءهم وأجدادهم في سكرة من سكرات الإغواء الفرنسي.

ومعاداة البربر

يعتبر المدح الذي كاله العقيد كاريت ود. وارنييه وغيرهما للبربر سبة لهم وحطا من قدرهم. ذلك أن البربر يعتبرون المس بدينهم إهانة كبرى لهم. كما أن اعتبارهم حلفاء للفرنسيين هو هدية مسمومة إلى البربر. وقد رّدوها على أصاحبها أكثر من مرة. والبربر بدون شك قوم يفتخرون بماضيهم ولغتهم وتقاليدهم، وهم أيضاً قوم فخورون بدورهم العظيم في فتح الأندلس (12 ألف جندي على الأقل)، وفي حمل الإسلام إلى وسط فرنسا نفسها وإلى جنوب إيطاليا، وإلى إفريقية، وفخورون أيضاً بتأسيس القاهرة والأزهر الشريف، وإقامة الممالك الكبرى قبل أن تتكون في فرنسا مملكة أو كيان سياسي. ولكنهم لا ينفون أنهم فعلوا ذلك كمسلمين عقيدة ولغة، وأن إنتاجهم الحضاري المكتوب قد اختلط بإنتاج العرب حتى لم يعد أحد يستطيع معرفة الفرق[1].

ومع ذلك فإننا ـ وللتاريخ ـ نذكر ما كان كتاب فرنسا يخططون للجزائريين، وكيف كانوا يضعون شباكهم لصيد البلهاء. وأي فضيلة لهؤلاء الكتاب إذا كانوا دائماً يكتبون عن خطط تسمح لفرنسا بتفريق الجزائريين وإحكام قبضتها عليهم واستعبادهم؟ ذلك أن المدح للبربر والقدح في العرب، وأحياناً العكس، لا يقصدون من ورائه خدمة العلم والحقيقة، وإنما خدمة الإدارة الاستعمارية وتمكين الحضارة الفرنسية على حساب حضارة

(1) ليس من غرض هذا البحث الرجوع إلى أصول العرب والبربر والمؤلفات العربية والبربرية القديمة التي تجاهلها الفرنسيون عموماً وتمسكوا «برأيهم» الخاص القائم على النظريات العرقية والسلالية (الأنيربولوجية والأثنية) التي برزت خلال القرن التاسع عشر، والقائم على معاداة السامية أيضاً.

البربر والعرب معاً. ولم نسمع، رغم الضجة الكبرى، بتخلى فرنسا عن جزء من أرض الجزائر لهذا الفريق أو ذاك لأنه في نظر كتابها كان أقرب إليها من غيره وأصدق في تحالفه معها من بقية المواطنين، بل إن فرنسا كانت تعاملهم على حد سواء. فهم «رعايا» فرنسيون أولاً وهم «أندجين» ثانياً. وعند انتزاع الأراضي وتوزيعها على الكولون لا يسأل الجزائري هل أنت من السكان المستقرين أو من السكان الرحل، وعواقب الثورات كانت واحدة على الجميع. والغريب أن د. وارنييه الذي طالما امتدح البربر على هدوئهم بعد سنة 1857، وعلى قربهم من الحضارة الفرنسية بحكم اتصالهم القديم بالرومان (؟) الخ. هو الذي نصب لهم المحاكم والمشانق بعد ثورة 1871 واغتصب أراضيهم وفرض عليهم الغرامات الثقيلة[1]. ولعله قد راجع بعد ذلك نظرياته في الكتاب الذي كتبه تحت وطأة الحملة المسعورة ضد نابليون وحاشيته.

وبناء على وارنييه فإن البربر هم قدماء المسيحيين وقدماء الكولون للرومان، وهم الذين ما يزالون متعلقين بالممارسات والتنظيمات الرومانية. إنهم هم الشعب الإفريقي الساكن في المنطقة الممتدة من ليبيا وتونس والجزائر إلى المغرب، وتمتد مواقعهم إلى توات والتوارق وساحل السنغال، فهم عنده كل الجنس الأبيض القاطن وسط إفريقية. وقدر عددهم بعشرة ملايين على الأقل. وقال إن الجبليين منهم قد حافظوا على تقاليدهم الرومانية في نظره وعلى أصولهم، عدا الدين. أما سكان السهول منهم فقد تعرضوا للغزوات العربية مما أفقدهم روحهم المعنوية، حسب دعواه.

وزعم د. وارنييه من جهة أخرى، أن البربر كانوا مسيحيين وأنهم اعتنقوا الإسلام على مضض، وقد ظلت عقيدتهم فيه ضعيفة جداً. اختار بعضهم المذهبية حيثما ظهرت. وادعى أن البعض منهم يأكلون لحم الخنزير مع العمال الأوروبيين في المزارع الفرنسية، رغم أن القرآن قد حرم ذلك.

---

(1) أصبح وارنييه من المسؤولين البارزين في الجزائر بعد قيام الجمهورية الثالثة. وبتلك الصفة أصدر قررات صارمة لمعاقبة ثوار سنة 1871. انظر ذلك في محله.

كما زعم أن القرآن عندهم ليس قانوناً ولا دستوراً سياسياً وإنما هو كتاب دين فقط. وهم في القضايا المدنية والسياسية يحتكمون إلى العرف (القانون الذي جاء اسمه من (الكانون canon) عند الرومان، وعند المسيحيين. وهذا العرف (الكانون) مثله مثل الكنيسة البدائية، إنما تشرعه جماعة المؤمنين. وذهب وارنييه في مزاعمه إلى أبعد من ذلك حين قال إن أغلب البربر كانوا يحملون الصليب في شكل وشم على الجباه والوجنات. وقال إنهم أكثر تسامحاً من غيرهم في الشؤون الدينية. والدليل على ذلك عنده وجود كنيسة مسيحية في جزيرة جربة. فالحضارة البربرية تتبع في نظره، الحضارة الرومانية والمسيحية مثلها في ذلك مثل حضارة أوروبا الغربية، عدا الدين الإسلامي الذي جاء به العرب. وهكذا فإن التنظيم البلدي ـ نظام الجماعة ـ موجود عند البربر والعرب معاً، ولكنه عند البربر أقرب إلى التنظيم الأوروبي. إن القبيلة عند البربر عبارة عن بلدية داخل ولاية[1].

وفي ميادين الخدمة العسكرية، البرية والبحرية، لاحظ د. وارنييه ملاحظات عديدة على الجندي البربري من عهد القرطاجيين والرومان إلى عهد الاحتلال الفرنسي. ووجد أن الجندي البربري أكثر مهارة وقدرة على الحملات البعيدة من غيره. ذلك أن جيش حنبعل الذي غزا أوروبا ـ مدينة رومة ـ كان من البربر فقط، وأن أسطول قرطاج كان منهم، كما أن الرومان ساهموا في استمالة المؤهلات العسكرية، البرية والبحرية، للبربر. وكان الفرسان العرب الذين عبروا المضيق (مضيق جبل طارق) سيتخلون عن مشروع الفتح لولا دعمهم بجيش عرمرم من المشاة البربر. كما أن الأسطول الجزائري أثناء العهد العثماني قد صنع من الخشب المجلوب من زواوة وبأيدي العمال البربر، وكان على هذا الأسطول عمال (بحارة) من البربر. وكانت بعض البلدان، مثل تونس، تعتمد على مشاة زواوة (الزواف). لقد كان البربر دائماً عسكراً جيداً وبحارة مهرة. وكانت في الجزائر أثناء كتابة

(1) د. وارنييه (الجزائر أمام الامبراطور)، مرجع سابق، ص 12، 21، 53.

وارنييه لكتابه، فرقتان واحدة من الفرسان العرب والثانية من الرماة (التوركو) من البربر. وقال وارنييه إنَ الأولى مجندة من الخيام الأرستقراطية العربية، والثانية من الجماعات الديموقراطية البربرية. وقد نجحت فرقة (التوركو) في حرب القرم وفي إيطاليا وفي السينيغال والهند الصينية والمكسيك. وكلما كانت المسافة أبعد في المغامرة والحرب كلما وجد الفرنسيون الإرادة والاستعداد للسير وراء العلم الفرنسي من الفرقة الأخيرة (التوركو). أما فرقة الفرسان العرب فقد أرسلتها فرنسا إلى حرب القرم شرفياً فقط ثم أعادتها بسرعة، ثم اسْتُدْعِيَت إلى باريس 1864 وعوملت معاملة محترمة جداً، ثم وقع التراجع عن ذلك في المرة الثانية. ومن رأي وارنييه أن الجندي البربري جندي كامل، أما الجندي العربي فهو واسطة بين الدركي والحرس الوطني، لأن من طبيعته أيضاً عدم الابتعاد عن نسائه وقبيلته وماشيته. ولذلك نصح بأن تجند فرنسا الفرسان أيضاً من البربر لأنهم قادرون على الحرب في كل الظروف. وتجنيد البحارة منهم أيضاً لأنهم عرفوا البحر من قديم، أما العربي فلا يعرف البحر (!)، وهو ضد الحضارة الفرنسية ومتباعد عن الفرنسيين[1].

والقياس عند الفرنسيين هو مدى الاستعداد لقبول التقدم والتفتح على الحضارة الفرنسية. فالأمير عبد القادر اعتبره وارنييه بربري الأصل، بناء على هذا المقياس. وروى د. وارنييه أنه سمع الأمير يقول عند بناء مدينة تاقدامت، إنه كان يعيد بناءها لأن أحد أجداده (يعني عبد الرحمن بن رستم) قد حكم في تيهرت[2]، وكان الأمير يعرف أن أجداده من البربر. ولذلك عرف كيف يجند البربر تحت لوائه. وذهب وارنييه، تمشياً مع مبدئه في الربط بين المسيحية والرومنة والفرنسة، إلى أن أجداد الأمير كانوا أيضاً مسيحيين قبل الإسلام، وفسر تدخله في أزمة بلاد

---

(1) د. وارنييه، مرجع سابق، ص 38، 40 ـ 41.

(2) إذا صح أن الأمير صرح بذلك، فإنه يعني أجداده المسلمين، ذلك أن ابن رستم لم يكن عربياً ولا بربرياً وإنما كان أميراً مسلماً. فانظر إلى أي حد كان د. وارنييه يحاول أن يقنع البلهاء.

الشام سنة 1860 بأنه يتماشى مع تقاليد أجداده (!).

وأكد لويس رين نظرية د. وارنييه بعد حوالي ربع قرن. ويبدو أن رين قد تبنى النظرية المعادية للسامية. فقد ذهب إلى أن البربر من الجنس الهند أوروبي، وأن طارق بن زياد النفزاوي النفطي قد يكون من أصل فارسي، وأن الساميين، ومنهم العرب، لم يستطيعوا تنظيم أنفسهم عسكرياً ولا سياسياً. وعد منهم الخلفاء الراشدين والنبي داود ـ عليه السلام ـ. وقد اعتمد رين في ذلك على بحوث أرنست رينان، سيما بحثه المعنون (تاريخ اللغات السامية). وكذلك اعتمد على دراسة هنري فورنيل التي سبق ذكرها والتي حكم فيها بفشل الاحتلال العربي (كذا) لإفريقية، وزعم رين أيضاً أن البربر لم يعتنقوا الإسلام بحرارة وظلوا يتمردون عنه مع الفرق الخارجية والحركات الانفصالية، أثناء العهد الذي يسميه أوغسطين بيرك بعهد وصاية الشرق، ويسميه غوتييه بالعصور الغامضة.

وذهب رين أيضاً إلى أن اللغة البربرية لغة هند أوروبية، تبعاً لنظرية رينان، وقال إن البربر قوم آريون، وإن الإسلام في آسيا انتشر على يد غير الساميين مثل الفرس والترك وهم طورانيون، أما الإسلام في إفريقية وأوروبا فقد انتشر على يد البربر «الآريين». وقارن رين بين الغولوا (سكان بلاد الغال) وبين البربر، فقال إن الغولوا قد استوعبوا كل الذين أرادوا احتلالهم، رغم أن الفرنج (وهو اسم لقبيلة بلجيكية، كما قال، حتى لا يقول ألمانية)، فرضوا اسمهم على فرنسا، ولم يقل شيئاً عن المسيحية التي فرضت عليهم أيضاً، وقال بأن البربر أيضاً قد استوعبوا ورفضوا كل اندماج في غيرهم، رغم أنهم تقبلوا الإسلام ولغة القرآن وسيادته بل قبلوا حتى اسم العرب، ولكن الجماهير منهم ظلت بربرية. وختم رين دراسته بقوله إنه كلما درس تاريخ ولغة البربر اقتنع بحقيقة وهي أن البربر هم في الحقيقة جنس آري، وأن لغتهم لغة هند أوروبية[1].

---

(1) لويس رين «بحث في الدراسات اللغوية والأثنولوجية عن الأصول البربرية»، كتاب =

وقد استمرت هذه النظرية سارية إلى العشرينات من هذا القرن. فقد رجع السيد ريمون بيروني، وهو من الضباط مثل لويس رين، إلى نظرية فورنيل وأرنست ميرسييه وفيكتور بيقي وغيرهم، حول البربر وموقفهم من الحضارة الرومانية والعربية والفرنسية. وقال بيروني إن الفرنسيين قد ظلوا على خطئهم في معاملة السكان بطريقة واحدة إلى مدار هذا القرن، وكان عليهم أن يميزوا بين السكان ويستفيدوا من الفروق. وقد أصبحت الإدارة الفرنسية تشعر بهذه الفروق منذ حوالي 1890 وأخذت توظفها سياسياً. وعندما احتل الفرنسيون المغرب الأقصى ظهرت المسألة البربرية بشكل أكثر وضوحاً، وأعطى الفرنسيون دفعاً جديداً للدراسات البربرية، وتحول الفرنسيون أيضاً في تونس والجزائر وغيرهما وأخذوا يبرزون الفروق بين عناصر السكان. ولكن المسألة لم تكن مفهومة عند الرأي العام الفرنسي في فرنسا نفسها حتى نشر فيكتور بيكي كتابه عن (حضارة شمال إفريقيا) الذي قال فيه إننا كنا دائماً نسمي المنطقة عربية بينما هي مسكونة بالعنصر البربري، وهو العنصر القريب من العناصر الأخرى في البحر الأبيض، وأبرز أيضاً العلاقة الوطيدة بين الرومان والبربر في نظره.

ومن رأي فورنيل أن الإسلام قد حرر البربر فأصبحوا أسياد أنفسهم. ولذلك حكم بفشل العرب في الاحتلال لأنه نظر إليهم كما نظر إلى كل الدول الغازية. أما أرنست ميرسييه فقد قال إن الفتح العربي كان عملاً عسكرياً فقط (؟) وأنه لم يعمر طويلاً، وأنه ترك البربر أحراراً في حكم أنفسهم. لكنه قال إن الغارة الهلالية كانت ظاهرة اجتماعية نتج عنها تعريب المنطقة والقضاء في نظره، على الجنسية البربرية. وقد ظهر كتاب ميرسييه وكتاب فورنيل سنة 1875. أما بيروني Peyronnet فيرى أن التعريب لم يقض على الجنسية البربرية[1]. ومنذ حوالي 1898 تقريباً انحصر التمييز الذي كان بين كل البربر

= نشره فصولاً في المجلة الإفريقية، آخره سنة 1889، ص 97 ـ 121. تولى رين أيضاً رئاسة الجمعية التاريخية، وقد توفي سنة 1905.

(1) ريمون بيروني «مدخل عام للدراسات الشمال إفريقية»، في المجلة الجغرافية للجزائر=

وكل العرب في الفروق بين العرب والقبائل، واختفى أو كاد الحديث عن البربر الآخرين.

التآمر على زواوة

بعد أن كان اهتمام الدارسين الفرنسيين وأصحاب نظرية الفروق بين السكان منصباً على البربر والعرب، أصبح بالتدرج منصباً، ولا سيما منذ العشرية الأخيرة من القرن الماضي على سكان زواوة وحدهم. وهذا الاهتمام اتخذ ألواناً عديدة: فمن حيث التعليم بدأ الفرنسيون في تأسيس المدارس الأهلية في بعض البلديات الزواوية وإجبارية التعليم فيها خلافاً لما فعلوه في المناطق الأخرى. ومن حيث النشاط الديني - الكنسي، شجعت السلطات الفرنسية الآباء البيض على غرس مدارسهم وعياداتهم وملاجئهم في زواوة قبل غرس كنائسهم، نظراً للمقاومة الشديدة التي أبداها الزواويون ضد النشاط التنصيري. ومن حيث اللغة أنشأ الفرنسيون كرسياً للغة البربرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، كما أنشأوا فرعاً للغة القبائلية فقط في مدرسة الجزائر. ومن جهة أخرى كان النظام القضائي يختلف في زواوة عنه في المناطق الأخرى، فقد أصبح الاحتكام في زواوة للعرف والقانون الفرنسي، وليس للشريعة الإسلامية. ورغم مطالبة الزواويين بتطبيق الشريعة على غرار ما كان جارياً في المناطق الأخرى، فإن السلطات الفرنسي رفضت الاستجابة لهم، كما فرضت على قضاة المنطقة تحرير أحكامهم باللغة الفرنسية فقط خلافاً للقضاة في المناطق الأخرى حيث كانوا يحررون الأحكام بالعربية. وبالنسبة للتمثيل النيابي فقد أسس الفرنسيون (قسماً قبائلياً) في مجلس الوفود المالية، وذلك بإصرار من

= وشمال إفريقية S.G.A.A.N، 1921، ص 129 ـ 174. وأيضاً بحث آخر له عن «سلالات وعادات إفريقية الشمالية»، في نفس المصدر، 1924، ص 383 ـ 393. وقد رجع الشيخ محمد مبارك الميلي الهلالي إلى كتابات بيروني، في كتابه (تاريخ الجوائر في القديم والحديث). انظر عنه فصل التاريخ والتراجم والرحلات.

كاميل صاباتييه، صاحب مشروع فصل (القبائل) في المعاملة عن بقية السكان. كما ميز الفرنسيون بعض القبائل بعدم دفع قسط من الضرائب المطلوبة على كل الأهالي. وكان ذلك كله يشكل محاولة لما سمي بالسياسة القبائلية ـ الفرنسية.

والواقع أنه منذ 1896 كتب الباحث المشهور في وقته بول لوروى بوليو قائلاً: لو كان كل سكان الجزائر من غير الأوروبيين زواويين (قبائل) لأمكننا القول بأن المسألة الجزائرية ستحل بسهولة. وفي نظره أن القبائل لا يختلفون عن الأوروبيين إلا في مسألة الدين. والدين في نظره لا يؤثر في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثمة فإن شروط الإنتاج والتطور هي هي عند الزواويين وعند الفرنسيين. (ثم ذكر نفس الظواهر والمميزات التي نسبها وارنييه ومدرسته للبربر عموماً)[1]. وقد ذكرنا من قبل آراء كاميل صاباتييه، فلا نرجع إليها هنا. وأما أندري سيرفييه فقد تحمس لموضوع فصل سكان زواوة أوائل هذا القرن أيضاً. وكان صحفياً في جريدة (لاديباش) بقسنطينة، متكلماً باسم الكولون، كما كان لائكي العقيدة وماسونياً. وقد رحب سيرفييه بالهجرة الزواوية نحو فرنسا بدلاً من الشام. وطالب بتشجيعها وإعطائها الأولوية «لتحطيم الكتلة الإسلامية الجزائرية» حسب تعبيره، كما طالب بربط الصلات بين سكان زواوة وسكان فرنسا. وقال سرفييه بكل صراحة: «علينا أن نقسم المعسكر الأهلي أو الكتلة الأهلية كلما أمكننا ذلك، من أجل عزل العناصر السكانية بعضها عن بعض»[2].

ومن جهة أخرى دعا سيرفييه إلى ضرورة تنشيط الآباء البيض في منطقة زواوة. وعنده أن البربر مؤهلون لاعتناق المسيحية، بدليل أنهم حافظوا على تركة مسيحية ولاتينية من ماضيهم (؟). ولما كان سيرفييه من الماسونيين، فقد آمن بالفلسفة المسيحية التي اعتبرها هي الدين الجيد للزواوة، «بل هي

---

(1) بول بوليو (عن الاستعمار)، 1902، ط 5 ص 460.

(2) آجرون (الجزائريون المسلمون وفرنسا)، ج 2/887 نقلاً عن جريدة (لاديباش) 30 يناير 1914. وكان سكان زواوة منذ الاحتلال يتجهون في هجرتهم إلى بلاد الشام.

الدين الأكثر جودة إذا تمكن من تحطيم وحدة المسلمين الجزائريين»[1].

وقد ذكرنا أن فيكتور ترانقة، وهو من مواليد الجزائر، قد أكد حقيقة كان يعترف بها كل الفرنسيين غير أنهم لـم يكونوا متفقين على أهميتهـا، وهي وحدة الدين بين السكان. الذين كانوا يقللون من العامل الديني ويركزون على العامل الاجتماعي والاقتصادي كانوا يقيسون وضع الجزائر على وضع فرنسا. ففي البلد الأخير أصبح الدين صورة فقط ونجـح فيه الفصل بين الزمني والروحي. كما أنهم لم يفهموا عمق المشاعر الدينية عند الإنسان الجزائري حيثما كان. أما ترانقة فإنه كان يـؤمن بوجـود بعض الفوارق بين السكان الجزائريين إذا وجد أن هناك رابطة معنوية قوية بينهم تتمثل في الإسلام، وهو ما كان يشكل في نظره الروح العربية ـ البربرية المقاومة. وقد لاحظ أن النخبة أو الفئة المثقفة التي تعبر عن الرابطة المذكورة كانت منقسمة في وقته (سنة 1913) إلى تيارين أحدهما كان يتبع حركة الشيخ محمد عبده، ويسميه التيار العصري، والآخر كان يتبع حركة الشيخ ماء العينين ويسميه التيار المتخلف. ومن رأي السيد ترانقة أن المذهب المالكي مذهب متزمت وهو مذهب سيحول دون الاندماج الذي تنشده فرنسا في الجزائر[2].

وقد رفض الزواويون (القبائل) هذه المعاملات الخاصة بهم، ولكن الإدارة كانت في كل مرة تجد مبرراً للإبقاء عليها. فقد كافح وفد القسم

---

(1) نفس المصدر، نقلاً عن كتاب سيرفييه (الإسلام وسيكولوجية المسلم).

(2) مراجعة (مجلة العالم الإسلامي)، سبتمبر 1913، ص 348، وقد صدر كتاب ترانقة (دراسة اجتماعية في المجتمع الإسلامي بشمال إفريقية)، سنة 1913، بالجزائر.

ويكاد ترانقة يتفق مع زميله هنري بارليت في قوله إن الدين الإسلامي قد وحد بين العرب والبربر. وإن الإسلام يمنع من الاندماج. غير أن بارليت يقول بإمكانية جلب البربر إلى الأوروبيين، لأنهم في نظره مستعدون للانفصال والتمرد عن تعاليم محمد ﷺ. انظر بارليت (مونوغرافيا ناحية تيهرت) في (مجلة جغرافية الجزائر وشمال إفريقية)، 1912 ص 339 ـ 340.

القبائلي في مجلس الوفود المالية ضد الاحتكام للعرف، بدعوى أنه قديم وغير صالح للتقدم المنشـود، ونادى الوفد بإلغاء توصيات كتاب هانوتو ولوتورنو اللذين جعلا العرف البربري كأنه قرآن، وطالب الوفد بتطبيق الأحكام الشرعية المطبقة على كل سكان الجزائر. ولكن الإدارة رفضت طلب الوفد وحافظت على العرف البربري القديم، بل إن دومينيك لوسياني نفسه (وهو مدير الشؤون الأهلية عندئذ) كان لا يطيق العرف البربري، ويعتبره، كما صرح بذلك، من الخرافات وبقايا التوحش، ولكنه ولأسباب سياسية، كما يقول آجرون، كان يُبْقي على العرف[1]. وتمشياً مع هذه السياسة قام شارل جونار (الحاكم العام) بإلغاء تسمية المكاتب العربية في زواوة سنة 1904، وسماها مكاتب الشؤون الأهلية. وكان الهدف هو مكافحة التعريب في المنطقة.

وأخذ الإداريون الفرنسيون يشيعون أن الزواوة يرفضون القياد العرب أو من كانوا من أصول عربية، وهو موقف لم يصدر عن الزواوة أنفسهم، وإنما كان الحكام الفرنسيون يبررون به الأحداث والتصرفات التي وقعت في المنطقة وحتى في غيرها. فقد قالوا عن حريق جرى في جرجرة سنة 1904 إنه حدث نتيجة غضب السكان من فرض قياد وشيوخ من أصول عربية، رغم أنفهم[2]. وقد ذكرنا أن ممثلي الزواوة طالبوا بالثقافة العربية وذلك بإنشاء مدرسة في بجاية على غرار المدرسة الشرعية ـ الفرنسية في كل من تلمسان وقسنطينة والعاصمة. ولكن الفرنسيين لم يستجيبوا لهذا الطلب أيضاً. كما رفض القضاة المسلمون في الزواوة تسجيل أحكامهم باللغة الفرنسية، وظلوا يحررون بالعربية أسوة بالقضاة في الجزائر كلها إلى أن تدخلت الإدارة وفرضت حلولاً فوقية أخرى[3].

---

(1) آجرون، مرجع سابق، ج 879/2.

(2) نفس المصدر، ويقول آجرون إن نفس المبرر ذكروه مع ثورة 1871، وحتى في الأوراس سنة 1879.

(3) المقصود هنا الأحكام في الأحوال الشخصية. أما الأحكام الأخرى فقد احتكرها القضاة الفرنسيون. انظر فصل السلك الديني والقضائي.

وبعد ظهور الحركة الإصلاحية ونشر التعليم العربي الإسلامي، قاومت الإدارة دخول الإصلاح إلى زواوة بمختلف الوسائل. ولكن الزواويين احتضنوا الإصلاح بعقيدة راسخة حتى نافست المدارس الإسلامية - العربية عندهم مدارس الآباء البيض والمدارس الحكومية الرسمية. ودخل علماء الزواوة المجلس الإداري لجمعية العلماء. ودافعوا عن العربية والإسلام بكل حمية. وعندما كثر الحديث في صحف الإصلاح وجمعية العلماء عن القومية العربية ظهر في الصحف الفرنسية الحديث عن القومية البربرية «والوطن القبائلي». ففي سنة 1935 أخذت هذه الصحف تكتب عن مدرسة جزائرية معارضة للحركة الوهابية (ويعنون بها حركة الإصلاح). وقالوا إن الشاعر محند بن محند كان فيما يبدو يحلم «بوطن» قبائلي، وإن الحركة البربرية كانت تريد فصل الإسلام عن العروبة، وإن بعضهم كان يتحدث عن حزب قبائلي[1].

وكان سي عمر بوليفة قد أصدر سنة 1925 كتاباً عنوانه (جرجرة عبر التاريخ) وأضاف إليه العنوان الفرعي: من أقدم العصور إلى 1830، وعبارات تنظيم زواوة واستقلالها. ورغم أنه كان يتحدث عن عهد سابق للاحتلال فإن عبارة «استقلال» زواوة كانت لا ترضي الفرنسيين الذين كانوا يتحدثون عن قابلية أهل زواوة (القبائل) للاندماج في الحضارة الفرنسية والمجتمع الفرنسي، وكانوا يقولون عنهم إنهم أقرب من العرب والبربر الآخرين إلى المقاييس الفرنسية في التقدم. وأثناء ذلك كتب الشيخ محمد السعيد الزواوي (أبو يعلى) كتابه (تاريخ الزواوة) ونشره في دمشق (سنة 1924) بعد أن حدد خطوطه العريضة في مشروعه سنة 1912[2].

---

(1) انظر (إفريقية الفرنسية)، يونيو (جوان)، 1935، ص 354. عن محند بن محند (محند أو محند) انظر مقالة رينيه باصيه، (أدب البربر)، ص 420.

(2) انظر دراستنا عنه في (أبحاث وآراء) ج 2. وقد تناولنا آراء الشيخ أبي يعلى في مكان آخر.

أما حسني لحمق فقد أصدر كتابه (رسائل جزائرية) سنة 1931، وهي السنة التي توفي فيها عمر بوليفة. ويزعم ديبارمي أن بوليفة ولحمق وكذلك إسماعيل حامد كلهم كانوا يبعدون البربر عن الإسلام ويضعونهم داخل إطار الحضارة الفرنسية. ونسب ديبارمي إلى لحمق قوله إنه يشعر بالقرب من سانت أوغسطين أكثر من قربه من عقبة بن نافع. وقد تأسف لحمق على أن الإسلام قد فرض فرضاً على الجزائر. وذهب ديبارمي إلى أن جمعية العلماء قامت بالرد على هذا «المرتد» في نظرها، وقد اعتبره كاتبها العام، الأمين العمودي، من نتاج مدرسة الجزويت (اليسوعيين). وروى ديبارمي أن ابن باديس قد أثار تصفيقاً واستحساناً حين قال: «إن ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان»، مشيراً إلى الرابطة الدينية القوية بين الجزائريين سواء خطبوا بالعربية أو بالقبائلية (وكان الشيخ يحيى حمودي، عضو جمعية العلماء قد ألقى كلمة بالقبائلية)، كما قال ابن باديس إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمعهما الإسلام منذ قرون وإن وحدتهم قد عجنت بالدم عبر التاريخ المشترك.

وكان الفرنسيون قد نشروا، كما رأينا، نظرياتهم التي لا تقوم على بحث ولا تاريخ وإنما على مصلحة وغرض والتي مفادها أن البربر ـ والقبائل خصوصاً ـ من الجرمان تارة، ومن السلتيين تارة، ومن الإغريق تارة، ومن الهند أوروبيين أخرى. ومن الذين ساروا في التشكيك في أصل البربر جوزيف ديبارمي، وهو ملاحظ معاصر ومحلل لمجريات الأمور. وكان من تلاميذ رينيه باصيه. وقد شكك ديبارمي في النظرية الشائعة منذ قرون، وهي أن البربر من بني كنعان، أي في وحدة أصولهم مع العرب، كما شكك في وحدة الدين لأن الحركة الإصلاحية في نظره كانت تدعو إلى (دين) الوهابية، وفي وحدة اللغة لأن العربية الفصحى في نظره أيضاً، لا يفهمها الجميع، أما الدارجة فقال إنها مليئة باللهجات البربرية. واستشهد على ذلك بتجربة المسرح. وجاء ديبارمي بالأعراف المختلفة مثل (كانون) أو عرف القبائل الذي قال عنه إنه غير سني (!). والخلاصة عند ديبارمي أن شمال إفريقية سنة

1938 كان يقف بين القومية العربية وبين المذهب الغربـي، فالنزاع في نظره بينهما لا أكثر[1].

وهكذا استمر الفرنسيون في الاهتمام الظاهري بالزواوة دون الاستجابة لمطالبهم. ورغم أن وفد القبائل في مجلس الوفود المالية قد طالب بإلغاء العرف وتطبيق الشريعة الإسلامية، كما ذكرنا، فإن مارسيل موران (أستاذ الشريعة الإسلامية والعرف البربري بكلية الحقوق) ذهب إلى حد التصريح بأن القبائل كانوا يرفضون الشريعة القرآنية تماماً[2]. ولذلك أعلن عن التنازع بين الشريعتين أيضاً! والغريب أن موران هذا هو الذي عهدت إليه إدارة الشؤون الأهلية بتدوين الفقه الإسلامي أوائل هذا القرن.

وبينما كان الزواوين يطالبون ككل الجزائريين باللغة العربية في المدرسة وفي القضاء، كان بعض الكتاب الفرنسيين والإدارة يرفضون ذلك قائلين إن لغة بربرية ـ ويسميها ديبارمي البوربري (Beurbri ـ هي التي تمثل اللهجة الجزائرية، وهي لغة غير العربية وغير البربرية أيضاً. أما سيرفييه فيقول إن هذه الدارجة الجزائرية هي خليط من الفينيقية، ولم يحملها معه أي فاتح مسلم. وأما الإدارة فقد أجابت الوفد القبائلي المطالب بتدريس العربية بمقالة ويليام مارسيه، وهي أن «تعليم العربية الدارجة أو الفصحى في منطقة القبائل سيكون ضرره أكثر من نفعه»[3]. وقد وقف كل من كومبس وجان مير ضد نشر العربية في زواوة[4].

وقد تصدى علماء زواوة والمناضلون السياسيون لهذه المخططات الميكيافيللية وأفشلوها. ولم تُجْدِ الفرنسيين نفعاً لا النظريات «العلمية»

---

(1) جوزيف ديبارمي، إفريقية الفرنسية ـ الملحق، AFS، 1938، ص 194 ـ 199. عن حسني لحمق انظر أيضاً مالك بن بني (المذكرات). وكان يعرفه في باريس. وعن رأي ابن نبي في عمار نارون وأمثاله انظر (المذكرات)، ص 227.

(2) آجرون الجزائريون... ج 2/887.

(3) نفس المصدر، ص 883.

(4) كان كومبس وزيراً للتعليم وجان مير مديراً للتعليم (الأكاديمية) في الجزائر.

المزيفة، ولا التحقيقات السياسية السرية التي قام بها أمثال دوتيه وقوتييه[1]، ولا تحفظات لوسياني ولا تشكيكات ديبارمي. فقد كان الجزائريون يحسون إحساساً واحداً بالنسبة لمختلف القضايا المتعلقة بمستقبل بلادهم[2]. وصدق ابن باديس في قوله: إن ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان!.

الدعوة إلى تعلم الفرنسية.. وإلى التعلم عموماً

عارض الجزائريون فرض اللغة الفرنسية على أبنائهم في مدارسهم في العقود الأولى ولم يعارضوها كلغة لمن أراد تعلمها في المدارس الفرنسية. وقد عالجنا ذلك في فصول التعليم. ونريد الآن أن نشير إلى بعض دعاة التعليم بالفرنسية من علماء الجزائر بعد حوالي جيل من الاحتلال. وقد انتشرت هذه الدعوة عن طريق الجرائد وكتابات العلماء منذ الثمانينات من القرن الماضي.

كانت اللغة الفرنسية معروفة عند بعض الجزائريين، وفيهم من كان يتكلمها، ومن سافر إلى بلادها، ومن تزوج من قومها. ومن الشواهد على ذلك أن أحمد بوضربة كان متزوجاً من فرنسية، وكان يتكلم اللغة الفرنسية ويقطن مرسيليا، وقد ولد له ولده إسماعيل في هذه المدينة قبل الاحتلال. وبعد الاحتلال سعى بوضربة إلى إدخال ولده إلى المدارس الفرنسية في فرنسا نفسها. وكان بوضربة من المفاوضين على معاهدة الاحتلال سنة 1830 باسم الداي حسين باشا، مع قائد الحملة بورمون. كما أن حمدان خوجة كان يفهم الفرنسية والإنكليزية، وقد سافر طويلاً في أوروبا قبل الاحتلال. وتجول في فرنسا بالذات. وكان ابنه حسن، يعرف الفرنسية أيضاً، ولا ندري كيف

(1) انظر نفس المصدر، ص 884.

(2) عن الوضع اللغوي، انظر فصل اللغة والنثر الأدبي، وعن رأي المؤرخين الجزائريين في نظرية الأصول، انظر فصل التاريخ.

تعلمها، وربما من ممارسة التجارة مع والده ومن الأسفار معه. ومهما كان الأمر فقد كان حسن بن حمدان خوجة أيضاً عضواً في وفد المفاوضين مع الفرنسيين سنة 1830. وهناك غير هؤلاء[1]. ولكن معرفة الجزائريين للفرنسية لم تكن كمعرفة اليهود لها، فهؤلاء كانوا يقومون بالترجمة بين الجزائريين والفرنسيين، قبل إنشاء فرق الترجمة الرسمية. كما كانوا يترجمون بين الفرنسيين والأمير عبد القادر. ومن ثمة كانت لديهم مفاتيح الأمور السياسية والاقتصادية للطرفين[2].

وظهرت في فرق الترجمة الفرنسية بعض الأسماء الجزائرية المبكرة التي تعرضنا إليها في غير هذا المكان. وهي عادة أسماء فريق من الشبان الذين كانوا بين العاشرة والخامسة عشر عند الاحتلال، أو الذين قبض عليهم الفرنسيون في زمالة الأمير سنة 1843. ومهما كان الأمر، فإن هناك جزائريين أصبحوا يعرفون الفرنسية ويترجمون منها إلى العربية والعكس منذ الأربعينات من القرن الماضي. وقد استقطبت بعضهم جريدة (المبشر) التي كانت تبحث عن محررين يحسنون العربية وشيئاً من الفرنسية. ثم تخرج بعضهم من المدرسة السلطانية (الكوليج) المزدوجة التي تأسست خلال الخمسينات والستينات في العاصمة ثم قسنطينة. وكان المتوقع أن يكون هؤلاء مثلاً يحتذى به في العلم والسلوك للمواطنين المتشككين في قيم المدرسة الفرنسية. غير أنه يظهر أن هؤلاء التراجمة والصحفيين لم يكونوا يقنعون الرأي العام الجزائري، لضعف علمهم أو لعدم تدينهم أو لصلتهم بالفرنسيين.

ولذلك لجأت السلطات الفرنسية إلى فئة أخرى من الجزائريين لا علاقة

---

(1) انظر فصل الترجمة. وهناك من الجزائريين من كان يعرف لغات أخرى كالإسبانية.

(2) كان اليهود يحتكرون التجارة بين الجزائر وأوروبا، وكان مركزهم في أوروبا هو ليفورنيا (إيطاليا) التي كانت تنافس مرسيليا في التجارة مع بلاد المغرب. وكان الدايات والبايات وغيرهم من المسؤولين يحصلون على أرباح من هذه التجارة بالاشتراك مع اليهود فيها.

لها بالمدرسة الفرنسية، لكي تدعو الأهالي إلى تعلم اللغة الفرنسية والكف عن مقاطعة مدارسها، وبيان فوائدها العلمية والاقتصادية، وتربط ذلك بكرم فرنسا نحوها والبرهنة على العلاقة بين العلوم العربية والعلوم الفرنسية. وهذه الفئة هم رجال الدين والعلم الموالون للسلطات أو المَوظفون في إدارتها. وكان هؤلاء عادة من عائلات قديمة معروفة ومؤثرة. وكانوا أيضاً من العائلات الحضرية البعيدة عن الطرق الصوفية وعن أهل البادية أو الأرياف، لأن رجال التصوف كانوا عادة ضد التعلم بالفرنسية، كما كانوا معروفين للسكان، ولو فعلوا ذلك لفقدوا نفوذهم.

وابتداء من عقد الستينات ظهرت في جريدة (المبشر) مقالات يظهر أن الإدارة الفرنسية نفسها قد أوعزت بها إلى أصحابها. ومن هؤلاء الشيخ مصطفى بن السادات القسنطيني. وكان هذا الشيخ هو أحد مدرسي مدرسة قسنطينة الشرعية التي كان يديرها محمد الشاذلي[1].

والعالم الآخر الذي حث الجزائريين على التعلم بالفرنسية خلال الستينات أيضاً، هو محمود بن الشيخ علي بن عبد القادر. وكان محمود يختصر اسمه هكذا (محمود بن الشيخ علي)[2]. وكان موظفاً بسيطاً عند الفرنسيين[3]. ولم يكن حسب علمنا من كتاب (المبشر) الدائمين. ولعل الذي استكتبه هو أحمد البدوي، أحد المحررين البارزين في الجريدة. وعنوان مقالته (نصيحة عمومية لأهل الحضر والبادية).

وهناك من دعا إلى تعلم العلوم الفرنسية بالقدوة وليس بالكتابة والإعلان. ومن هؤلاء حسن بن بريهمات الذي درس في المدرسة الشرعية

---

(1) عن حياة ابن السادات انظر فصل الترجمة.

(2) ألف الشيخ علي الأب رسالة في البلاغة والأدب سماها (أما بعد)، وكنا قد تناولناها في الجزء الثاني، ثم علمنا أن أحد الأساتذة المصريين قام بتحقيقها ونشرها وقد اطلعنا عليها.

(3) مقالته في (المبشر) 25 يوليو، 1867. انظر عنه أيضاً فصل الترجمة.

الفرنسية عندما كانت غير مفرنسة[1].

والشيخ محمد بن الحاج حمو الذي أعطى المثل أيضاً بإدخال ولده إلى المدرسة الفرنسية[2]. وقد أعجب كل من سليمان بن صيام وابن علي الشريف بما شاهدا في فرنسا من صنائع وعلوم، وتحدثا عن ذلك في رحلتيهما اللتين نشراهما بين 1852 و1853. ونادى ابن علي الشريف بتعلم الفرنسية (وقد تعلمها هو أثناء شبابه) لأنها ضرورية للجزائريين في «الحال والمآل»[3].

وفي نهاية السبعينات كتب الشيخ عبد القادر المجاوي رسالته (إرشاد المتعلمين)، وقد دعا فيها أيضاً إلى تحصيل العلم الأوربي ـ الفرنسي، على أنه علم إنساني مشاع ما دام غير ديني. ولا ندري إن كان قد خصص اللغة الفرنسية بمزية في هذا الشأن، ولكن الرسالة في حد ذاتها كانت انطلاقة عامة، وهو لم ينشرها فصولاً في جريدة، وإنما طبعها في كتيب نشره في مصر، فوصل إلى الجزائر، وأثار جدلاً حول ما ورد فيه من أفكار. ولا شك أن المجاوي الذي كان عندئذ مدرساً في مدرسة قسنطينة الشرعية/ الفرنسية، كان يبث أفكاره في تلاميذه أيضاً، وقد تخرج عليه عدد كبير سواء أثناء تدريسه في قسنطينة أو بعد انتقاله إلى العاصمة عند مدار القرن. وكأن المجاوي قد ألف إرشاده «للمتعلمين» رداً على من كان يقول إن المؤلفين العرب والمسلمين لم يكتبوا عن كيفية وطرق تعليم الصبيان[4].

ومن نتائج أفكار المجاوي وأمثاله في قسنطينة حررت عريضة جماعية هناك سنة 1891 دعا أصحابها من الأعيان إلى الاعتزاز بأبنائهم الذين

---

(1) انظر عن حسن بن بريهمات فصل السلك الديني والقضائي وفصل الترجمة، والمبشر 12 يوليو، 1861.

(2) تأبين الشيخ حمو في المبشر، 31 ديسمبر 1868. انظر عنه فصل الترجمة.

(3) انظر فصل التاريخ والرحلات. وقد نشرت الرحلتان في جريدة (المبشر) الرسمية.

(4) عن المجاوي انظر فصل الترجمة وفصل السلك الديني.

تخرجوا من المدارس الفرنسية، فهم ليسوا ضد العلم وليسوا ضد اللغة الفرنسية وإنما كانوا يطالبون باحترام اللغة العربية ونشر التعليم بها. وقالوا إن تجربة إجبارية التعليم قصيرة المدى، وإن أبناءهم كانوا يذهبون إلى المدارس الفرنسية (خلال الستينات) بدون عقدة، وهم يعتزون أيضاً بأن لديهم قابلية للتعلم وكسب المعارف الفرنسية، خلافاً لما كان يشيعه أعداؤهم من أنهم يعارضون التعلم وليس لهم قابلية في ذلك.

ومن الملفت للنظر حقاً أن جماعة قسنطينة نبهت الفرنسيين إلى «أننا كنا معلمي أوروبا»، ولكن الزمن دار دورته. وهذا لا يمنع من المطالبة بإنشاء المدارس بالعربية لأن ذلك سيكون أفضل لأبنائهم، ولأن ذلك أحفظ للغتهم وأصولهم ودينهم. ونحن نفهم من هذا أن أعيان قسنطينة لم يكونوا ضد اللغة الفرنسية ولكن مع التعلم باللغة العربية أيضاً، وهم يخافون على أبنائهم ليس من اللغة في حد ذاتها ولكن من برامجها وأفكار أهلها[1].

وفي الوقت الذي انطلقت فيه الدعوة للتعلم، ولا سيما بالعربية، نشر محمد بن أبي شنب بحثين مترجمين عما ألفه المسلون حول تعلم الأطفال. النص الأول غير منسوب ولكنه لمؤلف من المغرب الأقصى يرجع إلى القرن 18. وربما يكون هذا العمل هو أول ما نشر ابن شنب في المجلة الإفريقية. وقد نشر النص العربي مع الترجمة الفرنسية ومقدمة تحدث فيها عن التربية عند المسلمين، وقال إن الإسلام ليس عدواً للتعليم كما يدعي البعض، وهو بذلك يرد على من كان يقول بذلك من الباحثين الفرنسيين والصحفيين والكولون. ويفهم من نشر النص عندئذ أن ابن شنب كان يحث الجزائريين على التعلم طبقاً لتعاليم الإسلام، ذلك أن الإسلام، كما قال ابن شنب، يوجب على الإنسان أن يتعلم، ولكن هذا التعلم له هدف

(1) عريضة مقالة غريق أو (شكاية)، قسنطينة، 1891، وهي على لسان أعيان بعض البلديات. انظر قنان (نصوص سياسية)، 230.

وهو معرفة الدين والعلوم العملية، وذهب إلى أن الدين عند العرب هو الذي أنشأ المدارس، لأن المدارس ولدت مع الرغبة في معرفة وفهم القرآن الكريم. وقد كتب علماء المسلمين عن تعليم الأطفال ولكن ما كتبوه عن ذلك قليل. وهكذا فإن نشر النص المذكور وترجمته إنما هو لإزالة فكرة مسبقة ومتحيزة يزعم أصحابها أن المسلمين ينفرون من تعليم أطفالهم من الجنسين[1].

وبعد سنوات قليلة نشر ابن أبي شنب نفسه نصاً لأبي حامد الغزالي هذه المرة، عن تعليم الأطفال أيضاً. وكان النص العربي قد نشر بتونس سنة 1314، فرغب ابن شنب في ترجمته إلى الفرنسية ليطلع عليه من يرمي المسلمين بإهمال تعليم أطفالهم وليبين أن علماء المسلمين قد اهتموا بموضوع التربية والتعليم. وفي نفس الوقت ساهم ابن شنب في الحث على التعليم الذي بدأه الفرنسيون في آخر القرن الماضي، دون أن يعلن هو رأيه مع اللغة العربية أو الفرنسية، ولذلك قال إنه قد ترجم النص ونشره في هذا الوقت الذي «أصبح فيه الحديث عن تعليم الأهالي على كل لسان[2].

وقد سارت النخبة المزدوجة والمتعلمة بالعربية فقط على هذا المنوال في الدعوة إلى التعلم. وكان هدفها أن يتعلم أطفال المسلمين بلغتهم العربية. ولكنهم أمام الواقع اكتفوا بالدعوة إلى التعلم دون ذكر اللغة، تاركين ذلك للاجتهاد والمطالبة الملحة أثناء ذلك باحترام لغة الدين والعلم وهي العربية. ونفهم ذلك من الحملة من أجل التعليم في المساجد وغيرها التي شارك فيها في العاصمة، أمثال عبد الحليم بن سماية ومحمد بن مصطفى خوجة والمجاوي، وفي قسنطينة حمدان الونيسي ومحمد الصالح بن

---

(1) محمد بن أبي شنب عن «التربية عند المسلمين» في المجلة الإفريقية، 1897، ص 267 ـ 268.

(2) ابن شنب «التربية. . .» مرجع سابق، سنة 1901، ص 102.

مهنة والمولود بن الموهوب، وفي تلمسان شعيب بن علي وبوعلي الغوثي ومحمد بن عبد الرحمن. وفي بعض الزوايا شارك فيها أمثال أبي القاسم البوجليلي ومحمد بن بلقاسم الهاملي ومحمد بن عبد الرحمن الديسي وعاشور الخنقي. وفي ميزاب أمثال محمد بن يوسف أطفيش. إن هؤلاء كانوا يدرسون بالعربية وكانوا يدعون إلى التعلم. وكانوا رواداً لحركة الإصلاح التي ظهرت وأينعت على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس.

وقد استمر رجال الإصلاح على ذلك النهج. فدعوا إلى التعلم بصفة عامة. ولكنهم كرسوا جهودهم لخدمة اللغة العربية على أساس أن التعليم بالفرنسية قد تولته الإدارة نفسها. وحدثت منافسة شديدة بين الطرفين أفادت الجزائر كلها في النهاية. فقد كان كل طرف يريد أن يظفر بالتلاميذ ويعلمهم أكثر من صاحبه وبطريقة أفضل من غيره، مع التنافس أيضاً في الأهداف الوطنية والسياسية لكل طرف. وقد وصل التنافس إلى الحد الذي أصبح فيه التلميذ يقرأ أربع عشرة ساعة خلال الـ 24 ساعة في كِلْتا المدرستين (العربية والفرنسية).

والملفت للنظر أنه بينما كانت جمعية العلماء تعلم بالعربية فقط وتطالب بحرية التعليم بها وبترسيمها كانت لا تمانع في أن يتعلم أبناء الجزائر باللغة الفرنسية أيضاً، بل كانت تعتبرها من العلوم «الآلية» التي يحتاجها المواطن في حياته. ولذلك رأينا رجال الجمعية أنفسهم يرسلون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية، وهكذا فلم تأت الحرب العالمية الثانية حتى كانت «الازدواجية الجديدة» هي طابع التعليم العام. ونقول الجديدة لأن الازدواجية القديمة كانت مقتصرة على المدارس الفرنسية التي كانت تعلم اللغتين ولكن بالمنهج الفرنسي مثل المدارس الشرعية الرسمية الثلاث. أما الازدواجية الجديدة فقد كانت تجمع بين التعليم العربي أو الحر في المدارس الإصلاحية بمنهج عربي إسلامي قوي وبين التعليم الفرنسي أو الرسمي في المدارس الأهلية ذات المنهج الفرنسي الاستعماري المعروف.

وهناك فئة أخرى من الجزائريين لم تكن مقتنعة بالتعليم العربي لأنها كانت تجهله أو لا ترى له من فائدة عملية، ولا تربط بينه وبين الوطنية. وكانت تطالب بالتعليم الفرنسي، ونعني بها الفئة الاندماجية التي بدأت تتحرك منذ آخر القرن الماضي. وأصل هذه الفئة يرجع إلى أبناء الموظفين الجزائريين الذين فضلتهم فرنسا على غيرهم عند فتح المدارس خلال الستينات والسبعينات من القرن الماضي. لقد كانوا أصحاب امتيازات مادية وتعليمية باعتبار آبائهم قد خدموا الإدارة الفرنسية في الجيش أو في وظائف القياد والأغوات وغيرها. وكان الفرنسيون يعتبرونهم محظوظين، لأنهم تمتعوا بنعمة التعلم والمنح، ثم توظفوا في الوظائف العسكرية والمدنية المفتوحة «للأندجين» أو الأهالي. وكان تعليم هؤلاء بسيطاً في أغلبه. والقليل منهم فقط وصلوا إلى درجة عليا في التعلم. وكان التجنس شائعاً في أوساط هؤلاء عادة.

وحتى بعد تحركهم لم يكن يجمعهم رابط واحد سوى في أوائل هذا القرن عندما طرح موضوع التمثيل النيابي ثم فرض التجنيد. إن هذه الفئة التي انقطعت عن ماضيها مدة جيلين تقريباً واندمجت في الوسط الفرنسي وابتعدت عن المجتمع الجزائري الذي كان يسوده الجهل والتخلف، هي التي كانت لا ترى التعليم إلا باللغة الفرنسية. وقد انضم إليهم بين الحربين المتخرجون على يد الآباء البيض وبعض المتخرجين من «القسم الأهلي» في مدرسة النورمال ببوزريعة، ومنهم أصحاب مجلة (صوت المستضعفين) التي ظهرت حوالي 1929. ولكن الفئة الاندماجية كانت أقلية، وسرعان ما فقدت تأثيرها بعد انتشار التعليم في الأوساط المحرومة وظهور الوعي الوطني والإصلاحي على يد جمعية العلماء وحزب الشعب. وهكذا بقي الرواج لفكرة الازدواجية الجديدة، مع المطالبة الملحة بترسيم العربية على قدم المساواة مع الفرنسية.

وفي سنة 1947 قسم الشيخ أبو يعلى الزواوي أصناف المتعلمين الجزائريين إلى الفئات التالية:

1 ـ قسم يحسن الفرنسية كما ينبغي، فهم دكاترة ومحامون ومترجمون... فهم يجهلون العربية تمام الجهل، ويجهلون أحكام الإسلام وقواعده، فهم مسلمون بالاسم فقط. و «الحمد لله، إنهم قليلون».

2 ـ قسم متعلم تعلماً بسيطاً قليلاً، صاروا صالحين للجندية، وتعاطوا الأشغال العمومية، فهؤلاء يؤلفون الأكثرية، وأكثرهم فقراء، فلا هم مسلمون بتعاليم الإسلام وإجراء أحكامه عليهم... حرموا تماماً من التعاليم العربية الإسلامية، أميون... إلا أنهم عرب مسلمون مظلومون مغلوبون مقهورون ينتظرون الفرج، ويدعون الله بواسطة الأولياء الصلحاء الأموات لا الأحياء، وأحوالهم وأعمالهم وجميع تصرفاتهم مما يحزن أهل العلم والمعرفة... وأبناء هذا القسم أخذتهم الحكومة الاستعمارية فعلمتهم اللغة الفرنسية حتى أصبحوا فرنسيين... وإذا أتموا الجندية (الخدمة العسكرية المفروضة)... انتقلوا إلى الاستخدام عند المستعمرين. ومنذ الحرب (العالمية) الأولى إلى هذه (العالمية الثانية) صاروا يتوجهون إلى فرنسا ويتركون البقية الباقية من أراضيهم بوراً بلا خدمة... فصار هذا القسم من المعذبين المهلكين، ومع الجهل المطبق والعقائد الفاسدة والتصرفات السفهية التي تستلزم التحجير، فيالله! وقال الشيخ أبو يعلى إن عدد هذا القسم يمثل الأغلبية الساحقة، 90% من الجزائريين.

3 ـ قسم من الأعيان والأغنياء، فهم بما لديهم فرحون متمتعون في قصورهم وضياعهم، وعنايتهم بالراحة وحسن اللباس ورغد العيش. وليس هناك مقارنة بين ما يفعله وينتجه هؤلاء الأعيان الأغنياء وبين أمثالهم من الأعيان الأغنياء الفرنسيين (الفرنجة، حسب تعبيره).

4 ـ أما القسم الأخير فهو قسم العلماء وطلبة العلم، وأكثرهم فقراء،

وهم قليلون.. بل قليلهم كثير، وواحد منهم كألف..[1].

وضـع المــرأة

أخذ الحديث عن المرأة في المجتمع الجزائري حيزاً كبيراً في المناقشات والكتابات أثناء العهد الفرنسي[2]. كان الجهل بالتقاليد الاجتماعية والتعاليم الإسلامية قد أدى إلى تفسيرات عديدة لوضعها. منهم من تأسف علـى حالها ومنهم من وصف شقاءها. ومعظم الكتابات تُرجع ما آل إليه أمر المرأة إلى تعاليم الإسلام للطعن فيها. والمرأة في نظرهم قدرية غارقة في الخرافات، ومستسلمة راضية بحكم القضاء عليها. وهي ضحية التخلف والأمية، وهي لعبة الرجل الذي كان يشتريها بنقوده كما يشتري البهائم والبضائع، وهي في نظرهم ضحية الدين الإسلامي القاسي الذي جعل الرجل قواماً على المرأة وأباح تعدد الزوجات وجعل الطلاق بيد الرجل وحده وفرض الحجاب والعفاف. والمرأة العربية المسلمة عندهم نمط واحد في المدينة والريف، إنها آلة نسل وخادمة بيت وحاضنة أطفال وجالبة حطب وماء. وهي محرومة من كل النعم في الحياة الدنيا، فلا أفراح ولا مراقص ولا ملتقيات اجتماعية. إن شباب المرأة يذوي بسرعة ويداهمها الهرم وهي في الأربعين من عمرها فتترهل وتموت قبل الأوان. إن المجتمع الجزائري مجتمع رجالي ليس فيه دور للنساء.

وانطلاقاً من هذه الصورة عن المرأة جاءت المحاولات لإنقاذها. بدأت المحاولات بقناعة أنه لا يمكن تغيير أي مجتمع إلا بتغيير حال المرأة فيه، والدخول إلى عقلها وعاطفتها وذوقها. ولا يكفي وصف الرجال الأوروبيين لوضع المرأة العربية المسلمة بل لا بد من إرسال النساء الأوروبيات إليها

---

(1) أبو يعلى الزواوي (جماعة المسلمين)، 1947، ص 51 ـ 55.

(2) انظر فصل السلك الديني والقضائي وفصول التعليم من هذا الكتاب، وكذلك الحركة الوطنية، ج 1.

والاطلاع على أحوالها ومعرفة رغائبها ونمط تفكيرها، ومحاولة إخراجها من وضعها المتردي. وفي النساء الأوروبيات من حملت القلم لوصف تلك الحال، وفيهن من حملن الصليب ليعطي بركاته للمرأة المسلمة، ومنهن من فتحت ورشة لاستقبال البنات المسلمات بعد إقناع أمهاتهن بأن لا خوف عليهن من الأذى ولا من التنصير ولا من التبرج. وبدأت عملية التعرف والاتصال، ومحاولات تكسير الحواجز بين «المتقدمات» السافرات المتحررات القادمات من أوروبا وبين المتخلفات القابعات المغلوبات على أمرهن في الجزائر.

سوف لا نذكر هنا فضيحة عائشة بنت محمد وتهريبها وتنصيرها سنة 1834 وبداية الاعتداء الفرنسي على حرمات الدين والقضاء والمجتمع. فذلك فصل آخر[1]. وسوف لا نذكر كذلك ورشات السيدة لوسي (الليكس) والسيدة ابن عابن، وسيدات كثيرات في العاصمة وفي زواوة وميزاب وبسكرة ووهران وغيرها حيث دروس الطرز والنسيج التي تحولت إلى دروس في الترقية الاجتماعية والدمج الحضاري، ومثلت بداية التوتر داخل الأسرة الجزائرية بين الأم والبنت، والبنت والأب، والجار والجار، وكم من فضيحة وقعت ولكن قبرت في وقتها، وكم من ضحايا لعمليات الإنقاذ هذه. فالمرأة الجزائرية لم تتول قيادة «تحريرها» بنفسها وإنما الأخريات هن اللائي رمين بحبال النجاة إليها. ولذلك بقيت تابعة لا متبوعة وفاقدة لروح المبادرة فيما يتعلق بمصيرها. كان الأخريات يتحدثن عنها وهي غائبة، ويخططن لها وهي فاقدة للوعي. ومن السيدة لوسي إلى السيدة ماري بوجيجا حوالي قرن، ولكن وضع المرأة الجزائرية بقي هو هو تقريباً، رغم فرص التعلم منذ أوائل هذا القرن.

فكيف سارت الأمور؟ بالإضافة إلى كتابات الرجال عن المرأة

---

(1) عن المرأة الجزائرية في عهد الاحتلال انظر مغنية الأزرق (بلاغة الصمت: مشكلة المرأة الجزائرية)، نيويورك، 1994.

الجزائرية، كتبت عنها السيدة بروس، والسيدة روجرز، وغيرهما. وتركز وصف هؤلاء على المرأة الحضرية. ثم اتسعت الاهتمامات وانفتح الريف والبادية أمام الرحالة والإداريين والكتاب، فوصفوا المرأة في جبال زواوة والهضاب العليا وفي الصحراء. وظهرت عدة عناوين مثل (المرأة العربية) لدوماس، و (المرأة البربرية) لرين، وبحوث أخرى عديدة تتناول ظاهرة خاصة فقط كالحجاب أو العمل. ولا شك أن الاحتلال قد أدى إلى زيادة الانغلاق الاجتماعي بالنسبة للمرأة في المدن. لأن الفرنسيين أعطوا المثل السيء في الاعتداء على الحرمات وعدم مراعاة الأعراف والتقاليد التي وعدوا باحترامها في اتفاق 1830، سيما حول المرأة. وقد ذكر حمدان خوجة نموذجاً عن ذلك وقع أثناء حفلة زواج ابنه. فقد دعا بعض الفرنسيين لحضور الزفاف مع نسائهم بشرط عدم دخول الرجال إلى محل النساء، فإذا بالضيوف الفرنسيين يدخلون، مع ذلك، على النساء، فوقعت الفوضى والفضيحة. إن أحداثاً مثل هذه كانت لا تشجع على الاختلاط بين الفرنسيين والجزائريين في المدن.

رغم الظروف الجديدة فقد استمرت العائلات في المدن على إقراء بناتها القرآن في الكتّاب، ولكن بندرة. ويقول جون موريل إنه كان من النادر عند زيارته للجزائر أن تجد المعلمات الخصوصيات للبنات، كما كان الحال في الماضي. ووصف المرأة عندئذ بأنها جاهلة[1]. وتؤكد السيدة بروس سنة 1849 أنه كان لا يسمح للبنات بالخروج إلى الكتّاب لحفظ القرآن، وأن الكتّاب (المسيد) كان خاصاً بالبنين[2]. ومعظم الذين وصفوا الكتّاب عندئذ وصفوه على أنه للبنين وغير مختلط. إن هذا الصنف من البنات هن اللائي ذهبت إليهن السيدة الليكس (لوسي) منذ عهد بوجو لإخراجهن إلى ورشة الطرز والخياطة بدل كتاب القرآن. ثم أخذت نساء أخريات في جلبهن إلى أماكن الرحمة وإلى الجمعيات الخيرية والتوليد، بالتدرج والاستدراج.

فهل كانت المرأة فعلاً جاهلة تماماً؟ إذا كان العلم بالشهادات والتقدم

---

(1) جون موريل (الجزائر)، لندن، 1858، ص 386.

(2) السيدة بروس (إقامة في الجزائر)، لندن، 1852، ص 278.

بالدرجات في المدرسة من سنة إلى أخرى، فهذا ما لم يحصل إلا في المدارس الأهلية الفرنسية منذ حوالي 1920 فقط، وقد تناولنا ذلك في غير هذا المكان. ونفهم من بعض القصص هنا وهناك أن التعلم لم يكن محرماً ولا مفقوداً في بعض العائلات والمناطق، ولكنه كان تعلماً استماعياً في معظمه، وكان يقوم على الحفظ والذاكرة على عادة العرب القدماء، وقلما وجدنا المرأة التي تكتب أو تؤلف أو تعبر عن علمها بقلمها. ولا شك أن النسوة كن يستمعن إلى الدروس ويستوعبن المواعظ والأحكام الشرعية شفوياً، ثم ينشرن ذلك بين النساء الأخريات، وهكذا. وقد روي عن الشيخ محمد بن يوسف أطفيش أنه كان يعظ النساء في دروس مخصصة، وكان يعلمهن شفوياً تعاليم الإسلام وأحكام شريعته. وممن نبغت على يديه السيدة عائشة بنت ناصر التي أصبحت متعلمة كما أصبحت بدورها واعظة للأخريات، وكانت تفصل في القضايا بين المتخاصمين[1]. وكان ابن باديس ورجال جمعية العلماء قد اتبعوا منهج الوعظ والإرشاد وتعليم المرأة أيضاً بالطريقة الشفوية، ثم فتحوا المدارس أيضاً لتعليم البنات بالطريقة الحديثة.

ويذكر بعض الكتاب أن المرأة في زواوة قلما تتعلم لأن التعلم في الزوايا والمدارس القرآنية كان مقصوراً على البنين، ومن النادر أن تجد غير ذلك[2]. ومن هذا النادر ما حكاه الشيخ علي أمقران عن السيدة ذهبية بنت محمد بن يحيى، أحد شيوخ زاوية اليلولي. فقد كانت ذهبية متعلمة وكانت لا تكف عن المطالعة في كتب أبيها أثناء هرمها[3]. وكانت السيدة زهراء بنت العربي بن أبي داود معروفة بالصلاح والحكمة حتى أنهم كانوا يشاورونها في أمور الدين والدنيا، وهي من شواعر اللغة القبائلية[4]. وذكر

(1) محمد علي دبوز، (نهضة الجزائر)، 1/347.
(2) هانوتو ولوتورنو (منطقة القبائل)، ط. 2، ص 106.
(3) علي امقران، مراسلة خاصة، إبريل 1979.
(4) نفس المصدر، من أوراق له، 18 مايو، 1981.

الشيخ عاشور الخنقي أن زوجته، وهي باية (بية) بنت أحمد حسان، كانت قارئة للقرآن «وعالمة بعدة علوم على غاية الاتقان والإحسان»، وكانت قد أخذت الطريقة الرحمانية على الشيخ محمد بن بلقاسم الهاملي وأدخلت عند أهل الشيخ وعند ابنته زينب التي تولت بعد أبيها القيادة الروحية للزاوية(1).

وكانت زينب هذه من النساء اللواتي حظين بدراسات وأوصاف قلما حظيت بها امرأة معاصرة في الجزائر. فأبوها هو شيخ زاوية الهامل. وكانت زينب الابنة الوحيدة والوريثة له. وقد ولدت في حدود الخمسينات من القرن الماضي. ورباها أبوها وعلمها لكي تساعده في الزاوية وتخلفه بعد وفاته. وكانت متعلمة إلى أن أصبحت قادرة على الاستفادة من مخطوطات المكتبة. وكانت هي الحافظة لسجلات أملاك الزاوية. وقد بلغت مداخيلها حوالي مليونين ونصف من الفرنكات أوائل هذا القرن، كما بلغت الأراضي المزروعة التابعة للزاوية 900 هكتار في بوسعادة وحدها. وكانت الزاوية في عهد أبيها محل الزيارات والضيفان والطلبة. وقيل إن عدد هؤلاء (الطلبة) كان يتراوح بين 700 و800 في السنة. وحين تغلبت زينب على ابن عمها في إرث بركة الزاوية تلقت أيضاً زيارات عديدة، منها زيارة الفنان الفرنسي (قيومي)، والمغامرة الأديبة إيزابيل إيبرهارد، والرحالة بامبر. وكانت زينب، حسب وصف مشاهديها منقطعة للعبادة. وشهدت الزاوية في عهد والدها وعهدها هي أحداثاً هامة وكانت لها مواقف، منها احتضانها (أي الزاوية) لأسرة المقراني بعد 1871، وموقفها من ثورات الجنوب، وتدريس الشيخين محمد بن عبد الرحمن الديسي وعاشور الخنقي فيها، وزيارات ناصر الدين ديني، الرسام المعروف، لها. وكانت زينب معاصرة لكل ذلك وواقفة على سير الزاوية في أحرج الظروف(2).

---

(1) عاشور الخنقي، (منار الإشراف)، ط. 1914، ص 25. وقال إن زوجته هذه قد توفيت سنة 1305 بالزاوية.

(2) أنيت كوباك A. Kobak، (إيزابيل)، نيويورك، 1989، ص 191. وكلنسي ـ سميث =

وكان للنساء أدوار في الحياة السياسية والعسكرية أيضاً. وقد برزت أثناء حياة الأمير عبد القادر امرأتان: أمه لاله زهرة (الزهراء) وزوجته لاله خيرة. وكانت أمه ذات مكانة خاصة في قومه حتى كان يُدْعَى أحياناً، سيما عند البيعة، بابن السيدة الزهرة. وكان الأمير كثيراً ما يشاورها ويتبع نصائحها. وبعد معاهدة التافنة ظهر على الأمير بعض الراحة وتلقي الهدايا، فذكرته أمه بما يجب للرجل البسيط، رجل الدين والتقشف، فكان لا يلبس إلا الصوف البيضاء دون زخرفة. ولما كان في تاكدامت سمع بأمه مريضة، وهي في مليانة، فبادر إلى زيارتها قاطعاً على ظهر الحصان 160 كلم في خمس عشرة ساعة. وكانت أمه وزوجه في الزمالة سنة 1843 فهربهما مولود بن عراش بحراسة أربعين فارساً حتى لا تقعان في قبضة الفرنسيين. ولما وصل الجيش الفرنسي إلى موقع الزمالة دارت معركة حامية حول الخيمة التي كانت تضم السيدتين ودافع عنها فريق من الجيش النظامي حتى قتل دونها، لتمكين السيدتين من الهروب الذي لم يعلم به الفرنسيون. ثم إن لاله زهرة هي التي استقبلت الأسرى الفرنسيين سنة 1845 بعد معركة سيدي إبراهيم. وقيل إنها هي التي نصحت ابنها الأمير سنة 1847 بتوقيف الحرب بعد مقتل البوحميدي في المغرب وفقدان الأمل في الهروب إلى الصحراء، ومحاصرة الفرنسيين لهم. وقد عانت لاله زهرة أيضاً من السجن عند الفرنسيين بفرنسا حوالي خمس سنوات. وكذلك لاله خيرة وأطفالها[1].

= (ثائر وقديس)، 1994، ص 244. وهنا وهناك. وهناك من يرى أن تولي زينب شؤون الزاوية قد أضعفها. والمعروف أن الفرنسيين بواسطة كروشار، رئيس المكتب العربي في بوسعادة، قد عارضوا توليها خوفاً من أن تقع الزاوية تحت تأثير المعارضين للاحتلال. وكان الفرنسيون يفضلون تولية ابن عمها. ولكن زينب عارضت ذلك ورفضت الرسالة (الوصية) التي تظاهر بها الفرنسيون من أبيها على أساس أنه كتبها في حالة مرض وشيخوخة. وبقيت هي المتولية إلى وفاتها سنة 1904 (حوالي سبع سنوات). وقد وصفتها كلنسي ـ سميث بأنها «البنت العصامية».

(1) لويس رين «المرأة البربرية» في (المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقية) SGAAN، 1905، ص 472، انظر أيضاً السيدة بروس (إقامة في الجزائر)، مرجع سابق، =

وأثناء ثورة الزعاطشة (1849) لبست النساء لباس الأعراس والأعياد، وتخلين عن لباس الحزن والحداد، وعبرن عن فرحتهن بمن سقطوا مجاهدين من عائلاتهن. وقد دام ذلك خلال فترة الحصار الضيق الذي نصبه الفرنسيون على الواحة[1]. فالمرأة كانت حاضرة في المقاومة بأفعالها ورموزها.

إن هناك نساء كثيرات في حياة الجزائر وزعمائها خلال الاحتلال. فمن أولاد سيدي الشيخ، ومن زواوة، ومن الأوراس ومن معسكر والشلف، ثم من الصحراء. لقد كانت المرأة حاضرة في المدن والأرياف. ولم تكن تنتظر النجدة من الأخوات البيض حاملات الصليب، ولا أفكار سان سيمون، لتحريرها وإنقاذها. لقد نفتها فرنسا وحدها أو مع الرجال إلى كايان وكاليدونيا، وعانت في المحتشدات التي أقامها بوجو وسانطارنو وبيليسييه. وغنّت للحرية التي كانت تحوم فوق رأسها، وبكت زوجها وأبناءها يوم وصلها خبر استشهادهم في المعارك. فهذه فاطمة نسومر التي قاومت حتى ألقي عليها القبض وتوفيت في سجنها بمرض السل، وهذه زوج بوشوشة التي حال الفرنسيون بينها وبينه عندما هربوها إلى أهلها في البيض ثم قتلوه هو رمياً بالرصاص في سجن قسنطينة. وهذه عيشوش التي كانت تدبر شؤون الحكم في تقرت، وتلك زينب التي كانت تدير زاوية الهامل أثناء حياة أبيها وبعده.

وحين توفي الخليفة حمزة، زعيم أولاد سيدي الشيخ، عند الفرنسيين، اتهم هؤلاء إحدى زوجاته بتسميمه لأنها لم تغفر له استسلامه المطلق للفرنسيين. كما اتهموا الطليعة بنت رابح بوضع السم لزوجها القايد جلول بن حمزة لإخلاصه لفرنسا، أما رقية بنت الحرمة فقد قيل عنها إنها

= ص 315 ـ 316. وفي المرجع الأخير وصف لنساء وأطفال الأمير في سجن (بو) بفرنسا، وعن نساء الأمير انظر فصل في المشارق والمغارب.

(1) كلنسي ـ سميث (ثائر وقديس)، 1994، ص 345، هامش 1.

ربّت ابنها سليمان بن حمزة على كره الفرنسيين وغذته بالطموح والكبرياء[1].

بل هناك حتى النساء المتمردات على العادات والتقاليد الاجتماعية والإسلامية. فهذه حليمة بنت محمد بن يوسف الزياني قد اشتهرت في وهران ونواحيها بالخروج عن التقاليد. فكانت تخرج سافرة وتفلح الأرض لأسرتها، وكانت تركب الخيل وتشارك في الفروسية التي تنتظم من وقت إلى آخر، كما كانت تستقبل الوفود التي تزور زوجها الذي كان يتولى وظيفة إدارية للفرنسيين، وتحضر الحفلات التي يقيمها المسؤولون الفرنسيون لأعيان الموظفين الجزائريين. واشتهرت بلقب (القايدة حليمة). وقد قيل إنها ذهبت إلى الحج قبل وفاتها واستبدلت لقب القايدة بلقب الحاجة. وتوفيت خلال الحرب العالمية الثانية[2].

وكم من قصص تروى عن النساء الجزائريات خلال هذا العهد. ففي المدن كن لا يخرجْنَ إلاّ إلى الحمام حيث يلتقين ببعضهن ويتخذن ذلك ذريعة للاطلاع على الأحوال، والاستماع إلى الأخبار من كل نوع، وذريعة لتفريج الكرب والترويح عن النفس. وكثير من الحمامات كانت تتحول إلى مغنى ومرقص ومعرض للزينات والجواهر، وأسواق للبيع والشراء. والمناسبة الأخرى التي كانت المرأة تخرج فيها في المدينة هي شهر رمضان حين يطول الليل ويخرج الرجال والأطفال، ويكسو الظلام الشوارع فلا يعرف المارة إلا أن الملفوف بالحائك هو امرأة أو حرمة. وغالباً ما كانت النساء تخرج في رمضان ومعهن أطفالهن. كما كن يخرجن يوم العيد لزيارة المقابر والجيران والأقارب. وفي يوم العيد كن يتخذن الزينة ويلبس الجديد من الثياب والأحذية الملونة والمطرزة بالذهب والفضة. وفي عيد الأضحى كن يتخذن الدفوف ويرقصن ويغنين. ولكن الفرنسيات لا يعجبهن كل ذلك، إنهن يردن المرأة المسلمة أن تفعل ما يفعلنه، وإلا فهي متخلفة ومسكينة. ولم تعجبهن

---

(1) لويس رين «حدودنا الصحراوية» في المجلة الإفريقية، 1866، ص 189.

(2) المهدي البوعبدلي (دليل الحيران)، المقدمة، والكتاب من تأليف محمد بن يوسف الزياني.

موسيقاها ولا زغاريدها، وقد بلغت الوقاحة بإحداهن أن شبهت الزغاريد بنباح الكلاب[1].

وقد سال حبر كثير عن تعدد الزوجات وحقوق الزوجة الواحدة، واعتبر الفرنسيون أنفسهم من المنقذين هنا أيضاً. وربط معظم الذين تناولوا هذا الموضوع بين الجانب الاقتصادي والشريعة الإسلامية والقوانين الفرنسية. وبنهاية القرن الماضي سجلوا أن تعدد الزوجات بين المسلمين كان يقل في المناطق المدنية حيث انتشر الفرنسيون، وأن التعدد كان ما يزال شائعاً فقط لدى بعض العائلات الغنية، وإنه ظاهرة تختفي بالتدرج. ونادى بعضهم بتوفير الحاجات المادية للرجل وعندئذ سوف لا يتزوج إلا واحدة. ولاحظوا أن التعدد لا يكاد يذكر في زواوة وفي بعض المناطق الفقيرة الأخرى، لأن الطبقات الفقيرة عامة لا تعرف تعدد الزوجات. ذلك أن التعدد لا يرجع إلى الشهوة الجنسية ولكن إلى دوافع اقتصادية وإلى الفخفخة وحب الظهور وكثرة الأولاد. وأخبر الضابط شارل ريشار الذي قضى مدة طويلة وهو رئيس لمكتب عربي عسكري، وكان عارفاً بأحوال الأهالي في نواحي الشلف: إن تعدد الزوجات راجع إلى أسباب ماذية، فالمرأة كانت تقوم بالطحن والعجن، والطبخ، وكانت تقوم بترتيب البيت وتزيينه، وكانت تنسج الحائك والبرنس، وتعد الحلوى، وتخيط الملابس وتصنع قماش الخيام، ومن ثمة كانت تشارك في البناء المنزلي. فالمرأة على هذا المنوال كانت توفر للرجل: الغذاء والكساء والسكن[2].

---

(1) السيدة بروس، مرجع سابق، ص 284.

(2) شارل ريشار (تحرير المرأة العربية)، نقلاً عن بول بوليو (عن الاستعمار) ط. 5، 1902، ص 464. ويذكر لويس ماسينيون في وقت لاحق أن السدس فقط من رؤوساء العائلات كان لهم أكثر من زوجة سنة 1891 (أي 149,000 من مجموع 950 000) أما في سنة 1911 فقد انخفض ذلك العدد إلى 59,527 فقط. وفي 1915 انخفض إلى 2,830 وهكذا. انظر (الحولية)، باريس 1955، ص 235. وعن تعدد الزوجات من وجهة نظر إسلامية انظر ما كتبه الشيخ أبو يعلى الزواوي في (الشهاب) عدد مايو 1931.

ورأى بول بوليو عدم المبالغة في دور المرأة الاقتصادي، رغم أنه يعترف بأن عليها يتوقف نظام المنزل وأملاكه وحسن سير المداخيل والتوفير. وإن العمل المنزلي هو مجال الزوجة الوحيدة والكُفْأة. وقال إن المسألة ليست في كثرة القوانين والإجراءات، ولكن في فهم عقائد المسلمين وتقاليدهم. ويكفي في نظره أن تعدد الزوجات يجعل التواصل غير ممكن بين الأوروبيين والجزائريين، وله عواقب وخيمة. وقد دلت الإحصاءات على أنه قد انحصر في بعض العائلات الغنية، كما ذكرنا. وحُكْم التاريخ يقتضي إذن إعطاء العربي ما تقدمه له المرأة من مادة: وهي الغذاء والكساء والخياطة والبناء، الخ. وإذا توفر له ذلك فإن التعدد سيختفي من تلقاء نفسه.

ومن جهته نصح جول دوفال بمنع الموظفين الجزائريين في الإدارة الفرنسية من تعدد الزوجات، وبعدم حضور الفرنسيين حفلات الزواج الثاني إذا دعاهم الأهالي إليها، وبمقاطعتهم لزيارة أي بيت فيه أكثر من زوجة، كما طالب بامتناع الفرنسيات من الدخول على بيت فيه حريم (أكثر من زوجة). ثم رجع بوليو إلى الحديث عن بعض العراقيل التي وضعها القانون الفرنسي لمنع تعدد الزوجات، ومنها، في نظره، الإرث المتساوي بين الرجل والمرأة، والزواج المؤبد حسب القانون (الفرنسي)، وكذلك إنشاء الحالة المدنية التي رأى فيها بوليو وسيلة لإخراج الجزائريين من «نصف حضارتهم»[1].

ونحن لا نفهم من هذه الملاحظات والنصائح دفاعاً عن المرأة المسلمة أو غيرة على حقوقها الإنسانية، ولكن دعوة لإدماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي، والتخلص من العراقيل التي تحول دون ذلك. أما تعدد الزوجات في الشريعة فله شروطه المنصوص عليها، وليس مجرد شهوة أو حاجة اقتصادية أو قضية ثروة وتباه.

ومن العراقيل التي وضعها القانون الفرنسي أن الزوجة المسلمة المتوفى

---

(1) بول بوليو (عن الاستعمار)، مرجع سابق، ص 466.

عنها زوجها لا حق لها في النفقة من زوجها أو من الدولة إلا إذا كان الزواج قد عقد طبقاً للقانون الفرنسي، أي إذا كان الزوج قد تخلى عن أحواله الشخصية الإسلامية. فقد طالبت امرأة محمد بوكنية الذي توفي في معركة ضد العدو (؟) ـ حسب تعبير جريدة (المبشر) ـ بالنفقة من السلطات الفرنسية، ولكن هذه السلطات أجابتها بأنه لا حق لها في ذلك لأن زواجها منه كان طبقاً للشريعة الإسلامية[1].

وقد كثرت شكاوى النساء الجزائريات خلال الاحتلال الذي زعم قادته أنهم كانوا يَرْثُون لحالهن ومآلهن. والأمثلة على ذلك كثيرة. فهذه زوجة مصطفى، خوجة الخيل على عهد الداي حسين باشا. لقد نفاها الفرنسيون مع زوجها وأطفالها الثلاثة عشر، واستولوا على أرزاقهم وأراضيهم. وعاشوا فترة في الإسكندرية، ثم توفي الزوج وبقيت هي مع العيال. ثم تذكرت الأرملة أن لهم أملاكاً في الجزائر فطلبت السماح لها بالعودة والإقامة، فسمح الفرنسيون لها بالرجوع، وقد تجاوزت الستين سنة، ولكن أملاكها لم ترجع إليها، ولم يدفعوا لها الكراء على ما فات من السنين، فكتبت رسالة شكوى إلى زوجة نابليون تستغيث بها وتطلب منها التدخل لجبر الحالة وتخصيص شهرية لكي تستعين بها على حياتها، والنظر إليها «بعين الشفقة والرحمة بحق من أعطاكم هذه الحرمة وأولاكم النعمة.. ولا يخفاكم حال أولاد الدار الكبيرة إذا سقط حالهم وصعبت معيشتهم»[2].

وأسوأ ما كانت تتعرض إليه المرأة هو النفي عن أهلها وموطنها. وقد ذكرنا أن الجزائريات عانين كالرجال، من المنفى البعيد، ولا سيما في عهد بوجو. والغريب أن إحداهن قد وطنت نفسها على الإقامة في المنفى الذي هو (كايان) الفرنسية، وكتبت إلى الجزائريات أمثالها ترغبهن في القدوم إلى هذا المنفى البعيد والتزوج بالمسلمين الجزائريين الذين حكم عليهم الاستعمار

---

(1) جريدة المبشر 16 ديسمبر 1869. وقالت الجريدة إن هذا القانون صادر في 28 أكتوبر 1866. وكان قانون التجنس قد صدر سنة 1865.

(2) بلقاسم بن سديرة (كتاب الرسائل)، ص 304، والرسالة بتاريخ 18 سبتمبر 1860.

بالعيش بعيداً عن وطنهم. كما ذكرت لهن أسماء هؤلاء الجزائريين[1] الذين قد يكونون من ضحايا قمع ثورة 1871.

ولكن الحياة في الجزائر ظلت تسير، مع ذلك، فهناك الخريجات من ورشات ابن عابن، ومن بعض الورشات التي فتحت في العاصمة ووهران وقسنطينة، وأهم المدن التابعة لها، سواء تلك الورشات الخاصة أو الكنسية أو التابعة للحكومة. ومن الصنف الأخير سبعة مراكز في إقليم قسنطينة بين 1895 و1910، وكانت تضم حوالي 539 تلميذة. وسبعة مراكز في إقليم وهران بين 1906 ـ 1910، وكانت تضم حوالي 674 تلميذة. أو في إقليم العاصمة بين 1903 ـ 1909 حيث ستة مراكز، وكانت تضم حوالي 526 تلميذة. وقد اختصت هذه المراكز بأنواع معينة من الزرابي الإيرانية والتركية والمغربية والتونسية، بالإضافة إلى الأنواع المحلية مثل زرابي جبل عمور والقلعة والطرز العربي والبربـري، إلخ. وكان الهدف من هذه الورشات ليس تثقيف البنت المسلمة وإخراجها من ظلمات الجهل، كما يزعمون، ولكن جعلها وسيلة إنتاج تجارية لتبادل المنسوجات والمطروزات التقليدية مع أوروبا وعرضها في المعارض على أنها إنتاجات «فرنسية». ومن جهة أخرى كان الهدف هو دمج المرأة الجزائرية في الحياة الأوروبية، وخاصة الاقتصادية، وإخراجها من بيتها بشتى الوسائل. كما أن التجربة كانت تتماشى مع رغبة شارل جونار في استعادة وجه الجزائر العربي الإسلامي أو البربري التقليدي، حتى يحصل التناقض بين المجتمع المتخلف والمجتمع المتحضر وتكثر العقد ومركبات النقص. ويذهب من درس هذه الظاهرة عندئذ إلى أن البنات سرعان ما كن ينسين ما تعلمنه لأنه لا توجد إمكانات المواصلة. ثم إن المستفيدات لا يتجاوز عددهن 1739 تلميذة من بين حوالي خمسمائة ألف تلميذة في سن التعليم[2].

---

(1) المبشر عدد 22 مايو، 1880.

(2) إسماعيل حامد «المسلمات في شمال إفريقية» في (مجلة العالم الإسلامي)، جوان 1913، ص 293 ـ 295. ومن رأي إسماعيل حامد أن أنانية الرجل هي فقط التي =

إن أصوات الباكين على المرأة كثيرة، ولكن ما صنع الفرنسيون طيلة أكثر من قرن نحو المرأة البائسة في نظرهم؟ فحالات الولادة العسيرة لم تكن غالباً محل اعتبار عندهم. وكل شيء كان متروكاً للطبيعة تقريباً. وكان البعض مثل السيدة بكيرو، قد نبه منذ السبعينات إلى بؤس الحالة عند الولادة. وكانت جهود الفرنسيين منصبة على تدليل الكولون وصرف الميزانية التي تجمع من الضرائب العربية ومن الغرامات الثقيلة المفروضة على الأهالي لصالح الكولون وحدهم. وعشية مغادرته الجزائر أعلن الحاكم العام جول كامبون بأنه شاور بعض أعيان الجزائر لأخذ رأيهم في تخصيص قوابل أوروبيات (فرنسيات) لمساعدة المرأة على الولادة، وأن بعضهم قد وافقه على ذلك. وأعلن أنه قد خصص «بعثات نسائية» لمنطقة الأوراس والقنطرة وسيدي عيسى لهذا الغرض. وهذا لا يعني أن بعض المدن والمناطق الأخرى لم تتوفر لها هذه «البعثات»(1).

إن هناك عدة دراسات قد ظهرت عن المرأة الجزائرية منذ آخر القرن الماضي. ولن نتناول المؤلفات والبحوث التي عالجها الجزائريون هنا، وسنعود إليها عند دراسة الإنتاج في جزء آخر. وحسبنا أن نقول الآن إن التحديات الفرنسية قد أدت بالجزائريين إلى كتابة «ردود» عنها دفاعاً عن المرأة المسلمة وعن موقف الشريعة منها، وتوضيحاً لموقف الدين والمجتمع، وتبياناً للوجوه الشرعية في الصداق وتعدد الزوجات والبرقع، ونحو ذلك مما كان موضع جدل. وكان بعض الفرنسيين يثيرون ذلك لكي يطعنوا في التقاليد وفي الشريعة ويحكموا على أن الأعراف المنحرفة هي نفسها التعاليم الدينية.

ومن الكتب الفرنسية تأليف أرنست ميرسييه (حالة المرأة المسلمة في

= حَطَّتْ من منزلة المرأة. انظر كريستلو «المترجمون» في مجلة (المغرب ريفيو) 10، 1985، ص 105.

(1) (إفريقية الفرنسية A.F.)، فبراير 1897، ص 40.

الشمال الإفريقي) الذي ظهر سنة 1895. وقد أخذ منه وناقشه إسماعيل حامد في بحثه عن المرأة. وبعد كتاب ميرسيه بسنة واحدة ظهر كتاب صغير ومفيد ألفه محمد بن مصطفى خوجة وترجمه إلى الفرنسية السيد آرنو. وعنوانه (الاكتراث بحقوق الإناث). وقد راجعته الصحف الفرنسية واستحسنته على أنه صادر من رجل مسلم متفتح وملتزم في نفس الوقت بالدين الإسلامي. وقد تحدث فيه عن وضع المرأة في العائلة، وحقوقها وواجباتها، ولم ينف أو يستنكر تعدد الزوجات واستند في ذلك إلى القرآن والسنة. وأثبت المؤلف حسب المراجعين للكتاب، عدم تعصبه الديني، ودعا إلى التعلم[1]. كما أن عبد الحليم بن سماية ألف كتاباً تعرض فيه إلى وضع المرأة في الأحوال الشخصية، مثل تعدد الزوجات والطلاق والإرث والحجاب[2].

وبعد زيارة الشيخ محمد عبده (1903) وانعقاد مؤتمر المستشرقين (1905) ظهرت عدة مقالات ومؤلفات أيضاً تتناول موضوع المرأة الجزائرية. كان الشيخ سلطان محمد الذي مثل مصر في المؤتمر قد ألقى فيه بحثاً عن المرأة في الإسلام وفي مصر. وقارن بين المرأة في الجاهلية والإسلام، وموقف القرآن والسنة، والمرأة المتعلمة والجاهلة، وذكر أن مصر بنت المدارس للفتيات، واستشهد بالمتعلمات من نساء الرسول ﷺ وشهيرات النساء العربيات. ويبدو أنه كان لكلمته صدى واسع في الأوساط المحبذة لتعلم المرأة في الجزائر[3]. وعقب ذلك ظهر كتاب آخر لمحمد بن مصطفى خوجة سماه (اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب)، وتولت

---

(1) راجعته جريدة (المونيتور ألجيريان)، ونقلت ذلك جريدة (المبشر) 21 مارس 1896. سنرجع إلى هذا الكتاب في جزء آخر.

(2) انظر بحثه الذي قدمه إلى مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة 1905 في المجلة الإفريقية، 1905. وعنوان كتابه هو (العلاقة بين الدين والفلسفة).

(3) مؤتمر المستشرقين في (المجلة الإفريقية)، 1905، ص 318، تقديم محمد بن أبي شنب.

نشره الحكومة العامة. ولم يخرج المؤلف عن نفس الخط في كتابه الأول من حيث الموقف الديني من المرأة، ولكنه عالج أيضاً موضوعات متصلة بها مثل التزين بالجواهر والملابس الحريرية، والحجاب الذي كان من موضوعات الساعة في المشرق. وقد ظهر الشيخ محمد بن مصطفى خوجة محافظاً في نظر المراجعين الفرنسيين لكتابه، لأنه كان يتماشى مع قواعد الشريعة الإسلامية[1].

وفي نفس السنة (1907) وما بعدها نشر محمد بن أبي شنب مقالة عنوانها ملفت للنظر وهو (الحياة المدنية الإسلامية في مدينة الجزائر ـ حالة المرأة بناء على القرآن والسنة). وفي مقدمة دراسته ذكر أنه لن يكتب دراسة عميقة عن حالة المرأة المسلمة في مدينة الجزائر وأنه لم يأت ليناهض الأحكام المسبقة التي يستنكرها الشرع الإسلامي، ولكنه جاء فقط ليكتب حياة المرأة من ميلادها وزواجها إلى وفاتها. ولذلك خصص قسطاً من مقالاته الثلاث لكل طور. وقد اطلعنا على هذه الدراسة فوجدناها وصفية وشرعية، ولكنها لا تعرض الآراء الاجتماعية ولا تصارعها. والمعروف أن ابن شنب يعتبر من المحافظين رغم معرفته الفرنسية جيداً والحياة الفرنسية بصفة عامة[2]. ولم يذهب ابن شنب في ذلك مذهب الإندماجيين أمثال إسماعيل حامد الذي دافع عن المرأة المسلمة أيضاً بناء على الشريعة ولكنه ركز (أي حامد) على أن وجود الاندماجيين (النخبة) والزواج المختلط وتعليم المرأة المسلمة هي شروط الاندماج الحقيقي، لأن دمج الأعراق أو السلالات غير ممكن في نظره[3].

وتطور الاهتمام بالمرأة بعد الحرب العالمية الأولى أيضاً بتطور الأفكار، فقد انتشر التعليم بين الجنسين، واهتمت الحركة الإصلاحية بالمرأة

---

(1) انظر (مجلة العالم الإسلامي)، يناير 1908، ص 216 ـ 217. ظهر الكتاب سنة 1907.

(2) نشرها في المجلة الأهلية R. Indigene 1907، 1908، 1909، ونشكر محمد العربي معريش الذي صور هذه المقالات وأرسلها من الجزائر.

(3) إسماعيل حامد، «المسلمات»، مرجع سابق، ص 292 ـ 293.

باعتبارها ظلت مهملة وباعتبارها عضواً أساسياً في إصلاح المجتمع. وكانت دروس ابن باديس العامة منذ البداية موزعة بين الرجال والنساء، وقد أعطى هو المثل والقدوة في ذلك. وفي مجلة (الشهاب) التي أنشأها ابن باديس، باب خاص بالحديث عن المرأة في الشريعة والتاريخ الإسلامي، مع ربط ذلك بالواقع في الجزائر. ثم أصبحت لا تكاد تصدر جريدة إصلاحية دون الحديث عن المرأة ومكانتها الاجتماعية والدينية. ومن الذين خصوا المرأة بتأليف أيضاً أبو يعلى الزواوي الذي كتب (مرآة المرأة المسلمة). وهذا من الكتب التي لم نطلع عليها، غير أن أبا يعلى أشار إليه في كتابه (الإسلام الصحيح) الذي يعتبر من الكتب المبكرة، والذي نشره في دمشق (؟) سنة 1924. وفي الكتاب الأخير عبر أبو يعلى (السعيد بن محمد الشريف الزواوي) عن رأيه في عمل المرأة وتعلمها ورؤية الخاطب لها، وخلص إلى القول إنه «لا يليق أن تكون المرأة عضواً أشل في الهيئة الاجتماعية الإسلامية»[1].

وقد أورد الشيخ سعيد الزاهري سنة 1347 هـ قصة حول المرأة، بعضها خيالي وبعضها حقيقي، ونشرها في مجلة مشرقية هي (الحديقة) وربما نشرها أيضاً في كتابه (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير). ذكر الزاهري قصة رد فيها رداً غير مباشر على مستشرقة فرنسية - ربما كان يقصد ماري بوجيجا - التي قال عنها إنها كتبت كتاباً عن تحرير المرأة المسلمة وذهبت تقرأه على النساء المسلمات في بيوتهن. وعالجت فيه مسألة الحجاب. وذكر الزاهري أن المرأة المسلمة ردت عليها بما يقنع أن الحجاب رمز العفاف والأنوثة، وأن المرأة الحضرية (ساكنة المدينة) راضية بخدمة المنزل والأولاد وشؤون الزوج، وأما المرأة البدوية (الريفية) فهي التي تخرج سافرة، وأنها فاقدة للأنوثة تقريباً (؟). وثم تبين للمرأة المسلمة أن المستشرقة الفرنسية غير متزوجة، ومن ثمة فهي غير كاملة الأنوثة في نظرها. وبعد أن انهزمت المستشرقة - حسب رواية الزاهري - راحت تتخلص من كتابها ومالت إلى

(1) أبو يعلى الزواوي (الإسلام الصحيح)، دمشق، حوالي 1924، ص 26.

الإسلام، وشرعت تفكر في تأليف كتاب عن الحجاب[1].

وقد لاحظنا أن الاهتمام كان بالمرأة الجزائرية المسلمة عموماً. ولكن بعض الفرنسيين والفرنسيات ركزوا، ولأسباب أشرنا إلى بعضها، على المرأة الزواوية (القبائلية). فقد نظر بعضهم إليها على أنها محرومة نتيجة تطبيق العرف عليها، وبعضهم رآها ذات قابلية أكثر للاندماج الذي كان ينشده الفرنسيون. ولذلك كثرت الكتابات عن المرأة الزواوية سيما خلال العشرينات. كانت رائدة هذه الكتابات هي ماري بوجيجا، وهي زوجة إيمانويل بوجيجا الذي قضى معظم حياته متولياً للإدارة البلدية في زواوة، وكلاهما (الزوج والزوجة) ترك مؤلفات موجهة وملغومة عن تجربتهما هناك. والسيدة بوجيجا قد اشتهرت بكتابها الذي سمته (أخواتنا المسلمات) والذي شنت فيه الغارة على التقاليد البائدة، في نظرها، تلك التقاليد التي تركت «أختها» المسلمة في الحضيض بينما هي وأمثالها في القمة.

وركزت بوجيجا على الجانب الاجتماعي في دراستها للمرأة الجزائرية، واستشهدت بالمحاولات «التقدمية» في مصر التي نادت بتحرير المرأة والخروج من ركام التقاليد. وكانت بوجيجا تنشط في الصحافة والنوادي، وكانت أعمالها تجد صدى وتشجيعاً من إدارة الشؤون الأهلية بقيادة جان ميرانت. وكانت تلقي المحاضرات، فتنشرها الصحف والمجلات، وتقوم بالزيارات القريبة والبعيدة، وتراسل داخل الجزائر وخارجها[2]. وكانت على اطلاع واسع بتاريخ المرأة العربية والإسلامية، ولا سيما حالة المرأة في زواوة. وقد أعجبت بوجيجا بكلمة الشيخ سلطان محمد المصري التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة 1905 فراحت تستشهد بها.

---

(1) محمد سعيد الزاهري «الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير» في مجلة (الحديقة) لمحب الدين الخطيب، ج 8، ص 190 ـ 206. ومن الجزائريين الذين عالجوا مسألة المرأة أيضاً مالك بن نبي في كتابه (شروط النهضة) الذي صدر في الأربعينات.

(2) بدأت الحركة النسائية في مصر خلال العشرينات على يد هدى شعراوي وزيزي نبراوي وغيرهما.

ولكن الجديد الذي تبنته ماري بوجيجا وسعت إلى إنجاحه هو عقد مؤتمر نساء البحر الأبيض المتوسط في قسنطينة، سنة 1932. ويهمنا حضور المؤتمر وتوصياته. أما الحضور فقد قيل إن 31 امرأة جاءت المؤتمر من أنحاء أوروبا. كما ألقيت في المؤتمر رسالة باسم السيدة الصغير الحسن، وهي زوجة قائد سيقوس. كما حضرها بعض الرجال الذين منهم: عبد القادر فكري وأحمد الأرقش. وألقيت في المؤتمر عدة تقارير عن وضع المرأة المسلمة (لأن المرأة الأوروبية ربما لا تحتاج إلى ذلك رغم أن عنوان المؤتمر يشملها) وعبر فيها أصحابها عن مأساتها في نظرهم، واقترحوا الحلول للخروج من ذلك الوضع. وشمل الحديث تاريخ المرأة المسلمة ومكانتها في القرآن ومسألة تعدد الزوجات، ووجهة نظر المرأة القبائلية خاصة. وقد عبرت السيدة الصغير الحسن على أن المرأة في الريف وغيره بدأت تفكر كالفرنسية (!) أما التوصية الأخيرة فكانت عن اللغة الفرنسية التي قيل عنها إنها هي التي ستوحد الشعبين (كذا) المختلفين في الأصل، ولذلك طالب المؤتمرون بضرورة تعليم اللغة الفرنسية للمرأة المسلمة[1]. وبذلك انكشف المخطط الذي كانت تعمل داخله السيدة بوجيجا لإنقاذ المرأة المسلمة بالتعاون مع إدارة الشؤون الأهلية بزعامة ميرانت.

وفي سياق شبيه بسياق ماري بوجيجا التي قدمت نفسها على أنها «أخت» للمسلمات، كتبت إحدى المُنَصِّرات (المبشرات) وهي الراهبة روش، ووصفت المرأة الجزائرية بأنها ترسف في أغلال التقاليد، ومنها ضيق المنزل (أو السجن) وغلظة الرجل. وتأسفت على أنه لم يكن للمرأة تنظيم

(1) محاضرة السيدة ماري بوجيجا في مؤتمر قسنطينة، منشورة في المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقية SGAAN، 1932. وكانت قد ألقتها في مقر جمعية المجلة في 7 جوان 1932. أما المؤتمر نفسه فقد انعقد أيام 29 ـ 31 مارس 1932. والمراد (بالشعبين) الجزائري والفرنسي. عن عبد القادر فكري (وهو اسم مستعار)، انظر فقرة الأدب بالفرنسية.

ولا قيادة. ولكنها قالت إن الفتيات يذهبن إلى المدارس سافرات وهن يلبسن اللباس الأوروبي. وللكاتبة صداقة مع بعض النساء المسلمات. وقالت إن بعضعن لا يدركن عواقب ثورتهن على التقاليد. وهي كمنصرة كانت متفائلة لأنها لاحظت أن بعض النسوة يؤمن بالمسيحية سراً في بيوتهن وأن بعضهن قد وجدن أزواجاً مسيحيين. وتَنَبَّأَتْ أنه سيأتي يوم تصبح فيه المرأة المسلمة مؤمنة بالمسيح[1]. ولعل الراهبة روش لا تعرف أن كل المسلمين يؤمنون بالمسيح ـ عليه السلام ـ ولكن ليس كإيمانها هي به. فالخط الذي كانت تسير فيه روش كان يشبه الخط الذي تسير فيه بوجيجا. هذه كانت تدعو إلى اللغة الفرنسية والحضارة الأوروبية (وهي مسيحية الأصل)، والأخرى كانت تدعو إلى المسيحية أو على الأقل تحكم على الآخرين من خلالها.

ومن الملاحظ أن روش أوردت أيضاً كتابات بعض المتجنسين الجزائريين حول المرأة المسلمة. ومنها ما كتبه ربيع الزناتي في (لافوا أندجين) عن تخلف المرأة المسلمة وتناقض التقاليد والواقع عندها. ثم مقالة المنور قلال في جريدة الكولون المعروفة وهي (لاديباش ألجيريان)، وهي مقالة حول موقف الشباب الإندماجي من الزواج بالمرأة المسلمة «الجاهلة». وبناء على السيد قلال، فإن هذا الشباب «المثقف» سيبحث له عن امرأة تناسبه ولا يرضى لنفسه بشريكة حياة متخلفة عنه. والأمر كذلك عنده بالنسبة للجندي الجزائري الذي خدم في الجيش الفرنسي وشاهد وعاش مظاهر الحضارة الأوروبية، فهو أيضاً سيبحث له عن امرأة «مناسبة». ويبدو أن الموجة خلال الثلاثينات كانت تندفع في هذا التيار. فقد كتب آخرون حول هذا الموضوع، ومن ذلك مقالة ابن حوراء في الجريدة نفسها (لادبياش) عن الإصلاح الإسلامي وتحرير الفرد[2]. وكانت جرائد جمعية العلماء وجرائد الإصلاح

---

(1) ميليسانت روش M.H. Roche في مجلة (العالم الإسلامي) ـ بالإنكليزية ـ ج 23، 1933، ص 290.

(2) نفس المصدر.

عموماً تخوض في هذه الموضوعات محبذة أو ناقدة، كما رأينا في كتابات محمد سعيد الزاهري.

ولكن المرأة الجزائرية الحقيقية كانت كالمرجانة الصافية تنتظر الخلاص على أيدي الحركة الوطنية وليس على أيدي الليكس وابن عابن وبوجيجا وروش. وقد جاءها الخلاص يوم أن خرج المرجان من أصدافه طاهراً طهوراً مع فجر ثورة نوفمبر. وعندئذ كشفت المرأة الجزائرية عن هويتها ففاجأت كل الباكين عليها بكاء التماسيح.

الهجرة أو البقاء

سال حبر كثير حول وجوب الهجرة من الجزائر أو عدمه بعد تغلب الفرنسيين (الكفار) على المسلمين فيها. وقد انقسم أهل العلم والرأي في ذلك ثلاثة أقسام على الأقل: من يقول بوجوب الهجرة مطلقاً لعدم وجود الحكومة الإسلامية، ومن يقول بعدم الهجرة ما دام الفرنسيون قد سمحوا بإقامة الشعائر الإسلامية، ومن يفصل ويقول إن الهجرة واجبة على المستطيع سواء منع الفرنسيون إقامة الشعائر أو سمحوا بها، ولكن بعد تصفية الديون وترتيب حياة العائلات وبيع العقار، أي أن النية في الهجرة والإقامة مؤقتة فقط.

والواقع أن الهجرة الجماعية من المدن التي احتلها الفرنسيون أول مرة، كالعاصمة ووهران وتلمسان ومعسكر وعنابة وبجاية، لم ينتظر أصحابها فتوى العلماء ولا حكم الشريعة. لقد حمل القادرون أولادهم وأرزاقهم التي خفت وارتحلوا براً وبحراً وشرقاً وغرباً، كما يقول محمد بن الشاهد. وقد هاموا على وجوههم حتى لا تحكمهم قوانين الفرنسيين ولا يخضعون لأحكامهم. وقد نقص عدد سكان العاصمة وحدها بحوالي الثلثين، وفيهم أصحاب الثروة والحرف والعلم. ويقول ابن الشاهد[1] الذي

(1) تولي الفتوى في آخر العهد العثماني. وله شعر غزير وقوي. ومن شعره قصيدته في رثاء الجزائر بعد احتلالها. وقد تداولها الكتاب ونشرها بول فانسان بعد ترجمتها، =

عجز عن الارتحال، وأصيب بالعمى وكبر السن، وكان من الشعراء البارزين وأصحاب الفتوى: أن «الحل الكثير من ذوي الأموال سافر من هذه البلدة (الجزائر) براً وبحراً، شرقاً وغرباً، كما هو مشاهد محسوس لكل أحد». أما الباقون فاختلفت أسباب عدم هجرتهم. وقد فرغت مدن كاملة من سكانها مثل وهران وبجاية وعنابة عند الاحتلال، ومع ذلك زعم الفرنسيون فيما بعد أن الجزائر كانت بدون سكان مدن.

إن العلماء الذين أفتوا بالهجرة من البلاد التي تغلب عليها الفرنسيون استندوا إلى آيات وأحاديث ووقائع تاريخية، كهجرة الرسول ﷺ وأصحابه، وهجرة أهل الأندلس، والتجارة في بلاد غير المسلمين (دار الحرب). وهناك حجج لهم يستندون إليها. ونود أن نذكر أن المقصود بالهجرة عندما طرحت خلال الثلاثينات من القرن الماضي، هو الخروج من المنطقة التي تغلب عليها الفرنسيون إلى منطقة أخرى ما تزال تحت الحكم الإسلامي، كالمناطق الواقعة تحت حكم الأمير عبد القادر. وقد جعل الأمير حماية المسلمين من الأحكام الصارمة في كل معاملاته مع المسلمين ومع الفرنسيين، وطبق الأحكام الإسلامية وقوانين الحرب على رعاياه من جهة وعلى المسلمين الواقعين تحت حكم الفرنسيين من جهة أخرى. وكان على هؤلاء المسلمين في نظره أن يخرجوا من ربقة الفرنسية لكين يكون هو الحامي الوحيد لهم. وكان هدفه أيضاً هو عزل الفرسيين وقطع المسلمين التعامل معه إلا بتعليماته، إضعافاً لهم وإكراههم على الخروج من الجزائر أو إقامة العلاقات معه والاعتراف به هو كسلطة إسلامية وحيدة في البلاد.

والجدل الذي نشأ حول الهجرة بين بعض العلماء عندئذ إنما مصدره هذه الفكرة، وهي تجمع المسلمين تحت راية الأمير ورفض الحكم الفرنسي وتوحيد الصف، وليس المقصود به مغادرة القطر الجزائري إلى بلدان أمامية

= في المجلة الآسيوية. انظر دراستنا عنها في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة)، 1982، وكذلك فصل الشعر. وقد توفي ابن الشاهد حوالي 1252 (1837).

أخرى. والمعروف أن عدداً من أعيان وعلماء الجزائر قد «هاجروا» إلى حكم الأمير من مختلف أنحاء الجزائر، ولا سيما من العاصمة. ومن هؤلاء قدور بن رويلة وصهره علي بن الحفاف. ومن العلماء الذين بقوا في الجزائر عندئذ المفتي مصطفى بن الكبابطي ومحمد بن الشاهد. ويبدو أن الجدل الذي دار بين هؤلاء كان قبيل معاهدة التافنة (1837). ولعل كاتب الأمير، ابن رويلة، هو الذي فجر الموضوع بدعوته العلماء للهجرة واحتجاجه بفتوى أحمد الونشريسي في كتاب المعيار، والمعروفة بعنوانها (أسنى المتاجر). والغالب على الظن أن ابن رويلة لم يكتب ما كتب إلا بموافقة الأمير. وقد تولى المفتي الكبابطي الرد عليه وتبرير عدم الهجرة بكون الفرنسيين لم يمنعوا المسلمين من العبادة وكون العامة في حاجة إلى العلماء ليعلموهم مبادىء الدين.

دارت عدة مراسلات في هذا الشأن بين الطرفين، ووصلت أحياناً إلى حدّ الاتهامات الشخصية بدل الاحتجاج الديني. وتدل المراسلات على معرفة سابقة بين المفتي الكبابطي وابن رويلة. وهذا ليس غريباً لأن الكبابطي كان قاضياً ثم مفتياً منذ الاحتلال، وكان معروفاً لابن روميلة قبل التحاقه (ابن رويلة) بخدمة الأمير. ومن ذلك التنابز أن المفتي عاتب ابن رويلة على استعماله عبارة (المعظم الأمجد) في مخاطبة رؤساء الفرنسيين. وقد رد ابن رويلة على ذلك بأنه فعلاً كان يكتب ذلك قبل أربع سنوات، وكان يكتب ما يكتب باسم الأمير، إلى أن نهاه الأمير عن استعمال عبارات مثل هذه في مراسلاته، «فتاب» ولم يرجع إليها، وتحداه أن يجد عنده عبارة أخرى غير «إلى عظيم الجنرالات..» منذ ذلك الحين[1]. وقد رد ابن رويلة بعد ذلك على لائميه رداً حاسمًا بذكره عشرة نقاط كل واحدة منها تدل على خضوع العلماء، أمثال الكبابطي، للفرنسيين مما كان يؤدي في نظره إلى الكفر، ومنها توديع جيوشهم عند خروجهم لمحاربة المسلمين، واستقبالها بعد

---

(1) يفهم من كلام ابن رويلة أن المحرض على هذا «القول الشنيع» ضده هو مصطفى بن المرابط صهر المفتي ابن الكبابطي.

رجوعها ظافرة، والتهنئة بمواليدهم، وحضور حفلاتهم، وتقديم البلغة الصفراء لهم عند دخولهم المساجد.. أما عن الهجرة فقد قال ابن رويلة مخاطباً المفتي الكبابطي: لعلكم ظننتم أن الله لا يُعْبَدُ إذا خرجتم من الجزائر وأن شريعته لا تطبق[1].

ورغم تمسك الكبابطي بعدم الهجرة فإنه قد وجد نفسه مجبراً عليها سنة 1843، أي بعد حوالي سبع سنوات من دفاعه القوي على البقاء ما دام الفرنسيون قد سمحوا بالعبادة. ويبدو أنه كان مقتنعاً بالبقاء والمقاومة بمختلف الوسائل، وكان يعرف ما حصل لأهل الأندلس، وهو منهم، الذين لم يهاجروا. وأثناء مقاومته لتدخلات الفرنسيين في الشؤون الدينية واستيلائهم على الأحباس وإدخالهم اللغة الفرنسية في الكتاتيب القرآنية، اصطدم مع إدارة المارشال بوجو، فحكم عليه بالنفي إلى جزيرة سان مرغريت (فرنسا)، ثم سمح له بالإقامة في مصر، حيث توفي بالإسكندرية[2]. من عجائب الزمن أن ابن رويلة أيضاً قد مات في المنفى، وأن ابنه الذي خطفه الفرنسيون، قد قتل في ثورة أولاد سيدي الشيخ (سنة 1864).

وقد انتصر علي بن الحفاف لصهره ابن رويلة أثناء هذه الخصومة. ونحن نعرف أن ابن الحفاف هذا قد رجع إلى الجزائر وأعيدت إليه بعض أملاكه ووظفه الفرنسيون على أساس أنه من أعيان العلماء، بناء على فكرة وهي أن من جاءهم طائعاً من الجزائريين سيخلص في خدمته فهو أفضل من غيره، رغم أنهم أقروا بعداوته لهم. والغريب أيضاً أن ابن الحفاف الذي تولى القضاء والفتوى وحج بيت الله، قد ظل يحلم بالهجرة من الجزائر ولم تطب نفسه للإقامة بها تحت الفرنسيين حتى بعد أن طال مكثه في الوظيفة. وقد صارح بذلك الشيخ محمد بيرم الخامس عند زيارته الجزائر

---

(1) انظر النص في قنان (نصوص سياسية)، ص 119 ـ 121 عن مخطوط المكتبة الوطنية، رقم 2083.

(2) انظر دراستنا عنه في كتابنا (أبحاث وآراء)، ج 2.

حوالي 1878، فنصحه بيروم بالبقاء خدمة للدين والعامة، وقد توفي في الجزائر سنة 1307 هـ[1].

أما محمد بن الشاهد فقد فصل القول في قضية الهجرة، وكان يرد على صاحب رسالة غير مذكور، ولكننا نرجح أنه هو قدور بن رويلة أيضاً. وخلاصة رأي ابن الشاهد أن الهجرة المطلقة إنما هي واجبة على من لم يتمكن من إقامة شعائر دينه وكان قادراً على الهجرة، أما العاجز عنها بدنياً أو مالياً فلا تجب عليه. وأورد أدلة عديدة، منها أقوال بعض المفسرين، وحكم الفقهاء بكراهية التجارة في دار الحرب دون التحريم، وذكر هجرة الصحابة إلى الحبشة، وهي دار حرب عندئذ، لتمكنهم من العبادة فيها. وذكر أن علماء الأزهر الشريف لم يهاجروا عندما استولى الفرنسيون (الكفار) أنفسهم على مصر سنة 1798. ولو هاجر العلماء وهم أطباء الأديان، لبقي العامة بدون مرشدين.

واعترف ابن الشاهد بأن كل الظروف كانت تجبر على الهجرة، ولكن وقتها لم يحن بعد بالنسبة للبعض. فالفرنسيون قد هدموا المساجد وبعثروا المقابر واستولوا على الأحباس. ولكنه صرح بأن المساجد ليست هي الدين، وأن العبادة ممكنة في أي مكان مناسب. ثم إن البقاء مع الكفار لا يعني الرضى بحكمهم وإنما العجز هو الذي فرض ذلك. وقال قولته الشهيرة: «كيف يتصور في أذهانكم أننا نرضى بالكفر ونحب معاشرة أهله، وقد غلت أسعارنا، وتقطعت صنائعنا، وانهدمت حوانيتنا، وتعسرت مكاسبنا، وحفرت مقابرنا، ونبشت ضرائح أوليائنا، وما حصلت هذه الأشياء إلا بسبب دخوله؟ وأي عزّ لنا في هذه الأشياء حتى نرضى بها؟ والله الذي لا إله إلا هو: نحن إذا أصبحنا لا نريد أن يمسي معنا، وإذا أمسينا لا نريد أن يصبح معنا».

إن الناس فئات. والطلبة (العلماء) الذين ذكرهم صاحب الرسالة، ليس لهم مال يهاجرون به. لأن موردهم الأساسي هو الأحباس. وقلّ من له دار أو

(1) انظر عن ابن الحفاف فصل السلك الديني والقضائي.

حانوت، ولا يعدو دخلهم بضع دينارات لا تكفي لعيشهم، فما بالك بالهجرة. وعامة الناس حكمهم حكم الطلبة أيضاً، فهم فقراء أو عاجزون. وأما من له مال وبقي إلى الآن فأسباب بقائه مختلفة، فإما كان له عقار يريد بيعه ولم يتيسر له ذلك، وإما له ديون يريد تحصيلها قبل الهجرة، وإما له عائلات كبيرة ينتظر الوقت لتنظيم أمورها. ثم إن هجرة الرسول ﷺ لم تحدث دفعة واحدة. ويفهم من هذا الكلام أن ابن الشاهد وأمثاله الباقين تحت حكم الفرنسيين أنهم جميعاً كانوا على أهبة الهجرة، ولكنها مسألة وقت فقط، فهو يقول: «الناس قاطبة على نية الارتحال والخروج. كل يتربص وينتظر الوقت... هذا حاصل مكثنا في هذه البلدة»[1]، ورغم هذه النية، فإن ابن الشاهد قد أدركه الموت قبل تحقيقها. ومن العائلات التي هاجرت بعد ذلك إلى بلاد الشام عائلة مصطفى بن المرابط المذكورة.

وفي رسالته المعنونة (حسام الدين لقطع شُبَه المرتدين) أجاب الأمير عبد القادر إجابة صريحة بوجوب الهجرة من البلد الذي غلب عليه الفرنسيون. ويقصد الهجرة أو الخروج إلى المناطق التي كانت تحت سلطته. وقد كتب الرسالة المذكورة سنة 1843، والغالب على الظن أنها كانت قبل الاستيلاء على الزمالة في نفس السنة. وقد عزز رأيه أيضاً بآراء المفسرين وبالأحاديث وأقوال المغيلي وابن الحاج والونشريسي. ورد الأمير اعتذارات المعتذرين بعدم الهجرة مهما كانت الأسباب، بما في ذلك الخوف على العائلة والرزق، والخوف من الجوع. واعتبر الأمير أن مال المسلم المقيم مع الكفار مال مباح لأنه ليس ماله. ورد على العلماء الجهلة في نظره القائلين «بمهادنة» العدو، لأن المهادنة في الحقيقة مخصوصة بالإمام أو نائبه وليس لعامة الناس، لأن أحكام العدو سارية على المسلمين، فكيف يهادنونه[2]؟

---

(1) رسالة ابن الشاهد في قنان (نصوص)، ص 136 ـ 141. وقد عالج محمد بن عبد الكريم موضوع الهجرة في كتاب نشره بعنوان (حكم الهجرة)، وجاء فيه بآراء ونصوص العلماء المذكورين (ابن الشاهد، ابن رويلة، الكبابطي، ابن الحفاف).

(2) ذكر ذلك محمد بن الأمير عبد القادر في (تحفة الزائر)، ط. 1903، ج 1، ص 441.=

ويذكر مترجمو الأمير أنه فكر في حمل جميع المسلمين في الجزائر على الهجرة نحو البقاع المقدسة[1].

رغم أن كثيراً من العلماء ورجال الدين قد اختاروا الهجرة نحو المشرق، سيما بعد هزيمة الأمير عبد القادر، ثم في عهود متوالية، فإن هناك من كان منهم ضد الهجرة مهما كانت الأسباب. ومن هؤلاء بعض المتصوفة وعلماء الأرياف. ومنهم من هاجر ثم رجع زائراً أو مقيماً وتولى الوظائف للفرنسيين أنفسهم. وقد ذكرنا ذلك في تراجم بعضهم. ويذكر أحد الكتاب أن الحاج البشير بن حواء الغريسي (معسكر) أحد تلاميذ الشيخ عَدَّة بن غلام الله، قد استشاره بعض أقاربه في الهجرة إلى الشام فثبطهم ورغبهم في البقاء، وأورد لهم حكاية محتواها أنه إذا كان الملك في الشام وابنته في معسكر وهجم العدو على ابنته فهل الأفضل لسكان معسكر الدفاع عن ابنة الملك وتخليصها من العدو أو الهرب بأنفسهم إلى بلاد الملك (يقصد بالملك الرسول ﷺ، والبنت هي الشريعة الإسلامية)[2].

ويرى أحد المتصوفة، وهو الشيخ الحبيب بن سيدي موسى العامري - من بني عامر - أن الهجرة الصورية (البدنية) قد انقطعت ولم تعد واجبة، أما الهجرة الروحية فهي باقية بقاء الدنيا. وكان الشيخ الحبيب من رجال التصريف، كما قيل، وحبذ الخروج إلى سبخة وهران عند هجرة قبيلته الشهيرة، بني عامر، إلى المغرب الأقصى. ولما رجعت القبيلة بعد هزيمة الأمير عبد القادر رجع هو أيضاً واجتمع الشمل. وقد توفي الشيخ الحبيب سنة 1287 هـ[3].

ويبدو أن الأمير عبد القادر قد غير موقفه بعد هزيمته وسجنه وإقامته في

= انظر أيضاً قنان (نصوص)، ص 142. والمقصود بالإمام هو الحاكم أو السلطان.

(1) شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر)، ط. 2، 1982، ترجمتنا له.

(2) الهاشمي بن بكار (مجموع النسب)، ص 136.

(3) جاء ذلك في مخطوط ك 48، الخزانة العامة الرباط.

المهاجر. فلا نعلم أنه شجع على الهجرة بعد 1847. بالعكس فقد وجدنا بعض أفراد عائلته كالطيب بن المختار، وآل طالب، قد رجعوا إلى الجزائر بعد أن هاجروا منها. وكان رجوع بعضهم بنصيحة منه. ونُسب إليه أنه نصح، وهو بالشام، أحد الأصدقاء الذي سأله عن الهجرة بأن «لا تسمع لقول من يقول: اذهب إلى القدس تقدسك، فاعلم أن الرجال تقدس البقاع، وليست البقاع تقدس الرجال»[1].

وعندما كان كتّاب الأمير يدعون المسلمين، ولا سيما العلماء والطلبة، إلى الهجرة من المناطق التي استولى عليها الفرنسيون، كان ليون روش، الذي كان يتجسس على الأمير، يتابع المراسلات ويطلع على ردود الأفعال. وعند استئناف الحرب مع الفرنسيين (1839) وجد ليون روش الفرصة للهروب من حاشية الأمير إلى الماريشال بوجو. وقد كشف له في تقاريره عن عورات المسلمين ولا سيما مخططات الأمير وأسراره. ومن ذلك أن المسلمين كانوا يعتبرون الأرض الواقعة تحت الإدارة الفرنسية دار حرب يجب الخروج منها. وكان ذلك هو أساس حركة الجهاد عندهم. ولمقاومة هذه الحركة صاغ الفرنسيون (فتوى) وحملها ليون روش نفسه إلى علماء المسلمين ليفتوا الجزائريين بناء عليها، ومفادها أن الجزائر لا تعتبر دار حرب ولا تستوجب الجهاد ما دام المسلمون قد بذلوا الجهد في الدفاع عنها وعن الإسلام ثم عجزوا عن طرد الكافر، ثم إن هذا الكافر نفسه قد ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية. فعليهم إذن أن يرضوا بحكم النصارى وأن يمارسوا الإسلام، طبقاً لأحكام الشريعة نفسها.

هذه (الفتوى) الغريبة حررها بعض الموالين لفرنسا من شيوخ التصوف، ومنهم، كما جاء في (مجلة العالم الإسلامي) الشيخ محمد التجاني، ومقدم الزاوية الطيبية، ثم أعدت السلطات الفرنسية بعثة فيها هؤلاء الشيوخ أو نوابهم، ورافقوا سنة 1841، ليون روش الذي غيّر اسمه ليصبح

(1) ابن بكار، مرجع سابق، ص 136.

(الحاج عمر) وتوجهوا أولاً إلى القيروان فوافق عليها مفتي الجامع الكبير هناك، ثم القاهرة، حيث وافق عليها بعض شيوخ الأزهر الشريف، ثم مكة المكرمة حيث وافق عليها مجلس العلماء، الذي انعقد في الطائف تحت رعاية شريف مكة. وقد وافق هؤلاء العلماء، كما جاء في كتاب ليون روش، على أن الجهاد لم يعد واجباً على مسلمي الجزائر، لأنه من باب إلقاء بالنفس إلى التهلكة[1]. ونعلم أن السلطات الفرنسية قد روجت لهذه الفتوى في الجزائر كسلاح ضد المقاومة وحركة الجهاد، فقد وزعت نسخاً منها على الموظفين ورجال الدين وعلقتها على جدران المساجد، ونشرتها في الصحف، ولعلها جعلتها تقرأ في الخطب المنبرية أيضاً، ومع ذلك لا نعلم إلى أي حد كان ليون روش صادقاً في روايته وأخذه موافقة علماء المسلمين على نص فتواه. فنحن نعلم أيضاً أن الأمير عبد القادر كتب رسالته (حسام الدين) في هذه الأثناء، وكأننا به كان يرد بها على مثل هذه الفتوى المشبوهة[2].

ولم تكن هذه هي المحاولة الدينية الوحيدة التي حارب بها الفرنسيون هجرة الجزائريين. ففي سنة 1893 حاول الحاكم العام جول كامبون صياغة فتوى أخرى شبيهة بالأولى لكي يمنع بها هجرة الجزائريين المتكاثرة ويهدىء بها المناطق التي كانت فرنسا تعتزم احتلالها في الصحراء، والتمهيد لاحتلال المغرب الأقصى. وكان الإنكليز قد استصدروا فتوى من علماء مكة تذهب إلى أن الهند بلاد إسلامية رغم احتلالها من قِبَلِهم. فلماذا لا يفعل كامبون مثلهم؟ لقد صاغ كامبون فتواه على النحو التالي: إن الجزائر رغم احتلال

(1) مجلة العالم الإسلامي، .R.M.M، فيفري/ مارس، 1912، ص 32. انظر كذلك كتاب روش (32 سنة في الإسلام). ويقول ديبون وكوبولاني (الطرق الدينية الإسلامية)، الجزائر 1897، ص 37، إن ليون روش قدم بهذه الفتوى أكبر خدمة لنشر الهيمنة الفرنسية على الجزائر.

(2) رجع ليون روش من رحلته أو مغامرته سنة 1842، وكتب الأمير رسالته (حسام الدين) سنة 1843.

الفرنسيين لها، تبقى بلاداً إسلامية. كما أن كل بلاد إسلامية يحتلها الكفار تبقى بلاداً إسلامية إذا سمحوا لأهلها بإقامة شعائرهم، وليس على هؤلاء المسلمين إذن واجب الجهاد، لأن بلادهم، والحالة هذه، لم تعد دار حرب، إذا كانوا عاجزين على تحقيق الانتصار.

وتتكون فتوى كامبون من مقدمة وثلاثة أسئلة. أما المقدمة فهي: إذا كان الكفار (الفرنسيون) قد احتلوا أرضاً إسلامية، ولكنهم لم يضعوا أية عراقيل لممارسة المسلمين ديانتهم ـ بل هم يشجعونهم على القيام بشعائرهم الدينية، ويعيّنون القاضي منهم لينفذ أحكام الشريعة، ويخصصون لهذا القاضي راتباً شهرياً، فهل يجب على المسلمين:

1) أن يهاجروا أو لاَ؟ 2) هل يدخلون في حرب ضد الكفار لينتزعوا منهم السلطة، ولو كانوا غير متأكدين من أنهم يملكون القوة لتحقيق الانتصار عليهم؟ 3) هل المكان المحتل من قبل الكفار يعتبر أرضاً إسلامية أو أرض حرب؟

وتزعم المصالح الفرنسية أن المفتين بالمذاهب الثلاثة في مكة المكرمة: الشافعي والحنفي والمالكي قد أجابوا بما يرضي الفرنسيين، وهو أن الأرض المذكورة (الجزائر) لم تعد دار حرب. وأن الجهاد أصبح غير واجب على أهلها ما داموا غير قادرين على تحقيق الانتصار على عدوهم وما دام العدو نفسه قد ترك لهم حرية العبادة. وقد علق ديبون وكوبولاني على الفتوى بأنها ذات قيمة كبيرة لأنها سمحت لفرنسا باستعمال الجزرة والعصا، كما أن النص المطاط قد أعطى لفرنسا حججاً يمكنها استعمالها لصالحها[1]. ونحن لا ندري كيف اطلع علماء مكة على الفتوى؟ هل وجد جول كامبون شخصية أخرى كشخصية الجاسوس ليون روش؟ أو استعمل بعض الحجاج الجزائريين فقاموا له بالمهمة؟[2].

---

(1) ديبون وكوبولاني، مرجع سابق، ص 37.

(2) سنذكر أن شخصية غريبة أخرى، وهو كورتيلمون، قد استعمله كامبون في مهمة إلى=

أما القول بأن الفرنسيين قد سمحوا للجزائريين بالحرية الدينية ففيه تمويه كبير. والذي يطلع على ما فعلوه في المساجد والأضرحة والزوايا، ومع الاحباس ورجال العلم والدين، ومع الطرق الصوفية، وتشجيع الخرافات ومنع تفسير القرآن، وتحريم أبواب من الفقه على المدرسين[1]... يعرف أن تلك الحرية غير موجودة. كما أن الحج كان ممنوعاً في كثير من المواسم، وأن الأعياد الدينية كانت غير رسمية وغير شرعية، عدا عيدي الفطر والأضحى، ولكن أي عيد؟ أما القضاة المسلمون فقد انتزع القضاة الفرنسيون صلاحياتهم ما عدا الأحوال الشخصية.

ومنذ هذه الفترة (حوالي 1893) ظلت حدود الجزائر مغلقة في وجه الهجرة نحو الشرق. لقد ارتاع الفرنسيون من كثرة المهاجرين من إقليم قسنطينة عندئذ. فاستصدروا الفتوى المذكورة وأغلقوا الحدود ومنعوا الحج إلا استثناء، خوفاً فيما يبدو من حركة الجامعة الإسلامية ودعاية السلطان عبد الحميد في أوساط المهاجرين. ونحن وإن كنا سنعرض للهجرة نحو المشرق في فصل آخر[2]، فإننا نذكر أن فكرة الهجرة ظلت حية عند الجزائريين رغم كل القيود والفتاوى. ولذلك كتب ألفريد لوشاتلييه سنة 1907 مستنكراً سياسة بلاده هذه قائلاً إن هناك «سياسة سرية» تقوم على التوازن السياسي للجزائر الأهلية بإبقاء حدودها مغلقة مع العالم الخارجي. وحذر من أن الشعوب تحتاج إلى الهواء وأن فرنسا قد خرجت من الباستيل. وكان من رأي لوشاتلييه أن على فرنسا أن تستعمل المهاجرين الجزائريين (وعددهم حوالي خمسين ألفاً، كما قال) في المغرب وسورية لصالحها[3]. وكأن هذا الكاتب كان يتنبأ، لأن سنة 1910 و1911 قد شهدت هجرات

= الحجاز خلال هذه الظروف. وقد استعان كورتيلمون بأحد الحجاج الجزائريين.

(1) انظر فصل السلك الديني والقضائي.

(2) انظر فصل المشارق والمغارب.

(3) مجلة العالم الإسلامي، 1907، ص 512، اسم لوشاتلييه مشار إليه فقط بالحروف: A.L.C.

جماعية من الجزائر. وقد أعطى أوغسطين بيرك تواريخ بارزة للهجرة إلى الشرق. وكانت الأسباب ترجع في نظره إلى الغيرة والخوف على الدين، والغضب من القضاء على الصناعات المحلية وطغيان الصناعات الأوروبية، والخوف من فرض التجنيد، الخ[1].

أما الهجرة إلى فرنسا فتاريخها يرجع إلى أوائل القرن العشرين فقط، وكان منطلقها في البداية هو زواوة، وأسبابها، كما يقول الفرنسيون ديموغرافية، واقتصادية، بخلاف الهجرة نحو المشرق فأسبابها، كما عرفنا، كانت سيكولوجية واقتصادية ودينية. ففي آخر القرن الماضي زاد عدد السكان الجزائريين كما زاد عدد المهاجرين إلى المدن من الأرياف، فوجدوا نقصاً في المواد الصناعية والاقتصادية والاجتماعية لاستقبالهم. فقصد بعضهم جنوب فرنسا، ثم رجعوا إلى الجزائر يقصون مشاهداتهم على الآخرين، فأخذ العدد يتكاثر كل سنة بين 1906 و1914 حتى كانت الحرب العالمية فجندت فرنسا كثيراً من العمال ونقلتهم إلى الجبهة الأوروبية. وهكذا، فمن حوالي خمسة آلاف عامل مهاجر سنة 1912 إلى أكثر من 78 ألف عامل مهاجر سنة 1918[2]. ولكن مسألة الهجرة إلى فرنسا لا تهمنا هنا رغم عواقبها السياسية والاقتصادية والثقافية.

ومنذ أوائل هذا القرن أصبح بعض الجزائريين يهاجرون من أجل العلم ثم العودة في غالب الأحيان. لقد لاحظ محمد بيرم خلال السبعينات أن طلب العلم كان أحد أسباب الهجرة التي لا يعود أصحابها بعدها إلى الجزائر. أما المهاجرون في طلب العلم منذ القرن العشرين فكانوا غالباً

---

(1) أوغسطين بيرك مجلة (هيسبريس)، 1948، ج 35، ص 16. ولا يذكر الفرنسيون إلا قليلاً قوانين انتزاع الأراضي الباقية من الجزائريين منذ 1871 وهجرة الألزاسيين إلى الجزائر، وكلها ساهمت في حالة الفقر.

(2) جان قانياج (شؤون شمال إفريقية)، 1930 ـ 1956، باريس، 1972. وكذلك ج.ج. راجي Ragie «المسلمون الجزائريون» في (مجلة البحر الأبيض)، عدد 2، سنة 1950، وصفحات المقال كله 169 ـ 190.

يغيبون مؤقتاً ثم يعودون بعلمهم. وأما العمال الذين كانوا يذهبون إلى فرنسا فقد كانوا في البداية يترددون على الجزائر، ثم أصبحوا يطيلون الإقامة ويستقّرون في فرنسا. ومهما كان الأمر فإن الهجرة لم تعد تثير الجدل القديم بين العلماء حول وجوبها أو عدمه، وأصبحت هجرة في أغلبها من أجل العلم والعمل والحرية السياسية[1].

الاندماج، التجنس، النخبة

كثر الحديث عن الاندماج أثناء الاحتلال حتى كادت الكلمة تفقد مدلولها بل غاب معناها عن الأذهان أحياناً. فما هو الاندماج وهل تطور معناه؟

ترددت الكلمة كثيراً خلال القرن 19 في الصحف والنشرات والخطب الفرنسية. وكان المقصود بها عندئذ تطبيق النظم الفرنسية على فرنسي الجزائر من إدارة وتعليم وقوانين وانتخابات، وما إلى ذلك، بحيث يشعر الفرنسي في الجزائر كأنه في فرنسا نفسها. وبمعنى آخر دمج الفرنسيين (والمتجنسين الأوروبيين بالجنسية الفرنسية) في مجتمعهم الفرنسي بكل ما عليه وكل ما فيه. ولذلك بادرت الجمهورية الثانية (1848) إلى ربط المصالح الإدارية في الجزائر بمثيلاتها في فرنسا بالنسبة للفرنسيين فقط، فإدارة الداخلية في الجزائر أصبحت تابعة لوزارة الداخلية في فرنسا، وإدارة التعليم تابعة لوزارة التعليم، وهكذا. أما بالنسبة للجزائريين فقد بقي الأمر على ما هو عليه، فكانت تحكمهم إدارة عسكرية تابعة مباشرة لوزارة الحربية بفرنسا.

وكان مصدر التوتر الذي حدث بين المدنيين والعسكريين الفرنسيين، هو أن الحكم الفرنسي كان عسكرياً منذ الاحتلال. فالحكم كان في يد الحاكم العسكري وكان يساعده حكام الأقاليم، وهم عسكريون، وتحتهم المكاتب العربية وهي عسكرية. وتبعاً لذلك كانت المحاكم عسكرية ومدنية،

(1) عن دور المهاجرين في المشرق وعلاقاتهم بالجزائر انظر فصل المشارق والمغارب.

والضرائب تجبى بطريقة عسكرية، والقوانين كلها تنفذ تحت إشراف الحاكم العام. وكانت الجزائر في حالة حرب مستمرة. وقد أحس المدنيون الفرنسيون (الكولون) أنهم بذلك كانوا يعاملون معاملة (الأندجين) أو الأهالي، فأخذوا يطالبون بتطبيق القوانين المدنية عليهم وخضوعهم لما يخضع له مواطنوهم الفرنسيون في بلادهم، وفصلهم في المعاملة عن الأهالي. ويعتبر موقف الجمهورية الثانية المذكور تنازلاً كبيراً لهم، وهو الأول من نوعه. وبعد عشر سنوات (1858) وقع تنازل آخر أو تجربة أخرى حين جرب نابليون طريقة الحكم المباشر للجزائر فألغي منصب الحاكم العام وأنشأ وزارة مدنية في حكومته، وأنشأ في الجزائر مجالس الولايات، ولكن التجربة لم تدم سوى سنتين ثم أعاد منصب الحاكم العام العسكري وأبقى على مجالس الولايات. ولكن الكولون ظلوا في صراع مع الجنرالات، وازداد الصراع حدة حين كثر الحديث عن مشروع المملكة العربية أو إعطاء الجزائريين «ذاتية عربية» رشح لها نظرياً الأمير عبد القادر.

وقد انتهى الصراع لصالح المدنيين على إثر سقوط نابليون وتغيير النظام إلى جمهوري. فمنذ 1870 حصل «الاندماج» الكلي بين الجزائر وفرنسا بالنسبة للكولون، فقد أصبحت مصالحهم مرتبطة مباشرة بالوزارات المعنية في بلادهم، وأصبح لهم نوابهم في البرلمان كمواطنيهم، وخضعوا لكل ما خضع له هؤلاء من قوانين. فكانت عملية الاندماج كاملة، وقد أطلق عليها أحياناً (خلال الثمانينات) اسم «الإلحاق» ثم كللت عملية الاندماج هذه سنة 1898 بإنشاء الحكم الذاتي المالي. أما الجزائريون فقد اختلف وضعهم، ففي المناطق المدنية حيث الفرنسيون والنظام البلدي، خضعوا لقانون الأندجينا، وفي المناطق المسماة مختلطة أو عسكرية، كان الحكم في يد المكاتب العربية كالسابق.

وفي هذه الأثناء ـ بعد السبعينات ـ بدأ الحديث عن «إدماج» الجزائريين في المجتمع الفرنسي: هل هو ممكن؟ وبأية وسائل؟ بعضهم ظهر له أن الجزائريين لا يمكن دمجهم لاختلاف العادات والتقاليد وللأصول والدين

وكونهم، عند البعض، غير قابلين للتعلم والتقدم والتمدن. وظهرت عندئذ نظريات تقول إن الجزائريين ليسوا سواء في ذلك، فمنهم من هو قريب من الفرنسيين وله قابلية الاندماج معهم، مثل الزواوة. وقد عاشت هذه النظرية بعض الوقت، ثم بدأت تختفي على أساس أن الدين الإسلامي قد وحّد بين الجزائريين، وهو يجعلهم غير قابلين للاندماج، مهما كان أصلهم[1]. وكان الرأي الآخر يقول بإمكان دمج الجزائريين بطرق عديدة، ولكن ببطء، وذلك عن طريق المدرسة الفرنسية، وتغيير الحالة المدنية، وإلغاء النظام القبلي، والتنصير إذا اقتضى الأمر، والزواج المختلط، والتجنس، والخدمة العسكرية، والهجرة إلى فرنسا، وغير ذلك من الطرق. ولكن المؤمنين بالرأي الأخير (إمكانية الإدماج) يرون أنه لا يمكن دمج كل الجزائريين بالمراسيم كما حدث في تجنيس اليهود سنة 1870، ولا بإعطاء الجزائريين حق الانتخاب العام والتمثيل النيابي، بل لا بد من المرور بفئة قليلة وبالتدرج وهي فئة النخبة المتخرجة من المدرسة الفرنسية والقريبة في تفكيرها ونمط عيشها من الفرنسيين. وهناك رأي ثالث كان يقول بضرورة إبعاد الجزائريين جميعًا عن المناطق التي يسكنها الفرنسيون وحصرهم في مناطق معينة في اتجاه الصحراء وفي نوع من المعسكرات أو المحتشدات أو المراكز السكنية حيث يظلون على نمط عيشهم القديم، على هامش الحضارة.

ويمكن القول إن الحديث عن إمكانية «الاندماج» الخاص بالجزائريين قد ظهر منذ 1891 على إثر زيارة لجنة التحقيق بقيادة جول فيري. فقد لاحظ وجود عناصر جزائرية بدأت تطالب بالحقوق وتؤمن بالتقارب مع الفرنسيين والاندماج في مجتمعهم. وهذه العناصر هي ما اصطلح على تسميته بالنخبة، ونحن نسميهم هنا «بالاندماجيين». وبينما كان أعيان المدن عندئذ يطالبون باحترام العادات والتقاليد الجزائرية، واسترجاع الأحكام للقضاة المسلمين، وتعليم اللغة العربية، وغير ذلك من المطالب التي كانت تهدف إلى الإبقاء

(1) عن هذه الآراء انظر الفقرات السابقة.

على الهوية الوطنية موازاة مع الهوية الفرنسية، كان الاندماجيون يكتبون عن إمكانات الاندماج مع الفرنسيين ويبحثون عن طرق التقارب بين الفرنسيين والجزائريين على أساس المستقبل الواحد والوطن الواحد. نجد ذلك في كتابات أحمد بن بريهمات والطيب مرسلي ولويس خوجة، خلال التسعينات[1]، ثم توسعت الدائرة وظهر فيها أمثال إسماعيل حامد، وأحمد بوضربة (الحفيد) وبلقاسم بن التهامي، والشريف بن حبيلس، وطالب عبد السلام وعباس بن حمانة[2]. ثم جيل كامل من النخبة المتفرنسة.

إن الاندماج هنا ليس هو بالطبع الاندماج الذي كان يتحدث عنه الكولون خلال القرن الماضي. إن ذلك النوع من الاندماج قد تحقق لهم كما أرادوا وأصبحت الجزائر «فرنسية» على مقاسهم. ولكن الذي لم يتحقق رغم إلحاح المنادين به، هو إدماج النخبة الاندماجية وبواسطتها، كما كانت تظن، كل المجتمع الجزائري بعد أن يصل، كما وصلت، إلى درجة النخبوية. وكانت قمة التعلق بهذا الاندماج هو مشروع فيوليت سنة 1936، وهو المشروع الذي أدى فشله إلى خيبة أمل الاندماجيين وفشلهم أيضاً. فقد رجع بعده بعضهم «إلى الشعب» مثل فرحات عباس ومن شايعه، وظل بعضهم متعلقاً بالأوهام مثل ربيع الزناتي وابن جلول. ودخل بعضهم في الأحزاب

---

(1) هناك أفراد تجنسوا قبل ذلك، ومنهم أحمد بن الفكون (انظر عنه فصل الترجمة)، ومرسلي وبوضربة وربما بلقاسم بن سديرة (ومن هذه العائلة وجدنا اسمي شارل ولويس بن سديرة). أما معارضو التجنس في القرن الماضي فيمثلهم المكي بن باديس وابنه حميدة وصالح بن بوشناق وسعيد بن الشتاح. عن ذلك انظر فصل السلك الديني وفصول التعليم.

وكذلك كريستلو (المحاكم)، ص 243. ومنذ 1900 كتب أبو بكر عبد السلام بن شعيب (وهو من المزدوجين) أن الاندماج مضر بالأغلبية من المسلمين. ودعا إلى «التقارب» وليس الاندماج، في بحث قدمه للمؤتمر الأول للسيكولوجية الكولونيالية، باريس 1900، انظر أيضاً قنان (نصوص)، 269.

(2) اعتبرنا عباس بن حمانة من الاندماجيين لأنه رضي بالتجنيد الاجباري وذهب ضمن الوفد الاندماجي إلى باريس سنة 1912.

الفرنسية ليندمجوا من خلالها، كالحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي، بل إن بعضهم دخل في الحزب الفاشيستي.

وقد وقفت جمعية العلماء ضد هذا النوع من الاندماج، وكان لموقفها صدى واسع وعواقب كبيرة لصالح الحركة الوطنية. فعندما نفى فرحات عباس وجود أمة جزائرية أجابه ابن باديس بعبارات زعزعت من كانوا يعتقدون أن هذه الأمة قد اندثرت فعلاً، وبنوا على ذلك أوهام الاندماج في أمة أخرى. «ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية [كما قال] ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، وهي لا تريد أن تندمج»[1]. ثم عرضت مجلة (الشهاب) بالتفصيل العوامل التي تجعل دمج الجزائر في فرنسا من المستحيل عملياً. وفي عدد لاحق نشر الشهاب قوله إنه «معتز بخطته، ثابت على مبادئه، وهو يتشرف بأن يكون ممثلاً للقومية الإسلامية الجزائرية.. التي لن تفنى ولن تزول.. هي حركة أمة تريد أن تحفظ لنفسها وتصون ذكرى أسلافها وتحتفظ بمميزاتها وتراثها العتيق»[2].

وفي نفس الاتجاه كتب الشيخ أبو يعلى الزواوي في جريدة البصائر يستنكر الفرنسة والتنصير والتجنس. ورأى أن استعمال الأيتام والصبيان لنشر الفرنسية والتنصير بينهم وتحضيرهم للتجنس سيجعلهم «منبوذين» فلا هم نصارى

---

(1) العبارة نشرت في الشهاب، إبريل 1936 تحت عنوان (كلمة صريحة) رداً على فرحات عباس دون ذكره بالاسم. وقد اختلفت الآراء حول صاحب الكلمة. وكان المعتقد (وهي غير موقعة) أن صاحبها هو الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى أن نشر الشيخ أحمد توفيق المدني الجزء الثاني من مذكراته وفيه الكلمة الصريحة على أنها له. وكان الشيخ المدني يحرر في الشهاب بعض الأبواب. وجاء في كتاب محمود قاسم عن ابن باديس (الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائري) ص 156، أن ابن باديس تحدث عن نفسه بأنه هو الذي كتب الكلمة. وما تزال المسألة بين أخذ ورد. ومهما كان الأمر فقد هاجم الفرنسيون عندئذ ابن باديس من أجلها عدة مرات، ولم ينكرها أو يعدل منها، ولم يتبنها أحد غيره عندئذ.

(2) البصائر، عدد 19، نوفمبر 1937.

ولا هم مسلمون. واعتبر الحكومة الاستعمارية حكومة «مبيدة ومهلكة»، لأن «العرب الأهالي مجردون من كل سلاح مادي وأدبي، ومنعوا من خصائص الإنسانية من الاجتماع والنطق والكتابة، ولا حرية لهم في ذلك»[1].

إن الفكر الاندماجي لم يمت عند بعض الجزائريين فقد بقي حتى بعد الاستقلال ولكنه اتخذ غطاء آخر كالتمسك باللغة الفرنسية وعملية التثاقف المستمرة عن طريق الزيارات ووسائل الإعلام والزواج والبحث العلمي.

* * *

وهناك علاقة بين التجنس والاندماج. وقد كان الجزائريون قبل 1865 محتلين تعترف لهم الدولة المحتلة بدينهم وعاداتهم، لكنها لم تكن تعترف لهم بجنسية ولا يتمتعون عندها بحق المواطنة. وفي 1865 صدر مرسوم ينص على أن الجزائريين رعايا فرنسيون يدينون بالإسلام، ولكن ليس لهم حقوق في المواطنة الفرنسية. ومن ثمة لا يتمتعون بالحقوق المدنية كحرية الاجتماع والصحافة والتعبير، ولا بالحقوق السياسية كالانتخاب والترشح للوظائف السامية. ذلك أن المواطنة الفرنسية في نظر الفرنسيين غير متلائمة مع الشريعة الإسلامية، والمسلم الذي تحكمه الشريعة لا حق له في المواطنة سواء كان مثقفاً أو جاهلاً، غنياً أو فقيراً. ولكن يمكنه أن يصبح مواطناً فرنسياً إذا ما تخلى طواعية عن أحكام الشريعة الإسلامية ودخل تحت طائلة القانون الفرنسي، ولا سيما في أحكام الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والإرث والوصايا. ورغم ما يبدو في هذا المرسوم من إغراء بالتمتع بالحريات المدنية والسياسية والمواطنة، فإن الجزائريين فضلوا البقاء على حالة الرعية تحت أحكام الشريعة الإسلامية مع الحرمان من تلك الحقوق ومع تعسفات قانون الأهالي التي لا وصف لها، لأن التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية كان يعني الخروج عن الدين، وهو الردة والكفر عند المسلمين، وهو (التجنس) في مصطلح ذلك الوقت.

وإذا كان التجنس قد رفضه المسلمون عموماً فقد كان غير محبب عند

---

(1) البصائر، عدد 31، 1367 هـ، وقد نشر ذلك أيضاً في كتابه (جماعة المسلمين) ص 58.

الكولون أيضاً. ذلك أنه يعني عندهم منافسة «الأهالي» لهم في حقوقهم الكثيرة، ويعني ذلك أيضاً أن ثلاثة ملايين من الأهالي (سنة 1865) سيطغون على حوالي خمسمائة ألف من الأوروبيين (نصفهم من الفرنسيين) وبذلك سترجع الجزائر إلى الأهالي بحكم الأغلبية والمواطنة. فكانت معارضة الكولون شديدة للتجنس الفردي للمسلمين، وكانت أشد من ذلك بالنسبة لتجنسهم الجماعي. وكانت هذه من القضايا التي التقي فيها رفض الجزائريين ورفض الكولون، ولكن لدوافع مختلفة.

غير أن التجنس الفردي، قد حدث. وكانت له شروط ضيقة لا تسمح لكل راغب أن يحصل عليه. وأهم الشروط هي الولاء المطلق لفرنسا وخدمتها والتثقف بلغتها، وحيازة الملكية، وحسن السيرة والسلوك في نظر الفرنسيين. وبناء على ذلك لم يتقدم أو بالأحرى لم يحصل على المواطنة الفرنسية إلا عدد ضئيل جداً بين 1865 و1914[1]. وإلى جانب الشروط القانونية، ومعارضة الكولون، هناك معارضة الرأي العام الجزائري للتجنس أيضاً. فقد كان الرأي العام يسمى المتجنس (المطورني) أو المرتد عن دينه، وكان المتجنسون منبوذين في المجتمع المسلم، سيما وأن الذين تجنسوا كانوا من صنف معين في الغالب، وهم أولئك الذين خدموا في الجيش الفرنسي، أو عملوا في مصالح الترجمة في الإدارة أو الجيش أو المحاكم، أو من الذين تخرجوا من مدارس الآباء البيض.

وبعد ضغط الرأي العام ضد التجنس وظهور حركة الأمير خالد التي بنت مطالبها على نيل الحقوق السياسية (المواطنة) دون التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، تراجع التجنس أيضاً، وأصبح الذين يرغبون فيه يشترطون عدم مطالبتهم بالتخلي عن الشريعة أسوة باليهود الذين حصلوا على التجنس

---

(1) حسب إحصاء سنة 1876 كان عدد المتجنسين سبعة عشر فرداً فقط. وبين 1865 ـ 1874 بلغ عدد المتجنسين ٤٥٨ فرداً. انظر (حكومة ألبير قريفي)، ص 36، وكذلك (حكومة الجزائر العامة) في عهد الجنرال شانزي، الجزائر 1877، ص 9 ـ 14.

بالجنسية الفرنسية أو المواطنة دون شروط. ومن جهة أخرى كان الكولون، كما ذكرنا، يخشون من التجنس الجماعي للمسلمين لأنه يحرمهم (الكولون) من امتيازاتهم كأقلية محظوظة، ولذلك استمروا في معارضتهم الشديدة له. وكان لهم دور في إفشال مشروع فيوليت الذي قام على إعطاء المواطنة الفرنسية للنخبة فقط دون مطالبتهم بالتخلي عن الشريعة الإسلامية.

وخلال الثلاثينات وقف زعماء جمعية العلماء ضد التجنس مطلقاً سواء للنخبة فقط أو لكل الجزائريين. وقد اشترك في ذلك الشيوخ: ابن باديس والإبراهيمي والعقبى والميلي والتبسي وغيرهم. وهاجموا أيضاً محاولات التأثير علـى علماء تونس ليفتوا بإباحة التجنس، مثل الشيخ الطاهر بن عاشور الذي قيل إنه مال إلى ذلك، وقد اشترك في الهجوم عليه ابن باديس والإبراهيمي والعقبى. وظهرت ردود ضد التجنس من علماء الزيتونة وعلماء القرويين. وقد أفتى هؤلاء جميعاً بأن المتجنس مرتد عن دينه، وأن حكم المرتد هو الكفر، ومن ثمة لا يمكن للمتجنس أن يرث أو يدفن في مقابر المسلمين ولا أن يتزوج على طريقتهم، وإن ذلك يسري على أولاده، وإذا أراد التوبة فعليه أن يخرج من البلاد التي دخل في قوانينها وأن يعلن توبته صراحة.

وبالطبع لم ترض هذه الفتوى التي اشتهر بها ابن باديس (سنة 1938) الفرنسيين ولا الراغبين في التجنس. فقد ثارت ثورتهم ضد ابن باديس وضد جمعية العلماء، واعتبروا المسألة سياسية. وأطلقوا العنان لصحفهم ضد الفتوى وصاحبها. وكان ابن باديس فيما يبدو يقصد ذلك، أي أنه كان يعلن عن موقف سياسي/ ديني يحفظ للجزائر هويتها. وقد صدرت تلك الفتوى في وقت كانت فيه فرنسا تجمع شتاتها وتجند أتباعها لمواجهة الموقف الدولي المنذر بالحرب. ولذلك اتهمت حتى جمعية العلماء بأنها كان تعمل لحساب الفاشيست والدول الخارجية[1].

(1) انظر البصائر، 19 نوفمبر 1937.

وقد سلطت فرنسا مختلف الوسائل ضد الجمعية ورجالها الذين أفتوا ضد التجنس والاندماج. وحركت ضدها بعض المتجنسين أيضاً. وقام الحاكم العام (لوبو) سنة 1937 بعزل إمام جامع دلس، لأنه رفض الصلاة على أحد المتجنسين، (واسمه أوسعدة)، فجاء رئيس جمعية المتجنسين في الجزائر، ويدعى سعدى أواكلى، ليؤيد الحاكم العام في ذلك، ويعلن أن أمثال هذا الإمام كان يؤمن بوطنية بعيدة عن الجزائر، وهي الحركة الإسلامية، وأعلن أواكلي أن أوسعدة كان شاوشاً في بلدية دلس وأنه قد خدم فرنسا بإخلاص[1]. وكتب السيد مهندس يستنكر أعمال «جمعية العلماء التخريبية» وقال إنها انقسمت بين المتطرفين المتعصبين بقيادة ابن باديس والواقعيين العقلاء بقيادة العقبى (انظر مسألة البرقية)، وأن ابن باديس وأنصاره لم يحركوا ساكناً أمام الخطر الذي كان يتهدد الحضارة العالمية (يعني الوقوف ضد هتلر وموسوليني) وأنهم ظلوا متمسكين بفكرة الجهاد الذي يعني في الجزائر الحرب الأهلية[2]. وبعد سنة، بل عشية الحرب (يونيو 1939) كتبت نفس المجلة بأن جمعية العلماء والحركة المصالية هما العدوان الحقيقيان لفرنسا في شمال إفريقية. لقد أكدت كتابات ابن باديس أن الجزائر لن تكون فرنسا وأن المتجنسين خارجون عن الدين. وهاهم (أنصار ابن باديس) ينادون يومياً بالثأر للإسلام[3].

ومهما كان الأمر فإن قانون التجنيس المشروط بالتخلي عن الشريعة الإسلامية قد ألغى سنة 1947، وجاء في القانون الجديد أن الجزائري مواطن فرنسي مع المحافظة على الحالة المدنية الإسلامية، وأصبح الجزائري منذ 1947 يدعى «فرنسي مسلم» بدل «رعية فرنسي». ولا شك أن ذلك يعتبر

---

(1) إفريقية الفرنسية .A F، ديسمبر 1937. انظر أيضاً ما كتبناه عن الاندماجيين في فصل آخر.

(2) إفريقية الفرنسية، نوفمبر 1938. واضح أن السيد مهندس كان يستفز الإدارة لاتهام العلماء بالخيانة والفتنة.

(3) نفس المصدر، جوان 1939.

هزيمة لأنصار الاندماج عن طريق التجنس وانتصاراً لأنصار الهوية الوطنية والمحافظة على الذاتية الإسلامية، كما يسميها ابن باديس.

ومع ذلك فإن الإحصاءات تدل على «تقدم» التجنس بل ومضاعفة عدد المتجنسين بين الحربين. وإليك ما نشره علي مراد في الموضوع بين 1920 1938[1]:

السنة	عدد المتجنسين	السنة	عدد المتجنسين
1920	17	1930	152
1922	56	1932	127
1924	29	1934	155
1926	67	1936	142
1928	38	1938	190

* * *

أما الزواج المختلط فقد كان موجوداً، كماعرفنا، ولكنه كان محدوداً، فقد وجد بين الجزائريين والفرنسيات حتى قبل الاحتلال، كما رأينا في حالة أحمد بوضربة. وبعد الاحتلال بدأ يشيع بين الذين وظفهم الفرنسيون من الحضر، مثل مصطفى بن عمر وحمدان بوركايب. ثم أخذ يشيع بين بعض القادة الدينيين مثل زواج أحمد التجاني من أوريلي بيكار، وزواج الآغا

(1) المصدر: علي مراد (الإصلاح الإسلامي)، ص 405 عن إحصاءات الحكومة العامة بالجزائر، سنوات 1920 ـ 1938. ويقول علي مراد إن ربيع الزناتي كان بطل الدعوة إلى الاندماج منذ 1929، وإنه اعتبر الاحتفال المئوي بالاحتلال (1930) هو عيد 14 يوليو (الفرنسي) بالنسبة للجزائريين، لأنه رمز للتحرر ونيل الحقوق والحرية من الاستبداد. ونرى أن العدد الاجمالي للمتجنسين كان ضئيلاً بالنظر إلى حجم السكان.

حمزة بن بو بكر من أولاد سيدي الشيخ من فيريFERET ابنة قائد مشاة فرنسي. وزواج عبد القادر بن داود (زعيم الدوائر) من تيريز ماس[1]. وبالطبع هناك فئة الاندماجيين الذين تزوجوا في أغلبهم من فرنسيات أمثال ابن التهامي، وبوضربة (الحفيد) ومرسلي. وقد ذكرنا ذلك في محله. ومنذ الحرب العالمية الأولى شاع الزواج المختلط أيضاً بين الطلبة الدارسين في فرنسا والفرنسيات والعمال العاملين هناك، ومنهم فرحات عباس ومصالي الحاج وابن نبي وسعدان. وفي نفس الوقت تزوج الفرنسيون بعض المسلمات، ومنهم من أسلم من أجل الزواج منهن، ولكن بعضهم تزوج مسلمات دون أن يتخلى عن دينه. ومن الصنف الأول توماس (إسماعيل) عربان الذي تزوج امرأة مسلمة من قسنطينة، وكان قد اعتنق الإسلام في مصر. وقد قيل إن العقيدين: بيليسيه، ودي نوفو، قد تزوجا من مسلمتين. وتدل الإحصاءات المتأخرة على أن الزواج بين المدنيين الفرنسيين والمسلمات كان شائعاً أيضاً.

وإليك بعض الإحصاءات:

1) بين المسلمين والفرنسيات هناك 483 حالة خلال سنوات 1930 ـ 1953، موزعة هكذا: عنابة 96 حالة، قسنطينة 83 حالة ما بين 1932 ـ 1953؛ ووهران 75 حالة خلال سنوات 1939 ـ 1953؛ والعاصمة 229 حالة خلال نفس المدة.

2) بالنسبة لزواج المسلمات بالفرنسيين هناك مجموع 250 حالة منها 28 في عنابة خلال 1930 ـ 1953، و30 حالة في قسنطينة خلال 1932 ـ 1953، و39 في وهران خلال 1939 ـ 1953، و53 حالة في العاصمة خلال نفس الفترة.

---

(1) عن زواج حمزة بن بكر انظر هنري قارو «الحركة الإسلامية» في (مجلة الجزائر وشمال إفريقية) 1906، ص 174. وعن زواج عبد القادر بن داود انظر نفس المصدر، سنة 1907 مقالة لبوسكي عنه. انظر (التقويم الجزائري) للشيخ كحول سنة 1912 عن زواج إبراهيم بن عبد الجليل شيخ زاوية دلول الطيبية، فقد تزوج فرنسية وهي ابنة مدير الضرائب ،أثناء سياحة إبراهيم في فرنسا.

3) أما في فرنسا فهناك حوالي 400 حالة زواج مختلط و5000 معاشرة حرة (خليلات) بين المسلمين والفرنسيات.

وبناء على صاحب الإحصاء فإن من بين «عراقيل» الزواج المختلط وجود التعصب الديني، ويسميه الكاتب العنصرية الدينية. كما أبدى ملاحظة أخرى وهي أن أطفال الزواج المختلط يتمتعون بذكاء أكبر وبصحة أجود من غيرهم[1].

هناك علاقة وطيدة بين التجنس والمدرسة الفرنسية، وبين الزواج المختلط والتجنس، وبين هذه جميعاً والاندماج، ونعني بذلك الاندماج كما أصبح معروفاً عند الفئة المعروفة بالنخبة. أما الاندماج الذي سعى إليه الكولون فقد فازوا به كما ذكرنا، وهو الذي جعل «الجزائر الفرنسية» تعيش عندهم إلى سنة 1962.

الجزائر في الكتابات الفرنسية

الفرنسيون لم يكتشفوا الجزائر سنة 1830، فقد كتبوا عنها قبل ذلك في عدة مناسبات. وكانت بينها وبينهم معاهدات، وتبادل أسرى، وجوسسة، وتقارير قناصل، ورحلات. ولكن معظمها كانت علاقات من جانب واحد. فالفرنسيون هم الذين كانوا يكتبون (عدا المعاهدات)، أما الجزائريون فلا يكادون يتركون أثراً لأسراهم ولا لرحلاتهم، وليس لهم قناصل في فرنسا، وقلما تطلق فرنسا أسراهم ليقصوا ما حدث لهم. فالكتابات الجزائرية عن فرنسا تكاد تكون معدومة قبل 1830 بينما كتابات الفرنسيين عن الجزائر متوفرة. وهي كتابات تمثل عنها صورة غامضة ومشوهة، فهي مستوحاة من معاداة الغرب للشرق والتعصب الديني والتفوق المادي.

ومنذ الحملة انفسح المجال أمام الكتاب والفنانين والمؤرخين

---

(1) الدكتور مارشان في (مدخل إلى الجزائر)، ص 164. وذكر آجرون (الجزائريون..) 183/1 هامش 6، أنه لا يوجد رسمياً سوى 48 حالة عمّدتها الكنيسة في الزواج المختلط بين 1830 ـ 1870، ولكنه لم يوضح أي نوع من الزواج.

الفرنسيين ليكتبوا عن الجزائر، ولكن من وجهة نظر الغالب عن المغلوب، والمنتقم عن خصمه. وقد انكشف السر الجزائري الذي كان يحير الفرنسيين (والأوروبيين عامة) بعد سقوط الدولة وانتهاك البيوت وفتح الخزائن والاطلاع على العادات والتقاليد، ونمط العيش، والأسواق والطرقات، والمعاملات بشتى أنواعها. فنحن هنا لا نتوقع ولا نتحدث عن الموضوعية، ولكن عن الجزائر كموضوع للكتابة والإثارة والبحث. ومن المكابرة أن نقول إن الجزائريين كانوا في حالة يقظة وتقدم، فالحقيقة أن المفاجأة كانت متبادلة بين الفرنسيين والجزائريين، فلم يكن هؤلاء يتوقعون أن يحتل الفرنسيون بلادهم وأن يكشفوا عوراتهم ويعرفوا أسرار حياتهم، كما أن الفرنسيين فوجئوا بانتصارهم السهل على جيش الداي حسين وانفتاح أبواب القصبة في وجوههم، ووضع الخزينة بين أيديهم، وانسحاب الحراس من القلاع، وهروب السكان من بيوتهم. ومن حق الفرنسيين أن يتحدثوا عندئذ عن نشوة الانتصار وانكشاف الأسرار.

ولنقل منذ البداية أيضاً بأن احتلال الجزائر تصادف مع عنفوان الحركة الرومانتيكية في أوروبا وفرنسا. تلك الحركة التي بنت للناس عالماً من الخيال وجعلتهم يعيشون بعيداً عن الواقع القاسي الذي ولد مع الآلة والمصانع ورأس المال، وظلت الحركة مؤثرة إلى نهاية الامبراطورية بل كل القرن التاسع عشر. فأصبح هناك رومانتيكيون في كل المجالات في السياسة والاقتصاد والمشاريع والفنون والآداب. فقد أصبح الإنسان يعيش أو يموت من أجل حجر أو أثر بعيد. لقد أصبح ينشد عوالم غريبة عن طريق الأحلام. وكثير من المثقفين الفرنسيين الذين جاؤوا إلى الجزائر كانوا من هذا الصنف، بل حتى بعض قادة الجيش ورواد الإستيطان[1]. وقد وصف نابليون الثالث بأنه رجل رومانتيكي.

وليس من مهمة هذا الكتاب البحث في جميع الكتابات الفرنسية ومدى

---

(1) بيلي (عندما أصبحت الجزائر)، مرجع سابق، ص 268 ـ 267.

صدقها وحجمها وأثر الجزائر فيها، فذلك له مجال آخر. وغرضنا هنا هو تسليط الضوء ولفت النظر إلى أنواع الكتابات الفرنسية ذات الطابع الثقافي العام ومدى علاقتها بالواقع الجزائري. وقد عالج الفرنسيون أنفسهم هذا الموضوع بتوسع، وفي مختلف التخصصات: من الفن إلى الإدارة، ومن الشعر إلى التاريخ، ومن العلوم إلى التجارة. ونذكر هنا أن المدارس الفكرية التي ظهرت في فرنسا وأوروبا والتي كان لها صدى في الجزائر كثيرة، وقد أثر كل منها في مجموعة من الكتاب والفنانين، ولكنها قلما أثرت على الجزائريين إلا منذ أوائل هذا القرن. فقد كانت النظريات الاجتماعية والأنثربولوجية والأثنولوجية والدينية تجد صداها في الجزائر عند كتاب مرحلة اليقظة مثل ابن رحال، وابن الخوجة وابن سماية وابن بريهمات وعمر راسم.

يقول شارل تيار الذي عالج موضوع الجزائر في الكتابات الفرنسية، إن كتب الانطباعات كانت أول ما ظهر عن الجزائر. ويعني بذلك الكتب التي تتناول السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، والأحياء السكنية، وتناقضات الطبيعة في نظر الكتاب، وفتنة السماء والبحر، واختلاف المناظر «الإفريقية» عن المناظر الأوروبية. وقد راجت بعد ذلك الكتب التي تشرح للسواح طريقة الحياة في الجزائر والطقس ووسائل النقل والإقامة، وهي المعروفة بكتب (الدليل)، فلا أحد يزور الجزائر من الفرنسيين (والأوروبيين) دون أن يحمل في يده «دليلاً» يرشده، وقد زار الجزائر بعض كبار الكتاب والأدباء أمثال فرومنتان، وت. غوتتيه، وقونكور، وفلوبير، ودوديه، وفيديو، وبول بورد، وموباسان، وجان لوران، وغيرهم. وبعضهم اتخذ الجزائر مقاماً دائماً، وبعضهم زارها لسحرها الشرقي ثم عاد مبهوراً، وبعضهم جاء على نفقة الحكومة الفرنسية ليكتب بعد ذلك عن مشاهداته ويرغب الناس في الهجرة إليها، مثل الإسكندر دوما، وفيديو. والفنان فيرني، وبعضهم جاء الجزائر للفضول الأدبي والفني، سيما في فترة الحركة الرومانتيكية، أو للعلاج الصحي والنفسي، وأخيراً نذكر أن بعضهم قد جاءها

منفياً مثل المعارضين للجمهورية الثانية.

جـاء يـوجيـن فـرومنتـان الجـزائـر سنـة 1848. وزار السـاحـل والصحراء[1]. وذهب خصوصاً إلى بسكرة والأغواط. وأعجب بمضيق القنطرة حيث توقف معجباً بالشمس وليمتع نظره بالطبيعة الخلابة، وكان النسيم العليل يروح عنه ضوء الشمس. وألف بعد ذلك كتابه الشهير (صيف في الصحراء). وقد استعار منه أحد ناشري الأدلة وطبع صفحة جميلة مليئة بالضوء من كتابه في وصف واحة القنطرة. وكان وصفه للصحراء عامة، سيما بسكرة والأغواط من آيات الأدب الفرنسي في ذلك العهد. ومن الكتاب أيضاً لويس بيرتراند ذلك الرجل المتحمس جداً للاستعمار والمسيحية والرومنة، والذي يعتبره الفرنسيون مؤسساً لمدرسة الجزائر الأدبية (الفرنسية)، لقد كتب أيضاً صفحات أدبية مشرقة عن واحة القنطرة في كتابه (بستان الموت)، وكذلك خلدها الأديب الشهير أندري جيد في زيارته لها ولبسكرة. ويقول الدارسون إن ذلك كان بفضل وصف فرومنتان للقنطرة وصفحة الدليل المطبوعة عنها[2]. وقد أثرت الجزائر كثيراً في فرومنتان حتى أنه بعد أن رجع إلى الجزائر (العاصمة) وسكـن قصراً بناحية مصطفى باشا (أول مايو اليوم) صاح قائلاً إنه «مغمور بالألوان». وقد كتب أيضاً وصفاً شيقاً للقصبة. ولم يكن في ذلك وحده، فقد سحرت الجزائر بجمالها الطبيعي كثيراً من الكتّاب، بالظلال والألوان والهواء والشمس واختلاف المناظر. ومن أبرز الكتّاب الذين تغنوا بهذا السحر ألبير كامو صاحب رواية (الغريب) وغيرها من الروايات والأعمال الأدبية والفلسفية.

أما إيميل ماسكري فقد استوطن الجزائر منذ السبعينات وزار مختلف مناطقها وتولى عدة وظائف فيها، ومنها مدير مدرسة الآداب، قبل أن تتحول

---

(1) له كتابان مشهوران في الأدب الفرنسي، وهما (صيف في الصحراء) ط. 2، باريس، 1874، و (سنة في الساحل)، 1858.

(2) شارل تيار (الجزائر في الأدب الفرنسي)، ص 325، وكلمة «أدب» هنا تشمل أيضاً غير الأدب كالتاريخ والرحلات الخ.

إلى كلية. وقد زار أيضاً الصحراء وجبل الأوراس، وزواوة، وعرف الحياة البدوية والعادات التي لا تكاد تظهر إلا لمن دقق النظر وأكثر المعاشرة: الحفلات، والثارات، والأساطير، والألغاز، والأمثال، ونحو ذلك. وهو من الأوائل الذين كتبوا عن قبائل البربر في الأوراس ولباسهم ولهجاتهم وبقايا الآثار والتاريخ هناك. كما اهتم بالحياة الداخلية لسكان زواوة. وكان ينشر مقالاته في (المجلة الإفريقية) وفي (المراسل الإفريقي) وفي مجلة المناقشات (الديبا). ومن أبرز كتبه (ذكريات ورؤى إفريقية) الذي يعتبر من المؤلفات الأدبية الكلاسيكية اليوم في الأدب الفرنسي، وهم يقارنونه بفرومنتان[1]. وقد كتب ماسكرى أيضاً عن الأغواط والقصبة والجلفة وعين ماضي وسوف والصحراء عموماً.

ومن الموضوعات التي شغلت هؤلاء الكتاب، المرأة والعادات. فقد تحدثوا عن وضع المرأة الاجتماعي، وخلقتها ولباسها وأعمالها وأوقات فراغها، واهتموا بما أسموه بالحياة الريفية من فروسية ومرابطية وصفوف (عداوات). وألف يوجين دوماس كتاباً كاملاً عن (المرأة العربية) وآخر عن (الخيول العربية)، وقد جمع وثائقهما أثناء شغله لوظيفة رئيس المكتب العربي المركزي أو إدارة الشؤون الأهلية، في عهد بوجو. كما وصفوا عادات البربر في الجبال، وأشغال المرأة ومنظرها والأعراف السائدة والتطور الاجتماعي، وسجلوا انطباعهم عن الإنسان الحضري والبدوي. وكانوا في البداية معجبين بالإنسان البدوي «المتوحش»، والبربري «الخشن»، لأنهما في نظرهم قابلان للحضارة، وهما النموذجان اللذان يبحث عنهما علماء السلالات وأدباء الرومانتيكية، ثم تحول ذلك الإعجاب وأصبح النظر إليهما على أنهما نموذجان أهليان (أندجين) غير قابلين للتمدن وعدوين للفرنسيين بحكم التعصب الديني. واهتم الكتاب كذلك بالقهوة العربية والملابس والبازارات،

---

(1) أوغسطين بيرنار، المجلة الإفريقية، 1894، ص 350. وقد طبع (ذكريات ورؤى إفريقية) مرة أولى 1892، وثانية 1914، وتوجد كلمة بيرنار في ط. 2 من الكتاب أيضاً.

والأعياد الإسلامية والمواسم، مثل شهر رمضان، والدين الإسلامي، وزيارات القبور عند المسلمين وحياة الزوايا. ووصل الأمر بهم أن كانوا يقلدون حياة الحضر في اللباس وتدخين الغليون الطويل والشيشة التركية، والاسترخاء على الأرائك.

من الشعراء المعاصرين للحملة الفرنسية نذكر فيكتور هوقو، ولامارتين، وفينيه، وقد ظلوا صامتين عن أعمال الجيش في الجزائر والاستعمار، لأن فظائع الحملة كانت غير معروفة كثيراً للرأي العام الفرنسي. فقد كانت مشروعاً ملكياً (شارل العاشر وحاشيته)، وقد عارضها الليبراليون في البداية، ثم انطلقوا في تأييدها بعد قيام مملكة جويلية بزعامة لويس فيليب ونجاح الحملة والتأكد من عدم التدخل الخارجي. ويقول بعض الكتاب إن الحركة الرومانتيكية تركت كل واحد غارقاً في التأمل سابحاً في الخيال. والحملة لم تكن مشروعاً قومياً عند الفرنسيين، فلم يستقبل الجميع خبر الانتصار على الداي حسين بنفس الحماس، بل كانت هناك فترة تردد وتساؤل.

ثم اندفع الأدباء جميعاً في حملة عاطفية تشبه الحملة العسكرية. ويعني ذلك تأييداً للحكومة والجيش والاستعمار في الجزائر. وقد رجعوا إلى الماضي وتذكروا الحملات الفاشلة التي قام بها لويس 14 وشارلكان والإنكليز ضد الجزائر. وتذكروا الحروب الصليبية، ورجعوا إلى الكاثوليكية القديمة «الإفريقية»، وكانت وسائل الإعلام تنشر الوقائع والانتصارات على الجزائريين «العرب المسلمين»، وعلى الأتراك القراصنة الذين استرقوا الأسرى المسيحيين ووضعوا القساوسة في فوهات المدافع وأطلقوها. وأعيد طبع الكتب القديمة، وترجمت أخرى عن لغات أوروبية، وتحركت الغرائز والانتقام، وتجند الرأي العام مع الحكومة والجيش، وتلاشى صوت المعارضين للحملة والاستعمار.

وكان الشعر الفرنسي، مثل كتب الوصف والانطباع[1]، قد سجل أيضاً

---

(1) غبريال ايسكير «الشعر والحملة ضد الجزائر» (في المجلة الإفريقية، 1918.

حياة الشرق، وسجل بطولات الأبطال، ضد العرب وضد الهلال. وتابع الشعراء سير الحملات والمعارك في مختلف المواقع: سيدي إبراهيم، ايسلي، حياة الأمير عبد القادر، حياة العرب، القصبة، والمناظر الطبيعية، وسجن الأمير في أمبواز. وقد أخبر ايسكير أن أول شعر فرنسي كان يوم 11 يوليو 1830، أي ستة أيام بعد احتلال العاصمة. ثم أصبح هناك شعراء فرنسيون من مواليد الجزائر، ولهم دواوين ونقاد اهتموا بهم.

أما الرواية والقصة وما يشبههما فقد سجل الدارسون حوالي 200 رواية وقصة نشرت في الجرائد والمجلات إلى سنة 1925. وفي رأي هؤلاء الدارسين أن ذلك يشكل فقراً كبيراً، ولا يعتبرونه في مستوى الحدث الذي دام قرابة القرن. وفي نظر بعض النقاد أن الجزائر كانت ميداناً فسيحاً للروائيين ولكنهم لم يستغلوه، فلم تظهر لهم أعمال خالدة عبر التاريخ، وإنما كانت أعمالهم تسجيلات لبعض الأحداث العابرة والعواطف الساخنة في وقتها، كما لاحظنا في المسرحيات التي عالجت موضوعات ترجع إلى العهد العثماني أو عهد الأمير عبد القادر. وكان بالإمكان إنتاجُ روايات تاريخية، وأخرى شعبية، ورومانتيكية، ونفسية. غير أن الإنتاج الذي أحصوه لا يدل على هذا التنوع والثراء ولا على حسن الاختيار للموضوعات. أما الموضوعات نفسها فيذكر الدارسون أن الكتّاب قد رجعوا إلى الشخصيات التاريخية مثل سانت أوغسطين، وإلى الكنيسة الإفريقية، كما استوحوا موضوعات من العهد العثماني[1].

ومن الإنتاج الروائي ما كتبه (هوق لورو) بعنوان (رجل الساعة)، وهو يعني به الباشاغا الحاج محمد المقراني، وموضوع الرواية هو ثورة 1871، وشخصياتها كانت من وحي الوقت، وهي رواية تسخر من رجال الدين الجزائريين ومن الثوار، فقد خطفت بنت فرنسية هي ابنة شيخ البلدية، خطفها أحد المقدمين (مرابط)، وكان له تعليم مزدوج عربي/ فرنسي، وكان خلاص

---

(1) تيار (الجزائر..) مرجع سابق، ص 519.

البنت على يد فحام فرنسي وكاهن. وأما إطار الرواية فكله جزائري، لأن المؤلف نفسه كان من الكولون، وقد استغل حياة الريف، فالرواية لها نكهة الحياة الاجتماعية المحلية، وكانت الفرقة الفرنسية العسكرية نازلة في أيشريضن في 24 جوان 1871، وهناك لوحة عن استشهاد المقراني، ولوحة أخرى عن انعقاد مؤتمر للثوار، وغيرها. وعندما قدمتها المجلة الإفريقية قالت إنها رواية تجمع بين الحقائق التاريخية بأسلوب وتوليف أدبي مما جعلها رواية تاريخية وأدبية معاً[1].

كما كان للحملة الفرنسية مؤرخوها. حقيقة أن بعض الكتاب أخذ يكتب عن الجزائر منذ أقدم العصور في شكل لوحات معتمة. وكان الرأي العام لا يسأل عن الحقائق بقدر ما يهتم بالعجائب والأقاصيص. ويعتبر بيليسييه دي رينو أول من اهتم وأرخ ودقق في سير الحملة وما بعدها. ويعتبر كتابه (الحوليات الجزائرية) عند الدارسين محاولة «موضوعية» لتاريخ العشرين سنة الأولى من الاحتلال. وقد تمكن بيليسييه من الوثائق بحكم معاصرته للأحداث وتوليه المكتب العربي وقربه من مصدر القرار، وكذلك ساعده حسه التاريخي، وكان ضابطاً في قيادة الأركان للجيش، وعضواً في اللجنة العلمية، كما تولى قنصلية بلاده في تونس وطرابلس. وقد عاش في الجزائر اثني عشر سنة (1830 ـ 1842)، ويقال إنه عامل في كتابته ضباط الحملة لا على أنهم أبطال ولكن على أنهم بشر يخطئون ويصيبون. وكان له أيضاً أحكام على الجزائريين الذين اتصلوا أو عملوا مع الفرنسيين، وله بعض المواقف المشبوهة في حادثة تنصير المرأة عائشة بنت محمد سنة 1834، وإهانة المحكمة الإسلامية. ويعتبر من السان سيمونيين، وقد قيل إنه تزوج من جزائرية[2].

وفي نفس الفترة ألف كميل روسيه تاريخاً عن الجزائر. ويسمونه في

---

(1) المجلة الإفريقية، 1897، ص 119.

(2) ظهر كتابه (الحوليات)، ط. 1، 1854. انظر الحركة الوطنية، ج 1.

زمنه مؤرخ الجزائر. ويقول نقاده إنه أخذ أفكاره عن غيره وهي أفكار جاهزة، بل أخذ نصوصاً كاملة، وإنه أخفى مراجعه المطبوعة فلم يشر إليها. وكان روسيه قد بدأ بنشر كتابه في مجلة (العالمين). ثم ألف ألفريد نيتمون تاريخ احتلال الجزائر، ثم (طابلو) عن الاحتلال أيضاً إلى 1848، اختصر فيه الكتاب الأول تقريباً. كما أخذ بعضهم جوائز على التأريخ للجزائر والحملة. ومنهم أيضاً ثورو ـ دانجون الذي أرّخ لمملكة جويلية، ثم توالت كتب «التاريخ» الفرنسية في عهد نابليون الثالث. وتولى العسكريون في أول الأمر مسؤولية الكتابة، ثم جاء المدنيون مع تأسيس نواة الجامعة في الثمانينات. ومن أبرزهم في القرن العشرين: ايسكير، وايمريت، وايفير، وأزان (وهو عسكري)، وغزال، وجوليان، إضافة إلى من أرخ للجزائر في مختلف العصور[1]. أما ما يسمى «بالتاريخ الشعبي» فهو غزير، وكان مطلوباً للرأي العام الفرنسي الذي كان يتطلع إلى المعرفة، فألفت له كتب عن بوجو والأمير وأخرى عن المعارك والتهدئة، وبعضها عن الطرق الصوفية، وأخرى عن القبائل العربية والبربرية، والحضارات القديمة، وعن الإسلام، ثم عن الاستعمار وأنصاره من كلوزيل إلى بوجو، إلى ليوتي[2]. أما الشعب الجزائري فقد كان غائباً في الكتابات الفرنسية، فهو موضوع ولكنه غير مخاطب بأي خطاب، فكان الحديث عنه وليس له.

كنا تحدثنا عن إيزابيل ايبرهارد في مناسبات أخرى مثل الطرق الصوفية، وذلك لعلاقتها بالقادرية أوائل هذا القرن. وكان مجيئها إلى الجزائر يغطيه غبار كثيف، هل هو للجوسسة لصالح ألمانية كما أشارت الأجهزة الفرنسية؟ هل هو لمعرفة قتلة الماركيز دي موريس Morres؟ هل هو للشهوة الجنسية والمغامرة؟

---

(1) خلاصة ذلك في (التاريخ ومؤرخو الجزائر) الذي نشر بمناسبة الذكرى المئوية للاحتلال 1930، واشترك فيه مجموعة من الكتاب، وكذلك عدد الذكرى المئوية من (المجلة الإفريقية) سنة 1956.

(2) تيار (الجزائر..) مرجع سابق، ص 302 وما بعدها.

لكننا نذكرها هنا باعتبارها من الأديبات غير الفرنسيات اللائي كتبن بالفرنسية وتأثرن بالجزائر والإسلام غاية التأثر أول هذا القرن. وقد نشرت كتاباً عن الإسلام ومقالات في جريدة الأخبار وغيرها، وكانت حياتها، رغم جوانبها الغريبة، مأساة مما جعلها موضوعاً للأدب والأدباء والمهتمين بالصحراء والمخاطرة وبالطرق الصوفية ومؤامراتها. وكان الفرنسيون وراءها خطوة بخطوة حيثما حلت، وسواء لبست لباس الفتيان أو لباس الفتيات، وسواء كانت عاقلة أو مجنونة، في الصحراء أو في المدن[1].

ولدت إيزابيل في جنيف (سويسرا) من أصول ألمانية وروسية، سنة 1878. وسكنت باريس، وحملت جواز سفر روسياً صادراً من موسكو. وكانت قضية دي موريس طاغية على أخبار فرنسا[2]، واعتقد البعض أن المعادين للسامية كانوا وراء السكوت عن قتله. فأبدت إيزابيل استعدادها لمساعدة أنصار موريس في البحث عنه. وكانت تعرف العربية، وأعلنت أنها صحفية، ونزلت في تونس، ولبست الحائك البدوي ثم ارتدت لباس الفتيان، وامتطت الحصان، وظهرت كأنها فارس عربي شاب. وتثبت بعض الوثائق الفرنسية أنها جاءت من العاصمة إلى بسكرة ثم منها إلى تقرت، ونزلت فندق الواحات سنة 1899، وكان عمرها عندئذ اثنين وعشرين سنة. ومن هناك ذهبت إلى وادي سوف في قمة الصيف والحر، 31 يوليو من نفس العام، (وفي وثيقة أخرى في 31 يوليو 1900).

وفي رسالة لها إلى (لاديباش ألجيريان) بتاريخ 29 يناير 1901 نشرت في 4 جوان (يونيو) من نفس السنة، أنها اعتنقت الإسلام، وزارت الوادي لأول مرة في صيف 1899، وكانت عندئذ تجوب الصحراء جنوب شرقي

---

(1) ذكر مالك بن نبي أنه أعجب بكتابها (في ظل الإسلام الدافىء) ـ وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية أيضاً ـ وظهرت يوميات إيزابيل في كتاب قدمت له سيدة عربية الأصل، وأفضل ترجمة لها حتى الآن هي كتاب (حياة إيزابيل) لأنيت كوباك A. Kobak، نيويورك، 1989.

(2) عن قصة دي موريس انظر فصل الطرق الصوفية (القادرية).

قسنطينة واحتفظت بذكرياتها، ثم حلت بالوادي مرة أخرى سنة 1900 بنية الاستقرار فيه، وقد سمته بلاد الكثبان الرملية والنخيل الظليل. ودخلت عندئذ في الطريقة القادرية، وتظاهرت بالإسلام، لأن تصرفاتها اللأخلاقية لا علاقة لها بالإسلام. وكان شيخ القادرية عندئذ هو الهاشمي بن إبراهيم الذي كانت له زاوية في تقرت وأخرى في عميش، وهو من مواليد توزر بتونس حيث كان والده إبراهيم شيخاً للقادرية هناك[1].

وكان للشيخ الهاشمي إخوة موزعين بين ورقلة وسوف وتقرت (بالإضافة إلى الزاوية الأم في توزر). وقد أنشأوا زوايا قادرية، كل على حسب قدره ونشاطه وتسهيل السلطات الفرنسية له. وترددت إيزابيل على الزوايا الثلاث في وادي سوف ونالت رضى شيوخها، وحامت الشبهات الفرنسية حول علاقتها الخاصة بالشيخ الهاشمي. وفي 27 يناير 1901 كان هذا الشيخ متوجهاً في ميعاد إلى نفطة لزيارة ضريح والده، فنزل بلدة البهيمة (عبد الكريم حساني اليوم) وكانت إيزابيل في رفقته، وكان عليها أن تعود بعد البهيمة إلى الوادي مع خادمها. وبينما كانت تقرأ برقية لأحد التجار، تقدم منها شخص يدعى عبد الله بن محمد بن الأخضر وضربها بسيف على أم رأسها[2]، ولكن الضربة لم تكن قاتلة، وشاع أن المعتدي كان من أتباع التجانية المنافسة للقادرية ـ كما كان يريد الفرنسيون. وقد عولجت إيزابيل في المستشفى العسكري بالوادي حوالي شهر، ونقل المعتدي إلى قسنطينة وحوكم أمام المجلس الحربي المنصوب دائماً للجزائريين، وحضرت إيزابيل المحكمة، كما حضرها الشيخ الهاشمي. ولكن المعتدي لم يعترف بمن حرضه على محاولة القتل، أو هكذا أرادت السلطات الفرنسية حتى تترك الحكم في يدها.

وفي الوادي وجدت إيزابيل ايبرهارد رئيس الملحقية الضابط كوفي

(1) انظر تفاصيل ذلك في فصل التصوف (القادرية).
(2) مما خفف من وقع الضربة وجود أغطية كثيفة على الرأس (كان الفصل شتاء).

الذي وصفته بـ «المثقف». وقالت إن بالوادي عندئذ بناءات رئيسية فرنسية هي: المكتب العربي، والثكنة، والبريد، والمدرسة، والديوانة. وأخبرت أن أهل الوادي كلهم من العرب، وأن عليهم قائدين واحد على الأعشاش وواحد على المصاعبة. أما البنايات الإسلامية فهي المحكمة ومساجد العزازلة، وأولاد خليفة، والمصاعبة الغرابة، وسيدي سالم، وأولاد أحمد، وزاوية سيدي عبد القادر. وأن للوادي سوقاً كبيرة مغطاة يأتيها بالإضافة إلى أهل المنطقة قبائل الشعانبة، والطوارق، بل حتى من السودان[1]. أما الضابط كوفي فقد ترك إيزابيل تغامر ما شاءت لها المغامرة، وكان فقط يتتبع أخبارها من جواسيسه، ولم ير فيما جاءت به شيئاً يشكل خطراً على الوجود الفرنسي. ولكن حين جاءته التعليمات بإخراجها من سوف مع عشيقها والتفريق بينهما، لم يسعه إلا السمع والطاعة. وانتقل العاشق الذي كان من فرسان الصبايحية، إلى باتنة، وانتقلت هي إلى تنس وغيرها. وبعد مغامرات أخرى في فرنسا ثم الجزائر، وزيارات لبوسعادة، والعين الصفراء، كانت نهايتها هي الغرق المفاجيء في مياه الوادي الذي يمر بالعين الصفراء في صيف سنة 1904.

كتبت إيزابيل كثيراً من الرسائل والمقالات. وصادقت فيكتور باروكان مدير جريدة (الأخبار) الفرنسية الذي نشر أخبارها وأعجب بها. وذكرت في كتاباتها أنها كانت تجتمع بالمتعلمين (الطلبة) والمرابطين في الجزائر، وأنها خرجت إلى الصيد مع إخوان القادرية بالوادي، وأنها كانت صديقة لزينب بنت الشيخ محمد بن بلقاسم شيخ زاوية الهامل الرحمانية. وقد نشرت كتابها عن الإسلام مسلسلاً في جريدة (الأخبار). وكل أحكامها ومغامراتها وعلاقاتها ما تزال محل شك ودراسات قابلة للطعن. غير أن قلمها وأدبها لا غبار عليهما، وأثر الجزائر فيها لا يختلف فيه اثنان، سيما الأجواء الدينية والاجتماعية في الواحات، وظاهرة الاضطهاد تحت النير الفرنسي[2].

---

(1) يؤكد ذلك موتيلانسكي الذي زار سوف في نفس السنة (1903). انظر ترجمتنا لزيارته لسوف، وقد نشرت في مجلة (الثقافة)، 1994.

(2) انظر جريدة (الأخبار) الفرنسية أعداد 5 فبراير، و11 و18 و25 جوان 1905. =

مسألة اليهود الجزائريين تناولها كتاب كثيرون، ومنهم ايزنباخ وشوراقي ومارتن وكوهين. وكان اليهود يقطنون مختلف المدن الجزائرية، ومنها العاصمة، حيث تساكنوا وتعايشوا مع الجزائريين المسلمين في السراء والضراء منذ قرون، وتكونت بينهم رابطة خاصة من التضامن بعد الطرد الإسباني للمسلمين واليهود على حد سواء. وأصبح اليهود متميزين بأحيائهم الشعبية ومدارسهم وبيعهم (جمع بيعة) ومهنهم التي كانت لا تخرج عن المتاجرة في الحلي من الذهب والفضة، وكذلك خياطة الأقمشة. كما كانوا يتاجرون في العملة بالقروض وتصريف الأموال التي نسميها اليوم نظام البنوك. وفي العهد العثماني الأخير برز اليهود في ناحيتين على مستوى السلطة، الأولى هي الترجمة بين أرباب الدولة والقناصل الأجانب (وكذلك بين التجار المسلمين وغيرهم)، والثانية هي احتكار التجارة الخارجية للجزائر وإقامة شركات ودور تجارية في ليفورنيا ومحطات في الجزائر ومرسيليا. ويعني ذلك دخولهم في تجارة ومشاركة واسعة مع أرباب السلطة أنفسهم، كالدايات والوزراء والبايات. وقد صعدت عائلة بكري وعائلة بوشناق في آخر القرن 18 نتيجة هذه العلاقة، وانتهت بالتدرج إلى سوء التفاهم بين فرنسا والجزائر وإلى تأزم الموقف ثم الحملة فالاحتلال(1).

= إضافة إلى المراجع الأخرى التي أشرنا إليها في فصل الطرق الصوفية. وانظر أيضاً نيكو كيلسترا N. Kielstra «تدهور التنظيم القبلي لوادي سوف» في (مجلة الغرب الإسلامي والبحر الأبيض)، رقم 45، سنة 1987، ص 21 ـ 22. وقد نشرت مجلة (الثقافة) الجزائرية دراسة عن إيزابيل لمحمد الصالح دمبري وترجمة حنفي بن عيسى خلال السبعينات.

(1) عن الدَّين الذي ترتب على فرنسا للجزائر من جراء التجارة مع اليهود وأسباب الحملة الفرنسية، انظر كتابنا (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال) ط. 3. وكذلك بحث محمد العربي معريش عن اليهود أثناء العهد العثماني، وهو البحث الذي أعده كجزء من تحضير الماجستير تحت إشرافي. وفي سنة 1993 قدم=

تاريخياً، كانت معاملة اليهود عموماً معاملة حسنة من قبل السكان ومن أرباب الدولة. حقيقة أن المشاعر الدينية وتقوقع اليهود، كأقلية، واستغلالهم الاقتصادي للسكان مثل التعامل بالربا، كان يؤدي أحياناً إلى نظرة احتقار نحوهم. فالمسلم كان يشعر بالتفوق الديني على اليهودي انطلاقاً من حكم القرآن نفسه الذي يصف اليهود بأنهم عصوا الله بعد أن مكّن لهم في الأرض. ولكن العلاقات الاجتماعية كانت في الحدود الشرعية وما يقتضيه تبادل المنافع. وكان الأطفال المسلمون أحياناً يعتدون بالكلام وأحياناً حتى بالإيذاء البدني على الأطفال اليهود، وفي بعض الأحيان حتى على الكبار منهم. ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان أيضاً شائعاً، وقلما يتسامح المسلم في إيذاء جاره أو يجاوز حدود الأدب والشريعة إلا إذا كان مسلماً سفيهاً.

أما معاملة أرباب السلطة لليهود فكانت غير مستقرة. كانت المنافع متبادلة بينهم كما قلنا، وكان اليهود يتدخلون عن طريق الهدايا والرشاوى في الأمور السياسية الداخلية أيضاً، كتبديل البايات وعزل الوزراء ومهاداة النساء للتأثير بهن على قرارات الدولة. وفي مقابل ذلك كان اليهود يحصلون على امتيازات ضخمة في التجارة الخارجية، كما قلنا، ثم التجارة الداخلية، حيث أصبحوا يتحكمون في الطرقات والأسواق ويشترون البضائع من أهل الريف والبادية بأثمان بخسة، ثم يتصرفون فيها فينالون منها أرباحاً طائلة وهي ما تزال في داخل البلاد. وكان اليهود هم خبراء المسالك وأنواع البضائع المتداولة في الجزائر وإفريقية مع أوروبا. وكانت مبالغة اليهود في الثراء على حساب السكان، وسيطرتهم وشحهم في مقاسمة الأموال مع السلطة التي تحميهم، قد أدت إلى ضربهم أحياناً بقسوة كما حدث زمن الداي مصطفى باشا (ت. 1805). وكان ضربهم هذا وسيلة لتهدئة الغضب الشعبي وشراء

= لي شخص نسيت اسمه، دراسة مطولة ذات فصول عن تاريخ اليهود في الجزائر منذ أقدم العصور لأعطيه رأيي فيه، وقد فعلت. وأعتقد أن اسم المؤلف عندي بالجزائر ضمن أوراقي. وكانت الدراسة مشوشة وتخفي وراءها نوايا وأهدافاً باطنية.

سكوت الانكشارية التي كانت تهدد بالثورة. ومن جهة أخرى فقد ثبت للسلطات الجزائرية أن اليهود كانوا يعملون لحساب دول أوروبية أيضاً مثل فرنسا، ذلك أن (تاليراند) وزير الخارجية، كان يحمي مصالح اليهود في أوروبا لأغراض سياسية واقتصادية لمصالح فرنسا.

ولعل ما يكشف عن توغل اليهود في شؤون الجزائر هو رقابتهم لأنواع العملة الداخلة إلى خزانة الدولة، فقد كانوا في العهد العثماني هم الذين يزنونها ويفحصونها ويحكمون بزيفها أو أصالتها، سواء كانت ذهبية أو فضية. ومن ثمة كانوا على علم بكميتها وقيمتها في الصعود والهبوط، حسب الأسواق الدولية. وقد ظلوا يتمتعون بهذه الثقة حتى عندما كانت تحدث الأزمة بينهم وبين بعض الدايات. وكان الذي رشحهم إلى هذه المهنة الدقيقة جدا، هو خبرتهم بالعملات من جهة، وكونهم في نظر السلطة لا يشكلون خطراً من جهة أخرى، إذ هم كأقلية لا يهددون بثورة أو طموح في حكم. ولكنهم كانوا غالباً محل رقابة شديدة. ومع ذلك فمن قال إنهم كانوا في منتهى النزاهة والأمانة والخبرة؟ والمعروف أن الأمير عبد القادر كان يستعمل عدداً من أعيان اليهود في مختلف شؤونه، ومنها الترجمة، والنيابة عنه في التفاوض مع الفرنسيين والجوسسة والتجارة، وغيرها. وتوجد عدة مراجع تتحدث عن ذلك.

ورغم هذه «الحظوة» التي كان اليهود يحظون بها في الجزائر على المستوى الرسمي وحتى الشعبي، فإنهم بادروا إلى الترحيب بالفرنسيين وسارعوا إلى التعامل مع رجال السلطة الجديدة، مظهرين الاستعداد لكشف أسرار المسلمين والفرح بزوال حكم الترك، حسب التعبير الشائع عندئذ، رغم أن قضية ديون اليهود مع فرنسا هي التي كانت السبب المباشر في الاحتلال، كما أشرنا. كما أظهر اليهود التشفي بالمسلمين على إثر الانتقامات التي ارتكبها الفرنسيون ضدهم كاغتصاب المنازل والقصور، والاعتداء على المساجد والمقابر، ونفي الأعيان من البلاد. وقد ظهر اليهود في هذه الأثناء على أنهم هم الخبراء «الوسطاء» بين المسلمين والفرنسيين، فكانوا هم التراجمة والتجار والأدلاء. وقد عاملهم الفرنسيون على قدر استعدادهم أيضاً،

فأظهروا لهم العطف ومكنوهم من المعاملة وقربوهم إليهم في كل ما أحدثوه، ورفعوا عنهم الضيم، وشاوروهم في الأمور، وأصبح منهم أعضاء في كل مجلس وكل لجنة وكل محكمة كعنصر لا غنى عنه في المجتمع. ويجب القول هنا إن اليهود لم يكونوا على رأي واحد في هذا التصرف، ولكننا نتكلم هنا على سير الأحداث العامة. كما يجب القول إن الفرنسيين لم يكونوا أيضاً مخلصين في معاملتهم لليهود، ولكنهم كانوا في أشد الحاجة إلى جهة وسيطة وهي الجهة التي كانت في نظرهم «مضطهدة» في العهد التركي، واعتقدوا أنها ستخلص لهم وتمحضهم النصيحة.

كان عدد اليهود قليلاً ولكنهم كانوا نشطين وفعالين، ففي مدينة الجزائر كان عددهم حوالي أربعة آلاف، عند الاحتلال. وقد بلغ أكثر من ستة آلاف (6,655) سنة 1838. وخلال العشرية الأولى للاحتلال كان عددهم غير متوازن في المدن، لا سيما تلك التي جرت فيها المعارك وانسحب منها المسلمون كعادتهم. فبينما ذكر أن عدد اليهود في وهران عند الاحتلال كان ضئيلاً (حوالي ألف) وجدنا العدد قد ارتفع بعد استقرارها في يد الفرنسيين إلى أكثر من ثلاثة آلاف (3,364) سنة 1830. وفي عنابة كان عدد اليهود في هذه السنة 421 فقط، بينما لم يكن في مستغانم وبجاية يهود على نفس العهد[1].

كما كان اليهود في العهد العثماني يتمتعون بنظامهم الديني والاجتماعي. وكانوا يتحدثون العربية الدارجة، ولهم مدارسهم الخاصة التي تعلم العبرية، وكانت لهم محاكمهم وربيوهم، ولباسهم وتقاليدهم ومواسمهم الدينية المعترف بها كأهل كتاب. ويقول أحد المعاصرين إن اليهود سنة 1830 كانوا «عَرَبفُون» أي يتحدثون العربية، ويظهر عليهم الطابع

---

(1) السجل (طابلو) سنة 1839، ص 55. بينما تذكر إحصاءات عشية الثورة الجزائرية 1954، أن عدد اليهود في الجزائر قد أصبح 120,000، وكلهم كانوا يتمتعون بالجنسية الفرنسية. انظر لويس ماسينيون (الحولية) سنة 1954، باريس، 1955، ص 230.

البربري القوي، وكانت لهم الميول الحضرية، ويظهر ذلك في حفلاتهم ومناسباتهم، وفي رقصهم وموسيقاهم. وكانوا مختلفين جداً عن يهود الأشكينازي الذين يعيشون في أوروبا الوسطى. فيهود الجزائر كانوا يقدسون بعض الشخصيات (الأولياء) الذين هاجروا من الأندلس في القرن 14، ويذهب الزوار منهم إلى قبور هؤلاء الأولياء ويوقدون عندهم الشموع ويعطون الصدقات. وكانت لهم مقبرة في باب الواد. وكان لهم في تلمسان ولي يدعى (راب إفرائيم انكاوة) توفي سنة 1392 م. ولهم زعماء في العاصمة، مثل سيمون بن دوران[1].

ولكن الفرنسيين أخذوا يميزون اليهود عن المسلمين كما ذكرنا. يقول حمدان خوجة إن الفرنسيين قد عاملوا اليهود معاملة حسنة خلافاً للمسلمين، فأعفوهم من سوء المعاملة التي خضع لها المسلمون في أملاكهم ومساجدهم. وأصبح اليهود، كما يقول خوجة، يتجاسرون على المسلمين، سيما أهل الريف (البدو)، ولم يعاقبهم الجيش الفرنسي على ذلك التجاسر، مع أنه قد ترتبت عليهم غيرة وأنفة، أي محاسدة ومباغضة من الجانبين. فاليهود «لم يحفر لهم قبر، ولم يهدم لهم ملك[2]، ولم تؤخذ لهم شنوغة (بيعة) بل شنوغاتهم اليوم أزيد من جوامعنا الباقية بأيدينا، والشنوغات وإن كانت داخلة في الشروط (اتفاق 1830) إلا أنها ضمناً ومساجدنا صارحة (كذا)»[3]. وحمدان خوجة الذي كان من بين من حث على الاستسلام «المشروط» يحتج بأن المساجد التي نصت عليها الشروط قد هدمها الفرنسيون وأهانوها، بينما بيع اليهود التي لم تنص عليها الشروط قد أبقاها الفرنسيون واحترموها وزادوا منها.

ومن هذه المراعاة الفرنسية الموقف من المدارس. لقد كان اليهود في

---

(1) بيير قوانار (الجزائر)، ص 297.

(2) في الأصل «ولم يهدم له ملك».

(3) مذكرة حمدان خوجة إلى رئيس الوزراء الفرنسي، سنة 1833، انظر قنان (نصوص)، ص 58.

البداية متحفظين كالمسلمين من إرسال أولادهم إلى المدارس الفرنسية. إذ كان هدف الفرنسيين هو نشر اللغة الفرنسية بين أطفال المسلمين واليهود. ويقول جان ميرانت إن الفرنسيين لم يتمكنوا من جمع التلاميذ عند معلم واحد مسلم أو يهودي للعداء الذي كان بينهم، (وهو عداء ربما كان في ذهن الفرنسيين فقط). لذلك لجأ الفرنسيون إلى ما أسموه بالمدارس الخاصة، أي مدرسة فرنسية للمسلمين ومدرسة مثلها لليهود. ونظراً للتقارب الجديد بين الفرنسيين واليهود، فإن أول مدرسة فرنسية كانت لأبناء اليهود في العاصمة أحدثت سنة 1832، بينما لم تحدث المدرسة الفرنسية الموجهة للمسلمين (الحضر) سوى سنة 1836. وفي هذه السنة استحدث الفرنسيون مدرسة لبنات اليهود أيضاً. ثم في سنة 1855 استحدثوا لهم معهدين (متوسطتين) فرنسيين في العاصمة. أما في وهران فأول مدرسة فرنسية لليهود (البنين) كانت سنة 1833، وفي عنابة سنة 1837[1].

وصدر سنة 1845 مرسوم ملكي فرنسي ينظم الديانة اليهودية في الجزائر. كما نظم المرسوم طريقة إنشاء وتسيير المدارس. وتكفلت الإدارة الفرنسية بمنح الأماكن للملاجىء اليهودية وإنشاء المدارس للجنسين منهم. وكانت هذه المدارس تعتمد على المعونات من الجمعيات الدينية وعلى ما يدفعه الأطفال أنفسهم، ثم المساعدات الحكومية. وقد وضعت هذه المنشآت تحت رقابة الإدارة الفرنسية، ولكنها كانت تستشير الجمعيات الدينية لليهود، وهي السلطات الروحية (الكونسيستوار) فيما يتعلق بتعيين أو عزل المعلمين وإجراءات الانضباط، وكذلك ما يتعلق بمواد الدراسة ولجان المدارس. وكان التعليم في المدارس اليهودية يشمل الدروس الدينية واللغة الفرنسية، كما تكفل الربيون بمراقبة المدارس والمعلمين. وفي مدارس البنين كان المعلمون اليهود يتكفلون بالمواد الدينية، أما المعلمون الفرنسيون فيتكفلون بتعليم القراءة والكتابة والحساب باللغة الفرنسية. وأما مدارس

(1) جان ميرانت (كراسات الاحتفال المئوي)، 1930، ص 76.

البنات اليهوديات فكانت تديرها نساء يهوديات.

وهذا النوع من المدارس الفرنسية ـ اليهودية الذي كان يشبه المدارس الفرنسية الشرعية الموجهة للمسلمين بعد التسعينات، كان غير متطور في نظر الفرنسيين. فالبنات بدأن سنة 1836 بعشرين تلميذة ووصلن بعد ذلك إلى 80، ولكن لم يسجل سنة 1843 سوى ست عشرة بنتاً. كما أن البنين من اليهود لم يكونوا يواظبون أكثر من سنتين، كما جاء في تقرير رسمي سنة 1843. فقد لوحظ أنهم بمجرد تعلمهم القراءة والكتابة والحساب (المواد الفرنسية) يغادرون المدرسة. ووصل الأمر إلى أن طالب أحد المعلمين بإغلاق مدرسة وهران سنة 1865 لأن التلاميذ لا ينصفون المدرسة ولا يقدمون عنها صورة صحيحة. ولاحظ الفرنسيون أن ذلك راجع إلى كون التلاميذ يفضلون المدارس الفرنسية، وهم (أي الفرنسيين) يسمون ذلك مدارس التعليم المشترك (موتويل). فقد كان عدد التلاميذ اليهود في هذه المدارس أكثر من عدد تلاميذ المدارس المسماة الخاصة باليهود، سواء في ذلك البنون والبنات. وحسب بعض الإحصاءات فقد كانت مؤسسات التعليم العمومي الفرنسية سنة 1838، تضم 145 طفلاً و85 طفلة من اليهود. وحوالي نفس العدد كان في المدارس اليهودية أو الخاصة، بنين وبناتاً. وكان إحصاء 1863 قد أثبت وجود 2,973 تلميذاً يهودياً في التعليم العمومي الفرنسي، منهم 597 تلميذة[1].

وكان اليهود، رغم المعاملة الخاصة، يعتبرون «أهالي» أو أندجين، في نظر القانون الفرنسي، مثلهم في ذلك مثل المسلمين. وكانت القوانين الرسمية لا تمنحهم حق المواطنة الفرنسية لأنهم «أهالي» فهم أيضاً رعايا فرنسيون. ومرسوم 1865 الخاص بالجنسية الفرنسية أو التجنس بشروط، منها التخلي عن الأحوال الشخصية، غير خاص بالسلمين بل كان يشمل الأهالي جميعاً، بمن فيهم اليهود. ولم يمض على صدور هذا المرسوم

(1) ميرانت، مرجع سابق.

خمس سنوات حتى صدر قرار أدولف كريميو بتجنيس يهود الجزائر دفعة واحدة. وكان كريميو يهودياً ووزيراً للداخلية في حكومة بوردو سنة 1870، وطالما طالب سابقاً، وهو خارج الحكومة، بتجنيس اليهود، وكذلك بادر كوزير إلى إنقاذ أهل دينه، في نظره، بمنحهم الجنسية والمواطنة الفرنسية التي تعطيهم كامل الحقوق السياسية والمدنية. وبينما كانت المستعمرات، ومنها الجزائر، تعاني من ويلات الاستعمار الذي انطلق منذئذ في قمع الشعوب بقسوة ونجا يهود الجزائر (الأندجين) سابقاً من ذلك القمع، بل وارتفعوا إلى حالة المواطنة وأصبحوا فئة محظوظة وسط الأهالي الآخرين، بل أصبحوا في نظر بقية السكان «مستعمرين» كالفرنسيين تماماً، وأصبحوا حكاماً مطاعين، بيدهم الحل والعقد، والأمر والنهي، والسياسة والاقتصاد. والمثل يقول: ويحك من الضعيف إذا عز!

لم يرحب كل اليهود بقرار كريميو بالتجنس الجماعي الذي لم يستشاروا فيه. ولكن أغلبيتهم رضيت به، ورأته وسيلة للسلطة والملك ورفع الرأس والتحرر والخروج من المعاملة الخاصة. وربما لم يفكر هؤلاء عندئذ في الحركة الصهيونية ولا نشأة إسرائيل ولا في ظهور هتلر ولا ثورة الجزائر. ذلك أن الغيب لا يعلمه إلا الله، ولا يتكهن به إلا قليل من العباقرة، ولكن سنن الطبيعة كانت تقتضي أن دوام الحال من المحال وأن العاقل من فكر في البعيد لا في القريب. وحتى اليهود الذين تحفظوا أول مرة من قرار كريميو رضوا به بعد ذلك ورأوه فرصة ذهبية يجب اغتنامها. وهكذا أصبح الفرنسيون في الجزائر واليهود متساوين في الحقوق والواجبات أمام القانون، وبقي المسلمون وحدهم في الدرك الأسفل، رعايا فرنسيين، محرومين محتقرين مستغلين أبشع استغلال، تحكم عليهم محاكم الصلح الجائرة طبقاً لقانون الأندجينا وتسلط عليهم سياط المتصرفين الإداريين في البلديات المختلطة.

واستقبل الرأي العام الفرنسي في الجزائر قرار كريميو بمشاعر مختلطة. بعضهم قبله كأمر واقع، وبعضهم نظر إليه على أنه ضربة لمصالحهم الاقتصادية والسياسية. حقيقة أن يهود الجزائر لن يشكلوا خطراً سياسياً على

التـوازن بيـن الأوروبيين، ولكنهـم سيلعبـون ورقتهـم كحـزب مرجـح فـي الانتخابات في مختلف المستويات، وبذلك يصبحون قوة كبيرة ضاغطة. وكان دور اليهود الاقتصادي في الجزائر وارتباطاتهم بيهود فرنسا وأوروبا عموماً قد جعلهم خطرين في هذا الميدان بالنسبة لفرنسيي الجزائر. وقد أثبتوا من قبل معرفتهم بالبلاد وبأسواقها وعاداتها ولغتها. ولذلك وقع التململ الشديد ضدهم في الأوساط الفرنسية. ويقول شارل أندري جوليان إن الضغط كان شديداً على حكومة بوردو لإلغاء قرار كريميو حتى أن تيير Thier (رئيس الجمهورية) كان سيتراجع عنه. ولكن حاجته إلى دعم الثريّ اليهودي، ألفونس دي روتشيلد، صاحب البنوك والأموال، لكي يقدم قرضاً تدفعه فرنسا لتحريرها من ألمانيا نتيجة حرب السبعين، هي التي جعلته يتمسك بقرار كـريميـو. وكـان الكثيـر مـن فـرنسيـي الجـزائـر مستعـديـن لـرؤيـة اليهـود (الإسرائيليين) يتعاطون التجارة والحرف، ولكنهم كانوا ينظرون إليهم بعين السخط بالنسبة للمهن الحرة وبعين التقزز والامتعاض بخصوص التعليم، لأنهم كانوا يعتبرون اليهود سلالة دنيا. أما المجال السياسي، فهو، كما يقول جوليان، مرفوض لليهود نظراً لتأثير المنشآت الدينية (الكونسيستوار) عندهم على الجماهير[1].

وقد حاول البعض أن يربط بين تجنيس اليهود الجماعي وثورة 1871 ورأوا أن من أسبابها اشمئزاز المسلمين من حكم اليهود، وشعورهم بالنقص مما قلب الأوضاع السياسية التي كانت سائدة. وقد يكون لقرار كريميو دور في الثورة ولكن بوجه آخر، وهو أنه كان يدل على ضعف فرنسا الذي ظهر في الهزيمة نفسها، فالقرار ما هو إلا متابعة للهزيمة العسكرية الفرنسية وسقوط نابليون واحتلال باريس، وتغيير الحكم في الجزائر إلى حكم مدني وتمكين اليهود من رقاب المسلمين. أما الشعور العام لدى المسلمين فهو احتقارهم لليهود لأنهم قد غيروا دينهم «وطورنوا»،

(1) شارل أندري جوليان (إفريقية الشمالية تسير)، ص 29 ـ 30.

حسب التعبير العشبي. فالمسلمون لم يحسدوا اليهود على نعمتهم بل رثوا لحالهم، وتأكد لديهم «حرص اليهود على الدنيا» ولو على حساب دينهم[1]. ويمكننا القول إن المسلمين قد ازدادوا قناعة، في ضوء ما وقع لليهود خلال عقدي الثمانينات والتسعينات مع الكولون، بأنهم كانوا على حق عندما رفضوا عرض نابليون التجنس بشروط، وازدادوا اعتزازاً وتمسكاً بدينهم الذي كان يمثل «هويتهم».

وسرعان ما بدأ التوتر بين الفرنسيين الأوروبيين واليهود الأهالي عند إجراء أول انتخابات في الجزائر. وظهرت «معاداة السامية» مكشوفة، كلما حدثت معركة انتخابية. ويقول جوليان إن (درومون) الذي ألف كتاباً بعنوان (فرنسا اليهودية) والذي نسب فيه كل المساوىء التي حدثت في فرنسا إلى أعمال اليهود، هو الذي فاز فوزاً ساحقًا بمدينة الجزائر في انتخابات سنة 1897. وقد ظهرت معاداة السامية على أشدها عندما أصبح رئيس الحزب المعادي لليهود، وهو ماكس ريجس، رئيساً لبلدية الجزائر. كان ريجس لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره عندئذ، ويقولون إنه كان من المتجنسين حديثاً بالجنسية الفرنسية ومن أصل إيطالي. وفاز معه معاونه أيضاً، على نفس البرنامج الذي يتلخص في ضرورة تركيع اليهود والقضاء عليهم. وكان هذا الحزب يطالب بإلغاء قرار كريميو، ودخل مع اليهود في معارك جرت في مدينة الجزائر وفي غيرها، وحاول جرّ المسلمين إلى هذه اللعبة ولكنه فشل ليقظتهم لعواقبها. وكادت «فرنسا الجزائرية» تدخل في حرب أهلية عمياء لولا السياسة التي اتبعها والدك روسو، رئيس الحكومة الفرنسية، والحاكم العام لافيريير. فقد ألغى هذا الحاكم الانتخابات البلدية واتبع سياسة الصرامة والتدخل الإداري. ولم تفشل الحركة المعادية للسامية، رغم أنها لم تنل مطلوبها، إذ بقيت إلى الحرب

---

(1) قارن ذلك بما نشره يحيى بوعزيز في مجلة (الثقافة) عن موقف المسلمين من تجنيس اليهود، وقد نشر وثيقتين لأعيان قسنطينة، إحداهما تنفي تأثرهم بالقرار والأخرى تثبت تأثرهم به، لأن القرار جعل اليهود هم فرنسا بحملهم السلاح، أي هم السلطة.

العالمية الثانية توالي ضغطها حتى حكم لها نظام فيشي، أي بإلغاء قرار كريميو، سنة 1941.

قلنا إن معاداة اليهود لم تنقطع بعزل ماكس ريجس وإنما تحولت إلى نوع من التهدئة والتوافق. وقد ظهرت صحف عديدة تتحدث عن معاداة السامية واليهود خلال العشرية الأولى من هذا القرن[1]. ويقول أحد الكتاب إن الاضطهاد قد نشط العقيدة الدينية عند يهود أوروبا، ولذلك بدأت حركة ريجس في الجزائر شاذة عن القاعدة، لأنها ليست، في نظر هذا الكاتب، حركة مضطهدة دينياً. وكذلك كان إجراء حكومة فيشي ضد اليهود، فهو إنما جاء نتيجة لمعاداة السامية. وكانت الضجة التي فجرتها حادثة (دريفوس) في فرنسا ما تزال تهز المجتمع عندما قامت حركة ريجس في الجزائر. ولذلك حاول رئيس الحكومة الفرنسية (والدك روسو) أن يطفىء النار قبل استشرائها. ويذهب جوليان إلى أن المشاعر المعادية لليهود ظلت كالنار في الرماد بين الفرنسيين إلى أن ظهر هتلر، وكره الفرنسيون الجبهة الشعبية، لأن رئيسها (ليون بلوم) يهودي، وهي الكراهية التي أدت إلى أن يدخل حزبان (الحزب الاجتماعي والحزب الشعبي) في دعاية قوية لتجنيد الأوروبيين وحتى العرب في صفوفه بالجزائر. وقد تزعم (دوريو) المناداة بإلغاء قرار كريميو أيضاً سنة 1938 وأصبح ذلك هو كلمة السر في الموضوع. وقد تحقق ذلك في عهد فيشي، كما قلنا[2].

كان يهود الجزائر من الفرع المعروف بالصفرديين. وقد حافظوا على تقاليدهم الاجتماعية والدينية في وجه الحضارة الأوروبية. وظلوا على نظامهم الأبوي، فالأب هو رئيس العائلة وهو الذي يتصدر المائدة ويقرأ الدعاء بالشكر والحمد، وهو يصلي الصلوات اليومية ويذهب إلى البيعة كل سبت، ويحتفل بالمواسم الدينية. وليس ضرورياً أن يكون الأب

---

(1) انظر بحث إيمانويل سيفان «الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر» في كتابي أبحاث وآراء، ج 4.

(2) جوليان، مرجع سابق، وكذلك قوانار (الجزائر) مرجع سابق، ص 298.

عالماً دينياً. وقد ألف بعض علماء اليهود إرشادات لتربية وتوجيه الجيل الجديد مثل (مواعظ هلاخيك) التي ألفها داود كوهين سكالي سنة 1861 وهو من مواليد وهران. وقد راجت مواعظه بين يهود شمال إفريقية. وفي سنة 1865 نشر الأخوان حاييم ويعقوب كوهين سلال (هقادة دي بيسه) بالحروف العبرية. وكان على الأولاد اليهود أن يحفظوا (التوراة) كما يحفظ المسلمون القرآن الكريم، وهم يستعملون مع الأطفال طريقة الضرب أحياناً. وبعد حفظ التوراة كان الأولاد يحفظون التلمود. وكانت المرأة عندهم لا تتعلم مثل الرجل، ولكنها كانت حرة في دخول البيعة. وقد طبق عليهم الفرنسيون النظام الذي سنه نابليون الأول (1808) ليهود فرنسا. فأنشأت لهم فرنسا هيئة (الكونسيستوار)، وهي هيئة مركزية مقرها الجزائر، ولها فرعان أحدهما في وهران والآخر في قسنطينة.

وإلى جانب ذلك عينت عليهم فرنسا ربيين غير جزائريين بناء على اقتراح تقدم به يهود باريس (؟) فالربي يجب ألا يكون من أهل البلاد، فكان الربيون (ومنهم فيل Weil، وقوقنهايم، وشارلفيل، وايزنباخ) كانوا لا يصلون بهم بالطريقة المعهودة عندهم، وكان تكوينهم مختلفاً عنهم، ولذلك كان يهود الجزائر يصدمون من بعض تصرفات ربييهم، كالصراخ وبعض الممارسات الغريبة الصادرة عنهم. وقد بنى اليهود لأنفسهم، كما بنت لهم فرنسا، البيع (المعابد) حتى بلغت 112 في الجملة، ووصلت المعابد الكبيرة إلى خمسة، وكان أكبرها هو معبد وهران. ونشطت حول هذه البيع الجمعيات الرياضية والثقافية وكذلك التعاضديات والكشافة. وكان هناك أيضاً (الاتحاد الإسرائيلي العالمي) الذي أنشىء في آخر القرن الماضي. وكان اليهود قد عرفوا أيضاً الاتجاه المحافظ والاتجاد الليبرالي في تفكيرهم. وتراوحوا بين التعليم الديني والتعليم اللائكـي الذي فرضته فرنسا منذ الثمانينات من القرن الماضي. وقد ثبت لليهود أن تلاميذهم لا يرغبون في المدارس الدينية التي كانت تنافسها مدارس الحكومة، فخسروا تلاميذهم كما خسر الاتحاد الإسرائيلي المذكور تلاميذه لصالح التعليم اللائكي، ولم يعد التلاميذ

المراهقون يهتمون بالتوراة والتلمود[1].

وليس لدينا دراسة شاملة ودقيقة عن تجنيد الحركة الصهيونية ليهود الجزائر. فلا نعلم متى بدأ تغلغلها بينهم، ولا متى بدأت نشاطها ولا مدى نجاحها أو فشلها. وهناك مسألتان نذكرهما هنا، الأولى هي صلة الماسونية بالصهيونية. والثانية وجود نشاط صهيوني بارز خلال الثلاثينات في الجزائر. أما المسألة الأولى فلا نطيل فيها لأنها أصبحت معروفة ومدروسة، وإنما نريد أن نذكر أن الماسونية قديمة في الجزائر قدم الاحتلال، إن لم تكن قد سبقته. ذلك أن بعض قادة الجيش الفرنسي وبعض السياسيين الذين نفتهم الحكومة الفرنسية كانوا أعضاء في الماسونية. وقد تأسست محافل وفروع ورموز لهذه الجمعية (أو التنظيم) السرية منذ أوائل الاحتلال، وتطورت وتشعبت كلما تطورت المدن وتمركز السكان وظهرت الصحف والنوادي والجمعيات، وانتشر التعليم.

أما المسألة الثانية فنقول عنها إن الحركة الصهيونية التي تشكلت رسمياً في آخر القرن الماضي، قد تسربت إلى الجزائر عن طريق أجهزة الإعلام وتكوين العملاء في مختلف المدن والنوادي، وربما لم تجد الطريق ممهدة كما في فرنسا وأوروبا، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تبني جسوراً بينها وبين اليهود في الجزائر كما فعلت مع اليهود في فرنسا. ولا نعرف الآن ما موقف السلطة الفرنسية المحلية منها، لأن السياسة الفرنسية عادة تختلف في الأرض الفرنسية عنها في المستعمرات. ويقول السيد قوانار: إن الحركة الصهيونية هي التي نشطت اليهودية إذ حققت لليهود اعتزازهم بذاتهم ، وزادتهم حرب الجزائر، حسب تعبيره، حماساً، وهي الحرب التي أدت إلى هجرتهم الجماعية. وهو يقول إن مدرسة الربيين كانت مفتوحة في بوزريعة قبل الهجرة اليهودية من الجزائر. والواقع أن «حرب الجزائر» لم تؤد إلى هجرة اليهود

---

(1) قوانار (الجزائر)، مرجع سابق، ص 297 ـ 298، في هذا المصدر بعض الإحصاءات عن تناقص التلاميذ في الاتحاد الإسرائيلي بين 1900 و1958.

وإنما الذي أدى إلى هجرتهم هو قبولهم بالتجنس الفرنسي سنة 1870 فعاملهم الجزائريون معاملة الفرنسيين[1]. والمقصود «بالهجرة» هنا الهجرة إلى فرنسا وليس إلى فلسطين. ولكن الحركة الصهيونية أدت إلى هجرة الكثير من اليهود الجزائريين إلى فلسطين منذ 1848، وهذه الهجرة لم يتحدث عنها (قوانار)[2]. فقد فرغت القرى والمدن الصغيرة من الجاليات اليهودية على إثر قيام دولة إسرائيل.

ويعرف رجال الحركة الوطنية بعض أعيان الحركة الصهيونية في الجزائر، سواء الظاهرين منهم أو المتخفين تحت أسماء النوادي الماسونية وغيرها. وكانوا منزرعين في مختلف أنحاء البلاد. ومن أبرزهم في الثلاثينات، حسب بعض المعاصرين، الدكتور لوفراني والجنرال ويس. وكان الدكتور لوفراني بالذات ملازماً لنادي الترقي في العاصمة حيث الفكر الإصلاحي والتيار العربي المعادي للصهيونية ولاستيطان اليهود في فلسطين. ومن أبرز المنشطين لهذا التيار كان الشيخ الطيب العقبي، مدرس النادي المذكور وخطيبه. وكان الشيخ العقبي معروفاً بمواقفه المدافعة عن حق العرب والمسلمين في فلسطين ومن المتصلين الدائمين بالمشرق العربي وقضاياه. وقد نشطت الحركة العربية المعادية لدعوى اليهود والصهيونية في العودة إلى فلسطين منذ مؤتمر القدس 1931، وقامت المظاهرات والثورات في فلسطين وعلى رأسها: عز الدين القسام وعبد القادر الحسيني، وحدثت معركة القسطل وغيرها. ومن جهة أخرى حدثت في قسنطينة فتنة بين المسلمين واليهود في غشت 1934. وقد فسرها البعض تفسيراً قومياً ودينياً، أي بين قوميتين ودينين. وكانت أحداث فلسطين والنشاط الصهيوني يجد صداه في الصحف الإصلاحية والوطنية عامة. وقد عزا بعضهم اتهام العقبى بالتحريض على قتل الشيخ كحول بأنه من آثار هذه اللعبة السياسية، وأن

---

(1) مع ذلك حاولت الثورة أن تفصلهم عن بقية الفرنسيين وأن تعاملهم معاملة خاصة على أساس أصولهم. انظر مقررات مؤتمر الصومام 1956.

(2) قوانار (الجزائر)، مرجع سابق، ص 298.

العقبي كان ضحية، إذ الهدف هو إسكات صوته المضاد للصهيونية. والغريب أن الذي قام يدافع عنه بعد اعتقاله هو الدكتور لوفراني نفسه.

وقد أخبرني المرحوم الشيخ المهدي البوعبدلي في إحدى رسائله أن نادي الترقي ظل «يُسيّره» الدكتور لوفراني «عدة سنوات». وهو الذي كان في ذلك العهد رئيساً لفرع الجزائر للحركة الصهيونية. أما المشرف العام على نشاط هذه الحركة في شمال إفريقية فهو الجنرال ويس الذي كان قائد الطيران أثناء حوادث 8 مايو 1945. وأضاف الشيخ البوعبدلي أن المرحوم الشاذلي المكي قد أكد له ذلك بمصر، وأن «مأساة» وقعت له هو (المكي) شخصياً بنادي الترقي مع لوفراني. ونحن نعتقد أن هذا الكلام فيه غموض ويحتاج إلى دقة: فما معنى أن «يسيّر» لوفراني نادي الترقي، وكانت للنادي لجنته ومسيروه المسلمون؟ وما «المأساة» التي تعرض لها الشاذلي المكي في النادي؟ وهل صحيح أن الجنرال ويس هو قائد الطيران الفرنسي سنة 1945؟ وقد أحالني الشيخ البوعبدلي على المرحوم الشيخ حمزة بوكوشة الذي قال عنه إنه «أكثر المعاصرين اطلاعاً» على بعض الخبايا، ومنها قضية تسيير النادي[1]. وقد أكد لي الشيخ البوعبدلي ذلك مرة أخرى في بطيوة بداره (زاوية العائلة) في 23 يونيو، 1988 إذ قال إن الشيخ العقبي كان «محاصراً» من الدكتور لوفراني اليهودي الذي كان ملازماً لنادي الترقي، وكان رئيساً للحركة الصهيونية في الجزائر.

ومن المحتمل القول إنه لو بقي اليهود على أهليتهم (أندجين) ولم يتجنسوا سنة 1870 لوجدت الحركة الصهيونية ربما صعوبة في التسرب إليهم. ذلك أن تمتعهم بكل حقوق المواطن الفرنسي قد منحهم حق الانتماء إلى مختلف الحركات وإصدار الصحف والتعبير الحر والتجمع. وقد شعر الجزائريون بحكم اتصالهم المبكر بالفرنسيين والرأي العام الأوروبي بالخطر الصهيوني، ولكن وسائلهم كانت محدودة، وكان قانون (الأندجينا) سيفاً

---

(1) من رسالة الشيخ البوعبدلي في 17 أكتوبر سنة 1985.

مسلولاً على رؤوسهم، ووسائل الاتصال مع المشرق محدودة. ومع ذلك نبه بعض الجزائريين منذ 1914 إلى خطورة الحركة الصهيونية، على مستقبل العرب والمسلمين.

فقد نشرت مجلة (المنار) التي كان يصدرها الشيخ رشيد رضا من مصر، خبراً خيرت فيه العرب والمسلمين بين الاتفاق مع الصهيونيين أو مقاومتهم بكل الوسائل، بما فيها حرب العصابات. وجعلت العنوان هو (المسألة الصهيونية). فعلقت جريدة (ذو الفقار) التي كان يصدرها عمر راسم، على ذلك بقولها إن على زعماء العرب والمسلمين مقاومة الصهيونية. ومن رأي عمر راسم أن «اتفاق ز عماء العرب... مع زعماء اليهود مستحيل، لأنه اعتراف بزعامة اليهود ورضا بمشاركة هؤلاء الأجانب في بلاد اشترتها آباؤهم (أي العرب والمسلمين) بدمائهم الطاهرة. فلا يحق لغير العرب... أن يملك تلك الأرض ولا غير راية الإسلام أن تخفق عليها ما دام في عرق العرب دم وفي أجسام المسلمين روح». وتحدث مقال (ذو الفقار) عن انقسام الدولة العثمانية (وقد تسربت إليها الحركة الصهيونية، كما أصبح معروفاً الآن)،كما تحدث عن نشاط اليهود في فلسطين وعن دعم أوروبا لهم، وهو لا يقصد كل أوروبا بالطبع. وتنبأ عمر راسم بأن بقاء القيادة التركية التي باعت طرابلس (مثل جاويد وحقي وكاسو) سيوقع الدولة العثمانية نفسها لا محالة «في مخالب اليهود يوماً ما»[1].

ولم تكن صيحة عمر راسم هي الوحيدة الصادرة من الجزائر، ولكنها كانت هي الصيحة المبكرة والواضحة. وفي كتابات ابن باديس والإبراهيمي والمدني والعقبى وأضرابهم صيحات وإنذارات أخرى في أوقات لاحقة. ولكن ذلك كان لا يجدي أمام الدعم السياسي الإنكليزي والدعم المالي

(1) العدد 4 من جريدة (ذو الفقار)، 28 يونيو 1914، عن قنان (نصوص)، ص 295. انظر أيضاً ترجمتنا لبحث «الحركة الصهيونية وجماعة تركيا الفتاة» في كتابنا (في الجدل الثقافي)، ط. دار المعارف، تونس، 1993.

والإعلامي الأوروبي[1]، وأمام الضعف والانقسام العربي والتخلف العلمي وقلة الوعي بالمستقبل عند المسلمين. وماذا يجدي تسجيل المواقف والكتابات والآراء والحال في هذه السنة (1994) يكاد يكون هو الحال سنة 1914 عند العرب وعند المسلمين على السواء. وقد وقعوا جميعاً «في مخالف اليهود» كما تنبأ عمر راسم؟.

الماسونية

قد يبدو غريباً عليك أن تعرف أن بعض الجزائريين دخلوا الماسونية قبل الاحتلال الفرنسي وأن البعض قد ادعى أن هناك «ماسونية عربية» في الجزائر قبل الاحتلال أيضاً. ولكن دعنا قبل كل شيء نتحدث عن مبادىء الماسونية، وعن محفل الشرق الفرنسي الذي كان له دور في نشر الماسونية في الجزائر.

والواقع أن الماسونية كانت لها محافلها في عواصم أوروبا، مثل لندن ودبلن وروما وباريس. وكانت محافلها (ورشاتها) سرية. وبالنسبة لفرنسا فقد قيل إن نابليون الأول لم يلغ الورشات أو يحل المحافل الماسونية، ولكنه جعل عليها رقابة مشددة. وكان يهدف إلى الاستفادة منها في مشاريعه في التوسع والهيمنة ومراقبة نشاط الكنيسة الكاثوليكية. ومن أعظم المحافل الأوروبية (محفل الشرق) الذي نشط في مصر والجزائر. وكان شعاره هو شعار الثورة الفرنسية. وهو الحرية والأخوة والمساواة، مع تمجيد المسيحية والتقدم والتسامح. وقد نص البند الأول من قانونه الأساسي على أن الماسونية مؤسسة خيرية وفلسفية وتقدمية، تقوم على وجود الله وخلود الروح، وتعمل على ممارسة العمل الخيري ودراسة الأخلاق والعلوم

(1) سيما بعد صدور التصريح الفرنسي (كامبون وبيشون)، والتصريح الإنكليزي (وعد بلفور) بدعم مطالب الحركة الصهيونية، ومنها إقامة وطن قومي لليهود. انظر مقالنا التصريحات الفرنسية المؤيدة للصهاينة سنة 1917. أرسلناه للنشر.

والفنون، وممارسة الفضائل. وجاء في بند آخر أن على الأعضاء الالتزام بالأخلاق الكريمة والعقلنة من أجل السعادة البشرية. ونص أحد البنود أيضاً على أن الوصول إلى ذلك يستلزم احترام الضمير الفردي وتوظيف الدعاية السلمية من أجل إضاءة الروح والانسجام القلبي. ويدعى أحد البنود أيضاً أن الماسونية لا تحاسب العضو فيها على قناعته حول الأديان بل إنها تمنع في اجتماعاتها النقاش في المسائل الدينية منعاً باتاً. وسنرى أن هذا الموقف غير صحيح دائماً. كما يدّعي أن الماسونية لا تسمح بمناقشة المسائل السياسية في اجتماعاتها، ولا تتدخل مباشرة في تطبيق النظريات السياسية وأشكال الحكومات المختلفة وتأثيرها على الأوضاع القائمة. والماسونية تطلب، حسب بعض بنودها، من المنتمين إليها احترام القوانين السائدة في البلدان التي يقطنونها. كما تلزم الماسونية أيضاً أعضاءها بالعمل، كل حسب طاقته، لأنها تعتبر العمل من واجبات القوانين الإنسانية. والمطلوب من كل عضو ماسوني أن يقدم لغيره المساعدة في مختلف المناسبات.

هذه مبادىء وتعاليم عامة للماسونية، وهي تبدو إنسانية، ومن ثمة فهي لا تختلف كثيراً في المعاملات عن تعاليم الأديان. وتبدو الماسونية في هذا الشكل مغرية للفئات المؤمنة بالحرية والأخلاق والإنسانية وحرية الضمير الفردي والتسامي في الفضائل والعمل من أجل السعادة العظمى في هذه الدار. ورأينا أن الماسونية تقطع كل عرق للخلافات المفرقة بين الأعضاء كالنقاش الديني والسياسي. وهذا أيضاً وجه آخر من أوجه الانسجام والأخوة.

غير أن الماسونية النظرية غير الماسونية العملية. ذلك أنها من الناحية العملية كانت لا تختلف عن بعض النظريات والمذاهب الأخرى كالرومانتيكية والمثالية (السانسيمونية) والحركة الإنسية وحتى الليبرالية. فقد كان أعضاؤها يؤمنون بالاستعمار ويزكونه وينتصرون إليه، وما رأيك في أن المارشال بوجو كان عضواً شرفياً في الماسونية. وأن الاستعماري الكبير البارون دي فيالار كان عضواً بارزاً فيها. وهناك الكثير من الأعضاء كانوا في الإدارة الاستعمارية والبلديات والتجارة والجيش، بل إن معظم المؤسسين لفرع الجزائر

الماسوني، كما سنرى، كانوا من الضباط البارزين فـي الجيش الفرنسي، ثم تغلب الأعضاء البرجوازيون في المحفل على عدد العسكريين.

ومن جهة أخرى كانت الماسونية نسخة وفيّة من بعض الأديان ومن المسيحية وتعاليمها الفاضلة، كما قيل. وقد خاطب عضو بارز في (محفل بيليزير) الذي سنتحدث عنه، زملاءه قائلاً: «إن الماسونية ليست سوى التطبيق الفعلي لتعاليم المسيح (عليه السلام) الفاضلة: «إن كلكم أخوة والله هو خالقكم». وقد علق السيد ياكونو بأن الماسونية كانت تريد أن تكون مدرسة للأخلاق في الأساس، ولكنها أخلاق دينية، وبالضبط هي الأخلاق المسيحية[1]. ويبدو لنا أن الماسونية، وإن كانت في ظاهرها مسيحية فإنها مؤسسة على تعاليم أخرى ومنها اليهودية، ولكنها كانت مغلفة في المسيحية لأنها كانت هي الدين المقبول في أوروبا عندئذ.

ومنذ توطنت الماسونية في الجزائر عملت، كغيرها من المؤسسات الاستعمارية، على محو الحضارة العربية الإسلامية وتذويب القيم الشعبية في الحضارة الأوروبية (الفرنسية)، وأقامت دعوتها، كغيرها أيضاً من التيارات الواردة، على أن الجزائريين كانوا برابرة متوحشين، وأن أمامها هي مسؤولية عظيمة، وهي دمج المنهزمين (الجزائريين) في المنتصرين. وقد اعتبر الماسونيون أن الحملة الفرنسية نفسها بركة وسعادة، وأنها قد نزلت على الأرض البربرية باسم الحضارة والتقدم والتسامح[2].

---

(1) ياكونو «بدايات الماسونية في الجزائر» بحث موثق ومصور منشور في المجلة الإفريقية، 1959، ص 289 ـ 291، 293. انظر أيضاً نفسه «الجزائر منذ 1830» في المجلة الإفريقية، 1956، ص 179، وهامش 129. ورغم هذه البداية «الدينية» فإن النصوص الصادرة عن محافل الجزائر تدل على أن الماسونية كانت «ديناً» بذاتها، وأنها كانت تعادي الأديان عموماً وتعتبرها سبباً في التطاحن والعداءات والحروب. انظر يوسف مناصرية «بعض محافل الشرق الجزائري» في (مجلة الدراسات التاريخية) عدد 6، 1882، ص 161 ـ 165.

(2) ياكونو «بدايات الماسونية» مرجع سابق، ص 63.

وهناك من ادعى أن أول اجتماع ماسوني عقد في الجزائر كان في سيدي فرج سنة 1830، وأن الذين حضروه من الجيش كانوا أعضاء في الحركة الماسونية. ومنهم الجراح الرسمي للجيش والمتصرف (دينييه) الذي قيل إنه دخل الماسونية سنة 1810. لكن السيد ياكونو يشك في عقد هذا الاجتماع الماسوني المبكر لأن الوثائق المعاصرة مثل جريدة (الاسطافيت) التي كانت الجريدة الأولى التي طبعت في سيدي فرج، لم تذكر شيئاً عنه.

وأول نشاط ماسوني لا غبار عليه كان في دالي إبراهيم (ضاحية بالعصمة)، وقد قام به محفل سيرنوس الكورسيكي سنة 1831 ـ 1832، وهو محفل قديم كان الكورسيكيون قد أسسوه في جزيرتهم في العشرينات من القرن الماضي. وكان مؤسسو محفل الجزائر الفرعي من العسكريين الكورسيكيين، وقد وسعوا نشاطهم ليشمل غير دالي إبراهيم أيضاً. ثم غادرت فرقتهم العسكرية الجزائر سنة 1836 ولكن آثارها الماسونية بقيت بعدها.

أما المحفل الذي دام مدة طويلة وكا ن «جزائري» المنشأ فهو محفل بيليزير، وهو الفرع الرئيسي لمحفل الشرق الفرنسي، ففي 16 فبراير 1832 اجتمع أربعة عشر من الأعضاء الماسونيين في الجزائر وكانوا ينتمون إلى مختلف المحافل الفرنسية، اجتمعوا لإنشاء ورشة ماسونية، وانتخبوا «أخاهم» دانليون ليكون الرئيس الشرفي المحترم مدى الحياة «حسب تقاليدهم» وكان دا نليون رجلاً عسكرياً برتبة جنرال. واختاروا أيضاً اسماً للورشة أو المحفل الجديد، وهو (بيليزير) ذلك الجنرال البيزنطي الذي نسبوا إليه كل الفضائل، كما قال ياكونو، وهو ما أثار استغراب البعض. أما الرجل الذي رأس المحفل عملياً، فهو (شيفرو Chevrau)، وكان جراحاً في الجيش. وعندما توفي دفنوه في ضاحية بئر مراد رايس.

بدأ هذا المحفل (بيليزير) إذن بالعسكريين، لكن كان فيه بعض التجار أيضاً. وطلبوا الترخيص من محفل الشرق بإنشاء الفرع والقيام بالنشاط، فأذن

لهم وبارك عملهم، وعقدوا من أجل ذلك اجتماعاً عاما في 22 مايو 1833 في العاصمة، حضره أكثر من 46 عضواً منهم عشرون عسكرياً والباقون ينتمون إلى التجارة والمهن الحرة والوظائف. وكان نائب الرئيس هو الطبيب جيراردان. وليس من بين أعضائه جزائريون، بمن فيهم اليهود. وسرعان ما توسع نشاط محفل بيليزير، فبعد سنة واحدة وصل عدد أعضائه إلى 73 عضواً وكان فيهم من هو خارج العاصمة وضواحيها كوهران. ولكن شيفرو مات سنة 1834 فانتخبوا خليفته المسمى جاك ديسكو (أو ديكو) الذي دام في رئاسة المحفل إلى 1870 حين مات[1].

قام هذا المحفل بنشاط في صالح الاستعمار، رغم المبادىء والتعاليم المذكورة في بنود قانونه. فقد عمل على جزأرة نفسه باعتباره محفلاً يعيش على الأرض الجزائرية، وكان وضعه يذكرنا بفرع الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر خلال العشرينات والثلاثينات من حيث التبعية لغيره. وقد اعتبر المحفلُ الجنود الفرنسيين الذين سقطوا أمام أسوار قسنطينة في الحملتين (1836، 1837) جنوداً سقطوا من أجل الشرف ومن أجل سعادة فرنسا. واستمع الأعضاء إلى دعوة زميلهم (أخيهم، حسب مصطلحاتهم) للاعتراف بجميل أولئك الجنود «الشجعان». وعند تأسيس المستعمرات الفلاحية أبدى المحفل ارتياحه وتأييده معتبراً ذلك عملاً خيرياً من حكومة الجمهورية الثانية (كان ذلك سنة 1848 ـ 1849) لصالح الجزائر «الفرنسية». وفي نظر الماسونيين ليس هناك تناقض بين الدفاع عن الاستعمار والدفاع عن الأهالي. فقد كانوا ينظرون إلى الجزائريين، كما أشرنا، على أنهم «برابرة» لم يذوقوا في حياتهم طعم الحرية ولم يمارسوا الانفتاح على الفلسفة، بل كانوا يعيشون في حالة جهل وعبودية. وقد أخبرهم شيفرو قبل وفاته أن الأرض الجزائرية بقيت في نظره خلال مدة طويلة في ظلام كثيف، (وهو رأي رجال الكنيسة أيضاً) ولكنها تحتوي على عناصر ثمينة قابلة للتلقيح، وقد «جئتم أنتم

(1) ياكونو «بدايات الماسونية» مرجع سابق، ص 84 ـ 85، 87.

لإخصابها»! وقد طلب منهم العمل من أجل توجيه الأهالي نحو محفل الشرق الماسوني حتى يقع تمدينهم، لأن مهمة المحفل هي جلب سكان الجزائر «البرابرة» والمتعصبين إلى الحضارة وإدماجهم فيها. وكذلك دعا أحدهم، وهو لوازي Lowazy منذ 1833، إلى العمل على دمج المنتصرين والمنهزمين[1] (الفرنسيين والجزائريين) في بوتقة واحدة.

فكيف، مع هذا الأسلوب في المعاملة، سيدخل الجزائريون في المحفل الماسوني؟ يقول ياكونو إن الماسونيين لاحظوا أن العرب كانوا يبتعدون عنهم، كما لاحظوا أنهم كانوا يخشون بعضهم بعضاً. ويبدو أن الماسونيين لم يفهموا نفسية الجزائريين، بمن فيهم المثقفون والتجار الذين حاربهم الفرنسيون بلا هوادة. إن هؤلاء هم الذين وقفوا في وجه الغزو الحضاري الذي يبشر به الماسونيون علناً، والذي يسمونه اندماجاً وقضاء على حضارة المنهزمين. ولكي يسهل الماسونيون على الجزائريين الدخول في محفل (بيليزير) اقترح أحدهم (سنة 1839) أن يتاح للعرب الدخول في المحفل إذا وجد منهم من يعرف إلى جانب العربية والبربرية لغة أوروبية واحدة، وهي الفرنسية، أو الإنكليزية، أو الألمانية أو الإسبانية أو الإيطالية، وكانت له، مع ذلك، مؤهلات أخلاقية، وطلب صاحب هذا الاقتراح إعفاء العرب من الالتزامات الأخرى كدفع الاشتراك أثناء المراحل الأولى من دخول المحفل، على أن يصبحوا مثل بقية الأعضاء في وقت لاحق. لكن اقتراحه لم يتحقق، لأن الحرب اندلعت من جديد بين الجزائريين والفرنسيين (نوفمبر 1839)، وتبخرت الأوهام. وقد لاحظ ياكونو أن الماسونيين كانوا يتوجهون إلى الخاصة من الجزائريين وليس إلى العامة.

وفي سنة 1846 تقدم عضو آخر، وهو العقيد طاردو Tardo، بمشروع جديد لتسهيل إدخال الجزائريين في الماسونية. ويقوم اقتراحه على أن لا يطلب من المترشح الأهلي للعضوية سوى معرفة اللغتين العربية والفرنسية.

---

(1) ياكونو «بداية الماسونية»، مرجع سابق، ص 296 ـ 297.

فإذا أصبح عددهم كبيراً يكونون محفلاً خاصاً بهم ولكن تحت إشراف محفل بيليزير. لكن وفاة هذا العقيد دفنت الاقتراح معه[1]. وها نحن في أوائل الاحتلال مع الماسونية كما نحن بين الحربين مع الشيوعية تقريباً بالنسبة لوضع الجزائريين[2].

ولم تتحدث المصادر عن وجود جزائريين في محفل بيليزير سوى سنة 1848 أي في عهد الجمهورية الثانية، وبعد هزيمة الأمير عبد القادر. ففي جلسة 22 نوفمبر من هذه السنة حضر خمسة من الزوار وفيهم جزائري واحد من بجاية (لم يذكروا اسمه). وبين 1848 ـ 1850، استقبلت محافل فرنسا الماسونية عدداً من الأعضاء المسلمين غير الجزائريين، وقد اعتبر ذلك فشلاً لمحفل بيليزير[3]، لأن ما سمي «بالماسونية الإفريقية» لم تحقق هدفها، وربما بقي الحال كذلك حتى خلال القرن العشرين. ولعل ارتباط الماسونية بالاستعمار ومناهضة الحضارة الإسلامية له هو السبب في هذا الفشل.

* * *

وهناك من ادعى أن جزائريين قد دخلوا الماسونية قبل الاحتلال الفرنسي. وهم يشيرون إلى تجار «زاروا» بعض محافل فرنسا سنة 1785، 1786، كما وقع في محفل الشرق بمدينة نانت. وقد قيل إن المدعو محمد

---

(1) انظر مشروع طاردو في ياكونو «بدايات الماسونية»، مرجع سابق، ص 299 ـ 300.

(2) لم تكن فرنسا هي وحدها مصدر التحرك الماسوني، فقد كانت الماسونية نشيطة أيضاً في إيطاليا وانكلترا. وفي سنة 1841 تأسس في تونس (محفل أطفال قرطاجنة)، ثم تتابع تكوين المحافل الماسونية بتونس، وكلها كانت إيطالية المصدر. وفي سنة 1877 تأسس محفل آخر في تونس باسم قرطاجنة القديمة كان تابعاً للمحفل الانكليزي عن طريق فرعه المالطي. وبعد احتلال تونس أسس الفرنسيون (سنة 1885) محفل قرطاجنة الجديدة. وهكذا ترى أن المحافل الماسونية كانت تابعة للدول الاستعمارية والنشاط التنصيري. انظر مناصرية، مرجع سابق.

(3) ذكر أن من بين المسلمين الذين قبلوا في محافل فرنسا عضواً من مسقط وآخر من جزيرة زنجبار (إباضيون؟).

شلبي الجزائري قد قُبِل في ذلك المحفل وأن توقيعه موجود على المحضر، ولكنهم لم يسمحوا له بالدخول معهم لاختلاف الدين[1]. وفي 1787 ذكروا أن المدعو إبراهيم قلنقو التركي والمدعو إبراهيم بكير الجزائري قد قُبِلا أيضاً في محفل الشرق بفرنسا. وقيل إنهم قد جمعوا لهما النقود للعيش في فرنسا والعودة إلى بلادهما، وكانت لديهما أيضاً شهادات الانتماء إلى محفل لندن ودبلن. وقد جاء ياكونو بصور لتوقيعات هذين الرجلين اللذين لا نعرف لهما هوية واللذين قيل فيهما أثناء جمع التبرعات لهما: لعل وقتاً سيأتي فيه الماسونيون الفرنسيون إلى الجزائر فيجدون المقابل منهما هناك. ويوحي كلام ياكونو أن هناك تخطيطاً مسبقاً لدخول الماسونية الجزائر حتى قبل الاحتلال بنصف قرن، وذلك عن طريق التبرعات المالية لأعضاء كانوا يمارسون التجارة وفي نفس الوقت كان يعوزهم المال اللازم للإقامة والسفر. فهل هناك قدرية لازمة (جدلية) بين المال (الديون) والاستعمار؟ ويقترح ياكونو أن هناك جزائريين آخرين قد يكونون انضموا أيضاً إلى محافل إيطاليا ولندن ولكن بأعداد ضئيلة، كما هو الحال في فرنسا أيضاً، ثم إن القائمة منحصرة في بعض التجار. ولا شك أن أعياناً من يهود الجزائر قد دخلوا «الماسونية الإفريقية» في إيطاليا ولندن، وعلى رأسهم ابن دوران، ولا ندري، ما إذا كان ذلك قبل سنة 1830 أو بعدها. ومهما كان الأمر فإن الدلائل تدل على أن عدد الذين دخلوا الماسونية قبل الاحتلال كان قليلاً جداً[2].

ورغم ما لاحظناه عن مسألة الانتماء إلى الماسونية قبل الاحتلال، فإن مجلة (الماسونية الإفريقية) التي ظهرت سنة 1849 قد ذكرت أن الماسونية قد انتشرت في الجزائر قبل ذلك، معتبرة بعض الطرق الصوفية (تسميها الجمعيات السرية) شكلاً من أشكال الماسونية، وأن «الإخوان» في هذه الطرق هم أعضاء في «الماسونية العربية». و استدلوا على ذلك بأن الماسونية

---

(1) وإذا صح هذا فإنه لا يصح أن يقال إن الماسونية فوق أو تحت الأديان، أو أن لها ديناً خاصاً بها. وربما يقال إن سبب منعه من الحضور هو المحافظة على أسرار التنظيم.

(2) ياكونو، مرجع سابق، ص 58 وهنا وهناك.

هي دين كل العصور وكل البلدان. وفي عدد لاحق من المجلة نفسها ذكروا أن بعض عبارات الماسونية العربية (الطرق الصوفية) تتفق مع مصطلحات الماسونية الأوروبية أيضاً. والغريب أن الكاتب وجد التشابه اللفظي بين كلمة (الورد) عند الصوفية وكلمة (أورْدَرْ) الفرنسية والإنكليزية، وقال إنهما تستعملان في نفس المعنى، وهو ما يتلقاه المريد في الجمعيات السرية (الصوفية) وفي الماسونية، وكذلك كلمة (إخوان) في الصوفية وكلمة (كوان Cowan) في الإنكليزية التي قيل إنها تعني كلمة (الأخ) التي تعطي للعضو الأجنبي في الماسونية، وربما كان ياكونو صادقاً عندما اعتبر ذلك التمحّل من الخيالات التي يرفضها التاريخ[1]. ويبدو أن الماسونيين بعد أن رأوا فشلهم في جلب الجزائريين رجعوا إلى اعتبار الطرق الصوفية ماسونية عربية ودليلاً على انتشار الماسونية واعتبارها دين كل العصور وكل البلدان، في زعمهم.

ومهما كان الأمر، فقد عاش محفل بيليزير العهد الاستعماري وفي ظل الإدارة الفرنسية، مؤيداً لها ومباركاً أعمالها، وداعياً للاندماج بين الفرنسيين والجزائريين والقضاء على الروح العربية والإسلامية. وأصبح المحفل في أغلبه من البرجوازية، وكان أعضاؤه من سكان المدن طبعاً. وقد دخله بعض اليهود الجزائريين أمثال طاما ايلي، واليزار، وكلاهما كان في الهيئة الدينية الإسرائيلية (كونسيستوار)، كما دخل المحفل بعض رجال الدين الفرنسيين مثل الأسقف دوبوش، رغم أن المحفل الماسوني على العموم مضاد للكنيسة في نظر البعض. وقد سيطر بعض رجال الماسونية على النواحي الاقتصادية والمالية واستغلال الأرض (الاستعمار) في الجزائر مثل دي فيالار، كما كان من بينهم السياسيون والكتاب والشعراء. ولكن دراسة ياكونو التي تنتهي سنة 1850، لا تحدثنا عن دخول مسلمين جزائريين في محفل بيليزير، ولا في المحفل المنشق عنه والمسمى (التجديد الإفريقي) الذي أنشىء حوالي سنة

---

(1) ياكونو «بدايات الماسونية»، ص 57. إن استعمال عبارة «الجمعيات السرية» في وصف الطرق الصوفية شاع في الكتابات الفرنسية عن هذه الطرق حتى عند غير الماسونيين الظاهرين.

1841. وكان سبب الانشقاق هو الخلاف بين الأعضاء في المسائل الدينية واستعمال الغموض والسرية واللجوء إلى الخطب المرتجلة. لكن هذا المحفل المنشق لم يعمر سوى حوالي عشر سنوات[1].

والواقع أن ما يهمنا من الماسونية هو انتشارها في الجزائر ودخول بعض الجزائريين فيها. كما يهمنا نشاطها وتأثيراتها على الحياة السياسية والفكرية.

يقول أحد الكتاب الفرنسيين إن كل الحكام العامين الذين تداولوا على حكم الجزائر باسم فرنسا كانوا ماسونيين عدا واحداً هو المارشال ماكماهون. وقد لاحظنا أن بداية الماسونية كانت في قادة الحملة الفرنسية أنفسهم. فقائد الأسطول الأميرال دينييه كان ماسونياً. ولا ندري ميول دي بورمون الآن. أما الضباط الذين أرسوا قواعد الإدارة والسلطة الفرنسية في الجزائر فقد كانوا بدورهم ماسونيين صراحة، ومنهم بيليسييه دي رينو الذي ترأس مكتب الشؤون العربية في الجزائر وكتب تاريخ الحملة والإدارة الفرنسية الأولى في كتابه المعروف باسم (الحوليات الجزائرية). وكان دارماندي ماسونياً أيضاً، وهو الذي كان يعرف الشرق ويحذق الفارسية وكان قنصلاً لبلاده في جدة، ثم كان من أوائل الضباط الذين احتلوا عنابة 1832. وعلى رأس الضباط الأولين الذين آمنوا بالماسونية الجنرال دي ميشيل الذي حكم وهران في أول الاحتلال والذي ارتبط اسمه بـ(معاهدة دي ميشيل) التي وقعها مع الأمير عبد القادر سنة 1834. ثم المارشال بوجو الذي وقع مع الأمير معاهدة التافنة سنة 1837، وتولى حكم الجزائر وأعلن الحرب الشاملة ضد المقاومة إلى استقالته في أوائل صيف 1847، قبل هزيمة الأمير ببضعة شهور فقط، فقد كان أيضاً ماسونياً.

وهناك ضباط وشخصيات إدارية وسياسية أخرى ارتبط اسمها بالماسونية. ومن هؤلاء اللقيط يوسف الذي أصبح جنرالاً في الجيش الفرنسي. وكان قد هرب من تونس وادعى للفرنسيين أنه ابن غير شرعي

(1) نفس المصدر، ص 273 هامش 83، وكذلك ص 306.

لنابليون الأول. ودوره في الحرب المبيدة ضد المقاومة مبسوط في غير هذا المكان[1]. ومنهم عبد الله دزبون المملوكـي الذي أرسلته فرنسا في مهمات إلى ناحية معسكر. وكان الجاسوس ليون روش ماسونياً أيضاً، وقد بدأ حياته في خدمة الجيش الفرنسي وأرسلته المخابرات العسكرية لكي يتجسس على الأمير عدة سنوات، فادعى أنه اعتنق الإسلام وغير اسمه إلى (عمر) وتزوج من مسلمة وألف كتاباً، سجل فيه مغامراته في القيروان ومصر والحجاز للحصول على فتوى من علماء المسلمين ضد حركة الجهاد في الجزائر. كما تولى الشؤون القنصلية لبلاده في عدة بلدان مجاورة كالمغرب وتونس، بل وفي اليابان.

وانتشرت الماسونية بين أعيان الكولون أيضاً. فكان نوابهم مثل تومسون، وايتيان، وتريل، وكذلك فيورموز الذي برز أثناء أحداث 1870 ـ 1871 في الجزائر، وربما الدكتور وارنييه، كلهم كانوا من رجال الماسونية. وكان شارل ليتو الذي تولى حكومة الجزائر بين 1913 ـ 1918 من أبرز أعضائها. وقد عمل جهده على إزالة الإسلام واللغة العربية من الجزائر. وهو أصلاً من الكولون، مثل خلفه بعد سنوات بيير بورد. ولا نستبعد أن يكون شارل جونار من أعيانها أيضاً. ومن أبرز الصحفيين الفرنسيين دعاة الماسونية والمعارضين للإسلام نذكر أندري سيرفييه محرر جريدة (لاديباش القسطنطينية)، فقد كان على رأس محفل في قسنطينة يسمى (سيرتا)، وهو محفل ماسوني كان يعمل على تجنيد «المتطوعين» الجزائريين للمحفل والدخول في الماسونية، وهو الذي أطلق اسم «الشبان الأتراك» على الاندماجيين الجزائريين (النخبة)، كما ألف كتاباً هاجم فيه الإسلام بشدة تحت عوان (خطر المستقبل...)[2] ولا ندري من الذين جندهم سيرفييه

---

(1) انظر الحركة الوطنية، ج 1.

(2) صدر في قسنطينة، سنة 1914. وعنوانه الكامل (خطر المستقبل: القومية الإسلامية في مصر وتونس والجزائر). وعن محفل (سيرتا) ومحافل الشرق الجزائري، انظر دراسة مناصرية، مرجع سابق، عن دعوة سيرفييه لتقسيم الجزائريين، انظر سابقاً.

لمحفله، ولكننا لا نستبعد أن يكون من بينهم بعض المتجنسين وحتى بعض رجال الدين.

من الناحية التاريخية يذكر الكتّاب الفرنسيون عهدين طويلين لانتشار الحركة الماسونية في الجزائر ونشاطها السري والعلني وموقفها من الإسلام والمسلمين. العهد الأول من 1830 إلى 1870، والثاني منذ 1871. وخلال العهد الأول (وهو يشمل بالنسبة للفرنسيين ثلاثة أنظمة: ملكية وجمهورية وامبراطورية) فإن زعماء الماسونية اكتفوا بتعميق عقائدهم ومبادئهم في جمعيات سرية كانت متناسبة مع قناعاتهم الذاتية، وهي تقوم على أن الماسونية هي (دين الأديان) في نظرهم، فلا دين يعلو عليها[1]. وقد تعرّضنا إلى ذلك.

أما خلال العهد الثاني (منذ 1871) أو عهد الجمهورية الثالثة الذي دشن اللائكية (العلمانية) في التعليم وشهد فصل الدين عن الدولة في الحكم وجاء بقانون الأندجينا للجزائريين، فإن زعمان وأعضاء الماسونية قد استعملوها لأهداف أخرى كالصهيونية، ومعاداة العرب والمسلمين، ولكنها أصبحت على العموم حركة معادية للدين مهما كان، رغم أن زعماءها وأعضاءها احتفظوا بمثاليتهم الفلسفية والمسيحية والإنسانية في دعواهم.

ففي مؤتمر تيزي وزو سنة 1903 أعلن الماسونيون ضرورة فصل الأطفال عن تعليم القرآن وإبعادهم عن الزوايا والتربية الدينية (الإسلامية). ومن الملاحظ أن يهود الجزائر قد دخلوا الماسونية في أعداد كبيرة بعد تجنسهم سنة 1870. وكان الماسونيون يعقدون المؤتمرات العلنية والسرية. فبين 1905 و1938 عقدوا حوالي اثني عشر مؤتمراً بعضها كان خاصاً بناحية في الجزائر وبعضها كان يشمل المغرب العربي (شمال إفريقية) بل إن بعضها كان يشمل المستعمرات الفرنسية. وكانت بعض المؤتمرات تتناول قضايا

---

(1) آجرون «حركة الشبان الجزائريين» في (ميلانج جوليان) المسمى دراسات مغربية، ص 240. وسنتحدث عن ابن رحال في الفقرة اللاحقة.

معينة مثل الاشتراكية وحقوق الإنسان ومسألة الأديان ومعاداة السامية واللائكية وحقوق المرأة. وكان بعضها متعلقاً بقضايا اليهود، مثل حادثة دريفوس (فرنسا)، وحادثة غشت 1934 (قسنطينة) وقرار كريميو، الخ. مما يدل على العلاقة الوطيدة بين الماسونية والصهيونية. وكانت محافل الشرق الجزائري تعقد اجتماعات سرية، ربما لنشاط اليهود فيها، وقد قامت حكومة فيشي بحل الجمعيات السرية، ومنها الماسونية، في غشت 1940. وطلبت من كل عضو يعمل في الإدارة أن يعلن عن انتمائه. وكانت العقوبات تتضمن السجن والغرامة المالية والفصل. وكانت حكومة فيشي قد ألغت أيضاً قرار كريميو بضغط من ألمانيا. ولكن الحلفاء ولجنة فرنسا الحرة أعادت هذا القرار، بضغط من أمريكا ويهودها، كما أعادت الشرعية للجمعيات السرية ومنها الماسونية، بعد الحرب.

وكان لكل محفل رمزه. والرموز هي نجمة داود، والخنجر، والسيف، وهيكل سليمان، والمثلث المتساوي الأضلاع، والسنبلة، والنجمة الخماسية، والعين، والهلال، واليدان المتصافحتان، والشمس المشرقة على رأس الإنسان، وراحة اليد، وغيرها من الرموز، مثل حرف v المنصوب والمقلوب. كما أن أسماء المحافل ترجع إلى آثار أو معالم قديمة وشخصيات، مثل سيرتا وقرطاجنة وهيبون ونوميديا والأوراس والساحل، وكذلك بيليزير وجان جوريس وأطفال مارس[1].

وكان لمحفل (بيليزير) نفوذ ونشاط علني في العاصمة. وله أتباع من الفرنسيين وحتى من بعض الجزائريين المتجنسين مثل الطبيب بلقاسم بن التهامي، والمحامي عمر بوضربة. ولا ندري إن كان محمد صوالح وتامزالي من أعضائه أيضاً، ويقول آجرون عنهما إنهما كانا غير مرتبطين بالدين الإسلامي بصراحة. ويقول عن ابن التهامي وبوضربة إنهما لائكيان جداً[2].

---

(1) مناصرية، مرجع سابق، ص 159.

(2) إذا كان الأمر كذلك، فقد كان هناك عدد من الجزائريين يمكن وصفهم باللائكيين جداً.

وقد عرفنا أن محفل بيليزير قديم النشأة.

أما في قسنطينة فالمحفل الرئيسي اختاروا له اسم (سان فانسان دي بول)، وهو اسم يحمل دلالة خاصة عند الفرنسيين وعند رجال الدين. ونلاحظ أنه بالرغم من القول إن الماسونية أصبحت معادية للدين فإن اتخاذها اسم هذا «القديس المشبوه» يدل على الخلط في المبادىء والأهداف. وقد ذكرنا أن هناك محفلاً آخر باسم (سيرتا) كان سيرفييه من أعضائه. وتذكر المصادر أن معظم الجزائريين الذين دخلوا الماسونية كانوا من المنطقة الشرقية، ولا سيما مدينة عنابة، وبلغ عددهم الإجمالي 37 فرداً. ولا ندري الآن منهم أحداً، ولكن في الإمكان التكهن ببعضهم إذا طبقنا الآية الكريمة التي تقول «سيماهم في وجوههم» وفي تصريحاتهم وكتاباتهم. ولكننا لن نرجم أحداً بالغيب.

وفي الغرب الجزائري كان محفل (الاتحاد الإفريقي) الذي كان مقره مدينة وهران. ولا شك أن هناك محافل أخرى قد ظهرت هناك. وليس لدينا فكرة عن عدد الذين دخلوا في الماسونية من الجزائريين في الناحية الغربية. وقد كان فرع تلمسان نشيطاً، وفيها عائلات حضرية ودينية وتعليمية لا نستبعد أن بعضها قد دخل الماسونية عن وعي أو عن غير وعي. وكانت مدرسة تلمسان الشرعية ـ الرسمية إحدى البؤر للحركة الماسونية، ولا سيما في عهد ألفريد بيل.

كانت سياسة زعماء الماسونية في الجزائر هي تبني الاندماج، كما ذكرنا، وذلك هو دورهم في التأثير على الإدارة العليا. فقد كان لهم نفوذ قوي في مجلس الحكومة والبرلمان والصحافة. وكانت تأثيراتهم تذهب في هذا الاتجاه، وهو إزالة الإسلام (Deislamisation) من الجزائر، وقد برزوا بالخصوص أثناء حكم شارل ليتو[1]. وكان «الشبان الجزائريون» يسيرون في هذا الخط أيضاً، ولذلك سميناهم بالاندماجيين. ويقول آجرون إن «عميد»

---

(1) انظر بيير قوانار (الجزائر) باريس، 1984، ص 309 ـ 310.

الشبان الجزائريين هو محمد بن رحال[1]، ولكن اندماجية ابن رحال كانت تختلف عن الاندماجية التي دعا إليها أمثال محمد صوالح وإسماعيل حامد وأحمد بن بريهمات وتامزالي وابن التهامي، بل كانت تشبه الدعوة إلى «المساواة» التي دعا إليها الأمير خالد فيما بعد. وكان منهم في نظر آجرون، عباس بن حمانة الذي وصفه بالبرجوازي الليبرالي المؤيد للتجنيد الإجباري. ولكن عباس بن حمانة كان قد أسس مدرسة قرآنية عصرية سنة 1913 لتدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ومن ثمة فقد كان ضد الاندماج بمفهوم «الشبان الجزائريين» وكان في ذلك يلتقي مع محمد بن رحال في بعض النواحي[2]. وربما ستكشف الوثائق عن تقديرات خاطئة لدور رواد الاندماج الجزائريين.

والمعروف أن الأمير عبد القادر قد ارتبط اسمه في بعض الكتابات باسم الحركة الماسونية، وكذلك اسم الشيخ طاهر الجزائري. ولكن بعضهم ينفي انتماء الأمير إلى الماسونية. وقد دار جدل في الموضوع بين ياكونو ومحفوظ قداش ومحمد الشريف ساحلي حول ذلك. ويبدو أن الجدل سيستمر لأن الوثائق القاطعة غير متوفرة. وهناك فقط تخمينات واستنتاجات. فالماسونية كانت متوارية، وكانت تقدم نفسها على أنها (دين الأديان) وأنها دين الحرية والتسامح، وأنها تدعو إلى الأخوة الإنسانية. وقد انجذب إليها عدد من أعيان المفكرين في الغرب والشرق. وكانت تصطاد هؤلاء الأعيان وأصحاب النفوذ والأذكياء في كل جيل وتمنحهم «بركتها» كما تفعل بعض الطرق الصوفية عندنا. والماسونية تنظيم أو جمعية سرية لها طقوسها ومراحل للتدرج فيها، وليست زاوية خيرية مفتوحة للغرباء والسابلة. وقد انخدع بشعاراتها البراقة

---

(1) آجرون «حركة الشبان الجزائريين» في (ميلانج جوليان) ص 240. وسنتحدث عن ابن رحال في الفقرة اللاحقة.

(2) عن حركة «الشبان الجزائريين» والماسونية، انظر آجرون (ميلانج جوليان)، مرجع سابق، ص 228 ـ 243. وعن عباس بن حمانة انظر فصول التعليم. وكذلك مالك بن نبي (المذكرات).

في الحرية والإنسانية والتسامح والأخوة عدد من أعيان الشرق، نذكر منهم جمال الدين الأفغاني وخيرالدين التونسي، ومدحت باشا، وربما الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا. وليس كل من دخلها عن حسن نية قبل أوائل هذا القرن كان متهماً في دينه أو مدخولاً في وطنيته، لأننا رأينا أن الماسونية قد غيرت جلدها عدة مرات، ورفعت عدة شعارات، وأصبحت تسير صراحة في ركاب الاستعمار والصهيونية، وتقف ضد الأيان وتخدم مصالح وأهدافاً غير إنسانية وبعيدة عن شعاراتها البراقة المعلنة.

لذلك يمكننا القول إن اسم الأمير قد استعمل منذ حوالي 1864 بطريقة مغلقة لتجنيد الأعضاء في الماسونية. فالغرب كان واعياً والشرق كان غافلاً. وقد حصل الأمير على أوسمة وبراءات ورسائل الشكر من قادة الدول المسيحية على إثر تدخله الإسلامي والإنساني في حوادث الشام سنة 1860، وقد فسروا ذلك التدخل على أنه كان بدافع التسامح الديني مما يتماشى مع شعارات الماسونية نفسها. فاغتنم قادة الماسونية فرصة عودة الأمير من الحج ومروره بمصر سنة 1864 ودعوه إلى محفل الإسكندرية، كما قيل، وسلموا إليه براءة، وربا سلموه أيضاً إثباتاً بعضوية شرفية - من يدري؟ - في ذلك المحفل. ولكن هل كانت هذه العضوية كاملة بكل تبعاتها؟ أو هي مجرد تشريف واحتفاء وشكر له على فعله الإنساني؟ أو هي خدعة وقع الأمير في فخها، ثم انتبه فلم يعد للموضوع بقية حياته، إذ لا نجد أية إشارة إليه بعد ذلك؟ إن ذلك سيظل محل تساؤلات وتخمينات، ولا نملك له الجواب الشافي الآن.

ومن الملفت للنظر أن ابن الأمير في (تحفة الزائر) لم يشر إلى مسألة الماسونية، واكتفى بقوله إن والده قد مرّ في عودته من الحج بمصر وزار أرض بوبلح التي أهدتها إليه شركة السويس وأقام أياماً في ضيافة الشركة بمنطقة السويس، أما الإسكندرية فقد قال إنه بقي فيها حوالي خمسة أيام ثم ركب منها إلى بيروت. وقد أورد ابن الأمير الرسائل والأشعار التي قيلت في

والده بعد رجوعه من الحج وليس منها، على حد علمنا، ما تعرض إلى مسألة الماسونية[1].

وبينما سكت صاحب (التحفة) تماماً عن هذه المسألة نجده قد ذكر أن الجمعية الماسونية الفرنسية قد كتبت إليه رسالة شكر ومدح على تدخله لإطفاء فتنة الشام ونوهت بانتصاره للتمدن والإنسانية، واعتبرته «العربي الوحيد» الجدير بهذا الاسم، واعترفت أن أوروبا قد أخذت الكثير عن «الجنس العربي» الذي هو اليوم نائم، وتنبأت بأن العرب سيستيقظون. وقالت إنها إذ تبعث إليه بالرسالة فإنما تعتبرها إشارة رمزية فقط لأنها في الحقيقة لا تساوي شيئاً إزاء خصاله[2]. وليس هناك أيضاً إشارة إلى محفل الشرق ولا اسم الاسكندرية ولا تاريخ 1864. ولا نظن أن موضوع الماسونية قد بقي «سراً» عند الأمير، فقد ترك الأمير أوراقه جميعاً لابنه. وكان هنري تشرشل قد ذكر الموضوع أثناء حياة الأمير نفسه ـ انتهى من كتابه سنة 1867 ـ. إن سكوت صاحب التحفة عنه وسكوت المادحين للأمير يدل على أن انتماء الأمير للماسونية قد يكون فقط من الإشاعات، مثل ترشيح الأمير للإمارة العربية[3].

أما الشيخ طاهر الجزائري الذي أصبح علماً يشار إليه في العلوم العربية والإسلامية، وكان من قادة الرأي والفكر في بلاد الشام وفي مصر والعراق،

---

(1) (تحفة الجزائر)، 145/2.

(2) تاريخ هذه الرسالة من باريس 2 أكتوبر 1860. أي قبل حجه وتوقفه بالإسكندرية بأربع سنوات. وقد جاء في (تحفة الزائر) أيضاً اسم (الجمعية الأمريكية الشرقية) التي أرسلت إلى الأمير نسخة من الكتاب الذي ألفته سنة 1861 بعنوان (تاريخ العالم) مع تعيينه عضواً شرفياً فيها، (التحفة) 112/2. كما أن (جمعية أبناء الوطن) بلندن قدمت إلى الأمير رسالة تنويه أثناء زيارته لبريطانيا، نفس المصدر، 160/2.

(3) لم نجد أية إشارة أيضاً إلى مسألة الأمير والماسونية في كتاب عادل الصلح (سطور من الرسالة) الذي عنى فيه بعلاقة الأمير بالحركة الاستقلالية العربية، بيروت، 1966.

فقد كان عضواً في حزب اللامركزية الذي عارض الحركة الطورانية التي جاءت مع لجنة الاتحاد والترقي في تركيا. وكان الشيخ طاهر من أنصار القومية العربية. وكانت علاقته بالسيدة بيل الانكليزية المتنفذة في أحوال العالم العربي قد أدت به كما قيل، إلى الدخول في الماسونية بعد اقتناعه بشعاراتها الإنسانية الظاهرية[1].

وقد يكون من بين الجزائريين الآخرين، في المشرق والمغرب، من دخل في الماسونية. وربما ستكشف الأيام عن أسماء بعضهم.

الإسلام ووحدة الأديان

شارك الفرنسيون ببحوث كثيرة عن الإسلام منذ احتلالهم للجزائر. وظهرت دراسات لهم فردية وجماعية. وتحدثوا فيها عن مختلف الموضوعات التي تمس تاريخ الإسلام وعقيدته وسيرة رجاله وموقفه من التمدن ومن النصرانية. كما تناولوا موضوعات خاصة منه كالجهاد والمِلْكية والسلم والهجرة والمرأة والحكم. وقد حاولوا فهم الإسلام ليفسروه تفسيراً يليق بمصالحهم. ووصل بهم الأمر أن أصبحوا يطلقون عليه عبارات لا تليق به مثل الإسلام الجزائري، والإسلام الأسود (يقصدون الإسلام في إفريقية) وما إلى ذلك. واختص المستشرقون منهم بجوانب فيه كالتصوف، والفقه والتاريخ، الخ.

وبين مرحلة وأخرى كانت الحكومة الفرنسية توجه الخبراء لدراسة ظاهرة معينة وتسليط الأضواء عليها محلياً ودولياً لتستفيد من ذلك تفادي الأخطاء والتوجه الصحيح في التعامل مع العالم الإسلامي. ومن ذلك مثلاً دراسة أنشطة الطرق الصوفية خلال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي. ودراسة أوضاع الإسلام والمسلمين في فاتح هذا القرن. وقد كنا

(1) انظر كتاب عدنان الخطيب (الشيخ طاهر الجزائري). معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1971.

تناولنا الدراسة الأولى في حديثنا عن الطرق الصوفية، ونريد الآن أن نكتب قليلاً عن النقطة الثانية. لقد كان المقصود منها هو البحث في مستقبل الإسلام وموقف فرنسا خلال القرن العشرين. وقامت بنشر التحقيق الواسع مجلة (المسائل الدبلوماسية) سنة 1901 تحت إشراف ادمون فازي Fazy. وقد شارك في التحقيق علماء وباحثون من أوروبا وحتى بعض الآسيويين مثل وزير إيران في رومة، وهو ماكوم خان، وكذلك مستشار السلطان عبد الحميد الثاني، وهو موزدروس باي. وقد اشترك فيه من الجزائر محمد بن رحال. وبالإضافة إلى خبراء فرنسا اشترك في التحقيق المستشرق الإنكليزي براوني، والمجري غولد زيهر، وآخر من هولندا. وأعطيت التوجيهات لدراسة حالة الإسلام والمسلمين وقوة المسلمين وضعفهم وانتشارهم في العالم، وكيف سيكون عليه حالهم خلال القرن العشرين. ولم يهمل الدارسون علاقة الإسلام بالغرب، والوجود الإسلامي في إفريقية. أما من الفرنسيين فقد شارك رينيه باصيه، وادمون دوتيه، ووِيليام مارسيه، وغيرهم[1].

ونريد أن نتعرض لرأي باصيه وابن رحال فقط، الأول لأنه كان يمثل قمة الاستشراق الفرنسي، وكان مطلعاً من خلال تلاميذه الجزائريين وزملائه وتلاميذه الفرنسيين في المغرب العربي والسينيغال والمشرق، على أحوال العالم الإسلامي. والثاني باعتباره من أوائل المثقفين الجزائريين الذين كتبوا عن الإسلام في مواجهة الغرب وتعاملوا مع رجال الفكر والإدارة الفرنسيين وخرجوا من الصراع المحلي - الإسلام الجزائري - إلى الصراع العالمي بين الحضارات.

---

(1) العنوان هو (تحقيق حول مستقبل الإسلام). وقد نشر في مجلة (المسائل الدبلوماسية) .Q.D في الشهور التالية: يوليو، غشت، أكتوبر، نوفمبر 1901. وكان العلماء الفرنسيون المذكورون كتبوا عن الإسلام في شتى أنشطته. وقد أصبح دوتيه (وهو من علماء الاجتماع المتأثرين بنظرية دوركايم، ومن مستشاري الحكومة العامة خلال الحرب العالمية، في الشؤون الإسلامية، وهو صاحب كتاب (الإسلام الجزائري).

ومن رأي باصيه أن بلاده بقيت تجهل الإسلام والمسلمين منذ الحملة على مصر ثم الحملة على الجزائر. وعليها أن تفرق في معاملتها بين الإسلام في المغرب العربي (شمال إفريقية) والإسلام في إفريقية والسودان. ففي المغرب العربي حيث يسود الإسلام لا يمكن حصول التنصير التطوعي. ولذلك لجأت الإرساليات الكاثوليكية وغيرها إلى الوسائل الخيرية في التنصير واستعمال المدرسة التي قال إنها (محايدة). ونصح بالربط بين الاحتلال والمصالح المادية للمسلمين، وبعدم مدح الإسلام أمام الأهالي لأنهم سيزدادون تعصباً إذ سيقولون إن «الكفار» مدحوه، كما نصح بالإبقاء على نظام الديانة الإسلامية تحت رقابة الإدارة، لأن هيئة رجال الدين متعاونة مع الإدارة، وهي (الهيئة) وسيلة لتسريب التعليم الرسمي في المجتمع الأهلي. ورأى ضرورة الإبقاء على المدارس الرسمية الثلاث بشرط توجيه تعليمها توجيهاً أوروبياً. وأوصى بالتعامل الحذر مع الطرق الصوفية، وكذلك الحذر من دعاية الجامعة الإسلامية القادمة من الشرق، ومراقبة طريق الحج لأنه وسيلة لتوريد الأفكار. وفي نظر باصيه أن الأمر يختلف مع اسلام في إفريقية، لأن الوثنية منتشرة فيها. ويجب عدم الاطمئنان إلى الوثنيين المتنصرين أيضاً لأنهم قد يتغيرون[1]. فأنت ترى أن باصيه كان حذراً جداً في تعامله مع الإسلام والمسلمين، وأنه نصح بلاده بأن تكون كذلك حذرة سواء تعلق الأمر بالإسلام في المغرب العربي، ومع كل الفصائل، أو في إفريقية ولو مع الوثنيين المتنصرين.

أما محمد بن رحال فقد تحدث عن الإسلام في مناسبتين قريبتين من بعضهما، الأولى عند انعقاد مؤتمر المستشرقين في باريس سنة 1897، والثانية عند مشاركته في التحقيق المذكور سنة 1901. وفي المناسبة الأولى تحدث إلى العلماء الفرنسيين وغيرهم عن الإسلام في الجزائر، ووصف المسلمين بالتخلف التقني والتعليمي، ولكنه انتقد فرنسا والغرب على فساد

---

(1) باصيه، مرجع سابق، أول أكتوبر، 1901، ص 388 ـ 389.

الأخلاق وانتشار الخمر والزنى والمراباة، وقد تساءل ما إذا كان المسيحي سيلجأ في النهاية إلى الإسلام كآخر ملجإ له. وقد لام ابن رحال الذين كانوا يرمون الإسلام وأهله بشتى أنواع التهم، ومدح الذين فهموه وعرفوا رسالته، وتمنى أن يدعو علماء الغرب إلى تغيير المفاهيم حول الإسلام والدخول في حوار مع العالم الإسلامي. وقرر ابن رحال شيئاً كان موجوداً وهو أن الجزائر هي مفتاح إفريقية، وأشار إلى الرابطة التي كانت بين فرنسا والإسلام في القارة السوداء. ولكنه حذر من عواقب الاحتلال وتفقير الأهالي، وحذّر المؤتمرين بصراحة متناهية، فقال إن جماهير المسلمين ستتحدّى إذا رأوا تسلط الأجانب مهما كان جهدهم عظيماً، وأن القرن العشرين سيحل مشاكله إما بالطرق السلمية وإما بمواجهة النكبات، ومن النكبات في رأيه بقاء المسيحية على عدائها للإسلام، ومن رأيه أن العالم الإسلامي سيدخل عهد التمدن سواء بواسطة فرنسا أو بدونها[1].

وقد انطلق ابن رحال في بحثه حول مستقبل الإسلام من بحثه الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين، وكان يكرر في الثاني ما ذكره في الأول. ونظر في بحثه سنة 1901 إلى الإسلام الواحد أو الشامل في مختلف الأصقاع. وذهب إلى أن الإسلام يتبع نبض الحضارة العالمية في كل شيء ما عدا العقيدة والأخلاق والأسرة. ونوه بالمسلمين القدماء الذين خدموا الحضارة وقدموها صائغة إلى أوروبا، وأنه بإمكان المسلمين أن يأخذوا مكانهم من جديد إذا سمحت لهم الظروف. وقال إن المسلم يملك طاقة جبارة للمقاومة وهي التي تمده بالقدرة على الانتظار دون المدافعة ودون الموت.

واعترف ابن رحال أن دول العالم الإسلامي متخلفة ومنقسمة على

---

(1) كريستلو (المحاكم)، ص 247. وهنا وهناك. وسبق لابن رحال أن نشر نصاً من كتاب نزهة الحادي للأفراني عن إفريقية ونشره في مجلة الجمعية الجغرافية لوهران، 1887. وعن حياة ابن رحال انظر فصل الترجمة. وقد كتب عنه آجرون بحثاً في كتاب (الأفارقة) الذي كان يشرف عليه جوليان، ج 8، باريس 1977، والبحث بعنوان: «محمد بن رحال ضمير قلق في جزائر متحولة» وقد نَوَّهَ به بعض الجزائريين أمثال الشيخ الإبراهيمي في الجزء الخامس من آثاره.

نفسها، ولكن التعليم حسب رأيه، سيجعلها تستعيد مكانها في العالم، كما أن عداوة المسيحية لها ستجعلها تتوحد. ولذلك قال إن مصلحة الغرب المتحضر هي في الارتباط بالإسلام وفي تقديم المساعدات له، ويمكن التفاهم بين الطرفين في نظر ابن رحال، بعمل مزدوج وهو: معرفة العالم المسيحي للإسلام ومعرفة العالم الإسلامي للحضارة الغربية. وطالب بنبذ الأحكام المسبقة وبمدّ الأيدي الغربية نحو المسلمين الحقيقيين (النخبة؟) ذوي الاستعداد للتفهم والتضحية. وكرر مقولته بأن على فرنسا أن تساعد إفريقية لأنها إذا لم تساعدها فإنها ستتقدم بدون فرنسا، وقال إن إفريقية مسكونة بالبربر والزنوج، أما العرب فعددهم قليل، وأن البربري متمسك بدينه وأرضه وتقاليده، وأنه في ذلك مثل العربي البدوي. ووصف الزنوج بأنهم بدائيون ويمثلون لوحة عذراء يمكن الكتابة عليها دون خوف من محو أي شيء فيها، وهم يمثلون أيضاً أرضاً خصبة للإسلام[1].

ونعني بوحدة الأديان الدعوة التي ظهرت في الجزائر بين الحربين تقريباً لتبشر بالعناصر المشتركة في الأديان الثلاثة، وهي الإسلام والمسيحية واليهودية. ولا ندري دوافع هذه الدعوة بالضبط هل هي بديلة للحركة الوطنية التي ظهرت في هذه الأثناء لتضعفها؟ وهل هي جزء من فلسفة الاندماج الحضاري الذي كانت «النخبة» تدعو إليه، وكذلك بعض القادة الفرنسيين أمثال موريس فيوليت، وهو الاندماج الذي كانت تسعى إليه الماسونية أيضاً؟ وهل هي دعوة ظهرت مع ظهور الحركة الصهيونية في المشرق، تمهيداً لقبول اليهودية والوطن القومي في فلسطين؟ وأخيراً لعل وحدة الأديان فكرة بديلة لحركة التنصير التي فشلت فشلاً ذريعاً بعد الجهد الذي بذله آباء لافيجري وأخواته.

والحديث عن وحدة الأديان غير جديد في الجزائر. فقد نسبوا إلى

(1) محمد بن رحال «مستقبل الإسلام» في (المسائل الدبلوماسية)، أول نوفمبر، 1901، ص 538 ـ 550. كنا تناولنا ابن رحال في عدة أماكن أخرى، مثل التعليم، انظره.

الأمير عبد القادر قوله (وهو قول مشكوك فيه): لو أن المسلمين والمسيحيين استمعوا إلي لأنهيت الخلاف بينهم، ولأصبحوا إخوة في الظاهر والباطن. وقالوا إن الأمير كان يعيش مسلماً ومتصوفاً. وفسروا تدخله في حوادث الشام على أنه من قناعته في التسامح الديني لأنه وهو مسلم ومجاهد، تدخل لإنقاذ آلاف المسيحيين. وكان الأمير قد عبر في الجزائر للأسقف ذوبوش عن احترامه للدين، وعن عقيدته في أن الدين واحد، وأنه عندما أصبح متصوفاً كان يبحث عن الوحدة الداخلية أو الباطنية. وبناء على ذلك فالأمير كان غير متعصب في نظرهم[1]. ونسب هنري دوفيرييه إلى الحاج عثمان بن الحاج البكري، أحد مقدمي التجانية في الطوارق، أثناء زيارته لفرنسا سنة 1862، أنه أعلن للفرنسيين عندئذ: أن كل دين يمكن أن يقال عنه أنه أفضل من غيره. ونحن المسلمين نقول: إن القرآن قد أكمل الإنجيل والتوراة. ولكن لا أحد ينكر أن الله اختص المسيحيين بمؤهلات بدنية وأخلاقية عظيمة[2].

وفي سنة 1905 قدم عبد الحليم بن سماية بحثاً إلى مؤتمر المستشرقين بالجزائر قال فيه إن الإسلام يتلخص في الثلاثية المعروفة، وهي الحرية والإخاء والمساواة (شعار الماسونية والثورة الفرنسية). كما أنه نوه بما في الإسلام من الالتزام بالصدق والإخلاص والمروءة والعدل والتواضع واحترام الجار، وغيرها من الفضائل.

وظاهرة عدم التعصب عند المسلمين قد لاحظها الكتاب الفرنسيون في

---

(1) لويس فينيون (فرنسا في شمال إفريقية)، ص 250 هامش 1. ونسب إلى الأمير قوله في رسالة بعثها إلى الجمعية الآسيوية/ الفرنسية أن كل الأنبياء من آدم إلى محمد ﷺ متفقون على وحدة الله وعبادته، ولهم رسالة واحدة، إنما الذي اختلفت عبر العصور هي التفاصيل، وإنما الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) دين واحد في الأساس. ولعل الأمير إنما يشير إلى الملة الإبراهيمية. انظر أيضاً كتاب (المواقف) للأمير. وقد عالجناه في مكان آخر.

(2) هنري دوفيرييه (اكتشاف الصحراء)، باريس، 1864، ص 333. انظر أيضاً فصل الطرق الصوفية.

غير ما مرة، رغم أنهم استعملوا وصف «المتعصب» لكل ثائر ضدهم. وكلمة «فانتيك» التي تعني المتعصب كانوا يرمون بها الثائرين والسياسيين أكثر مما كانوا يرمون بها رجال الدين أو المواطنين العاديين. وقد اندهش الفرنسيون من استسلام الجزائريين للأمر الواقع عندما أخذ الفرنسيون فؤوسهم ومعاولهم وأسقطوا جامع السيدة بالعاصمة، وكانوا يرددون همساً كلمة «مكتوب». وكذلك كان رد فعل الجزائريين عندما حول الفرنسيون جامع كتشاوة إلى كنيسة. وقالوا إن القسيس (سوشي) قد قدم إليه الأهالي الكرسي والزربية عندما حول جامع سوق الغزل إلى كنيسة في قسنطينة. كل هذه وغيرها دليل في نظر هؤلاء الكتاب على «تسامح» الجزائريين. وهو في الواقع خضوع للقوة والجبروت فقط وليس تسامحاً ورضى بالاغتصاب والقهر.

وفي هذه الحالة يصبح المتعصبون هم الفرنسيين. فهم الذين اعتدوا على حرمات المساجد رغم تعهدهم الرسمي باحترام الدين الإسلامي. وقد نصبوا كنيستهم في قلب أحد المساجد بالعاصمة. ونادوا باستعادة الكنيسة الإفريقية القديمة. وأخذوا يُنَصّرون السكان بكل قواهم وإمكاناتهم. وكانوا يتعرضون بالأذى والشتم للإسلام ولنبيه وقرآنه. رغم أنهم كانوا يقولون إنهم متحضرون بينما الجزائريون غارقون في البداوة وفي حاجة إلى جهود لإدخالهم في الحضارة. والغريب أن أحد كتابهم يقول: إن الآباء النصرانيين والقساوسة كانوا لا يتدخلون في شؤون المسلمين إلا عن طريق أفعال الخير (؟) وتمتين الصداقة مع الأيمة والمفتين. أما محاولة فصل البربر ومباركة تزويج رجال الدين المسلمين بفرنسيات، كما فعل لافيجري مع أوريلي التجاني، فذلك في نظر هذا الكاتب من أفعال الخير.

وقد وجدنا جزائريين اعتنقوا المسيحية بينما لا نكاد نجد من اعتنق الإسلام من الفرنسيين. فهل هذا راجع أيضاً إلى التسامح الإسلامي أو إلى أفعال الخير التي كان يقوم بها رجال وأخوات الكاردينال لافيجري؟ من الجزائريين الذين اعتنقوا المسيحية أفراد نشأوا أيتاماً نتيجة المجاعة التي حدثت في آخر الستينات من القرن الماضي. وقد تعرضنا إلى ذلك في فصل

آخر[1]. ومنهم أفراد أصبحوا معلمين بعد تخرجهم من مدارس الآباء البيض أو من مدرسة النورمال. وتذكر المصادر الفرنسية منهم: ولد عودية، وجوزيف زنتار، وأوغسطين إيبازيزن. واعتبر بعض الفرنسيين وجود هؤلاء علامة على نجاح التنصير في البربر. وقد تزوج أولئك النفر من فرنسيات. ووصلوا، كما يقولون، إلى درجات عليا في السلم الإداري والمهن الحرة. وأصدر أحدهم، وهو جوزيف زنتار، مجلة سماها (المطورني)، كما أصدر الأب جيو كوبيتي نشرة سماها (الاتحاد الكاثوليكي ـ الأهلي)، وأعلن إيبازيزن أنه اختار لنفسه اسم أوغسطين المسيحي لأنه يجعله يرجع إلى دين أجداده! وهاجم بعضهم الإسلام كما فعل حسني لحمق[2].

أما الفرنسيون الذين اعتنقوا الإسلام فلا نكاد نجد لهم ذكراً، رغم الدعوة إلى التسامح ووحدة الأديان والتسامي الحضاري. ويبدو أن قانون تقليد المغلوب للغالب قد انطبق حتى على الأديان في الجزائر. فالإسلام الذي اعتنقه ملايين البشر في أوروبا وآسيا وإفريقيا لم يعتنقه إلا فرنسي ونصف طيلة قرن وربع من الحكم الفرنسي للجزائر. أما الفرنسي الذي قيل إنه اعتنقه فهو إيتيان دينيه الذي سمى نفسه ناصر الدين. وقد أدى فريضة الحج في آخر حياته، وألف كتاباً عن حياة الرسول ﷺ بالمشاركة مع أحد الجزائريين وهو سليمان بن إبراهيم، بناء على المصادر الإسلامية وليس على مصادر المستشرقين المغرضة[3]. ولكن لوحات إيتيان دينيه الفنية عن الحياة في الصحراء، وعن المرأة بالذات، لا تدل على تقيده بالقواعد الإسلامية. ولا ندري هل تقمص دينيه شخصية شارل دي فوكو أو كان مخلصاً في دينيه.

---

(1) انظر فصل الاستشراق.

(2) ذكر مالك بن نبي في المذكرات نماذج من الجزائريين الذين تجندوا لخدمة المصالح الفرنسية بدخولهم المسيحية وخدمة أغراض أنسانية، وذكر منهم عمار نارون.

(3) إذا صدقنا بعض الباحثين المتأخرين فإن دينيه قد اعتنق الإسلام مبكراً، أي في حياة الشيخ محمد بن بلقاسم الهاملي (ت. 1897). فهو الذي خطط لختانه سراً في مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة. انظر كلنسي ـ سميث (ثائر وقديس).

فذلك سر لا يعلمه إلا الله الذي «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور»[1].
ومهما كان الأمر فإن دينيه قد توفي في فرنسا، ودفن في بوسعادة سنة 1930. وحضر تأبينه أعيان المسلمين، ومنهم الطبيب العقبي وأحمد توفيق المدني. ويعتقد فيه الناس عقائد مختلفة.

وأما نصف الفرنسي الذي اعتنق الإسلام فهو توماس أوربان الذي تسمى (إسماعيل عربان). وكان من أتباع مذهب سان سيمون. وقد ذهب إلى مصر قبل الجزائر، واطلع على حياة الشرق واعتنق هناك الإسلام. ثم جاء إلى الجزائر وأصبح من المترجمين البارزين في الإدارة الفرنسية، وارتقى حتى أصبح مترجم الامبراطور نابليون الثالث. وألف عدة كتب ومقالات ودافع عن الجزائريين ضد الاستغلال الفاحش، ولكنه لم يعارض الاستعمار كوسيلة حضارية. وكان عربان هجينا من أب فرنسي وأم أهلية من كايان حيث ولد. وفي الجزائر تزوج عربان من امرأة مسلمة من قسنطينة. وعاش معها طويلاً وأنجب منها بنتاً. وقد مرضت زوجته وهي عنده ثم توفيت. ثم ظهر له الزواج من امرأة فرنسية فاشترطت عليه الرجوع إلى المسيحية فرجع وتزوجها في مراحل حياته الأخيرة. ولذلك قلنا إنه كان نصف مسلم.

ولكن أمثال ليون روش في الإسلام كانوا موجودين. فقد ادعى روش للأمير والجزائريين أنه اعتنق الإسلام، كما ذكرنا، فانخدعوا فيه. واعتبروه منهم لتسامحهم الطبيعي الساذج. ويذكر ادريان بيربروجر أنه عندما قابل الأمير في نهاية سنة 1837 في برج حمزة طلب منه إعادة الشاب الهارب إليه (يقصد ليون روش) لأن والده حزين عليه، فرفض الأمير بصلابة أن يسلّم مسلماً هرب إليه وهو يقول (لا إله إلا الله)، لأن ذلك مخالف للشريعة الإسلامية[2]. ولم يبق روش بعد ذلك سوى سنة ونصف أخرى، ثم هرب من عند الأمير، ورجع إلى قومه بعد أن أدى دوره باتقان. وثمة جنود فرنسيون اعتنقوا الإسلام لينتقموا من بعض كبارهم، كما حدث للجندي

(1) الآية 19 من سورة غافر.
(2) بيربروجر (رحلة إلى معسكر الأمير)، ط. 1839. وقد ترجمناها إلى العربية.

الذي فر إلى الحجوط، وتمكن من قتل غريمه، ثم قبض عليه الفرنسيون وأعدموه. وأمثال هذه الأحداث موجودة، وكذلك النطق بالشهادة من الفرنسيين المقبوض عليهم لينجوا من القتل، ونحو ذلك. وهذا النوع لا يدخل في اعتناق الإسلام عن طواعية وقناعة. وقد قيل إن محمد الشريف جوكلاري الذي ظهر اسمه في الصحف (مثلاً المرصاد؟) في الثلاثينات، كان فرنسياً رضي بالإسلام واختار اسم محمد الشريف[1].

أما الأوروبيون (الفرنسيون) الذين تأثروا بالإسلام وروحانيته دون أن يعتنقوه فكانوا نادرين، وقد عبروا عن آراء فلسفية أو ميتافيزيقية جديرة بالدراسة. ونحن لا نتحدث إلا عن فرنسيي الجزائر أو من كان لهم أثر عليهم مثل المستشرق ماسينيون. وقد اعتنى بعض الدارسين بالزوايا والحياة الصوفية في الجزائر، مثل لويس رين والاسكندر جولي وألفريد بيل، دون أن يتأثروا بها أو ينجذبوا إليها، بل على العكس كانوا خصوماً لها، أو كانوا ضد الدين من حيث هو مثل لويس رين. ولكن شخصاً مثل شوون Schuon قد دخل في الزاوية العليوية بمستغانم، وألف كتاباً سماه (الوحدة السامية للأديان). وكان ذلك على عهد الشيخ أحمد بن المصطفى بن عليوة مؤسس الزاوية. كما ألف شوون عدة كتب أخرى في التصوف، وهو من تلاميذ رينيه غينون R. Guénon الذي ألف كتاباً في أجزاء عن التقارب بين التقاليد الدينية على المستوى الميتافيزيقي، وأحدث بذلك تياراً جديداً في ميدان الفكر الديني.

وقد سلطت وسائل الإعلام الفرنسية وكذلك الإعلام الديني الكنسي، الأضواء على شخصية الشيخ ابن عليوة خلال العشرينات وبداية الثلاثينات. وخصه بعضهم بالدراسة ووصفه بأوصاف غير عادية مثل المرابط المجدد. كما نسبوا إليه القول بالتثليث ـ أي وحدة الأديان الثلاثة. ويبدو أن ذلك جاء بالضبط في وقت ظهور الدعوة لوحدة الأديان التي نحن بصددها. وقد سافر الشيخ ابن عليوة بحراً إلى فرنسا لحضور حفل افتتاح جامع باريس ورافقه في

---

(1) ذكر ذلك مالك بن نبي في (المذكرات)، ونوه به.

الرحلة القس جيو كوبيتي. ودار بينهما نقاش حول العقائد في الأديان الثلاثة. وكان هذا القس مستعرباً وداعية دينياً. وقد انتقده البعض بأنه اكتفى في حواره مع الشيخ ابن عليوة بالجوانب الجافة من العقائد. وأن نقاشهما لم يتحول إلى حوار ودي وتعاطف ديني[1]. وكان بعض الفرنسيين يعالجون ابن عليوة ويناقشونه في المسائل الصوفية، وربما كانوا يؤثرون عليه لأغراض خاصة.

ويذكرون ملاقاة أخرى «ودية» نشأت بين الأستاذ هنري جاهبيي Jahbier والشيخ نور الدين عبد القادر. وكان جاهبيي مستعرباً ورئيساً لجمعية القديس لوقا الطبية. ويبدو أن صداقته للشيخ عبد القادر قد أنتجت ثمارها. فقد فاجأ (جاهبيي) الرأي العام الفرنسي بحديث عما في القرآن الكريم من أخبار عن السيدة مريم وعيسى (عليه السلام). وكذلك اشترك الاثنان في إصدار قصيدة ابن سينا في الطب[2].

ويدخل الزواج المختلط في هذا التقارب الودي بين الأديان أيضاً. فزواج امرأة فرنسية مسيحية من شيخ الطريقة التجانية فسره أصحاب هذه الدعوى لصالحهم. ذلك ان زواج أوريلي بيكار من الشاب أحمد التجاني سنة 1872 في بوردو، قد عارضه الرسميون وباركته الكنيسة وعلى رأسها لافيجري. وقد قيل عندئذ ان أوريلي قد تعهدت بتطوير الطريقة وازدهارها وتنظيمها دون اعتناق الإسلام فيما يبدو، ويقول قوانار إنها ماتت وهي مطلوبة من الطريقة ومن القس بي Py، داعية إفريقية، وهي حاملة معها أسرارها إلى قبرها[3].

---

(1) قوانار (الجزائر) مرجع سابق، ص 313. عن ابن عليوة انظر أيضاً فصل الطرق الصوفية وبحث أوغسطين بيرك عنه. وكتاب لانق (الشيخ أحمد العلوي)، ط. بيروت، 1971، وهو مترجم عن الإنكليزية. وكان لانق من أتباعه.

(2) منشورات كلية الآداب، 1956.

(3) قوانار، مرجع سابق، 313. وحياة أوريلي كتبتها مارث باسين M. Bassinne بعنوان (أوريلي التجاني: أميرة الرمال) باريس 1925. وكذلك فريسون روش (جبل عمور)، باريس، 1975. ولعل الإشارة إلى «أسرارها» أنها ماتت دون أن تعلن إسلامها.

ومن المسلمين الذين تأثروا بالإسلام أرنست بيشاري، حفيد أرنست رينان الشهير. وقد وصف في كتابه (رحلة السنتوريون) الأثر الذي تركه عنده الهدوء والوحدة في الصحراء، كما وصف درجة الإيمان عند المسلمين عندما قال له أحدهم (أنتم لكم الدنيا ونحن لنا الآخرة). وقد تأثر بيشاري كثيراً بهذا الجو. ويذكر بعض الفرنسيين أن شارل دي فوكو قد بقي سنة كاملة في زاوية الأبيض سيدي الشيخ وتأثر بالأجواء الصوفية وروحانية الإسلام. ومع ذلك حارب هذا الراهب ـ الجندي (شارل دي فوكو) بوعمامة، وساعد صديقه المارشال ليوتي على احتلال المغرب الأقصى. كما أنه استدرج أهل الطوارق لاعتناق المسيحية.

وزعم لويس ماسينيون أن الإسلام يتماشى مع «التيار الجديد» الذي أحدثه كتاب رينيه قينون ـ وهو (التقارب بين الأديان) ـ فركز ماسينيون أيضاً على ذلك واهتم بالتصوف الإسلامي أو بنوع خاص منه وهو المغرق في الغموض والحلول مثل تصوف أبي منصور الحلاج، ونشر ديوان (الطواسين) الذي قيل إن ماسينيون قد فتح به للمسيحية المغلفة مغلقات العالم الروحاني الآخر. ودعا ماسينيون أيضاً إلى التقارب بين الأديان، وكون تلاميذ يؤمنون بهذا التيار، ومنهم ديرمنغام الذي تولى إدارة مكتبة قصر الحكومة في الجزائر، وأصدر عدة أعمال حول التصوف المسيحي، كما درس خصائص التصوف الإسلامي في المغرب العربي متماشياً في ذلك مع نفس المنظور، وهو التقارب بين الأديان وانفتاح بعضها على بعض.

أما الإسلام واليهودية، فقد ذكرنا سابقاً أنهما تعايشا منذ قرون دون أن يضطهد أحدهما الآخر. فالإسلام يعترف بوجود الأديان، أديان أهل الكتاب، ويحفظ لها ولأهلها الكرامة والممارسة الحرة لشعائرها. وما وقع أحياناً بين المسلمين واليهود إنما حدث في عهد الاحتلال لأن الإدارة نفسها ساعدت على خلق التوتر بين السكان عامة. ومن جهة أخرى فإن ما حدث لم يكن بين الأديان وإنما بين السكان لأسباب اجتماعية واقتصادية وليست دينية فيما

يبدو. ولم تظهر فكرة معاداة السامية إلا في العهد الاستعماري، وبين الفرنسيين والأوروبيين. وكانت غير معروفة في المصطلحات الجزائرية. ولكن الحركة الصهيونية سيّست العلاقة بين المسلمين واليهود، فأصبح اليهودي ليس هو مجرد الإنسان الذي يدين باليهودية، وإنما هو ذلك الذي يعمل على انتزاع أرض فلسطين وإقامة وطن قومي غريب فيها. والغريب أن أحداث قسنطينة سنة 1934 قد فسرها بعض الكتاب الفرنسيين على أنها من صنع جمعية العلماء ضد الصهيونية[1]، بينما هي في أغلب التقديرات كانت رد فعل المسلمين على الاعتداء على حرمة أحد مساجدهم من جهة واستفزاز الجالية اليهودية (وهي فرنسية) التي أطلق أفرادها النار على المسلمين المتجمهرين. وتتهم صحف جمعية العلماء وتصريحات رجالها السلطة المحلية نفسها بخلق التوتر لضرب أهداف معينة في التيار الوطني، كما حدث سنة 1936 عندما ضربت حركة المؤتمر الإسلامي وجمعية العلماء باعتقال الشيخ العقبي.

وفي السنة التي توفي فيها الشيخ ابن عليوة (1934) انعقد في لندن (مؤتمر الأديان الثلاثة)، ولا ندري من حضره من الجزائريين. وبعده بحوالي عشر سنوات (1946) ظهرت جمعية مماثلة في باريس، بل هي فرع عن المؤتمر المذكور الذي سمي بمؤتمر المؤمنين. وفي 1959 ظهرت في بوفاريك بالجزائر (جمعية توحيد الأديان الثلاثة) التي تدعو إلى احترام هذه الأديان وإلى الأخوة بين أهلها[2].

إن التقارب بين الأديان فكرة قديمة عند الفلاسفة المسلمين، وكان

---

(1) اعتمدنا على كتاب قوانار (الجزائر) مرجع سابق، ص 313 ـ 314، ومقالة أوغسطين بيرك عن الشيخ ابن عليوة «مرابط عصري» في المجلة الإفريقية، ومقالة ديرمنغام عن الإسلام في (مدخل إلى الجزائر)، و (حولية) ماسينيون عن العالم الإسلامي.

(2) الهاشمي التجاني «الإصلاح وجمعية القيم» في مجلة (الموافقات)، عدد 2، 1993 ص 179.

الحكام المسلمون في مختلف عهودهم غالباً متسامحين، ما عدا النادر الذي لا يقاس عليه، مع الأديان والطوائف الأخرى. ولكن ضعف المسلمين وارتباط هذه الطوائف بالدول الكبرى الغازية، ثم وقوع العالم الإسلامي نفسه لقمة في فم تلك الدول، قد جعل الحديث عن التقارب والتسامح كحديث الطرشان. فالتسامح مثل العفو والصفح، لا يكون إلا عند المقدرة. أما المغلوب على أمره فتسامحه إنما هو زيادة في إضاعة حقوقه التي استولى عليها الغالب، وهو دليل أيضاً على بلادته.

المثالية والاشتراكية

ظهرت السانسيمونية أوائل القرن الماضي في فرنسا وفي غيرها من البلدان الأوروبية، على يد سان سيمون. لقد جاءت لتساهم في حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي طرأت على المجتمع الأوروبي من جراء الاختلال في التوازن الطبقي واختلال العدل الاجتماعي في توزيع الثروات. وكان هناك خوف كبير لدى المفكرين من أن ذلك الاختلال سيؤدي إلى البغضاء والثورة.

لذلك ظهر السانسيمونيون بأفكارهم المثالية، وبشروا بمجتمع يسوده العدل والنظام والانسجام، عن طريق التشارك والعمل الجماعي الذي يؤدي بدوره إلى التشارك في الثروة والربح عن طريق حماية الدولة. فتدخل الدولة ضروري عندهم لضمان بقاء وسير الوحدات الإنتاجية الجماعية وتوفير الوسائل المنتجة. وقد أسسوا أجهزة للإعلام والإشهار، وأخرى لاستقطاب العمال وتوفير الأرض التي تقوم عليها الوحدات الإنتاجية، وأخذوا يجربون أفكارهم في الميدان دون أن يصطدموا بالواقع، بعيداً عن الغوغائية.

وبينما كان السانسيمونيون يبحثون عن الميادين لإقامة تجاربهم النموذجية في التشارك المنتج، وقع احتلال الجزائر. وبعد السنوات الأربع الأولى التي كان الحديث خلالها يدور حول البقاء فيها أو الجلاء عنها،

تغلبت كفة البقاء، ومن ثمة تولدت فكرة استعمارها (تعميرها) باعتبارها نموذجاً من الأرض الصالحة لإقامة التجارب النموذجية التي يدعون إليها[1]. وكان عدد من قادة الجيش الفرنسي من المنتمين إلى الحركة السانسيمونية، كما كان عدد من المدنيين والصحفيين والنواب. وكانت الجزائر تمثل في نظرهم «المجتمع البدائي» الذي يمكن إجراء التجارب الناجحة عليه. لقد جربوا حظهم في مصر في البعثة التي قادها أونفتان Enfentain سنة 1833. ولكنهم فشلوا، فالجزائر إذن تمثل منتهى طموحهم لوجود الجيش والإدارة ووسائل الإعلام الأوروبية من جهة، والمجتمع الأهلي المؤهل لإجراء التجارب عليه من جهة أخرى. وفوق ذلك كله كانت ملكية الأرض في الجزائر من الأساس جماعية «شيوعية»، فهي ملك للقبيلة والعرش والجماعة وليست للفرد. وفيها أيضاً نظام إقطاعي ـ ارستقراطي صالح لتطبيق التجربة.

وهكذا دخل السانسيمونيون ميدان النشاط في الجزائر وعلى جميع المستويات. وكان أونفتتان هو أب هذا النشاط، وهم حقاً يسمونه (الأب). وقد أثروا بالخصوص أثناء سنوات 1850 ـ 1870، فهم الذين كانوا وراء المشاريع الاقتصادية الكبرى في الجزائر. وقد تأثر بهم نابليون الثالث الذي كان أيضاً سانسيمونياً مثلهم، وكان مشتركاً في جريدتهم المسماة (الورشة). ومن كتابهم في الحزائر توماس أوربان والدكتور وارنييه، رغم الاختلاف الكبير بينهما..

جاء أونفتتان إلى الجزائر سنة 1843، وبعد ذلك أصدر كتاباً بعنوان (استعمار الجزائر). وقد وضع فيه خطة لتطبيق المشروع السانسيموني، واعتبره البعض كتاباً جيداً وضع فيه المؤلف أسس نظام جديد للاستعمار في الجزائر. لقد جاء الكتاب على أثر تجربة المارشال بوجو فيما سمي

---

(1) نشير بذلك إلى ما يسميه المؤرخون الفرنسيون «فترة التردد» وهي عندهم من 1830 ـ 1834، وخلالها كانت الحكومة الفرنسية لم تقرر سياستها نحو الجزائر، ولكن توصيات اللجنة الإفريقية كانت صريحة في ضرورة المحافظة على الجزائر واستعمارها.

بالاستعمار العسكري الجماعي، أي إقامة مستوطنات من الجنود وليس من المدنيين. وقد صدر كتاب أونفنتان في نفس الوقت (1843) فأقام نظرية الاستعمار الجماعي بأسلوب جديد. درس أونفنتان نظام الأملاك العقارية عند الجزائريين وقارنها بمثيلاتها في فرنسا، واستخلص الفروق. وبدا له أن الجزائر صالحة لتطبيق مبدإ إقامة التجمعات المجهولة لحل المشكل السياسي لتنظيم العمل، لأن مبدإ التجمع الصناعي ما هو، في نظره، إلا العنصر الخلاق بالنسبة لعلاقات الملكية. وقد نادى أونفنتان بضرورة تدخل الدولة بقوة في تشكيل الملكية في الجزائر. فالجيش الفرنسي يقوم فيها بأعمال الهدم، ومن ثمة يمكن للدولة أن تقوم بتنظيم البناء والعمل المنتج بواسطة الصناعة. ورأى أونفنتان أن استعمال الجيش في الأشغال العمومية هو استعمال انتقالي فقط لأن الدولة هي التي ستنشىء أجهزتها الخاصة بالأشغال العامة، وهي أجهزة دائمة.

ومن المبادىء التي توصل إليها أونفنتان أنه لا يمكن نقل نظام الملكية الفرنسي بحذافيره إلى الجزائر لاختلاف النظامين. ولكنه آمن بضرورة تولي الدولة في الجزائر شؤون الإدارة والحكم وتوجيه العمل. كما أنه لا يمكن، في نظره، الإبقاء على النظام الأهلي في الملكية بدون مساس، ولا توريد النظام الفرنسي للأوروبيين في الجزائر. ومن ثمة قال بضرورة إحداث نظام جديد يقوم على مصادرة أملاك الأهالي من الأراضي، مع تعويضهم (؟)، مقترحاً أن يكون النظام الجديد شبيهاً بنظام القبيلة العربية أكثر مما هو شبيه بنظام القرية الفرنسية. فقد لاحظ أن «الدوار» لأهلي يمثل النموذج التقريبي في إدارة الأملاك والحياة الاجتماعية التي يسعى إليها السانسيمونيون. ولذلك اقترح أن يكون المركز الجديد قائم الذات إدارياً، على أن يضم العناصر الأساسية: من الشيخ إلى القاضي إلى الماء والسوق... ويسمى أونفنتان ذلك بالقرية الحقيقية أو المثالية التي تعمل في تشارك والتي تختفي فيها آثار الفردية.

وكان أونفنتان قد عينته الحكومة منذ 1839 في (اللجنة العلمية) التي

كانت مهمتها دراسة أوضاع الجزائر «واكتشافها» من جميع النواحي[1]. وكان المطلوب من الأعضاء تقديم تقرير عن الجانب الذي اختاره كل منهم بعد أن يكون قد أقام فيها وعاين أوضاعها. وقد قبل أونفنتان المشاركة في اللجنة، وذهب إلى الجزائر وأطال الإقامة فيها أكثر من غيره حيث مكث سنتين. ويقال عنه إنه كان يعتقد أنه بإطالة الإقامة وتقديم عمل شامل ومفصل عن مشروعه سيغري الحكومة بتعيينه في منصب عام يحقق من خلاله مشاريعه الاشتراكية أو التشاركية. وكانت حصيلة إقامته الطويلة في الجزائر ونشاطه «العلمي» فيها هو كتابه سابق الذكر (استعمار الجزائر).

ورغم رجوعه إلى فرنسا فإن تلاميذه قد واصلوا مهمته في الجزائر. وكان له منهم الكثير. وكانوا ينشرون الكتيبات والمقالات في الصحف حول استعمار الجزائر، ومنهم فورنيل، وتوماس أوربان، وماصول، وبراكس، ولاشيفر... وكان بعضهم من العسكريين (مثل بيقو Bigot ومرنقو، ولامورسيير، ولوفران، ولاباسيه، وريشار الخ). أو من العاملين في المشاريع الكبرى (مثل المهندس بوريل الذي بنى المول (المرسى) القديم عند العاصمة، والجيولوجي هنري فورنيل سابق الذكر، والأخوة طالابو في ميدان الأشغال العامة والمناجم) أو من رجال المالية (مثل إيميل روبير مؤسس بنك الجزائر الفلاحي سنة 1861)، أو المكتشفين (مثل العقيد كاريت ودوفيرييه). فهؤلاء وغيرهم هم تلاميذ أونفنتان في الجزائر. بالإضافة إلى عدد من الفنانين والأطباء والتجار وتلاميذ مدرسة الصنائع/ البوليتكنيك). وفي بعض الأحيان أصبح السانسيمونيون يسيطرون على الإدارة في الجزائر أيضاً. فقد كان ثلاثة ولاة منهم في وقت واحد (د. وارنييه في وهران، والعقيد كاريت في قسنطينة، والصحفي لاكروا في الجزائر)، وكان ذلك في نهاية الأربعينات.

إن حاشية الامبراطور نفسه كانت منهم. فالجنرال فلوري كان

(1) عن هذه اللجنة انظر فصل الاستشراق.

سانسيمونياً، وكذلك البارون جيروم دفيد الذي عاش تسع سنوات في الجزائر ضابطاً في المكاتب العربية. ومن آثاره (بحوث حول الملكية عند العرب)، وكان البارون دفيد ضد عملية تحشيد أو حشر (الكانتونمان) القبائل العربية، وكان يقول مثل عربان: إن «الجزائر للجزائريين»[1]. إضافة إلى إسماعيل عربان (توماس أوربان) الذي اقترب من نابليون منذ زيارته الأولى للجزائر 1860. وقد أعجب الامبراطور بأفكاره المنشورة في الكتب والصحف. والغريب أن السانسيمونيين قد ساندوا مرسوم الأرض لسنة 1863 الذي اعترف بالملكية القبلية (الجماعية) للجزائريين، وفي نفس الوقت كان يهدف إلى إنشاء الملكية الفردية وانتزاع الأرض في النهاية من أهلها عن طريق حرية الشراء وإعطائها للكولون. فالسانسيمونيون إذن كانوا من هذه الناحية هم المحرضين على الاستعمار وكانوا هم الأدوات لتنفيذه. وقد نسب إليهم مارسيل إيمريت في كتابه عن السانسيمونية، المشاريع الاقتصادية الكبرى، واكتشاف الصحراء، وركز على دور إسماعيل عربان ولاباسيه، وكان الأخير متأثراً بأفكار فورييه[2]. وتمثل حياة إسماعيل عربان نموذجاً لهذا التذبذب الخطير في نظرية هذه المدرسة التشاركية ـ المثالية (الاستعمارية؟).

إسماعيل عربان:

من الشخصيات التي تركت بصماتها على تاريخ الاستعمار في الجزائر، إسماعيل عربان (توماس أوربان). وهو فرنسي من مواليد كايان، أبوه فرنسي من تجار مرسيليا، وأمه من كايان، وكانت هي أيضاً مهجّنة من والدين مختلطين. وكان ميلاده غير الشرعي قد ظل ينغص على إسماعيل عربان كل حياته، حسب الدراسة التي خصه بها شارل روبير آجرون. وباعتباره رجلاً ملوناً، كان عربان

---

(1) جاكلين بيلي (عندما أصبحت الجزائر..) ص 75 ـ 77، 118 ـ 120. وتعبير «الجزائر للجزائريين» استعمله عربان عنواناً لأحد كتبه الذي نشره تحت اسم مستعار، وهو جورج فوازان.

(2) ايكزافييه ياكانو «الجزائر منذ 1830» في العدد الخاص من المجلة الإفريقية، 1956، ص 178.

دخيلاً على المجتمع الفرنسي المؤمن ببياض البشرة والتفوق العرقي والحضاري. أما عدم الشرعية في الميلاد فلعلها لم تكن على درجة كبيرة من الأهمية في ذلك المجتمع الذي هزته الثورة وقضت فيه على مقاييس النبل والأصالة. وقد درس إسماعيل في أحد ليسيات فرنسا، ولم يرجع إلى كايان إلاّ مرة واحدة بعد إنهاء الدراسة الثانوية. ومنذ العشرين من عمره اعتنق إسماعيل مبدأ السانسيمونية وتأثر بالحركة الرومانتيكية التي كانت تسيطر على الرأي العام الفرنسي.

وفي سنة 1833 رافق أونفنتان إلى مصر لإقامة التجارب التشاركية التي يؤمن بها السانسيمونيون في المجتمعات المتخلفة. وقد تعرف على بعض الأصدقاء في مصر التي كان النفوذ الفرنسي فيها قوياً أيام حكم محمد علي. واكتشف الإسلام هناك واعتنقه. وكان يؤمن ربما بأن السانسيمونية ستحقق له الربط بين الغرب والشرق، وأنها ستؤدي إلى التوفيق بين المسيحية والإسلام. ولما فشلت مهمة أونفنتان في مصر رجع «الجماعة» كل إلى ميدانه، فتوجه أصدقاء عربان إلى الجزائر ليحققوا فيها عن طريق الجيش الفرنسي ما عجزوا عن تحقيقه في مصر، لأن الجيش كان أداة هدم، وهم سيكونون أدوات بناء، في نظر «أبيهم» أونفنتان. أما عربان فقد بقي رجلاً بسيطاً «محقوراً»، ومجرد مترجم عسكري بسيط. وتولى الكتابة لعدد من الجنرالات الذين وعدوه بالترقيات والمناصب العليا، ولكنهم لم يوفوا. وكان صاحب قلم سيال وأفكار واضحة، شارك بها في الصحف والتحقيقات التي أجراها، في الواحات والتيطري وقسنطينة. فكان الجنرالات وغيرهم (دوماس، الدوق دومال، بيدو) يوقعون على ما يكتبه عربان وينسبونه لأنفسهم.

كان إسماعيل عربان ربما هو أقرب الفرنسيين إلى المجتمع الجزائري. فهو بحكم اعتناقه للإسلام ومعرفته اللغة العربية، قد جعل نفسه واحداً من هذا المجتمع يحس بإحساسه ويفهم تقاليده، وهو من جهة أخرى سانسيموني، يؤمن بترقية المجتمع الأهلي وإخراجه من التخلف مع المحافظة على بعض قيمه في وجه الغزو الذي يتعرض له. وفي سنة 1840 تزوج عربان من امرأة عربية من قسنطينة اسمها (جرمونة) وعاش معها فترة طويلة في

الجزائر العاصمة وأنجب منها بنتاً سماها (باية). وكان زواجه على يد القاضي المسلم، وعاش حياته مسلم العقيدة عربي المظهر واللسان. وكان محل تقدير الجزائريين، كما كان رؤساؤه الفرنسيون يحترمونه ويحتاجونه، ولكن بعضهم كانوا يسيئون إليه ويحتقرونه لاعتناقه الإسلام ولزواجه من عربية، ولون بشرته وميلاده غير الشرعي. ويبدو أنه ظل على إسلامه إلى أن أراد الزواج من امرأة فرنسية فكان عليه أن يعود إلى المسيحية ويتزوجها، وكان عمره إذاك خمسة وخمسين سنة. وقيل إنه أدخل ابنته في المسيحية أيضاً[1].

شارك إسماعيل عربان في مختلف أوجه الحياة بالجزائر وفي فرنسا. وبالإضافة إلى الكتابات والترجمة. فإنه منذ 1841 عينوه مديراً للشؤون الجزائرية في باريس، ثم اشترك سنوات 1842 ـ 1845 في الحملات القامعة للمقاومة، ثم كلفوه بالشؤون العربية بوزارة الحربية سنة 1845. ورغم ظهوره كليبرالي أثناء ثورة 1848 الفرنسية، فإن بعض رؤسائه عاقه عن الترقي وتحقيق طموحه. وفي سنة 1858 عينوه في وظيف بسيط ـ رئيس مكتب ـ بوزارة الجزائر عند إنشائها في باريس لأول مرة، ثم أصبح مستشاراً ومقرراً في مجلس الدولة سنة 1860 وذلك هو أعلى منصب وصل إليه. وقد رافق الامبراطور في هذه السنة إلى الجزائر كمترجم. وكان هو صاحب الأفكار التي وردت في رسالة نابليون إلى الحاكم العام بيليسييه حول حكم الجزائر والعلاقة مع العرب، ثم رسالة نابليون إلى الحاكم العام ماكماهون بعد ذلك. ومن ثمة كان كل من يكره سياسة نابليون في الجزائر يصب جام غضبه على إسماعيل عربان، لأنهم لا يستطيعون مهاجمة الامبراطور مباشرة. ومن الذين هاجموا عربان بشدة د. وارنييه وكذلك بيليسييه وماكماهون، ولكنه كان لا يهاجم خصومه لأنه كان، كما يقول آخرون، معقداً من ميلاده ولونه، فكان يشعر بالوحدة وخيبة الأمل في طموحاته الشرعية. وقد توقع عربان ثورة

(1) آجرون (الجزائر الجزائرية من نابليون الثالث إلى ديغول)، باريس، 1982، ص 21.

العرب عند تغيير النظام سنة 1870 وخشي أن يتهمه خصومه بالتورط فيها فغادر الجزائر سنة 1871، وكان يمنّي نفسه بالرجوع إليها، وكان يتابع أخبارها عن طريق أصدقائه، ومنهم فيتال وديشتال، وقد برهنت الثورة المذكورة (ثورة 1871 وثورة 1881) على صدق تنبؤاته، وقد توفي في فرنسا وهو حزين، سنة 1884.

ويقول إيميل ماسكري ان عربان قد توفي في الوقت الذي أخذ فيه الفرنسيون يستيقظون على أخطائهم في الجزائر ويرجعون إلى آرائه في السياسة التي كانت على فرنسا أن تعمل بها تجاه الأهالي. فما هي أهم أفكار إسماعيل عربان؟ لقد حضر عربان وأصدقاؤه (السانسيمونيون) لمرسوم 1863 حول اعتراف الدولة بملكية الأرض الجماعية للقبائل العربية. وقد عارض الكولون ذلك وانضموا إلى المعارضة السياسية العامة للامبراطور نابليون (التي كان يمثلها الليبراليون والجمهوريون)، كما عارض بيليسييه ثم ماكماهون ذلك المرسوم. وأمام ذلك عاود نابليون الزيارة للجزائر (1865) وبقي بها مدة أطول من السابقة (حوالي خمسة أسابيع) واستمع إلى عربان وعلق على صدره وساماً، ولما رجع نابليون إلى فرنسا أرسل رسالته الشهيرة بعنوان (سياسة فرنسا في الجزائر) وكانت تتألف من ثمانية وثمانين (88) صفحة. ومن جهة أخرى سعى عربان إلى إطلاع نابليون على أثر المجاعة على الجزائريين لأن الحاكم العام ماكماهون حاول إخفاء ذلك الأثر، وهي المجاعة التي ذهب ضحيتها في بضعة أشهر (إبريل 1867 ـ إلى نهاية 1868) ثلاثمائة ألف نسمة على الأقل. أما المعارضة فقد حملت مسؤولية المجاعة لسياسة المملكة العربية التي اتبعها نابليون. وأعلنت (لجنة لوهون سنة 1868) التي جاءت لتحقق في أسباب المجاعة أن مسؤوليتها ترجع إلى الشيوعية العربية (أي الملكية الجماعية)، وطالبت بضرورة العمل بالملكية الفردية وتوسيع الاستعمار.

ومن جهة أخرى عارض عربان النظام المدني لأنه في نظره سيجعل من الكولون هم السادة والأهالي هم العبيد. وقد أيده في ذلك الجنرال هانوتو

وغيره من رجال المكاتب العربية. وكان يرى أن الفلاح الحقيقي هو الجزائري الذي يعرف قيمة الأرض وأن الأوروبي عليه أن يهتم بالصناعة ليحدث التوازن الحضاري بين الطرفين. ودعا إلى تعليم عربي ـ فرنسي يتناسب مع عقلية الجزائريين ويستجيب للحاجة المهنية، كما رأى أن على الأوروبيين أن يتعلموا عن الحضارة العربية. ودخل عربان الكفاح السياسي سنة 1868 بكتابه (الجزائر للجزائريين) الذي وقعه باسم جورج فوازان. وقد حذر فيه من سياسة ما سمي بالاستعمار الصغير، وهي التي تقوم على انتزاع الأرض من الجزائريين وتمليكها للكولون عن طريق حق الدولة في الأرض وتجميع الأهالي في «محتشدات».

ومن رأى عربان أن الدين الإسلامي دين متسامح جداً، وأن المسيحية هي التي جعلته ديناً مناضلاً من أجل البقاء. ورأى أن ما كان يسميه بعض الفرنسيين بالتعصب الإسلامي عند العرب ما هو إلا شكل من أشكال الوطنية Patriotisme[1]. ورفض عربان فكرة إدماج الأهالي في الحضارة الفرنسية، بل إنه كان يؤمن بفشل دمج الأعراق في بعضها، وكذلك دمج العادات والمذاهب الدينية. وكان يرى أن ما يمكن أن يأخذه العرب من الفرنسيين هو التنظيم الإداري الملائم للتطور الصناعي والتجاري الذي يفتقرون إليه. بالإضافة إلى تنظيم العدالة والتعليم العمومي، وإقامة بعض المؤسسات الخيرية. وبذلك يكون عربان قد دعا إلى تمهيد التقارب في المصالح المشتركة بين الجزائريين والفرنسيين. وكان قد تعاون مع أونفنتان نفسه في كتابه (استعمار الجزائر) الذي سبق ذكره، كان أونفنتان قد دعا إلى إقامة حكم فرنسي مباشر للقبائل العربية عن طريق العسكريين. وفي 1847 كتب عربان عن حكومة القبائل العربية وعن المسلمين والمسيحيين، ودعا إلى إبقاء السلطة في يد الرؤساء العرب التقليديين ولكن تحت رقابة المكاتب العربية ـ العسكرية.

---

(1) آجرون (الجزائر الجزائرية. . .)، ص 20.

وقال عربان على لسان الجزائري مخاطباً للفرنسيين: «إنكم تريدون مني أن أكون شبيهاً بكم، وتجعلونني أتنكر لذاتي بتنكري لآبائي. إنني لن أتبعكم في ذلك. لأنني أريد فقط أن أشابهكم كتابع وفي نفس الوقت أريد أن أبقى وفياً لذاتي». لذلك طالب عربان بأن تعمل فرنسا على تمدين الأهالي وذلك بحمايتهم والاحتفاظ لهم بأراضيهم مع تنمية غريزة الملكية الفردية عندهم. ووعد بأن الجزائري سيتطور وأنه سيأتي اليوم الذي يقبل فيه بالأفكار العلمانية والفردية. ومن أقواله في ذلك أنه لا يوجد ما يمنع من التفاهم بين الأهالي والفرنسيين، غير أنه ليس من حق أي شخص ان يقول إن قانوني السياسي وتنظيمي الاجتماعي وتقاليدي تمثل آخر تعبير للتقدم من أجل الإنسانية. ووقف ضد ما سمي «بالجزائر الافريقية» التي كان يحلم بها الكولون إذ كانوا يريدون إجبار الأهالي على ترك أرضهم للمهاجرين الفرنسيين والأوروبيين.

ولكن آراء عربان وكتاباته وجدت معارضة شديدة من الكولون ومن الحكام العامين في ذلك الوقت (1860ـ 1870)، وحتى من بعض زملائه السانسيمونيين وغيرهم من الكتاب والساسة. فهذا وارنييه كان يهاجمه بطريقة غير مباشرة وكان يصفه بالمرتد والملون، وبأنه يريد فرض أفكاره الضيقة رغم أنه شخص من الدرجة الثانية، ومن رأي وارنييه أن عدم اللجوء إلى الحشر والحشد للقبائل العربية سيؤدي إلى تكريس البربارية وتقلص الحضارة المسيحية وطرد الفرنسيين من البلاد، ونادى وارنييه بضرورة الاندماج الكلي للمؤسسات الجزائرية في المؤسسات المماثلة لها في فرنسا، كما دعا إلى ضرورة القضاء على الشريعة الإسلامية ونظام القضاء الإسلامي (المحاكم) وفرض التجنس بالقوة على العرب وفرنسة الأرض الأهلية لتصبح الجزائر مثل كورسيكا. وطالب بيليسيه (الحاكم العام) بإبعاد عربان من الجزائر وإعطائه وظيفة قنصل في بلد ما. ورأى بول بير P. Bert «إجبار هذا الشعب (الأهالي) على التفتت والتحلل الذاتي، وقال آخر يجب وضع الإنسان الأهلي بين اختيارين لا ثالث لهما: الاندماج أو الفناء. ولكن بعض الفرنسيين

اللاحقين تبينوا ريادة آراء عربان وتبين لهم صوابها ولكن بعد فوات الوقت، مثل ماسكري والمارشال ليوتي، والبان روزي، ولوروا بوليو. وفيكتور باروكان. وهناك آخرون ظلوا بالطبع مضادين لآرائه إلى آخر رمق[1].

ومنذ 1848 كتب فريدريك أنجلز عن الجزائر وهَزيمة الأمير عبد القادر وعن سجنه في فرنسا. وكان إنجلز يراسل جريدة (النجم الشمالي ـN. Star) الإنكليزية من باريس[2]. وقد حبذ القضاء على مقاومة الأمير لأن ذلك سيفسح المجال في نظره لتمدين الشعب الجزائري «البرباري». وكان ذلك في عام صدور البيان الشيوعي المشهور، وثورة 1848 الفرنسية والأوروبية، التي قامت بها التيارات اليسارية، كالاشتراكية والرومانتيكية والليبرالية في المجتمع الغربي.

وبعد حوالي عشر سنوات تبين إنجلز أن الفرنسيين لم يأتوا إلى الجزائر للتمدين وإنما للتخريب والتسلط. ووصف الفرنسيين بالغزاة الذين قاموا بحرب بربارية. وكتب مقالة بعد ثورة زواوة سنة 1857 وما تلاها من حرق المداشر (القرى) وتشريد السكان، في عهد المارشال راندون. وقد حكم أنجلز على الاستعمار الفرنسي بالفشل الذريع، رغم الإعلانات المتفائلة بنجاحه، ورغم ما تقوله الصحافة الفرنسية في الموضوع. وكان الرأي العام الفرنسي عندئذ مأخوذاً بحادثة الضابط (دوانو) رئيس المكتب العربي في تلمسان والفضيحة التي انجرت عن محاكمته والفساد المستشري في الإدارة الفرنسية في الجزائر. وقد رأى بعض الكتاب الفرنسيين المتأخرين. أن موقف إنجلز كان معادياً لهم، ولكنهم يذكرونه للأمانة والموضوعية[3].

(1) اعتمدنا في هذه الفقرة على دراسة آجرون (الجزائر الجزائرية. . .) مرجع سابق، ص 36ـ18. وبيلي، مرجع سابق، ص 120. والسجل (طابلو) سنة 1843 ـ 1844. وقد احتوى المرجع الأخير بحث عربان عن إقليم التيطري.

(2) انظر ترجمتنا لمقالته عن الأمير في كتابنا أبحاث وآراء، ج 1.

(3) بوسكي، ج.هـ. «ماركس وإنجلز» في مجلة الدراسات الإسلامية Studia Islamica، 30، 1969، ص 129. وقد نشر أنجلز مقالته في الأنسكلوبيدية الأمريكية الجديدة=

وقبل وفاته بحوالي سنة زار كارل ماركس الجزائر زيارة قصيرة. ولم تكن الزيارة للاطلاع على آثار الاستعمار أو إذا شئت آثار التمدين الفرنسي فيها، وإنما جاء للعلاج من مرضه ووحدته، بعد وفاة زوجـه وابنته. ولذلك خاب ظن كل من كان يرغب في حكم ماركس على الاستعمار عن كثب. فقد كانت الجزائر نموذجاً لتكالب رأس المال والاستغلال والاستيطان في ذلك الوقت، وكان الشعب الأهلي مسحوقاً لا حراك له ولا صوت. ومنذ وضع ماركس قدمه في مدينة الجزائر في 20 فبراير 1882 لم يغادرها وظل حبيس جدرانها، وزادته رداءة الطقس انحباساً في مكانه. ونزل في فندق الشرق ثم تحول منه إلى فندق فيكتوريا العائلي (بنسيون). وكان قد جاء من مرسيليا على ظهر باخرة اسمها (سعيد). ووجد بريده عند صديق له يدعى فيرمي Ferme، وكان فيرمي ممن شملهم النفي من فرنسا باعتباره من المعارضة، وقد أصبح قاضياً في إحدى المحاكم المدنية بالجزائر. وهو الذي قدم لماركس تفاصيل عن الاستعمار الفرنسي. يقول عنها بوسكي إنها تفاصيل غير باهرة.

ولم نعرف عن هذه التفاصيل السوداء من مقالة بوسكي إلا القليل جداً. فقد كتب عنها كارل ماركس إلى أنجلز، وأخبره أن الشرطة الفرنسية كانت تعذب الجزائريين لتحصل منهم على ما ترغب فيه من المعلومات. وكانت العدالة تغمض عينيها على أنها لا تعرف. وإذا ارتكب العرب بعض الجرائم في الدماء وعوقبوا عليها بالإعدام، فإن ذلك لا يكفي لإشباع حقد الكولون بل إنهم كانوا يشترطون ملاحقة آخرين يصل عددهم إلى حوالي ستة على الأقل من العرب الأبرياء، فيعاقبونهم بدورهم. حقيقة أن محاكم الاستئناف كانت تعارض ذلك، حسب رواية ماركس، ولكن القضاة في المناطق النائية خاضعون لضغوط قوية جداً. ومع ذلك حكم ماركس بأن الإنكليز والهولنديين قد فاقوا الفرنسيين في الجبروت والقسوة الدموية.

= N.A. Encyclopedia، 1857.

وعالج ماركس صحته في الجزائر حيث بقي عندالدكتور ستيفان إلى الثاني من شهر مايو 1882. ولكن الطقس كان رديئاً معظم الرحلة. وعندما رجع إلى مرسيليا وجد الأمطار أيضاً تتهاطل وكذلك كان الحال في نيس. ونعرف من أخباره أنه كان يكره اللغات السامية. ولذلك لم يتعلم العربية عندما عزم على تعلم اللغات الشرقية وأخذ بدلها اللغة الفارسية، ولكن حروفها العربية عقّدته فاكتفى بلعنها[1]. ولا ندري كيف يؤمن كارل ماركس بالعنصرية في اللغات ويعمل على أن يكون فكره غير عنصري على المستوى العالمي، وهو الذي قيل عنه إنه من أصل يهودي - سامي!

ومهما كان الأمر فإن الذين درسوا رحلة ماركس إلى الجزائر أخبرونا أنه اكتفى بالحديث عن المناظر الطبيعية الجميلة، ولم يتعرض إلى حياة الجزائريين، وعلاقتهم بالأوروبيين ومستوى ما وصلت إليه «الرسالة التمدينية» الفرنسية هناك. ويبدو أنه رجع من الجزائر كما جاءها جاهلاً عنها كل شيء عدا المناظر الخلابة وما حدثه به القاضي فيرمي عن قانون الأهالي ووحشية الأحكام القضائية وتعذيب الجزائريين على أيدي الشرطة وشهوة الانتقام عند الكولون[2].

وفي هذه الأثناء كان صوت الاشتراكيين الفرنسيين يمثله جان جوريس.

---

(1) بوسكي، «ماركس وأنجلز»، مرجع سابق، ص 128 - 130. وقد اطلعنا على مقالة أنجلز في (الموسوعة الأمريكية الجديدة) فإذا بها شديدة اللهجة ضد وحشية الاستعمار الفرنسي في معاملة السكان، وقد حكم أنجلز بفشل سياسة الاستعمار العسكري والمدني، وسخر من وسائل الحضارة الفرنسية. انظر صفحات 343 - 351.

(2) لا شك أن ماركس كان قد اطلع على ما كتبه أنجلز سنة 1857 في الموسوعة الأمريكية الجديدة، حول القضاء والاستعمار وفشل المهمة الحضارية الفرنسية، ووحشية الغزوات التي كان يشنها الجيش الفرنسي - مائة ألف جندي عندئذ - وقد سمى ماركس الجزائر «المدرسة الحربية للجنرالات الفرنسيين» حيث يتدربون ويتربون على هذه الأعمال الشنيعة.

وليس من غرضنا تتبع حياته وإنجازاته، وإنما الإشارة إلى أنه كان من أوائل المنادين بمنح التمثيل النيابي للجزائريين في البرلمان الفرنسي لكي يُسمعوا صوتهم ويعرف النواب حقيقة ما يجري في الجزائر. ولم يكن جوريس وحده في ذلك ولا كان هو الأول. فقد كان هناك تيار اشتراكي كامل مثله هو وغيره[1]. ولكن الاشتراكيين الفرنسيين تخلوا عن رسالتهم وساندوا الحرب العالمية وأيدوا استغلال الشعوب والاستعمار، وهم في أوروبا غيرهم في الجزائر والمستعمرات، وفي المبادىء غيرهم في التطبيق. فكانوا وبالاً على الشعب الجزائري، ولا سيما منذ انفصالهم عن الشيوعيين غداة الحرب العالمية الأولى. وقد كان منهم موريس فيوليت، صاحب المشروع الاندماجي الخطير بين الحربين، ثم منهم قي موليه ولاكوست وميتران، زعماء حرب إبادة الجزائر «الذين آلوا على أنفسهم أن يحتفظوا بالجزائر الفرنسية» إلى الأبد.

ولم يختلف عنهم زملاؤهم الشيوعيون كثيراً إلا في التفاصيل. فرغم أن هؤلاء تشجعوا بالثورة الروسية ومبادىء تقرير المصير، وتغيير وجه العالم بين الحربين، فإنهم ظلوا بصفة عامة مع الامبراطورية الفرنسية وضد استقلال الجزائر. وساهموا في إبقاء الجزائر ممزقة بالمفهوم الفرنسي - شعوباً وقبائل لتنافروا - وظلوا ينفون وجود «الأمة الجزائرية»، لأن ما عانته الجزائر من دعوات جهوية وصيحات باسم «الثقافات» المحلية إنما هو من نسيج هذه المدرسة الاستعمارية التي لم يتخل عنها الشيوعيون. وقد حاول هؤلاء دمج الجزائريين في التيار الشيوعي العالمي لا أن يعترفوا بحقهم في الحرية والاستقلال كشعب واحد له هوية خاصة، ورغم تعديل مواقفهم ومواقعهم بعد الحرب العالمية الثانية فإنهم ظلوا بعيدين عن المفهوم الوطني وانتماء الشعب الجزائري للحضارة العربية الإسلامية. ومع ذلك يجب القول إن المدرسة الشيوعية عموماً قد أخرجت عناصر جزائرية معادية للاستعمار،

---

(1) انظر عن ذلك بحث آجرون عن جان جوريس. وكان البان روزي من الذين اهتموا بقضية الجزائر ومعرفة آراء الأهالي.

وساهمت في تنوير الرأي العام وتجنيد الشباب ضد الاستغلال والامبريالية[1].

وقد أعجب عدد من الجزائريين بالفكر الاشتراكي كما أعجب بعضهم بالفكر الشيوعي. وإذا كان أنصار الفكر الثاني قد ظهروا في شخص وكتابات عمار أوزقان وبشير الحاج علي وغيرهما، فإننا لا نكاد نجد من رسخ الفكر الاشتراكي بمعناه الكلاسيكي. حقيقة أن هناك معجبين بفكرة المشاركة في الملكية ومحاربة الإفراط الطبقي، ولكن هذا لا يكاد يخرج عن موقف المعجبين بالعدالة الإسلامية وسماحة الإسلام. وكانت الاشتراكية الكلاسيكية ما تزال تعيش في النظريات، ولم يكن الجزائريون في أوائل هذا القرن يذكرون أن مدرسة أونفنتان هي التي شجعت على الاستعمار والحكم العسكري البغيض وإرساء قواعد التمدين الفرنسي. ومن هؤلاء المعجبين المبكرين نجد عمر راسم. فقد كتب معبراً عن ذلك في جريدته (ذو الفقار) سنة 1914. ولعله كان يتابع أفكار جان جوريس من الصحافة الفرنسية. وقد جعل عنوان مقالته (صيحة اجتماعية) مما يبرهن على أن نظرته للاشتراكية إنما كانت نظرة عدالة اجتماعية لإنصاف المحرومين من الظالمين، كما كان حال الجزائريين.

وفي نظر عمر راسم أن الاشتراكية قد أصبحت تهز العالم الأوروبي. فهي التي ترتعد منها أجسام أصحاب الثروة الطائلة هناك. ولا ندري لماذا خص أوروبا بالثراء بينما الكولون في الجزائر يشربون عرق مواطنيه وقد استثروا على حسابهم. فهل كان راسم فقط يتفادى المواجهة والرقابة حتى يمرر «صيحته» إلى هؤلاء المواطنين؟ وقد اعتبر راسم الاشتراكية حركة المستقبل للشعوب المتمدنة. وأين التمدن من الجزائر؟ ويقول إن الاشتراكية

---

(1) لقد كتب الكثير عن موقف الشيوعيين من الحركة الوطنية، كما كتبوا هم عن أنفسهم. انظر كتابنا الحركة الوطنية، ج 2، 3. ومن الذين كتبوا في الموضوع جاك جوركي، وعمار أوزقان ومحمد حربي، وآجرون وجوليان وستورا، وإيمانويل سيفان وهنري اليغ...

هي لغز التمدن، ومعجزة الأمم حين تصل إلى درجة عالية من الحضارة. وهو لغز عجز عن حله الفلاسفة وعلماء الاقتصاد السياسي. واعتبرها كذلك «حركة مباركة» كما اعتبر ألمانيا هي «مبعث الاشتراك» ومنها انطلقت إلى سائر الأمم (الأوروبية) حيث استفادت منها الطبقات العاملة، كما انتشرت في المدن الصناعية الآهلة بالعمال الذين اتخذوا من الاشتراكية مذهباً لهم في الحياة. وهو يسميها أحياناً «مذهب الاشتراك» الذي أنصف الفقراء والمحتاجين والعمال وحتى «عقلاء الأمم الأحرار»، لا سيما أولئك الذين كانوا يعملون على المساواة بين الناس. وربما يفهم البعض أن الاشتراكية كانت معادية للدين، فبادر عمر راسم إلى حديث شريف نسبه للرسول ﷺ، وهو حديث يذكّر بالمساواة أمام الله وبأن التفاضل عنده إنما هو بالعمل الصالح والنافع للناس وليس بالمال والثروة، ونصه «لا فضل لعجمي على عربي ولا عربي على عجمي إلا بالتقوى»[1].

وقد تبنى عدد من الجزائريين المذهب الاشتراكي والمذهب الشيوعي. واعتقد بعضهم أن هناك فرقاً بين الشيوعية والاشتراكية. وظهرت أول منظمة سياسية (النجم) داخل الحزب الشيوعي الفرنسي. وكان زعيمها هو الحاج علي عبد القادر. ورغم أن مصالي لم يكن شيوعياً فإن عدداً من أعضاء حزبه كانوا «اشتراكيين» بالمعنى الذي يقربهم من الشيوعية. وتبنى حزب الشعب المذهب الاشتراكي صراحة بينما كان يناصب الشيوعية العداء، وهو موقف لم يكن واضحاً منذ البداية. وظهر زعماء شيوعيون من أمثال علي بوقرط والعربي البوهالي وعمار أوزقان. ومن الكتاب أمثال البشير حاج علي وكاتب ياسين. وكان لجريدة(هيومانيتي) الفرنسية و (الصراع الطبقي)

---

(1) العدد الأول من جريدة (ذو الفقار)، 1914، نقلاً عن قنان (نصوص)، مرجع سابق، ص 294. انظر مقالة عبد الله ركيبي عن عمر راسم في (المجاهد الثقافي)، وعبد القادر جغلول «تكوين المثقفين» في (مظاهر الثقافة الجزائرية)، المركز الثقافي الجزائري، باريس، 1986 ص 81، نقلاً عن زهير احدادان من جريدة (ذو الفقار) العدد 2، 26 أكتوبر 1913. قارن تاريخ الجريدة بما جاء في قنان، المرجع السابق.

و (الجزائر الجمهورية) تأثير على شريحة من النشطين الجزائريين قبل الثورة. وكان الضغط الاستعماري قد جعل عدداً من العناصر «الوطنية» في حزب الشعب تنحاز أكثر فأكثر إلى المعسكر الاشتراكي الشيوعي. وقد ظهر ذلك جلياً في برنامج طرابلس 1962 وفي ميثاق الجزائر 1964، وفيما تلا ذلك من أوراق نظرية وممارسات عملية.

انتهى الجزء السادس
ويليه الجزء السابع

المحتوى

HISTOIRE CULTURELLE
DE
L'ALGÉRIE

PAR

Professeur Aboul Kacem Saadallah

Université d'Alger

Tome 6

1830 - 1954


Bibliotheca Alexandrina
06445203